

# التاريخ السري لإخلاء الجبلtram مصر

ألفه

مستر الفريد سكاون بلنت

وَأَجَبَهُ وَالْقَوْمُ مَا فِيهِ

الشيخ محمد عبده

تمهيد

عبد القادر حمزة

ذيل الكتاب يحتوي على :

- ١ - تاريخ عرابي بشاره وبعض حوادث سنة ١٨٨٢م بشاره أيضا .
- ٢ - وتقريرين عن بعض هذه الحوادث بشاره الشيخ محمد عبده .
- ٣ - وثقائير أخرى من جبرون نينه رفيعه عرابي ومن بعض المصريين الذين اشتكرنا في تلك الحوادث
- ٤ - وبرتالي الحزب الوطني وعظما بات من مستر فعدريستون .
- ٥ - والبرستور المصري سنة ١٨٨٢م



42 Opera Square • Cairo Tel: (202) 23960868

مكتبة الأديب

٤٢ ميدان الأوبرا • القاهرة • ت ٢٣٩٠٠٨٦٨

# السياح السرى

## لأجل لال انجمل لال مصر

الفهامة الفرد سكاون لبننت  
وراجه ووافق على ما في الشينج محم عبد

محمدي بقالم عبد القادر حمزة

ذيل الكتاب يحوي على تاريخ لمرابي بقلية وبعض جوارث ١٨٨٩  
بقلية ايضا. وتغير بين بعض من هذه الجوارث بقلية الشينج محم عبد.  
وتقارير اخرى من جون ندينه رفيق عربي ومن بعض المصيرين الذين  
اشتركوا في تلك الجوارث. وتاريخ الحزب الوطني وخطابات  
من ستر غلادستون. والديستور لالمصر ١٨٨٢

مكتبة الآداب

٤٧ ميدان الأوبرا - القاهرة ٢٩٠٠٨٦٨



الناشر

مكتبة الآداب  
علي حسن

### بطاقة فهرسة

فهرسة إنشاء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

بلت ، ألفريد سكاون.

التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر /

ألفه ألفريد سكاون بلت ؛

وأجمعه محمد عبده ؛ محمد عبد القادر حمزة .-

القاهرة : مكتبة الآداب ، ٢٠٠٨ .

٥٨٢ ص ٢٤١ سم .

تدمك ١ ٩٤٩ ٢٤١ ٩٧٧

١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - الاحتلال

البريطاني (١٨٨٢-١٩٥٦) .

أ - محمد عبده ، محمد عبده بن حسن خير الله ، ١٨٥٠ - ١٩٠٥ (مراجع)

ب - حمزة ، عبد القادر (تمهيد)

ج - العنوان

٩٦٢ ، ٠٤

مكتبة الآداب

علي حسن

١٢ ميدان آزادي - القاهرة

هاتف: ٠٦٨٠٠٠٠٠ - ٢٠٢٦

e-mail: adabook@hotmail.com

عنوان الكتاب: التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر

تأليف: مستر ألفريد سكاون ويده

رقم الإيداع: ١٤٤٢ لصقة ٨-٢٠

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 - 241 - 949 - ١

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على نبينا الكريم

تمهيد

## نحن وقار يخنا الحديث

كل مانعاه مصر الآن من جراء الاحتلال البريطاني، وكل مانعاه من في سبعة وأربعين عاما مضت، وكل مانعاه من الى أن تحصل على استقلالها التام، مرتبط بالحوادث التي كانت مصر مسرحا لها من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن احتل الانجليز القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢. وذلك أن هذه الحوادث كانت مقدمات أو عللا والحالة التي نحن فيها الآن نتائج لها أو معلولات، وقد كلن هذا داعيا لأن نعرف تلك الحوادث بعمق بحث ودراسة لتعرف كيف ومن أين ابتدأنا ولكننا مع الأسف لا نعرف منها الا صورة مبهمه يذهب مرور الأيام بها في أذهاننا من الابر. فليس فينا الآن من درسها ووضع فيها كتابا باللغة العربية مع أن الأوربيين وضعوا فيها عشرات من الكتب ذات القيمة الفرنسية والانجليزية والألمانية وإيطالية. وحتى هذه الكتب التي وضعها الأوربيون، والتي لا ريب في أن بعضا منها كتبه رجال اشركوا بأنفسهم في تلك الحوادث فكتابهم تعتبر مستندا يقابل بغيره من المستندات لاستخراج الحقائق التاريخية كما أن بعضا آخر كتبه رجال لم يشركوا بأنفسهم في الحوادث ولكنهم استطاعوا أن يصلوا الى المستندات الرسمية الخاصة بها في وزارات الدول فكتابهم تعتبر مستندا آخر، هذه الكتب لم ينقل منها الى اللغة العربية على ما نعلم الا كتاب وضعه اللورد كرومر بعد خروجه من مصر وكتاب آخر وضعه فستر تيودور ووثستين ونشرته في سنة ١٩٢٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر.



وقد يكون السبب في قلة اهتمامنا بدراسة تلك الحوادث وتعريب ما كتبه الاوربيون فيها ان اشخاصاً من الذين ساهموا فيها بتصويب كبير كانوا أحياء الى زمن قريب ، وبعض هؤلاء الاشخاص لم تكن لهم سلطة تخشى جانبها كمرابي ومحمود سامي ورياض ولكن شخصاً آخر هو الخديو توفيق باشا كانت له ولايته عباس باشا من بعده سلطة تخشى وهو محور دارت حوله الحوادث في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ فكان من الصعب على الباحث المصري أن يجتنبه أو يجتنب الحكم على مواقفه . وهو اذا كتب هذا الحكم إما أن يكتبه كما يوحى اليه ضميره وحينئذ قد يكون ضد توفيق باشا فيستهدف لفضب ذوى السلطة واما أن يكتبه مصوغاً بصيغة للدارة واذن يكون يحتمل غير برى . ويقعد قيمته .

وهذا الذي يقال في التأليف يقال في التعريب لأن كل الذين قرأوا المؤلفات الاوربية التي وضعت في هذا الموضوع يعلمون أن أصحاب هذه المؤلفات اختلفت آراؤهم في مواقف توفيق باشا فكان منهم من يبررها ومنهم من خطأها ولكنهم جميعاً لم تخل كتبهم عنه من غمز جارح . ولعل كتاب اللورد كرومر « مصر الحديثة » وكتاب اللورد ملتر « إنجلترا في مصر » هما وحدهما اللذان خلاوا من مثل هذا الغمز . ولكن هذا السبب ليس عذراً صحيحاً ، وهو ان صح لا يكون الا لوقت ، وفي رأبي ان هذا الوقت اقتضى وان الاوان قد آن لان يدرس الباحثون منا تلك الحوادث التي كانت مصدر مآلحن فيه الآن من المتاعب . ولهذا اخترت « للبلاغ » أن يهد سبيل هذا البحث بأن يعرب بعض المؤلفات الاوربية التي تعتبر مستندات فعرّب مترجموه كتاب « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر » :

Secret history of the english occupation of Egypt

ومؤلفه مستر ألفريد سكاون بلنت الذي شهد بنفسه حوادث سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكان فيها متصلاً بعراقي وجرى شطر كبير منها على يده . وكتاب « المسألة المصرية » — Question Egyptienne — ومؤلفه مسيو دي فريسييه الذي

كان رئيساً لوزارة فرنسا حينما ضرب الانجليز الاسكندرية واحتلوا القاهرة . وكتاب « النار والسيوف في السودان » Fire and Sword in the Sudan ومؤلفه سلاطين باشا الذي بقي في أسر المهدي الى أن أعيد فتح السودان في سنة ١٨٩٧ .

وقد نشرت هذه الكتب متوالية في «البلاغ» ورأيت اليوم أن أجمعها في كتاب  
يتيسر اقتناؤها وحفظها . وهذا كتاب «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر»  
ولها وسيلة الأخران .

\*\*\*

## مسترا. س. بلنت

نشأ مستر بلنت مؤلف «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر» في أسرة عريقة  
في الفنى والجاء وبدأ حياته السياسية وهو لا يزال قتيبا فعين في الثامنة عشرة من  
عمره ملحقا بالوكالة الانجليزية في أثينا ثم بقى يتنقل في المناصب بعد ذلك اثنتي عشرة  
سنة في الوكالات والسفارات الانجليزية في طول اوربا وعرضها الى أن اعتزل خدمة  
الحكومة في سنة ١٨٥٩ . وكان قد تزوج حفيدة الشاعر المعروف اللورد بيرون  
فشرع يطوف معها في البلاد الشرقية فطاف في تركيا سنة ١٨٧٣ وفي الجزائر  
سنة ١٨٧٤ وزار مصر أول مرة سنة ١٨٧٥ . وفي هذه الزيارات رأى الفلاحين وجال  
بينهم جولة أrote ما كانوا فيه من البؤس والبلاء <sup>(١)</sup> بسبب الديون التي كان الحادبو  
اسماعيل باشا قد أوقع البلاد فيها والضرائب الباهظة العديدة التي كانت تجبي منهم  
بالكرباج لسداد تلك الديون .

وغادر مستر بلنت القاهرة في ربيع سنة ١٨٧٦ فزار بلاد العرب وانشأ علاقات  
بينه وبين بعض القبائل فيها ثم عاد في السنة نفسها الى إنجلترا . وفي صيف سنة  
١٨٧٧ رجع يطوف في الشرق فزار حلب وانحدر في الفرات الى بغداد وعقد في  
رحلته هذه علاقات مودة مع القبائل التي مر بها في طريقه . وفي سنة ١٨٧٨ ذهب  
الى دمشق وعرف فيها السير ادوار ماليت وكان اذ ذاك سكرتيرا للسفارة الانجليزية  
في الاستانة وكان يطوف مثله في سوريا . والسير ماليت هذا هو الذي كان قنصلا  
عامنا لدولة في القاهرة في سني ١٨٨١ و ١٨٨٢ فهو الذي جرت علي يديه كل حادثة  
هابت السنتين في مصر .

ثم انتقل مستر بلنت الى نجد ثم الهند ثم كر راجعا الى عدن وفيها علم بمنزل

---

(١) صفحات ١٣ و ١٧ و ١٩ من كتابه هذا

الحديد اسماعيل في سنة ١٨٧٩ ثم واصل رحلته فصار الى السويس ومنها الى الاسكندرية  
ثم عاد الى بلاده

عاد وقد أخذت تساوره أفكار كثيرة عن الشرق والشرقيين وتعلكت فكرة  
استقلال العرب فصار يعمل لها ويحدث فيها رجال السياسة في بلاده . وكانت هذه  
الفكرة تبعث فيه الشوق الى الشرق كلما استقر في إنجلترا فلم يكده يستقر فيها عاما  
بعد رحلته تلك حتى أبحر في ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٠ الى مصر فلما وصل الى القاهرة  
عرف فيها بعض شبوخ الازهر وتلذذ لواحد منهم هو الشيخ محمد خليل كي يدرس  
عليه اللغة العربية واتصل بمريدي السيد جمال الدين الافغاني وزار الشيخ محمد عبده  
في حي الازهر يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ فالتقت بينهما من ذلك اليوم أو أواخر صداقة  
استمرت ربع قرن وذكر مستر بلنت هذا اليوم في كتابه فقال : « يجب ان أميزه  
على سائر الأيام لأنه فتح لي باب صداقة بقيت الآن ربع قرن مع رجل من أحسن  
وأحكم الرجال العظام » . وبعد أن أقام في القاهرة زمنا ذهب الى جدة فأقام فيها  
أياماً ثم عاد منها الى مصر فسوريا

وفي شتاء سنة ١٨٨١ أي في الوقت الذي كانت فيه نار الحركة العرابية قد  
اشتعلت عاد مستر بلنت الى مصر فالتقى بعراي وبكل مؤيديه من الضباط والنواب  
وبغيرهم من الوزراء ورجال السياسة المصريين . وكان السير مالت فنصلاً عاملاً بإنجلترا  
في القاهرة فلما عرف صداقته للعرايين طلب منه أن يفهمهم بان « مذكرة الدولتين (١) »  
لا ترمي الى سوء قبل مستر بلنت أن يقوم بهذه المهمة . وهو يقول انه أداها كلرها  
لأنه لم يكن مقتنعاً بما كان يحاول أن يفتح به غيره ويقول أيضاً انه لم ينجح في وساطته .  
واستمر يعاون « الحزب الوطني » الذي كان مؤلفاً اذ ذاك برئاسة عراي فشر  
برناجه في جريدة التيسم ثم لما رأى ان الحوادث أخذت في مصر دوراً خطيراً

---

(١) مذكرة فرنسا وإنجلترا للحديدو توفيق باشا في ٧ يناير سنة ١٨٨٢ وقد  
ارسلتها على اثر اجتماع مجلس النواب المصري وقالوا فيها انهما تؤيدان سلطة  
الحديد ولا تريان سلاماً لمصر الا بتأييد هذه السلطة . وكان الغرض منها تحدى  
مجلس النواب . وسيأتي الكلام عنها

وأن السير مالت يستخدم الكذب والنشوية في محاربة الوطنيين المصريين سافروا  
 فاجتروا ليطالع مستر غلادستون رئيس الحكومة البريطانية ورجال السياسة البريطانيين  
 والرأي العام البريطاني على الحقيقة وليحاول ردّهم عن سياسة العداء . وكان له  
 سكرتير شرقي اسمه صايونجى فأرسله الى مصر ليؤاخذ بأخبارها . فبقي بلنت بسى  
 في لندن فخطب مستر غلادستون ونشر كتابات كثيرة في الصحف البريطانية  
 وحامة في التيمس وكان مما نشرته له التيمس في يونيو سنة ١٨٨٢ خطابات حارب  
 فيها السياسة التي يجرى عليها السير مالت والسير أوكلند . كوفن (العضو الانجليزى  
 في المراقبة الثانية التي كانت مضرّة على مالية الحكومة المصرية اذ ذاك ) وفضح  
 ما تحتوى عليه هذه السياسة من تعمد النشوية وافتاد الجواسيس وذكّر أنها  
 استعانة به حينما كان يحسن الظن بهما فتوسط لهما عند الوطنيين المصريين غير مرة  
 ولكنه وقف بعد ذلك على دسائسها فاشتمأ واضطر ان يفصل منها . فما كادت  
 التيمس تظهر بهذه الخطابات حتى ثارت ضجة حولها في مجلس اللوردات في جلسة  
 ٢٣ يونيو<sup>(١)</sup> واضطر السير اوكلند وكوفن أن يصرح في اول يوليو بأنه لم يكاف  
 السير بلنت البتة « بمفاوضات رسمية » مع عرابي . وما كان بلنت يقول انه كلف  
 « بمفاوضات رسمية » وانما كان يقول انه توسط بنا . على طلب مالت وكوفن وسانلة  
 غير رسمية .

واستمر بلنت يجاهد فتارة يحيل اليه أنه ناجح وتارة يرى الفشل بارزا امام  
 عينيه الى أن ضربت الاسكندرية وانتهت معركة التل الكبير وسلم عرابي وزملاؤه  
 أنفسهم للجيش البريطانى فأخذ بهم بالدفاع عنهم أمام قضائهم وعين لهم محامين  
 بريطانيين على نفقته ونفقة جماعة من أصدقائه اكتتبوا لهذا الغرض . وبلغ مادفعه  
 للمحامين قريبا من ثلاثة آلاف جنيه .

#### (١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » —

La Situation Internationale de l'Egypte et du Soudan مؤلفه جول كوشيرى

Jules Cochery صفحة ١٤٦

وبعد بضع سنين أوى مستر بلنت الى مصر وأقام في ضيعة كانت له في المطرية  
— بضواحي القاهرة — اسمها « الشيخ عبيد » وكان جاره فيها الشيخ محمد عبده  
فأطلعه في سنة ١٩٠٤ على «سودات» التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر «فراجعها  
الشيخ وصحح ما رآه فيها مستحقاً للتصحيح .

وكان الشيخ محمد عبده يلح على مستر بلنت في طبع كتابه هذا بالانجليزية  
وكان ينوي أن ينقله هو الى العربية لولا ان المنية عاجله في سنة ١٩٠٥ . فلما توفي  
حزن عليه مستر بلنت حزن الصديق على الصديق ثم طبع كتابه بالانجليزية فبقى  
كذلك الى أن تولى قلم الترجمة في « البلاغ » نقله الى العربية .

وفي سنة ١٩١٠ عقد الحزب الوطني المصري تحت رئاسة محمد فريد بك مؤتمراً  
في بروكسل للاحتجاج على الاحتلال وكان مستر بلنت قد انتقل الى إنجلترا فأرسل  
اليه في ١٣ سبتمبر خطاباً أتى فيه بأشد الاوم على بقاء الاحتلال وعلى السياسة التي  
تتبعها إنجلترا في مصر وحذر المصريين من هذه السياسة فقال كلمات نقلها هنا  
لأنها تشهد له بالصراحة والاخلاص .

قال مخاطباً المصريين <sup>(١)</sup> : «احذروا منا فإنا لا نريد لكم شيئاً من الخير . إن تناولوا  
منا الدستور ولا حرية الصحافة ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية . وما دنا في  
مصر فالغرض الذي نسعي اليه من البقاء فيها هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية  
في منشتر ، وأن نستخدم أموالكم لتسمية مملكتنا الافريقية في السودان » .

ثم قال : « لم يبق لكم غدر اذا أنتم اتخذتم في نيائنا بعد أن وضع الأرم فيها  
وضوحاً تاماً . فاحذروا أن تنساقوا الى الرضى باستعباد بلادكم ودمارها »

ثم أخذ ينصح لوطنين المصريين فقال : « ثابروا على أن تعارضونا معارضة  
جهرية جريئة كل يوم . اطلبوا لبلان واحد وفي كل فرصة أن يوضع حد لما تتألمون  
منه وأن تعودن نحن الى حظيرة القانون وأن نسحب جنودنا من بلادكم وأن نكف  
عن التدخل في شؤونكم : اطلبوا ذلك فانكم بطلبه لا تخسرون شيئاً اذ نحن غربا

---

(١) مجموعة المؤتمر الوطني للمصري Congress National Eg. صفحة ٨٧ وصفحة

عنكم ومن حقكم أن تطالبونا بترككم. ذكرونا دائماً، وبكل وسائل الاعلان،  
بلاحق لانجلترا في أن تصرف عندكم تصرف السيد وانكم لا تريدوننا حامين لكم  
ولا مستشارين ولا منظمين لاداراتكم. ولا تركوا لنا علداً نعتذر به لتدعي  
لاصنا شيئاً من ذلك.

« أظهروا معاداتكم لنا بصراحة، ولكن لا تظهروها بوارت ساقية اللأوان  
لا تهيدكم شيئاً، بل بتلك الوسائل التي تستطيعها كل الشعوب التي تمني بالاجنبي  
ثبت له استيادها وهي مقاطعة في معاملاته التجارية والسمية وفي علاقات الافراد  
معهم بعض

« لديكم جالية أجنبية كبيرة غير انجليزية فوثقوا روابطكم بها واجتهدوا في  
أن تقضوا أشغالكم معها بدل أن تقضوها معنا

« سلموا كل الناس والسكن لا تحاولوا أن تسالوننا لان كل محاولة من هذا النوع  
معنا تذهب عبثاً ولأن كل نداء توجهونه الى شعور العدل فينا وشعور الشرف  
والانسانية يكون بعد اليوم موجبا لسخرية وليس له عندنا غير جواب واحد هو  
الاحتقار.

« لا. لم يبق لكم الا وسيلة واحدة لاقناعنا وهي أن تثبتوا لنا أن احتلالنا  
بلادكم مصدر تمب لنا بنود دائماً ومصدر خطر عظيم علينا اذا شئت المغرب. أقنعونا  
بذلك إذ في اليوم الذي يفهم فيه ذهن جمهورنا الثقيل أن الفائدة من احتلال بلادكم  
لا توازي المتاعب والاحطار التي يسببها لنا، نرى انكم محقون ونترك بلادكم. وتقوا  
بأننا لن نترك بلادكم قبل ذلك بلحظة واحدة »

تلك هي نصائحه التي وجهها الى الوطنيين المصريين ولا ريب في ان الانجليز  
الذين يقولون مثلها قليلون

وقد تردد ذكر متر بلنت في أكثر الكتب التي ألفت للآن عن حوادث  
سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢، قال عنه جول كوشيري صاحب كتاب «الحالة الدولية لمصر  
والسودان» (١) ان مساعيه وكتابه والانتقادات الحارة التي وجهها الي انجلترا

دلت على أنه من أولئك الانجليز الذين يحرمون العالم وفي رأسهم فكرة أو قضية يبادون بها ويدافعون عنها بكل ما في الخلق الانجليزى من الصلابة وما في الايمان من العقيدة المقدسة. وروى أشيل بيوفيس Achille Bievès في كتابه «العربيون والانجليز في مصر» (١) انه لما حصل مستر بلنت من العرايين على برنامج الخبز الوطنى وراحه مع الشيخ محمد عبده علم ببحره السير ماليت فرغب الى مستر بلنت في تعديل بعض فقراته قل بشره في التيسر فلم يتمكن من ذلك إلا بعد عدة أيام كان فيها مستر بلنت سفيراً بيه وبين العرايين وحشد كسالى السير ماليت الى لندن يثي على مستر بلنت ويقول انه «مدبر له بكثير من الفضل وانه قد يعتمد عليه في المستقبل في مهام جديدة» (٢). وقال اللورد ملتر ان مستر بلنت كان في مصر الاوقات ينزل في فندق شرد فكل كلما ذهب الى المحطة للسير أو جاء منها ركب جلا. وقال غيرهم أشياء أخرى لا محل للامانة فيها ونوى مستر بلنت في عام ١٩٢٤ بعد أن طبع مذكرات له في ثلاثة مجلدات ضخمة فيها حزمه عبر قليل عن حوادث مصر قبل الاحتلال بعده. وقد نشر «البلاغ» تعريب هذا الحزم وربما جمع في كتاب على حدة.

•••

## عهد اسماعيل باشا

### نظرة سريعة

ليس كتاب «التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر» تاريخاً بالمعنى المعروف من كلمة «التاريخ» وإنما هو قصة شخصية قص صاحبها رحلاته في سوريا والعراق والمند ونجد وحده ومصر، ثم اذ استقر في القاهرة في آخر سنة ١٨٨١ قص الحوادث التي حرت على يديه فيها، ثم اذ غادرها بعد ذلك الى لندن قص صاعيه السياسة فيها من جانب والاخبار التي كان سكرتيره صابونجي يرسلها اليه من مصر

(١) Français et Anglais en Egypte صفحة ٤٣

(٢) الواقع ان السير ماليت كتب تلغرافين بهذه الالفاظ الى اللورد جرشيل الذي سار، اذ ذلك وزيراً لخارجية انجلترا في ٢٦ و ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

من جانب آخر . فهو لم يكتب كتابه هذا ليحفظه تاريخا ككل التواريخ وإنما كتب  
 يكون قصة الحوادث وأما بعينه وكن له ضلع فيها . ولا مثال هذه القصص التي يرويها  
 شهود الرؤية قيمة كبيرة في تحديد الحقائق وتسجيلها في صفحات التاريخ ولكنها  
 يست التاريخ في ذاته ولهذا رأينا أن نضع أمام نظر القارىء ، قبل أن يقرأ القصة  
 موجزاً سريعاً للحوادث من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن دخل الإنجليز القاهرة  
 كي تكون هذه الحوادث ماثلة في ذهنه أثناء قراءته القصة .

### مأساة القرد

لا يسع كل من يقرأ تاريخ مصر من عهد اسماعيل باشا الى اليوم الا أن يحكم  
 من هذا العهد كل بد ، السكيات التي نالت على هذه البلاد بعد ذلك حتى رمت بها  
 بين برائن الاحتلال . فان قصة الديون التي اندفع فيها اسماعيل باشا بطيش لاشيل  
 له كانت مأساة قتلت البلاد من الرخا ، وراحة البال الى الحراب ثم الى الوقوع في  
 شاك الفوذ الاحي ثم الى الثورة ثم الاحتلال . ومهما بقل القائلون في الاصلاحات  
 حتى أنشأها اسماعيل باشا فان مأساة ديونه تذهب بكل لانها باقياها البلاد في الحراب  
 قصت على جميع الاصلاحات ثم لانها زادت بعد ذلك فقصت على استقلال البلاد .

وقد وصف القرد ملتر <sup>(١)</sup> لهمايل باشا فقال انه « لائل الكامل للتذير ،  
 وأعظم من عرف في التاريخ بالسفه مع عنم الاكتواث بالعواقب » ثم قال انه « لم  
 تكن له مبادي ، يصدر عنها بل كانت له أعمال جنوبية تمتاز بانها نشبه في ضخامتها  
 ضخامة الاهرامات أو معبد الكرنك » . ثم استمر فقال ان « الاستبداد كان خلقا  
 فيه ولكنه مع ذلك نزل حتى صار مستعظماً وأسيراً » . تلك هي الاوصاف التي  
 وصفها به القرد ملتر ، والقرد ملتر سياسي انجليزى يعرف أن ديون اسماعيل كانت  
 أول عامل في الحوادث التي استغلها انجليز حتى وضعت يدها على مصر فليس من  
 السهل ان ينهم بالسكرامية له والحقد عليه .

وغر الآن مرور السهم بقصة هذه الديون فنقول انه لما تولى اسماعيل العرش في



سنة ١٨٦٣ كان كل الدين الذي على مصر ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه انجليزي<sup>(١)</sup> وكانت ضريبة العدان ٤٠ قرشا وكانت الملاك ودحا. ظاهر فشرع بنى القصور وقيم المملات وينشى. المشروعات الصحفه تغير نوبه ولا حساب كما كانت كل فكرته أن يعلن عن نفسه لا أن يصلح<sup>(٢)</sup>. فاشأ طرقا وهادلا وورثه وصاعات كانت كلها ضخمه ولكها لم تكند توحده حتي أهملت وصار كثير منها مأوى للوحوش<sup>(٣)</sup>. واندفع في حسب الظهور فادهش ملوك أوروبا بما كانوا يسمونه كراما شرفا ومامو الا لاسراف القاتل. وقد بقيت حفلاته التي أقامها للملك أوروبا وملكانه. وأمراتها وأميراتها في فتح قناة السويس مثلا يتحدث به الأوروبيون الى اليوم في كل ما يكتبونه عنه. وكان يدهيا أن ميراية مصر لا تتحمل هذه النفقات فكل من الضروري لاسماعيل أن يستدين فاندفع بما فيه من عدم المبالاة بالمواهب فارال حتى قهي على نفسه وعلى مصر معه

بدأ فقد أول قرص في سنة ١٨٦٤ بمائة ٧ في المئة عبر الاستهلاك. وعقد في سنة ١٨٦٥ قرضا ثانيا. ثم مصت سنة ١٨٦٦ غير أن يعقد قرضا ولكن لما حانت سنة ١٨٦٧ حدث به الحاجة الى فرض ثالث وكان قد برع في التمهيد للاقتراض وفي التطاهر بالدخ استعجلا لارباب الاموال فجعل لمصر جاسا في معرض عام ففتح في تلك السنة في باريس ثم حا. نفسه اليه وأحد يظهر

(١) يقول مسيو دي فريسيزه في كتابه « المسألة المصرية » ان اسماعيل باشا لما تولى العرش اصدر بيانا بالدين الذي تركه سلفه سعيد باشا ادخل فيه ثمن الـ ١٧٦ الف سهم التي كانت حصه مصر في شركة قناة السويس والتي كانت على مصر ان تدفع قيمتها ، فكان هذا البيان ٣٦٧ مليون فرنك اي نحو ١٤ مليون جنيه ونصف مليون. وكان ثمن الاسهم مقدرا في هذا المجموع بمبلغ ٨٨ مليون فرنك وهو لا يصح ان يعتبر ديناً.

على اننا لم نجد لهذا التقدير الذي اصدره اسماعيل باشا مسندا صحيحا ووجدنا كل مصادر التاريخ تقول ان دين مصر في ذلك الوقت لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين جنيه

(٢) انظر كتاب Croquis Egyptiens صحفة ٨٥ اولفه de Khonshy

(٣) انظر رسائل كتبها ادناك منام Lee Chaur تحت عنوان Impressions

de voyage

من ضروب الاسراف ما لفت اليه الانظار ، ولم يرح ماريس حتى عقد مع محل مالي  
بها قرضا ببلغ ٢٩٦ مليون فربك أى قريبا من ١٢ مليون جنيه<sup>(١)</sup>

وفي العام التالي ١٨٦٧ عقد قرضا راسعا فبلغ مجموع ما اقترضه ٢٥٠٠٠٠٠٠  
شراوح فائدتها الاسمية بين ٧ وفي السنة اسافا فائدها الحقيقية فنشراوح بين ١٢ و ٢٦ الى الك<sup>(٢)</sup> .  
وحينئذ تلت الحكومة العناية لما قد يكون من تأثير هذه الديون على مصر فخطرت  
على اسماعيل ان يستدين ، ولكنه بالرغم من هذا الخطر عقد في سنة ١٨٧٠ قرضا مع  
للك الفرنسي المصري ببلغ ١٧٥ مليون فربك ومعاودة ١٣ في المقرره وفيه بمصر  
أملاكه وأملأك أسرته . وهذا القرض هو الذي كان يسعى قرض الدائرة السنية .  
وحينئذ كتب الباب العالي الى الحكومة الانجليزية باعتار اسمها ممثلة لمعظم دائتي  
اسماعيل « يحتاج مقدما على كل اتفاق مالي بمصر دخل مصر بالذات او بالواسطة ولا  
يكون جلالة السلطان قد أقره »<sup>(٣)</sup>

وهل تظن ان شهوة الاقتراض في اسماعيل وقفت عنده هذا الحد أو أنه شعر  
بالملاوية التي تحفرها هذه القروض تحت اقدامه وأقدام مصر فكبح جماح نفسه ؟  
كلا ، ولم تزد الشهوة فيه الا استعكما ولم يبق له شاعل يشغله الا ابتكار الخيل  
لا اجتذاب المرائين وعقد القروض معهم . ولكن سنة ١٨٧٠ كانت سنة الحرب بين  
المانيا وفرنسا وكانت هذه الحرب قد أفضت أسواق أوروبا فإذا يفعل ؟ انه اذن  
يأجأ الى حيلة غريبة يفتري بها الاموال من كل ذى مال بين المصريين ، وهي ان  
يصدر ما سمي « قانون المقابلة » وفيه تمهد الحكومة لكل من يدفع مقدما ضرائب  
مست سنوات على أطيانه باعقائه من نصف الضرائب على هذه الاطيان الي الا بد .  
وبهذه الحيلة يحصل اسماعيل على خمسة ملايين حنيه ينفقها الى أن تفتح امامه أسواق  
المرائين في فرنسا وانجلترا .

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لسبودي قريشيه ص ١٤٨ و ١٤٩

(٢) تميز بمئة كيف صفحة ١ وسياق ذكره

(٣) الصحيفة البرلمانية البريطانية ( ١٠٠ ) ص ١٧٨٠ ( عن كتاب المسألة

المصرية لمستر جودور وتستين وتريب الاستاذين عبد الحميد البادي ومحمد دران )

وكانت ديون اسماعيل الى هذه الساعة شخصية تقع عنها على أملاكه وأملاك أسرته المرهونة ثم على دخل الحكومة في عهده بمقتضى ماله من سلطة التصرف في هذا الدخل ولكنها لا تقع على دخل الحكومة بعد عهده . وكان اسماعيل قد وضع يده بالسياب مختلفة على أطيان واسعة من أملاك الملاحين لأن المراكم ذكروه بأن جميع أطيان القطر المصري كانت ملكا لوالى في عهد جده محمد على باشا وأن سعيد باشا هو الذى خالف هذه القاعدة ونزل عن ملكيتها للأهالى . وكان قصد المراكم من ذلك أن يحصلوا على أعظم صان ممكن لأموالهم وأطاعهم . ولكن فاء الديون شخصية كان من شأنه أن يضع حدا للاقتراض فلما بلغ اسماعيل هذا الحد ورأى أن الباب العالى « ينتج مقدما على كل اتفاق مالى يسد دخل مصر بالدات اوبالواسطة » فكر في أن يزيل هذه العقبة من وجهه وإن يحصل من الباب العالى على السلطة التى تبيح له أن يرهن دخل الحكومة كي يحول ديونه الشخصية الى ديون على الحكومة وكى يتسح الحال امامه الى قروض جديدة . وفعل ما سعى له هذه الغاية في الاستانة وأرسل اليها نوبار باشا فما زال ينز فيها الذهب حتى حصل على فرمان سنة ١٨٧٣ وبه نال اسماعيل لقب « خديو » وحصل عرش مصر إرثا لاساته بعد أن كان للارشد في أسرة محمد على وحصل من حق اسماعيل أن « يتصرف التصرف التام المطلق في شؤون البلاد المالية » ، فحول كل ديونه السابقة الى ديون على الحكومة رهن فيها جزاء كبيراً من الدخل ثم شرع يترك أبواب المالىين فى انجلترا وفرنسا لتقرض لم يكن يرضيه في هذه المرة الا أن يكون ٨٠٠ مليون فرنك أى نحو ٣٧ مليون جنيه

ورهن اسماعيل في هذا القرض دخل السكك الحديدية ودخل ميناء الاسكندرية وكل دخل مرهون من قبل يصبح حراً بعد سداد ما عليه . وكان اسماعيل ونوبار قد بذلا كل الحيل وكل الجهود كي ينجح هذا القرض ولكن لما فتح الاكتتاب

فيه في باريس ولندن لم يقط خسرت أسهمه الربع من ثمنها في أيام قليلة أي حماية ملايين جنيه .

وحدات بعد ذلك سنة ١٨٧٤ وكان لاندلاسماعيل من أن يقترض لان الاقتراض صار عادة له سنوية ثم لان قروضه السانفة بلغت حداً صارت ايرادات الحكومة المصرية عاجزة معه عن أن تدفوا ثمنها السنوية فكان الاقتراض ضروريا لداد هذه الفوائد وإلا أفلس اسماعيل ولم يبق في استطاعته بعد ذلك أن يلعب بالاموال . ولما كانت تجربة القرض السابق قد دلت على أن أسواق أوروبا لم تعد تعطيه فوق ما اعطته ارتد الى الامة المصرية كما ارتد اليها في انشائه قانون المنافسة . فتدفع ماسماه « الرماية » وحمله نوعا من انواع صايدق الايداع وطلب من المصريين ان يودعوا فيه اموالهم ليأخذوا بدلا منها مرتبات دائمة تختلف باختلاف ما يودعه كل منهم على ان يكون كل مال يودع ملكا للحكومة من ساعة ايداعه لا يحق اصاحبه ان يسترده . فلم يقبل المصريون على هذا النوع من الايداع لانهم كانوا قد جربوا اسماعيل وعرفوا قيمة تعهداته فاستخدم سلطته في اكرامهم على الايداع حتى حصل بذلك على بضعة ملايين من الجنيهات . ثم لم يكن هذا فأصدر في الوقت نفسه سندات ، او بعبارة أخرى اوراقا مالية ، على الخزينة المصرية ثمانية ملايين جنيه بفائدة من ١٠ الى ١٥ في المئة واكره المصريين على ان يشتروها

وفي سنة ١٨٧٥ توقفت الحكومة التركية عن دفع ديونها وأعلن إفلاسها فأثر ذلك في أسهم القروض المصرية فانزعج اسماعيل اذ رأى انه صار من الافلاس قاب قوسين أو أدنى ، ولم يكن في استطاعته ان يقترض ولأنه يتزما لان المصريين بحيلة من الحيل يبحث في مخزائنه فوجد ان أسهم مصر في شركة قناة السويس وعددها ١٧٦ ر ٦٠٢ لا تزال باقية ففرض على الحكومة الفرنسية أن تشتريها بأربعة ملايين حيه فلم تعطه الجواب بسرعة ، ولكن الحكومة البريطانية علمت بهذا العرض فتقدمت له بالمال الذي يطلبه على تحيل فباعها الاسهم بواسطة بيت روتشيد في ٢٥ نوفمبر من

## تلك السنة (١)

والى ها ملقت ديون اسماعيل التمة ووقعت البلاد من جراتها على شاة  
المأونة . وقد حصرت هذه الديون سد ذلك بتليل اى حيا صدر « قانون التسمية »  
فكانت كما يأتي : —

الدين المتار	٢٢٦٨٩٨٠٠ جنيه انجليزى
الدين الموحد	« « ٥٨٦٠٤٠٣٢٦
قرض الدائرة السنية	« « ٩٦٥١٨٨٠٤
قرض القومين	« « ٨٦٥٠٠٠٠٠
المجموع	٩٨٦٧٤٨٩٣٠

فاذا نحن استعدنا من ذلك الثلاثة الملايين التى اقترضها سلفه سعيد باشا كان  
مجموع ما اقترضه اسماعيل من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٥ اى فى ثلاث عشرة سنة  
قريبا من ٩٦ مليوناً . وهذا عدا حصة ملايين اخذها فى « قانون المبالغة » وحصة  
ملايين اخرى اخذها فى « الرقابة » وثمانية ملايين اخذها فى السندات التى أصدرها  
على الخزينة وأربعة ملايين من أسهم شركة قناة السويس وملايين أخرى استولى عليها  
من كبار التجار وكبار المزارعين لم نحصر ولم ننفد فى حساب

(١) يؤخذ من كتاب وضعه مسيو شارل رو أحد النواب الفرنسيين تحت عنوان  
« برزخ وقناة السويس » — L'isthme et le Canal de Suez — فى سنة ١٩٠١ أن  
الحكومة البريطانية قبضت عن هذه الاسهم من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٩٤ قائدة  
قدرها ٥ ملايين فراك فى السنة أى ١٢٠ مليوناً . ثم قبضت من سنة ١٨٩٥ الى  
سنة ١٩٠٠ حصة كانت تتراوح كل سنة بين ١٧ و ١٦ مليوناً اى ٨٥ مليوناً . فيكون  
مجموع ما قبضته من الرخ لغاية سنة ١٩٠٠ — ٢٠٥ ملايين اى ضعف المئتين الذى  
اشترت به من اسماعيل . وهذا غير الرخ الذى قبضته من سنة ١٩٠٠ الى اليوم  
( وصفحة ٣٥ — جزء ثان من الكتاب المذكور )

اما نحن هذه الاسهم الان فيقرب من ٩٠٠ مليون فراك ذهباً

## في أعماق الزاوية

### ولادة حكومة جمع اسماعيل هذه الديون ؟

الحكومة مصر التي كل دخلها في عهد سعيد باشا لا يزيد على خمسة ملايين جنيه، وكان في عهد هو، بعد ان ريدت ضرائب الاطيان من ٤٠ الى ١٦٠ قرشاً وبعد ان أزهق أهلها عشرات من الضرائب، لا يزيد على تسعة ملايين ونصف مليون. وبأية فائدة كان اسماعيل يقترض هذه الديون ؟

بفائدة اسمية بين ٧ و١٢ و١٣ في المئة وفائدة حقيقية بين ١٣ و٢٦ في المئة كما ثبت ذلك سنر « كيب » الذي سيأتي ان الحكومة البريطانية أرسلته في ديسمبر سنة ١٨٧٥ ليفحص حالة المالية المصرية (١)

على ان مبالغ هذه الديون لم تصل كاملة الى يد اسماعيل بل كان مقرضوه من المراهين يكتسبون القرض كاملاً ثم يقدمون له حساباً طويلاً بالسمرة والفوائد التي يحجزونها مقدماً على أساس ٢٦ في المئة كي يكون الباقي منها ٧ في المئة كما هو مذكور في العقد ثم تغير ذلك من المصروفات والأتعاب والهبات « البقشيش ». وكان اسماعيل يقبل منهم هذه الحسابات بسهولة ولهذا دل التحقيق على انه لم يستلم من القرض كبير الذي عنده في سنة ١٨٧٣ بمبلغ ٣٢ مليون جنيه عبر ٢٠٠٠ ٧٠٠ ٢٠٠ جنيه (٢) ولم يستلم من القرض الذي عنده في سنة ١٨٧٠ بمبلغ ٧ ملايين حيه غير ٥ ملايين ثم لما احتج الداب العالي على ذلك وشا اسماعيل الصدر الاعظم فأسدل الستار وعاد كل شيء الى السكوت (٣). وأخيراً ان كل الذين لحصوا مالية مصر في تلك الاوقات

---

(١) صفحة ٧ من تقرير كيب

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » الذي تقدم ذكره ص ٧٠

(٣) كتاب Croquis Egyptiens الذي تقدم ذكره ص ٩٥ - وكتاب « الحالة

الدولية لمصر والسودان » ص ٧٠

يجمعون على أن اسماعيل لم يستلم سوى ما يقرب من ٥٤ مليون جنيه من كل اقروض  
التي عقدتها والتي تقدم اليها بلغت حوالي ٩٦ مليوناً (١)

ونظر كيف كان تأثير هذه الديون في ميزانية الحكومة . حصرت الميزانية في  
سنة ١٨٧٧ وكان مجموع الإيرادات ٩٥٤٣٠٠٠ جنيه ثم كان ما حصر من مبالغ الديون  
بين فوائد واستهلاك ٧٤٧٣٠٠٠ ر ٧٤٧٣٠٠٠ جنيه يضاف اليها الوركو المحصص للباب العالي  
وما كان على الحكومة أن تدفعه لشركة قناة السويس في تلك السنة يكون الباقي من  
الإيرادات ١٠٧٠٠٠ ر ١٠٧٠٠٠ جنيه . فهذا المليون الواحد والسبعين ألفاً كان على الحكومة  
أن تدفع على جميع شئون البلاد : على موظفيها وعلى الجيش والبوليس والري والاعمال  
والحاكم والصحة العمومية وغير ذلك من كل ما يجب أن تقوم به الحكومة

ولم تكن مصروفات الحكومة في ذلك الوقت عادية بل كان فيها عصر مجف  
هو المصروفات المحصصة للموظفين الاحاب والتعويضات الفاحشة التي كانت تدفع  
في كل وقت للأفاقين من الاجانب . وذلك ان اسماعيل رغب منذ توليته العرش  
في ان يجعل مصر قطة من أوروبا ، وبما ان الفكرة كانت تتحول عنده بسرعة الى  
دعوة فإن أنه يستطيع ذلك بالكثير من الموظفين الادريين وبعاطيهم المرتبات  
الضخمة واعدائهم الهدايا والعم ليشوا عليه وعلى حكره . ثم لما وقع في الدين  
امهالت عليه من الدائنين ومن الحكومات الاجنبية سيول من مستعطي الوظائف فلم  
يجسر أن يرد أحداً ، حتى اذا جاءت سنة ١٨٧٧ التي مر ذكرها كانت مرتبات  
الموظفين الاجانب ٣٧٣٠٠٠ ر ٣٧٣٠٠٠ جنيه فاذا هي خصمت من المليون والسبعين ألفاً التي  
تقدم ذكرها لم يبق للحكومة ولجميع شئون البلاد غير ٧٠٠٠ ر ٧٠٠٠ جنيه .

اما التعويضات للأفاقين فان اكثر عشرين اسماعيل في السنين الاخيرة كانوا  
قوما كل مهم ان يستثيروا شهوات نفسه وان يقضوا هذه الشهوات ليقتنصوا  
من ورائها كل ما يمكن اقتناصه من المغانم . فقدمو له بطلبات امتيازات  
لانشاء معامل والبحث عن معادن ولجلب صناعات اوربية ولغير ذلك من الاعمال .  
ولم تكن طلباتهم هذه جديدة ولم يكن قصدهم منها ان يعملوا وانما كان كل قصدهم

(١) كتاب « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر » ص ١٩ من الترجمة

فقد حصلوا على الامتيازات ثم أن يعملوا بأية علة من الملل كي يلقوا مسئولية تسليم على الحكومة وكى يطالبوها بتعويض . وكان اسماعيل -هلا في دفع هذا التعويض حين كانت أبواب القروض لا تزال مفتوحة في وجهه وحين كانت يده تفتح هذه القروض بينما وشالا فكان ذلك يشجعهم ويجهلهم حوله جيشا حرا . ولكن لما سدت أبواب الاقتراض في وجهه لجأوا الى الحماكم المتخلطة معتمدين انها لا دأخذة باصرهم ضده . وكانت هذه الحماكم قد أنشئت في سنة ١٨٧٦ فأحصيت التعويضات المطلوبة من الحكومة المصرية أمامها في تلك السنة وحدها فكانت ٤٠ مليون جنيه <sup>(١)</sup> . وبروى في هذا ان اسماعيل استقبل ذات يوم واحدا من أولئك الأفاقيين أصحاب الامتيازات وكانت نافذة الفرقة مفتوحة فتنادى مولفنا من موطني قصره وقال له : « أعلق بالله هذه البادلة لئلا يصاب السيد ( مشيراً الى زائر ) ببرد فيكلفتى ذلك عشرة آلاف جنيه » <sup>(٢)</sup>

#### تأثير البربرية في حالة الشعب

وفي أثناء ذلك كانت حالة الشعب أسوأ حالات ، فضرائب الاطيان زادت كما قلنا من ٤٠ الى ١٦٠ قرشا والضرائب الأخرى لم تكن تعد لأن اسماعيل كان كلما وقع في الحاجة اقترح ضريبة جديدة وجمل الكرياج وسبكه الى تحصيلها . ثم لما ذكره المرابون كما تقدم بان جميع الاراضى كانت ملكا لوالى وأن جده محمد على بنى الى عدة سنوات صاحب الامتياز في تجارة مصر الخارجية عول على أحياء هذه الحقوق في شخصه <sup>(٣)</sup> فأخذ يرهق المزارعين حتى تصبح الاراضى عالة عليهم فيضطروا الى بيعها بأثمان بخسة او الى تركها والفرار منها فيضع يده عليها . وبهذه الطرق استولى على خمس الاراضى الزراعية في القطر ولما يمس على حكمه بضع

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » القدى تقدم ذكره صفحة ٧١

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٣) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر » صفحة ١٧ من الترجمة



سنتين<sup>(١)</sup> وحسب ان نقلها ما كنه مستر يلبث وصفا لحالة الملاحين وقد وآم  
اذ ذاك بعينه ، قال :

« كان من الامور المألوفة في تلك الايام ان يرى الانسان شخصا في الحقول  
وعلى رأسه عمامة او على ظهره شئ ، أكثر من قميص . وحتى في ضواحي القاهرة ،  
وبالاكثر في اليوم انتي بما يحورها شطرها بمجرد حصولها على الجمل ، يمكنتي  
ان اقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ انقري قليلون يملكون عبادة .  
وايضا ذهنا كانت الحال كذلك . وغصت مدن الارياف في ايام الاسواق بالنساء  
اللاتي اتبن لبيع ملابسهن وحلبن الفصية للرايين الاروام لان حامى الفرائب  
كانوا في قراهن والكرباج مشهر في ايدهن . فاشتا مصوغاتهن الزهيدة واصفينا الى  
قصصهن واشترى كما معن في استنزال القعدات على الحكومة التي حملن عرايا »

فهذا الوصف يدل علي مقدار ما وصل اليه سوء الحال في ذلك الوقت . وقد  
شكل هذا سوء جميع الطبقات وجميع الميئات ومن بينها هيئة الصايط في الجيش ،  
وكان أحمد عرابي أحد هؤلاء الضباط فأب جماعة من زعمائه عصية سرية خلعت  
اسماعيل<sup>(٢)</sup> ، ولكن هذه العصية لم تفعل شيئا . وكان السيد جمال الدين الانصاني  
اذ ذاك في مصر فاقترح علي الشيخ محمد عبده ، وكان أحد تلاميذه ، أن يقتل اسماعيل  
علي جسر قصر النيل<sup>(٣)</sup> وهذا ما يقوله الشيخ محمد عبده في ذلك : « كان الشيخ جمال  
الدين موافقا علي الخلع واقترح علي أنا أن اقتل اسماعيل وكان يمر في مركبته كل يوم  
علي جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما تنهاسه فيما بيننا . وكنت  
أنا موافقا الموافقة كلها علي قتل اسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه  
الحركة » .

---

(١) كتاب « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر » صفحة ١٧

(٢) انظر « تاريخ أحمد عرابي بقلمه » في ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٤٧

(٣) انظر المصدر السابق في الصفحة نفسها - وانظر ايضا « رأى الشيخ محمد  
عبده في تاريخ عرابي » المنشور في ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٥٤

## تجربته في مائة اليوم السياسية

هذا كان تأثير الديون في شؤون البلاد المادية فنظر بعد ذلك في تأثيرها في الشؤون السياسية وسفرى أنها كانت البلب الذي تسرب منه النفوذ الاحبي الى سلطة الحكومة المصرية ودخلت منه إنجلترا حتى وصعت يدها على مصر

عد أن اقبلت الاسواق المالية كلها في وجه اسماعيل في سنة ١٨٧٥ وبينما كان يسكر في بيع سهام مصر في قناة السويس كان يرى أن تمن هذه السهم لا يكفي وأن لا بد له من قروض جديدة ، غير أنه كان يعلم أن اسواق أوروبا لن تعود تفتح أبوابها له الا اذا قام لديها يرهان على أن مصر قادرة على الدفع وأن مالىتها تتحمل قروضا تغرى ، فهداه التفكير الى أن يكون هذا البرهان شهادة يأخذها من مندوب تتدبه لدى الحكومات لفحص حالة مصر المالية . ولم يكن أمامه لهذا الغرض غير احدي حكومتين هما إنجلترا وفرنسا لان ديونه كلها كانت في بلادهما ، ولكن فرنسا كانت لا تزال مرتبكة بعد حرب سنة ١٨٧٠ فلم تكن أسواقها مستعدة لان تعرضه فالتجه الى الحكومة البريطانية وخاطب قنصلها العام في مصر الخرنال استاتن في أنه « محتاج الى موظف عليم بالظلم التابعة في مائة الحكومة البريطانية ليعاون ناظر المالية المصرية على سد الخلل الذي يعترف به سموه في هذه النظارة »<sup>(١)</sup> وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت سليمة من كل تدخل للحكومات الاجنبية فكان هذا الطلب أول دعوة لانشاء هذا التدخل<sup>(٢)</sup>

وكتب الخرنال استاتن الى الورد دوبي وزير خارجية الحكومة البريطانية بما طلبه منه اسماعيل فاعز الورد بان يكون الطلب كتابية وأن يكون موضوعه « استعارة موظفين بشرقان على التدخل والخرج ويكونان خاضعين لارشاد ناظر المالية وأمره »

- 
- (١) كتاب « المسألة المصرية » لنيودور روستين ص ١٠ من الترجمة  
(٢) كان اسماعيل قد استعار قبل ذلك من الحكومة البريطانية موظفين هما مستر بيل ومسترا كتن للعمل في مصلحة التجارة ولكن طبيعة عملهما لم تكن تجعل لهما صفة سياسة فكانا كثيرهما من الموظفين الاجانب اما وجود مندوب من الحكومة البريطانية يعاون وزير المالية فهو امر لا تخفى صبغته السياسية

فرضي اسماعيل وكتب ما أملى عليه . وفي أثناء ذلك ، وقبل أن يجيب الورد دربي على هذا الطلب ، اشترت الحكومة البريطانية سهوم مصر في قناة السويس في ٢٥ نوفمبر ، وبعد هذا الشراء ، يوم واحد كتبت جريدة التيمس تقول : « ان الجمهور في هذا البلد وغيره سينظر الى هذا العمل الخطير الذي قامت به الحكومة الانجليزية من بواجبه السياسية لامن نواحيه التجارية . سيعده مظهرة وشيئاً أكثر من مظهرة . سيعده اعلاناً لنيانسا وشروعاً في العمل على تحقيقها . ان من المستحيل أن نفكر في شراء أسهم قناة السويس . معصلاً عن علاقة إنجلترا المستقلة بمصر » . وبعد ذلك يوم واحد أيضاً أي في ٢٧ نوفمبر كتب الورد دربي الى الخرنال اسنانين يقول رداً على طلب اسماعيل « ان الحكومة البريطانية ترى أن ترسل الى مصر بعثة خاصة تنظر هي والحدود فيما يساله من الصبح في الشؤون المالية » وبذلك حولت الحكومة البريطانية طلب اسماعيل موظفين الى « بعثة » وحملت مهمة هذه البعثة « النصح » ، والصبح في لغة السياسيين معناه الوصاية

وقبل اسماعيل رأى الحكومة البريطانية بحكم حاجته الى المال فتألفت البعثة من نخبة من موظفي الحكومة البريطانية تحت رئاسة مستر كيتف وقدمت الى مصر في النصف الثاني من ديسمبر وشرعت تفحص حالة المالية المصرية . وفي ٢٩ يناير سنة ١٨٧٩ كتبت جريدة التيمس تقول : « لاشئ . أضمن لسلامة مصر من القيام بتغيير أساسى في الحكومة المصرية وماليتها . ولا شك في أنه لو كانت الثقة بمصر فيما مضى أشد من الثقة بها اليوم لاستطاعت أن تتفق مع دائيتها على خير من الشروط التي اتفقت معهم عليها . فالمسألة اذن هي كيف تحوز مصر هذه الثقة ؟ الظاهر ان كل ما يقال في هذا الموضوع قائم على الاعتقاد بان الحدو سيخضع بطريقة من الطرق صاغراً للإرشاد الانجليزى وأنه سيعهد الى إنجلترا بإدارة مالية مصر ، وبذلك يتحول الى مصر بعض من ثقة الجمهور بإنجلترا فتتمكن من تحويل ديونها وانقاص أقساطها السنوية قصصاً كبيراً » . اذن كلن الانجليز يريدون من بعثة « كيف » أن تؤدي الى اخضاع اسماعيل للإرشاد الانجليزى ثم أن يتولوا ادارة المالية المصرية . وكان معلوم

في ذلك على ما يعرفونه في اسماعيل من الرغبة في قروض جديدة ثم على ما يعرفونه في حيله من الاشراف على الافلاس

وكلن اسماعيل حينما فكر في طلب مندوب من الحكومة البريطانية يعحص عليه ويعطيه شهادة عما يعتمد أولا على استطاعته خدع هذا المندوب واحياء الميوب عن عينيه وثانيا على مظاهر التودد والاكرام يحيط بها ومظاهر القتي والبذخ يتحضر بها أمامه . وهذا وذلك اعتقد اسماعيل انه مستطيع أن يأخذ من رتبة « كيف » تحريراً يرضيه فلا يكون عليه بعد ذلك الا ان ينشره لعمود الاسواق الماية فتفتح له أبواب الاتراض .

ولله لم يتساهل مع الحكومة البريطانية في تحويلها طلبه مسدودا الى بئس وفي حضاية هذه البئس « التصح » إلا توهامه انه بذلك يتدرجها الى معاونته عني قصده . ولكنه نسي في هذا الحساب أولا أن أكثر دائيه كانوا من الانجليز الذين تسأل الحكومة البريطانية عن رعاية مصالحهم وثانيا أن هذه الحكومة كانت ترى مصالحها في التجميل بخراجه وشهد الحاق عليه لأنها بذلك توفقه . في ليس ونستدله فتستطيع أن تسخره لتحقيق مطامعها السياسية . ولهذا لم تصح بئس « كيف » التقرير الذي كان اسماعيل يرجوه بل وضعت تقريرا لا يسره فلما رأى ذلك لسنا . ولم قبل البرنامج الذي اقترحه عليه والقى كلن مؤداه أن يخضع « التصح » « البريطاني » ، ولكنه مع ذلك لم يفلت من مخالب الحكومة البريطانية لأنه قبل أن يعمده بموظف من عندها هو السير رفرز ولسن يتخذ من مستشارا ماليا يعاون وزير المالية وكانت الحكومة الفرنسية تراقب من قرب مساعي الحكومة البريطانية في مصر فما علمت أنها سترسل السير رفرز ولسن مستشارا ماليا لاسماعيل رأته أن تعجب على هذه الحركة بحركة مثلها فأرسلت علي الفور أحد موظفيها ، وهو مسيو فيليه ، ليساعد اسماعيل على تنظيم ماله . فتضايقت الحكومة البريطانية من هذه المقاومة وأرسل الورد دربي الى اسماعيل يطلب منه ألا يتسرع في اتخاذ أي قرار وأن ينتظر وصول السير ولسن

ووصل السير ولسن فرأى أن مسيو فيليه عرض على اسماعيل مشروعا لتنظيم

المالية المصرية ( ليس هنا مكان يانه لانا تقتصر في مآكنته على الوجهة السياسية ) فلم يقبله ولم يقبله معه حكومته ، ولكن اسماعيل قبله وأظهر الرغبة في الاحد به ، فلم يكن من الحكومة البريطانية الا أن أحابت على ذلك بأن صرت اسماعيل ضربه أليمة كانت صدا في المعجل غمراه . وذلك أنها كانت قد اتفقت معه على عدم نشر التقرير الذي وضعته بعثة « كيف » فلما رآته ميالا للاحد ، شروع ميوفيليه لولحت له فالتا ستر التقرير فكتب اليها بحتج على نيتها هذه ويقول ان المعلومات التي قدمت لبعثة « كيف » سرية محضة . فتظاهرت بالاصفاء واحتجاجه ولكنها أوعرت الى أحد الدواب البريطانيين بان بسألها في البرلمان متى ينشر التقرير ، فلما طرح عليها السؤال لم تنجب بان التقرير وضع على أن يكون سريا لا يشر بل أحاب مستر دزرائيلي بانه لا يباع في شره . ولكن الحديو هو الذي يعارض في ذلك أشد المعارضة <sup>(١)</sup> . فكان هذا الحوار أسوأ من التقرير نفسه وكان من تأثيره أن تدهورت في الحال أسعار السندات المصرية تدهورا شديدا ، وحينئذ لم ير اسماعيل الا أن يعود فيسمح بيشر التقرير ونشر في ٣ ابريل أي بعد عشرة أيام فقط من نصريح اللورد دزرائيلي . وشعر اسماعيل بأن هذه الضررة فقال وهو يكاد يبكي : « لقد حفرنا الى القبر » <sup>(٢)</sup> —

Ils ont creuse ma fosse

وكان علي اسماعيل أن يدفع قسطاً من الفوائد — Coupon — في أول ابريل ، ومع أنه كان قد قضى من الحكومة البريطانية قبل ذلك بأربعة أشهر أي في ٢٥ نوفمبر أربعة ملايين جنيه في اسهم قناة السويس لم يكن لديه شيء يدفع منه هذا القسط ، فلما أعلن اللورد دزرائيلي تصريحه المار ذكره وهوت أسعار السندات المصرية لم يجد اسماعيل بداً يمتد اليه بقرض جديد يدفع منه . فكتب في ٢٨ مارس أي قبل ميعاد الاستحقاق بثلاثة أيام الى الحكومتين الفرنسية والانجليزية بسألها في تذلل وحموع أن تأتيا لمعوت والا حل به الدمار <sup>(٣)</sup> . فاحاست الحكومة البريطانية بالرخص اما الحكومة الفرنسية

(١) « تيودور روستين » ص ٢٠ و ٢١ من الترجمة — و « المناقشات البرلمانية »

لهنسارد مجلد ٢٣٩ سنة ١٨٧٩ ص ٦٣٩

(٢) المصدران السابقان

(٣) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٥٧

مرت لن تمت فرصة سانحة لاحتداب اسماعيل انها فاجأت بالقبول ودبرت المال على  
عمر مرسل الى لندن في الساعة الاحيرة من مساء ٣١ مارس واحتب اسماعيل بذلك  
الحق اعلاسه

واقترحت الحكومة الفرنسية حينئذ على اسماعيل أن يشي، ادارة خاصة تسمى  
« صندوق الدين العمومي » تتولى، تحت اشراف مندوبين عن الدولة، تحصيل حزم  
حين من ايرادات الحكومة المصرية ودفع الاقساط منه . فتردد اسماعيل في قبول  
هذا المشروع لما رآه فيه من تقييد سلطته ورفضت الحكومة البريطانية أن توافق  
عليه لانها لم ترض عن شروطه . وعلى أثر هذا الرفض كثبت التمس في يوم ٧ ابريل  
تحت : « لا بد من احد أمرين إما أن تقوم حكومة ولاية للحدود فتد اليه يد مبادئها  
حرة نظير قبوله لسلطتها الحالية والافيتقدم الحدو بمشروع من عنده » فكل هذا حلياً  
في بن اجاترا كانت تسي من ذلك الحين لا كراه اسماعيل على قبول هاجتها ،  
وكن مسلحها جابا في انها تجعل وسيلتها الى ذلك شرك الديون الذي أوقع اسماعيل  
مصر فيه والحراب الذي جره على ماليها

ولم يستفد اسماعيل من القسط الذي دفعته عنه الحكومة الفرنسية ( قسط أول  
بريل ) أكثر من أن يتنفس أسبوعاً واحداً ، لأن الداء كان عضالاً لا يعيد فيه ذلك  
تسكن الوقتي . فبعد هذا الأسبوع الواحد عاد الداء . فظهر أشد مما كان ولم يجد اسماعيل  
صالحاً من أن يخضع في هذه المرة لإعلان اعلاسه فطلعت الحكومة المصرية في صباح  
٨ ابريل في بورصة الاسكندرية اعلاناً بأنها عازمة عن دفع القسطين المستحقين في  
بريل ومايو في ميعادهما وستدفعهما بعد ثلاثة أشهر . فكان هذا اعلاناً للتوقف عن  
الدفع أى للافلاس .

وما كاد هذا الإعلان ينشر حتي انتلأت السوق المصرية وعباً فذعر اسماعيل  
وسارع الى ابلاغ الحكومة الفرنسية انه يقبل انشاء صندوق الدين الذي اقترحته  
عليه فلما انه بذلك يتخذ موقفه . وأمضى قهلاً في ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ أمرين بانشاء  
هذا الصندوق الذي لا تزال قائماً الى اليوم وحصل له ايراد مديريات الغربية  
والموقية والبحيرة وأسبوط ، و ايراد الدخولية في القاهرة والاسكندرية ، و ايراد

جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش ، وإيراد  
السكك الحديدية ، وإيراد رسوم الدخان، وإيراد احتكرك الملح، وإيراد المطرية (دقهلية)  
وإيراد رسوم السكرى والمراكب ، وإيراد كبرى قصر النيل ، وأخيراً إيراد  
أطيان الدائرة السفية .

وفي المادة الثانية من الامر الصادر باشاء هذا الصندوق ان على الموظفين الذين  
يتولون تحصيل الإيرادات المار ذكرها أن يوردوا ما يحصلونه للصندوق لالوزارة  
المالية . وفي المادة الرابعة منه ان جميع المارعات التي تقوم بين الصندوق وإدارات  
الحكومة المصرية ترفع الي المحاكم المختلطة . وفي المادة الثامنة ان الحكومة ممنوعة من  
أن تعدل ضريبة من ضرائب هذه الإيرادات تعديلاً يكون من شأنه انقاص الوارد  
منها الا بموافقة أغلبية المندوبين الذين يديرون الصندوق . وفي ديباجة الامر ان الذين  
يديرون الصندوق مسؤولون بجانب تنفيذهم الدول ويعينهم الخديو بناء على هذا  
الانتداب . ومن هذه المواد يتضح أن اشاء هذا الصندوق كان اشاء لسلطة أجنبية  
بجانب سلطة الحكومة وقد قال مسيو دي فريسبينه انه كا « أول اعتداء على سلطة  
الخديو لانه مكن الدائنين من أن يكونوا سلطة في الحكومة » (١)

وقد ردت هذه الإيرادات المخصصة للصندوق فكان مجموعها ١١٤٠٤٠٦٧٤٠٠ جنيهاً (٢)  
من دخل يراوح بين ٩ و٩ ملايين ونصف مليون جنيه

#### المراقبة الثانية

تلك كانت المرحلة الاولى من مراحل التدخل الاجنبي في شؤون الحكومة المصرية  
بسبب ديون اسماعيل ، ويقول مثل أوربي ان الخطوة الاولى هي العريضة فسنرى في  
ما يلي ان اسماعيل بعد ان خطا هذه الخطوة سار بعبداً وبسرعة حتى نزل لانجلترا  
وفرسا عن كل سلطة الحكومة ، ثم اذ خطر له بعد ذلك ان يسترد سلطته لم  
يستطع وعوقب بالعزل والابعاد

رأينا ان الحكومة البريطانية لم ترض عن النظام المالي الذي أنشئ على أساسه

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمسيو دي فريسبينه ص ١٥٩

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٧٧

صندوق الدين لانها كانت ترى فيه مصلحة لحلة السندات من الفرنسيين فثار على  
 نصيبه حتى يمكن ان يمنحها منه حلة السندات من الانجليز . فلما أنشئ الصندوق  
 عبت فرنسا والها وايطاليا مندوبيها فيه وامتنعت انجلترا عن ان تعين مندوبا لها .<sup>(١)</sup>  
 ويحرر سير روبرتسون مصر عائدا الى أوروبا معلماً ان بقاءه في مصر صار مستحيلاً<sup>(٢)</sup>  
 وودت الحكومة البريطانية بعد ذلك أن احتلالها مع فرنسا لا يحقق اعراضها  
 صحت الى الاتفاق معها ولكن من وراء ستار فسافر الى باريس مستر غوشن ،  
 ويكنز عضواً في البرلمان وشريكاً في مصرف فرلنج الذي أقرض اسماعيل بدوره  
 لاوتى ، وهناك اجتمع بحملة السندات من الفرنسيين فما زال بهم حتى اتفق معهم  
 على نظام مالي جديد لمصدق الدين ( ليس هنا مكان البحث في هذا النظام لاسا كما  
 هنا من قبل ننظر الى الحوادث من وجهتها السياسية ) أساسه أن يطلب الدائنون من  
 اسماعيل تعيين مراقبين أوروبيين يراقب أحدهما دخل الحكومة ويراقب الثاني خرجها  
 يضمن الدائنون بذلك حصول صندوق الدين على الإيرادات المخصصة له .

ثم سافر مستر غوشن مندوبا عن الدائنين الانجليز ومندوبا عن  
 الدائنين الفرنسيين الى مصر وشرعا بها جان اسماعيل ليحملاه على الرضى بتعيين  
 مراقبين . فقامت في البلاد ضجة استنكار وكان اسماعيل صديق باشا المشهور بالفتش  
 بظراً للمالية فأيد هذه الضجة ونصح للحدود اسماعيل بالرفض والمقاومة . ثم حدث  
 أن قتل صديق باشا غيلة فكتب مراسل التيمس في الاسكندرية الى حريته يقول : « ان  
 نتخلص من الفتش بعد خاتمة نظام عتيق . . . . . لقد كان الفتش زعيم حرب يقاوم  
 تنفيذ الاوربي وكل تقدم للدينية » الى أن قال : « ان سقوط صديق باشا الذي  
 قيل انه كان قد أعد مشروعاً معارضاً — ( أى معارضاً لمشروع غوشن وحوير ) —  
 نبعث من أقوى دواعي النجاح » . وبعد ذلك بأيام أعلن اسماعيل أنه قبل مشروع  
 غوشن وحوير وأصدر في ١٨ نوفمبر أمراً عالياً يقرب المراقبة على المالية المصرية

( ١ ) عينت انجلترا مندوبا لها بعد سنة وهو السير افلين بطارنج الذي صار فيما بعد  
 الموردر كرومر

( ٢ ) التيمس في ٥ يونيو سنة ١٨٧٦



وتتضي المادة السابعة من هذا الامر بان يمن مراقبان عاملان أحدهما يراقب إيرادات الحكومة والثاني يراقب مصروفاتها والاعمال الحسابية الخاصة بالدين وتتضي المادة الثامنة بان يكون جميع المواطنين الذين يتولون تحصيل الإيرادات تحت إدارة مراقب الإيرادات وأن يكون هو الذي يقترح على الخديو تعيينهم بواسطة وزير المالية . وله الحق في وقفهم عن وظائفهم وعزلهم . وتتضي المادة التاسعة بان يكون مراقب المصروفات مستشارا لوزير المالية وأن يكون هو الذي يراقب حسابات الحكومة ويسهر على تنفيذ اللوائح الخاصة بالدين . ولا يكون أمر بالصرف صحيحا الا اذا أمضاه ولو كان صادرا من وزير المالية . وتتضي المادة العاشرة بان يشترك المراقبان في وضع الميزانية العمومية . وتتضي المادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة بان يكون أحد هذين المراقبين انجليزيا والثاني فرنسيا وأن تختارها حكومتا المختارا وفرسا فيعينهما الخديو بناء على هذا الاختيار .

وبهذا الامر انتهت سلطة الحكومة كلها تقريبا الى هذين المراقبين الاحنيين وصار اسماعيل المسند العظيم أسيرا وصارت مصر في قبضة السياسة الاجنبية تدفع بها الى ما تريد وحيثما تريد .

### الظلمة المصرية

أخذ هذا الطام الحديد الذي سمي نظام « المراقبة الثنائية » في العمل فاختارت الحكومة البريطانية مستر دومين مراقبا انجليزيا واختارت الحكومة الفرنسية البارون دي مالاريت مراقبا فرنسيا صفائي هذان المراقبان الصماب لانهما لم يجدا حسابا منطبا ولا قوانين ولا لوائح تضبط الابراد أو الدخل بل لم يجدا أوامر مكتوبة مع أن هذه الاوامر كانت تنفذ بالكرايج فكتب اثنان من أعضاء « اللجنة التحقيق » التي عينت بعد ذلك سنة والتي سيأتي ذكرها يصفان هذه الحالة فقالا في تقرير قدماء الى تلك اللجنة وقدمته لاحقا الى الدول <sup>(١)</sup> : « كلما كان هلاك من النظام هو أن شيخ البلد ينفذ

(١) هذا التقرير كتبه « م . ي . بيريج » و « ا . دي كزيمير » وهو منشور في القسم الخاص « بمسألة مصر » من مجموعة « السفندات السياسية التي اصدرتها » الحكومة الفرنسية في سنة ١٨٨٠

والامر التي تصدر اليه من المدير . والمدير يعط ما يصدر اليه من المفتش العام .  
والفحص ينال الامر من السلطة العليا ( اى من الخديو ) . وهذا الامر هو القانون الذى  
يجب أن يتفذه موظفو الحكومة ولو كان شفوياً دون أن يباح لاحد من المدولين أن  
يتفحص في وجوده أو في مؤداه . وهذا كانت تدار الآلة الحكومية في عهد اسماعيل  
وخاتمة في أيامه الاخيرة حينما اختلط الخامل بالنابل ولم يكن لاسماعيل هم الا ابتذاع  
قواعد جديدة من الضرائب والمفارم كل يوم للاستيلاء على الاموال والمحصولات

واهم المراقبين بان يدفعوا الاقساط ( او الكيوانات ) في مواعيدها ليتنبأ ذلك  
كفائتهما وكفاءة النظام الذى يمثله فحسب عن اسماعيل ونسائه وقصوره ومطابخه  
وتبائعه جميع نفقات البدخ وحسب عن طائفة من الموظفين المصريين مرتباتهم وأمر  
بفسح فريق من رجال الجيش، وبهذه الوسائل وأمنائها استطاع ان يمسك المال  
البلاد قسط يابر قل ميعاده فتباها بذلك وقدماء لارباب الديون رهانا على  
كفائتهما ونفع النظام الجديد . ولكن المصير أخذ ينصب في الشهور التالية فاستولي  
عليها الانزعاج وارسلوا الحجة يمجون الضرائب بالكرباج<sup>(١)</sup> وتفضا في يوم الامتيازات  
لشركات<sup>(٢)</sup> ومع هذا قرب الموعد الذى يدفع فيه قسط يوليو ولم يكن ليهما ما  
يعضن منه فلما رأيا ذلك وضعا ايديهما على محمولات فلاحى الافاليم المحصنة لاداء  
الدين وباعاه صفقة واحدة لشركة آل هوذورث بنصف مليون جنيه<sup>(٣)</sup> .

وعلى أثر ذلك كتب قنصل إنجلترا العام الى حكومته تقريراً قال فيه : لقد  
استطاعت مصر أن تؤدى في ثمانية أشهر ما يقرب من ٦ ملايين جنيه . وهذا كله  
يعمل على كفاية المراقبة الجديدة غير أنى أخشى أن تكون هذه النتائج لم تتم الا بما فيه  
حلاك الفلاحين بحملهم على بيع محمولاتهم قبل حصادها وجباية الضرائب قبل

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمستر تيودور روستين ص ٤٥ من الترجمة

(٢) التيمس في ٣ مارس و ٢ ديسمبر سنة ١٨٧٧

(٣) رسالة من الاسكندرية الى التيمس في ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٧ وكتاب

« المسألة المصرية » لمستر تيودور روستين ص ٤٦

مواعيدها . أما الموظفون الوطنيون الذين يقتضي صلاح الادارة الطراد دفع مرتباتهم فقد ذهبوا ضحية الكوبونات وأصبحوا ولهم متأخرات حسنة »

وحينئذ روى أن السفينة لا تبحر وأن دولاب العمل في مصر وقف فانهم الدائنون اسماعيل بأنه يخفي عن المراقبين بعض الابراد وهددوا بمقاصاة ناظر المالية أمام المحكمة المختطة وأنخبراً طلبوا تعيين لجنة للتحقيق . فحاول اسماعيل أن يصمم أذنيه فازدادوا ضجيجاً ولوحوا له باسم الامير حليم مطالباً بعرش مصر . وكانت نفية اسماعيل قد املت الاذعان فاذعن في هذه المرة أيضاً وأصدر في ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ أمراً بتعيين اللجنة ، ولكنه قصر اختصاصها على موارد الدخل فاحتج الدائنون وكتب ممثلهم مستر غوشن في التيس في ٣١ يناير يقول « سوف لا أحجم عن بذل ما أوتيت من جهد ونفوذ للتصدي على ما تحاوله الحكومة المصرية من حصر دائرة التحقيق » . فإراد اسماعيل أن يحتفي في سلطان تركيا قائلاً انه « السلطة الوحيدة التي يخضع لها » <sup>(١)</sup> فلم تقل اعلمتروفرنسا فاضطر ان يصدر في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ أمراً بعد اختصاص اللجنة الي الدخل والمخرج وجميع الشؤون المالية .

وألفت اللجنة من فردينان دلبس مشي ، قناة السويس رئيساً ورفرز ولن وكيلاً ودي بلير ويار افلي ويبرنج ودي كريم ورياض باشا أعضاء . ولكن داسس كان كثير الغياب في باريس فكان رفرز ولسن الرئيس المعلي

وأخذت هذه اللجنة في عماها فانضج في الحال أن السير فرز ولسن لا يرضى عن هذا العمل الا اذا انتهى الى تنحية معينة هي أن تتولى هيئة أجنبية ، أو بعبارة أخرى انجليزية ، ادارة الامور في مصر . وكتب قنصل فرنسا العام اذ ذاك البارون دي ميشل الى حكومته تقرراً أظهر فيه قلقه من هذه الخطة وأشار الى أن هناك اشاعة « بأن السير رفرز ولسن سيكون وزيراً لاسماعيل فكأنه يهيئ السبيل لتحقيق هذه الاشاعة » <sup>(٢)</sup> . وأتمت اللجنة تقريرها النهائي وقدمته الى اسماعيل في ١٣ أغسطس

( ١ ) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٨

( ٢ ) دي فريسنيه ص ١٦٦ و ١٦٧

سنة ١٨٧٨ وكان السير دفرز ولسن هو الذى انفرد تقريبا بكتاشته (١) وفيهم اسماعيل بأنه مسئول عن عجز في الإيرادات قدره عشرة ملايين جنيه وطلب منه في مقابل ذلك أن ينزل عن أطماعه للدائنين . فتردد اسماعيل في قبول هذه النجدة ولكنه بعد أن ذل حتى صار أسيراً في أيدي انجليترا وفرنسا لم يمهلهما أن يصدر في ٢٤ أغسطس أمراً بالموافقة على ما في التقرير وتنفيذه وقاله اذ ذاك السير دفرز ولسن وقال له ان الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يصلح مالهية وأن يسترد الثقة به هي أن يدخل تعديلاً جوهرياً على طريقة الحكم . فرد عليه اسماعيل بالكلمة التي اشتهرت عنه وهي قوله : « ان بلادي ليست الآن في أفريقيا . اما الآن حزم من أوروبا في الطبيعي ان تترك فيه الماضي وان تنسج نظاماً مطابقاً لحالتنا الاجتماعية » (٢) . وكان هذا التعديل الذي طلبه من السير دفرز ولسن ان ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كي يكون هذا المجلس مسؤولاً عن أعمال الحكومة . وكانت هذه هي الوسيلة التي رى السير دفرز ولسن أن يدخل بها الوزارة . وفعلاً أصدر اسماعيل أمراً الى نوبار باشا في ٢٨ أغسطس قال فيه انه يريد من الآن فصاعداً ان يحكم « مع مجلس نظاره وبواسطته » . (٣) ودارت محادثات طويلة بينه وبين انجليترا وفرنسا بشأن تأليف هذا المجلس كانت تهيئتها أن أصدر أمراً في ١٤ أكتوبر بتعيين السير دفرز ولسن ناظراً للمالية ومسيو دي بليير ناظراً للاشغال . ولذلك بقيت هذه التطورة التي كان نوبار باشا يتولى رئيساً بالنظرة الأوروبية

وهكذا صار ناظران اوريان احدهما اختارته الحكومة الانجليزية والثاني لفتلته الحكومة الفرنسية هما الاذان يحكمان مصر . اما اسماعيل ، اسماعيل العظيم

(١) دى فريسييه ص ١٦٩

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٩ وهذا هو النص بالفرنسية :

Mon pays n'est plus en Afrique ; nous faisons partie de l'Europe actuellement. Il est donc naturel que nous abandonnions des arrangements anciens pour adopter un système conforme à notre état social.

(٣) هذا الامر هو الأساس الذي اعتبر دستوراً لمجلس الوزراء من ذلك الوقت

الى أن تعد الدستور المصري في سنة ١٩٢٤

المستبد الفغور قد نجي الى زاوية من روايا الاحمال . وليس اسمايل وسلطه  
عما اللدان بعياننا في هذا وانما استقلال الحكومة المصرية هو الذي يعيناه والذى  
هدم الى آخر حجر منه بتأليف هذه النظارة

### رهب مضم

ولتأخر بين الدول حين تأليف هذه النظارة الاوربية قصة طريفة هي انه لما  
قل اسمايل أن ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كان من المتفق عليه بينه وبين  
الحكومة البريطانية أن يعين السير فرزولسن ناظرًا للمالية وأن يستغنى بذلك عن  
المراقبين الانجليزى والرئيسى فلما علمت الحكومة الفرنسية بهذا حاجت وطلت أن  
تعطى نظارة مدارك المفارقات في ذلك بين لندن وباريس الى أن تم الاتفاق بينهما  
على ان تأخذ فرنسا نظارة الاشغال . وهذا هو السبب في ان الناظرين الاوربيين  
لم يعبأ الا في ١٤ أكتوبر مسم ان الامر صدر لنومار باشا بتأليف نظارته في  
٢٨ أغسطس

ولما علمت ايطاليا والنمسا بان انجلترا وفرنسا اقتسما الفتيحة على هذا المنوال  
تقدمت كل واحدة منهما تطلب لنفسها نظارة فطلبت ايطاليا نظارة الحفاية وطلبت  
النمسا نظارة المعارف (١) فاسترضيتا بان عين ايطالى مراقبا عاما للحسابات ومسوى  
مساعدنا لناظر المالية

اذن كان اعتقاد الدول ان الحكومة المصرية لم تفقد استقلالها فقط  
بل فقدت وجودها أيضاً وصارت تركتها لها مقسما بفور بالفتحة الكبرى  
منه ذوالقوة الجسور

### مودة الضباط

وكان اول ما فعلته النظارة الاوربية أن رهن السير فرزولسن الاطيان التي نزل  
عنها اسمايل وأمرته ( وهي ٢٥٧٢٩ فدانا ) ليت روتشيلد وعقد قرضاً بعام  
٨٠٠٠٠٠ ر. ٨٠٠ جنيه، وهو الذى كان يسمى قرض الدومين ، قدفع منه بعض الاقساط

( ١ ) التيمس في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٧٨ - وكتاب « المسألة المصرية »  
ليودور روتشتين ص ٩٥ من الترجمة

هاتين وكان من المتفق عليه أن تدفع من المراتب المتأخرة للموظفين فلم تدفع لهم  
حتى سنة ١٨٧٩ حتى كل قد ذاب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس وصار هم الوزارة  
أن تحبى الاموال لتدفعها للدائنين بحيث رأى كل ذى عين أنها إنما تحكم مصر لمصلحتهم  
لا لمصلحة المصريين . واشتد الكرب بالناس من جراء هذا النوع من الحكم حتى  
انصرف به مكاتب التيمس في الاسكندرية فكتب في ٢٣ يناير سنة ١٨٧٩ يقول :  
« لست مبالغا اذا قلت ان في القاهرة الآن مئات من المشايخ يمثل كل منهم قرية  
من القرى حادوا عمروضاتهم يسألون فيها تخفيف الضرائب وكل منهم يعلن أنه  
لا يمكن بقاؤها على ما هي عليه . انهم جموع مخشدة امام أبواب الطارات يمترضون  
الظفر في عذوم ورواحهم ومعروضاتهم غلا أقلام المصالح » . وبعد ذلك بشهر  
وتصف شهر أي في ٣٩ مارس كتب هذا المراسل نفسه يقول : « يؤكد أهل الدلتا أن  
الرمح الثالث من ضرائب هذا العام يحبى بنفس الطرق التي كانت تحبى بها الضرائب  
قيا مضى . قد يصعب الناس من وقوع ذلك بإزاء ما يسمعون من أن المصريين يموتون  
على قولوع الطرق وأن أراضى شاسعة تركت بورا لثقل الاعباء المالية المفروضة عليها وأن  
الفلانين يباعوا وادابهم وأن النساء يسن حليهن وأن أقلام الرهون غاصة بالرايين يحملون  
وكتهم وأن المحاكم لا عمل لها سوى النظر في قضايا غلق الرهون اجابة لطلب هؤلاء .  
الرايين »

وبينا الحال كذلك والناس يضجون بالشكوى في كل مكان جاء قسط مايو  
وليس في الخزينة ما يكفي لدفعه فأمرت الوزارة بتسريح ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش  
وحقت القسط مما اقتصدته من مرتباتهم . وكانت لهؤلاء الضباط مرتبات متأخرة  
تدفع ثمانية عشر شهرا فلما فصلوا بغير أن تدفع لهم متأخراتهم هاجوا وماحوا . وكان  
لحقت قد ملأ النفوس استمدادا للثورة فلم يترددوا في أن يكونوا أول من يضرم  
لجرا وأخذوا نوبار باشا والسرديفر ولسن وهما خارجان من ديوانيهما يوم ١٨  
يناير سنة ١٨٧٩ هاجوما ولكوما وشدوا شاريهما<sup>(١)</sup> وسجنوها في نظارة

المالية<sup>(١)</sup> وعلم الخبير اسماعيل مركب الى نظارة المالية محاطا بحرسه وأمر الضباط  
بالانصراف فلم ينصرفوا فامر قائد حرسه بالطلاق الرصاص فاطلقت في الهواء فتعرف  
المجتمعون واستطاع اسماعيل بذلك أن يخرج نوبار ورفيقته من سجنهما<sup>(٢)</sup>

وعلى أثر ذلك أعلن اسماعيل أنه لا يكون مشغولا عن الامن العام اذا لم يستقل  
نوبار فاستقال . وكان اسماعيل تواقا الى أن يسترد ولو بعض ما كان له من السلطة

---

( ١ ) رواية عراقى المنشورة فى ص ٣٤٦ من هذا الكتاب تقول ان الضباط  
هاجموا نوبار باشا واهل بيته وحده . أما رواية مسيو جولي كوشرى ( ص ٨٠ ) فتقول  
انهم هاجموا نوبار باشا والسير ريفرز ولسن واهل بيوتهم وسجنوهم . وكذلك رواية  
مستر تيودور روستين ( ص ٦٨ من الترجمة ) . وهذه الرواية الاخيرة هى الصحيحة  
لانها تطابق ما نشر فى « الوقائع المصرية » اذ ذاك . وقد نشر فى « الوقائع »  
أيضا أن الحكومة اعتذرت عن ذلك اعتذارا راجعا للسير ريفرز ولسن عن الالاهة  
التي لحقت به

( ٢ ) اشتد الباطل بالسير ريفرز ولسن بعد هذا الحادث فانهم اسماعيل بانه هو الذى  
دبره ليختطف من النظارة الاوربية وسرى هذا الاتهام الى كثير من الناس ومنهم  
مستر بلنت فى كتابه هذا . ولكن يحسن أن ننقل هنا ملاحظة كتبها فى ذلك مستر  
تيودور روستين وهى :

« يذكر مستر بلنت تأييدا للرواية السير ريفرز ولسن شهادة عراقى باشا والشيخ  
محمد عبده . ولكن عراقى كما يقول هو نفسه كان وقت حدوث الفتنه غائبا فى الاقاليم .  
وكل ما يقوله الشيخ محمد عبده مجرد تصديق لقول عراقى . ويطلب على الظن أن  
كلا الرجلين انما كانا يرددا الاشاعات التي ترددت فيما بعد وصدقها فى غير تمحيص  
بنفسا منه لاسماعيل . اما اللورد كرومر الذى لا يمكن أن يتهم بشدة الاقتصاد فى  
الظمن على اسماعيل فانه يعترف « بان كل ما يقال من ان اسماعيل كان على علم بالفتنة  
ليس الا من قبيل الحدس والتخمين » . وغاية ما يستطيع اللورد أن يرمى به اسماعيل  
هو اشتراكه الاذنى فى الفتنه »

تلك هى ملاحظة مستر تيودور روستين ونضيف نحن اليها أن مستر فيان  
الذى كان قنصلا عاما لا محلزا فى ذلك الوقت كتب تقريرا للحكومة يرا فيه اسماعيل  
من هذه التهمة وقال ان الفتنه كانت نتيجة استياء عام أضيف اليه استياء الضباط

وكان يرى في تقعر الشعب من النظارة الاوربية فرصة صالحة لهذا التمرص فلم يمين خفيا بومبار وتولى هو رئاسة مجلس الطار . ولكنه لم يكذب يفعل حتى أبلغته انحطرا وقرضا أن توليه رئاسة النظارة بخالف للامر الصادر منه في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ والذي نزل به عن السلطة للطار . وأبلغه مستر فيفيان قنصل إنجلترا يعلم أن الحكومة البريطانية تعتبر استقالة بومبار باشا عملا شخصيا وأما ذلك لا تقبل . يترتب عليها تغيير في سبر الامور . وبعد معاوضات لم تدم أكثر من أيام اضطر اسماعيل أن يعلن يوم ٩ مارس ان الاتفاق تم على ما يأتي :

أولا — لاجتياز التحدو مداوات مجلس الطار في أي حال من الاحوال

ثانياً — يتولى الامير توفيق باشا رئاسة المجلس

ثالثاً — للعصوين الاوربيين الادين في النظارة حق المعارضة المطلقة : —

« Veto absolu » — في كل مالا يوافقان عليه . وكل أمر يعارضان فيه لا ينفذ . ولكن لكي تكون معارضتهما صحيحة يجب أن تصدر منهما معا<sup>(١)</sup>

وهناك شرط رابع يصيغه مسيو جول كوشيري وهو أن يستشير اسماعيل حكومتى انحطرا وفرنسا في اختيار نظاره الجدد<sup>(٢)</sup>

وهكذا جرب اسماعيل ف عرف أنه اذ شد وثاق البلاد بالديون شد بهذه الديون ضيقا وثاق نفسه، وأنه اذ عالج أن يخفف ضغط هذا الوثاق باء بالهشل وازداد وثاقه شدة على شدة . وهكذا أيضاً رأى المصريون رأي العين أن حكومتهم لم تبق لهم وأن استقلالهم الذاتي الذي اشتروه بمئاتهم في حروب عديدة والذي سجلته الفرمانات وأبدته المعاهدات الدولية في سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤١ صارت ديون اسماعيل حبراً على ورق

وثبة من اسماعيل للسرور سلطنة

وكان المصريون ينظرون الى هذه الحال متألمين ، وكانت الشدائد التي قاسوها طول حكم اسماعيل قد ملأت صدورهم مرارة ، وكان المتألمون قد عرفوا من المثل

(١) فرى فرمينيه ص ١٧٣

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨١



الذي ضربه لهم الصباط في مهاجرتهم نوبار ماشا والسير ولسن أن الأثم لا يفيد ما لم يصبح عمل وانه ان أراد الشعب أن يسترد استقلاله الذاتي وأنت يضع حداً لاستقلاله المصلحة اسماعيل تارة ولمصلحة الدائنين الاجانب تارة أخرى فطبعاً أن يعمل لهذه الغاية . وذلك ما صمم عليه اعيان المصريين فأخذوا يعقدون الاجتماعات يوحدون بها الكلمة ويرسمون الخطة حتى اذا تم لهم ذلك كتبوا العرائض وجعلوا يرسلونها تارة الى الطائفة وتارة الى اسماعيل يطلبون فيها أن تكون الحكومة وطنية وأن تكون للأمة رقابة عليها<sup>(١)</sup>

ولا حدال في أن اسماعيل نظر الى هذه الحركة حين الرضى لأنه كان يرى فيها وسيلة للحلاص من نير السطة الاجبية على المصوم والطائفة الاوربية على الخصوص، ولكن لا حدال أيضاً في أنها كانت ضده كما كانت ضد النفوذ الاجنبي، وقد رأينا في ما تقدم أنه كان من بعض اعراضها التفكير في قتله وسرى في ما يلي أنه لما أراد أن يختمها لاهوائه بعد أن تخلص بها من الطائفة الاوربية أبت ووقعت في وجهه تطلب أن تكون رقابتها على سلطته فطبعاً<sup>(٢)</sup>

وأجاب السير ريفرز ولسن على هذه الحركة بان أعلن بصفته ناظراً للمالية تأجيل « كوبرن » ابريل شهراً فكان هذا بمثابة إعلان لافلاس الحكومة المصرية وكان من الضروري أن يتبعه قيود جديدة وأعمال مالية جديدة . وكان السير ريفرز ولسن يظن أنه بذلك يضرب اسماعيل والحركة الوطنية ضربة تمحمد أنفاسها فلم يصح حسابه وازداد بالعكس هياج الافكار وكتب الاعيان مذكرة وقعا منهم سبعون من العلماء فيهم شيخ الاسلام وبطربرك الاقباط وحاخام اليهود وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش طلبوا فيها عزل

---

(١) التيمس في ٣١ مارس سنة ١٨٧٩ — وكتاب تيودور روثستن ص ٨٤  
ن الترجمة

(٢) يذهب تيمر من المؤرخين الاوربيين الى أن اسماعيل هو الذي خلق هذه الحركة وأن المصريين كانوا فيها آلات مسخرة في يده ولكن الحوادث أثبتت فساد هذا الزعم

السير ديفرز ولين وتآليف وزارة وطنية وإيجاد مجلس نواب تكون له سلطة المراقبة على أعمال الحكومة وتكون الوزارة مسئولة أمامه<sup>(١)</sup>.

وفي مساء ٧ أبريل استدعى اسماعيل فاضل الدول وطلب منهم أن يبلغوا حكوماتهم أنه لم يبق في وسعهم أمام هياج الرأي العام في مصر إلا أن يحكم بنظارة وطنية مسئولة أمام مجلس نواب وأن ابنه توفيق باشا استقال وأن شريف باشا عين خفصاً له في رئاسة مجلس الظلار . وقدم القاصل في الوقت نفسه مشروعاً مائياً جديداً بتسديد الديون في ٩٥ عاماً وتخفيض الفائدة الى ٥ في المئة وتخصيص ٤ ملايين جنيه من دخل الحكومة لشؤون الادارية . وأعلن أن المراقبة الثابتة التي كانت قائمة قبل تأليف الوزارة الاوروية تعود الى ما كانت عليه

ولاعلم الوزيران الاوربيان بذلك احتجاجاً على اسماعيل وأسماء بانه هو الذي جبر هذه الحركة ليخلص من تهديداته . ثم استقالت لجنة التحقيق بعد ثلاثة أيام قبيل اسماعيل استقالته في ١٣ أبريل وأصدر في ٢٢ أبريل امراً عالياً بتنفيذ المشروع الذي قدمه القاصل

### عزل اسماعيل

هنا أخذت الحوادث تجري سراعاً فتم اسماعيل أنه اذ ألقى بالبلاد في هاوية العمى ألقى بنفسه في أيدي الأجانب وأنه اذ أضاع استقلال حكومته بالمراقبة الثابتة تم بالنظرة الاوروية أضاع عرشه وأضاع نفسه، وتلك هي دائماً عاقبة من لا يكثرث المراقب

تألفت الوزارة الوطنية برئاسة شريف باشا كما تقدم وأعلن اسماعيل في الامر الذي قصده بتشكيلها أنه يريد لها مسئولة أمام النواب ثم أراد أن يرد نظام المراقبة الثابتة الى ما كان عليه فطلب من السير ارنلج بارنج (الورد كرومر) العضو الانجليزي في صندوق الدين ومن زميله العضو الفرنسي أن يتوليا المراقبة فرفضا وأضرب جميع

---

(١) جريدة الوطن عدد ٧٤ في ١٢ أبريل سنة ١٨٧٩ — التيمس في ١٩

أبريل سنة ١٨٧٩

الموظفين الاوربيين عن العمل<sup>(١)</sup> في مصالح الحكومة . وأراد شريف باشا أن يدعم كويون مايو باعتار العائدة ٥ في المائة مرفوض صدوق الدين أن يتسلم شيئاً . وارسل وزير فرنسا ماسيو وادخمتون الى قنصل فرنسا العام في القاهرة يطلب منه أن يبلغ اسماعيل أنه يعتبر عمله « قصصاً متعمدا في الرعاية الواجبة لفرنسا وانجلترا » - أرسل في ٢٥ ابريل تلغرافاً آخر كان فيه أوضح منه في تلغرافه الاول فقال<sup>(٢)</sup> : « اذا استمر الحذبو علي الامتناع عن الرضى بتعاونه الساطرين الاوربيين لحكومته لا يبقى أمام فرنسا وانجلترا الا أن تحتفظا بحريتهما التامة في تقدير الحالة وفي العمل لحاية مصالح رعاياهما ثم في الحث عن أفضل الوسائل التي تضمن لمصر حكومة صالحة » وكان هذا تهديداً صريحاً ولكن اسماعيل كان قد تحمل من دل الاذعان ما لم يؤممه مزيد وكان في وقت ثورة ثارتها نفسه على هذا القتل عاجب في ٤ مايو<sup>(٣)</sup> : « بان الحالة التي صار اليها الرأي العام المصري لاتسمح بمودة الساطرين الاوربيين الى النظارة » وحيث تعاوضت فرنسا وانجلترا في ما فعلانه وطلبتا من الدول الاخرى أن تؤازرها فيما هما عازمتان عليه . وكل رأى بترك هو الذي يهمهما أكثر من غيره ففي السير ريفرز ولسن حتى حصل عليه وأرسلت المانيا والنمسا في ١٨ مايو نحنجان على الامر الذي أصدره اسماعيل في ٢٢ ابريل خاصاً بنسوة الديون وتخفيض فائدته ثم تنهما روسيا وايطاليا . وبعد ذلك أي في ١١ يونيو تقدمت انجلترا وفرنسا لعمل فارسلتا احتجاجاً قالتا فيه انهما « لا فترقان الامر ٢٢ ابريل باية قيمة قانونية » . واذ ذلك شعر اسماعيل بان العاصفة تهب وتنهب فاخته الرعب وحاول أن يثقيها بان كتب شريف باشا في ١٥ يونيو<sup>(٤)</sup> الى الدول يلغها على عجل أن الامر ألتي ، ولكن العاصفة كانت أقوى من أن يردھا هذا العلاج ، وغضب انجلترا وفرنسا عما كانت تعتبرانه ثورة عليهما من اسماعيل كانت أشد من أن يسكنه هذا الاذعان المتأخر ، فأرسلت الحكومة الفرنسية الى قنصلها العام في القاهرة

(١) كتاب « مصر الحديثة » للورد كرومر — الجزء الاول ص ٣٠١

(٢) دي فريسينيه ص ٥٧١ الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨٢

(٣) دي فريسينيه ص ١٧٦

(٤) تلغراف من روتر شر في التيمس في ١٦ يونيو سنة ١٨٧٩

يوم ١٨ يونيو تلغرافاً قالت فيه <sup>(١)</sup> : « اننا متفقون اليوم مع الحكومة البريطانية على أن ننصح لحدبو بأن ينزل عن عرشه وأن يتقادر مصر . فان أطاع هذا الصبح حصل معاً الترتيب معاش له ولبقاء وراثته العرش لابه توفيق » . وأرسلت يوم ٢٠ تلغرافاً آخر قالت فيه <sup>(٢)</sup> : « اذا رفض الحدبو أن يصفى لصحبا فلن نتردد في الاتجاه الى الدولة صاحبة السيادة على مصر لطلب من السلطان عزل هذا الأمير الذي أنكر واجابه اسكراً خطيراً وتعيين خلف له » . وفي الوقت نفسه تولت الحكومة البريطانية الى قنصلها العام في القاهرة مثل هذه الاوامر . وتردد اسماعيل أياماً وعلم الباب العالي أن إنجلترا وفرنسا لا يجتنان اليه لتطلبانه عزله وأنه سوف لا يرضى طلبهما ففضل ان يسبقهما اليه ليظهر بمظهر صاحب سلطة <sup>(٣)</sup> فأرسل في ٢٥ يونيو وقبل ان تطلب الدولتان منه شيئاً تلغرافاً الى اسماعيل حوله وأرسل في ٢٦ يونيو تلغرافاً الى توفيق بتوليته مكن أيه <sup>(٤)</sup> . وفي ٣٠ يونيو وجع اسماعيل ابنه باكياً وهو يقول له : « كى أسمع حالاً من أهلك » <sup>(٥)</sup>

وعاش اسماعيل بقية حياته في إيطاليا ثم في الاستانة الى أن توفي في ٣ مارس سنة ١٨٩٥ فنلت جثته الى مصر فوصلت الى قصر رأس التين مساء يوم ١١ مارس . وفي هذا المساء نفسه كانت فرقة أوردية تمثل في مسرح الأوبرا بالقاهرة ، أى في مسرح القدي بناء أيام مجده وملاذاته ليسر به ملوك أوربا وملكانها وهو يستقلهم في عاصمة ملكه ، كانت فرقة تمثل نفس الرواية التي أوصى بها فوضعت ومثلت خصيصاً في نفس المسرح : لاولئك الملوك والملكات : أوبرا « عابدة » . فيها ملكة سحرية لا تقدر جادته على بد الاوربيين الذين أعطاهم كل مافي مصر من مل وحكومة لا على يد المصريين القدين أشقام وأشقى معهم مصر الى زمان طويل

(١) دي فريسييه ص ١٧٨

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) يقول هناسترنيو دورونتين ان اسماعيل نزل عن العرش بحضور

من أعيان مصر ولكن هذا غير صحيح

(٥) كتاب مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩

## الحياة النيابية في مصر

ليس من قصدي كما قلت أن أكتب تاريخاً وإنما كل قصدي أن أمهد لكتاب مستر بلت بنطرة سريعة يستعين بها القارئ، على استحضار الحوادث التي تناولها هذا الكتاب أثناء تلاته . وهذه الحوادث سلسلة واحدة عمدت حلقاتها الأولى في عهد اسماعيل وحلقاتها الثانية في عهد ابيه توفيق ، وقد مررنا بالحلقات الأولى مرأيا فيها اسماعيل يتسلم زمام مصر في سنة ١٨٦٣ وليس عليها من الدين الا ثلاثة ملايين وحكومتها مستقلة لا سيطرة عليها لتبر الوالى ولا يد فيها لتبر أهلها فما أخرج عنها في سنة ١٨٧٩ حتى كان ديها قريبا من ٩٩ مليوناً وكانت السيطرة على حكومتها لاحتلرا وفرنسا من دون حديوبها وكانت اليد العاملة فيها للادوربين من دون المصريين . والآن نصل الى الحلقات الثانية حلقات الحوادث في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وفيها ومن أجلها وضع هذا الكتاب فلتترك مستر بلت ينكلم ليقول لنا ما عرفة وما جرى على يديه منها

ولكننا وقد رأينا أنه كان الحياة النيابية في آخر أيام اسماعيل شأن مذكور نرى أن نلم هنا بطرف منها ثم بطرف آخر منها في عهد توفيق ليعرف من لم يعرف أن لهذه الحياة عروفا ذاهبة الى الاعماق في أرض مصر وأن المصريين الذين نادوا بسلطة الامة في سنة ١٨٧٩ ، ثم في سنة ١٨٨٢ ، لا يمكن ان ينصرفوا عنها في سنة ١٩٢٨

### من نابليون الى اسماعيل

يمكن أن يقال ان النواة الأولى للحياة النيابية في تاريخ مصر الحديث كانت هي التي وضعها نابليون بونابرت في يوم الخميس ٢٧ يولييه سنة ١٧٩٨ اذ طلب من العلماء والاعيان ورؤساء الفرق أن ينتخبوا من بينهم عشرة يتألف منهم « ديوان اللطرفي الامور الداخلية والعصل في الدعاوى » فوق اختيارهم على عشرة كان منهم الشيخ عبد الرحمن الشرفاوي والشيخ خليل الكي ، والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي .

كان هذا الديوان ظاهرة أولى ضئيلة من ظواهر سلطة الأمة ثم جاءت الظاهرة الثانية قوية يوم كره المصريون واليهيم خورشيد باشا وسبوا مطالبه فصار علماءهم ومشايعهم ورؤسا جنودهم الى محمد علي، وكان ذلك في ٦ مايو سنة ١٨٠٥، وقالوا له لا نريد هذا الباشا حاكما علينا فقال ومن يريدون اذن - قالوا لا رضى الا بك ١١ ثم سمع بك من حب العدل والخير . قيل فتمنع محمد علي ثم رضى فاحضروا له كرعا وعليه قنطاز وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فالبساه ثم بعثوا الى خورشيد باشا فلك قال انى مولى من قبل السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة فلا بأمر من السلطنة . فحاصروه فى القلعة وكتبوا الى الباب العالي يطلبون تصيب محمد على وما زالوا حتى صدر الفرمان بذلك ووصل الى القاهرة يوم ٩ يولية سنة ١٨٠٥ وبعد أن استتب الامر لمحمد على وشرع ينظم حكومته أنشأ مجلسا كان يسمى «مجلس المشورة» فما كان يقرأ أمراً إلا بعد عرضه عليه . وها هو ذا ما نشرته فى ذلك «الوقائع المصرية» فى عدد هارقم ٤٩ الصادر فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٨ :

#### « بيان كيفية ترتيب المجلس »

« ان حضرة افنديا ولى النعم الا كرم منحه الشفقة والمراحم ما برح متفكرافى عمار تلك والملة وفى راحة أهالى الامصار والبلاد ورقاية الرعايا والعباد ولا يزال يتصور تحصيل أسباب الامور الخيرية ساعيا ويحتندا فى استخراج أسبابها من القوة الى قسول ولاجل ذلك أوصى حضرة افنديا ابراهيم باشا ولى النعم قبل أن أرسله من الاسكندرية الى مصر بان يجمع ما مودى الاقاليم المصرية العظام ومشايخ البلاد فحكام وينتقد مجلس للمشورة كل يوم ويدي كل منهم ما فى باله ويقولون مرادم من غير تعصب وعناد أى لا يمارون بما يرون بل يقولون على وجه الحق والانصاف ليضج منها القضية الخيرية فيحصل رضاه السنى . وأمر ايضا بان يجتمع فى ذلك المجلس اشراف العلماء المصرية لكي لا يبدو انحراف عن تلك الاصول المستحسنة التى براد تأسيها على جادة الشريعة المطهرة فاجتهد سعادة المشار اليه بصحيل رضا سعادته بما كان مقطورا عليه من حسن للسعى والاجتهاد حيث جمع المذكور من كلهم الى قصره بعد مضى يومين من وقت نشره مصر وأوضح لهم ما سمع من آيه الأكرم من الوصايا والنصائح فلذلك انعقد المجلس فى القصر السالى فى اليوم الثالث من شهر ربيع الاول بعد العصر وسئل كل منهم عما لاح فى ضميرهم وتقرر ان يضبط الوقائع حال ما جرى ويجرى فى ذلك المجلس »

ونقبت الحياة النيابية واقعة عند حد هذا المجلس الى أن تولى اساميل فاشا في آخر سنة ١٨٩٦ « مجلس شورى النواب » ووضع له « لائحة أساسية » و« نظامنة » عرفنا بلائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ (١)

(١) هذه « اللائحة » تشتمل كما قلنا على قانونين احدهما « اللائحة الاساسية » والثاني قانون المجلس وكان يسمى « النظامنة » ونحن نورد هنا بينهما :

### اللائحة الاساسية لمجلس شورى النواب

(١) تأسس هذا المجلس مبنى على امدادولة في المنافع الداخلية . والتصورات التي تراها الحكومة انها من خصائص المجلس بصير المذاكرة واعطاء الراى عنها وعرض جميع ذلك للحضرة المجدوية

(٢) يجوز اصحاب من بلغ عمره ٢٥ سنة وما فوق ذلك بشرط أن يكون موصوفا بالرشد والكمال وأن يكون من الاشخاص المعلومين عند الحكومة بأنه من الاهالى الطاهين لها ومن اولاد الوطن

(٣) يحرم من صلاحية الانتخاب الاشخاص الذين حكم على أموالهم وأملأهم بأحكام الافلاس وتلفت بهم حقوق للغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق التي حرموا منها وايضا الفقراء والمحتاجون والاشخاص الذين أعينوا على حالهم قبل الانتخاب بسنة والاشخاص الذين صار مجازاتهم باللبان والطرء بحكم

(٤) ان الاشخاص الذين انتخبون النواب يلزم أن يكونوا من الذين لم يحكم على أموالهم وأملأهم بأحكام الافلاس وتلفت بهم حقوق للغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق اليهم وأن لا يكون سبق مجازاتهم باللبان والطرء بحكم وأن لا يكونوا من الاشخاص الداخلين سلك العسكرية تحت السلاح

(٥) المستخدمون في الخدمات الميرية والمستخدمون في الجهات الخارجية عن الميري سواء كانوا من العمد والوجوه أو غيرهم وكذا الداخلون سلك العسكرية سواء كانوا تحت السلاح أو امداديين لا يجوز انتدابهم ليكونوا من أعضاء المجلس وأما من رفقوا من المستخدمين بلا جنحة حسب الايجاب أو انقضت مدتهم من الامداديين فيجوز الانتخاب منهم ان كانوا حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة

## مجلس شورى النواب

فتح هذا المجلس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ والتي فيه اساميل خطاب الافتتاح  
من النواب أن يساعدوا الحكومة على تنفيذ الاشغال العمومية وتحديد  
معايير سنوية لحياة الاموال وغير ذلك مما تريد الحكومة أن تستشيرهم فيه . وكان

(٦) ان انتخاب الاعضاء من الاقاليم يلزم أن يكون على حسب التعداد فقد ارم  
انتخاب واحد أو اثنين من كل قسم من أقسام المديرية بحسب كبر القسم وصغره  
وصير انتخاب ثلاثة من مصر واثنين من اسكندرية وواحد من دمياط

(٧) حيث ان كل بلد على مشايخ معينون برغبة الاهالى وبالطبع هم المنتخبون من  
حرف أهالى ذلك البلد والباقيون عنهم لا انتخاب العضو المطلوب انتخابه من القسم  
ولما كان اولئك المشايخ حائزين الاوصاف المستمرة المذكورة فهؤلاء المشايخ يحضرون  
في المديرية ويكتب كل أحد منهم اسم من ينتخبه من القسم في ورقة مخصوصة  
ويضعها مغفولة بالصندوق المعد لتسمة بالمديرية

(٨) بعد ما يتم وضع الاوراق بالصناديق تفتح على يد المدير والوكيل وتناظر قلم  
للمسؤول وقاضي المديرية فيطرا اذا كانت أكثر الآراء متفقة على انتخاب واحد  
من القسم فيصير هو نائباً عن القسم وان تساوت الآراء في انتخاب اثنين أو ثلاثة  
فيقرع بينهم بمصووم والذي تصيبه الفرقة يصير نائباً عن القسم وفي كلا الحالتين  
يؤخذ من المشايخ الحاضرين بالمديرية من البلاد ورقة باختيارهم بالاستقرار عليه الحال  
في انتخاب أولئك النواب واما الانتخاب في مصر واسكندرية ودمياط فيصير  
بإتفاق أو أكثرية آراء وجوه واعيان تلك المدن

(٩) يصير تجديد انتخاب الاعضاء في كل ثلاث سنين حسباً هو موضح بالبند

## قاع والتامن

(١٠) اعضاء المجلس لا يزيدون عن خمسة وسبعين شخصاً  
(١١) لا يبعد المجلس اذا غاب من اعضائه أكثر من الثلث وان كان أحد اعضاءه  
له عذر ضروري فيلزم عرض عذره على رئيس المجلس قبل انعقاده بشهر فان قبل  
عذره بالمجلس فيها والا فان لم يحضر بعد اعلان عدم قبول عذره فيصير انتخاب غيره  
بدله من قسمه وجهته حسب اللائحة

(١٢) لا يسوغ التوكيل عن أحد الاعضاء بل هو يحضر المجلس بنفسه



اختصاص هذا المجلس ، كما يرى في المادة الاولى من لائحته الاساسية ، مقتصر على  
المدولة في « التصورات التي تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس » وتبينة  
المدولة في هذه « التصورات » تعرض على الحديو دور أن يكون مفيداً شئ . منها .  
وهذا معناه أولاً أن اختصاص المجلس بالنظر في مسألة من المسائل كالمنزوكا « الحكومة

(١٣) يصير تحقيق حال كل عضو من أعضاء المجلس حين اجتماعهم معرفه قزميون  
فان وجد مستكمل الشروط المعتبرة المحررة في البنود السابعة بقبل والا فقلنى نيابته  
و ينتخب غيره من قسمه وجهته

(١٤) سد ما يصير تحقيق احوال النواب المنتخبين بالقومسيون ويوجدون حائزين  
الاوصاف المذكورة في البنود السابعة فيعطى قرار عهم بالقومسيون ويمرض منه  
الى رئيس المجلس ومنه ايضاً الى الاعتاب الحديوية ليعطى كل واحد منهم بورلدى  
يتضمن كونه منتخباً في ظرف ثلاث سنين في شوري النواب

(١٥) حيث من العلوم ان كل مجلس من المجالس الماثلة لهذا له حدود ونظامامة  
فبالطبع حدود ونظامامة هذا المجلس ستعطى له

(١٦) ان عقد المجلس سيكون في هذا العام من ١٠ هاتور لغاية ١٠ طوبه واما  
في السنين الاتية فيصير انعقاده من ١٥ كيهك لغاية ١٥ امشير

(١٧) لولى الامر جمع المجلس او تاخيره او تحديد مدته او تبديل اعضائه وانتخاب  
غيرهم في مدة معلومة حسباً هو موضح بهذه اللائحة  
(١٨) لا يجوز قبول عرض حالات من احد ما بالمجلس

### حدود ونظامامة مجلس شوري النواب

(١) مجلس الشورى يكون بمجروسة مصر

(٢) مجلس الشورى وظيفته المدولة في المنافع الداخلية . والتصورات التي تراها  
الحكومة اها من خصائصه تصير المذاكرة فيها واعطاء الراى عنها كما هو مذكور  
في السند الاول من اللائحة الاساسية لما تحصل المدولة فيه بمجلس الشورى فيما  
يتعلق بالمنافع الداخلية يرسل من طرف الرئيس الى المجلس المخصوصى ويمررى  
المذاكرة عنه بالاقلام والقومسيونات بمجلس الشورى حسباً يأتي بعده بما يتعلق

ان شادت صححت به وان شادت منعته وثانياً أن رأيه الذي يديه في ما تعرضه  
الحكومة عليه استشاري محض

وقد أداع بعض الاوربيين عن هذا المجلس خرافة من الخرافات التي ألغوا أن  
يحقوها بالمصريين فزعم مسيو ملك كون في كتابه « مصر كما هي » — ص ١١٨ —

بخصوصات من البند ١٦ الى البند ٢٠ والبند ٢٣ من هذه اللائحة و قد إعطاء  
تقرير عنها فنظر بمجلس الشورى ايضا كما في البند ٢١ و ٢٢ وباتمام المذاكرة  
وإعطاء الراى يمرض جميع ذلك للحضرة الخديوية

(٣) رئيس مجلس شورى النواب ووكيله بنصبان من طرف الحضرة الخديوية  
(٤) افتتاح مجلس شورى النواب اما ان يكون بذات الحضرة الخديوية او من  
يكله بالارادة السنية وتقرأ فيه مقالة فان كان افتتاحه بالحضرة الخديوية فقرأه  
بالتنطق الخديوى أو من يوكل من قراءتها متعلق بالارادة العلية وان افتتحه  
هوكل فلما ان تكون المقالة من الحضرة الخديوية ويقرأها الموكل بالافتتاح او انها  
تكون من الموكل بالافتتاح وهو الذى يقرأها بموجب الامر

(٥) بعد افتتاح مجلس شورى النواب وقراءة المقالة يكون لاربابه الحق في ان  
يستمعوا جوابا عنها في مدة يومين وهذا الجواب لم يكن الا من قبيل الرسوم بحيث  
لا يطلع فيه بشئ عن امر من الامور المفتضى نظرها بمجلس الشورى

(٦) انا كانت المقالة من الحضرة الخديوية فيجد تحرير جوابها في مجلس الشورى  
يجب تقديمه للاعتاب الكريمة بواسطة رئيس مجلس الشورى ويكون معه من كل  
فم اثنان من الاعضاء بالملابس الرسمية بعد تسميتهم بمعرفة جميع الاعضاء

(٧) حيث تقرر في البند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف اللازمة في  
حق من يحصل انتخابه لوظيفة المضوية ففي حال الانتخاب بالمديرية اذا كان المجوز  
لهم انتخاب النواب يمينون أشخاصا من التمر جائز تمييزهم لذلك فيا طيعة بحسب  
الوضع بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية يصير الايضاح من المديرية الى مفتش الموم  
حتى كفيهم ومن طرفه يجرى تبيين ذلك بالكشف الذى يرسل لرئيس مجلس  
الشورى باسماء النواب الذين يمينون لاجل اجراء منطوق البند المشار اليه

(٨) من بعد افتتاح مجلس الشورى وقراءة المقالة يصير تقسيم الاعضاء الى خمسة  
الاقلام باختيار نفس الاعضاء بعضهم بعضا ورؤساء الاقلام يكون انتخابهم بمعرفة

ان شريف باشا أراد يوما ان يوضح لاعضائه النظام الذى ينغى أن يتبعوه في حلوسهم فقال ان العادة جرت في البرلمانات الاوربية بان مجلس مؤيدو الحكومة في مقاعد اليمين ومعارضوها في مقاعد الشمال فما كان من الاعضاء جميعا الا ان اتوا الى مقاعد اليمين وقالوا « نحن عبيد اهديا » . وزعم كتاب اوريون آخرون

الاعضاء ايضا وفي الافلام المذكورة يجرى التفحص عن المنتخبين حسب المدون بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية بمعنى ان كل قلم يتفحص عن احوال المنتخبين الذين هم بقلم آخر واعضاء القلم الجارى فيه التفحص المذكور يصير التفحص عنهم بمعرفة قلم من الافلام الاخرى وبعد اعطاء القرارات اللازمة عن ذلك يصير اعطاءهم الى رئيس مجلس الشورى لعرضهم للحضرة المحمدية كما في البند ١٤ من اللائحة الاساسية .

(٩) متى تم تحقيق صحة الاصحاب لزم رئيس مجلس شورى النواب ان يرضى للحضرة المحمدية بذلك ولا ينتظر صدور الحكم بخصوص الانتخابات الموقوفة او المنازاع فيها متى كان الدين صحيح اصحابهم يجوز اسفاد مجلس الشورى بهم كالموضح بالبند ١١ من اللائحة الاساسية

(١٠) ترتيب اشغال مجلس الشورى يكون بالنظر بحسب ما يراه رئيسه ويكون لذلك دفتر واضح ببيان تلك الاشغال مادة مادة بنابة الاختصاص وتواريخ ورودها والنظر الى وضعت عليها بالنسبة لترتيب رؤيتها وملحوظ يتاخر فيه عما يجرى فيها (١١) من يؤمر من الذوات من طرف الحكومة بالمباحثة في شان تصور من التصورات المروضة للذاكرة بمجلس شورى النواب متى طلب أن يتكلم لزم الاذن بذلك ولا يقتضى الزامه بالانتظار للنوبة حسب المفيد بدفتر لقنوة

(١٢) مجلس شورى النواب له ان يجبر على الحضور بالشورى كل من لم يمنه مانع صحيح معتبر وذلك بواسطة ترتيب عقوبات على من لم يحضر بمجلس الشورى وكل رئيس قلم من الافلام يعطى الى رئيس مجلس الشورى قائمة كل يوم صباحا بمن حضر من الاعضاء ومن لم يحضر

(١٣) اذا كان عند مجلس الشورى في يوم من الايام أقل من القدر للموضع عنه بالبند ١١ من اللائحة الاساسية لزم تأخير عقده الى اليوم الذي يليه وهكذا في كل

من الخديو اسماعيل ، وليس شريف باشا ، هو الذي حدثت معه هذه الحادثة .  
ونكن لا ريب في أن هذه الرواية مكذوبة لأنها لا تستند الا الى دعوى أولئك  
الاجانب الذين سرق من الآل مبلغ ما يدعونه علينا من الكذب ، وهم يكذبون  
علينا بلزعم من معرفتهم ان اتصالا بعالم المدنية وثيق وان كذبهم لا يكذب يظهر

---

يوم . في انقضاء الحال على هذا الوجه يجب على الرئيس أن يؤخره الى اليوم  
الذي يليه

(١٤) اذا كان عدد مجلس الشورى في يوم من الايام أقل من النذر الموضح عنه  
البند ١١ من اللائحة الاساسية لكن تقس الاقلام يوجد منهم مستوفيا بقدر  
الثلثين بالنسبة لاصل اعضائهم فالقلم الذي يكون بهذه الصيغة لا يصير تعطيله بل  
ينظر في الاشغال المحولة عليه

(١٥) الذي يامر بافتتاح كل جلسة من جلسات مجلس شورى النواب وقفلها  
هو الرئيس ويقضي في كل آخر جلسة ان يبين الرئيس من بدال السؤالي من الاعضاء  
ساعة افتتاح الجلسة التي تليها وترتيب الاشغال بالاوقات المتفضية ويعلق الترتيب  
الذكوري في محل مجلس الشورى وترسل صورة الترتيب في الحال الى كاتب الدewan  
الخديوي ويقضي ان يجرى الرئيس ما يلزم من طرفه بوصول الاخباريات والتبليغات  
اللزامة اليه باوقاتها للمتفضية

(١٦) التصورات التي تراها الحكومة تمثل صورتها بمجلس شورى النواب بمعرفة  
من يتوب لهذه للمأمورية من طرف الحكومة

(١٧) سد قراءة التصورات المذكورة في البند ١٦ يصير طبقها وتوزيعها على  
الاقلام للنظر فيها باوقاتها فتبحث فيها وتعين الاقلام من مجموعها قومسيون مركبا  
من خمسة اعضاء يصير انتظامهم بطريقة اعطاء الراى عنهم بالصندوق سرا  
وباقومسيون المذكور ينظر في تلك التصورات ويصحر التقرير اللازم عنها

(١٨) اذا صدر رأى من واحد او جماعة من الاعضاء التبر داخلين بالقومسيون  
المذكور في البند ١٧ من اللائحة بخصوص مادة من المواد المتدرجة بالتصورات  
المرسلة من طرف الحكومة ولم يكن ذلك من الملحوظات المذكور عنها بالبند ٢٣ من  
هذه اللائحة يقضى ان يصير تسليم ذلك الراى الرئيس مجلس الشورى وهو بوصله  
لا ، لقومسيون التحص بالنظر في ذلك ولا يجوز قبول أى رأى كان فيها يتعلق بمادة

حتى يفسح فكيف هم في سنة ١٨٦٦ والصلة بين مصر وعالم المديّة مقطوعة وقد كان للمصريين في هذا العالم أعداء طبعيون هم المراءون والافاقيون الذين كل منهم أن نداع عن الامة المصرية كل النقائص ليعاونا اسماعيل على صفتها بيديه فيبقى لهم الخير الذي ندره عليهم أصابعه . وسنرى في ما يلي ان هذا

من ذلك متى تقدم التقرير في شأنها من ذلك القومسيون الى مجلس الشورى وانما عند تلاوة ذلك التقرير بمجلس الشورى يجري ما يلزم له من المذاكرة وأخذ الآراء حسب الوارد بنود اللائحة من البند ٢٠ الى البند ٢٢

(١٩) كل من أورد رأيا بخصوص مادة من المواد المدرجة تلك التصورات كما ذكر في البند ١٨ من هذه اللائحة كان له حق التكلم في هذا الخصوص بالقومسيون المختص بالنظر في ذلك

(٢٠) متى تقدم التقرير الصادر من القومسيون بخصوص صورة مادة لزم ان يتلى بمجلس الشورى ويطلع ويوزع على اعضاء مجلس الشورى قبل المذاكرة بأربع وعشرين ساعة على الأقل

(٢١) تفتح المذاكرة بخصوص التقرير المذكور عنه في البند ٢٠ من هذه اللائحة في الوقت المعين له في ترتيب اشغال مجلس الشورى ويقتضى افتتاح المذاكرة أولا فيها يخلق بكل فام أو باب منها خاصة

(٢٢) من بعد أخذ الآراء عن كل مادة خاصة من المواد المتكرب منها التصورات المذكورة يجب أخذ الآراء أيضا بخصوص مجموع تلك التصورات على وجه العموم

(٢٣) اذا تراءى للقومسيون المختص بالنظر في احدى التصورات المرحلة من طرف الحكومة ملحوظات فيها يخلق بذلك تتقدم الى رئيس مجلس الشورى وقبل تلاوتها بمجلس الشورى تبحث من طرفه للحكومة

(٢٤) المسائل التي يلزم التداول فيها بمجلس شورى النواب بواقع ترتيب اشغاله بحسب ما يستقر عليه الحال في آخر كل جلسة كما ذكر بالبند ١٥ من هذه اللائحة يلزم في الجلسة الثانية ان كل مسألة منها قبل وضعها في ديوان المداولة يؤخذ رأي مجلس الشورى عن لزوم او عدم لزوم المداولة فيها وعلى واقع ما يفتى عليه الحال في ذلك يجري العمل

(٢٥) الا اذا المتعلقة بالمنافع الداخلية التي يلزم التداول فيها بمجلس الشورى بواقع

الجلسة فيه آثار ووجه الحكومة عاصمة من المعارضة ونادى ، على الرغم من ضيق  
التمتع ، بأن سلطة الامة تمثل فيه وأن من حقه أن ينصص الظاهر لمراتبه

ويتلخص تاريخ هذا المجلس من سنة ١٨٦٦ الى نهايه سنة ١٨٧٨ في انه كان  
للحكومة نعم المرشد في كثير من المشروعات الزراعية والصاعية وأعمال الري كما

---

يجب أشغاله كما في البند ١٥ من هذه اللائحة يلزم ان كل مسألة منها قبل وضعها  
في ميدان المذاكرة يؤخذ الرأي من مجلس الشورى عن لزوم المذاكرة فيها وقتئذ  
وتأخيرها لوقت آخر أو نحو ذلك

(٢٩) اذا طلب الكلام اثنان أو ثلاثة من اعضاء مجلس الشورى في آن واحد  
يتم أعمال القرعة المقتضية في تقديم أحدهم على الآخرين بمعرفة رئيس مجلس الشورى  
(٣٠) في حالة المكالمة بمجلس الشورى في مسألة لا يجوز اقتراح المسألة في  
مسألة أخرى

(٣١) في حالة المكالمة اذا تكلم احد الاعضاء فيها هو التكلم جار من اجله  
لا يحكم غيره قبل اتمام كلامه

(٣٢) لا يجوز لاحد ان يتكلم في كل مسألة بمجلس الشورى الا مرة واحدة  
لا يجوز تخلف الحال على بعض الاعضاء بالتكلم غير مرة اذا احتاج الامر الى اعطاء  
الملاحظات او اعطاء جواب مرة ثانية بناء على طلب عضو آخر ولما في القومسيونات  
التي تشكل بمجلس الشورى فلكل عضو من اعضائها حق التكلم متى شاء  
(٣٣) لا يجوز لاحد ان يتكلم الا اذا طلب الكلام وان له الرئيس بذلك  
ولا يحكم الا وهو في موضعه

(٣٤) اذا اراد الرئيس ان يتكلم بنفسه وجب الاصغاء اليه  
(٣٥) يجب ان يكون اخذ الاراء بالمستدق في الجهر وبطريق الاكثرية المطلقة  
(٣٦) تخريغ صندوق الاراء يكون بمعرفة كاتب السر  
(٣٧) لا تكون عملية اخذ الاراء صحيحة معتمدة الا اذا كان الحاضر بمجلس  
الشورى كما في البند ١٩ من اللائحة الاساسية

(٣٨) يجب على مجلس الشورى احترام حق العدد الاقل وفي ضمن المذكرات  
يجب الاصغاء للعدد الاقل وان تسمع الملحوظات الصادرة منهم

كان في كثير من الاحيان يردد صدى الشكاوى الجمة التي كان الاهالي يشكونها من فسادة الضرائب وعدم الطام في جبايتها . ثم لما كثرت ديون اسماعيل وارتبكتها الحكومة وأخذت المغوذ الاخرى يسيطر على البلاد كلت السواب أول المتدمرين ، وفيهم وفي الضباط وفي جماعة من الاعيان والعلماء وجدت جيداً فكرة

(٣٦) اذا كان عدد الاعضاء المأخوذ رأيهم هو الاقل واما الاكثر لم يعطوا رأياً في المادة المروضة لزم الرئيس ان يسأل باقي الاعضاء عن رأيهم

(٣٧) رئيس مجلس شورى النواب هو الذي يؤدي وظيفة الرئاسة عليه فقط ان يسأل ارباب مجلس الشورى عن رأيهم وليس له رأى مطلقاً الا في صورة انقسام الآراء الى طرفين متساويين وأما فيما عدا ذلك من الاحوال فلا يدخل بنفسه في رأى من جملة الآراء بمجلس الشورى وليس له أن يتدخل في مذكرات مطلقاً

(٣٨) متى صار التصديق على صورة مادة بمجلس الشورى لزم ان تكون نسخة الاصلية مقيمة في دفتر مخصوص لذلك ويختم عليها الرئيس والاعضاء وتصدر نسخة اخرى عليها علامة كاتب السر وختم الرئيس وتقدم للحضرة المحذوية

(٣٩) الحجب الى مجلس الشورى يومياً والذهاب منه يكون بحسب ما يراه رئيسه باستنساب المجلس

(٤٠) اعضاء مجلس الشورى يحضرون الى المجلس بملابس الحشمة اللائقة وجلوهم فيه يكون بجهة الادب

(٤١) لا يجوز لاحد من اعضاء مجلس شورى النواب ان ينيب بدون اذن بصدر اليه منه وتعتبره تذكرة رخصته من طرف الرئيس ولا يجوز له ان يحرر تذكرة رخصة الا من بعد صدور الاذن من مجلس الشورى ما لم تقض الضرورة الشديدة بتحرير التذكرة على وجه العجلة وبعد تحريرها على هذه الكيفية يغير الرئيس مجلس الشورى بذلك

(٤٢) المحاضر التي تتحرر لانات وقائع مجلس شورى النواب تكون شتملة على أسماء الاعضاء الذين تكلموا بالشورى ورأى كل منهم بالاختصار

(٤٣) المحاضر المذكورة في البند ٤٢ تقيد بدفتر مخصوص لذلك ويقرأها كاتب

تجفيف الحزب الوطني، ومن ههضم الفت جمعيات سرية، وعلى السنة هذه الجمعيات  
وهؤلاء المنتمين حرت لأول مرة في تاريخ مصر الحديث كله: «مصر للصريين».  
وكل هذا كان كما قلنا الى ما قبل سنة ١٨٧٩، أما في هذه السنة فلجلس شورى  
حول شأن آخر

---

قرر في أول مجلس الشورى المنعقد في اليوم الذى يلى يومها ويضع الرئيس امضاءه  
على ذات الدفتر في كل يوم

(٤٤) الاوامر الى تصدر من الحضرة المدبوبة فيما يتعلق بأحدى المحصويات  
الذكورة بالبند ١٧ من اللائحة الاساسية تنلى بمجلس الشورى في الحال ويجرى  
الحل على مقتضاها

(٤٥) التنبيه بالرجاع ما يخرج عما يابق بحسب الاصول انما هو من وظائف  
الرئيس وحده

(٤٦) اذا خرج المتكلم في مادة من المواد عن المسألة المفتضى الكلام فيها لم  
رئيس أن ينه عليه بالرجوع اليها وعدم الخروج عنها ولا يجوز للرئيس أن يادن  
بالكلام فيما يتعلق بسباب الرجوع الى المسألة المفتضى الكلام فيها

(٤٧) يؤذن بالكلام لمن خرج عن الاصول وتنبيه عليه بالرجوع اليها فرجع  
وطلب الكلام ليمتدز ولا يؤذن بالكلام للخارج عن الاصول في غير الصورة المذكورة  
(٤٨) اذا خرج المتكلم عن الاصول وتنبيه عليه بالرجوع اليها مرتين في مسألة

واحدة وطلب الكلام للاعتذار يلزم الرئيس أن يسأل أرباب مجلس الشورى عن  
لزوم منعه من الكلام في بقية الجلسة فيما يتعلق بالمسألة ويقتضى أن يحكم مجلس  
شورى في هذا الامر بالاغلبية

(٤٩) اذا خرج للمتكلم عن المسألة المفتضى الكلام فيها وصار يرجاعها اليها مرتين  
في مسألة واحدة ثم لم بالخروج عنها مرة ثالثة لزوم الرئيس أن يسأل أرباب المجلس  
عن لزوم منعه من الكلام في باقى الجلسة بخصوص المسألة المتكلم فيها وبقتضى  
أن يحكم مجلس الشورى في هذا الامر بالاغلبية

(٥٠) اذا اقتضت الحال الى التنبيه على أحد من الاعضاء بالسكوت لكونه  
تكلم في غير محله وقطع الكلام على غيره فيقتضى أن لا يؤذن له بالكلام في بقية الجلسة



انتهت سنة ١٨٧٨ ومجلس شورى النواب في عطلة فصدر أمر عال بدعوته  
للاجتماع هذا نصه :

« نحن خديو مصر  
بناء على ما عرض علينا من مجلس وزرائنا فامر :

(٥١) لا يسوغ لاحد بمجلس الشورى أن يصدر منه مسبة لاحد ولا اشارة  
بالاقرار أو بعدمه علي قول احد بمجلس الشورى

(٥٢) اذا حصل من أحد الاعضاء أمر يحل باضطراب حال مجلس الشورى لزم  
أن ينبه عليه بالرجوع عن ذلك بالاسم من طرف الرئيس فان أصر على ذلك ولم  
يرجع لزم الرئيس ان يامر بقيد التنبيه عليه في ضمن المحضر الذي يتحرر بما يقع  
في مجلس الشورى في ذلك اليوم وفي صورة ما اذا أصر على عدم الرجوع عن الامر  
المحل باضطراب مجلس الشورى يلزم المجلس بناء على طلب الرئيس ان يتحكم من غير  
مذاكرة باخراجه من محل مجلس الشورى بمدة لا يقتضي ان تزيد على خمسة ايام  
فقط ولا باس ان يامر أيضا باعلان صورة المذكور بالجهة التي يكون ادعائها النائب  
المحكوم عليه بذلك من طرفها

(٥٣) في مدة افتتاح مجلس الشورى في الايام المحددة له لا تعمل دعوى على  
احد من اعضائه بوجه من الوجوه الا ان كان لا سمح الله حصل من احد منهم  
مادة قتل فطعنا لا يعدم من اعضاء مجلس الشورى ويتمن بدله حسبما هو مدون في  
البند ١١ من اللائحة الاساسية

(٥٤) لا يجوز لاحد من اعضاء مجلس الشورى ان يطع وينشر المقالة التي قالها  
بمجلس الشورى او المذاكرات التي حصلت بها من غير ترخيص رئيس المجلس  
بذلك له فان طبع ونشر بدون ترخيص يترتب عليه الجزاء اللازم بقرار من قومسيون  
يتمن من القلم الذي هو من اعضائه

(٥٥) في مدة المصوبة اذا حصل من احد الاعضاء ما يمنع لياقة وجوده عصو  
بمجلس شورى النواب مما هو واضح بالبند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية  
يسقط حق من المصوبة ويتمن بدله كما في البند ١٣ من اللائحة الاساسية

(٥٦) في مدة دوام افتتاح مجلس الشورى في الايام المحددة له لا يقبل الاستعفاء

تولا بالنظام مجلس شورى النواب في يوم ٢٩ ديسمبر الجاري  
فيما بتعيين احمد رشيد باشا رئيسا على هذا المجلس . ونكلف ناظر داخلتنا  
تقديم امرنا هذا

تحريرا بمحروسة مصر في ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٧٨ اسماعيل  
يأمر الخديو : رئيس مجلس النظار — تولا

**من أحد من الاعضاء** وفي اوقات تعطيله اذا اراد احد منهم ان يستغنى لزم ان  
يحم الاستغفاء الى رئيس المجلس ويوصله الى بد الرئيس قبل انعقاد المجلس ثلاثين  
يوما في الأقل وجبئذ تجري المكاتبة لجهته لاجل تسمية غيره كما في البند ١٣ من  
اللائحة الاساسية

(٥٧) رئيس مجلس شورى النواب هو المنوط بال ضبط اللازم في أثناء الجلسات  
الحققة وفيما يتعلق بداخل المحل المد لاقامة المجلس

(٥٨) اذا تراءى لرئيس مجلس للشورى تاخير عقد المجلس في يوم واحد من  
الايام الى اليوم الذي يليه ولو كان عدد الاعضاء مستوفيا كما كان في البند ١١ من  
اللائحة الاساسية فلا مانع من تاخير عنده في ذلك اليوم فقط وبمرض الرئيس  
مسترة الخديوية عن ذلك في الحال

(٥٩) يرسل القدر اللازم من الخفراء لجهة مجلس النواب من طرف الحكومة  
(٦٠) لا يدخل جهة مجلس شورى النواب الا الاعضاء المنتخبون والاشخاص  
المتفقون بمجلس الشورى ومن يرسل من طرف الحكومة بامورية تختص  
باحتلال الشورى وهذا يقع اجراءه لحد ما يصد الامر من الحضرة الخديوية  
بجواز دخول من يتصرح له بذلك بموجب التناكرا التي تعطى لهم حين ذاك من  
طرف رئيس مجلس الشورى

(٦١) حيث ذكر في البند ٢ و ٣ و ٤ و ٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف  
اللائحة في حق من يحصل انتخابهم بوظيفة العضوية بمجلس شورى النواب ومن  
يجوز لهم انتخاب النواب في الانتخاب السابع يقتضي ان الذين يحصل انتخابهم  
العضوية يكون لهم دراية بالقراءة والكتابة زيادة على الاوصاف المقررة في حقهم  
وقد الانتخاب الحادى عشر يحتاج ان الذين يجوز لهم انتخاب النواب يكون لهم  
العلم بالقراءة والكتابة علاوة على الاوصاف المنصوصة في شأنهم أيضا

ولكن لما جاء يوم ٢٩ ديسمبر لم يتيسر لعدد كبير من النواب أن يحضروا  
فتأخر فتح المجلس الى ٢ يناير سنة ١٨٧٩. ووصفت «الوقائع المصرية» هذا الفتح  
في عددها الصادر في ٢٩ يناير قالت :

« . . . . صارت افتتاح مجلس شورى النواب الساعة ٥ ونصف عربى  
بحضور سعادة الخديو الاكرم وبني يديه دولتو افتدتم محمد توفيق باشا ولى عهده  
ودولتو افتدتم حسن باشا ثالث انجاله ودولتو نوبار باشا ناظر مجلس النظار وناظر  
الخارجية والحفانية وجناب المسيو ريفرز ولسن ناظر المالية وسعادة محمد راتب باشا  
ناظر الجهادية وسعادة مصطفى رياض باشا ناظر الداخلية وسعادة على مبارك باشا  
ناظر الاوقاف والمعارف وجناب مسيو دولتيير ناظر الاشغال العمومية وسعادة  
احمد خيرى باشا مهردار الحضرة الخديوية وتليت مقالة النطق الكريم وصورتها اذاعة :  
« أبدي لكم ممنونى من اجتماعكم بهذا المجلس واخبركم بان سبب اجتماعكم هو ان  
طار حكومتى سينتدكرون معكم فى بعض مسائل مالية واشغال داخلية فترجو من  
المولى الكريم ان تم المذاكرة فى ذلك على احسن حال والله الموفق للصواب »

وكان الرأى العام يعلق آمالا كبيرة على هذا المجلس وكان يريد منه أن يخرج  
عن الطوق الضيق الذى حدد فيه اختصاصه فيكتب جريدة الوطن في عددها الصادر  
في ٤ يناير تقول : « ان الآمال جميعها متعلقة بان المجلس المذكور يحذو في هذه  
المررة حذو مجالس أوروبا في استعمال حرية الافكار في جميع مناظراته ومداولاته فان  
ذلك هو السبب الاقوى للممران الشاهد في عموم أوروبا اليان »

وفي يوم الافتتاح ألقى المجلس لجنة منه لرد على « مقالة » الخديو ثم وضعت  
اللجنة الرد ووافق المجلس عليه وقدمه وقد الخديو يوم ٦ يناير في قصر عابدين  
بحضور جمع من الابرار والنظار والكبراء . وفي هذا الرد جهر المجلس بأن «النواب  
هم وكلاء الامة والمدافعون عن حقوقها » ثم جهر بمعنى آخر كل يتبر جريئاً في ذلك  
الوقت وهو أن مجلس النظار مسئول أمام الامة وتمتم لمجلس النواب . وها هو الرد  
تنقله بنصه عن جريدة الوطن الصادرة في ١١ يناير سنة ١٨٧٩ :

« نحن نواب الامة المصرية ووكلائها المدافعون عن حقوقها الطالبون لمصلحتها التي هي في نفس الامر مصلحة الحكومة نرفع الى مقام الحضرة الخديوية العظيمة الشكر الجليل حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب الذى هو اساس المدنية والنظام وعليه مدار العمران وهو السبب الموجب لتوال الحرية التي هي منبع التقدم والرفق وهو الباعث الحقيقي على بث المساواة في الحقوق التي هي جوهر العدل وروح الانصاف .

« ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزراء جعلته مسئولاً كلياً أمام الامة تايداً لمجلس النواب وتحميلاً له . ولذلك حينما خلقت ارادتها السامية لين يطر الوزراء في أمور المالية والاشغال الداخلية دعت نواب الامة ليتداولوا سهم في ذلك حفظاً لحقوق الرعية ومصلحة الحكومة »

ثم استمر الرد فذكر ان ما جاء في « مقالة » الخديو من أن المقصود بإحياء المجلس هو المداواة مع النظار في المسائل المتعلقة بالمالية والاشغال والداخلية بحث في النواب « روح العصر الجديد وأحيا آمال الامة »

وهذا كله يدل على أن المجلس كان يستفيل في تلك السنة وحقاوة في البلاد على روح الالم بما وصلت اليه الحال على يد اسماعيل والرغبة في أن تتولى الامة أمرها معها لتدبر الخطر عن نفسها . فنتظر ماذا فعل بعد ذلك وكيف كان مسلكه بآراء الحكومة

كان الوقت وقت النظارة الاوردية ، ونحب أن يلاحظ القاري أن الوقت كان أيضاً وقت رضا اسماعيل بالنظارة الاوردية لانه لم يثر عليها الا في ابريل ونحن الآن في يناير ، فلما عقد المجلس جلساته الاولى بدأ فأخذ على النظار أنهم لا يحضرون اجتماعاته ولا يقدمون اليه المسائل ذات الاهمية . وعلم النظار بهذا الانتقاد فضع له تاتلر الاشغال مسبو دي بليير فجا ، وتناقش مع المجلس وسمع ملاحظاته أكثر من مرة . واقترح بما سمعه من جوابه . أما رئيس النظار نوبار باشا وناظر المالية السير ديفرذ ولسن فقد كان لكل منهما موقف يستحق أن يذكر على حدة .

ونبدأ بناظر المالية فنقول إنه كتب الى المجلس يطلب منه أن ينتخب بعض اعضاءه

ليذهبوا اليه في وزارة المالية (١) ويتداولوا معه في بعض المسائل فرفض المجلس وقال ان رأيه لا ينحصر في فريق منه ولكنه قبل مع ذلك أن يندب حصة أو ستة منه على شرط أن تكون كل منهم سماع ما يريد الناظر بلبيتهم إياه وان يعودوا الى المجلس ليعرضوا عليه ما سمعوه . ولا ريب في أن هذا كان خطأ من المجلس لار اسواب ليسواسفة يريدون أن على كل ناظر أن يقدم بنفسه بما لديه ، ولكن لعل المجلس ظن أنه بذلك يبعد عن نفسه تهمة التعصب على النظارة الاوربية والناظر الاوربي وقد كانت هذه التهمة دائرة في ذلك الوقت على لسان كل طاعن في المصريين

على أن ناظر المالية استمر بعد هذا ممتنعا عن أن يقدم شيئا فاستعجله المجلس

---

(١) ننقل هنا من محضر جلسة المجلس في يوم ١٦ محرم سنة ١٢٩٦ — ٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتي بنصه :

« سادة رئيس المجلس اخبر بانه وردت افادة من ناظر المالية صورتها : « من حيث اننا نريد المكالمة مع ارباب شورى للنواب في مسائل مهمة تتعلق بامور مالية الحكومة والاسترشاد من معلوماتهم وتجاربهم المحلية فمتصور انه اذا امكن المداولة مع بعض من حضرات الاعضاء الذين يصير انتخابهم بمعرفة المجلس ويحضرون للمالية يكون ذلك مناسبا لطروف الاحوال ويتأتى منه تسيلات لأمورنا . فالرجاء تبليغ ذلك للمجلس والترجي منه بالقبول حسب ما يقتضيه الحال »

« ومحمود بك الططار قال المجلس لا ينحصر رأيه في بعض الاعضاء بل لا بد من المذاكرة بحضور جميع الاعضاء . وانما من حيث ان سادة ناظر المالية طالب بعض ارباب المجلس للاسترشاد فلا بأس من تعيين قدر خمسة او ستة منهم بحيث ان لا يكون لهم رأى ولا قول في اي مسألة كانت وانما ما هو لازم الاستفهام عنه يصير بلبينه لهم ويحضر منهم مكتابة للمجلس بالكيفية وعندها ينظر ويعطى القول اللازم

« استقر رأى المجلس على ذلك وان الذين يتوجهون م..... الخ »

فلم يرد عليه فاضطر المجلس أن يحجر بذلك في جلسته ١٩ يناير<sup>(١)</sup> وأن يعود فينتخب استعجالاً ثانياً . ثم مصت ثلاثة أيام أخرى وناظر المالية لا يزال ساكناً فلما انعقد المجلس في ٢٢ يناير شكوا أعضاؤه بـ « إدمار من هذا السكوت »<sup>(٢)</sup> ثم لم يجدوا إلا أن يبدوا ما لديهم من الملاحظات على الشؤون المالية

وهل تطن أن المتطرس ويفرر وأن أصفى بعد ذلك لهذه الشكوى / كلام لم يصغ البها وكأنه لم يشعر بها ولا بوجود المجلس . ولو أنه كان موظماً مصرحاً لا يستد في منصبه إلا إلى سلطة الحكومة المصرية ما استطاع أن ينكر المجلس هذا الانكار

---

(١) تنقل هنا من محضر الجلسة في يوم ٢٩ محرم سنة ١٢٩٦ — ١٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتي نصه :

« عبد السلام بك المولى — قال حيث افتتح المجلس كان أصل مساء كما هو من مقتضى المقالة الحمد وية الطرق مسائل مالية وأشغال داخلية وتقدم تقرير بالمجلس عن لزوم حضور ذلك وقد حضرت إعادة من الداخلة عن مسائل لا شغال وحصل الوعد عن حضور مسائل المالية . ولما لم يحضر بحور استعجال وللآن لم تأت والمجلس لم يزل في الانتظار . وقبل افتتاح المجلس معلوم عند سعادة ناظر المالية أهمية المسائل المتقضى تقديمها للمجلس وها هو لحد الآن ما ورد منها شيء فأت وافق بكون استعجال حضورها — استقر الرأي على ذلك »

(٢) تنقل من محضر جلسة ٢٩ محرم — ٢٢ يناير ما يأتي نصه :

« تقدم انتهاء من حنا أفندي يوسف والشيخ عثمان الهرمبل والسيد أحمد السرمي وبخوم أفندي لطيف الله وأحمد أغا عبد الصادق والشيخ فضل الزمر ويوسف أفندي رزق وعبد الشهاب أفندي بطرس والشيخ خضر إبراهيم والشيخ حسن عبد الله والشيخ أحمد جاد الله والشيخ محمود عبد الله والشيخ إبراهيم الجبار والسيد اللوزي والسيد سليمان القرني والشيخ محمد فرج ومحمود بك العطار . صار ثلاثه وصورته أدناه :

« منى افتتاح المجلس إنما هو عن رؤية مسائل مالية وأشغال داخلية حسب المنصوص في المقالة الحمد وية التي نليت يوم الافتتاح وقد صار الاقطار لورود مسائل المالية ومع تحرير الاستعجالات عنها المرة بعد المرة ما كانت ترد . وقد مضى على المجلس من يوم افتتاحه لحد تاريخه نحو العشرين يوماً وقد سبق القول بالمجلس أن بعض حضرات الأعضاء عند دم ملحوظات يرغبون إبداءها لكن مدتظرون ورود تلك المسائل وحيث أنها ما وردت فقد ألجأت الضرورة لأن توضح ما عندنا من الملحوظات .... الخ »

ولكنه كان موطئا بالحليزيا بسند في منصبه الى انتداب حكومته من جهة والى السلطة التي كان الدائون قد كسبوها في داخل الحكومة المصرية من جهة أخرى فكان سهلا عليه أن يحقن المصريين مادام مستطيعا أن ينز منهم الاموال بقوة الكرواج للدائنين ومن هاهنا هم ايه حينا طلب من اسماعيل أن ينزل عن السلطة لمجلس نظاره لم يكن يريد ايجاد حكومة مسئولة واما كان يريد ايجاد حكومة يمكن أن يدخلها ويكون صاحب السلطة المطلقة فيها

وقيت الحال كذلك عدة أيام وكان المجلس قد بحث بالملاحظات التي أبدتها بعض أعضائه على الشؤون المالية الى الحكومة كي يرد عليها فاطر المالية فاقصت أسابيع ولم يرد الطارئ ثم اجتمع المجلس في ٩ مارس فقدم ٢٩ عسوا من اعصانه احتجاجا على الطارئ<sup>(١)</sup> ينونا فيه ملك العت الذي يسلكه وشرحو الضك الذي

(١) نقل من محضر جلسة ١٦ ربيع الاول - ٩ مارس ما ياتي :

« تقدم انهام من تسعة واربعين من الاعضاء وصار تلاونه وصورة اداءه :  
 « لا يحى انت معنى افتتاح مجلس النواب في هذا العام كان من اجل النظر في مسائل مالية واشغال داخلية لما ان ذلك من مقتضى المقالة الكريمة التي تليت يوم افتتاحه وقد حضرت للمجلس مسائل تتعلق بالمليات ونظر فيها ونجرت للمحفوظات اللازمة عنها وبشت للداخلية واما المسائل المالية فع ظلها مرارا وعدم حضورها ومعلوماتنا بما هو حاصل للاهالي من الضك والمشفقة وعدم امكان القيام بواء المربوط فتقدم البيان عن التضرا الحاصل من اقلام الارادات والمجلس الخمس حضور سعادة فاطر المالية للمذاكرة معه في هذا الخصوص ولما لم يحضر كتبت للمحفوظات المقتضية وارسلت للداخلية وما كان يرد عنها بجاوبة للآن . وبما ان حقيقة حال الاهالي وما هم عليه من درجات الصبر والمشفقة معلوم عندنا كما يجب ويلزمنا ايضاح ما هو مراء لنا في خصوصها بالنسبة لكوننا نوابا عنهم ولا شك في ان نقل الاحمال التي كلفوا بها هو الذي صيرهم الى عدم امكان الوفاء تلك المطالبات..... وحيث قد مضى من وقت افتتاح المجلس لحد تاريخه زيادة عن سبعين يوما اي اكثر من المدة المقررة للائحة وما كانت نحضر المسائل المالية اللازم النظر فيها ولا الجاوبة عن المحفوظات التي تقدمت من المجلس..... فقد اثرنا ايضاح الكيفية بالتفصيل وبيننا ما هم عليه الاهالي كما هو من واجبات وطائنا حتى لا يبق علينا ادنى ملامة في المستقبل - المجلس وافق على هذا الانهاء وقرر ارساله الى نظارة الداخلية »

تحتيه البلاد وأشهدوا الأمة على أنهم فعلوا واجبه فلم تبق عليهم ملامة . وعند هذا  
لقد من النزاع وقف مؤقتاً لننتقل الى النزاع الثاني الذي قام بين المجلس وروبار باشا  
وسرى بعد ذلك كيف انتهى النزاعان

لاحظ اثنان من النواب هما محمود بك المطار وعبد السلام بك المويلحي أن  
أمراً عالياً صدر في ٦ يناير — أى بعد افتتاح المجلس بأربعة أيام — ونشر في عدد  
١٦ فبراير من الوقائع المصرية وفيه أن للجنة التحقيق التي عينت لفحص مالية مصر  
وللمجلس النظر أن يضام لوائح وقوانين يصدق عليها الخديو وبصدرها بغير أن  
تعرض على مجلس شورى النواب فاحتجوا على ذلك أمام المجلس فأقر المجلس  
استجابهما وطلب حضور روبر باشا ليستجوبه في هذا الموضوع . وكانت وقفة  
المجلس في ذلك اليوم ، يوم أول فبراير وقبل أن يفكر اسماعيل في الثورة على النظارة  
الاوربية باكثر من شهرين ، وقفة تذكر في تاريخه وتاريخ الحياة النيابية في مصر  
ولمنا نقل من محضر اجتماعه ما يأتي بنصه :

« قال الرئيس تقدم انهاء من حضرتي محمود بك المطار وعبد السلام بك وصار  
تلاوته وصورته أدناه :

وأبنا في العدد ٧٩٣ من الوقائع المصرية ذكر يتو مبنى على ما عرضه رئيس مجلس  
النظار على الحضرة الخديوية ونصه :

بناء على التقرير الذي عرض علينا من رئيس مجلس النظار وبناء على رأى  
مجلس النظار الموافق ذلك التقرير أصدرنا أمراً هذا .

أولاً أن قومسيون التحقيق الاعلى مكلف بوضع لوائح وقوانين لجميع المودائع  
اشتغل فيها وبعد نظرها في مجلس النظار واستصوابها يرفعها اليها للتصديق عليها  
ان دعت الحاجة الى ذلك

ثانياً انه من اهداء التاريخ الذي يبين به لا يصح تحصيل أموال ولا اجراء  
أى أمر يختص بمسوم الادارة الا بعد صدور قانون من مجلس نظارنا مصدق عليه  
منا ومنشور في الصحيفة الرسمية . وقد وكلنا رئيس مجلس النظار بتنفيذ هذا الذكر .  
حرر في ٦ يناير سنة ١٨٨٧

ولم ير لمجلس النواب في هذا الذكر يتو امياً ولا خبراً مع أن سائر ما يختص  
بالادارة السومية من تحصيل أموال وضرب ضرائب ووضع لوائح أو قوانين



لذلك وما كان من هذا القبيل إنما يقصد به الاهالى لاعتد وكل ما يقصد به الاهالى لا بد أولا من عرضه عليهم ورضام به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به. وحيث اهم اباؤنا عن أنفسهم نوابا منهم منوطين بالدفاع عنهم والحماية عن حقوقهم والنظر في شئونهم سين المصلحة فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه . وذلك لا يخفى على دولة رئيس مجلس النظار . وكيف يخفى عليه ان للامة المصرية نوابا وهو يعلم دعوتهم للانتظام وقد شهد يوم اجتماع المجلس وحضر افتتاحه وسمع تلاوة الخطاب المخدوي في أعضائه وحضر يوم اجابة الاعضاء على ذلك الخطاب ووقف على مضمون كل من الخطابات وجوابه وعلم ما فوض اليهم أمر المذاكرة فيه . ومن ثم قد أخذنا المعجب وذهب منا الاسف كل مذهب ولا شك في أنكم مشر للنواب قد أخذكم من العجب والاسف ما أخذنا وكيف لا وان مثل دولة رئيس مجلس النظار لا يحفل حقوق مجلس النواب ومقدار احترامها كما لا ينكر ان موضوع الذكر يتوالمحكى عنه ، هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التي لا يصح انتهاكها ولذلك كانت الحضرة المخدوية من عهد تشكيل مجلس النواب لا ترم غالب الامور المهمة التي تكون من هذا القبيل الا بعد أن تعرض على أعضائه ولا يقضى فيها الا بعد اقرارهم على وضعها مع أن تلك الحضرة هي التي منعت الامة تشكيل هذا المجلس . واذا كانت حقوقه محفوظة في الجملة حيث لم تكن ثم ودارة قائمة على دعائم الحرية مكلفة بأمر الاصلاح ومسئولة عنه فكيف تضع تلك الحقوق في عهد تؤمل الامة فيه نوال نوابها بحال حريتهم وغاية حقوقهم علما بأن تلك الوزلة أدري بشئون البرلمنتو وأعرف بمقداره - ا هـ

قرر المجلس المداولة في ذلك وارسال صورة منه الى رئيس مجلس النظار ومطالبة رئيس النظار بالحضور لكي تكون المداولة بحضوره »

فنظن ان كل مطلع على هذا المحضر يوافقنا على أن قول المجلس ان « كل ما يقصد به الاهالى لا بد أولا من عرضه عليهم ورضام به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به » وقوله ان « من الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه » كانا تعبيرا صحيحا عن المطالبة بسلطة الامة وحق نوابها في التشريع .

وفي ٤ فبراير اجتمع المجلس وحضر نوبار باشا فابتدأ بأن قال انه « يقدم المجلس للاحترامات الفاتكة » مقابل المجلس هذه الاحترامات بالشكر ثم تلى تقرير محمود بك بطار وعد السلام بك الموبليجي وطلب من نوبار باشا أن يجيب عليه فقال ما نقله هنا عن المحضر بنصه وهو :

« المسألة التي قالوا عنها انما هي مسألة أساسية ولو كانت من خصائص الداخلية او المالية او الحفابة او الاشغال كان من الممكن ان اجاب عنها انا ورفقائي لكن لوجوب قبول عذري في عدم المجاورة عنها الآن وهذا بالطر لكونها مسألة اساسية نحتاج للمذاكرة والمشاورة فيها بمجلس النظار والعرض عنها للاعتاب السية »

فرد عبدالسلام بك ومحمود بك المطار بأنهما يوافقان رئيس النظار على ان المسألة اساسية وليكهما يقولان ان هذه الاساسية نفسها هي الموجب لان يكون النظر فيها من حقوق المجلس . ثم قالوا وقال المجلس معها « ان كل مملكة وكل حكومة تقدمت كلن اساسها اشترائك الواب في امثال ذلك » وان « المرجو هو استحصال المجلس على حقوقه » . فلم يجيب نوبار باشا بغير أن كرر قوله السابق ثم لحأ بسرعة الى احدى حيله التي اشتهر بها فطلب من النواب أن يشتركوا معه في اختيار « الموظفين المستقيس السير » لاصلاح الادارة المصرية ١١ ورحا منهم ان يأتوا اليه في ديوانه لهذا الغرض ١٢

ولم يعد نوبار بعد ذلك الى المجلس بالجواب الذي وعد به ولكن مجلس النظار اجتمع في النصف الاخير من مارس وقرر قض المجلس بدعوى ان مدته انتهت واستصدر من الحديو أمراً هذا نصه :

« بناء على ما حواه البند التاسع من مجلس شوري النواب من ان مدة توكيلهم عن الاهالي تكون ثلاث سنوات وما عرض علينا من مجلس النظار من ان المدة قد انقضت أصدرنا أمراً بانفضاض المجلس وكلفتنا ناظر داخلينا بتنفيذ ذلك في ٢٩ مارس سنة ١٨٧٩ »

فكان هذا الامر جواب النظارة على النزاعين اللذين قاما بين رئيسها وناظر ماليها من جانب والمجلس من جانب آخر، كما كان دليلا على ان النظارة الاوربية كانت تريد ان تخلص بهذه الطريقة من مراقبة المجلس ومن الروح القوية التي كانت تراها فيه . ولكنها لم تخلص وما كن الامر الذي استصدرته بفض المجلس

الاصبيا لا زدياد السخط في البلاد واذ ذاك شعر المجلس بان من حوله قوة كبيرة من  
الرأى العام تؤيده وتطلب منه المقاومة قاوم وكان لذلك يوم جليل مشهود

### يوم كيوم مبرابر

ذهب رياض باشا ، وكان وزيرا لداخلية ، الى المجلس وفي يده أمر الفض  
فتلاه على الاعضاء وهو معتقد أنهم جميعا سيقابلونه بالسمع والطاعة وأنهم قد يتذرون  
ولكنهم سيكظمون تذرهم في أعماق قلوبهم وسينصرفون . كان هذا هو الذي  
يعتقده ، فلشد ما دهش اذ رأى صد الفراغ من التلاوة ، أن الاعضاء ما زالوا في  
أما كنهم وأن واحدا منهم هو عبد السلام المويلحي بك وقف وقال في قوة وغضب  
ان ما تقوله الحكومة من ان مدة توكيل المجلس قد انتهت غير صحيح لان المدة لم  
تنته بعد ولهذا سيبقى المجلس في مكانه وسيوالي اجتماعاته حتى يؤدي واجبه نحو  
الامة . وقام عضو آخر <sup>(١)</sup> وقال ان هذا رأينا جميعا فاجاب كل الاعضاء بالإيجاب .  
وخرج رياض باشا كما جاء فلم يحمل الى النظارة خبر انقضاء المجلس وأما حمل خبر  
عسكته بمجته وثورته عليها . ويحسن هنا أن نترك الكلام لحريدة « الوطن » <sup>(٢)</sup> فقد  
قالت في عددها الصادر في ٥ ابريل سنة ١٨٧٩ :

« بعد أن تكلمنا مرارا كثيرة عن مجلس النواب وأصل وضعه وحقوقه  
وواجبات الامة نحوه وذلك في وقت انقضاء مجلس شورى النواب المصرى شغلنا  
عن ذكر ما تراه شواغل الايام والآن نقول ان حضرة عطوفتو رياض باشا حضر  
أمام المجلس وأخبرهم بلسان حضرة الخديو بانقضاؤه وان الحكومة متشكرة لهم  
على ما أبدوه من الساعى اى النظر في الاحوال والدعاوى فقام حضرة من اشهر

---

(١) لم نثر مع الاسف الشديد على محضر اجتماع هذه الجلسة ولكننا عثرنا على  
ما كتبتة عنها جريدتنا الوطن والتمس في ذلك المهد . ولم نجد في الجريدتين اسم  
هذا العضو ولكن حضرة يوسف بك المويلحي اطلعنا على مذكرات عنده تقول  
انه حسن بك عبد الرزاق

(٢) كان مدير جريدة الوطن ورئيس تحريرها في ذلك الوقت مبخايل افندى  
عد السيد وكان يؤيد الحركة الوطنية تأييدا صادقا

الصراحة والبلاغة والمدافعة عن حقوق ابناء وطنه عزتو عبد السلام بك المولى يحيى  
 ربح بسببه المصعب وبيانه المذهب بانه لا معنى لشكرات الحكومة فانهم لم يبدوا  
 سرورة تشر ولم يغفلوا شيئا مطلقا يذكر وان المجلس يستمر على انقاده. فقام عضو  
 آخر وقال ان هذا الحكم هو اعراب عن افكارنا ومطابق لمطابقة تامة لانظارنا  
 يغيب جميع الاعضاء بالانجاب وقالوا له بصوت واحد ان هذا هو الصواب فان  
 لارتباكات المسألة والمشاكل السياسية تستلزم استشارة امثالهم كما هو حاصل في  
 تلك الثانوية والاولية فانه اذا وقعت أية دولة في ارتباكات ومشاكل وعقد مدهمة  
 وشواغل استعانت باستشارة نواب الامة. فاستغرب سعادة ناظر الداخلية من هذه  
 التهمة والمهمة وتطلبهم لحقوقهم المهمة وأخبرهم بانه سيرض هذه النفسية على  
 الحضرة المحذوبة وعلى مجلس الوزراء. فاجتمع النواب وحرروا خطابا لناظر الداخلية  
 يخبرونه فيه ببعض الاسباب الموجبة لعدم انعقاد المجلس فذكروا انهم لما بالآلة  
 لم يعرفوا ما استقر عليه مجلس الوزراء من جهة الترتيبات وغيرها مع ان وظيفتهم  
 تستلزم الاطلاع على هذه الامور وتقتضي بذل السعي المبرور لهم التمثيل وضم المنور  
 وهذا الامر مناسب جداً فانهم لم يأوا شيئا إذا وإلا اذا سافروا الى نواحيهم وسألهم  
 بعض متخبيهم عما فعلوه فبأى شيء يخبونهم. ألا يتندرونهم قائلين قد رجعت بخفي  
 حين بل انتم السبب في تجريمتنا كاس الحين

ثم ختموا جوابهم باقامة الحجة على منع حرية للطبوعات الاهلية. ويقال انه  
 قد اجتمعت جمعية من العلماء واثابت واحدا منهم ليحير مجلس النواب بانهم مؤيدونهم  
 في مطلوبهم مساعدتهم على مرغوبهم وانه يجب على كل منهم ان يكتب لاهل  
 ناحيته لتسكين خاطرهم واعتماد جاشهم الذي جاش عند بلوغهم باقتضاض المجلس .  
 فهذه هي احوال مجلس النواب في الوقت الحاضر . ويستفاد من خطابهم الذي  
 حرروه انهم لم يشغلوا لغاية الان الا بأمور جرتية وانهم لم يميلوا بعد التنام عن  
 الامور الكلية فلم ينظروا في الميزانية مع انكشافها للبعض ولم يطلعوا بعد على  
 التقرير الذي حرره ناظر المالية وارسله لجميع القناصل وبلاد أوروبا ولم يعرفوا  
 لغير الرب وغيرها . وبالاختصار انهم لم يطلعوا على الترتيبات الجديدة والنظامات  
 المدينة ومعلوماتهم بهذه الامور لم تخرج عن حد الحدس والتخمين . وزد على ذلك  
 انهم لم يسئوا لاقتسام قانونا ليكون المجلس آلة قوية في الاصلاح كما حصل في  
 اماره البعارة

ونشرت التيسر لمراسلها في القاهرة في ١٦ أبريل مايلي :

« ان أعضاء مجلس شورى النواب اظهروا ادلة كثيرة على حياتهم واستقلالهم ،  
وايس آخر هذه الادلة اقلها شأنا فقد ذهب رياض باشا ماطر الداخلية منذ أيام الى  
المجلس ليعلن رسميا انتهاء دور انعقاده فخطب النواب خطبة لطيفة رقيقة نوه فيها  
بخدماتهم وأشار الى انتهاء واجباتهم كلها . ولكن رياض لم يحد حذو اوليعر كرومويل  
وأبى المجلس ان يرفض وقام أحد النواب خطيبا فرفض تحية رياض الختامية  
وصرح بالنيابة عن بقية النواب بان النواب على عكس مقال رياض باشا لم يفعلوا  
شيئا وان أمامهم عملا كبيرا هو مراقبة الوزراء واهم من أجل ذلك يابون الارفضاض .  
وأيد الخطيب زملاؤه كلهم كما أبد الاعيان في منصب التنس نرساي فخطيبهم ميرابو  
في احد المواقف المشهورة . وعلى ذلك لا يزال مجلس شورى النواب المصرى يعتقد  
اجتماعاته وهو الآن يتشدد في وجوب خضوع النظار الاجانب والمصريين لارادته  
وصيورتهم مسئولين أمامه عن تصرفهم في أعمالهم . فالنواب في الواقع ينوون  
تحويل الحكومة المسئولة اسما الى حكومة مسئولة فعلا »

### مجلس نأى الوزارة أمام

لم يكذب خبر هذا الموقف الذى وقفه مجلس شورى النواب يصل الى الجمهور حتى  
تحركت في النفوس كوا من الآلام والآمل وانتعشت بان وجدت قائدا يقودها  
وصوتا ينادى بما يخلج فيها . وكانت فكرة « مصر للصريين » قد انتشرت  
وكانت جمعيات سرية وغير سرية قد ألفت ، ثم كانت الفكرة الوطنية قد نمت حتى شملت  
كما تقدم اسماعيل صديق باشا قبل قلة ، وكانت دروس السيد جمال الدين الافغانى  
قد أبيت في شيوخ الازهر روحا تتردد على الفساد وتنادى بالاصلاح ، فالتأم كل  
ذلك مع ثورة المجلس على نظام الارهاق فكان أن اخذت البلاد كلها تنلى بشوة  
فكرية هي ثورة القيد المذهب يريد أن يكسر قيده ليخلص من عذابه

وممن شك في أن الحديو اسماعيل باشا كل ينظر الى هذه الحركة بعين الارتياح  
لانه رأى فيها بابا لاستعادة سلطته والخلص من اغلال الظلمة الادورية . ويطلب  
على الظن انه وقد قوي في نفسه هذا الامل وصحت عزيمته على تحقيقه أراد أن

يوجه الحركة الى الطريق التي يريدناها وعرالى بعض الوزراء السابقين بان يندمجوا فيها ويتولوا قيادتها . فكان ان عقد اجتماع<sup>(١)</sup> في أوائل ابريل في بيت اسماعيل واعقبه  
 بلنا حضرة شريف بلنا وشاهين باشا وحسن راسم باشا وجعفر باشا وخيري باشا  
 والسيد البكري والشيخ الخلفاوى والشيخ العدوي واتفقوا على كتابة عريضة يطلبون  
 فيها أن تكون النظارة وطنية وأن يعاد نظام المراقبة الثابتة وأن تكون الوزارة  
 مسئولة أمام مجلس النواب . فكتب العريضة ووقعها الحاضرون جميعا ووقعها معهم  
 بطريرك الاقباط وحاجام الاسرائيليين وسبعون من العلماء وستون من الباشوات  
 وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش . وقد  
 تقدم ذكر هذه العريضة كما تقدم أن الخديو اسماعيل باشا اعتمد عليها في استدعائه  
 قناصل الدول مساء ٧ ابريل وأبلاهم انه كلف شريف باشا تأليف وزارة وطنية  
 مسئولة أمام مجلس النواب .

### المبعس في وزارة شريف باشا

وفي الواقع ان الخديوي كان قد أصدر الى شريف باشا في اليوم نفسه وقيل  
 أن يستدعي القناصل أمرا تذكره هنا بنصه لاهيته وهو :

« اي بصفة كونى رئيس الحكومة ومصر يا أرى من الواجب على ان اتبع  
 رأى الامة وأقوم بإداء ما يلحق بها من جميع الالوجه الشرعية لكنى لما نظرت السير  
 الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الاسف من ان ذلك السير كان على  
 غير رضا اللة والاهالى حتى نشأ عنه اضطراب وخور مرى في جميع القلوب وحركها  
 وكانت قبل ذلك في غاية الهدوء والكون . وطالما اخبرت النظر وكلاء الدول  
 ونهتهم على تلك الملعوظات فلم يفتظوا لها ولم يلتفتوا اليها . وزيادة على ذلك فان  
 النتيجة التى حررها ناظر المالية واظهر بها ان القطر في حالة المدم (٢) واجل العمل  
 بمقتضى القوانين المتبعة ونجارى فيها على الحقوق الناجبة كانت سببا لتغيير قلوب

(١) جريدة الوطن بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٨٧٨

(٢) تقدم ان السير رفرزولسن اعلن تأجيل كوبون شهر ابريل فكان هذا  
 بمثابة اعلان لافلاس الحكومة المصرية

الامة وتغورها من هيئة الطائفة كل النور . وحقق في ذلك المحضر الذي تقدم لي في هذا الخصوص (٧) . فاجابة لما عرض على بذلك بالنظر لثبوته عندى قدوكتكم تشكيل هيئة الطائفة بناء على الارادة المبادرة في ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ وان تكون تلك الطائفة مشكلة من اعضاء اهلين مصريين بقبولهم في سبيل الطرق المنصوص على في الادارة المذكورة وان يحفظوا على مآمورياتهم كل التحفظ اذ أنهم مكلفون بالمسئولة لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخابه وتعيين مآمورياته بوجه كاف للقيام شاذية مايلزم للحالة الداخلية ومرغوب الامة نفسها »

هذا هو الامر الذى أصدره اسماعيل الى شريف باشا ومن السهل أن يري فيه كل انسان ان اسماعيل يعتمد ان ياتي المسئولية في جميع المصائب التى حلت بالبلاد في عهده على الطائفة الاوربية ليكتسب ميل الامة . وكل من يقرأ تاريخ تلك الايام يري أنه كان يحضر اجتماعات وحفلات تقام في بيت البكري وغيره ثم يقف فيها بين الناس فيدعو بالخير للامة ويقرأ الفوائح لاولياء الله كأنه زعيم وطني ورئيس ديني، ولكنا نمر بهذا لاننا لا ننتظر فيه بل في شئ آخر هو الحياة اليباية . ولهم لدينا الآن ان هذا الامر يصح على تأليف وزارة يكون اعضاءها « مكلفين بالمسئولية لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخابه » ، وتلك هي اول مرة ألفت فيها وزارة على هذا الاساس .

وبعد اربعة ايام من تأليف وزارة شريف باشا في ١٠ ابريل سنة ١٨٧٩ ( ١٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٦ ) اجتمع مجلس شوري النواب فثلا عليه رئيسه خطابا جاءه من وزارة الداخلية هذا نصه (٢) :

« ولوانه كان تقرر بمجلس النظار السابق عن اقتضاى مجلس شوري النواب لاقضاء مدته حسب ما تقرر لسماعتكم في ربيع آخر سنة ١٢٩٦ نمرة ٣١ لكن حيث ان مقتضيات الاحوال مستلزمة بإبقاء للمذاكرة والمفاوضة معه في بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن اسمواره واقتضى تمريره لسماعتكم للاحاطة بذلك وتفهيم حضرات اعضاءه بدم الانصراف »

( ١ ) يريد العريضة التى سبق ذكرها

( ٢ ) الوقائع المصرية في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦

وفي جلسة ١٧ مايو حصر شريف باشا وقال <sup>(١)</sup> : « انه يقدم للمجلس اللامتناهين  
 لاختيارين بأسماء المجلس وبالاتحاد . وقد أحصر معه اللائحة الاساسية <sup>(٢)</sup> . اما لائحة  
 لاختيار معي تحت التمييز والبطر في مجلس النظار »  
 وفي اليوم التالي الف المجلس لجنة من بعض أعضائه للنظر في « اللائحة » التي  
 قدمها اليه شريف باشا . وفي ١٥ يونيو قدمت هذه اللجنة تقريرها وتبلى في المجلس .  
 وفي ٢٥ و ٢٦ يونيو عزل اسماعيل وولي توفيق . وفي ٥ يوليو كان عزل اسماعيل عنوة  
 قد أثر في النفوس فمقد مجلس شورى النواب آخر جلساته وذلك ان نظارة الداخلية  
 أثبتت انها لا تستطيع أن تقدم اليه لوائح ولا قوانين الا بعد زمن طويل فرأى  
 أعضاؤه أن يقضوا هذا الزمن في مهامهم الخصوصية وانصرفوا ثم لم يجتمعوا بعد ذلك  
 الا في ديسمبر سنة ١٨٨١ .

- (١) الوقائع المصرية في ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٦  
 (٢) لم تصدر هذه اللائحة ولذلك لا نرى حاجة لنشرها غير اننا نلخص هنا  
 أهم ما كانت تشتمل عليه وهو : مدة النيابة ثلاث سنين . المسائل التي تقدم من  
 النظار للنواب تصير المذاكرة فيها بمجلس النواب واذا تراءى فيها ملحوظات تجري  
 المناظرة عنها مع مجلس النظار وانما يكون ذلك مقرونا ببيان الأوجه والاسباب .  
 اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار  
 المناظرة وبيان الاسباب ولم تستعف المناظرة للحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس  
 النواب وتجديد انتخاب أعضائه على شرط ألا تتجاوز مدة الانتخاب اربعة أشهر  
 من يوم انقضاؤه الى يوم اجتماعه . اذا أيد مجلس النواب بعد تجديد انتخابه رأي  
 المجلس السابق وجب تنفيذه ويجوز للامة ان تنتخب نفس النواب السابقين او  
 بعضهم . رئيس المجلس ووكلاءه وكتيبته يكون تعيينهم بمعرفة نفس المجلس . مذكرات  
 النواب ومداولاتهم في الجلسات العمومية تكون علنية . وضع القوانين واللوائح  
 يكون ابتداء بمجلس النظار ثم تعرض على مجلس النواب للنظر فيها وتنقيحها بحيث  
 لا يكون القانون مستعراً دستوراً للعمل ما لم يجل بمجلس النواب بتدأ فبتدأ ويعط  
 عنه القرار ويحرر التصديق عليه من الحضرة الخديوية . لائحة ادارة مجلس النواب  
 الداخلية تعمل بمعرفة . أعضاء مجلس النواب لا يزيدون على ١٢٠ بما فيهم نواب  
 السودان حسب البيانات التي توضح بلائحة الانتخاب . النظار مسئولون أمام مجلس  
 النواب عن كونه الاحوال والاعمال المختصة بإدارتهم وبناء على ذلك يجب على مجلس



## شهادات ذات قيمة

والآن وقد فرغنا من هذا الدور من ادوار مجلس شورى النواب بحسن ان  
ثبت هنا الشهادات الآتية :

شرت التمس اراسلها بالاسكندرية في ١٥ ابريل سنة ١٨٧٩ كلمة عن المجلس  
قال فيها : « اظهر مجلس شورى النواب المصر فائدة عظيمة في مناقشة مشروعات  
الاصلاح الزراعى وتوسيع نطاق الاعمال العامة »

وقال مسبو مالك كون في كتابه « مصر كما هي » في هامش صفحة ١١٨ : « ان  
النواب عامل مفيد في سياسة مصر الداخلية »

الطار المادة الى وضع قانون لحاكة الطار عند الاقتضاء وعرضه على مجلس النواب.  
لا يجرى العمل بأمر صادر من الحكومة ما لم يكن ممضي من الناظر المختص ومطابقا  
لقانون معتبر . اذا تراءى للنواب التكلم في بعض مواد خلاف ما يتقدم لهم من  
النظار فتجرى المداولة فيها ويرسل اخطار بذلك لمجلس الطار ومدت ثمانية ايام من  
تاريخ إرسال ذلك الاخطار ان لم يرد من مجلس الطار اوجه تمنع من المذاكرة فيها  
ويقر النواب قبول تلك الاوجه فلم ان يتمموا مداولتهم ويصدروا قرارهم فيها .  
الطار ملزمون بالحاونة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب اما بان يتوجهوا  
بأفسهم او بان يتقدموا أحد كبار متوظفي دوائهم للتعجوبة بالنيابة عنهم . من حقوق  
النواب ان يلاحظوا المصاريف العمومية بالدقة التامة وان يقرروا مقدارها ويجب  
عليهم ان يبينوا كبة الواردات وكيفيتها وضرب الضرائب والجبايات وطريقة توزيعها  
وأوقات تحصيلها فلا يجوز ضرب ضريبة من أى نوع كانت ولا توزيعها وتحويلها  
ولا تمكليف الاهالى بشيء ما الا بعد اقرار مجلس النواب عليها كما لا يجوز صرف  
شيء من متحصلات الضرائب زيادة عما يقر عليه مجلس النواب . للنواب ان  
يطلبوا عقب افتتاح المجلس الميزانية العمومية الجارية للواردات والمصروفات لينظروا  
فيها ومتى قرروا عليها بمد البحث التام لا يعمل بها الا في تلك السنة ويلزم في  
السنة التالية تحرير ميزانية ثانية وعرضها على مجلس النواب كما تقدم وهكذا سنويا .  
لكل نائب من النواب حق اذا رأى أي قصور من أي مأمور وفي أي ادارة من  
ادارات الحكومة ان يكتب بذلك للناظر المختصة به الادارة وهذا فقط في  
الواد العمومية

وقالت التيس في مقال افتتاحي في ١٦ إبريل سنة ١٨٧٨ : « ربما كان كثير من الاعضاء صناع للخديو ولكنهما تكن طريقة انتخاب هيئة نيابية فلا يدان فحصل هذه الهيئة على شيء من الاستقلال عندما تعمل بمجموعة . ويظهر ان مجلس نواب مصر لا يشذ عن هذه القاعدة »

وقد تقدم ما كتبه مراسل التيس في القاهرة ونشرته هذه الجريدة في ١٦ إبريل سنة ١٨٧٨ عن جلسة مجلس شورى النواب التي رفض الاعضاء فيها ان ينفذوا وان يقبلوا الامر الذي تلاه عليهم رياض باشا

هذه كلها شهادات تدل على ان روح مجلس شورى النواب كانت مستقلة تعمل لمصر لا لاسماعيل . واليك شهادة اخرى تدل على ان المجلس كان محاطا بحركة وطنية منبعثة من الشعب وان هذه الحركة كانت حقيقة لا صورية .

كتبت التيس في ٣ مارس سنة ١٨٧٨ تصف ثورة الشعب الفكرية على أثر فترة الضباط التي وقعت في ١٨ فبراير وقالت :

« لقد وقعت الفتنة في حوزة مغم بالخط والتذمر فكانت مثل شعلة متقدة انت في مستودع بارود فلا نسل عما ابتغته من اضمار سخط المصريين انفجروا تحت في مظاهرات واحتماعات للشايخ والاعيان والطهاة وأقرت استعجال القضاء النظام ( اى نظام الحكم القدي كان موجوداً اذ ذاك ) وخرجت منها وفود الى الخديو تحمله المعونة في نزاعه مع سادته الاوربيين وتطلب أن تكون للأمة يد في حكومة البلاد »

وكتب السير فرنك لاسل القدي كلن قصلا عاما لانجلترا في القاهرة في ذلك الوقت الى وزارة خارجية حكومته تقريراً في ٢٩ إبريل سنة ١٨٧٨ وصف فيه الاحتيا العام القدي كلن يشمل الشعب المصري ثم قال :

« . . . . ويؤكدون ان هذا الاسيا عينه من الحال الحاضرة منتشر انتشاراً كبيراً في الجيش وانه ولد شعور عدا للخدو ليس فقط بين أفراد العسكرية للتسعين الى طغاة الامة المرحمة بل بين الضباط أنفسهم . ويؤكدون لي أيضاً ان هؤلاء وان كرهوا كل الكراخه أى تدخل أوربي يتبرون الخديو مشولاً عن الصائب التي أصابت البلاد »

ادن كان السخط على التدخل الاوربي وعلى اسماعيل شاملا للشعب والحيش معا.  
وى التفارير التى يراها القراء فى ذيل هذا الكتاب بقلم احمد عرابي ما يؤيد هذه  
الحقيقة . وبدعى انه لولا ان يكون السخط قد شمل الحيش لما نشئت قبة الصراط .  
ولدينا بعد ذلك شهادة قوية أخرى هي التى كتبها مستر تيودور رونسبين فى  
كتابه « المسألة المصرية » صفحة ٨١ من الترجمة وهى قوله :

« ان مايفعله المؤرخون الرسميون من تصوير الاعيان والعلماء وغيرهم من  
الطبقات المصرية الراقبة فى ذلك الوقت فى صورة آلات فى يد اسماعيل مسخرة  
لامره فاقدة الاستقلال الحقيقى والفكرى لمن قيل « اجبت بالمخافتى التاريخية ونسبها .  
قد يكون النواب بحكم الظروف مستعدين للاقتياد لاسماعيل ومساعدته فى رفع النبر  
الاوربي عن بلادهم ولكنهم مع ذلك كانوا يمتقنون له لانه كان على شقايتهم وبلادهم وقد  
بلغ هم الامر بعد الانقلاب السياسى ( اى بعد اقالة النظارة الاوربية وتعيين نظارة  
شريف باشا ) ان فكروا فى عزله . وما يسل حقيقة على مبلغ كره المصريين له انه لما  
عزل وأخرج من البلاد لم يرتفع صوت واحد بالدفاع عنه »

### عبر توفيق باشا

اتبعي عهد اسماعيل وجاء عهد ابنه توفيق قلنا لا نجد أبلغ من هذا الابن  
وصفا لما خلفه أبوه من الشقاء وايضا لما كان على البلاد ان تعانيه من صده وبسبه  
من المتاعب . فقد كتب هذا الابن غداة توليه العرش الى شريف باشا يكلفه ان  
ؤلف النظارة فقال :

« يا وزيرى العزيز »

لقد استمعت الوزارة فاكلك بتشكيل وزارة جديدة ولا أزيدك بحقيقة  
الحال علما

« ولما قضت العناية الإلهية بوليتى أمر بلادى جعلت على واجبات ليس من  
همى الا النهوض بها بامانة وشهامة على علمى بمقدار صعوبتها وجسامتها المطالبين  
للمزاكفة على مع الارتباك والفترة للمالية التى انزعجت منها المواطن اذ وقعت حركة  
التجارة وأوجدت فترة فى البلاد لم تقع فى مصر من قبل . على انى عظيم المبل الى  
بلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الامة التى اظهرت السرور بولايتى وفى اخراجها

من هذه الحال السيئة . ومع هذه المواظف فاني عازما عزم أكيدا على بذل الجهد  
وصرف الهممة الى التماس احسن الوسائل لازالة هذا الاختلال المنقصد لكثير من  
المصالح . . . . . الخ »

هذا هو ما خلمه اسماعيل : مطالبات متراكمة ، وارتباك ، وحالة مالية ازعجت  
منها الخواطر ووقعت حركة التجارة ، وفترة لم تقع مصر في مثلها من قبل ، واختلال  
مفسد لكثير من المصالح . والذي يقول هذا هو انه توفيق ، وفي نفس اليوم  
الذي عاد فيه من توديع والده يكسف الدمع حزنا على هذا الوالد ورناء لما اصابه .  
لا جرم كانت البلاد مقبلة على خطر وكان المصريون يشعرون بهذا الخطر ويعرفون  
انهم لم يستندفوا له الا لان حكم الفرد عث بمصالحهم في سبيل شهواته فلا  
منحة لهم الا بان يتولوا امرهم بأنفسهم وان يقيموا الحكومة البابية .  
ولقد كانت صيحات مجلس شورى النواب باسم الامة لا تزال ماثلة في الادهان ،  
ثم كانت الامر الذي أصدره اسماعيل لشريف باشا في ١٧ ابريل سنة ١٨٧٩  
بتأليف وزارة مسئولة أمام النواب قد اعتبر خطوة غرت بها الامة بعض حقها ،  
كما كان مشروع القانون الاساسي الذي قدمه شريف باشا لمجلس شورى النواب قد  
اعتبر متما لهذا الخطوة ، كل ذلك فكانت النفوس منشعة بالرغبة في الحكم  
البابا متأله من انها وقد دنت منه حتى أوشكت أن تقبض يدها عليه جاءت حوادث  
فصلتها عنه الى حين .

تلك هي الحالة النفسية التي كانت عليها البلاد حينما تول توفيق العرش . ويجب  
ان نعتقد انها كانت قوية لان توفيقا اضطر ان يردد صداها في « أمر كريم » أصدره  
في ٣ يوليو سنة ١٨٧٩ الى وزارة شريف باشا بعد تأليفها وقد أراد منه ان يكون  
برامجا يأخذ على نفسه أمام الامة ، وإليك ما قاله فيه :

« ان العناية الالهية سلمت زمام الحكومة المصرية الى يدا فضلا منه ولحسانا  
فقد تشرفنا بأمر شريف بذلك من متبوعى الانغم وسلطاني الاعظم بصره الله  
..... ولعلنا ان الحكومة المديونية يلزم ان تكون شورى ونظارها  
مشولين فاني اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا أحول عنه . فليتنا تأيد  
شوري النواب وتوسيع قوانينها لكي يكون لها الاقتدار في تنقيح القوانين وتصحيح  
الوازين وغيرها من الامور المتعلقة بها . . . . . الخ »

ففي هذا البرنامح قرر توفيق جرياً مع الحالة العسبة التي كانت عليها البلاد أولاً ان الحكم يجب ان يكون نيابياً، وثانياً ان الطارح يجب ان يكونوا مسئولين. نعم انه لم يبين هـا المهمة التي يسأل الطارح أمامها فهي مجلس النواب أم الحديو ولكننا لا نظن ان كلمة « مسئولين » كانت تلقي في ذهن الرأى العام في ذلك الوقت شيئاً غير المسؤولية التي ذكرها اسماعيل في أمره الصادر في أبريل ، وخاصة لان توفيقاً يتحدث بعد ذلك عن « تأييد مجلس شورى النواب » و « توسيع قوانينه » كأنه يشير بذلك الى المشروع الذي كان شريف باشا قد قدمه .

ولكن توفيقاً بعد ان ارتبط أمام البلاد بهذا العهد الطويل في ٣ يوليو ترك مجلس شورى النواب ينفض في ٥ يوليو ، ثم عصت شعور وشهور دون ان يدعو للاجتماع مصنياً في ذلك لتصائح المراقبين الاجنبيين الذين كانوا يستمعان بالسلطة المطلقة في مالية الحكومة فكانوا يكرهان ان يوجد بجانبها مجلس نواب يمارعها هذه السلطة . ومصفاً أيضاً لتصائح قنصلي انجلترا وفرنسا الذين كان نفوذهما قد تغلغل في جميع دوائر الحكومة حتى صاروا السيدين للطلعين من الحديو والنظارة فلم يكن يسرها ان يأتي مجلس النواب بعد ذلك فيأخذ منها هذا النفوذ .

ولم تفس نظارة شريف باشا الا أياماً ثم استقالت فتولى توفيق رئاسة مجلس النظر بنفسه ثم ارسل فاستدعى رياض باشا من اوريا فلما جاء اصدر اليه في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ أمراً بتأليف النظارة فلم يذكر فيه شيئاً لا عن الحكومة التي يجب ان تكون شوربة ، ولا عن مجلس شورى النواب الذي يجب توسيع اختصاصه ، ولا عن النظر الذين يجب ان يكونوا مسئولين . والى رياض باشا نظارته ورفع بتأليفها كتاباً الى توفيق فلم يذكر فيه هو أيضاً شيئاً عن الشورى ولا عن المجلس ولا عن مسؤولية النظر .

ومضت بعد هذا سبعة عشر شهراً من سبتمبر سنة ١٨٧٩ الى فبراير سنة ١٨٨١ بغير أن يدعي مجلس شورى النواب للاجتماع وبغير أن يدعو على توفيق رغبتى الوفاء بعهده فاشتد التذمر منه ومن ودارة رياض باشا وكان هذا التذمر واحداً من الاسباب العميقة التي حركت عوامل الاضطراب . نعم ان لهذا الاضطراب الذى ظهرت

يوالده في حادثة قصر النيل ثم في طلب عرابي وزملائه عزل عثمان رفقي باشا ناظر  
 للحداثة عوامل أخرى كان أظهرها استياء الضباط المصريين من اختصاص رملاتهم  
 الشراكية بكل صاحب الجيش العالي، غير أن الحق الذي لا يستطيع أحد إنكاره  
 هو أن هذا الاستياء وحده ما كلل كافيا لأن يحدث اضطرابا ولا لأن يؤدي إلى ثورة  
 هو أن الأمر اقتصر عليه وحاج الضباط من أجله لبقى هياهم محليا ولوجدت  
 الحكومة من سند الامة ما يساعدها على اطفاء الفتنة بانصاف المستأجرين أو مساقبة  
 هذين، ولكنها لم تجد هذا السند بل وجدت الامة بالمعكس، مؤيدة للمفسدين عليها  
 متحفزة للثوب أمامهم الى الثورة فانكشت مدها وطالت يد الصباط. ولا أحب  
 هنا أن احادل كثيرا في هل الفكرة الاولى التي صدر عنها هؤلاء الضباط حينها حقا  
 وطلوا عزل رفقي باشا واصرموا بذلك أول شرارة في نار الثورة العرابية كانت  
 فكرة المناصب وحدها أو كانت المناصب والحكم النيابي ( وباب الجدل في هذا  
 مفتوح لان عرابيا يؤكد انهم طلبوا في عريصهم التي قدموها لعزل رفقي باشا  
 إيظمة الحكم النيابي <sup>(١)</sup> بينما الشيخ محمد عبده ينكر ذلك <sup>(٢)</sup> ) ولكني أقول اننا اذا  
 سلنا بان الفكرة كانت فكرة المناصب وحدها فيجب أن نسلم أيضا بانها لم تكن  
 كذلك الا في نظر الصباط وحدهم أما الشعب فانه رأى في انتفاضهم على الحكومة  
 انتفاضا على هيئة كل يعتبرها مصدر آلامه وكان ينهم رئيسها الاعلى بانه حرمه من  
 قلبه المشتحي بعد اذ دنامه ونكث في ذلك بعهد على يمينه الكذب. ولهذا  
 السبب وحده، ولهذا المعنى لا تعبده، يد الصباط. فان نحن قلنا ان المسألة كانت في  
 نظرم مسألة صاحب فيجب أن نقول انها كانت في نظر الشعب غير ذلك، ثم  
 يجب أن نقول ان الضباط شعروا بهذا وعرفوا قوته فاضطروا على عجل أن يلبسوا  
 حركتهم ثوب المطالبة بالحياة النيابية، لان حادثة قصر النيل لم تكف تنتهي حتى أخذ  
 عرابي يوزع على العلماء والاعيان وعمد البلاد ومشايج العربان منشورا هذا نصه  
 بعد التدبيرة <sup>(٣)</sup> :

- 
- (١) انظر « تاريخ أحمد عرابي بقلمه » ص ٣٤٩ من هذا الكتاب  
 (٢) انظر « رأي الشيخ محمد عبده في تاريخ عرابي » ص ٣٥٥ من هذا الكتاب  
 (٣) مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩٠

« ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطوط وعدلت عن الصراط المستقيم ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من مبيع أراض كثيرة للجانب ووجود كثير منهم في ادارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة والسعي في رفع الاسعار الطبيعية الموجودة في بوعاز الاسكندرية . وانت سكوتنا واضرابنا عن ذلك بعد من المجر والجن والتفريط في وطننا ومقر نشأتنا . فاعلموا يا معاشر الوطنيين ان أولادكم المنتظمين في سلك الجهادية قد انكروا على الباري سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاثاف بحقوقكم . وذلك لا يتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المتناهية . فالمطلوب منكم ان توقعوا على الكتابة للرسالة اليكم في ضمن هذه النشرة والكتابة المقصود بها ان اكون نائبا عنكم في كل ما يتعلق باحوال البلاد »

ويقول هنا صاحب كتاب « مصر للمصريين » ان عرايا « تحصل بهذه الوسيلة على أختام الجميع ماعدا سلطان باشا فانه ابى وقال ان هذه الطلبات لا تعلق لها بالمسكرة » . فقول نحن ان تحصل عرايا بهذه الوسيلة على أختام الجميع هو البرهان الذي لا يدق على ان الجميع كانوا يتمطشون الى الحياة السياسية ويتألمون لحرمان البلاد منها ويؤيدون كل من يتقدمهم للمطالبة بها .

### مظاهرة الجيش في عابدين

نحن لانتابع حوادث الثورة العرابية وانما نتابع موضوعا معنا هو الحياة النيابية ولهذا ننقل دفعة واحدة من حادثة قصر النيل ( في ٤ فبراير سنة ١٨٨١ ) الى مظاهرة الجيش في عابدين ( في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ) ولا نأخذ من هذه المظاهرة الا الجانب الذي يمس ما نحن فيه .

رأينا فيما تقدم أن الحركة العرابية لبست بعد حادثة قصر النيل ثوب المطالبة بال دستور وأن عرايا زعيم هذه الحركة شرع يأخذ من العلماء والاعيان والعمد وشايخ العربان توكيلا للمطالبة بعزل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب . فها تقول ان الاشهر التي اقتصت ما بين فبراير وسبتمبر من تلك السنة كانت كلها اشهر تردد لكلات الحرية ، وسيادة الامة ، والحكم الياني ، والهد الذي أعطاه

توفيق على نفسه في كتابه الى شريف باشا بجعل الحكومة شورية وتوسيع اختصاص مجلس شورى النواب ثم تناسيه هذا العهد وعمله بضده . فلما جاء شهر سبتمبر وعاد توفيق من الاسكندرية الى القاهرة كان الحزب العراقي قد أعد عدته للتظاهر في ساحة عابدين ، ففي اليوم التاسع من هذا الشهر ( الجمعة ١٥ شوال سنة ١٢٩٨ ) اجتمع الجيش في هذه الساحة وأمر عراقي بإقامة الحراس على ابواب عابدين لمنع الدخول اليه والخروج منه ، ثم ظهر توفيق واستدعى عرايا فجاءه راكبا حواده سالا سيفه ومن حوله ضباط الخيالة ، فأمره توفيق بالترحل وانغماد سيفه وابعاد الضباط عنه ففعل ثم دار بين الاثنين حديث تقتصر منه على ما يأتي .

قال توفيق ماهي اسباب حضورك الى هنا بالجيش

فاجاب عراقي للحصول على طلبات عادية

فسأل توفيق وما هي هذه الطلبات

فاجاب عراقي هي اسقاط النظارة وعقد مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

وبعد مفاوضات دارت داخل القصر بين توفيق وقناصل الدول استقر الرأي على اجابة هذه الطلبات تدريجيا والبلغ عراقي ذلك فرضى ولكنه اشترط عزل الوزارة قبل انصرافه فعزلت فطلب تعيين شريف باشا فاستدعى وعرض عليه الامر فقبل ان يشكل الوزارة على شرط ان يتعهد رؤساء الحزب العسكري بالطاعة أو امره وان يقدم أعيان البلاد وعمدها ضمانا على هذه الطاعة

### هزيمة الشعب بطلب الحياة النيابية

وفي اليوم التالي تقدم لشريف باشا كل من سلطان باشا وسليمان أبانته باشا وشريفي باشا ومنشاي بك وأمين الشمسي بك والشيخ علي البني وعبد السلام اللولعي بك والشيخ الصباحي والشيخ احمد محمود وابراهيم الزكيلى افندى ومعهم قهربران احدهما وقمة فريق من العلماء والعمد والاعيان ضمانا لرؤساء الحزب العسكري والثاني وقمة الف وستائة من الكبراء والعلماء والعمد بطلب تشكيل المجلس النيابي .



وهذا التقرير الثاني هو الذى بهما فى موضوعنا ولذلك ثبت نصه وهو :

« لما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية ، الا بالعدل والحرية ، حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله ، حرّاً فى أفكاره وأعماله ، بما فيه سعاده وحسن مآله . وهذا لا يتأتى الا بإيجاد حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ، ولا تنطرق اليها طوارق الفساد ، انخذت الممالك المتعدنة المادلة مجالس ملبة من نباه أممها ، ينبون عنها فى حفظ حقوقها ، نجاه هيئة حكوماتها ، ويكونون الواسطة فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الاحكام العادلة . وعلى هذه القواعد ، ولاجل هذه المقاصد ، كان قد انخذ لحكومتنا مجلس نواب فى المهد السابق . وبما ان مقاصد خديونا المعظم جميعها خيرية وبيانه سليمة فطالبنا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر نحاسرنا بمرض هذا راجين من المراحم الدائرية صدور الامر الكريم بتشكيل مجلس نواب لامتنا يكون له ما لمجلس الامم الاوربية للمتعدنة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة وذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعادها نم وتصبح حكومتنا العادلة أنموذجاً شريفاً يروهن على حسن نتائج العدل والحرية امام العالم . وانا على يقين من قبول التماسنا هذا وفقاً لارادة ولى النعم ادام الله إجلاله »

ولا بد لنا هنا من ملاحظة وهي ان تاريخ هذه العريضة ١٤ شوال (٨ سبتمبر) فى حين ان مظاهرة الجيش فى ساحة عابدين وقعت فى ١٥ شوال (٩ سبتمبر) فلا تفسير لذلك فى نظرنا غير ان العريضة كتبت قبل المظاهرة وان عرايا وزملاء كانوا يعرفونها . ولعلمهم كانوا قد انتظروها قبل ان يتحركوا ليكونوا على بينة من ان الامة تشد عضدهم وليستطيعوا ان يقولوا انهم باسمها يتحركون وبلسانها ينطقون . ويكون المعنى حينئذ ان طلب الامة الحكم النيابي سابق للمظاهرة فهو اصل والمظاهرة فرع وليس المكس . اما تقديم العريضة لشريف باشا فى يوم ١٦ شوال فليس دليلاً على انها كتبت فى ذلك اليوم ، ونظن ان كل انسان يوافقنا على انه كان من المعتد جمع الب وسنائه توقيع من أعيان القاهرة والاسكندرية وططا والمنصورة والميا وبني سويف وأسيوط فى اربع وعشرين ساعة

## خطبته لعراقي

وطلب شريف باشا من عراقي ان يسافر بالايه الى رأس الوادي فاطاع واجتمع خلق كثير لتوديعه في محطة القاهرة ساعة سفره وخطب بعضهم فرد عراقي بخطبة قال فيها :

« بكم ولكم قنا وطلبنا حرية البلاد وقلعنا عرش الاستبداد ولا ننثني عن عزمنا حتى نحيا البلاد وأهلها . وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ولكن لما رأينا اننا نبتا في اذلال واستعباد ولا يجمع في بلادنا الا التبرأ حركتنا الفرية الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد ونحررها والمطالبة بحقوق الامة وقد ساعدتنا العناية الالهية ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ماطلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر منا في تحير طريق الوطنية ونتمتنا بمجلس الشورى لتنظر الامة في شؤونها وتعرف حقوقها كباقي الامم المتمدة في العالم . . . . . »

ولما وصل الي الزقازيق التي خطبة أخرى مثل هذه وفي مصاها

## وعادة مجلس شورى النواب

وفي ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٦ كان شريف باشا قد أم البحث في انشاء مجلس نيابي ذي سلطة فرأى تمهيدا لذلك ان يعاد مجلس شورى النواب ليكون هو الذي يقرر مشروع القانون المنشئ ، لمجلس النواب المحدد لسلطته واختصاصه وخالفه في ذلك عراقي وطلب منه انتخاب مجلس النواب دفعة واحدة بتنفيذ مشروعه الذي كان قد قدمه لمجلس شورى النواب في سنة ١٨٧٩ فلم يقبل شريف باشا ورفع الي الخديوي تقريراً هذا نصه :

« لقد أظهرت التجارب في عدة مرار خلال الحالة الموجودة عليها البلاد الآن ولهذا فالاصلاحات التي سنشرع فيها في ظل الساحة المليمة تكون متعلقة بام صوالح الديار المصرية لانه يترتب على اجرائها تغيير الحالة المذكورة واصلاحها شيئاً فشيئاً وتوطيد الادارة الصومية على أساسات قوية وثابتة

« وانما الاشتغال بمسائل مهمة كهذه والنظر فيها يلزم لاجراجها من حيز التصور للعمل لايتأتى حصوله باقتراد هيئة النظار فقط بل المتراخي لهم ان تبادل الافكار فيها ماشتراك الرجال الذين يؤهلهم استعدادهم وخبرتهم بالاشغال واستقامتهم ومررتهم

لحيازة ثقة ورضاء اخوانهم بهم ولا صخابهم للنيابة عنهم هو الواسطة الوحيدة للحصول على الفائدة المقصودة من تلك الاصلاحات. وقد طاق رأى عمدا الاهاالى بالنيابة عن عمومهم هذا رأى الذى رآته هيئة السطار ولذلك رى انه من الواجب علينا ان نطلب من المراحم الخديوية تلبية الناس أهالى البلاد وجميع أعيان ووجوه القطر لآخذ رأيهم بخصوص احتياجات الاقاليم وعرض الخلال الحاصل فى الادارة عليهم واجراء الاصلاحات اللازمة بمساعدتهم

« وللوصول لهذا المرض لا يوجد الآن شىء سوى اتباع لائحة مجلس شورى النواب الصادرة فى سنة ١٢٨٣ . نعم ان تلك اللائحة ليست مستوفاة ولا ملائمة لافكار الاهاالى ومقاصدم وكانت قد عمات جملة مشروعات وتقدمت عن هذا الخصوص لكن هيئة السطار باعادها مع مجلس شورى النواب فسئتمنى فى البحث عما يلزم اجراؤه من التفتيحات والتعديلات فى قانون النواب مع مراعاة حقوق الحضرة الخديوية وحالة القطر

« هذا ومن الجلى التنى عن البيان ان اليهود والترتيبات التى شات عن الحالة المالية وارتبطت بها الحكومة وكذلك القوانين والاوامر العلية المشتعلة على تلك اليهود والترتيبات لا تدخل ضمن المسائل الجائز نظرها والبحث فيها بمجلس النواب لانها موضوع عقد حصل مع الدول ولا يجوز تعديلها او تغيير شىء منها الا برضاء الدول التى عقدت معها

« وعلى ذلك لمجلس النواب سيؤدى مامورته بدون تعرض للمصالح الواجب احترامها وسيكون عضد الحكومة لذاتكم العلية فى اجراء الاصلاحات المشروع فيها وعونا على تامين المصريين تامينا كافيا على النفس والمرضى والمال

« ولهذا وانابا لمادة ١٦ من لائحة مجلس الشورى المؤرخة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ أنشرف بان أقدم للاعتاب السنية مشروع امر عال بانتخاب النواب وافتتاح المجلس فى ١٥ كيهك سنة ١٥٩٨ الموافق غرة صفر سنة ١٢٩٩ و٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ « وفى اليوم نفسه صدر الامر العالى بانتخاب النواب « بالصفة والشروط الموضحة فى لائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ « وبأن يكون افتتاح المجلس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ . وفى ١٨ ديسمبر صدر أمر بتعيين محمد سلطان باشا رئيسا للمجلس وسليان ابانله باشا وكلا

ولم يتيسر ان يفتح المجلس فى الميعاد المحدد له ففتح فى ٢٦ ديسمبر وجاء

الحديث فجلس على مقعد اعدله في قاعة الاجتماع ثم مثل بين يديه سلطان باشا وقال  
ان النواب مستعدون لسماع خطابه فوقف وأخذ يمتدح عن نكته بهذه فقال :

« ابدى لحضرات النواب ضروري من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن  
الاهالي في الامور العائدة عليهم بالبيع . وفي علم الجميع ان من وقت ما استلمت  
زمام الحكومة عازمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر للان بسبب  
المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة فاما الان فحمد الله تعالى على ما يسر لنا من  
دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالي على قدر  
الامكان فلم يبق ماع من المبادرة الى ما انا منشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذي  
اما فأنعمه في هذا اليوم باجتماعكم »

ثم تكلم عن رغبته في رفاهية الاهالي وتعميم التعليم وأشار الى قرارات لجنة  
التصنيفة وتعهدات الحكومة للدول وقال :

« قالوا يجب علينا الاعتدال والثاني وحسن التيسر وان نكون يدا او واحدة في  
امام الاعمال الباقعة متوسلين بناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتمسكين بقوة  
ارتباطنا بالحضرة الشاهاية والدولة العلية ادامها الله ونسال الله النجاح انه ولي  
التوفيق »

ولم تكن الجلسة عليه لان لانه ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ تقضى كما تقدم بان  
تكون جلسات مجلس شورى النواب سرية ولكن الحراس لم يستطيعوا منع الجمهور  
من الدخول فكانت الجلسة علنية في الواقع

وعين المجلس بعد ذلك عشرة من اعضائه لتقديم الرد على خطاب الافتتاح  
فقدموه في ٢٩ ديسمبر وبه قال المجلس انه يشكر الحديث ففتح اياه « اجابة لرغبة  
الامة ونظرا للمصلحة العامة » .

واقام الناس حفلات عدة فرحا بعودة المجلس فخص بالذكر منها حفلة اقيمت  
بأمر بطريرك الاقباط في الكنيسة البطريركية حضرها رجال الاكثريوس

## انجلترا وفرنسا تحرمانه بالمجلس

ها يقوم البرلمان المادي على ان انجلترا وفرنسا ما كانتا تنظران الى وجود المجلس ولا الى الروح الوطنية بعين الاطمئنان لانهما وقد ألتا بفصل اسماعيل وقروضة ان تسيطر على الحكومة المصرية كانتا تكرر هان أن يشرذم المصريون على هذه السيطرة وأن يوجد مجلس نواب يطالب بحقه الشرعي في مراقبة أعمال الحكومة . وقد درج كثير من الكتاب الادريسي ، الذين كانوا يشايون انجلترا وفرنسا في غرضهما هذا وبشايون الدائين في أر تنق مصر قرة لهم حلوما ، على أن يحتقروا الوطنية المصرية في ذلك الوقت ويهونوا من شأنها ولكن غيرهم من الناصحين اعترفوا بها وقالوا انها كانت جذيرة بكل عطف واحترام . ولا يجب ان تذكر في هذا غير شهادتين لرجلين رسميين أحدهما دي فريسينيه وقد كلن رئيساً لوزارة فرنسا في معتمتع سنة ١٨٨١ ثم في الشهور الاولى من سنة ١٨٨٢ وبقي في منصبه الي ان ضرب الانجليز الاسكندرية وجرت معركة التل الكبير . والثاني بارنلي سانت هيلير وقد كان وزيراً لخارجية فرنسا في وزارة جول فيري في بعض من سنة ١٨٨١

فقد صرح دي فريسينيه في كتابه « للسالة المصرية » ( من ١٩٤ ) بأنه كلن من الحكمة في ذلك الوقت أن يوسع اختصاص مجلس شوري النواب ثم قال :

« ان كتاب ذلك العصر اجتهدوا في ان يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس حتى ليخيل الى الذي يقرأ خطابات بعض الخطباء ان الوطنية المصرية كانت في ذلك الوقت تلقياً وان وادي النيل لم يكن يمتوى الاعلى قلاحي نحي المصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء هو أن آباءنا كانوا اقل من هذا امتناء للوطنية المصرية في عهدهم ، وذلك أن نوابنا في سنة ١٨٤٠ لم يرددوا في ان يتكلموا في خطبهم عن الرأية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة . فقد كانت هناك اذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرأية في سنة ١٨٤٠ . ولست في هذا مبالغوا لانا ممن يحبون المبالغة ولكن لا ريب في انه كانت توجد في قلوب

للمصريين من اربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن ان تراعى في حدود مستدلة. تلك حقيقة لا تحتمل جدلا ، غير أن الذين كانوا يقبضون على حط مصر لم يكونوا يرون في المصريين غير قوم مدنيين فلم يكونوا يعرفون في معاملتهم الامصلحة واحدة هي مصلحة الدائمين الاوربيين التي يجب ان تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتهبوا الى ان منابرتهم على اعتبار مصر رهنا ومدخلهم في شؤونها مداخلة دت بحكومتها الى ان نصير في ايدي الاجانب ، كانوا قد انتهوا على طول الايام بان تجرحا شعور الشعب المصري الذي هو شعب حي مهتما بقل القانون في نموده الطاعة والخضوع من اجيال »

أما دانتلي سات هيلر فقد كتب الى فصيل فرنسا العام في مصر في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨١ ميانا بما كانت تراه وزارة خارجية فرنسا جيدا في المسألة للمصرية فاشار في آخره الى الوطنية المصرية فقال (١) :

« ليس من السهل علينا ان نقدر من هنا ( أى من باريس ) قوة هذه المطامح الشعبية ( يريد مطامح الوطنية المصرية ) ولا كيف يمكن ارضاؤها . ولكن هذه للمطامح حقيقة الى أعظم حد، ومبررة من بعض الوجوه الى أعظم حد أيضا ، فلا يمكن اهلاكها ولا يمكن على الخصوص التفكير في خنفتها »

هاتان شهادتان من رئيسين لوزارة فرنسا في ذلك العهد هما صريحتان في أن حركة وطنية شريفة كانت نهز مصر في ذلك الوقت وأن مجلس شورى النواب كان وليد هذه الحركة ، فلا يبق بعد هذا الا أن يعرف القراء ان إنجلترا وفرنسا أعطتا للحرب على هذا المجلس لينضج انهما ما كانتا تحاربان شقيا ولا عصيانا عسكريا بل كانتا تحاربان حركة وطنية فكانتا بذلك قدفان الى الشعب وتوجهان بار الثورة ففي ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ سقطت في باريس وزارة جول فيرى وخلفتها وزارة غلبتها . وتولى غلبتها مع رئاسة الوزارة وزارة الخارجية وكان رجلا جريئا واسع

(١) دى فريسييه ص ٢٠١

هذا نص عبارة باللغة الفرنسية :

Il ne nous serait pas aisé de juger d'ici quelle est au juste la puissance de ces aspirations légitimes ni comment on pourrait les satisfaire. Mais ces aspirations sont trop réelles, et à certains égards trop justifiées, pour qu'on puisse les négliger, ni surtout songer à les étouffer

المنطمع وكانت مصر تدخل في دائرة مطالبة فلم ير أن يترك الحوادث تسير سيرها العادى البلي، ولا أن يترك للحكومة البريطانية قيادة دفعها فكتب في ١٤ ديسمبر يسأل الحكومة البريطانية ألا ترى أن الوقت قد حان لان تمام الدولتان في عمل تصلايه في مصر وهل توافق على أن تكون الخطوة الاولى من هذا العمل أن تعلن الدولتان انهما تؤيدان توفيقاً وأن نوحيا اليه بأن يثق بهما ثقة مطلقة وأن يعتمد على معونتهما دون غيرها؟<sup>(١)</sup> وكانت السياسة التي نحري عليها انجلترا في ذلك الوقت أن تفرد بالعمل في مصر فكانت كلما دعها فرنسا الى الاشتراك معها في عمل تأت واعتذرت تارة بأن العمل من حق سلطان تركيا وطوراً بأن وقته لم يحن، ولكنها كانت كلما رأت من فرنسا اعتراضا عن العمل تقدمت هي وعملت. فلما جاءها هذه الدعوة من غامبتا سككت خمسة عشر يوماً ثم أجاب وزير خارجيتها اللورد جرنفيل في ٣٠ ديسمبر بأنه يخشى أن يكون ذلك مصحلاً للثورة<sup>(٢)</sup>. فرد غامبتا، وهذا تطير النية جلية في محاربة مجلس شورى النواب، بأن من الخطر أن نسكت الدولتان حتى تقاجنهما الحوادث وأن المصلحة صارت قاضية « بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس شورى النواب »<sup>(٣)</sup> فرضي اللورد جرنفيل أخيراً وطلب من غامبتا ان يضع مشروع المذكرة التي ترسلها الدولتان فوضعها ووافقت الحكومة البريطانية عليها فكانت مذكرة ٧ يناير، وهذا نصها :

#### « حضرة القنصل العام

« كلفناكم غمير مرة ان تخبروا الجناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وانجلترا في مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التي تزيد الارتباك والقلق في القطر المصرى فان الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر لاسيما بعد حدوث الحوادث الاخيرة وأخصها صدور الامر الخديوى

(١) آشيل بيوفيس ص ٤٨ — ودى فريسليه ص ٢٠٧ و ٢٠٨

(٢) مجموعة التفرقات التي تبودلت بين فرنسا وانجلترا في سنتى ١٨٨١ بشأن مصر

(٣) آشيل بيوفيس ص ٤٩ — ومجموعة التفرقات التي مر ذكرها

يجمع مجلس شورى النواب مما أوجب المخافة بين الدولتين واعادة النظر في شؤون  
اتفاقهما المذكور

« وبناء على ذلك نرجوكم ان تصرحوا الآن للجناب الخديوى بان حكومتى  
فرنسا وانجلترا تريان وجوب تأييده فى الخديوية وفقا للاحكام المقررة فى القرارات  
السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولاً رسمياً على اعتبار انها وحدها تكفل الآن وبعد  
الآن استمرار السلم والسكون وتوجب توسيع نطاق الرقعة والعمران فى البلاد  
المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين المتفقتين على الاشتراك فى السعى  
الى دفع كل ما من شأنه ان يحدث فى مصر ارتباكاً او يعطل بنظامها واحوالها سواء  
كان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئ من اسباب خارجية ام من اسباب داخلية  
« ولا ريب عندنا فى ان هذا التصريح العلنى المبين لمقاصد الحكومتين يمنع  
حدوث ما عساه ان يطرأ على حكومة الخديوى من الاخطار وان حدثت فالحكومتان  
لا ترددان فى دفعه ولا تعجزان عن صدّه

« وفى أمل الدولتين ان يستمد الخديوى من هذا التصريح الثقة والقوة اللتين  
هو محتاج اليهما لادارة أمور الشعب المصري والبلاد المصرية »

وبينا كانت هذه المفاوضات تدور بين الدولتين كانت مصر هادئة مستقبلة  
بوزارة شريف باشا وباجتماع مجلس النواب ثم بالامل فى تحويل هذا المجلس  
الى مجلس نواب ذى سلطة . وكان الامن شاملاً والنظام تاماً وقد تمهدت وزارة  
شريف باشا باحترام المراقبة الثنائية وقانون التعصية وقبل المجلس هذا التمهيد فلم  
يكن أحد يفكر فى المساس بمصلحة اللذانين أو للإجاب . فلما وصلت مذكرة  
الدولتين الى الخديوى كانت كالتقبلة التى نتجت فجأة فى جو هادئ . بقصد تعكيره ،  
ورأى فيها كل انسان نحرشاً بمجلس شورى النواب لم يكن سبب من الاسباب  
يقتضيه . ولم ينف على المصريين أن الدولتين يحرضان بذلك توفيقاً على مقاومة  
الحركة الوطنية ويقولان له انهما من أجل ذلك تبسطان حمايتهما عليه وتريدان منه أن  
يستند على هذه الحماية .

وقد كان من واجب توفيق ان يرد على هذه المذكرة وكان على شريف باشا  
خاصة أن يشجع على هذا الرد حفاظاً لسمعة سلطانه . ويقال انه أعد رداً يرفض



به توفيق حاية انجلترا وفرنسا ويقول : « ان اليوم الذى تؤيدني فيه الدولتان ضد ارادة بلادى هو اليوم الذى تخيب فيه الساعة الاخيرة . ومتى فصلت الرأس من الجسم لم يبق سبيل الا الى الموت . فأتانا أن آكون خديوى المصريين أو لا أكون شيئا » (١) غير أن حكومة فرنسا علت بالعزم على الدفء عند توفيق وشريف كي يعدلا عن عزمهما ويلتزموا بالسكوت فأطاعا وسكتا ولكن تركيا لم تسكت بل احتجت بمذكرة ارسلتها الى الدولتين في ١٤ يناير فكان مما قالته فيها :

« ان مصر جزء من ممالك الحضرة السلطانية ، والسلطة المعطاة للحدود هي لحفظ الراحة السموية عند الزور وللحفاظة على سعادة البلاد وادارتها على محور حسن ، فتأيد هذه السلطة من حقوق الباب العالي وحده ومن اختصاصاته دون سواء . ولهذا كان من الواجب عندما انضج ان الحالة تدعو الى ارسال تلك المذكرة ان يؤخذ قبل كل شيء رأى الدولة العلية ، وبواسطتها وحدها ترسل التصريحات ، وبواسطتها ايضا يكون الحصول على التأكيدات المطلوبة »

وبسبب مذكرة ٧ يناير هذه وقع خلاف طويل القبول بين انجلترا وفرنسا في تحديد ما ارتبطت به كل واحدة منهما فقالت الحكومة البريطانية ، جريا على سنتها في مراوغة فرنسا حينما تدعوها الى الاقدام ، انها لم تربط بعمل معين بل لم تربط حتى بالعزم على العمل . وقالت الحكومة الفرنسية ان المذكرة تعقد حينئذ قيمتها وتصبح عبئا . ونحن ندع هذا الخلاف جانبا لانه من تلويح المسألة السياسية لامن تلويح الحياة الياية ، غير اننا نقول ان التية التي كان غامبتا يبيتها من وراء تلك المذكرة انفضضت حينما أرسل مكاتب التيمس في ٣ فبراير ( اي بعد ارسال المذكرة بأقل من شهر ) الى جريدته يقول ان وزارة غامبتا كانت تعد سرا في جنوب فرنسا حملة حربية رسلها الى مصر (٢)

(١) روى هذه الرواية بمحاذيرها مراسل جريدة الطان الباريسية في القاهرة اذ ذاك ونشرتها الجريدة في عددها الصادر في اول مارس سنة ١٨٨١

(٢) فوجئت الحكومة الفرنسية بإذاعة هذا الخبر فحاولت ان تقضي عليه ووعزت الى جريدتي البال مال غازيت والديلي نيوز بكذبه فرد مكاتب التيمس على هذا التكذيب بتأكيد الخبر وبيان الاسلحة والوحدات الحربية التي اعدتها وزارة غامبتا لهذا الغرض ثم ذكر القائد الذي عينه لقيادة هذه القوات - (أشيل يوفيس ص ٥١ و٥٢)

وأينا أن شريف باشا احدث على نفسه، في كتابه الذي استصدر به في ١٤ أكتوبر ١٨٨٦ أمرا بمجلس شورى النواب، ان يقدم لهذا المجلس مشروع «لائحة قسسية» لانشاء مجلس نواب ذي سلطة، ففي يوم ٢ يناير توجه الى مجلس شورى النواب وقدم له «اللائحة» التي وعد بها والتي خطابا نذكر هنا بعض فقراته وهي:

« لما كانت لائحة النواب التي اجتمعتم على مقتضاها لانتظام أمكارنا جميعاً كما أوضحت ذلك من منذ ثلاث سنوات وكررتة بالعروض الذي وقعته أخيراً للسلطة الخديوية عن طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتلت مع رفقايتي بصضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها »

« ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر كان يلزم أن السلطة التي تحلى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدرج شيئاً فشيئاً ولكن حيث ان مقصداً جلياً واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعملهم بحقوقهم واجباتهم وعيهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة في ابداء آرائكم وحق للرقابة على افعال مأموري الحكومة من أي درجة وأى صنف كانوا وتصرح لكم بنظر التوازن العمومية وايداء رأيكم فيها وبطرق كافة للقوانين واللوائح . وقد التزمت الحكومة بدم وضع أى ضريبة ولا شر أى قانون أو لائحة ما لم يكن بحسبديق واقرار منكم . وكذلك تصهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يرتب عليه اخلال بحقوقهم والناية فانه لم يحجر عليكم في شيء ما ولم يخرج أمرهم عن حد فنظركم ومراقبتكم »

« وأما لا يتفاجكم الحالة المالية التي كانت عليها مصر بما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتبعدها بالالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بفقد خصوصية وتلبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعاً لنظرها أو نظر النواب ؟ حاشا لانه يجب علينا قبل كل شيء القيام بمصداقنا وعدم خدشها بشيء ما حتى نصلح خلقتنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب امنية الحكومات الاجنبية . ومتى رأت من تلك الحكومات

الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن اخلاص بدون مساعدتها فتتخلص شيئا فشيئا مما نحن فيه ..... الخ »

أما « اللائحة » نفسها فلا داعي لاساتها هنا بمخاضها لايها لم تصدر ولكنها شئت منها مادار الخلاف حوله فكان سببا في سقوط وزارة شريف وهو :

« المادة ٣٠ — ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس النواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالاكتر

« المادة ٣١ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الإيرادات مع كشوفات عن كل نوع من أنواعها

« المادة ٣٢ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الإدارة العمومية تلك النظارة

« المادة ٣٣ — لمجلس النواب أن ينظر في الميزانية ويبحث فيها وتعتمد بمعد اقراره عليها . وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك الى ناظر المالية لغاية اليوم العشرين من شهر ديسمبر بالاكتر

« المادة ٣٤ — لا يجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات الوريكو المقرر للاستانة أو للدين العموي أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية » (١)

ومن هذه المواد يتضح أن شريف باشا أخرج من اختصاص المجلس وبركو الاستانة والدين العموي وكل ما التزمت به الحكومة بناء على قانون التصفية أو بناء

---

(١) نذكر هنا مواد أخرى من مشروع اللائحة لا نخلو من أهمية وهي :

١٨ — اذا قرّر قرار النواب على أن يستدعى للحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة قبل الناظر أن يذهب الى المجلس بنفسه أو يستنوب عنه أحد كبار الموظفين بدوانه لجيب عما يسأل عنه وله أن يؤخر الجواب لاول مدة الافتتاح الثاني لا أكثر وعليه بيان الاسباب ومسئولية التأخير

١٩ — للنواب حق المراقبة على موظفي الحكومة جميعا قلمهم بواسطة رئيس المجلس أن يشمروا كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تعد أو خلل أو قصور نسب لاجد موظفي الحكومة التابعين لنظارته

على معاهدات عقدت بينها وبين الحكومات الأجنبية ولم يترك المجلس من الميزانية إلا ما دون ذلك أى ما لا عس بحال أية مصلحة للدول أو للدائنين . وكان المخصص لعهد العمومي ووركو الاستانة في ذلك الوقت وسعد قانون التصفية يعادل نصف ميزانية الحكومة أو يزيد عنه قليلا فكان المجلس كان محروما من الطر في أكثر من نصف الميزانية .

وقد قبل المجلس هذا الاختصاص المتواضع منذ أن تلى عليه رغبة منه في أن

---

٢٠ - الطار متكافلون في المسؤولية أمام مجلس النواب عن كل ما يقرر بمجلس

الطار

٢١ - اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس الطار واصر كل على رأيه بعد تكرار المخاربة وبيان الاسباب ولم تستعف البطارة فلحضره الخديوات يأمر بقض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة اشهر من تاريخ يوم الانقضاء الى يوم الاجتماع ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا هس النواب الساتعين او بعضهم

٢٢ - اذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه فينفذ الرأى المذكور قطليا

٢٣ - مشروعات اللوائح والقوانين تشمل بمعرفة الحكومة ويقدمها التطار لمجلس النواب لنظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونا معتبرا دستوريا للعمل ما لم يتل في مجلس النواب بندا فبندا ويقرر حكما لحكما ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية واذا تراهى المجلس لزوم سن قانون وطلبه من مجلس النظار بواسطة الرئيس فيجيب الى ذلك

٢٤ - لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو يركو في الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون مصدق عليه من مجلس النواب وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة وكل جهة من جهات الحكومة امرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم حرر كشوفات او تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من مجلس النواب يحاكم كخلس وترد الحقوق لاربابها

يطعن الدائنون وتطعن الحكومات الاجنبية الى أنه ، وهو يعرف أن شرطاً كبيراً من قروض اسماعيل لم يدفع وأن تمسك الدائنين به وفوائده الباهظة ليس سوى سرقة ، يحترم هذه القروض ولا يتعرض لمصلحة مالية من مصالح الاجانب والحكومات الاجنبية بسوء . ولكن انجلترا وفرنسا لم ترضيا حتى بهذا الاعتدال وشرعنا في الحال نهاجان المجلس لانها كانتا تريدان أن تقضيا على نزعه ونزعة الحركة الوطنية على العموم الى اتخاذ الحكومة من سيطرتها واتخاذ البلاد من مهابى الضيع .

### في ميزانية النضال

ولم تتردد انجلترا وفرنسا في أن تعلما الحرب على المجلس عملا عدة ٧ يناير فاضمتا شريف باشا اتهمتا لا توافقان على المادة الثالثة والثلاثين من مشروعه لانها تمنع المجلس حق « تقرير » حرية من الميزانية فابلق شريف باشا المجلس ان الطارة من أجل ذلك تعدل المادة الثالثة والثلاثين بما يحمل الرأي القوي بيديه مجلس النواب في الميزانية استشاريا .

وكان المجلس قد الف لجنة من ستة عشر عضواً من أعضائه برئاسة سلطان باشا لدرس المشروع وتقديم تقرير عنه فبدأ في الحال أن هذه اللجنة والنواب جميعا ينشئون بان يكون لهم الحق المطلق في تقرير الميزانية فباخلا ما استنته المادة الرابعة والثلاثون من المشروع ، فما كلفت فيهم هذه تعرف حتى كتب المراقبان الاجنبيان في ١٢ يناير محتجان عليها فقالا (١) :

« يظهر ان مجلس شورى النواب يتهم لأن يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا ان نقول ان اعطاء النواب هذا الحق ، ولو اقتصر على الادارات والمصالح التي لم تخصص ايراداتها للدين ، يفسد الضمانات المعطاة للدائنين ، لانه سيكون من نتائج الضرورية أن تنتقل ادارة البلاد من يد مجلس النظار الى يد مجلس النواب »

---

٤٣ - كل قرار يترتب عليه مسؤولية للنظار لا يحوز صدوره الا بالاغلبية للفرقة منها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالجلسة

(١) دى فرميسيه ص ٢٢٤

وبهذا أعلن المراقبان أن النظرية التي تمسك بها إنجلترا وفرنسا هي أن تبقى إدارة البلاد في يد مجلس النظار لكي يمكن أن تبقى خاضعة لسيطرتها ، فما كاد النواب يعرفون ذلك حتى اشتد بهم الاستياء وصعدوا على أن يثبتوا في الدفاع عن حقهم . وقد يحسن أن نقل هنا رددم على احتجاج المراقبين فقد روى عنهم دى فريسينيه <sup>(١)</sup> « أنهم لم يقبلوا أن تكون بلادهم متاعا مرهونا في يد الدائنين وإن يكون عليهم ، لارادة كل شاعل يساور هؤلاء الدائنين ، أن يقبلوا الحرمان من الحقوق الاولى التي تملكها كل أمة مستدينة . وكان مما لاحظوه في ذلك ان هناك حكومات توزع تحت ديوبها أكثر مما توزع الحكومة المصرية بل هناك حكومات مزقت تعهداتها ورفضت ان تدفع ما عليها ولكنها كلها لم تحرم مع ذلك من حقا في أن تحكم نفسها بنفسها . أمامهم ، ودائئوم لا يجدون محلا للشكوى منهم ، فانهم يمنعون من أن يدخلوا على قوانينهم ، بالاتفاق مع خديوبهم ، اصلاحات يعترف الكل بفائدتها للحكومات والشعوب »

ونقل أيضاً ما كتبه في مثل ذلك ميو سينكوكيز قنصل فرنسا العام من تقرير أرسله الى حكومته في ١٥ يناير وهو <sup>(٢)</sup> : « يصدر مجلس شورى النواب في مطالته بأن يكون صاحب الرأي النافذ في تقرير الميزانية عن اعتقاده بل ان الحق في أن يراقب باسم الامة سير الادارة في مجموعه والطرق التي تستخدم بها موارد البلاد . ويقول المجلس انه يحترم كل الاتفاقات الدولية ، بل يحترم حتى بقاء الموظفين الاجانب في وظائفهم ، غير انه يحفظ لنفسه الحق في الاقتصاد ليعجل بسداد الدين العمومي » ونعود بعد ذلك الى سرد الحوادث فنقول ان لجنة المجلس فرغت في أيام قليلة من النظر في مشروع شريف باشا ، وكانت قد أخذت من المجلس تمويضا في أن تتفاوض مع البطارية رأسا تقدمت لشريف باشا يوم ١٥ يناير التمديلات التي رأت أن تدخلها على للمشروع ومنها بقاء المادتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين على أصلها ، أى أن يكون للمجلس حق تقرير الميزانية فيما خلا الوركوكو والدين العمومي

(١) ص ٢٢٤

(٢) دى فريسينيه ص ٢٢٣

وما ألزمت به الحكومة في قانون التصفية أو في المعاهدات الدولية، فلم يقبل شريف باشا هذه التعديلات . وفي هذا اليوم نفسه أرسل غامبتا الى قنصل فرنسا العام للتفراف الآتي (١) :

« اطلعت على المذكرة التي سلمها اليك المراقبان وأنا أوافق عليها وعلى النصائح التي تبذلها لشريف باشا . فثابر على اتخاذ هذا الخزم »

وأرسل اللورد جرنفل الى قنصل إنجلترا العام السير مالت مثل هذه التعليمات. ثم اقترح مالت على النواب أن يكون رأيهم استشاريا الى ثلاث سنوات وأن يتحول بعد ذلك الى رأي قطعي ، وكلف متر بلس أن يقنعهم بقبول هذا الحل ، فكتب قنصل فرنسا الى غامبتا يسأله رأيه فيه فجاءه الجواب بالرفض ، وفي الوقت نفسه عاد متر بلس الى مالت يخبره بأن اقتراحه لم يلق من النواب وزعماء الحركة الوطنية غير الرضى واليك ما كتبه في ذلك (٢) :

« بعد ان تناولت مع الشيخ محمد عبده الذي كان كدأه من الميل الى التبصر والمسالمة اتفاقنا على ان التقي في منزله بوقد منهم لافاقشهم وأريهم النتائج المحتملة للمقاومة أى التدخل للسلاح . ومن ثم قيدت وجهة نظر المراقبين الماليين مع كلفن ( هو المراقب الانجليزي ) ووضعت مع مالت قواعد المناقشة التي عولت على استعدادها . . . . . وكانت تعليماتي تنحصر في ان أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءات الميزانية الحاضرة انما هي مسألة دولية لا يستطيع شريف باشا ولا البرلمان ان يحسها بغير موافقة الحكومتين الرقيعتين . وكان على ان أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأريهم مذكرة خاصة وضعها مالت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارفقها بالمشور الذي نص على انشاء المراقبة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وان أطلب اليهم ان يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءات اصدار الميزانية مسألة دولية او ليست كذلك . وهل انما كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم بعد ان اعرفوا بان المسائل الدولية يجب ان لا تمس . وخول لي كلفن ان اقول انه هو شخصيا لا يمانع في تعديل الاجراءات الحاضرة تمديلا طفيفا بحيث يعطى للجلس

(١) دي فريسينيه ص ٢٢٥

(٢) ص ١٤٢ من هذا الكتاب

حق استشاري قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراع . قلنا قبلوا ذلك عرض مالت  
 المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع ان يطمئن على قبولها من  
 جانب إنجلترا او فرنسا . اما سائر خلاقاتهم مع شريف فعليه ان يسووها معه بانفسهم .  
 « على هذه القاعدة وبمساعدة صابونيى والاساذ الشيخ محمد عبده باقشتم طويلا  
 في المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بانهم لا بدعنون . نعم انهم وافقوا  
 على تعديل ثلاث او اربع مواد كانت على معارضة المراقبين الاساسية وادمجوا  
 التعديلات التي اقترحتها عليهم فيها يختص بها في اللامعة ولكنهم تشبهوا برأيهم في  
 مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاساذ محمد عبده لى ولم يقبلوا ان يشيروا سطرأ  
 من المادة الخاصة بها . فعدت مطأطىء الرأس لا يلبخ مالت حكاية فشلى »  
 ثم قال مستر بلنت بعد ذلك :

« ومع انى بذلت كل جهدي لاجل الاعيان ( يريد النواب ) على الاذعان  
 تحت تأثير اعتقادي بانهم مهددون بالتدخل الاوربي لم يسمنى مع ذلك الا الاعتراف  
 بانهم على حق في طلبهم السلطة على نصف الميزانية انا كان الحكم البرلماني سيكون  
 حقيقة لا تنمونها »

وقال بعد ذلك أيضا :

« وتدل لتفرقات مالت في ذلك الحين على ان الاعيان ( اى النواب ) كانوا  
 بدأ واحدة في هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذى كان بطبعه رجلا ضعيفا يسهل  
 لرواياه اعلن بصريح العبارة ان دستور شريف باشا كالتبلة تحدث صوتا عاليا  
 ولكنها فارغة »

ذلك ما كتبه مستر بلنت عن وسائله وهو ناطق بأن قنصلي فرنسا وإنجلترا  
 لم يجدا سببا صحيحا يهاجمان به موقف الحق والاعتدال الذى وقفه النواب ، وانهما  
 تلك حاولا أن يدخلوا عليهم ان النظر في الميزانية مسألة دولية فلم يفلحان النواب  
 كانوا من سلامة الفهم بحيث لا تجوز عليهم هذه الخدعة . وها هو ذا مستر بلنت  
 يعترف بأنه وان كان قد جادلهم واجتهد فى اقناعهم إلا أنه كان يشعر فى داخلية نفسه  
 بانهم على الحق وان ما يريد اقناعهم به هو الباطل . وهم ما ثبتوا فى موقفهم هذا الثبات  
 ولا تشبوا به هذا التثبت الا لانهم كانوا قد ذاقوا الآلام من جراء



الحكم المطلق ورأوا الخطر داهما على استقلال البلاد فكانوا من أحل ذلك يريدون الحكم البرلماني ، كما يقول مسنر بلس ، حقيقة لا عوجها .

### نواضع آخر في طلبات النواب

#### ولكن الراتبين مرفضان

#### فيقتصر النواب ويستقبل شريف باشا

واقترحت الحكومة بعد ذلك على النواب أن يقر رأي المجلس استشاريا ولكن تعدل المادة الثانية والثلاثون بما يحمل ميزانية المصروفات مقسمة الى أبواب أكثر فرفض النواب قائلين ان قسمة الميزانية الى أبواب أكثر أو أقل لا تعيد شيئا ما دام المجلس لا يملك حق التقرير . وأخيراً رأوا أن يقدموا برهانا حديداً على أنهم يذهبون في مسألتهم ونواضع طلباتهم الى أدنى حد ممكن فاجتمعت لجلسهم يوم ٢٠ يناير وقررت أن تفرج على شريف باشا حاشا لحلاف أن يعين المجلس عدداً من أعضائه مماثلاً لعدد البطار فيكون هؤلاء . وأولئك هم الذين يقررون الميزانية ويكون لرئيس البطار صوت مرحح عند الاختلاف وتساوى الاصوات في الفريقين . وحل سلطان باشا هذا الاقتراح في اليوم التالي الى شريف باشا فمضاه هذا على قصلي انجلترا وفرنسا<sup>(١)</sup> فقالا انهما سيرفعانه الى حكومتهما . وفي ٢٣ يناير جاء جواب غامبيا بالرفض القاطع ثم جواب اللورد حرنفيل بالرفض أيضا واسكن مع التلويح باحتمال الاتفاق في مسائل أخرى جزئية<sup>(٢)</sup>

ومضى بعد هذا أسبوع وضع شريف باشا في أثانه مشروع لائحة جديد حذف منه المادة الخاصة بالميزانية وأدخل على مواد الأخرى شيئا من التعديل ثم أرسله الى المجلس في ٣١ يناير وأرسل معه كتابا هذا نصه :

« ان جناب قصلي فرنسا وانجلترا المنزولين قدما للحكومة مذكرة تتضمن ثلاثة أمور وهي أولا ان حكومتى فرنسا وانجلترا تريدان ان الاتفاقات الدولية المتعلقة

(١) دى فرسينيه ص ٢٢٦

(٢) المصدر السابق

بالامور المالية لا نسمح للحكومة المصرية فان تمنح مجلس النواب حق تقرير  
الميزانية تقريراً قطعياً. ثانياً ان الاتصال الموالي اليهما مستعدان لفتح محادثات للاتفاق  
على هذه المسألة. ثالثاً ان فتح المحادثات بناء على طلب الحكومة لا يكون الا بعد  
تمام الاتفاق قطعياً بين الطائفة ومجلس النواب

« وحيث قد علم من القومسيون المذكور ( يريد اللجنة التي عينها المجلس للنظر  
في مشروع اللائحة ) ان النواب يريدون الاشتراك في تقرير الميزانية ومن الواجب  
حينئذ ان يحصل الاتفاق على سائر مواد اللائحة ما عدا ما يتعلق بالميزانية فقد تكرار  
المداكرة بين الطائفة وبين القومسيون المذكور قبلت الحكومة مشروع اللائحة  
الرفوقة مع هذا. فارجو من سعادتك التصديق عليه من المجلس شرط ان قبول  
المجلس به لا يعد قطعياً ولا يترتب عليه تنفيذ تلك اللائحة الا بعد الاتفاق على  
مسألة الميزانية ودرجتها بها. اما ما يختص بهذه المسألة فان الحكومة مستعدة للمخاطبة  
اتما يلزم ان يكون طلبها صريحاً مستوفاً ولهذا قال ان مجلس النواب يصرح بافكاره  
في هذه المسألة كتابية ويسمل عنها البنود المترائي له اعمالها حتى تكون اساساً للمخاطبة »

فقابل النواب هذا الكتاب بالامتناع لانهم رأوا فيه ان شريف باشا يدخل  
انجلترا وفرنسا في مسألة هي من حبة أساسية في نظام الحكم ومن جهة اخرى داخلية  
تمس لها أن يدخل فيها. وكانوا قد امتنعوا منه قبل ذلك لسكوته على مذكرة  
٧ يابر كما امتنعوا منه فعذله عما وضعه بيده في مشروعه الاول خاصاً بلطة المجلس  
في الميزانية ولا نضمه الى الدولتين في وقوفها في وجه المجلس وحيلولها دون أن  
يقبذ الحكومة من السيطرة الاجنبية. فاجتمع فريق كبير منهم في اليوم نفسه في بيت  
سلطان باشا وتداولوا في ذلك طويلاً ثم اجتمع المجلس في اليوم التالي ( ١٢ ربيع  
الاول سنة ١٢٩٩ - اول فبراير سنة ١٨٨٢ ) اجتماعاً غير عادي فبدأ الرئيس فقال :  
« اعيدت من جانب مجلس النظار لائحة مجلسنا الاساسية التي نظرت في اللجنة  
للعينة لذلك مشفوعة باقادة رئاسة مجلس النظار المشار اليه تتعلق باللائحة عموماً  
ويبدو الطرف في الميزانية خصوصاً فقدت هذه الجلسة لمرض ذلك على هيئة المجلس  
مع تقرير اجمالي من اللجنة المذكورة »

ثم تلى تقرير اللجنة وهذا نصه :

« ان اللجنة التي احدثتموها للطرف في مشروع لائحة المجلس الاساسية المرسلة  
من جانب الحكومة قد نهضت بهذه المهمة وعقدت لها جلستها الاولى في يوم

الثلاثاء ١٣ صفر سنة ١٢٩٩ بوجود عزتو بطرس بك غالى كاتب امرار مجلس  
الطار ( سابقا ) (١) مندوما عن الحكومة فقرأت وعدلت وقررت بحو نصيب  
اللائحة بحضور المندوب المشار اليه ثم توالت جلساتها بغير وجوده حتى انتهت على  
آخر الواجب معنا وتمديلا واستكلت وضع اللائحة الاساسية على الصورة التي  
حسبتها موافقة للاحوال حافظه لحقوق المجلس مع الرعاية لجميع العهود والمواثيق المرعية  
« وبعد أن فرغت من ذلك ارسلت صورة اللائحة على حسب ما انتهت اليه  
في تعديلها الى جانب مجلس الطار لتنظر فيه . ثم جرت بينها وبين المجلس المشار  
اليه مخاضات ومعاوضات شبيهة بالرسمة على عدة بنود من اللائحة فاقامت الادلة  
على أحقية ما عدلته وما وضعته مقولا معظم بنودها ومثيراً بعضها ومعدوفا منها  
بند الطر في المزاينة لتقريرها في مجلس النواب . فأما البنود المنيرة فان المقاربة بين  
الاصل والمرسل من اللجنة والنسخة الواردة من مجلس الطار تبين لخصرائكم ما حصل  
فيها من التغيير ومكان ذلك من الاهمية أو عدم الاهمية وعمله من القبول او الرفض  
واما بند المزاينة فقد كان السبب في حذفه ما يفهم من منطوق الافادة الواردة من  
رياسة مجلس الطار .

« وقد رأت اللجنة ان واجباتها وحقوقها تقف عند هذا الحد من المخاطرة ولذلك  
فهي تعرض لخصرائكم نص اللائحة الاصلية الواردة اولا من جانب الحكومة ،  
ثم نص تلك اللائحة بعد تعديلها في اللجنة ، ثم صورتها الواردة بالامس من جانب  
مجلس الطار بالتيسير والحذف السابق ذكرها ، مع الافادة المنوّه عنها ليعلم بذلك  
ما اجرته اللجنة وما آل الامر اليه . فاما ان يفوض اليها من لديكم حق وحدود  
جديدة في القبول او الرفض او تميم المخاطرة واما ان يتولى المجلس هذا الامر بنفسه  
والله ولي الامور »

ثم جرت المناقشة فقرر أولا أن نمتنع لجنة المجلس لتنظر فيما بالتغييرات الاخيرة  
التي أحدها مجلس النظار في مشروع اللائحة وفي الكتاب الوارد مع هذه التغييرات  
من رياسة مجلس النظار لان اللجنة « ادري باطراف المسألة واعرف بأصولها وفروعها ».

(١) كلمة ( سابقا ) هذه موجودة في صلب تقرير اللجنة وذلك لان بطرس بك  
عالى كان سكرتيراً لمجلس النظار حينما بدأت اللجنة تنظر في المشروع ثم نقل انما  
نظرها فيه الى منصب آخر

وتحيا ان يكون اجتماع اللجنة لهذا الغرض في اليوم نفسه وان تقدم تقريرها طهر  
اليوم التالي . وثالثا أن يجتمع المجلس طهر اليوم التالي ليصل في الموضوع كله  
بقرار حاسم .

وفي الحال اجتمعت اللجنة فبحثت وتناقشت ثم عادت الى الاجتماع صباح اليوم  
التالي فوضعت تقريرها ورفعت الى المجلس وهو :

« عقدت هذه اللجنة امس الاربعاء الساعة ٩ وربع فاعدت النظر في مشروع  
اللائحة الاساسية المعاد الى المجلس من جانب مجلس المطار وبحثت مبادلة الراي  
بينها وبين اعضاء اللجنة الذين كلفوا بمذاكرة المطار في بعض اوجه التسوية .  
وبعد للمفاوضة والمداولة قبلت ما احدثه مجلس المطار من التغيير في اللائحة وردت  
البعض الآخر الى اصله باعتقاد انه اوفى بالمصلحة ووقع في يابه . ثم وضعت للسطر  
في الميزانية والاشتراك في تقريرها ثلاثة بنود واثبتت هذه البنود في الساحة المروضة  
الآن لديكم .

« وقد تلي فيها رقم دولة رئيس المطار فوقع لديها موقع الاستتباب لملها بان  
للتأله التي بين الحكومة ومجلس النواب داخلية محضة لا تقتضي ازواج اى خاطر  
بالداخل والوساطة ولا سيما بعد تساهل النواب الى حد الرضا بالمشاركة في تقرير  
الميزانية ليس غير .

« على انها لم ترد ان تعد لذلك الرقم جوابا لسببين الاول انها رأت من الاهمية  
بحيث ينبغي له راي الهيئة بجمليتها والثاني انها تؤثر على مطال الرسالة سرعة المشافهة  
بمضى انها ترى من الملالم حسم الامر بوجه السرعة اجتنابا للمخاطرة وتصريحا بكون  
المجلس يرى ان تقرير الميزانية من حقوق الحكومة دون سواها وانها قادرة على  
اعطاء هذا الحق لمجلس النواب ارضاء للرأى العمومى وعملا بما تقتضيه المصلحة  
الوطنية وحسبا للخلاف

« فاذا حسن لدى الهيئة هذا الرأى فليعد على سمها نص اللائحة ببيان ما احدثته  
الحكومة فيها من التغيير وما قبلته اللجنة من ذلك وما ردت به الى الاصل ولها في امر  
تعيين الوفد او رقم الجواب على رقم رئاسة المطار رايها المالى موقفا للصواب ان  
شاء الله تعالى »

أما البود التي جاء في هذا التقرير أن اللجنة وضعتها للنظر في الميزانية والاشتراك في تقريرها فهي :

« تعرض الميزانية على مجلس النواب فينظر ويبحث فيها ويسن من أعضائه لجنة مساوية لمجلس الطار عدداً وراياً لقرروها جميعاً بالاتفاق أو الغالبية فان وقع بينهم خلاف وكان العدد متساوياً من الجانبين وجب إعادة الميزانية للنواب فاما ان يؤيدوا رأى النظار واما ان يؤيدوا رأى لجنة النواب فان كان الاول وجب تنفيذ الميزانية وان كان الثاني ولم يمكن حصول الوفاق كان الحكم في ذلك حكم بند الخلاف وهو انه عند وقوع الخلاف بين النظار والنواب على امر ما فاما ان يفض مجلس النواب واما ان يستفي النظار وفي هذه الحال اى اذا ايد النواب رأى اللجنة وغالطوا رأى النظار نفذ الميزانية في الملم الضرورى منها لإدارة المصالح وعدم احجر الاشمال تنفيذاً موقتا ويبقى الباقي من أمر الميزانية الى ما بعد تسوية المسألة بأى طريقة ووسيلة »

ومعنى هذا ان اللجنة نزلت ، كما قالت هي ، عن المطالبة بحق تقرير الميزانية واكتفت بطلب المشاركة فيه

ثم عقد المجلس فلى عليه تقرير اللجنة والتعديل الذى وضعت له المادة الخاصة بالميزانية ثم جرت المناقشة كما يأتى (١) :

« محمد بك الشوارى - لا بأس في تشكيل لجنة تسمى الى الجانب الجديد طالباً من حضرته السيد اقرار اللائحة التي استقرت عليها آراء النواب فذلك ادنى للنتيجة واولى من الرسالة خصوصاً بعد ظهور المسألة بالمظهر الجديد المنوء عنه في رقيم مجلس النظار » ابراهيم افندى الوكيل - اوافق على رأى حضرة محمد بك الشوارى في ارسال اللجنة . ولكن ارى ان تسمى اولاً الى دولة رئيس مجلس النظار فتذكر له سوء تأثير رقيه في المجلس وتطلب منه التصديق على اللائحة بلا غفارة ولا تأجيل . فان ابى فاللجنة تقصد الجانب العالى ومساله التصديق على قبول اللائحة سريعاً » احمد افندى عبد المنار - ارى ان يكتب مع ذلك رد الرقيم بانكار ما فيه لكي لا يحسب السكوت عنه اعترافاً به وقبولاً

« احمد افندى محمود - ان سير اللجنة على الوجه السابق المذكور كاف في رد

(١) هذه المناقشة منقولة حرفاً بحرف من محضر الجلسة

الرقم وحاسم الامر بلا مراة . ومع هذا فان تقرير اللجنة الذي تلى الان علينا  
وقبل مضمونه بالاتفاق رد لا مشاحة فيه بقيت في سجل المجلس وينشر فيعلم لدى  
الرأى العمومى

« بعض النواب — احسنت

« الرئيس — يحسن اخذ الاراء على قبول تعيين اللجنة برفع الايدى علامة القبول  
« قبول عمومى

« احمد افندى عبد النصار — ان وافق فليكن عدد اعضاء اللجنة عشرة

« محمد بك الشواربى — بل خمسة عشر

« الجميع — فى عمله »

واختار المجلس فى الحال خمسة عشر عضواً من أعضائه يسيرون الى شريف  
يشاتم الى الحديو وكلفهم ان يؤدوا مهمتهم قبل أن يتقضي النهار ، فساروا الى  
شريف باشا فى نظارة الداخلية وقدموا اليه التعديل الاخير الذى أقره المجلس لمادة  
الميزانية وقالوا <sup>(١)</sup> :

« ان تأخير تنفيذ اللائحة جالب للفشل ولهذا عقدنا الية على ألا تترك هذا  
اليوم بمضي بغير قبولها او رفضها »

فجعل يلاطفهم وقال : « تعلمون انى منذ أحدثتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم اتعرض  
لشئ من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها  
على انى ما زلت لا اتحول عن هذا الرأى فذلك لم أصادق على ما رأيتوه من أمر  
الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن »

فقالوا : « ان هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه فلن سألنا لا نتمس ما لهم  
من الحقوق ولا نقرر لهم مصلحة »

فقال : « لا سبيل الى ذلك البتة »

فقال جماعة منهم : « انا نأسف جدا ان يصادق لنا على اللائحة غيرك » .  
يريدون بذلك اهم سيطلون من الحديو اسقاط وزارته .

(١) انظر « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » لميخائيل شاروبيم بك

جزء ٤ ص ٢٧٣ و ٢٧٤

ثم خرجوا متجهين الى قصر عابدين وفيه قالوا الخديو وقالوا : « انا جازمون  
بمحنة مولانا لوطن وميله الى اصلاحه ولهذا العاية مسح الامة المصرية حقوق الشورى  
وفتح مجلسها فطمنا له هذه اللائحة وتحميها وطلنا الى الوزير محمد شريف باشا ان  
يوقمها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما في العقود الدولية »  
فقال الخديو : « ادا كانت الوزارة قد آتت التصديق على اللائحة فاذا تطلبون »  
فقالوا : « نطلب ان تعزل فنشكل وزارة اخرى لا نأبى التصديق والعمل  
معنا »

فألهم <sup>(١)</sup> : « وبأى حق تطلبون هذا »

فاجابوا <sup>(٢)</sup> : « تلك هي إرادة الامة »

فوعدهم بالحوار غدآء فاصرفوا وأرسل فاستدعى شريف باشا وقضى انجلترا  
وفرنسا فيعد أن تداول معهم ساعة استقر رأيهم على أن يستقيل شريف باشا وان  
يترك الخديو للواب اختيار الوزارة الجديدة <sup>(٣)</sup> وحينئذ لم ينتظر الخديو الى غد بل أرسل  
في المساء الى الحصة عشر نائباً فلما جاءوا أخبرهم باستقالة شريف باشا وأسلمهم بمن  
تؤلف الوزارة التي تخلف وزارته . فقالوا ان اختيار الوزراء من حق الخديو . فاصرف  
فاصرفوا ثم أيضاً على الامتناع ، وأخيراً عادوا في الصباح (الجمعة ٣ فبراير) فابلغوه أنهم  
يشيرون محمود سامي لرياسة الوزارة على شرط أن يصدق على اللائحة ، فكان  
ما أرادوا

انجلترا وفرنسا هما المعتبرتان

هنا نقف لحظة لقول ان انجلترا وفرنسا هما القتان خلفتا بحرهما وسوء نيتهما  
هذه الامة لانهما بارسالهما مذكرة ٧ ياجر لغير ما سبب بحرشتا بالمجلس وادراته  
بالمدون وحاولتا أن تعزلا الخديو ، أو بعبارة اخرى الحكومة ، من الامة . ثم لانهما  
أرادتا بعد ذلك أن عمما النواب من أن تكون لهم سلطة على الميزانية حتى في الجزء الذي

(١) و (٢) أشبل يوفيس ص ٩٥

(٣) المصدر السابق

لاساس له منها بالدول ولا بالدائنين . وما كان المجلس في كل أدوار الازمة الا واقعاً موقف الدفاع ضد هجمات الدولتين ، وقد تواضع في طلبانه حتى ذهب الى طلب الاشتراك في تقرير الميزانية ، لا الافراد بتقريرها ، فاصرت الدولتان على الرض فكانتا معتديتين أولاً وأخيراً وكان اعتداؤهما حلقة من خطة سياسة أريد منها أن تؤدي في النهاية الى التدخل المسلح . وكل من يقرأ الرسائل والمذكرات التي كانتا تتبادلانها في تلك الايام يرى سهولة أن ية التدخل والاستيلاء على مصر كانت جلية عندهما على السواء . ولكن شيئاً واحداً كان يفصلهما وهو أن انجلترا كانت تريد هذا التدخل لها وحدها ، أما فرنسا فكانت تعرف هذا القصد من زميلتها وكانت تخشى أن يتم فكان وزيرها غامبتا يدفع الحوادث دفعاً لكي تتدخل الدولتان معاً ثم لما استتمل غامبتا في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٢ وخلفه دي فريسييه في رئاسة الوزارة لم تتغير هذه الخطة وأما تغيرت الوسيلة اليها وصارت فرنسا لا تدفع الحوادث توصلا الى التدخل بل تخرج أوروبا للاشتراك مع الدولتين عسى أن يحول ذلك دون الغرض الذي تعمل له الحكومة البريطانية .

فالدولتان كانتا في شهرى يناير وفبراير تحاربان المجلس والحركة الوطنية كلها عملاً سياسة الاعتداء التي أعلنتها في مذكرة ٧ يناير . ولنا قول هذا وحدها وأما بقوله مصافص فرنسا العام اذ ذاك مسيو سينكوبكز فقد كتب في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٢ الى حكومته تقريراً قال فيه (١) :

« ان الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب في ان يصير برلماناً ، والخطة القوية التي رأت الدولتان من جانب آخر ان تختارها والتي كانت مذكرة ٧ يناير تعبيراً عنها ، هما السببان الجوهريان اللذان اصطلح كل منهما ، بالآخر فوجدنا الموقف الحالي

« وفي الواقع انني كلت ان أقدم تلك المذكرة بالاتفاق مع السيد ادوارد ماليت للتخدير في الوقت الذي بدى فيه بالتكلم جدياً في اعظم مسألة تشغل الافكار في الوقت الحاضر وهي مسألة الميزانية . ولهذا المذكرة أهمية عظيمة لانها ترسم خطة الدولتين ربما جلبا صرحاً محققاً أكد أن من الضروري ان يبقى النظام الحالي على ما هو عليه



ولا تعير وجود الحرب الوطني أدنى التفات ..... ولقد أدركت الدولتان حق الإدراك ما كان مقدراً لارادتهما هذه ان تجده من معارضة الحزب الوطني ومعارضة غيره في خارج مصر مصرحتا بأنهما مسعدتان لمقاومة الارتباك الداخلية والخارجية التي يمكن ان تهدد النظام الحالي »

وكتب الى حكومته يوم ٩ فبراير يقول (١) :

« يمكن ان يقال ان الاغلاب الذي أحدثه مجلس النواب المصري جواب منه على مذكرة ٧ يناير . فلقد أعلننا في هذه المذكرة اننا نحفظ بالنظام الحالي ضد الجميع فاجاب المجلس على ذلك بان غير هذا النظام تغييراً جوهرياً . وبذلك وضعنا أنفسنا في موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه ان نتدخل او نعدل سياستنا » (٢) وهذا اعتراف جلي بان الدولتين هما اللتان تمعدا سياسة تؤدي بهما الى التدخل المسلح

وكتبت جريدة التيس في ٨ يناير سنة ١٨٨٢ قول :

« ان السير ادوارد ماليت كتب في ٩ يناير الى رئيسه يقول ان مذكرة ٧ يناير أبدت عنا كل ثقة . لقد كان كل شيء يسير سيراً حسناً وكان ينظر الى انجلترا كما ينظر الى دولة بارة غلصة لمصر اما الآن فالعربون يتقدون ان انجلترا ألقت بنفسها في احضان فرنسا وان فرنسا تحملها أسباب خاصة بحربها التونسية على التدخل هنا »

### المجلس في وزارة محمود سامي

صدر الامر لمحمود سامي في ٤ فبراير بان يؤلف الوزارة فالتها ودرغ الى الحديو كتاباً طمأن فيه الاجانب على احترام التعهدات الناشئة من قانون التصفية والادارات الخاصة بالدين العمومي ثم قال :

« وقد كان أبداً في خلدي عظمكم ان لا بد من مساعدة مجلس شوري لانعام الاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق . وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحالي

(١) آشيل يوفيس ص ٦٦

(٢) ثبت هنا نص هذه الجملة الاخيرة باللغة الفرنسية وهو :

Nous nous sommes places ainsi dans la nécessité d'intervenir ou de modifier notre politique

والوزارة أيضا من هذا الراي وهي ستوجه همتها وعنايتها الى اصلاح الحاكم والمحاسب  
وانتظام الادارة واجراء التحسين اللزم في أمر المعارف العمومية مساعدة للملاد  
على السير في سبيل المدنية والتنتاج . وستنظر في اتخاذ الوسائل الآتية الى اتساع  
دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الاصلاحية  
التي كانت موضوع امانى عظمتمكم . ولكنها قبل كل شيء ترى من الواجب ان  
تعين اختصاصات مجلس النواب ليتيسر له ان ياقى الحكومة بما تنتظر منه من  
المساعدة وان يحقق آمال البلاد المحصورة فيه . ولذلك قال شيء تشريع فيه الوزارة  
هو وضع نظام اساسي للمجلس المواليا به ويكون من احكام هذا النظام احترام  
جميع الحقوق الممتازة والجهود الدولية وكل التعهدات المتعلقة بالدين العمومي وما  
توجب هذه التعهدات درجة في برنامج الحكومة وتحديد التبعة التي تلحق الوزارة  
امام المجلس وكيفية الخفارة والمباحنة في أمر القوانين ووضعها وتنظيمها . وسيكون  
هذا النظام الاساسي محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم «يبداً  
من ان يكون سببا لقلق البال »  
فرد عليه الحديبو بكتلب قل فيه :

« . . . ونوافق على رأيكم التضمن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل  
اللازمة لاتمام الاصلاحات القضائية والادارية وشرقا تون اساسي لمجلس النواب  
ينطبق على الآراء التي أبدىتموها في لائحتمكم »

وفي ٦ فبراير نظر مجلس النظار في مشروع اللائحة الاساسية فوضعه في الصيغة  
التي ترضي مجلس شورى النواب . وفي ٧ فبراير عقد المجلس وجاءه ناظر المعارف  
عبدالله فكرى باشا وناظر الاوقاف حسن الشريعى باشا وقدمتا اليه المشروع في  
صيفته الجديدة فصادق عليه النواب بالاجماع <sup>(١)</sup> وهذه هي المراد الخاصة فيه بسلطة  
المجلس على الميزانية :

« ٣٤ — لا يجوز للمجلس ان ينظر في دفعيات الويركو المقرر للاستانة او  
الدين العمومي او قيا التزمت به الحكومة في امر الدين بناء على لائحة التصفية او  
المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية  
٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ( بمراعاة البند  
السابق ) وحين لها لجنة من اعضائه مساوية بالعدد والراى لاعضاء مجلس النظار  
ورئيسه لينظروا جميعا في الميزانية ويقرروها بالاتفاق أو بالاكثرية

(١) نص هذه اللائحة منشور في ذيل هذا الكتاب من ص ٤٤٨ الى ص ٤٥٤

٣٦ - إذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد فيه فالميزة تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان أنهت رأى لجنته فيكون المعدل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة . وأما ما حصل فيه الخلاف من الميزة فإذا كان مقررا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصوصا لأعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يعقد المجلس الثاني بمقتضى المادة ٢٣

٣٧ - إذا أيد المجلس الثاني رأى المجلس الاول في أمر الميزانية وجب تنفيذ الرأى المذكور قطعيا كما في المادة ٢٣ «

أما المادتان ٢٣ و ٢٤ أشر اليهما في هذه المواد فهما :

« ٢٣ - إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المحاورة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللمجلس الحديوية أن تأمر برفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط أن لا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانقضاء الى يوم الاجتماع . ويجوز لأرباب الانتخاب أن ينتخبوا قس النواب السالفين أو مضمهم  
٢٤ - إذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعيا «

وفي يوم ٨ فبراير كان مجلس النواب مجتمعاً فجاء محمود سامي ومعه اللائحة وقد صادق عليها الخديو والنظار فقدمها وألقى الخطاب الآتي :

« أيها السادة النواب

أحسب نفسى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الاساسى الذي سيكون ان شاء الله قاعدة لجميع أعمالكم ويسرنى كل السرور اننى لم اعمله اليكم الا بعد تيقنى انه خير أساس يمكنكم ان ترفعوا عليه من الاعمال ما يبرز شأن البلاد ويعمى ثروتها ويقوى اصول المداولة فيها

وهذه نعمة من الله سبقت الينا على حين احتياجنا اليها والحمد لله قد وصلنا الى المرغوب مع احترامنا شرائع الحكمة ونواميس السكينة ولم يكن شئ من الوسائل بعيدا لو لم تكن عناية جناب خديوتنا الاعظم هى سندنا في جميع أعمالنا ومقاصده السامية هى - مرشدنا في سبيل سيرتنا فهو الكريم الذى اجريت هذه النعمة على يديه دورل واجب علينا جميعا ان نقوم لحضرة العلية بفروض الشكر وواجب الثناء

إلا اننى اعلم كما تعلمون ان مجرد وضع القانون على اصول الحرية وقواعد العدالة لا يكتفى في وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لابد ان يضم الى ذلك خلوص اللية من كل واحد منكم في المحافظة على حدود هذا القانون ودقة الطر في الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والامكار منحصرة في دوائرها وقد قال عقلاء السياسين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال اعنى حصر جزئيات الاعمال وكلياتها في دائرة القانون انما ينال بعد البناء وطول التعارب لكن لا اعد هذا صعبا عليكم فان العناية الالهية ساعدت سعد البلاد بوقوع الانتخاب على حضراتكم واتم على اكل درجات العقل والفضيلة ولا عناء في اتباع القانون الا على العاجزين

« وفي املى انكم ستحققون ما يطن احباء البلاد فيكم عندما يتبدلون في الاعمال المهمة التي تهتمم الان لمباشرتها بان تستملوا صادق النظر للوقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى المهم حتى لا يصبح الزمن الطويل في الحصول على فائدة قليلة وهذا لا يكون الا بتحليص الامكار وتخصيص الطولاي من شوائب النزعات الشخصية بان نجعل الاعمال وقفا على المصالح العمومية التي تقعها في الحقيقة على اعداءكم وعلى ابناءكم

« ان الثقات النظر الى الخصوصيات يمت في القلوب محاسنات وماظرات تحصل على الخلاف الدائم ( نعوذ بالله ) وانكم تعلمون ان الذين رفقوا الى ذروة العز واولج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم في طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب فاحلثهم اعلى للنازل ففتبتوا في مكاتهم ماداموا بحيلة الاخلاص

« واني اهنيء قسى بوقوف بين عقلاء البلاد العارفين بمقوق بلادهم عليهم العالمين بان شرفهم مفقود بشرف اوطانهم الموقنين بانهم لن يكونوا نوابا حقيقيين الا اذا اقاموا على صدقهم براهمين من العمل وحججا من العقبات في خطة الاعتدال حتى يقتنع بها البعيد كما عرفها القريب

« وفي علم حضراتكم ايها السادة اننى عند استلاى رياسة النظار رفعت الى جناب خديوينا الاعظم تقريرا امنت فيه مبادئ الهيئة الحاضرة واظنكم قرأتموه وتعلمتم مساينه وقد تكرم على الجناب الخديوى بقبوله واني مؤمل فيكم ان تكونوا عضدا لنا وساعدا قويا على تنميم ما قصدنا ليقتر امر النظام وتتوفر لدينا اسباب الحرية والرقابية ونحفظ الحقوق التي لنا ونؤدى الواجبات التي علينا ونوقى بجميع جهودنا لمن ماهداه ونكون بذلك قد ارضينا سلطانا الاعظم الذى يسره نجاحنا

وتقدمنا وارضاءنا جميع الدول المتقدمة التي نحب ان ترانا حائزين لشرافا حافطين لحقوقنا  
قائمين به و دنا

« وآخر ما نتواصى به ان لا نجعل للنصب الشرى دخلا فى الاعمال الوطنية  
التي كلفتمكم البلاد ان تقوموا بادائها وان تكون الوطنية الحقة هى الباعث القوى  
على كل فكر والمابة القصوى من كل قول وعمل  
« نسأل الله ان يوفقنا جميعا لما فيه رغبة أوطاننا وتقدم بلادنا وان يجمع البلاد بقاءه  
حضرة خديويتنا المعظم أيده الله »

فرد عليه سلطان باشا كرا للوزارة انها اجابت طلب النواب. ثم توجه النواب  
الى الخديوي وشكروا له تأليف الوزارة التي لبث طلب الامة. وأقيمت لذلك احتفالات  
فى كثير من انحاء البلاد

وفى ٢ فبراير صدر أمر عال بان نيابة اعضاء مجلس النواب المجتمع اذ ذاك تمتد  
الى خمس سنوات ابتداء من يوم عقده وبذلك صار مجلس شورى النواب هو نفسه  
مجلس النواب الذى نص عليه فى اللائحة الاساسية

وصدر مع هذا الامر أمر ثان بان يبقى سلطان باشا فى رئاسة مجلس النواب  
خمس سنوات .

وأمر ثالث بان انتهاء اجتماع المجلس فى هذه السنة يكون فى ٢٦ مارس  
سنة ١٨٨٢

وعقد المجلس بعد ذلك أكثر من عشرين جلسة ما بين ٦ فبراير و ٢٦ مارس  
فنظر فى جملة غير قليلة من شؤون الزراعة والتعليم والرى والصحة وغيرها. وقدمت  
له الوزارة مشروعاً لقانون الانتخاب الذى ينتخب على أسسه مجلس النواب فبحثه  
وعدله فيه ما عدله ثم صدر قانونا فى ٢٥ مارس وهذا أهم ما يشتمل عليه :

« بحق الانتخاب لكل مصرى من رعايا الحكومة المحلية سواء كان مولوداً  
فى مصر او متوطناً أقام فيها مدة لا تنقص عن عشر سنوات على شرط ان يكون  
بالعامة العمر احدى وعشرين سنة كاملة وان يدفع للحكومة من مال الضرائب  
او الرسوم المقررة أيا كانت ما يبلغ خمسمائة قرش اميرى فى السنة — (مادة ١)

ثبتت حق الانتخاب لمن يأتي ذكرهم ولولم يكن عليهم المبلغ المقرر وم أولاً  
العلماء الحائزون رتبة التدريس او المشهورون بصفة العالمية . ثانياً القسس وسائر

الرؤساء الرومانيين من المسيحيين . ثالثا حاضرات الاسرائيليين . رابعا المدرسون في المدارس المصرية والدكانب الالهية والحائزون للشهادات من المدارس المالية . خامسا ارباب الوظائف الملكية سواء كانوا في الوظائف او متقاعدين . سادسا ضباط العسكرية سواء كانوا في الخدمة او مستودعين او متقاعدين . ساجا وكلاء المرافعات ( الافوكاتية ) المقبولون في المجالس النظامية . ثامنا الاجزالية والاطباء والمهندسون .  
( المادة ٣ )

يكون لمصر مائة وخمسة وعشرون نائبا ( المادة ٦ )  
ينتخب الذين لهم حق الانتخاب في كل دائرة واحدا من كل مائة منهم على شرط ان يكون بالنا من العمر محسا وعشرين سنة بالاقل والذين يقع عليهم الانتخاب على هذه الصورة هم الذين ينتخبون النواب ( المادة ٣٣ )  
يصح انتخاب كل شخص بلغ من العمر محسا وعشرين سنة فا فوق ايا كان محل توطنه في مصر على شرط ان تجتمع فيه الصفات المطلوبة في حق الانتخاب ويكون ساريا عليه احكام قوانين البلاد بما فيها القرعة العسكرية ويكون عارفا بالقراءة والكتابة معرفة كافية - ( المادة ٦٧ ) - «

### محتاج المراقبين

وكان من الجلي الا يرضى المراقبان الاجنبيان عن هذا النظام الجديد لانه خضوع النظار للمسئولية امام مجلس النواب واعطاء هذا المجلس حق المشاركة في تحرير الميزانية ينتهكان الحكومة المصرية من بعض السيطرة التي كانت لدينك المراقبين وبمعدان لها سبيل الاستقلال . ولهذا ما كاد المراقبان يعلمان ان اللائحة الاساسية صدرت حتى احتجاجا عليها في خطاب طويل رفقاه الى الحديو <sup>(١)</sup> وعما فيه ان هذا التفسير الذي حدث بانتقال السلطة من الحديو ونظاره الى مجلس النواب غير ملائم لحالة البلاد السياسية والاجتماعية . ثم ارادا ان يحرضا الحديو على المجلس قائلا انه قضى على سلطته وحملها كما مهلا وانت النواب صاروا يمزنون الوزراء ويمنونهم . الى ان قالا :

« ولقد كن المصدر الوحيد لتأييد قواما الادية شخص الحديو والوزراء . أما

الآن فلا بد أن تصبح هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقام نواب البلاد  
ورؤساء الجيش »

ثم ادعى ان قبول وزارة محمود سامي ما قبلته « انتهاك لحرمة نفوذ انجلترا  
وفرنسا ». وأخيراً اندرا بأن استقلال الحكومة المصرية عن سيطرتها سيذهب  
بالاصلاحات كلها بعد أن نوطدت أركانها في السنتين الماضيتين

اذن كان هذا الاستقلال كل ما ينضب المراقبين وحكومتيهما ، ولكنه كان  
أيضا كل ماسى اليه مجلس النواب بعد ان رأى الخطر محيما . وليس في الدنيا عقل  
سليم كان يطلب من المجلس أن يفرط في استقلال بلاده ليحسب هذا الغضب  
ولم تصح حكومة محمود سامي لهذا الاحتجاج بأكثر من أنها ردت عليه وأكدت  
لقتضي الدولتين ان حقوق الدائنين ستبقى مصونة وأن نظام المراقبة سيبقى محترما

### انتهاء دورة المجلس

وفي ٢٦ مارس تقدم محمود سامي الى المجلس ومعه الامر العالي باقهاء دورة  
المجلس فالتى كلمة قال فيها :

« ان المدة القصيرة التي اجتمعوها والاعمال الكثيرة التي باشرتموها تدل على شدة  
ميلكم الى النجاح ورغبتكم في تقدم البلاد . وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المحين  
لانقضاء المجلس بمقتضى لائحكم الاساسية قد أتيت بالاصالة عن نفسي واليابة  
عن اخواني لا أقدم لكم الشكر على مساعيكم المحمودة وأرغب اليكم ان تشغلوا  
أفكاركم في مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمروعات التي ستوضع في العام القابل  
موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة . وهذا هو الامر العالي الكريم الناطق  
بانقضاء المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المستول في توفيقنا جميعا »

ثم تلا الامر وبعد الفراغ من تلاوته تكلم رئيس المجلس فشكر الوزارة ودعا  
الله أن يوفق النواب الى الخير والاتحاد . وانقض المجلس فلم يجتمع بعد ذلك لان  
الانجليز احتلوا القاهرة فكان أول ما فعلوه بعد الاحتلال أن قسوا على الحكم النيابي  
بقبي مطلقا الى أن استردته الامة في سنة ١٩٢٤

## شهادات ذات قيمة

والآن ماذا فعل المجلس في دورته هذه ؟ وكيف كان تأثير وجوده في الحكومة  
وقى البلاد ؟

انه اجتمع في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وانفض في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ فالمدة  
كلها ثلاثة أشهر انقضى منها شهر ونصف في انتزاع الدستور ونحويل الحكم المطلق  
الى حكم نيابي . فالشهر والنصف الباقيان هما وحدهما الاذان كان فيهما صاحب سلطة  
تسب عليه وهما الاذان انصرف فيهما الى أعمال الإصلاح . فاذا نحن سألنا كيف  
كان تأثير وجوده في الحكومة وفي البلاد فيجب أن يكون مفهومنا أن وجوده وعمله لم  
يتعدى هذه المدة القصيرة

كانت مدته قصيرة ومع ذلك اسمع ما يشهد به له الكتاب المنصفون والرجال  
للشؤون . كتب ستر نيودور دوشتين ( ص ١٥٦ من الترجمة ) يذكر أعماله  
قال :

« لم يكن ينتظر أن يعمل المجلس في خلال هذه المدة القصيرة عملا يذكر من  
الوجه التشريعية اللهم الا ازالة بعض فضائح الماضي الطاهرة لكل ذى عينين .  
ومع ذلك كانت التطارات المختلفة اثناء هذه المدة تكدر في تهيئة مشروعات  
الإصلاح لعرضها على المجلس في دور انعقاده القادم فكانت تعد قانونا جديدا  
للانتخاب (١) وقانونا لمنع السخرة ومشروع إصلاح المحاكم المختلطة التي آذت  
الفلاحين فيما مضى أذى بليغا وآخر لانشاء مصرف زراعي وما الى ذلك من الأعمال  
..... اما المجلس نفسه فكان اثناء ذلك مكابلا على فحص الماهدات والمقادات  
للحامة والخاصة الميرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية ورعاياها وفي  
مناقشة البطاري المساوي . المختلفة التي وصلت الى علمه وأهمها المساوي الخاصة بمسح  
الاراضي الذي كان قد تم منذ ثلاث سنين تحت اشراف موظفين من الانجليز ولم يكن  
له اثر ظاهر غير النفقات الباهظة التي ذهبت في شكل مربيات واجور وثققات انتقال  
وغير ذلك . وقد انعمي الامر في هذا الصدد بان ألفت المجلس لجنة خاصة لفحص هذا  
الموضوع فأرجع ذلك المساحين الذين قاموا بهذا العمل »

(١) تقدم ان المجلس بحثه وصادق عليه وانه صدر في ٢٥ مارس سنة ١٨٨٣



وكتب وزير فرنسا ميسودي فريسينيه في كتابه « المسألة المصرية »  
( ص ٢٤٩ ) يذكر المدة التي وجد فيها مجلس النواب وتولت الحكم وزارة  
محمود سامي تحت مراقبة هذا المجلس فقال :

« كانت ادارة محمود سامي صالحة نافعة الى حد لا بأس به واتقني شهر فبراير  
ومارس في راحة وهدوء. كدبا التنبؤات التي كان المراقبان الالمان قد توقعها (١) »  
ولهذه الشهادة الاخيرة من فريسينيه قيمة كبيرة لان صاحبها كان في ذلك  
الوقت رئيسا لحكومة فرنسا فكان واقفا على حوادث مصر وأعمال حكومتها ومجلسها  
النيابي يوما بيوم مطلقا على المخابرات السياسية التي كانت تدور حينذاك بين فرنسا  
وانجلترا ثم بينهما وبين دول اوربا في موضوع المسألة المصرية ، فشهادته هذه للحكم  
النيابي وللحكومة الدستورية في سنة ١٨٨٢ لاتعد لها شهادة

فلو أن انجلترا تركت مصر وشأنها لكان فيها هذا البات الطيب ولعاشت به في  
رغد وراحة بال، ولكنهما لم تتركها لان غامبتا كان قد استقال وخلفه دي فريسينيه ،  
وكان هذا عدوا للدولتين في مصر (٢) فرأت انجلترا أن الجور خلا أمامها  
وأن الفرصة التي كانت تنتظرها سحت فضت تدس الدسائس وتصب الجبال  
في مصر واوريا حتي صربت الاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتلت القاهرة  
في ١٤ سبتمبر من السنة نفسها. وقد تقدم انه لما ارتبكت مصر يد يون اسماعيل  
كتبت التيمس في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٦ تطلب بسط الحماية البريطانية عليها . وتقدم  
أيضا ان عامبتا ما كان يريد بمذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ غير احتلال مصر وانه كان  
بعد القوة اللازمة لذلك بينما كان يكتب تلك المذكرة . فضيف الى هذا وذاك ان قسرا

(١) هذا هو نص عبارة دي فريسينيه بالفرنسية :

L'administration de Mahmoud fut assez bienfaisante , les mois de  
février et de mars s'écoulèrent dans une tranquillité qui donnait un  
démenti aux prévisions des contrôleurs généraux.

(١) كان فريق كبير من نواب فرنسا يرون في ذلك الوقت أنه لا يزال على  
بلادهم ان تضمد جراحها التي خرجت بها من حربها مع ألمانيا في سنة ١٨٧٠ وأن  
اشتراكا مع انجلترا في عمل مسلح في مصر يخلق بينها وبين انجلترا منافسا فعداوة  
وأن ذلك يضرها في موقفها أمام ألمانيا وهذه هي السياسة التي جرى عليها دي فريسينيه

قرنا العام مسبو سينكويكز كان بين ديسمبر سنة ١٨٨١ ومارس سنة ١٨٨٢ بكثر الى حكومته فيذكر التدحل المسلح ويقدر القوة اللازمة له بارسين ألف رجل<sup>(١)</sup>، وكن للفاوضات السياسية التي كانت تدور بين الدول في سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ بشأن **مسألة المصرية** وكانت تتردد فيها كلها تقريبا كلمة « العمل في مصر » وكيف يكون ومنه يكون . فالعزم على هذا « العمل » كان قدما ظهرت بوادره من اليوم الذي اربكت فيه المالمية المصرية وتجمست اعراضه في المراقبة الشاية وفي النظارة الادوية . وما كانت انجلترا تنتظر أن يوجد مجلس النواب للعمل وإنما كانت تنتظر أن تخطي لها فرنسا الطريق

ومن ذا الذي يرى تمتع الامير السيمور في خلق الاعذار لضرب الاسكندرية ولا يحكم بان هذا الضرب لم يكن لانه كان في مصر مجلس نواب ولا لانه كانت فيها حركة وطنية بل لان الاحتلال كان غرضا مقصوداً

### وإلا

هذا هو تاريخ الحياة النياية في مصر الى سنة ١٨٨٢ أى الى الوقت الذي يقف عنده كتاب مسر بلنت . وقد لا نجاوز هذا الحد كثيراً اذا نحن أضفنا اليه أن الحكومة البريطانية أرسلت اللورد دومرين الى القاهرة في نوفمبر سنة ١٨٨٢ ليضع للحكومة المصرية النظام الذي يتفق مع وحود الاحتلال فجاء وكتب تقريراً أشار فيه بالتاء دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ وانشاء هيئتين هما الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين تعين الحكومة قريفاً غير قليل من اعضائهما ويكون رأيهما مع ذلك استشاريا فانشئت هاتان الهيئتان ورجعت مصر بذلك الى أسوأ مما كانت عليه حينما أنشئ مجلس شورى النواب في سنة ١٨٦٦ لان اعضاء هذا المجلس كانوا على الاقل متخين . وخيل الى انجلترا أن الروح الوطنية ماتت بعد الاحتلال وان مصر الضعيفة لن تستطيع حراكاً تحت ضغطها الشديد فخاب ظنها هذا وهبت مصر بعد قليل لا لتطلب الدستور وحده بل لتطلب الدستور والاستقلال . طلبتهما على لسان

مجلس الشورى والجمعية العمومية غير مرة ، وعلى لسان صحافتها دائما ، وعلى لسان  
 احرابها السياسية جميعا ، فعدل نظام محاسن المدرجات في سنة ١٩٠٩ ثم أنشئت الجمعية  
 التشريعية بدل مجلس الشورى والجمعية العمومية سعيا الى استرضاء ذلك الطلب .  
 ولكن هذا لم يكن الاستقلال ولا الدستور فبقى الطلب على حاله ونقى غضب النفوس  
 يزداد ويتجمع الى ان انفجر في سنة ١٩١٩ فكان ثورة لم تعرف مصر أعنف منها  
 من قرون وقرون . واشتدت انجلترا في البطش فاشتدت مصر في المقاومة الى ان  
 انجلت الحركة في اول سنة ١٩٢٤ ، وبعد خمس سنوات من تضحيات لانحصى في  
 الارواح والانس والاموال ، عن الدستور نظاما للحكم ، فلم تأخذ مصر به جديداً  
 وانما استردت ما كان لها في سنة ١٨٨٢ وما طلبته فأوشكت أن تناله في سنة ١٨٧٩  
 وعطلت انجلترا الحكم النيابي مرة أخرى في سنة ١٩٢٥ وسلطت على مصر  
 كل قوى الارهاب والكيد عسى ان تصرفها عن الدستور ، فصبرت مصر للصل  
 عاما ونصف عام ثم خرجت ظافرة بالدستور .

واليوم ها هو الدستور قد عطل مرة ثالثة في ١٩ يولييه سنة ١٩٢٨ فمن ظن انه  
 مستطيع ان يحجوه من قلب مصر أو أن مصر تعبر طويلا على تعطيله فهو متعام عن  
 ماضيها هذا الطويل في طلبه

٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨

عبد القادر حمزة



# مقدمة للمؤلف

عن نشر الكتاب في سنة ١٩٠٧

مذ ان وضعت المقدمة الموجزة السالمة الذكركر حدثت أمور نذل علي ما يظهر على أن الساعة التي تكنت بها قد حانت أخيراً فأصبح من مصلحة الجمهور وبدون أى خطر يشأ عن عدم التحفظ حيال الافراد أن تعلن الحقيقة بنهاها أمام العالم .

ففي عام ١٩٠٤ روجعت مسودات الكتاب الاصلية مراجعة تامة وصيغ القسم الخاص منها بمصر من حديدى طرودف نزيد كثيرامن أهميته التاريخية . وذلك ان صديقي القديم الشيخ محمد عبده الذى ذكر اسمه كثيراً فى هذا القسم اتخذ له داراً خلوية بالقرب من ضيقتي المسماة « الشيخ عبيد » بالمطرية واذ ذاك رأييتي مشتبكا بمحادثته فى كل يوم وهي فرصة نادرة لم أضيعها سدى . فهذا الفيلسوف العظيم الذى نجعنا الدهر بوفاته فى الاسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٩٠٥ وهو يوم الذكرى الثالثة والعشرين لضرب هذه المدينة بالقنابل — بعد أن عبس له الزمان طويلا بلمع فى سنة ١٨٩٩ مرتبة رفيعة بان صار مفتياً للديلو المصرية فخطر له وقد أصبح حاصلأ على ذلك النفوذ الكبير بين مواطنيه أن يروى لهم قصة حقيقية عن الحوادث التي وقعت فى عصره ، تلك الحوادث التي أصبحوا يسيئون فهمها والتي أحاط بها من الحرافات والاباطيل ما يبعد عن الحقيقة بعد السماء عن الارض

ولطالما حادثني فى ذلك الصدد وأسف لعدم وجود فراغ من الوقت لاتمام ذلك العمل التاريخي . فلما أخبرته بمذكراتي الخ علي فى نشرها وقال إذا لم يتيسر النشر بالانجليزية فلننشر على الأقل بالعربية بمساعدته . ثم تعهد بمراجعتها معي ليتأكد أن القسم الخاص بالحوادث التي يعرفها قد روى بدقة تامة . وقد لبثنا منذ أول زيارة لى لمصر صديقين حميمين وجليعين سياسيين ولما كانت حديثه ملاصقة لحديثي كان من السهل أن تتناول ذكرياتنا الرجال والحوادث التي عرفناها . وهذه الطريقة أحد تاريج الحقة التي تهتم كلاما شكله الختأى . وقد

أسعدنى الماظر بأعلامه والموصول منه على الترخيص بطبعه قبل أن يقضي موته الفجائي على المسع الوحيد للمعلومات عن الحركة السياسية التي أدت الى ثورة سنة ١٨٨١ وعن الدساتير التي عاقبتها في السنة التالية

وقد كانت وفاته حسارة جسيمة بالنسبة الى أيضاً ، وأحرقت الى أنحل غير مسمي نشر هذا الكتاب باللغة العربية . لا بل ان ما وقع من المواقف الى هذا العام جعل الوقت غير ملائم من الوجهة السياسية لنشر الكتاب باللغة الانجليزية . بيد أن حوادث سنة ١٩٠٦ وانسحاب اللورد كرومر من المسرح المصري غيرا الموقف تغييراً كلياً حتى صرت أرى أنه لا ينبغي لي التردد أكثر من ذلك . ان واحي نحو مواطني على الأقل يقضي بالمبادرة . ونحن معاشر الانجليز نجد أنفسنا اليوم — من حيث معاملتنا مع مصر — إزاء نفس المشكلة التي أخطأنا فيها وحلطنا فيها ذلك الخلط الفاحش منذ حيل ، فإذا كلن المسئولون عن تسيير دفة أمورنا العمومية يريدون — كما قلت في المقدمة الاولى — « أن يعيدوا النظر من جديد في مركزهم السياسي والادبي في وادي النيل » بأمانة ولقائفة المجموع فينبغي قبل كل شيء أن توضع أمامهم المواقف المصاحبة على حقيقتها لا كما صورتها لهم طول هذه المدة الوثائق الباطلة الواردة في الكتب الرسمية الزرقاء . ولا اظن اني مبالغ اذا قلت أن المواقف التي وقعت في مصر منذ خمسة وعشرين عاماً لا يعرفها بالدقة اللورد كرومر نفسه ولا السير ادوارد غراي بل ولا السير الدون غورست خليفة اللورد كرومر . وهذا بالرغم من اعتراف اللورد كرومر اعترافاً متأخراً بأن حركة سنة ١٨٨١ كانت حركة اصلاح وبالرغم من ثنائه المتكرر على الشيخ محمد عبده كما هو مذكور في تقريره السنوي الاخير . ويجب أن نذكر هنا أن اللورد كرومر لم يكن في مصر في خلال أى دور من أدوار الثورة العرابية وانه كل الى عهد قريب يظن أن « الحقيقة الرسمية » هي وحدها الحقيقة الواقعة

لهذا السبب عولت نهائياً على نشر هذا الكتاب وأثمت فيه نصوص مذكرة اني بالصيغة التي أتممتها بها في عام سنة ١٩٠٥ . وقد أقرها صديقي الاستاذ فيما عدا بصع فقرات موحزة يستحسن عدم نشرها لانها ماسة لشخصية أفراد

لا يزالون على قيد الحياة . وهي فقرات يمكن الاستغناء عنها دون أن تؤثر في قيمة الكتاب التاريخية . وبمكسي أن أقول باخلاص اني جعلت نصب عيني في كل ما كتبه ما كشف الحقائق كما عرفها مبتعياً بذلك اصلاح الاباطيل التاريخية

وإذا كان ثمة سبب آخر يحملني على النشر فهو راجع الي وعد قديم أعطيته علناً في « مجلة القرن التاسع عشر » في عددها الصادر في سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتعدت فيه بأن أتمم يوماً ما دفاعي الشخصي عن الحوادث المعاصرة لي ، وذلك أني في سبتمبر سنة ١٨٨٢ راعيت خاطر المستر غلادستون وأملت أن يصلح حتى في تلك اللحظة المتأخرة الخطأ الذي ارتكبه ضد الحرية في مصر . فأمسكت — في وجه مطاعن عديدة لا طغر لها - عن تهرئة نفسي وإراحة الستار عن الأمور الخفية التي كانت تمرر أعمالي . لأنه لم يكن في الاستطاعة أن أبرى . فهي تماماً دون أن أديم حقائق تعتبر سرية من الوجهة العية ولذلك آثرت السكوت .

يبد أن هناك حدوداً لأوجب الصبب الذي يلزمه الانسان حيال مسلك الرجال الصوميين في الامور العمومية . واني لوائق من ان احجائي نحو ربع قرن سيكون شعبي لدي المصنفين ادا هم رأوني الآن ألماً الى الطريقة الوحيدة الممكنة في سبيل الدفاع عن نفسي وهي كشف الستار بالتفصيل عن رواية الدسيسة المألية والصعف السياسي كما مثلت أمامي وقتئذ مع تقريرها بالوثائق المعاصرة التي ما زالت في جدارتي . فاذا مست نصري بمآني هذه بعض ذوي الحيليات لجوابي هو أن عدم صراحتهم هو الذي حملني على التكلم ، اذ في خلال هذه السنين الطويلة لم يتقدم للدفاع عني ولو بكلمة واحدة شخص ممن عرفوا الحقائق معرفة تامة



## الفصل الاول

مصر في عهد اسماعيل

كانت زيارتي الاولى لمصر في شتاء سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ حيث قضيت بضعة أشهر متنقلاً في جهات البهل الادني . وقبل أن أشرح هواحيي في هذه المرة الاولى التي تعرفت فيها بالمصريين بحسن ، خدمة لهم وخدمة للقراء الاحاب على وجه الصوم ، أن أقول كلمتين عن حياتي السابقة من حيث علاقتها بالشؤون العامة . وبذلك يستطيعون أن يعرفوا موقفي بين أداء وطني بالضبط فيساعدكم ذلك على أن يفهموا كيف اني بعد ان كنت مجرد مشاهد لما يحدث في بلادهم أصبحت تدريجياً أهم بلادهم سياسياً الى ان كل لي في النهاية صلح كبير في الثورة التي حدثت في مصر بعد مرور ستة أعوام على تلك الزيارة . ومع اتني وقت هذه الزيارة لم أكن أتحاوز الحصة والثلاثين ربيعاً قاسي كنت قد رأيت الشيء الكثير سواء فيما يختص بالرجال أو بالشؤون العامة

بدأت مبكراً في الحيساة ، ونظراً لانتسابي لاحدى الاسر ذوات الصياع في جنوبي انجلترا وذوات التقاليد المحافظة الشديدة ، ثم نظراً لانتني كنت على اتصال بزعماء المحافظين في ذلك العهد ، أدخلت في سن الثامنة عشرة في الخدمة السياسية أولاً بصفة ملحق بالوكالة الانجليزية في أئينا حيث كان « الملك أوغو » لا يزال على عرش اليونان وظللت فيما بعد — لمدة اثني عشر عاماً — متنقلاً بين الوكالات والسفارات الانجليزية في طول اوربا وعرضها فتعلمت بعض الشيء مما يختص بهمتي وقضيت الوقت في اللهو وانحساذ الاصدقاء . وهكذا أقف فيما بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٩ بضعة أسابيع في الاساتاة على عهد « السلطان عبد المجيد » ثم لبثت عامين في ألمانيا أيام كانت لا تزال مجموعة من ولايات منفردة ثم عاماً في أسبانيا أثناء حكم « الملكة ايزابيل » و عاماً آخر في باريس أيام بلغ « الامبراطور نابوليون الثالث »

فروة المجد والعظمة كما أمت ربحاً قصيراً من الرمن في سويسرا وفي أميركا  
الحوية وفي البرتغال . ومد كراتى السياسية عن هذه اللاد لذينة ولكن ليس لها  
أمية خاصة فصلا عن أنها حالة من كل أهمية سياسية

وفي السنوات التى أعقبت حرب القرم كانت سياستنا الإنجليزية التى أعصبت  
اليالين ما الى المحازقات الاجبية على العكس مما أصعبت عليه بعد  
ذلك . فقد كان قوامها السلام ونجى العدوان والترفع عن المكروا الحث اللدبر  
أحرر لها شهرة الدهاء والفطة على حساب الشرف والأمانة . ولتحسن الرسمي  
لم يكن مرغوا فيه فى الخدمة العمومية فصلا عن ان فصيحة أى سياسى حديث  
السن فى بطر ودارة الخارجية كانت لأمتاح الى أكثر من توحيه سؤال جديد  
بشكل يتطلب الجواب العلى . وقد أهمتنا ودارة الخارجية ذلك بمن معاشر  
الملحقين وصفار السكرتيرين بصراحه تامة كما أنها حظرت علينا التدخل فى سياسة  
أى بلاط أرسلنا لتمثيل بلادنا فيه . بل لمدطلب اليا أن نجعل أنفسنا مرضياً عامن  
الوجهة الاجتاعية وأن تقضى الوقت فى اللهو — باحتشام اذا أمكن — ولكن شكل  
غير جدى على كل حال . ولا أكون مبالفا اذا قلت اننى فى طول الاثنى عشر عاماً  
التي سلختها فى الحياة السياسية لم يطلب الى مرة تأدية أى واجب دى قيمة سياسية  
ولو طفيفة . فذا النظام المشبط للمزام زهدنى — أثناء وجودى فى الخدمة — و  
السياسة ، فلم أشتغل بها ولم أهم بها اهتماماً جدياً الا بعد ذلك بفترة طويلة وفى  
ظروف مختلفة جاءت كلها عن طريق الاتفاق . وكانت أعمالى بصفتى ملحقاً  
منحصرة فى اللهو والاختلاط الاحتماعى والادب . فنظمت قصائد وكتبت الرسائل  
وساعدت سياسياً فى احدى الروايات الجديدة التى حدثت فى أوروبا وقتئذ  
ولكننى فعلت ذلك بصفتى مشاهداً لا بصفتى ممثلاً ، أى كرجل ممن لا يسمح لهم  
بالاطلاع على ما وراء الستار . وعند اقترائى فى سنة ١٨٦٩ الذى أعقبته وفاة  
شقيق الابن وصبرورتن الوارث الوحيد لاملاك الاسرة فى مقاطعة مسكس ،  
اعتزلت الخدمة العمومية عبر آسف والتفت الى بعض المسائل الخصوصية التى كانت  
أهميتها عندى تفوق كل شىء آخر



ومع ذلك ظلت علاقتي المبكرة بوراة الخارجية — ولو انها لم تكن لتحدد مرة أخرى بصفة رسمية قائمة على أسس من الصداقة . وحسب انها علاقة رحل اعزل الخدمة بشرف . وقد أفادني فيما بعد هذه العلاقة مضاعفا اليها تحاريبي في البلاط الانجليزي والعواصم الاجبية فائدة لا تقدر عد ما رأيت نفسي مرة أخرى مدفوعا بطريق الاتفاق في تيار الشؤون الدولية . فبواسطتها حصلت علي معرفة أداة السياسة الخارجية معرفة دقيقة . وأصبحت علي اتصال بالاشخاص الذين كانوا يدبرون هذه الاداة . وكان لي أصدقاء عديدين بين هؤلاء الاشخاص وبذلك رأيتني في مبدأ حياتي العامة تجمعني الصداقة الرسمية « بالورد كرى » الذي ظل عدة أعوام يدبر دفة السياسة في وراة الخارجية و « بالسير هيرى درموند وولف » و « بالسير فرانك لاسل » و « بالسير ادوارد ماليت » و « بالورد دوفرين » و « بالورد فيفان » و « بالسير ريفرد ولسون » وكلهم كان لهم صلح في تكوير التاريخ المصرى فيما بعد . و « بالورد ليتون » الذي صار حاكما عاما للهند في الصين الى سبقت أزمة سنة ١٨٨١ مباشرة . كما ارتبطت الصداقه بيني وبين بعض الساسة الاجاب ومهم « المسيو بيلدوف » سفير روسيا في الاستانة و « البارون هبرلي » رئيس وزراء النمسا المتوفى « والمسيو دى ستال » سفير روسيا في لندن لمدة ٢٠ سنة . قبل زيارتي الاولى لمصر بزمان طويل كانت صداقتي مع جميع هؤلاء الرجال صداقة متينة . فاذا تكلمت عنهم وحكمت عليهم فأنما أتكلم عن دراية تامة بأخلاقهم الشخصية جميعا . ونظراً لاننى كنت كاتبي أحد رجال الكهنوت لم يحز علي بسرعة الرياء ، والتفاق اللذان كانا من السلع التجارية المضادة في سوق السياسة ولم انخدع في عمل من الاعمال فأحسبه سياسة عمومية وهو في أغلب الاحايين سياسة شخصية . ولا يخفى ان الاعتقاد السائد بين الذين ليس لهم تجارب فردية بأعمال السياسة (دبلوماسية) هو ان الاواث العظيم في تاريخ العالم نتيجة التنظيم السياسي المتقن وليست ، كما هو الواقع فعلا في كثير من الاحوال ، مرتبة علي مصادفات غير متطرة وعلي شجاعة أو ضعف — وأحيانا علي ميل شخصي — لدي الاعوان الموهوب منهم القيام بعمل من الاعمال

ففي خلال السنوات الاولى التي أعقبت اغترالى الخدمة شملت نفسي  
 يتحرف الداخلية. ولم يكن الا على طريق الاتفاق - كما قدمت ابنى بدأت أهتم  
 بالسيلة . واذا رأيت سبي في سنة ١٨٩٣ مهوك القوي ، وفراراً من تحمل  
 فصل الربيع الذي بدأ متأخراً في انجلترا ، قررت أن أقوم أنا وقرينتي بأول  
 سيلة مشتركة لنا في البلاد الشرقية . فذهبنا على طريق بلغراد والدانوب الى  
 الامستاة حيث وجدنا ( السير هري اليوت ) في السفارة . وهالك جددنا تعارفنا  
 بالاصداق. الآخرى المتناصين بها ومن بينهم ( الدكتور ديكسون ) الذي سألتكم  
 عنه فيما بعد بمسألة مصرع السلطان عبد العزيز والذي عالمي بشقة تامة في نوبة  
 شديدة من نوبات دات الرقة والذي أصبحت أشهر نحوه بميل كبير . وكانت  
 الامبراطورية العثمانية تتمتع وقتئذ بفترة هدوء نسبي قبل العاصفة التي قدر أن تهب  
 عليها بعد ذلك فلم أحفل كثيراً بتاعها الداخلية ولكن عواطفى كانت في ذلك الوقت ،  
 ككل عواطف عالية الانجليز وقتئذ ، مع الانراك لامع المسيحيين العثمانيين . وبعد  
 البالي من المرض ابتعت ستة براذين في سوق الخيول بسلامبول ثم عبرنا معها الى  
 السكودار حيث قضينا ستة أسابيع لذيذة من فصل الصيف متقلين بين التلال وحقول  
 المشحاش الاناضولية بعيداً بقدر الامكن عن الطرق المطروقة . ورأينا في ذلك  
 الوقت من حياة الريف التركية بقدر ماسمح به حملنا التام بلعة البلاد . ولاحظنا  
 - كما لاحظ جميع السياح - طيبة الاهال وأمانتهم وسوء حكومتهم . والذي  
 جعلنا نلاحظ ذلك سلوك رجال الضبطية الموكلين بحراستنا نحو الاهالي فانهم كانوا  
 يعاملونهم كما لو كانوا جنوداً أجنبية أعارت على البلاد .

ومع ذلك تبينا ان تركيا الريفية كانت بالرغم من كل هذا الارهاق المالي  
 تتمتع بفسط كبير من الحرية الشخصية كالحرية الموحدة في انجلترا المسكنة  
 بشرطتها وأموريتها . والمثيقة ان الشبكة الادارية أياها ذهبت في الشرق وجدتها  
 واسعة الثقوب كثيرة الخروق بحيث نستطيع صفار الاسماك الافلات منها ولا يسمع  
 الانسان في الاوقات العادية باصطهاد الفقراء والمعوذين . وأني لاذكر حكاية  
 قصصتها على الفلاحين الذين حاولوا يشكون الى بواسطة الرجال الارمني بالمجدونه

من تشدد الحكومة في معاملتهم . فقد أجبرتهم ان تمة بلاداً أسوأ حالاً من بلادهم  
 بحيث اذا روى أحد الافراد في تلك البلاد ليلاً في منخرج إحدى الطرق بجمع قليلاً من  
 الاخطاب لطهي طعامه عرض نفسه لخطر الوقوف امام القاضي في اليوم التالي بل للدهاب  
 الى السجن . واني لاذ كرجيداً ان سامى أبوا أن يصدقوا وجود مثل هذا الاستعداد  
 في أى بلد من بلاد العالم ولكن الاستنتاج الذى وصلت اليه من هذا المادتين البسيط  
 أول خاطر سياسي اتذكره بالنسبة للاشياء الشرقية

أما الشتاء التالي — أي الأشهر الأولى من سنة ١٨٢٤ — فقد قصيده في بلاد  
 الجزائر . وهذا اشتركنا في منظر آخر حولنا فرصة للتفكير ، وهو منظر استعداد  
 شعب شرقي استعباداً عيماً بواسطة شعب غربي . فان الحرب السبعية التي حارحت  
 منها فرنسا أغتبتها ثورة عربية في بلاد الجزائر امتدت ألفتها حتى بلغت  
 أطراف العاصمة نفسها وعدت تبدأ الاهالي المملون بحروب عن وسائل القمع  
 المسيحية . وقد ظهر هذا القمع باشع مظاهره في الخهات التي امتدت الثورة اليها  
 أى في المستعمرة ا قيقية حيث انتهزت الادارة الملكية فرصة اشتعال الثورة لمصادرة  
 أملاك الاهالي والتجيز للمستعمرين الاحاب على حساب أصحاب البلاد . وبالرغم  
 من حبي الشديد لفرنسا ( وقد كنت مقبياً في باريس خلال الحرب السبعية وكنت  
 شديد التحمس في الدفاع عنها أثناء الحصار ) رأيت عواطي كلها في صف  
 العرب . أما في الصحراء — فيما وراء حلال الاطلس — حيث ساد الحكم العسكري  
 فقد كانت الاحوال أحسن نوعاً لان الضباط الفرنسيين هناك كانوا على العموم  
 أكثر تقديرأ لصفات العرب النبيلة وأشد احتراماً للحالة المختلطة الاوربية —  
 الاسبانية والايطالية والمالطية والفرنسية — التي تتكون منها « الجالية » . كذلك  
 كانت القائل العسكرية في الصحراء في حالة رخاء مادي ومحفظة بفسط كبير من  
 غير الاستقلال القديم مما لم يسع القادة العسكريين سوى احترامه . وقد احتلنا  
 الطرات لأولئك الاعراب وهم في « جبل عمور » وأصرنا طريقهم القوية في  
 الحياة فسرنا كل ما رأيناه منهم . ثم أضعنا الى أعانهم في استداح بطلهم  
 الراحل « عبد القادر » ، ومع أننا لم نعلمها نظراً لجهلنا لهم فقد أعجبناهم

وأشققنا عليهم . ولم تقتنا ملاحظة العارق الكبير بين حياتهم الدينية  
تصحبهم جهالم وجيادهم ، وهي حياة تقاليد عالية مملوءة بدكرى أعمال البطولة  
وبين الانحطاط الاخلاقي الذي، للمستعمرين الفرنسيين وحاربهم ودور الحررة .  
كما أنار فينا ذلك المطر عاطفة العصب لصدوم التأسق بين هؤلاء الاخبرين  
سادة البلاد وأولئك الذين يعتبرون خدماء لهم . وكان هذا بمثابة دروس سياسي  
جديداً أثر في أشد تأثير ولو أنى طلعت اعتبره أمراً لاعلاقة له بشخصي بحال  
من الاحوال .

ذلك كل التدريب التحصيري في حياتي السياسية وتلك كانت ظروفه  
الاساسية عند ما ورت مصر أول مرة كما قلت في شتاء سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ .  
والمسألة الوحيدة الاخرى التي قد نستحق شيئاً من التفسير والايضاح وخصوصاً  
للهراء غير الانجليز ، وهي مسألة ستقدرها أوروبا قدرها ، هي أن قرنتي «اللادى آن  
يلنت » التي صحبتني في سائر هذه الرحلات كانت حفيدة شاعرنا الوطني الطائر  
الصبت ( اللورد بيرون ) وبهذا ورثت عنه شيئاً من العطف علي قضية الحررة في  
الشرق وهو عطف ترك أثره في أعمالنا اللاحقة قد بدا لنا في أثناء وقوع حوادث  
سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ . ان مؤازرة الحركة العراية يعتبر عملاً مجيداً كالذي مات  
في سبيله بيرون في سنة ١٨٢٧ . ولم يدرب بخلد أحد منا نحن الاثنين حتى الآن —  
أى في سنة ١٨٧٥ — ان زيارتنا لمصر ستكون شيئاً غير مجرد رحلة للزيارة أخرى  
في بلاد الشرق . وكانت خطتنا عند مفادرة انجلترا أن ندخل مصر من الجنوب  
عن طريق سواكن وكسلا والتيل الادرق ثم نسافر شمالاً الى القاهرة فندخلها في  
الربيع . ولكن هذه الخطة لم تتحقق — نظراً لسير الحملة الحشية الذي كان وقتئذ  
لغير مصلحة مصر — ولم يتحقق سوى حز واحد من الخطة الاصلية . فبدلاً من  
النزول في الاسكندرية كما كانت العادة المتبعة حينئذ دهننا من طريق الشمال الى  
السويس حيث وطئت أقدامنا الاراضي المصرية أول مرة

وكل ما أتذكره وقتذاك عن مصر هو اختراقنا لبحيرة المنزلة في آخر يوم في  
سنة ١٨٧٥ — وكانت وقتئذ وطناً آمناً لطبور لا حصر لها — وهو منظر عجيب حقيقة

للحياة الطبيعية المسرية في طريقنا إلى نقطة واقعة على القارة شمالي الاسماعيليه . الله ما كان أنجح ذلك المنظر ! ان بحيرة المذلة كانت وقتذاك ان تكون منطقة غدرا . وقد دقت أسراب البشروش والبط والجمع وأي فردان التي غطتها كل ما يتصوره العقل عن كثرتها . بل ان المياه أيضاً ، مياه البحيرات ومياه القناه نفسها ، كانت غاصة بالاسماك ذوات الحجم الكبير حتي أن سفينتنا اصطدمت بالعكبر منها أثناء احتيازاها البحيرة بينما كانت من جهة أخرى عرصة للزراة والاغربة التي كانت واقعة على العوامات والساربات تربصا بمرسئها . وأحسب أن انسياب مياه البحر أول مرة على أراض لم تكن من قبل مغطاة بالماء مكن السمك من التمتع بترية ذات خصوبة شاذة وهذه مرية فات أوانها منذ ذلك المين ولكن الشيء الثابت هو أن السمك والطير أخذوا في التلاشي بعد ذلك بسرعة حتي أنه لا يمحتمل على ما يظهر أن تمتع أعين السياح ثابئة بالمطر البديع الذي شهدناه في ذلك الشتاء .

ثم زلنا في السويس في الايام الاولى من عام ١٨٧٥ فكان أول ما قابلنا بنا الانهزام الشنيع الذي نزل بالجيش المصرى في بلاد الحبشة . ولم تكن تفاصيل الهزيمة قد عرفت بعد ولكن يظهر أن سبع اورط أو فرق من جنود الحديد قد أيديت على بكرة أبيها وتناقلت الاسن اشاعة فخواها أن ابن الحديد - الامير حيناً - وقع في الاسر وان العدو شوهه تشويها . وهذه اشاعة ظهر كذبها فيما بعد لان الامير ، وكان صبيبا في ذلك المين ، خطف فقط من ساحة القتال في جهة ( قور ) في طليعة النهار قبل الانهزام كما حدث لنفس راتب باشا قائد الجيش المصرى الذى كان الامير في عهده . وقد ( لورنج باشا ) القائد الامريكى حيانه فعلا مع بضعة آلاف من الجنود . وهذه الهزيمة أنهت أحلام الحديد واسماعيل في إنشاء امبراطورية شاسعة الاطراف على ضفاف النيل . وأمرت هذه الهزيمة في خطتنا الصغيرة فجعلت سفرنا بطريق كسلا ضربا من المستحيل علينا وقصت بان نساقر عن طريق آخر أقل خطورة ألا وهو طريق الوجه البحرى وكنا شديدى الرغبة في رؤية مصر باقل كلفة مما براها به السائح العادى .

ونظر لأنه كانت لدينا الخيام اللازمة للرحلة الطويلة استأجرنا حمالاً في اسويس وقصدنا القاهرة عن طريق القوافل القديم . وليس من الضروري أن أقول شيئاً كبيراً عن رحلتنا في الصحراء . فالأيام الأربعة التي قضيناها فيها مع الجبالين البدو كانت أول درس علي لنا في اللغة العربية — لاننا في بلاد الحارثيين كما نحت رحمة المرحوم — كما أنها وضعت أساس علاقتنا مع القبائل في صحراء بلاد العرب ، وهي علاقات أصبحت فيما بعد لذيذة وممتعة . ثم وصلا إلى القاهرة في صبيحة اليوم الخامس

فندو وصولنا إلى العباسية حينئذ رصاصات الخنود المصرية وهي في أثناء التفرس لاننا ضربنا الخيام في الطلام وبدون علم منا وراء أهدافهم مباشرة . وكانت رماية الخنود غير محكمة فلم تحدث إصابة . ولم يخطر ببالنا وقتئذ أننا قد نهم يوماً ما بأفعال أولئك الخنود بصفتهم حينئذ أو أن تتجه اليهم يوماً ما عواطفنا في حرب طاحنة ضد مواطنينا . وكنت وقتئذ ممن يؤمنون ولكن في غير تحمس بالعتيلة الانجليزية الشائعة ألا وهي أن لانجلترا في الشرق مهمة مساوية وأن حروبنا هناك لم تكن الا من أجل أعراض تزيهة صالحة . ولم يكن شيء أبعد عن ظني من أن نكون نحن معاصر الانجليز مجرمين مانهلك حرمة العدالة بالسلاح لحرد أهواننا ومصالحنا الانانية

كما لا ينبغي أن أقول شيئاً بالتفصيل عن القاهرة التي اجتزناها ذلك اليوم دون أن نمكث فيها غير بضع دقائق للسؤال عن بريدنا في دار القنصلية . وكلن غرضنا أن نري الجهات الرفيعة لا أن نصيغ الوقت في مدينة هي أوروبية في طريقة حياتها . وقد ظننا أننا سنجد فيها وراء النيل مباشرة أرضاً مواتقة فنضرب خيامنا فيها ولذلك واصلنا المسير ولم نهم بومل الجبالين الينا كي نخط الرحال ونذهبهم وجالهم يعودون إلى بلادهم كما لم ندرك اننا كنا نسي اليهم بمحملهم علي تقص العادات المتبعة عند القبائل التي يحيط عليهم بعضهم من بدو الصحراء الشرقية تحيطها إلى الصحراء الغربية . وبالرغم من المحاحم واصلنا المسير عن طريق كوبرى قصر النيل ومن ثم

الى طريق الحيزة . وحينئذ لحنا الازهارات عن بعد فأمعنا نحوها بتلف واشتياق ولم ينعنا من ادراكها الا لاختفاء الضياء الذى خيم علينا وقت غروب الشمس بالقرب من قرية « الطلية » الصغيرة التى ليس بينها وبين الازهارات الا قرية أخرى . وهالك حططا الرجال أول مرة علي تربة النيل السوداء . ولم تكن قد جفت بعد من فيضان الخريف . فابلنا أعالي « الطلية » الاجواد بكل اكرام كما هي عادتهم . ومع أنهم يعيشون في طريق السائحين إلى الازهارات وقد اعتادوا أن يعاملوا السائحين الفرنسيين كما لو كانوا قريبة لهم فان نزولنا في قريبهم قضاء سواد الليل أعطانا صفة الضيوف . ولم يحدث قط أن وقف بمنزلهم شخص واحد من جميع الاوربيين الذين مروا بقرينهم طول السنين الخالية . ولذلك كانت علاقتنا معهم ودية من بداية الامر . وقد خدمتنا هذه الصدقة في تعريفنا إلى قرويين آخرين عند ما استأنفنا المسير من جديد بعد قضاء بضعة أيام بين هؤلاء . ولم يكن أماننا في ذلك الوقت إلا للسك حيث كنا لابل الجالين رفضوا بنا ان مراقبتنا خطوة أخرى فدفعنا لم أجودهم قفولوا راجعين إلى ديارهم فصحبهم جملهم فعين علينا استئجار جمال أخرى . وعلى ذلك قضى القدر بأن أقصى الاسوع الاول في مصر باحثا متنبأ عن الجمال في أسواق القرى المجاورة ثم اشترى السروج والقربوسائر المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة

وكان الفلاحون في ذلك الوقت في أشد حالات الضنك . وكان هذا هو العام الاول من الثلاثة الاعوام الاخيرة المروعة في حكم الخديو اسماعيل . وكان المنقش اسماعيل صديق المشهور لا يزال في أوج عزه وحلة القراطيس الا جانب مجارون مطالبين بدفع الاتساق السكوبون « والمجاعة على أبواب الفلاحين . وكان من الامور الباردة في تلك الايام أن يرى الانسان شخصا في الحقول وعلى رأسه حمامة أو على ظهره شيء . أكثر من قبص . وحتى في ضواحي القاهرة وبالأكثر في الفيوم التى يمسها بوجوها شطرها بمجرد حصولها على الجمال ، يمكنني أن أقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عبادة . وأينا ذهب كانت

لذلك كذلك . وعصت مدن الارياف في أيام الاسواق بالنساء اللاتي أنيس لبيع طلابهن وحلبهن النفية للرايين الاروام لان جامعي الضرائب كانوا في قراهن والكرباج مشهر في أيديهم . فابتعنا مصوعاتهن الزهيدة وأضغينا الى قصصهن ولشتركنا معهن في استئزال الثمات علي الحكومة التي جعلهن عرابا . ولم يكن هنما وقتئذ — أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم — ذلك الصفت المسالي الآتي من أوروبا والذي كان السب الحقيقي في هذا الضيق . وعلى ذلك حاريناهم في لقاء اللوم كله علي اسماعيل ناشا واسماعيل صديق دون أن يحارمنا شك في أن الانجليز أيضاً يقع عليهم جانب من اللوم

وكان القرويون في متحي الصراحة . وكان الانجليز وقتئذ محبوبين في سائر البلاد الاسلامية لان الناس كانوا يطوهم يديهم عن الدسائس السياسية المعروفة عن الفرنسيين وكانوا يعتبرونهم أكثر من هؤلاء أمانة وزاهة في معاملاتهم التجارية . وفي الواقع أن الانجليز كانوا في مصر علي النقيض مما كان المخاطرون من حثالة الام الواقعة علي شواطئ البحر الابيض المتوسط كسلفي النقود الطليان والاروام والمالطيين الذين كانوا يمتصون دماء الحياة من الفلاحين المسلمين . وكانت ثمة إشاعة بلفت القرية عن احتمال تدخل من جهة أوروبا وكانت فكرة التدخل غير مكروهة علي شرط أن تكون انجليتراهي التي تمنعها . وكانت الحالة مما لا يمكن احتمالها ولذلك كل الاهالي الجائعون ينظرون بعين الانبهاج لاي تغيير أملاني أن يكون فيه خلاصهم . وقد ظهرت انجليتراهي نظير الفلاحين وهم في حالة تسول فعلي وبصد أن جردوا من أمتعتهم وضربوا حتى كادوا يموتون جوعاً بمظهر الصابة المحنة والصدقة الفنية البعيدة عن الاغراض المصعة للمطلوبين والصدقة للفقيرين فكانت في نظرم صورة طبق الاصل مما كان عليه معظم السالحين الانجليز الذين كانوا يروحون ويضدون وقتئذ وأيديهم ووجوههم طالفة بعلامات العطف . وهكذا لم يحارمهم الشك في الاطلاع التجارية الهائلة التي دفعتها — كأمة الى اعلان العدوان علي الشعوب المستصعة في سائر انحاء العالم

وفي عام ١٨٧٦ كتأ أباً أيضاً كما قدمت — ممن يؤمنون بانجليترا كما



كنت أدبى بالعقيدة الدائمة وقتئذ عن حكمها في الشرق وكان حل ما آمنه  
 لمصر أن تشترك مع الهند - التي لم أكن رأيها بعد - في التمتع بجماينا .  
 وقد كتبت وقتئذ في مدكراتي مانصه : « إن المصريين شعب طيب أمين ككل  
 شعب حر في العالم . نعم كل المصريين أي الذين لا يترجعون في الوظائف العالية  
 لأنني لا أعرف شيئاً عن هؤلاء . فكل المصريين القرويين لديهم كل الفضائل  
 اللازمة لحمل الجماعة سعيدة ناعمة البال فهم عاملون مبنحون طائعون للقوانين ثم هم  
 فوق كل شيء مستقيمون لا فيما يختص بالشروط الكحولية فقط بل في كل  
 الملا التي تجمع إليها الطبيعة البشرية . فهم ليسوا مقامرين ولا مشاعين ولا محبين  
 للدعارة والتهتك . وهم يحبون بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم . وهم آباء وأبناء صالحون  
 كثيرو الثقة على العجاوات والزمي والمفلس والمفتوهين . وهم خلوا من كل  
 تعصب جنسي وقد يكونون خلوا من التعصب الديني أيضاً . وغلظتهم الكبرى  
 هي حب المال ولكنها غلظة يستطيع دهاقة الاقتصاد السياسي التسامح فيها . وقد  
 يصعب أن يعثر الإنسان في أي جهة على شعب أكثر استعداداً من المصريين  
 لأدراك الغاية الاقتصادية لا كبر سعادة تشمل أكبر عدد . فكل مطامعهم هي أن  
 يعيشوا ويدعوا غيرهم يعيش وأن يسمح لهم بالعمل والاحتفاظ بنتائج أعمالهم وأن  
 يبيعوا ويشترى بدون تدخل وأن يفلتوا من الضرائب . ولقد أسيتت معاملتهم  
 وذاقوا الأمر من منذ قرون عديدة دون أن تتغير طيبة قلوبهم . وهم ليسوا  
 بالتحسين في الوطنية ولا بالتصميم ولا بالانخراط في درجة الخيالات .  
 ثم أنهم خالون من المعايير الشائنة فكل رجل منهم يعمل لنفسه أو لأسرته  
 على الأكثر أما فكرة التصحية الشخصية للصحة العامة فغير مفهومة لديهم  
 ولكنهم بريئون من الدسائس لاستبعاد أقرانهم . وبالرغم من الاضطهاد  
 الفظيع الذين هم ضحيته لم نسمع كلمة ثورية وليس ذلك ناشئاً عن أنهم  
 يقدسون حكمهم تقليدياً خرافياً بل لأن الثورة ليست في طبائعهم أكثر  
 مما هي في طبائع قطع من الفم . وأنهم ليحبون ملكة احتلوا أو البابا أو ملك

صاحبي بلطف منساو لو أن هؤلاء حاءوم نعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار قرش في الخنية

تلك كانت خواطري الاولى عن مصر في بد. عام ١٨٧٦ وهي صحيحة في مجموعها غير أنني كنت بعيداً عن نمو الافكار السياسية في المدن فلم أعرفه . كما أتى لم أفهم تأثير المسألة الاوردية في المشاق التي كلن الفلاحون يشكون منها . ومع ذلك رأيت عند عودتنا الى القاهرة في شهر مارس شيئاً مما يجري وراء الستار . لأن لجنة « المستركيف » كانت قد وصلت في ايان تقينا وحطت رحالها في لحد القصور الواقعة في شارع شبرا . وقد عرفت من أحد أعضائها « فيكتور بكلي » الموظف بورارة الخارجية والذي كان صديقاً قديماً لي ومن « الكولونيل ستاونتون » قنصلنا العام شيئاً عن الشؤون المالية . وانضم الى أعضاء اللجنة المالية فيما بعد صديق آخر هو « السير ريفر ولسون » الذي قدر أن يلعب دوراً مهماً في الشؤون المصرية . ولست بحاجة لأن أثبت هنا تفصيلاً التقرير الذي وضعوه عن حالة مصر . وقد يساعد على فهم الحالة أن أذكر بالاجمال كيف تألفت هذه اللجنة التي هي الاولى من نوعها

فقد بدأ حكم الخديو اسماعيل في وقت بلغ فيه رخاء مصر المادي درجة عالية . وكان سلفه سعيد رجلاً متنبهاً قدم للفلاحين كل ضروب التشجيع في المسائل الزراعية . وكان قد تنازل عن دعوي الخديو في أن يكون وحده مالك الاراضي في وادي النيل واعترف بحقوق الملكية للأهالي وقضي بان تكون ضريبة الاراضي زهيدة أي ٤٠ قرشاً عن الفدان . فأدى ذلك الى رخاء الاهالي بصفة عامة وأصبح الملاحون في كل جهة بعد تحريرهم من حالة العبودية القديمة التي وضعهم فيها باشوات الجراكية يدخرون الاموال . أي أن مصر في نهاية حكم سعيد لم تكن فقط أسعد ولايات الامبراطورية العثمانية بل كانت من الوجهة الزراعية في طليعة الام الباهضة في الشرق . وكان ابرادها كل أقل مما هو الآن — لا يزيد على أربعة ملايين من الحيهات — وكان يجمع بمتهي السهولة

ثم كانت صفات الادارة زهيدة جداً وكان الدين الاهلي لا يتجاوز ثلاثة ملايين من احيصات . ثم أن سعيداً في أواخر حكمه منح امتيازات غير قليلة لبعض الأفاقيين الاحاب شروط أصبحت تدريجاً حلاً ثقيلًا علي عاتق الدولة ولكن الرخاء العام في البلاد كان كبيراً الي حد أن هذه الشروط مما يحتمله نظام الضرائب الخفيف حتى أن الخديو كان لديه بعد دفع سائر الصفات السنوية ما لا يقل عن نحو مليوني جنيه لمصر وقائه الحرة . وفي الواقع لم تشهد مصر في جميع أطوارها مثل ذلك العصر الذي بلغ فيه الاهالي ذلك الحد من الرخاء المسمى حتي أن الفلاحين أصبحوا يسمونه « العصر الذهبي » فكان اسماعيل عند توبته العرش في عام ١٨٦٠ أوسع الامراء المسلمين ثروة وحكماً في بلد يعتبر في مقدمة البلاد الاسلامية رخاء ويسراً

وكانت أخلاق اسماعيل قبل أن يتبوأ العرش أخلاق رجل واسع الثروة يقع في ادارة ضياعه الشاسعة في الوجه القبلي أحدث الانظمة الزراعية . وكان موضع إعجاب السائحين الاجانب بسبب الآلات الزراعية التي أدخلها والمصروفات التي جعلها تعود بالفوائد . ومما لا ريب فيه أن اسماعيل له أكثر من الصيب العادي من الذكاء الطبيعي والاستعداد التجارى اللذين اشتهرت بهما أسرة محمد علي . وكان اعتلاؤه العرش موضع دهشة له لأنه لم يكن ولي العهد المباشر الي ما قبل وفاة سعيد بضعة أشهر وكانت آماله آمال رجل من . وربما كانت نقحة القدر هذه نقحة غير متظرة في أول حكمه هي التي دفعت الي الاسراف . واد كان مبالا بطبيعته الي المصاربة وشديد الشره في جمع الاموال فقد حسب -- علي ما يظهر -- أن ميراثه هذا وتمتعه الفجائي بهذا السلطان انطلق ليسا الا وسيلة لتكديس ثروته . وفي الوقت نفسه كان شديد العجب ولماً بالله فصر صوابه بهذا المراكز السامي والفرصة التي أصبحت سانحة له كي يظهر أمام العالم بمظهر الامير الواسع الثروة . وفي أال أحاط به الملقون على اختلاف أنواعهم من وطيس وأحان فوعده أن يحلوه من جهة أعبي المائيس ومن جهة أخرى أعظم الحكم الشرقيين شأنًا .

رحانه ذكائه ومهارته التجارية في اصفائه لهؤلاء الماصحين الذين جعلوه آله في  
أبدتهم . وكلت قبل نبوته العرش قد حنق مهة جمع الاموال بالطريقة التي كانت  
الاموال تجمع بها وقتئذ في مصر ثم انه كل قد تربي تربية أوربية — وهي من  
نوع التربية التي يجرها الشرقيون في شوارع باريس — أي تربية سطحية فيما يختص  
بالمورد الحدية فكانت هذه التربية كافية لاقتناعه بمقدرته على مقابلة أشرار الموردة  
بنفس سلاحهم . ولكنه لسوء الحظ ضل السبيل في كلا الحالين .

وكانت مناورته الاولى بسيطة وناحجة في آن واحد . وذلك أنه وجد الاراد  
المتجمع من ضريبة الاراضى قليلا فرأى أن يزيده برفع الضريبة بين آن وآخر فرفعها  
من ٤٠ قرشاً على العدان — وهو القدر الذي كان معمولاً به عند تبوئه العرش —  
الى ١٦٠ قرشاً ولا تزال كذلك إلى الآن . وكانت البلاد في أوائل حكمه في  
رخاء واتعاش واستطاعت في البداية أن تحمل ذلك العبء الإضافي أي أن الناس  
كلوا يدفعون هذه الزيادة من الاموال التي زادت عن حاجتهم وقد استمروا على  
ذلك بضم سنين دون أن يشعروا بفصاصة ما . بيد أن رفع الضرائب لم يكن سوى  
جزء من برنامج اسماعيل الخشن . وقد ذكره مملقوه الوطنيون بان الاراضى برمتها  
كانت في عهد جدته ملكاً خاصاً للوالي وأن محمد علي طل إلى عدة سوات صاحب  
الامتياز في تحارة مصر الخارجية فحول على احياء هذه الحقوق في شخصه .  
ومع أنه لم ينجح — في مواجهة الاحاب — على مصادرة الاراضى مصادرة  
علنية فانه أدرك غايته من طريق آخر وبسرعة مذهلة حتي أن خسر الاراضى  
الزراعية في القطر المصرى أصبح ملكاً له ولما بمض على حكمه سوى بضع  
سنوات . وكان طريقه في ذلك الارهاب والضغط الى أن تبصع الاراضى  
التي يريد اغتصابها عالة علي أصحابها وتضيق في وجوههم المسالك فيصطروا الى  
التحلص منها بأثمان زهيدة . وقد حصل بهذه الوسيلة كما قدمت على أراض  
شاسعة وظن أنها ستكون مصدر ثروة عظيمة له . ولكن حشمة هذا كان سبباً  
في افلاسه فقد ظهر من الوجهة العملية أن أطباء لما كان من صفار الملاك كانت

تدار إدارة حسنة وعادت عليه ربح كبير يعكس هذه الاملاك الواسعة التي فتحت عليه أبواب الحسارة من عدة طرق . فعيناً أنفق الاموال الطائلة في شراء الآلات الزراعية . وعشاً فرض علي قرى وحقات بأسرها إمداده بعالم السحرة . وعشاً أنشأ المصانع في أراضيهِ وحلب لها المديرين الاحانب بمرتبات فادحة . وقد منحه أعوانه في كل جهة الى حد أن المال الذي جمعه من هذه الاراضى كان أقل بكثير مما كان يحصيه منها من العصرية عند ما كانت ملكاً للأهالى . وكانت هذه ما كورة متاعبه المالية لأنها صادفت هبوط أسعار المحصولات وخصوصاً أسعار القطن لحادث ضيقاً علي ائالة كما أنها كانت ما كورة افلاس الملاحين الذين أثقلهم بمختلف الضرائب عبر المنطقة لسد عمره . وكان اسماعيل صديق المنش المشهور ساعده الايمن في هذه السياسة الخرقاء.

ولم يمض عبر قليل حتي اوقع اسماعيل نفسه في أيد أشد فشكاً ووعول في مشروعات أبعد خطراً من مشروعاته السابقة . فانا اذا تركنا جانباً الاموال الهائلة التي بددها يميناً وشمالاً كأنها المياه علي ملاذه الشخصية، وحقاقتي بناء القصور ، وطيشه مع النساء الاوريات ، وخرقه في إقامة الحفلات الملوكية ، اذا تركنا كل ذلك جانباً فانه كانت توحده الى جانبته مشروعات أخرى عطية تكفي لاستئراف خزانه أية مملكة في العالم . فليس يعرف أحد بالدقة كم أنفق اسماعيل من الملايين في الاستانة للحصول علي لقب الخديوية ولتغيير نظام الوراثة لمصلحة ولده ، ولكن يحتمل أن يكون قد دفع مبالغ طائلة . وهذا عدا الاموال الجسيمة الاخرى التي أنفقها في مصاريف خرقاء وى تعهدات قطعها علي نفسه مع بعض الشركات الاجبية . وأخيراً كانت هالك حملة النيل الأعلى ومحاولته فتح مملكة الحبشة . فليكننا نجد الاموال الكافية لكل هذه المشروعات التجأ الي الاقتراض أولاً بمقياس صغير من أصحاب المصارف المحلية أى من أروام الاسكندرية ثم فيما بعد ، بشكل أشد طيشاً، من البورصات الاوروية وكان نوبار باشا صديق السوء في مشروعاته هذه . ونوبار هذا بمول أرمي — أصبح بفصل جهل طقة معينة من المصريين بالتاريخ يلقب « بالمصري الوطني » في حين أنه الوحيد الذي يتحمل بعد اسماعيل أكبر مسئولية عن خراب

مصر للمالي فقد أرسله سيده للبحث عن الأموال بأى سعر للاتفاق على حاجاته الباهظة . فقد له فى أوروبا القرض تلو القرض بشروط جعلته لا يستلم أكثر من ٦٠ فى المائة من المبالغ التى استدانها بينما استولى لوبار على عدة من ملايين الخيصات باسم السمرة . فقد ثبت أن اسماعيل لم يستلم سوى ٥٤ مليون جنيه تقريباً من الدينون التى بلغت ٩٦ مليوناً

وفى الوقت الذى كنت أكتب فيه ذلك لم يكن اسماعيل قد عقد انعاقاته الكثيرة بيد أن فوائد الدين بلغت أربعة ملايين من الخيصات سواءً بالحصول على إيراد كاف لتسيير دفة الادارة وتحويل الحرب الخفية أصبحت أموال الملاحين تنهب منهم تحت ضغط الكرباج . فالذين يتكلمون الآن بحفاة يصمون اسماعيل بأنه لم يكن محرماً بل كل أميراً يستحق بعض الرحمة والعطف ليعه البلاد مالياً إلى الممولين الاغانب انما يحلمون الحقائق ولا يدركون تمام الادراك مبلغ الخراب الذى آثرته حماقته وأمايته برعيته الملاحين . فلقد ثبت بصفة قاطعة أن حكم اسماعيل كلف مصر نحو ٤٠٠ مليون جنيه . وعندى أنه ليس ثمة مبالغة فى هذا التقدير لانه يشمل كل ما اخرجه الملاحون فى سنى الرماء العديدة وجميع دواهم تقريباً وهذا عدا الدين العام . وفضلا عن ذلك خلف اسماعيل الفلاحين مدينين شخصياً لمرابى الاروام وغيرهم بما يقرب من عشرين مليوناً من الخيصات

تلك كانت أسباب تماعة مصر كما وقفت عليها فى القاهرة فى ربيع عام ١٨٧٦ أما فيما يخص باصل تدخلنا المالى فهو يرجع بلا نزاع الى حماقة اسماعيل فى ذلك العهد لا الى أى دافع سيلسي — على ما أعلم — من جهة إنجلترا . فقد طلب فى خريف سنة ١٨٧٥ بواسطة « الكولونيل ستاوتون » أن تساعد الحكومة الانجليزية ماليا وبشكل لا ماص معه من أن تتخذ تلك المساعدة صفة سياسية . والسبب الذى دعاه الى تفضيل إنجلترا على فرنسا واثباتها على سره هو أنها كانت أقدر من فرنسا على مساعدته ، لأن الحكومة الفرنسية كانت لا تزال تتش من نفقات الحرب السبينية فكانت عاجزة عن مساعدته بأية طريقة عملية . أضف الى ذلك —

كما قدمت — أن الصداقة القديمة بين إنجلترا وتركيا واستماع الانجليز الى ذلك  
الحين عن الدسائس التجارية في مصر ربما أضعافه هو وغيره من مسلمي الشرق فإن  
إنجلترا دولة بعيدة عن المطامع والغايات فيها يختص بالامبراطورية العثمانية .  
وبما أن خطة الحكومة الفرنسية في مسألة قناة السويس وجه خاص كانت موضع  
الشك فقد كان من الطبيعي عند ما وطد عزمه علي بيع حصته في أسهم القناة أن  
يعرض ذلك علي إنجلترا الاعلي فرنسا . وان لا ذكر جيداً الأمر الذي أحدثته هذه  
الصفقة في إنجلترا وقد ذاك فأنها لم تقابل بالرضا العام بل أن كثيرين لاموا  
« دزرائيلي » أشد اللوم على توريطه الحكومة في مسألة كل من المهم أن تكون لها  
نتائج سياسية . والأمر غير المعروف في مصر — على ما أظن — هو أن قرار  
شراء حصة الحديد بمبلغ أربعة ملايين جنيه لم يصدر بإجماع رجال الحكومة  
الانجليزية — لان « اللورد دربي » كان معارضاً فيه — وإنما صدر علي مسئولية  
رئيس الوزراء وحده وهو الذي اتفق — بدون استشارة أحد من زملائه المتعيينين عن  
لندن سوي اللورد دربي — مع بيت روثيلد علي تقديم هذا المبلغ . ولا أعرف  
ماذا كان يحول في خاطر « دزرائيلي » من الوجهة السياسية في صدد هذا الشراء  
ولكن الأمر الذي أعرفه تمام المعرفة هو أن « اللورد دربي » الذي كان وقتئذ  
وزيراً للخارجية لم يدر بخلفه أية فكرة سياسية عدوانية بصدد الصفقة . فقد كان  
رأى « اللورد دربي » من وجهة السياسة الخارجية عدم التدخل بتاتا كما أن « دزرائيلي »  
لم يكن قد نجح بعد في تلقيع حزبه بأرائه الاستعمارية . وعلي كل حال فقد كانت  
الصفقة تدبر الشرب بالنسبة لمصر وخصوصاً بسبب الدور الذي لعبه فيها بيت روثيلد .  
وسيفظهر فيما بعد أن العلاقة المالية بين هذا البيت اليهودي الواسع النفوذ وبين مصر  
هي السبب الرئيسي في التدخل العسكري الانجليزي بعد مرور ست سنوات (١)  
وكانت لجنة « المستر كيب » التي ذهبت إلى مصر بعد صفقة الاسهم مباشرة

---

(١) ظهرت منذ كتابة ذلك معلومات رسمية جديدة فيما يتعلق بشراء أسهم  
قناة السويس تغير السياق المذكور ها بعض التغير . أما الحقائق الاساسية الخاصة  
علاقة بيت روثيلد و دزرائيلي فلا تزال كما أثبتناها هنا

من عمل اسماعيل بلا جدال . وكان القرض الذى جال فى خاطره عند طلبه هذه اللجنة أن يستمر استخدام المنجم الحديد الذى اكتشفه ، معجم المساعدة السياسية الانجليزية ، لعقد قروض أخرى . وتحقيقاً لهذه الفكرة أراد الحصول على شهادة رسمية ، فى شكل تقرير ينشر على الملأ ، بأن حالته المالية لا تزال بصحة عن الارتباك وأنه ما برح قادراً على تسديد ديونه لتفتح البورصات الاجبية أبوابها له من جديد . فمن أجل هذا طلب اسماعيل للكونلونيل ستاونتون ارسال لجنة تحقيق انجليزية

وقد أصابت ساورته فسطا كبيراً من الحاح . وكان « المستر كيف » الذى عينته الحكومة الانجليزية لرئاسة اللجنة رجلاً مستقيماً ونزيهاً على ما اعتقد ولكنه نظراً لقلة خبرته بشؤون الشرق كان من السهل أن يخدع . ثم انه كانت تقصصه الشجاعة اللازمة لمعالجة جميع الحقائق بالحرارة التى يتطلبها الموقف . وكان اسماعيل كسائر المبذرين حريصاً على إخفاء بعض حساباته عند ماحاء دور الخوض فيها ، فبمساعدة اسماعيل صديق قدم للسركيف ميزانية خيالية لم يتردد هذا الاخير فى قبولها . وزاد على ذلك أن ذر فى عينه الرماد فيما يتعلق بحالة الضنك التى كان المخلصون يروحون تحتها . وكان من خطته أن يحيط كبار الزوار المالىين الذين يريد اجتماعهم فى شراكه معظمو الأثراء والبذخ . ولذلك قبلت اللجنة بكل حفاوة وطاق بها مندوبوه الى حيث وضعت المعدات اللازمة من قبل وحيل بكل الوسائل بينها وبين رؤية عراء الارض . وعلى ذلك كان تقرير كيف عند نشره بمثابة وصف لبعض الحقائق لغسب

وأظن انه كان فى استطاعة كيف لو ان خلقه كان أقوى مما هو أن ينشئ بل الحقيقة التى كانت فى قرار كل صعوبات مصر المالية ألا وهي أن ديون اسماعيل كانت شخصية لاعمومية فى عرف العدل بل فى عرف القانون . وأنها يجب أن تحمل على هذا الاعتبار . وكان ضعف كيف فى هذه القطة بداية التدخل السياسى لمصلحة حملة الاسهم فكان تقريره حينئذ أداة لاعتبار ديون اسماعيل ديونا



عمومية . ومع أن السير وفرد ولس الذى تلاه كلن أقدر منه فقد كان مثله غير  
مدرب ولا مجرب وكان اتحانه في ذلك الوقت راحماً على ما أعتقد الى معرفت  
اللغة الفرنسية . وقد عرفته حق المعرفة وعرفت كيف ولكن ليس الى هذا  
الحد . ونقبت المراسلات منصلة بيدي وبين الاول عدة أعوام فوقعت على كل  
أعماله في مصر

وآخر ما أذكره من حوادث ذلك الشتاء في القاهرة مادة أدها الخديو وكيف  
وأعضاء لحته دعيت لها اتفاقاً . وقد أدبت في الكشك الخديوي القائم على سفع  
الاهرام وكانت من المآدب الشائقة التي تعود اسماعيل أن يهر بها عيون  
الاوربيين فلم يكن يعودها شيء مما يدل على البور الشاسع بين غنى صاحبها وقصر  
أولئك الذين أقيمت المآدبة في الحقيقة على حسابهم . ومد لنا السباط على مرأى  
جمهور من العلائق الذين يكادون يموتون جوعاً والذين جاء المستر كيف لاقائهم  
من الخراب ، ومع ذلك لم يظهر على أحدنا انه تظن الى هذا التناقض فأكلنا كما  
شئنا وشربنا أحر الشبانيا ومصبي كل ما في وجهه . ولم أستطع الى الآن وبعد  
الاحاطة بكل ما هنالك أن أدرك حقيقة الحال وما فيها من الشقاء



## الفصل الثاني

لجنة السير وفرز ولسن

لما عادوا القاهرة في ربيع سنة ١٨٧٦ زدنا حدود بلاد العرب أول مرة .  
وكان السباح الاوربيون يرمون يذهبون من مصر الى سوديا بطريق الصحراء اكثر  
نما يعملون الآب . ومن ثم عدنا الى الجمال وحياة الخيام والبدو الذين حرسونا  
من السويس وعبرنا القناة وقنا بياحة طويلة في شبه جزيرة سيناء الى العقبة ومن  
هذه الى القدس . ولما كنا غرباء عن البلاد التي احترناها ولم تكن لنا معرفة باللمة  
مربية ولم يكن معنا مترجم وقعت لنا حوادث خطيرة تسرنا الآن ذكرها  
ولم لم تسرنا يوم حذرنا . منها حادثة أحب أنها تستحق الذكر وهي  
حادثة غريبة تلخص في أننا كنا نسير على شاطئ خليج العقبة المحلى في بعض  
مواقع بصخور المرجان فوقنا فقمنا بفحص ما هنالك من الالوان المختلفة بين أرجوانى  
ودهبي وقرمزي ونصب بهامى والاسلاك الصغيرة التي لا نحصى والتي تسكن تلك  
الصخور . فينا كنت واقفاً على حافة البحر ممكاً يندقيتى التي لم تكن تفارقي  
أب اضطراباً عظيماً في الماء على كسب مني . وقبل أن أدرك سبب هذا الاضطراب  
أيت كلب بحر هائلاً يترك زملاءه ويأتى على غرة مني الى حيث وقعت فصار علي  
مع بلادات مني قل أن أدرك أي نوع من السك هو أو أنظن الى اني أنا المقصود  
هجومه . ولم أكد أمسك من دفع بندقيتى حتى انقلب علي جبى — كدأب هذا النوع  
من السك — وأخرج نصفه من الماء ليمتص علي . وكان قد صار قريباً مني فقلته  
أطلق الذي سدده نحوه ولم تبق حاجة لطلق آخر يجهز عليه . ثم استقلنا  
تساعداً حرارة أن نسبح الى الشاطئ . وكان طوله يبلغ عشرة أقدام تقريباً . ولا  
تنت عدى في انه كان يجري من الصخرة الى البحر لو أني نهاوت في شأنه . وقد

ذكرني هذا الحادث بالخطر الذي طالما استهدف له فلاحو مصر من الباسيخ في النيل الاعلى . وقد صرت شديد الخوف فيما يختص بالاستحمام في البحر من ذلك الحين واتقت لسا مصاعب أخرى مع بعض الاعراب في طريقنا لا لشيء غير جهلنا بأحوال الصحراء وعاداتها . فلما ضربنا الخيام في ظاهر العقبة زارنا ابن جاد شيخ العلوين المعروف وهم فرع من عرب الحوايلت . وكان له حق حراسة السباح الى بطره فقادنا الجمل الى إساته فكانت النتيجة أن قسا بلا حرم ولا دليل وليس معنا من أهل هذه المنطقة الاعلاميين عربيين نعاننا من حمل سيناء ولم يعرفا شيئاً عن المنطقة الشمالية . فمع هذين الفلاميين حازفنا بالسفر شمالاً الى فلسطين ومن ثم نفد منا الماء . وقد وجدنا الآبار التي هداها اليها حسن الحظ جافة . وبعد معاناة أشد الصعوبات تحت شمس محرقة بلفنا حلة عربية وقد ساءت أحوالنا في احدي الليالى الى حد أن قررنا أن نترك أمتعتنا ونهيم على أحسن جهائنا لننتقد حياتنا بالوصول الى البقاع المأهولة اذا نحن لم نضرب على ماء حتى ظهر اليوم التالي . ولكن لم يبق حمار أنيانا باننا على مقربة من حلة قبل الموعد المضروب ساعة واحدة . ثم بطرنا طلعاً عربياً جاثياً على كتيب من الرمل فقلعنا منه بالاكراه والتهديد مكان التبع الذي يستقون منه

وكان هذا السبع محمري بديعاً من ماء المطر يجري في تحويف الصخور . وهنا لبنا طويلاً فزورنا غلماناً وملأنا قربنا . ولكن عرب العرزبة أصحاب المكان بعيدون عنه لحسن الحظ والا فاني أشك كثيراً في أنهم كانوا يسمعون لنا بان تأخذ ما شئت من هذه « البعة الالهية » لانهم كانوا أصحاب المكان وقد زرعوا الى جانب الماء حقلاً من الشعير كما يفعل البدو في أكثر الاحيان على حدود سوريا معتمدين على نزول المطر . أما هذا الماء فقد أعدوه للاستسقاء على أن ينضج شعيرهم . وقد غضبوا بحق حينما عادوا فاصطرونا أن تقضي الليل ساهرين ترقب خوف هجومهم علينا . ولكنهم لم يظهروا الا في الصباح وقد ظهروا صارحين مهددين . على أننا كنا قد حملنا الجمال وكنا مسلحين تسليحاً جيداً فخذنا السير ولم يحفل بهم ، بيد أنني بعد أن عرفت البدو حيراً عما كنت أعرضهم فلت

**حك** في أنه كان في استطاعتنا أن نجتنب التماسح معهم بقليل من التناغم وندفع **عن** اعتدائنا على حقوقهم ، اذن لاحسنوا استقبالنا ولم يحدث مكدر ، أما الحال كما كانت فقد كما على قيد آمنة من شر جدى . ويجب أن محمد الله على وصولنا **في اليوم** التالي الى الاراضى الخضراء ، الواقعة بين غيران وعزة حيث أحسن العرب **فعلون** هناك لقاءنا وحيث أنسنا عداقتهم الخطر الذى كان قد أوشك أن يحل **بنا** . وكان هذا آخر سيلحتنا في ذلك العام فمدنا في أوائل الصيف بطريق البحر الى إنجلترا .

على أنما لم نلبث أن عدنا للشرق في صيف سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ببرنامج **لرسم** فزرا حلب ثم لمحمدنا في الفرات الى بغداد وعقدنا علاقات المودة أثناء **عودتنا** مع القبائل العربية العظيمة اللزلة في صحراء سوريا والعراق . وكما قد بدأنا **تصرف** قليلا من اللغة العربية ونعهم عادات العرب ولم نعد تقع في مثل الخطأ الذى **روى** آفا . ويعود قط كبير من الفضل في هذا الى الصالح الحكيمة التى زودنا **بها** المستر سكين فحصل برطانيا في حلب يومئذ وقد كان واسع العلم بأساليب العرب **فهمنا** كيف نتقرب اليهم من نواحيهم البسيطة تاركين كل خوف من الزكون اليهم **كل** صدقا . وقد وفقت زوجتي هذه السيلحة المهمة الناجحة حقها من الوصف في كتابها **« قبائل البدو على الفرات »** وهو كتاب وضعناه معا ويمكن أن يرى فيه من يعنون **بلامر** آرائى الاولى فيما يخص بحرية العرب . ولم يكن عطفي على العرب في حروبهم **للزمنة** مع الازراك نتيجة أية فكرة اعتنقتها قبل ذلك ولا هو نتيجة أية خطة سياسية **ولكنه** كان نتيجة ما رأيت من سوء معاملة الموطفين الاتراك للعرب المقيمين في **حك** البقاع وما رأيت من دهاية القبائل المستقلة .

وكان ذلك الوقت وقت اضطرابات محلية وكانت الحرب الروسية التركية في **مرحلة**ها الاخيرة في القرم وبلغنا . ومع أن أفضل تمنياتنا كانت للجيش الاسلامي **وخد** الفرزة الروسيين فان مطر نساء السوريين والعراقيين اد بجمدون وبساقون **في** الاغلال الى شاطئ البحر آثار عصبا على الحكومة التركية وهو غضب قواه **ما** كل يظهره العرب كل يوم من نفص الاتراك . ولم يكن في طاقة أى انسان يقدر

الحرية إلا أن يستنصر مثل هذا المصعب اد برى سوء حكم الأتراك لولايتهم العربية  
وها وصف المسير بلسن أحوال الولايات العربية تحت الحكم العرفي ثم قال :  
ولما عدت الى إنجلترا في مايو سنة ١٨٧٨ أحدى اس عي « فيليب كلاري » الذي  
كان سكرتير لورد سلبري الخاص وأحد كبار الموطفين دوى النفوذ في وزارة  
الخارجية الى اللورد سلبري ، وكان هذا قد نسل مقابله ودارة الخارجية حديثا  
وكان يوشك أن يوقع المعاهدة السرية التي عقدها مع سلطان تركيا ( وهي الشهيرة  
باسم معاهدة قبرص ) ولم يكن لي علم شيء من هذا في ذلك الحين . فأنارت سياحتي  
في قلب الولايات العربية اهتمام اللورد وأراد أن يعرف مي شيئا عن حقيقتها . وقد  
أنجبت على أسئلته فأدليت اليه بكل آرائي بصراحة تامة وأذكر الآن بصفة خاصة  
ماقلته له عن احتمال استقلال سوريا ذات يوم وأنها قد تتحاب مع مصر ضد ظلم  
الحكومة التركية . فلم يحب علي هذه الأقوال سوى قوله لا توجد رابطة سياسية  
بين هاتين الولايتين التركيتين وأن لكل منهما أحوالا ونظاما خاصا . وقد طهر عليه  
التأثر بكلامي حين طعنت في مشروع السكة الحديدية في وادي الفرات وكنت  
أرى في هذا المشروع خطراً جديداً علي استقلال الولايات العربية . وقد علمت  
فيما بعد أنه اقتنع كثيراً بما أدليت به من الحجج في هذا الصدد وأن ورائه لم  
تؤيد ذلك المشروع بعد حديثي معه فلم ينفذ الى اليوم .

على أن حديثي مع اللورد سلبري في هذه المرة أقمي من ناحية أخرى  
بسبب اطلاعه في الشؤون الشرقية . ومع أن آراءه لم تسكن تنق مع آرائي في هذا  
العدد فأنني كنت واثقا من كفايته الشخصية وقد توثقت بي وبينه بعد ذلك  
أواصر صداقة هي وان تسكن غير صميمية إلا أنها كانت ودية . وقد سمح لي أن  
أكتب له في هذه الشؤون الى النهاية ، ومع أنه لم يوافق علي آرائي الا نادراً فقد  
كان دائما يرد علي خطائاتي بلطف أكثر مما تقتضيه التقاليد الرسمية .

علي أن الحطة التي انتهجها اللورد سلبري صيف ذلك العام لم يكن لم تثبت

أن يدب كل ما عقدته من الآمال علي اقاعه بأدأني فيما يختص بالعرب بعد أعلى  
بومند أنه يعصم لاسلطان سلامة كل ممتلكاته الاسيوية . ولما كانت مداولات  
مؤتمر برلين السرية قد أثرت في أحوال مصر تأثيراً عربياً مهما في الوقت نفسه فليس  
أحد مدوحة من أن أروي حكايتها ها وقد عرفت حوادثها عقب وقوعها مباشرة  
ويدكر انقراء أن شتاء سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٧ المطيع شهد آخر مراحل الحرب  
بين روسيا وتركيا وان ربيع العام التالي رأى حيوش القيصر على أبواب الاسنانة . وقد  
كان هذا العهد عهد شقاء عظيم في مصر . وكانت لحمة كيف التي شهدت وصولها  
الي القاهرة قد تبعها لحان مآلية أقل منها نزاهة وطهارة دمة . وقد انتهى ذلك كله  
بالاتفاق المعروف باتفاق « عوشن وجوير » الذي سويت علي مقتضاه ديون  
الحديد ، وفي الحق أنها نسوية جبارة وضعت سبعة ملايين حبيه على عاتق الإيرادات  
المصرية . ولم يكن الحصول علي هذا المبلغ المحسب من العلاحين المعلنين ممكناً الا  
يا كراههم تحت السكراماج على ادنهاف أراضيمهم للرئيس اليونانيين الذين كانوا  
يرافقون حبة الصرائب في كل مكان أثناء مرورهم في القرى . وكان الفيضان في  
النسبتين الاخيرتين قد جاء شديداً أحداً وأصيبت البلاد بالقمح فيما بين البحر واسوان  
وقد قصي كثير من أهل القرى رحالاً وساء وأطفالاً — جوعاً في شتاء ذلك  
العام الذي لم يمر مثيل له من أول القرن .

وكان واضحاً والحالة هذه أنه إما أن يعلى الحديد أو يخفض فوائد ديونه بعد  
اذ أهملت نسوية « عوشن وجوير » ، وقد كان الحل الاول أعديل المدين وأفصلها الخير  
البلاد ولكنه أهمل كرامة المصلحة حملة الاسهم الاجانب . وقام هؤلاء بمجدد نهائي  
نجاح في هذه المرة لحل الدول العظمي على التدخل السياسي للوصول الي نسوية  
أخرى بين اساميل ودائمه ، وكانت الفرصة ملائمة فيما يخص انجلترا بالاتفاق حدودها  
في الوقت الذي عقد فيه الانجليز بينهم بارشاد دررائلي على القيام بلعبة سياسية  
حرية تمثل دوراً هاماً في شؤون الامبراطورية التركية ، وكان لورد دري قد تخلف  
عن رئيسه بعد أن قطع معه وعلى الرغم من شوطاً في سياسته الاستعمارية الجديدة  
وقد استقال لورد دري فعلا من وزارة الخارجية وخلفه فيها لورد سلمي كمار

بك . وقد كان ذلك دليلاً على تقدم سياسي عام غير حال من التحدى والتهديد وقد أدخل الاسطول البريطاني الى بحر حرمة فرع الحيش الروسي ومع من دخول الاستانة ووضعت الحرب أوزارها على عقد معاهدة بين السلطان والقيصر تحت ضغط هذه المظاهرة الانجليزية وهي معاهدة « سان استافو » أما من حيث مصر فقد التفت في الوقت نفسه لجنة تحقيق دولية بالاسم والنجارية في ا- قبقة وعين فيها صديق السبر رفرز ولسن ممثلاً لانجلترا وأحس ان أمر تعيينه هو أول أمر وقع لورد سلسبري عند استلامه مقاليد وزارة الخارجية في دوسنبريت

ولا ينبغي عن الدائرة أيضاً انه لم يمض شهران على ذلك حتي عقدت معاهدة سرية في الاستانة ، عقدها السبر هري لايلرد وهو رجل عظيم الكفاية والدرابة بالشرق وكان قد أحرر رقة السلطان الشاب عبد الحميد . وقصت هذه المعاهدة بتأجير جزيرة قبرص لانجلترا وأعطيت ضمان للسلطان بسلامة ممتلكاته الاسيوية في مقابل وعده باصلاحات تدخل في آسيا الصغرى لوجود فاصل بريطاني متقلبن وم صباط يقدمون الصائح ويقدمون التقارير بالتقصيرات والشكاوي .

وكانت فكرة معاهدة قبرص في اعتبار دررائيل وسلسبري اللذين وقعها ولايارد الذي هو منشئها الحقيقي ترمي لتأسيس حماية بريطانية على آسيا الصغرى وهي وان تكن غير رسمية إلا أنها لاتقل في مفعولها عن الحماية الرسمية . وكان ا- حصول على قبرص في نظرم أقل أجزاء الصفقة . وكانت هذه الحزيرة قليلة الاهمية في الحقيقة بالنسبة لبريطانيا . كركر عسكري . ولم يكن اختيار هذه الحزيرة يرجع الى صلاحيتها من الوجهة العسكرية بل الى لومة من لوات دررائيل أنارها تقرير دوري عن ثروتها أرسله اليه فصل بريطاني ذو مصلحة في الحزيرة . وكان دررائيل قد وضع في سياسته قبل ذلك بضع سنوات رواية « نانكرد » التي عرض فيها مازحا فكرة انشاء امبراطورية اسيوية تحت حكم البريطاني وعي نادماج قبرص فيها بصفة خاصة معيداً بهذه الحقيقة التاريخ فان الملك الانجليزي رتشارد قلب الاسد كان يوماً من الايام ملكاً على هذه الحزيرة . وقد كانت المألة فكاهة سياسية ولكن دررائيل كان يحب أن يقلب فكاهاته سياسية الى حقائق ويقع أنصاره

الإنجاز الذي كان يحترم كيهودي بعداد أعماله الخرافية وإحكامها . وكان غرض لايلارد الحقيقي من عقد المعاهدة هو التحكم في آسيا الصغرى من الوجهة العسكرية وهو الغرض الذي طن ادراكه سبلا بواسطة القناصل البريطانيين المتقبلين والواقع أن هذا الغرض يمكن عزوه الي لايلارد أكثر من عزوه الي سلسرى الذي كان حديداً في وزارة الخارجية والذي أ كسبه نجاحيه في العام السابق في الاستانة عطفاً على الأتراك . وكان على هؤلاء القناصل أن يشرفوا على الادارة المدنية في الولايات ويتأكدوا من أن حياة الضرائب لا يهينون الفلاحين وأن ميادين تدريب الحيوش التركية ليست مزدهجة بسبب سوء الادارة .

ومن ثم طن بأن زحف روسيا على البحر الابيض قد وقف عند آسيا الصغرى كما وقف زحفها في أوروبا عند سانباستافو .

وإذا نحن أعطنا نظرتنا اليوم في الموقف ولاسيا بعد العلم بما تلا ذلك من الحوادث والوقوف على طبائهم السلطان عبدالحيدقليس في وسعنا الا الدهش من أن يوقع السلطان عبد الحيد معاهدة كهذه لو نفذت لوضعت تركية آسيا في الايدي العسكرية البريطانية كما هي حال مصر اليوم . كذلك يدعش المرء من توقع وزارة الخارجية البريطانية نجاح تلك المعاهدة ويلوح له ان القلب الذي أطلقه عليها غلادستون « بأنها معاهدة مجنونة » كان في محله لي أنه لا يجوز لنا أن نسي أن السلطان عبد الحيد لم يكن غيراً مع وجود الجيش الروسي على أبواب عاصمته فقد كان مضطراً لقبول التحالف البريطاني ولو كان معناه الوصاية وقد كانت احتلرا الى ذلك الجيش أقامت المحطة على أنها صديق نزيه يعتمد عليه . وكان لايلارد على بينة من قوة نفوذه في القصر كما أنه كان يعرف ما لاسم بريطانيا من الهيبة في الولايات الاسيوية . وكان للقنصل البريطاني في تلك الايام نفوذ تام علي ولاية الأتراك وسائر الموظفين مهم وكان له أن يعتقد أن نفوذه لن يكون له آخر .

والواقع أن الشرف البريطاني كان يومئذ عاليا في نظر الأتراك وكانت السياسة البريطانية مشعة بالعطف على المسلمين حتي أنه لم يختلج في صدورهم أي شبهة في أن لا يحتلرا معاصد أمانية . وكان لايلارد بعينه حسن الظن بالأتراك وربما كانت له



آمال في أن يلعب في قصر يلندز اللورد الذي لعبه لورد كرومر في عابدين . وعدى  
أنهم المدهش أن يفامر البريطانيون في أحلام كنده أو أن يتق المسلمون بزاهة بريطانيا  
وأخيراً يجب أن نذكر أنه بعد توقيع المعاهدة السرية بشهر واحد اجتمع  
المؤتمر الاوربي العظيم في برلين . وقد اجتمع بناء على رغبة دررائيلي وكل المفهوم  
أن يكون أعظم اجتماع أوربي منذ مؤتمر باريس . وكان عرض هذا المؤتمر كغرض  
سابقه تقرير مصير تركية أوروبا ورعاياها المسيحيين وتعديل معاهدة سان استفانو .  
وقد علق دررائيلي نجاحه كرجل سياسي على نجاح المؤتمر في ذلك . فقد تدخلت  
انجلترا بدافع سام كأفضل صديق لتركيا مرهه عن الغرض على قول دررائيلي  
وأصبح مقامه السياسي في انجلترا وفي الخارج معلماً على مصادقة الدول على مزاعمه  
في هذا الصدد . وكان نجاح المؤتمر ضرورياً لدررائيلي الى حد أن ذهب اليه بنفسه  
كرئيس للمفوضية البريطانية وأخذ سلسبرى الذي كل الى ذلك الحين حديث  
عهد بالسياسة بينما مثل روسيا « غورثا كوف » ومثل فرنسا وادنجتون وإيطاليا  
السكونت كورني وقولى البرنس سمارك رأسه هذه الهيئة الفخمة وقد رافق كورى  
لورد سلسبرى كما رافق بروتون دررائيلي .

ولا حاجة بي لوصف اجراءات المؤتمر العامة فهي معروفة للجميع ولكن الذى  
لم يذع قط من قبل هو هذا الحادث العظيم الذى عرفته — كاسياتي — بعد  
حدوثه بزمان قصير .

اجتمع المؤتمر يوم ١٣ يونيو وكانت الامور المطروحة على بساط البحث على  
أعظم جانب من الاهمية . ولم يكن ثمة بين المفوضين الا قليل من الشبه فيما يتعلق  
بامكان تقسيم تركيا فاقترح بعضهم من أول الامر أن يعلم كل مفوض بادى ذى  
بده أنه حضر الى المؤتمر غير مقيد بتعهدات سابقة فيما يختص بالمسائل المعروضة  
للبحث . وقد فوجئ دررائيلي وسلسبرى بهذا الاقتراح ولم يكونا على استعداد  
للافصاء باعمالهما السرية مع سلطان تركيا عبر أنها لم يكن لهما من حضور النهن  
ما يقويهما على رفضه قبله كغيرهما بصفة رسمية . وقد كان كلاهما حديثي عهد  
بالسياسة كما أسلفنا . ومن هنا يمكننا أن نصور حساسة الدهش وفداحة الفضيحة

الذين ثارا بعد بضعة أسابيع في برلين حين نشرت إحدى صحف المساء في لندن يوم ٩ يونيو نصوص المعاهدة السرية . وكان كوردي قد استخدم وجلا يدعي « مارفن » تعود السياحة في الشرق وعرف لعانه في ترجمة النص التركي . ولم يكن مارفن هذا موظفاً في وزارة الخارجية فكان من وراء الطيش في استخدامه أن باع السر بمبلغ كبير الى جريدة « حلوب » فانقض نشر المعاهدة انقضاء الصاعقة على المفوضين البريطانيين في برلين ومع أن سلطات لندن نفت صحة النص المنشور فقد كان فوق الطاقة كتمان حقيقة طويلا في برلين . وأصبح معوضونا في برلين أمام حقيقة لا يمكن تأويلها وهي أنهم حاثوا عهد زملائهم الاوربيين خيانة حسيمة وآثموا بكذب صريح مكتوب ومسجل عليهم . وقد هدد ظهور السر مؤتمراً برلين بالاخفاق بل بالامضاء للعامل . وقد أعلن الرئيس غورتشا كوف أنه أهين وشاركه في عضته وادخلتونه وتهدد كلاهما بالانحجاب من المؤتمر وأخذوا دامتون يحزم أمتعتهم استعداداً للسفر من برلين . وكان الموقف حرجاً ولم تقده الاحداث بمشارك المشوبة بالنهم . وكل قد أعجب بدرائيلي وعطف عليه لمشابهة بينهما في خلقي الهكم والحراة واستطاع كوسيط أمين أن يوفق بين معوضي فرنسا وانجلترا على القواعد الآتية :

- ١ - أن يسمح لفرنسا بعد أول فرصة وبغير معارضة من جانب بريطانيا أن تحتل تونس كعويض عن حصول بريطانيا على قبرص .
- ٢ - أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا في التسويات المالية التي تم في مصر
- ٣ - أن تعترف انجلترا بزعم فرنسا القديم في أن لها حق حماية المسيحيين اللاتينيين في سوريا وعلي قاعدة تسليم دزرائيلي في هذه النقطة الثلاث . وقل وادخلتونه المقام في برلين والاشراك مع سائر المفوضين في تسوية مسائل البلقان التي تمت على قواعد الاقتراحات البريطانية قهرياً - ومن الغريب أن الثمن الذي دفعه دزرائيلي الى فرنسا وهو ولاية من ولايات حليفه السلطان مكة من أن يعود بعد قليل الى لندن ويدعي الغور والانتصار مفجراً بأنه عاد يحمل « الشرف والسلام » وعدى أن هذا الحادث المحجب يجب أن يعتبر

مدأ بد بريطانيا تقالدها السياسة المحيدة في الشرق واتلها سياسة نهب وخيانة  
والى دسية قبرص هذه برجع مباشرة أو غير مباشرة نضم الحرائم التى ارتسكت  
ضد حرية الشرق وشمال افريقيا وهى الحرائم التى شهدها جيلا الخاضر . وهى التى  
ألفت فى روع النفا فكرة ضم البوسه فى الحال . وهى التى ساعدت على اخفاق  
نسوية صحبحة فى مقدونيا . وهى التى وصعت تونس تحت أقدام فرنسا وبدأت  
عهد تقسيم أفريقيا بين الدول الاوربية وما ينفع ذلك من شتى الخاوف والنكبات  
التي حاقت بالوطنين من يبرزتا الى بحيرة تشاد ومن الصومال الى الكونغو وفوق  
هذا كله أقتدت بريطانيا سمعها الى الابد فى الامر الطورية العثمانية وغيرت قلوب  
المسلمين عليها فى عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكانت عاملا مهما فى الحوادث العنيفة التي  
حدثت فى مصر فى تلك الاوقات المضطربة كما سأتبس بعد . ثم انها هزمت نفس  
الغرض الذى رمت اليه فى تركية آسيا ان كان ذلك القرض المعاونة حقا على  
ادخال الاصلاح.

وقد لفت عمال المؤتمر بطر السلطان الى الخطر الذى يمكن فى المعاونة  
البريطانية وغبروا قلبه فاتبع سياسة ماقصة للصائح البريطانية وقد نجح فى سياسته  
هذه نجاحا تاما ووقع دعاة الحرية والحكومة الذاتية بين دعاياه والى هذا السبب تعزى  
المطالم التى سكبها الاحرار فى الاسنانة وليس من المبالغة فى شىء أن نعزى له  
النكبات التى حاقت بالارمن بعد ما أثار فيهم المفوضون البريطانيون فى برلين آمالا  
كبيرا وأوهوم بأنهم تحقق بمساعدة بريطانيا الادبية — تلك المساعدة التى لم  
تكن أحوال السياسة البريطانية غير الادبية تسمح لبريطانيا بتقديمها .

أما النتيجة المباشرة للاتفاق مع وادنجتون فيما يختص بمصر فكانت ارسل  
تلغراف من برلين الى ولس فى الاسكندرية يتضمن أمرا شديدا أخرنه وأدهشه  
وهو أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا تماما فى جميع التعينات المالية ذات العلاقة  
بتحقيقه الرسمي .

ومع أن ولس لم يعرف الحقيقة فى ذلك الحين ضد كلن هذا سبب المراقبة

الخاتمة (١) — الإنجليزية الفرنسية — التي وضعت على المسألة المصرية — بعد مرور عام على هذه الحوادث كانت الاحوال سائرة على هذا الموال حين وحدث نفسي في خريف السنة دأبها — سنة ١٨٧٨ على طريق الشرق . وكانت سياحتي في الشتاء السابق إلى بغداد . والعاج الذي أدركته كلن في مسألة أم لدى كثيراً من السياسة ، وهي شراء الخيول العربية التي كانت نواة اسطبل المعروف اليوم جيداً في « كرايت » — والذي أثار الفصول والتعجب في إنجلترا . ومن ثم قضيت الصيف في اعداد جريدة اعرآي وتقديمها للطبعة .

وكنا علي كل حال قاعين بهذا وقد عقدنا ائية على سياحة أشد مجازفة مما حاولنا في الماضي وقصدنا دمشق التي رسمنا الابتداء منها واختراق الصحراء العربية الوسطي ووزارة نجد وطن الحياذ العربية

(١) رويت حكاية ماحدث مع وادنجتون كما سمعها من لورد ليتون في سلا في مايو سنة ١٨٧٩ . وكانت التفصيلات مدونة في خطاب أطلعي عليه . وقد كتب اليه من برلين حين كان المؤتمر يعقد جلساته . أما الذي كنه له فزميل سياسي وقد تأكدت صحة هذه الحوادث من أكثر من مصدر وان لم تتفق جميع المصادر على تفصيلاتها بالدقة . أما فيما يختص بالنقطة الجوهرية في الاتفاق وهي الخاصة بتونس فقد وفتني على تفصيلاتها الكونت كورن في سنة ١٨٨٤ وكلت ممثل ايطاليا في المؤتمر . ويؤخذ مما قاله لي أن دهش دزرائيل الناجم من نشر نص المعاهدة السرية كان من الشدة بحيث مرض ولزم غرفته ولم يظهر في جلسات المؤتمر أروسة أيام متوالية تاركاً لورد سلسبرى يؤول المسألة علي أحسن ما يستطيع . وقال لي ان المفاوضات لم تقطع بصراحة بين دزرائيلي ووادنجتون وأن هذا عرض المسألة علي وملائه الفرنسيين الذين اتفقوا علي أن المسألة من المسائل التي لا يتنازع فيها علما وقالوا « اما الحرب أو السكوت » وحرى الاتفاق شفويا بين وادنجتون وسلسبرى ولكنه سجل في تلغراف كنبه سفر فرنسا في لندن إلي لورد سلسبرى وذكره فيه بالمحادثات التي دارت في برلين وبذلك صم الاعتراف بهذه المحادثات كتابة

وكانت سياحتنا الحرة من مرسيليا تمر باعلى الاسكندرية وافتق أن وجدت على طهر الناحرة في مرسيليا صديق السير رفرز ولسن الذي عين حديثاً ورياً للمالية المصرية وقصيت السياحة في صحته . وقد استظمت في خلال أيام السياحة الستة أن أقف مع علي كل ما حدث في القاهرة أثناء العامين الفارطين وكانت الحكاية التي رواها لي رهيبه جداً . ومن بين الحوادث التي رواها حادثة وفاة اسماعيل صديق المفتش وما غرسته في القلوب من الفور

كل اسماعيل صديق حرانري المولد وقد جاء مصر في شبابه الاول وارفع بمواهبه وكفاءته في الخدمة المصرية . وكانت أول علاقة له بالبلاط على ما اعتقد في عهد عباس الأول كبير للركائب . وشغل في عهد عباس واسماعيل وظائف كثيرة حتى انتهى أمره كما رأينا بأن صار « شيطان اسماعيل » في انجاز مال الملاحين . وقد استطاع أن يحتط بحسن السمعة في القاهرة على الرغم مما ارتكبه من أعمال التمسوة — وقد أظهر براعة لا تنصب في ابتكار طرق النهب — وكان محوى ما سمعته في القاهرة أنه عربي متمتع بفضيلة تقليدية في الكرم والسخاء في افاق الثروة العطية التي جمعها . ومن ثم لم يكن مكروها في مصر وقد شغل منصب ورير المالية في السنوات الاخيرة من حياته فبرهن دائماً علي أنه خادم اسماعيل المخلص الأمين . واسكن انظر حاته قبل بضعة أشهر من الوقت الذي أكتب فيه عنه .

وهنا روى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن ثم قال وقد خضت أنا ولسن في هذه الاحاديث يوما بعد يوم علي الباخرة ودارت بصفة خاصة حول مهمته الخطيرة فقد كان مزعماً أن يخلّف اسماعيل باشا المفتش في وزارة المالية . وكانت آماله في نجاح ادارته عظيمة في ذلك الحين وقد أعرب عن فهم تام للمهمة الخطيرة التي أخذها على عاتقه وهي إعادة مالية مصر سيرتها الاولى من الرقاية وانقاد الملاحين من اصعادم المالية ولكنه كان كذلك على علم تام بما يواجهه من الصعوبات . وكان قد تعلم هم أخلاق الحدبو وأساليبه كما كان مستعداً لان يمد فيه خصما

هواجسنا ولكنه كان يعتمد علي براعته في التودد وسعة علمه بأمور الدنيا مؤملا  
 أن يستطيع استنباط العلاقات الودية مع اسماعيل وأن يتجنب كل الاخطار الشخصية  
 حتى قد تعرض له . وكان يعتمد في تحقيق هذا الغرض علي زبينة العرسية فقد  
 كانت سكناه في باريس الى الحد الذي جعله يثق بقدرته علي الاحتفاظ بسلامة  
 القزلة الفرنسية الانجليزية التي كان عصواً فيها ثم انه كان يعتمد كثيراً علي نوبار  
 يثا ويشق به ثمة لاحد لها معتقداً انه سياسي شرقي مخلص للمصالح البريطانية .  
 وكان يعتقد كذلك أن وزارة الخارجية البريطانية تؤيده كل التأييد بل وهناك تأييد  
 آخر ربما كان أقوى في أوروبا من تأييد وزارة الخارجية وهو تأييد مصر وروثشلد .  
 ولكن يعرف أنه يستطيع أن يعتمد علي هذا التأييد بعد نجاحه أثناء مروره  
 بباريس في اقناع ولاء أمور ذلك المصرف باصدار قرض بتسعة ملايين جنيه بضمانة  
 للسكك الحديدية وقد كان من شأن هذا الغرض أن يكسب تأييد أصحاب  
 المصرف لحلة الاسهم في مطالبهم بالتدخل الاوربي متى اقتضت الحال . وقد حيل  
 لي — أنا الذي أعرف ولس حق المعرفة ومع اني عطفقت أشد العطف علي آماله  
 الانسانية وأمانيه الشخصية — أن في مركزه عناصر معينة من الشك ليس من  
 شأنها أن تساعد علي نجاحه

وقد افرقنا في الاسكندرية ونحن نرحي أن نستقيم له الامور في مهمة تدور  
 حول يأس حكومة معلقة عملاً بصدورنا بالشكوك . بيد أننا توقعنا أن يقوم في سبيله  
 كثير من الصعوبات الشديدة . ومع اني كنت واثقاً من جرأة قلبه وحنه ذهنه  
 قد خشيت عليه وحققت الايام اني كنت علي حق في التشاؤم وحدث هذا في  
 وقت أقصر مما ظننا

وقد كان لاختناق السير وفرز ولسن في إدارته المالية الصغيرة عدة أسباب .  
 منها شؤم ذلك القرض الباهظ الذي يشق علي المرء أن يدرك في أي غرض جدي  
 استخدمت أمواله . ومنها حدوث اخطاء في الادارة أوقعت مطالماً فادحة بالاهلين  
 ومهدت السبيل — كما سنرى بعد — الى شيوع الاستياء والتدمير . علي أي لست  
 بحاجة الي الدخول في تفصيلات هذه الاخطاء فهي مشهورة وفي طاقة كل انسان أن

يحدثها في الكتب . أما عند ولسن فيها فهو أنه اعتمد اعتماداً لا حد له على إرشادات نوبار في جميع شؤون السياسة الداخلية وفي محاوره الهند في تقدير كفاية نوبار علي نصريها . ولو كان ولسن سياسياً أكثر مما كان مالياً لما سقط سقطته في المصاعب السياسية التي كان يسهل تجنبها لو كان خبيراً بأساليب الحكومة

ولم يكن نوبار الانتكاسة مرضوعة ولم يكن يشق على داهية كاسماعيل أن يثير صده الشعور الاسلامي كسيحي وأحبي . واذ كان ولسن يشكر في اتحاد التوازن المالي فقد خفض مرتبات جماعة من الموظفين المصريين وهكذا حاق طبقة مستانة أتاحت للحدود فرصة تحويل الاستياء منه الي وزراءه المسيحيين . وسهل عليه الامر انه لم يحصل تمحيص في مرتبات الموظفين الاحانب . وكان الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وانجلترا في برلين يهتم تعيين موظف فرنسي نظير كل موظف بريطاني ومن ثم لم يجرؤ ولسن على أن يمس أحداً من الموظفين المصريين . وكان على ولسن أن يحمل كل ما أنار تصرفه من القصور وفي يده معانيخ الحرية المصرية

ولم يدرك كذلك أقل نجاح — بوعم نيانه الحسة — في تخفيف العبء عن كواهل الفلاحين . وقد كان في برنامجه أن يقي الحدبو قادراً على الدفع ومعنى ذلك أن تدفع فوائد الدين الحسب في مواعيدها . وقد أعتقت التسعة الملايين التي اقترصت من روتشلد في المطالب الهامة ولم تخفض الضرائب بل استمر حكم الكرماج بصرامة أشد في القرى وحيي . للموقف الزراعي بمامل مرعب حديد هو مسح الاراضي الزراعية تحت الاشراف البريطاني وقد تم ذلك سققات فادحة وعلى أسوأ منوال واعتبره الناس على وجه العموم مقدمة لعرض ضرائب جديدة وتم العثل أخيراً بمسد ديوع الاقتراح الذي عزمه ولسن وهو يقضي بمصادرة أراض تبلغ قيمتها خمسة عشر مليوناً فقد أوقع هذا المشروع عقول أصحاب الاراضي في اضطراب وجعلهم يعتقدون بقرب وقوع نكبات على يدي الوزير البريطاني أهدح من التي زلزل بهم في عهد أسلافه . وعندني وقد عرفت مصر الآن معرفة حقيقية انه لم تكن هناك مدوحة من وقوع أي اسباب له مثل ذلك ولسن وحسن مقاصده في مثل هذه الاحاطا . وليس عدي شك في أن الحدبو معه ربح لكثير منها ليورطه

ولم يطلع سوى سياسة ولسن ونوبار القمة حين أحذا بسرمان الجيش المصرى وفيه ٢٥٠٠ صايط بغير أن يدفعا المرتبات المتأخرة فقد أوقع ذلك الوزراء الاحاس في قبضة اسماعيل وهذه فرصة لم يتردد اسماعيل في انتهازها

ويجب أن أقص هنا تاريخ أزمة فبراير سنة ١٨٧٩ التي طاحت بورادة ولسن ونوبار كما حدثت اذ من الصعب أن يجد الانسان حقيقتها منشورة في كتاب آخر كلن الخديو كما ذكرنا نواقا لتحويل البفض العام الذي كلن يطر به اليه في مصر إلى وزرائه الحدد لرغبته في تخليص نفسه من وصايتهم . وكلن قد نزل بمشور يسيى ذكرى سنة ١٨٧٨ عن إدارة المالية والادارة لهم ولما كلن قد تعود للحكم المطلق ١٨ سنة في مصر فقد عاظه فقدان هذه السلطة . وكلن قد وقع في كرتو كبديل من الافلاس فلما نجا من الافلاس صمم علي قض عهده واذ كلن دليعة في البصر بالاخلاق تقطن حالا الى موضع الضعف في الوزارة وعرف كيف تقضي جهل ولسن وزميله الفرنسى « بلنير » بالشؤون المصرية إلى اعتمادهما كل الاعتماد علي نوبار في الاهتداء إلى الحطة التي يسلكها كما عرف أيضاً عمر نوبار كسبحي عن حكم شعب اسلامي

وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعد نوبارا أفاقيا أرمنيا جمع ثروة كبيرة من صمرته لأصحاب الاموال المستعدين لاعطاء القروض علي حساب الجمهور . أما الفلاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذي أنشأ المحاكم المحتلطة التي يعجدها الاجانب ويحتها الملاحون لاعتمادهم أياهم وضمتهم في قبضة المراسين اليونانيين وفعلت مالم تخطه هيئة غيرها

وكانت هيئة هذه المحاكم في ذلك الحين تستدعي أى فلاح أمصى أية ورقة بسلطة أمام قضاة أجاب وبعد اجراءات أجنبية لم يتعودها بلغة أجنبية ؟ بعضها ، وبغير أن نسح له فرصة الدفاع عن نفسه ان كلن فقيراً ، واقامة الحجة علي أن الارقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة فحكم عليه بما قد لا يقل عن مئتمد من كل ما يمتلكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرف بأى شيء هو في الحقيقة طالب . بهذا كلن يعرف نوبار ثم انه لم يكن له أنصار وطيوس ولا كلن مؤيداً بأى



رأى الا رأى التحار الاجانب في الاسكندرية ومن ثم رأى اسماعيل كيف يمكنه الهجوم على نظام الحكم الجديد في شخص نوبار وكيف يمكنه جعله عاجزاً . والواقع أنه لم يكن يقتضى لاسقاط هذا الحكم الا مطاهرة وطنية ضد المسيحي المقيوت وقد سهل تنفيذ هذه الخطة بما حدث من غش ضباط الجيش المسرحين وحرمانهم من المرتبات المتأخرة وحقوق المعاش .

وكان عمال اسماعيل في احداث أزمة فبراير حاضرين باشا أحد موظفي البلاط وأخو روجة لطيف أفندي سليم الذي سهل له العمل مركزه كدير للمدرسة الحربية . وقد نظم هذان مطاهرة من تلاميذ المدرسة فصار هؤلاء في الوقت الميعن في شوارع القاهرة معلنين أنهم سيطلبون باسقاط الوزارة المقيوتة ثم انضم اليهم جمهور كبير يتقدمهم الصباط المسرحون وكان الاتفاق معقوداً على أن تصل المطاهرة الى ديوان الحكومة في الوقت الذي بصرف فيه الوزراء . وقد وجد المتظاهرون نوبار باشا يركب مركبته فأهانوه واعتدوا عليه وحذبوا شواربه وضربوه بالكنوف ثم قامت في الخلال مطاهرة شعبية وهنا طهرت في الميدان فرقة الحرس الجديد الاولى بقيادة القائمقام على بك فهمي وكانت على قدم الاستعداد ثم ظهر الحديو بالذات وأطلقت نضع طلقات في الهواء فوق رؤوس المتظاهرين ثم تفرق الجمهور حين أمره الحديو بأن ينصرف كل الى بيته . وهكذا نجحت الخطة التي اتفق عليها مع علي بك واستطاع الحديو أن يقنع قنصلي فرنسا وأنجلترا بضرورة اقالة نوبار وبانه لولا تدخله القوى وسلطانة على الناس لحدثت أمور سيئة العقبي وعلي ذلك نصح القنصلان لنوبار بالاستقالة وحل محله موظف مسلم اختاره الحديو يدعي راغب باشا . وقد عرف اسماعيل أن وحود رجله راغب في وزارة الداخلية يعجز ولنس وبليزير عن ادارة البلاد ويستتبع سقوطهما عاجلاً

وبعد أن تم النجاح في التخلص من نوبار أصبح قيام ولنس بادارة المالية مستحيلاً كما توقع الحديو ثم مجلت حوادث أخرى بقوطه . وكان قد وقع جماعين ولنس وقنصلا في مصر حينذاك ( المستر فيعيان الذي صار بعد ذلك لورد فيفيان وعين سفيراً في رومة ) بسبب مشاحنة شخصية . فلما طرأت الصعوبات السياسية

وطلب واس تأييده لم يقدمه له أو قدمه بغير اخلاص . ولكن فشل واسن  
التهاني لم يبطئ بعد ذلك . فقد نطمت حادثة كحادثة فبراير خلال شهر مارس  
في الاسكندرية اذ آذاه الجمهور هو وزوجته فلما رفع شكواه لوزارة الخارجية صحت  
عليه بالتأييد الكافي لنيل العرضية . ثم نصح له كما نصح لوبار بالاستقالة ولما لم يجد  
متاحا استقال وعاد إلى أوروبا

وقد كتب لي خطابا هاما في ذلك الحين : كتب إلى في ٣٠ ابريل سنة ١٨٩٠  
يقول « أحسب أنك سمعت بما كاد لي الحديو . انه لم يقتلني كما قد نطن ولكي  
هوجت في الطريق وأسيت معاملتي وقد حصل الآن على غرضه ونخلص مي  
فقد تركني حكومة جلالة الملك تحت رحمة القضاء حريا لي عادتها من الاهتمام  
بوكلائها . . . ان فيعيان هو العامل الرئيسي في سقوط التديرات التي كان عليه أن  
يتولي حمايتها ورجع ذلك إلي غيرته مي وإلى نقص في الذكاء وزيادة في الخيلاء  
فتمدد انضم إلى الحديو . ومع أن سموه لم يجد أساليب الحكم أكثر من أجادته  
التفريق بين اللبس يعمل معهم فقد كان يتطلع إلى التفريق بيني وبين بليير أو ييسا  
وبين نوبار . ولكنه لم يتوقع حتى ولا في الحلم أن يصير القنصل البريطاني أداة في  
يده لاستقاط وزارة فرضها عليه حكومة بريطانية وأكرهته على قبولها ... سنبحر  
يوم ٦ ونصل لندن يوم ١٥ ، وأنا الآن مسرور لتحلصي من المسألة كلها فهي  
سائرة إلى النمار والبلاد موبوءة بالفساد . ويلاح لي أن حكومتي فرنسا وانجلترا  
تحشيان العمل وقد طفي الحديو وهو يعصر البلاد لانبزاز آخر قرش . وليس في  
الطاقة تأخير الحراب وفي هذه الاثناء لا يسيم الانسان إلا التجمع حين يفكر فيما  
يجدث الآن من النقاء والشر

## الفصل الثالث

السياحة في بلاد العرب والهند

بينا كانت تجري هذه الحوادث في مصر كنت أسبح بعيداً مع زوجتي في بلاد العرب الوسطى فلم يكن لي بها ولا بغيرها من حوادث العالم أقل علم وكذا قد مكثنا عدة أيام في قبرص ونحن في طريقنا إلى دمشق التي كما معتزمين أن يبدأ منها سياحتنا . وكان قد دفعنا العصور إلى مشاهدة هذه الجزيرة التي دفعت فيها أنجلترا ذلك الثمن العالي أو ببساطة أخرى تلك الفضيحة الكبيرة . وقد وجدناها تتلقى دروسها الأولى في الإدارة الانجليزية على يدى السرحات ولسلى وكانت الخبرة لا تزال في حر الصيف ولم تسكن قد سقطت أقطار بعد . وكذلك لم تبد لنا إلا أحسن قليلا من فلاة تربة . وقد زرنا ولسلى في مقر الحكم بيقوسيا ووجدناه يحمل الوحشة على خير ما يستطيع في عرله . وقد أتى في حديثه معنا على هذه « الخوهره » الأخيرة التي ضمت للإمبراطورية غير انه كان واضحاً أن الحرية ليست لها قيمة في تقديره الفني وكانت أشبه الأشياء بتلك المناظر الكثيرة التي قرأ في قصة « فيكار اوف واكفيلد » . انها أحصرت من السوق إلى المنزل . والواقع انه كان يشق علي المرء أن يستين وجه الاستفادة منها أو طريقة الحصول علي نفقات ادارتها وكان الحصول عليها قد أحل بسعة أنجلترا كما مر لك . وكان المسلمون السوريون يقولون ان أنجلترا أخذتها بقشيشاً من السلطان علي خدمتها له

وقد التقينا في دمشق بكثير من أئداد الرجال منهم الامير عبد القادر الحارثي بطل الحرب بين الجزائر وفرنسا . ومنهم بطل آخر هو مدحت باشا أبو الدستور العثماني . ومع أي كنت ميالاً للعطف علي اصلاح المسلمين فاني لم أمل لهذا البطل الاحمر . والواقع أن مطهره لم يكن موجياً لتأثير شخصيته . لم يكن ممتازاً بأي شيء . في مطهره سوى انه كان غوراً محتالاً ولم أحد أنا . محادثتي معه في موضوع تحديد تركيا واصلاحها أي عمق في أفكركه بل وحديثها من ذلك الصرب الاوربي العادي

التي بحل عادة في الشرق محل البوغ الحقيقي والایمان الراسخ وكانت كل آرائه فيها يختص باصلاح الامبراطورية عامة وسوريا الذي كان قد عين والياً عليها خاصة مقصورة علي الساديت كانشاء الخطوط الحديدية والقنوات وحطوط الترام وكلها تشياد طيبة في بابها ولكنه لم يمس في حديثه ما تعوزه الادارة من الاصلاح . ثم انه لم تكن لديه البتة أموال يستطيع أن ينفذ بها اصلاحاته السادية فكانت الاصلاحات والحالة هذه أوهاماً في أوهام . ولم يتكلم قط عن الامور السكيرة الاهمية كالاقتصاد والعدل وحماية الفقراء . كما أنه لم يظهر أي عطف علي أهل الولاية التي عين والياً عليها .

والواقع انه كان أكثر من الاتراك احتقاراً لكل ما هو عربي ولم يكلف نفسه مشقة كتمان هذا الشعور ولم تكن طرق معاملته للبدو لاثقة بالاسانية . لهذا لم أمل اليه بطبيعة الحال . ومع ذلك أسفت علي عدم محاولتي اثاره عطف الرأى العام البريطاني عليه في أيام محنته ولو فعلت لكل أقدته مساعي من الحراء القطيع الذي أمزله به السلطان . ولكي لم أعرف الحقائق كلها في ذلك الحين وفي سنة ١٨٨٤ عرفت من مصدر أثق به حقيقة ما جرى في محاكمة مدحت في همة قتل كاذب القبت عليه قل ذلك بثلاث سنوات وهذه مسألة هامة لأجد داعياً للاعتذار عن ذكرها . وقد يذكر قرأني أني كنت أصبت أثناء اقامتي في الاستانة بمصر خطير وعني في طيب يدعي دكسون كان في ذلك الحين طيب السفارة البريطانية وكان قد وشجت بيني وبينه صلات المودة . وهذا الشيخ الفاضل قضي في الاستانة خمساً وثلاثين سنة فاستشرق تماماً وأصبح أدرى بالشؤون العثمانية من أي بريطاني آخر فيما أظن — وكان فوق ذلك عطوفاً علي القوم الذين عاش بينهم هذا الأمد الطويل . وكان يختلج صدره الي جانب هذا العطف وقاء ونبل علي الطرار الانجليزي القديم . فكانت ميزانه نجسه أجدر الناس بالثقة فيما يتعلق برواية الحوادث التي اتصل بها

لهذا يجب أن تعتبر شهادته حاسمة فيما يختص بالحوادث الواقعة في محيطها .

وقد كست في الاستانة في سنة ١٨٨٤ محدثي بها فظهرت لي من الصحة والاهمية للتاريخ بحيث دونتها في نفس اليوم الذي سمعته فيه وهي كما يأتي بالحرف الواحد :  
في ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ نذبت السفارة الانجليزية المذكور دكون لثقيق ما أحاط بوفد السلطان عبد العزيز فقدم تقريراً مفصلاً عن جميع ما رآه في القصر ذلك اليوم . وكانت لجنة الاطباء مؤلفة من يوناني يدعي ماركو باشا وشيخ انجليزى كان طبيب لورد بيرون الشاعر المشهور وعدة أطباء آخرين . وقد وجدوا الخثة في دار الحرم ولخصوها جيداً . وكان السلطان في قميص حريري لا خطوط فيه . وكانت سراويله من الحرير القرنفلي . ولما انتزعت الثياب لم يوجد في الخثة خدش ولا رض « وكانت أيدع جسم في العالم » . هذا عدا حرجين في الحمة الانسية من الدراعين حيث الشرايين . وكان جرح الذراع اليسرى عميقاً بالغاً الى العظم وقد سبر المذكور دكون غوره باصبعه أما جرح الذراع اليمنى فلم يكن محكماً فلم يؤذ الشريان وكان ظاهراً أن الحرجين سبب الوفاة . وقد قنع الاطباء الآخرون بهذا الفحص وانصرفوا ولكن دكون والطبيب الانجليزى الآخر أصرا علي سماع شهادة والده السلطان وقد شهدت بما يأتي :

حاول السلطان عبد العزيز أن ينتحر مرتين منذ أصيب بمرضه . فحاول مرة أن يرمي بنفسه في بئر . وحاول مرة أخرى رمي نفسه في البوسفور ولكنه منع في المرتين . وحذرت السلطنة من اعطائه أى اداة يستطيع أن يؤذى نفسه بها . فلما طلب اليها امرأة ومقصاً ليصلح لحية أعطته أصغر مقص لديها وظلت أنه لا يستطيع أن يؤذى نفسه به . وكانت تسكن غرفة مجاورة لعرفته وكان يقوم علي حراسته فتاة أو فتاتان في غيابهما . فحدث بعد ظهر ذلك اليوم أنه أمر الفتاتين بالخروج وارتج الباب قائلاً انه يريد أن يخلو بنفسه ولم يجرؤ الفتاتان علي المعارضة فلما انتفضي نصف ساعة أخبراهما بما حدث فازعجت في أول الامر ولكنها أمرتهما أن تقفا بالباب وتنتصنا . ففادتاهما وقالتاهما لم نسمعا شيئاً . وبعد ساعة دهست تنهما وصائفها ودفعت الباب ففتحته فوجدت السلطان راقداً علي حبه فوق متكأ وقد نوفي

وكان المتكأ والستائر من الحرير الاصفر ذى النفوش الحمراء . وحصى زميل الدكتور دكسون المكان فوجد جانب المتكأ الايسر مشبعاً بالدم ووجد تحته فوق الارض كثيراً من الدم الكريه الرائحة . ووجد في وسط المتكأ بقعة دم صغيرة تطابق جرح الدراع البمي . ومع أنه فحص المكان جيداً فإنه لم يعثر على أثر للدم الا بمبالا صق المتكأ ومن ثم لا يمكن أن يكون قد حدث بضال أو اغتيال .

وكما قالت السلطانة « اذا كلن قد قتل فلا بد أن أكون أنا القاتلة لأنى كنت فى انفرقة المجاورة لغرفته وما كلن أحد غيرى يستطيع أن يقترب منه » .

وقد أحصروا فى محاطة مدحت ومن معه قبضاً من الكتان لا من الحرير مشقوقاً من الحسب كأنما قطعت طعنة سيف وسراويل صفراء وخضراء ورداء من الفرو . ولم يحضروا الثياب التى كانت على الجنة . وأحضروا غطاء متكأ من الشيت ومتائر شيتية ملطحة بالدم ولم يحضروا تلك التى كانت فى الفرقة حيث وجدت الجنة . ومن ثم كسب الدكتور ولسن احتجاجاً قرر فيه ما يعرفه وأعطاه الى لورد دوفرين ورجاه أن يقدمه كشهادة لرئيس المحكمة . ولكن دوفرين أبى أن يتدخل بلا تعليمات وفى الوقت الذى أرسل فيه تلغرافاً أو زعم أنه أرسله حكم على مدحت . وقال دكسون ان ماركو باشا لا بد أن يكون قد أغري على أداء الشهادة التى أداها . وكانت حكاية رؤية رجال ينسلقون داخلًا وخارجاً حكاية مسخيفة فقد كانت انفرقة مرتفعة ولم يكن بد من ان يكسر الوثائق منها سيقاتهم . وهذا الدكتور دكسون شيخ دقيق وهو من أولئك الشهود الذين يقتنع بشهادتهم أى محلفين فى العالم . ولذلك أصدق شهادته كل التصديق معها ظهر غريباً عند النظرة الاولى أن يكون السلطان قضى متحرراً لا مقتولاً . وقد مات مدحت وداماد جوعاً فى السلاسل والاغلال منذ بضعة أشهر . كذلك مات شيخ الاسلام الذى أفضى بخلع عبدالعزىز . وهذا الحادث الارهاق هو الذى أعطي عبدالمجيد السلطة المطلقة التى يتمتع بها الآن . ومن الاشخاص ذوي الاهمية فى هذا التاريخ والذين قابلتهم بدمشق فى خريف سنة ١٨٧٨ السير ادوارد ماليت . وكان يومئذ سكرتيراً للسفارة الانجليزية فى الاستانة ثم كلن يسبح فى سوريا للتنزه من ناحية وجمع المعلومات من ناحية أخرى

وقد عملت تحت رئاسة والده الجليل مرتين أثناء خدمتي السياسية وكانت بيني وبين أسرته وبينه علاقة ود متينة منذ كنا لملحقين سياسيين معاً . ومن ثم أستطيع أن أتكلم عن علم فيما يختص بصفاته التي أسيء فهمها في مصر .

كل من ماليت رجلاً ذا مواهب متوسطة وقد درق نصيباً وافرأ من المثابرة والحرص والتعقل ولما كان قد ولد في وسط سياسي ثم وضعه أبوه في الخدمة وهو في السادسة عشرة فقد كان ذا دراية فنية تامة فكان موظفاً عمومياً كماً فيما يتعلق بتقاليد عمله وعاداته وكان في استطاعته أن يكتب بلاعاً بلغة واضحة . وكان يمكن أن يوثق من أنه لا يقول كلمة واحدة أكثر مما تجبزه تعلياته ، ولا يورط حكمته في شيء عمواً .

ولديه من المواهب ما هو أنفع وأحدى في أحوال الخدمة العادية التي كان يعمل فيها كالنبصر والتحفظ في الكلام وانكار الذات وهي الصفات التي يمتاز بها وكلاء الدعاوى . ولا يخفى أن واجبات السياسي تمثّل واجبات وكلاء الاشغال الا في أحوال خاصة نادرة . ولكن ماليت لم تكن له مواهب كسعة الخيال وقوة الابتكار وقوة التصرف تحت مسئولية في الفرص التي تستدعي عملاقاً وقراراً سريعاً . وكان آخر رجل يصلح لتدبير الدسائس والقبض على باصية المواقف الحرجة كما كان لطيفاً غير جذاب وفيه طهولة كثيراً ما ظهرت في حياته الخاصة وكان كثير المثابرة حسن السلوك . وكانت استقامته ظاهرة بصفة خاصة لصغر سنه وكان يفضل عمله معاً يكن قليل الاهمية علي أي ضرب من ضروب التنزه والاسترواح حتى لقد كان وهو في الاجازة يقضي بعد ظهر أكثر الايام في نسخ البيانات في مكتب والده بوزارة اعمانية مفصلاً ذلك على عمله في البحث عن شيء يشغله في مكان آخر .

وقد عنيت بالدقة في وضعه لانه انهم في مصر بالطبع والدس والتلق وكل هذا مناقض لطبعه الهادي . فلما تسكن لديه روح مجازاة لا في عمله ولا في مسراته ولو كان كذلك لرافقنا الي بلاد العرب كما اقترحت عليه ولكنه لم يكن بالرجل الذي يعدل عن الطريق المطروق ومع اني أثرت اهتمامه على قدر طائفي بمشروعي الروائي فقد فضل السير في طريق السياحة العادية ومن ثم مضى بعد بضعة أيام الى القدس

أما سياحتنا فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . وقد اتفق لنا من الأمور الهامة والأحوال الشائفة أكثر مما توقعنا . فشرت تفصيلاتها بالفرنسية والإنجليزية بصوان « حج الى نجد » : واني لا أرى بأساً في أن أذكرها ها بايجاز في بضع كلمات — سافروا بطريق الحج العمادي الى المراتب ومن هناك الى جبل حوران حيث أعطانا زعيم درزي من أسرة الاطرش ريفاً أو ان شئت دليلاً وهكذا انحدروا في وادي السرحان الى الجوف حيث كان لمحمد عروق بن شيخ دمر ، وقد كان مسافراً مع بعض قرابته . وبعد ان قضينا مع هؤلاء بضعة أيام في اجناز « نفود » وهو معبر حط في الصحراء الرملية الكبرى يستغرق قطعه عشرة أيام وصلنا « حائل » حيث استقبلنا الامير محمد بن الرشيد الذي كان يومئذ سلطان نجد المستقلة بكل مظاهر التكريم علي الرغم من اننا لم نحمل اليه خطابات أو توصيات . وقد كانت جديتنا الانجليزية جواراً كلياً في نظره . وكان قد اتصلت به اشاعات عن زيارتنا في العالم السابق لكثير من مشايخ عنزه وشمس . وكما قد فعلنا الى ذلك الحين من اللغة العربية ما يكفي للتحدث وقد وجدناه نبيلاً لطيفاً شديد الاهتمام بسماع كل ما لدينا من أبناء العالم العظيم المعزولة عن نجد عزلة تامة بما يحيط بها من الصحراوات . وكلنا توافقا لمعرفة آرائنا في كل الشؤون ذات العلاقة بجزيرة العرب ولا سيما فيما يخص شخصيات رعاء البدو من أعدائه أو نظرائه . أما السياسة الأوروبية فلم يكن بها الا قليلاً وكذلك الحال بالنسبة للاستانة ومصر . ومع أن نجداً كانت تعتبر في بغداد ولاية عثمانية فان أمراء الروهايين لم يترفوا قط بسيادة السلطان عليهم ولم يكن بينهم وبينه أثناء القرن الماضي كله الا العداء . وكانت ذكرى غزوة محمد علي الكبير لنجد لا تزال حية . وكذلك كان لسيلاء مدحت ماشا على الحساء عند خليج الصحم وحمله المكروهة على الجوف يذكران بالملت في حائل وكان من دواعي رصائه عا اننا قدعنا عليه بغير أن يكون نمة دخل لاية سلطة عثمانية .

وكانت نتيجة هذه الزيارة الودية لعاصمة بلاد العرب المستقلة وما رأيته فيها من نظم الحكومة الحرة التي عاشت في قلب تلك الحريرة العجيبة قرونا عديدة أن



راد محمسي في عواطف الحب والاعجاب التي كسبت أصمها للحسن العربي والواقع أن « حبي السياسي الاول » كان لذلك الحسن المحيد ولقد كل حراً ما روح يستحوذ علي يوماً بعد يوم حتى عقدت الية على أن أبذل من ما حيني كل معونة أستطيعها لمساعدته على الاحتفاظ بفرصة الاستقلال التي شهدتها فيه . وقد تراءت لي حرية العرب أرضاً مقدسة واعتقدت أن لي فيها رسالة يجب أن أؤديها وعدى اني لم أبالع في تقدير المضائل التقليدية التي رأيت القوم دائنين عليها هالك .

ان نظام الحكم الدوي لا يفصل إلا قليلا في عرف الشرقيين نظاما بوضع للسلب والهب . والواقع أنه ينحط الى ما يقرب من هذا المركز على حدود البلدان للتمدينة . أما في قلب بلاد العرب دأها قليست الحال كذلك . فقد رأيت « الحرية والمساواة والاخاء » تعيش عيش الخفاف الحية في نجد وتستع بها هناك كل رجل حر ولم أرها كذلك في أية بلاد أخرى من البلاد التي ررتها في الشرق والغرب ولا في أوروبا التي نبأني فيها بهاتيك العم وان كنا لا نملكها في الحقيقة بل ولا في فرنسا حيث نجدها معروضة للاطار — كناية — في كل مكان . فني نجد تعيش هيئة اجتماعية طبقا للنظام الذي يحكم به دعاة المثل الاعلى في بلادنا فلا صرائب ولا بوليس ولا تجنيد ولا اكراه في أي شيء . ولا قانون لهذه الهيئة إلا الرأي العام ولا نظام الا ماعليه مبادئ البيل والشرف . وهذا كذلك أناس فقراء ، قانعون على فقرهم وعائشون في رخاء نظراً لقلة احتياجاتهم — أناس أحابوا على كل سؤال القيت عليهم ( وباطالما القيت أسئلتى هذه بنصافي غير هذه البلاد ) بقولهم « الحمد لله . لنا كثير ما من الامم . ان لدينا هنا حكومة منا ونحن راضون قانون » وهذا هو الذي ملأني دهشا وسرورا . وهذا هو الذي حولني من رجل لا يعبأ بما يرى من الآم العالم الشرقي الي رجل يفيض بالغيرة علي بسط نعمة الحرية على الامم التي تزوج تحت الاغلال والقيود . وقد أيدت اعتقادي ورسخت أُمالي سياحتي خلال الربيع التالي في العراق وحوي ايران تلك البلاد الاكثر مدنية وأقل سعادة وهاء من نجد . والواقع أني نحدأ أنما هي تقيض أودية العرات الدنيا التي يسكنها شعب عربي أنزل به الحكم العثماني صنوف الفقر والانهطاط .

وانشئ من ذلك أهل عربستان الإيرانية . وقد فكرت فيما يمكن أن يعيد لمؤلا .  
 أقوم نلهم المفقود ورخاهم واحترامهم لاسمهم وحيل لى لحطة أن الحماية البريطانية  
 قد تكون وسيلة الحاة . وكانت هذه الافكار تشكون وتنجدى عطفى أثناء  
 ساحتنا البرية الصعبة من بغداد الى بوشير على الخليج الفارسى ثم طريق البحر الى  
 كراشى حتى وصلنا الهند حيث كانت تفتطرنى نجارب من وراء آخر وحيث تلقيت  
 نوساً جديداً فى الشؤون الشرقية .

وكان سبب ذهابنا الى الهند بعد سياحنا الصعبة انا وحدا فى بوشير خطابات  
 كتبها لنا لورد ليتون الذى كان صديق الحميم منذ عدة سنوات وهو يدعونا فيها  
 ليطونه بسيملا . ولكن ليتون الذى لا أقول هنا شيئاً عن صفاته الشخصية الجذابة  
 بعد الذى قت به قبل الآن من حقوق ذكراه المحبوة موطعاً سياسياً مثلى وقد  
 خضعت معه فى لشبونه سنة ١٨٦٥ وقد قرضنا الشعر معاً وعشاقى صداقة متينة  
 استمرت إلى اليوم .

فالآن — فى سنة ١٨٧٩ - كان قد مضى عليه عامان حاكماً للهند وكاد يخبث  
 حلتة الاولى على الافغان بجاح وأمضى معاهدة « حداماك » خلال أول شهر  
 قضياه معه . ولكن ليتون ممن يؤمنون بالحراقات ويعتقدون بالاوهام رغما من  
 سلامة ايمانه الدينى قضى مدة الحرب وهو يرسل فى الهواء ساطيد صغيرة فاذا  
 لوتفتت بسرعة فى الهواء اعتقد أن جيوشه ظافرة والعكس بالعكس . وليس معنى  
 ذلك أنه كان لصعود هذه المناطيد بسرعة أو ببطء تأثير فى قراراته فقد كان كاملا  
 مجداً متفلا . ولكن سرعة المناطيد كانت نهديه أعصابه التى كانت أبداً متوترة  
 لما كان يراه فيها من دلالة غير عادية حمل نفسه على الاعتقاد فيها . وقد قرن بين  
 وصولى سلا وبين التحول الحسن الذى طرأ على القتال واعتقد أنى تأثيراً سعيدياً  
 فى أحواله ما بقيت معه . وقد أسرى لى جميع أفكاره فعرفت منه أموراً هامة فى  
 نياسة العليا لا حاجة لى الى تفصيلها هنا وإن كان سوف يوجد بعضها فى هذه  
 المذكرات بعد . وقد أظهر لى عطشه على كرجل صاحب آراء عربية ورواوى

وشاعر وأمر السير الفريد ليال الذي كان سكرتيره لشؤون الخارجية أن يعطيني كل المعلومات الممكنة .

ولم تكن حكومة الهند حينذاك غير راغبة في أن تدخلوا إلى الامام خطوة في الخليج الفارسي . وكانت البحرية الهندية قد تعودت في بضعة الاعوام الاخيرة أن تشمل المواقيت العربية بنوع من الحماية مقصور علي منع القرصة ومنع القبايل من القتال في البحر مع الامساك عن التدخل معهم في البر . فكل هذا نوعاً من الحماية محموداً وقد رفضت حكومة كلكتا الاعتراف بمراعاة السيادة الهندية علي تلك المواقيت . وسكانها . وكان السلطان عبد الحميد قد بدأ يزجج سلطاننا في الهند بئس الدعوة للجامعة الاسلامية . وقد طموا أن هذه الدعوة أخذت تؤثر في ولاء مسلمي الهند . لذلك كانت فكرة الاستقلال العربي مستحبة من وجهة النظر الرسمية . وقد أحسن السير الفريد ليال الشهادة لي عد لورد ليتون حتي لقد اتفقنا على أن أعود في الشتاء القادم إلى نجد وأحل رسالة ودية من حاكم الهند إلى ابن الرشيد . على انني مسرور الآن بعد أن عرفت أساليب حكومة الهند لعدم تنفيذ ذلك المشروع ولو فعلت لمكنت وقت نفسي موقفاً كاذباً وأكون قد تبرعت غير متعمد بعمل نفسي أداة في يد سياسة ترمي إلى استعبادهم مما حسنت نيتي وعظمت رغبتي في مساعدة العرب بخدمة قضية الحرية . فان من سينت أساليب السياسة الاستعمارية البريطانية أنها لا تستطيع أن تتدخل بين قوم أحرار الا وتنتهي بعمل سيء حتي ولو كانت قد بدأت عملها حسنة نية . ذلك ان هذه السياسة عمولة بالاغراض الانانية . وكثرة هذه الاغراض تقلب أحسن البدايات إلى أسوأ الخواتم

ولكن هذه الاشياء لم تسكر . كل ما دار عليه البحث بيني وبين ليتون وروسية — وقد كلف وزيره المالي السير جون سترانشي من علمي أساليب المالية والاقتصاد الهندية وطرق مكلفاتها تصحط وجباية ضرائب الاراضي والعلة وضرائب الملح وغير ذلك من المسائل الكبرى التي كانت مدار البحث يومئذ . وكان سترانشي رئيس المدافعين الرسميين عما كان يسمى في ذلك العهد سياسة الاقتصاد في النفقات

ومن دواعي الاسف أن نتيجة هذا التعليم لم تكن عزعة اعتقادي بامانة حكومة الهند باعتبارها وصية علي مصالح الوطنيين الهنود وسأورد هنا مقتطعات من الخطابات التي كتبت أكتفي في هذا الحين . ومنها يظهر كيف كانت تؤثر في النظرات القصيرة التي كتبت ألقبها على الشؤون الهندية في مراكز الحكم الرئيسية وها هي المقتطعات : « لقد حاب أمني في الهند التي صرت أعتقد أنها سبنة الحكم كسائر البلاد الاسيوية مع فارق واحد هو أن النبات ها حسنة وهناك سبنة . فالصرائب هنا فادحة والبلاد في أيدي حكم أجانب ويرى الانسان ها من الاسراف في الاموال العمومية ما يراه في تركيا فدعا نعتقد أن المسرفين هنا بلها . وليسوا لصوصاً . ومع ذلك فالنتيجة واحدة ولست أرى فرقاً بين أن يرغم الهنود الذين يتضورون جوعاً علي الاكتاب لانشاء كنيسة في كلكتا وبين ارفعهم البلغاريين علي دفع نفقات قصر يشيد علي شاطئ البسفور . ان القتر يأكل هذه الامبراطورية السكيره في حكومتها المركزية ولا سبيل الي اسعادها الا بشقها وترك كل شق يحكم نفسه » .

وكتبت في خطاب آخر الي صديق آخر يدعي هاري براند وكان يومئذ عسواً في البرلمان وهو الآن لورد هامبدن : « ان الوطنيين — كما يسمونهم ها — ليسوا الا قبيلاً من الرقيق فهم مروعون نصاء وقد هزلت أحاسنهم . ومع اني محافظ وعصو في كلوتون كلوب أعترف بأنني قد ارتعت من القيود التي تقبل الهنود وان تقني بالمظلم البريطانية ونعمة الحكم البريطاني قد أصيبت بصربة شديدة . لقد درست ألفاظ المسالية البريطانية علي أحسن أساندها — وراء الحكومة وكبار موظفيها — فانتهيت الي الاعتقاد باننا لو تأثرنا علي « ترقية » البلاد بالسرعة التي فعل بها الآن فلا مفر لاهل البلاد من أن يلجأوا في آخر الامر الي أكل بعضهم البعض اذ لا يمكن أن تبق في البلاد عبر أحسادهم الآدمية . ولعمري لست أفهم لماذا تأخذ نحن الانجليز أموال هؤلاء الهنود الذين يتضورون جوعاً لشقي . لهم بها خطوطاً حديدية لا يريدونها وسحواً وملاحية للمجانين ومباني أثرية للسير ياترو فرير . كلا ! ولا أعرف لماذا نعلم من أودم البرد القليل حيوشاً من رجال البوليس

والحكم والمهندسين . انهم لا يحتاجون شيئاً من هذا ولكنهم في أشد حاجة للارز كما يظهر لكل من يرى صلوهم الباردة . أما الدس العادح الذي ألقى علي عاتقهم فالشرف يقصى بانكاره كدس على الهدى على الاقل ، وليس في طاقتي أن أرى الفضل الاذي الذي تدعيه الحكومات بفرصها صرائب على قوم لتسديد ديون لم يقرضوها بل اقترضتها الحكومات . ان جميع الديون العامة حتى في البلاد التي تحكم نفسها بنفسها قليل أو كثير من النفس اما في البلاد المستعبدة استعباداً أحدياً فهي لا تعدو أن تكون سرقة » .

وعلى العموم كلن لرياني القصيرة مراكر الحكم في الهدى تأثير كبير في تكوير آرائني فيما يختص بمائل السياسة الاستعمارية الكبرى وتوجيهها في الوجهة التي جرت فيها فيما بعد . على اني كنت لا أزال أعتقد قليلاً أو أكثر أن محسن المقاصد وان لم أكن أعتقد بمحسن النتائج في حكمها الشرقي وطلبت أن في الطاقة تحسينه وأن الجمهور البريطاني لا بد أن يصر على ضرورة تحسينه اذا عرف حقيقته .

ومن آخر ذكريات الشهرس اللذين قضيتهما مع ليتون في تروهوف كما كان يدعي قصر الحاكم يومئذ في سلا ، عشاء جلست فيه الي جانب كافاناري وكل ذلك في الليلة التي بدأ في صباحها السفر في مهمته القاتلة الى كابول . وكلت هذا رحلا يمت اهتمام المرء به وقد أخبرني انه حفيد تاجر من أهل فينيسيا كان قد أقرض بونابارت مالا كثيراً حين احتل جيش الجمهورية الفرنسية فينيسيا ولم يسترده قط . على ان الامبراطور كافاه بان جعل ابيه وزيراً خاصاً له فصار هذا الابن من أشد المحلصين للأسرة الامبراطورية . وكان لويس نابليون كافاناري الحفيد هو أيضاً بونابارتيًا مخلصاً وقد اعتقد انه — واسمه كما هو — لا بد أن يكون له رسالة هامة يؤديها . وكان ذا ثقة « بنجمه » وأشهد أن الاخفاق والخطر لم يخطرا له ببال في الحديث الطويل الذي دار بيننا في ذلك المساء .

ومع ذلك قد كان واجباً أن يكون له نذير من الانباء المحزنة التي تكلمنا فيها أيضاً وهي أنباء وفاة ولي العهد الامبراطوري في جنوبي أفريقيا . ولما اقرقنا كنا على موعد بان أذهب أنا وامراتي في خريف العام القادم لزيارة كابول ، فقال لي

« لا تأت قبل الخريف على كل حال فاني لا أستطيع أن أجيز دار اقامتي قبل ذلك لاستقبال السيدات » ولم يشر أقل اشارة الى أي سبب أشد من هذا حطراً .

ومن الذين عرفهم في ذلك العهد والذين لهم صلة بتاريخ محزون « كولى » وكان يومئذ مسكر تير ليتون الحربى ومات بعد ذلك بهام على تل ماحوبا . وكان ليتون يثق كل الثقة بمواهبه الحربية وقد اشتركاً معاً في توجيه الحملة على الافغان من سمرلا . وأحسب ان خطاه كان في تجاوزه الحد في الثقة بنفسه وفي مطامعه . وقد احتل ماحوباً لانه لم يطق أن تنتهي الحملة فغير أن يكون أحرز نجاحاً شخصياً لنفسه . وكان من أصدقائنا في ذلك الزمن ملحنند ( لورد متو الآن ) ولول كارو ، وبرابازون وكلهم من أركان حرب ليتون وكذلك لورد رالف كبر ، وبلودس وبان وروحاها الجيلائس . وقد عدنا من يومبای في صحبة ملحنند والماجور جاك نازن تاركين الهند في ١٢ يوليو فوصلنا السويس في ٢٥ منه ووصلنا في اليوم نفسه بالقطار الى الاسكندرية .

وأحسب أنها كانت « عدن » تلك الميناء التي عرفنا اذ مررنا بها أعظم أناء مصر في ذلك الحين وهو عزل الخديو اسماعيل . ولما وصلنا الى الاسكندرية عرفت من زميلي السابق في الخدمة السياسية وهو فرانك لاشيل الذى كان يومئذ قائماً بأعمال القنصل الجنرال في الوكالة البريطانية تفصيلات الدور الذى لعبه في هذا الشأن . وليس ثم خلاف يذكر بين ما أجبرنى به وبين التقارير الرسمية التي نشرت في هذا الصدد . لذلك لا أظن انى في حاجة لذكره هنا ولكن الذى لم يظهر في التقارير الرسمية هو الدور الذى لعبه أصحاب مصرف روتشلد في هذا الصدد . وهو دور لم يعرفه لاشيل يومئذ وقد عرفته من ولسن بعد ذلك والواقع انه كان يحق لولسن أن يفخر بأنه استطاع أن يفتنم لنفسه بواسطة هؤلاء . قال لى انه بعد عودته منبوءاً من حكومته ذهب مباشرة الى بيت روتشلد في باريس وأنبأهم بالخطر الذى تسهده له أموالهم بعد التحول الذى طرأ أخيراً على الاحوال في مصر والاسكندرية فالخديو يريد أن يسكر ديوبه ويختمى ورا ، اعلان الحكومة الدستورية في مصر هذا لم يجمعوا ذلك فقدوا كل شيء . وبذلك محج في ادهاب آكل روتشلد وحملهم

علي استخدام نفوذهم السياسي الكبير في مصلحة التدخل الماحل . وقد بذلوا جهدهم  
عشاً أول الامر في وراري خارجي لندن وباريس . بعد أن كانت الحكومة  
البريطانية قد أقفلت عن ميلها للتدخل لاستعمالها ممتنع حروب أفريقيا وكذلك  
لم يكن لحكومة باريس رغبته .

علي أن يأمن آل روتشلد الساحم من شدة الخوف على اموالهم دفعهم إلى رفع  
التماس إلى سرك في برلين . وكان هذا قد شمل بيت روتشلد العبراني بحمايته منذ  
ايامه في فراঙ্كفورت ولم يفعل ذلك عشاً . وهنا أقيم المستشار الألماني ، وكل يوم منذ  
قويامرهوب الحانب ، حكومتى لندن وباريس بأنهما اذا لم تستطيعا التدخل في  
مصر لمصلحة حالة السدات فان الحكومة الألمانية سوف تحمل قصيهم قضيتها  
الخاصة . وكانت هذه الخطوة حاسمة فاتفقت فرنسا واملترا على أن يكون التدخل  
أقل مايستطاع عملاً وذلك بأن طلبتا من السلطان أن يعزل تابعه المسرف . وقد أتي  
اسماعيل إلى اللحظة الأخيرة أن يصدق بأن الباب العالي يتحلي عه بعد الملايس  
التي حياه بها بسعاء ومع بدرات الاموال التي كل لايرال مستعداً لاعطائها له .  
نقول بدرات الاموال لأن اسماعيل كانت لديه كور محبوة على الرعم من ظواهر  
افلاسه . وكان الصفظ الاوربي عليه شديداً حتى لقد قالولسن أنه قد رفضت اليه مسألة  
اختيار خلف اسماعيل من اثنين أحدهما الامير حلیم الذي كان يميل اليه السلطان  
والثاني ولي العهد الامير توفيق وقد فصله ولسن لما يعرفه من صمعه وصلاحيته  
ليكون آلة في يد السياسة . ومها يكن من الامر فقد تقل الي اسماعيل البيان  
اسحق الحامل نياً سقوطه وصيرورة اماراة الخديوية الى ولده توفيق . وقد كل  
لاشيل هو الذي قدر عليه أن ينقل هذا البأ الى اسماعيل . وهنا أحد اسماعيل كل  
ما كان في المالية من القود وجمع كل ما استطاع جمعه من العانس ومصى الي يخته  
« المحرور » ومعه مالا يقل قيمته عن ثلاثة ملايين حيه .

## الفصل الرابع

السيلة البريطانية سنة ١٨٨٠

كانت وفاة كاما ماري المحررة في كاول — تلك الوفاة التي حدثت قبل أن ينتهي صيف سنة ١٨٧٩ والتي ورطت ليتون في حرب جديدة ومتاعب سياسية لا آخر لها — قد وضعت حداً لمشروع السياحة ذلك العام سواء أكان في أمانستان أم في بلاد العرب ومن ثم قضيت اثني عشر شهراً كاملة في انجلترا وهي من أملاً أياي بالعمل والمشاغل ومع أني كنت قد بلغت الاربعين من العمر فاني لم أكن الي ذلك الحين قد أدت أي عمل سياسي عام . ولا القيت خطبة على جماعة . ولا كتبت مقالا واحداً لانه مجالة أو خطايا لخرى . وقد حلتني الحياة الذي كنت أشعر به في شباني على الانكماش عن أي عمل في أي شكل كلب ولم تزدني تربيتي السياسية الا مقتناً للطور . ولا ينبغي أن السياسة تؤثر الخفية سواء أكان لديها ما تحفه أم لم يكن لديها . كما انها لا تنق بالاقوال التي تلتقي علانية وتغار عيرة شديدة من قلة تبصر الصحف . ولكن الحال لم تلبث أن تغيرت . ومعا كانت الكيفية التي أنفعت بها نفسي بان لي مهمة أودبها في الشرق ، ثم معها كانت هذه المهمة مبهمة فقد بدأت أنكلم وأكتب وتغلبت على حياتي الي حد اني ظهرت مرتين على منبر . وكانت أول مرة تكلمت فيها علي هذا البحر في اجتماع عقده الجمعية البريطانية في شيفلد يوم ٢٢ أغسطس وكنت قد دعيت له كمتأرجح ممتاز ، كما دعي سربانتو ، وبرازا ، وكلمبرون وكلهم ذور شهرة افريقية وفي هذا الاجتماع عارضت كلمبرون في تحيذه مد خط حديدي في وادي المرات . وكنت أستطيع أن أنكلم في هذا الشأن بخبرة تزيد على خبرته فانه كان قد أحجم عن السير في الجانب الوعر من هذه المنطقة في العام السابق علي الرغم من انه بدأ سياحته بصحة كبيرة . وهذا الجزء هو الواقع بين ضداد وبوشير . أما نحن فقد عرنا الطريق كله من البحر الي البحر . وقد استأفنت معارضتي في مقال نشرته مجلة « فورتيتني ريفيو » وهو أول مقال كتبه . وكل حو



مورلي بجزر المحلة جيداك وقد قدمت له توصية من ليتون واستطعت أن أثير اهتمامه  
بافكلري الشرقية وقد عاد على هذان الخادنان — الخطابة والكتابة — بالثناء  
الحم وشجعان على الاستمرار في نشر دسوى وكنت مشغولاً كذلك بفرض  
الشعر. ثم كان هناك أيضاً كتاب روحي عن السياحة « حج إلى نجد » لأبوبه  
وأطيعه. فهذا العمل المصاعف شغلني حد الشغل في الشتاء كله.

علي أي لم أشغل نفسي بالسياسة الداخلية قط مع أن الوقت كان وقت أزمة  
وكان غلادستون — والانتخابات قريبة منه — لا يفك عن الوعظ والخطابة  
وكان يبلى مع المحافظين فيما يختص بالملترا أما في المسائل الشرقية فقد كنت أعتبر  
غلادستون متعصبا على قلة حيي للأتراك في ذلك الزمن. وكان أصدقائي ماعدا  
براند وهلمتون محافظين ثم أن حيي ليتون حجب عن عيني أسوأ أنام دررائلي  
الاستعمارية. وقد نشئت في ذلك الخبيث فكرة ما لها أن المجتهد قد تصلح أداء  
حيي في الشرق إذا أحسن تغير معاهدة قبرص. وكنت لازال أترجح فيما يختص  
بموقفها الاستعماري بين الرجا والخوف ولم استقر علي رأي حتى دوت أفكلري.  
ومن شواغل ذلك الشتاء الكبيرة عابئي بنظم اصطلي في كرات. وست فيما  
يختص به في رسالة مستمرة مع العالم الرياضي. ومن الغرابة يمكن أن آرائني  
الخاصة بلحوم الخيل كانت أول فرصة مهدت لي الاتصال بغلادستون كتابة.

وكان عطفه المشهور علي يوان القديمة قد أثار فضوله لمعرفة آرائني في خيلها  
وطريقة تربيتها فأرسل يستوضحني كل ذلك بواسطة المستر تولز محرر مجلة « فورتينيتي  
ريفو » فهذا وما حدث من تعيين صديقي ادوارد هاملتون سكرتيراً خصوصياً له  
حين حلب دزرائيلي في رئاسة الوزارة في إبريل كونا الحلقات التي أدت بعد ذلك  
إلى ترأسنا في الشؤون المصرية.

وبينسر معرفة الثورة الفكرية التي كنت أعيش فيها أثناء ذلك العام سواء أكان  
في الآداب أم الاجتماع أم السياسة باقتطاف مد من مذكرات كنت أخذت في  
كتابتها في ذلك الحين وسأقصر هذه السذ علي ما كان خاصاً منها بالشرق.  
والسدة الأولى يصف فيها لورد سرادفورد رادكليف الذي أبت سفيراً لبريطانيا

في الاستانة زمناً طويلاً والذي يعيش الآن وقد شاح في عرلة مع انتيه علي حدود كنت ومسكن :

مارس سنة ١٨٨٠ — زيارة لورد راذكليف في قرانت . أعطاني اللورد ورقة عن الاصلاحات في تركيا . وهو يزمع ارسالها للتيمنس وقد قرأتها في فراشي . وهي عمل رجل مسن كلها ابهام وارتيك وليس فيها الاقليل من مصاء العزم . وقد كان الواجب ألا يكتب الشيوخ الا الدكرات . وقد بلغ اللورد الراحة والتسليم من عمره .

ولسكه مع ذلك شيخ عجيب قد ارتست علي وجهه امارات التقوى فلو انه مزيج من الالبس وورق اللورد وعينه زرقاوان صافتان وياض شعره كياض الثلج ومم أن سمعه قد ضعف فهو لا يزال مجيد الكلام . وقد رددت عليه بمدكرة أودعنها آرائي في تركية آسيانم كست أقضى معه الصباح مصعباً له كريمة القديمة فعد كان قائماً بأعمال السفارة البريطانية في الاستانة حين مر بها لورد بيرون في سياحته الموصوفة في قصيدة « تشيلد هارولد » وقد لبث معه ستة أسابيع في نزهة يومية . وكل بيرون يومئذ لطيف المعاشرة ولم تكن أحاديثه قد امتلأت مكانة القاذعة . وكل الشيخ راذكليف قد التقى به قبل ذلك سنة ١٨٠٥ في ملعب كرة اذ كانت تنسار مدرستا « آون وهارو » وكان كل منهما يلعب مع فريق . قال الشيخ « وكان بيرون يلعب الكرة ( كركيت ) على حبر ما يمكنه عرجه » قال وما ملت فقط لان أصدق انه كان بين بيرون واللادي كاروتش لام أي خطأ حقيقي ، وكل مافي الامر لم يتجاوز الرحمة والرفة والخير وكلها أمور لا تتفق مع ما اشتهر به بيرون . وقد كنت أفصل جلوسي لاستماع هذه الذكريات القديمة على سماع حديث أبجل امرأة في لندن .

١٦ مارس — تناولت العطور مع رفرز ولسن ودارت مناقشات حول شخصية الكولونيل غوردون . والعالم كله متفق على أنه رجل بارع . وقد حكم السودان وحده رها . أربع سنين واحتت بحارة الرقيق من حدودها . وقد عاد اليوم إلى لندن فلم يكلفاً شئ . ولم يره لورد بيوكسفيد ( درانيلى ) ولا غيره من الوزراء . وقد أخطأ في أول الامر فيما يخص بعلاقاتهم وقد مر ساريس في

عودته واحتمل لورد ليوتس في السمارة البريطانية ورحاه في أن يسعى في تعيين خلف أوربي له في السودان . وهدد بأنه إذا لم تفعل الحكومة البريطانية ذلك يذهب إلى الحكومة الفرنسية . وبعد هذا دارت يبه وبين ليوتس مراسلات كتب غوردون في خلالها خطاباً حاداً يقول في حاشيته « أن من دواعي ارتياحي ثقتي بأنه بعد عشرة أو خمسة عشر عاماً يتساوى الجميع . ففي صندوق أسود طوله ستة أقدام ونصف وعرضه ثلاثة أقدام تودع الرفات سواء أكانت ذات صغير أم وريث أم رفات خادمك الخاضع المطيع » فهذه الأقوال صيرته منحوناً في نظر الرجال الرسميين . وكان اليوم قد ترك أوروبا ونفض ثيابها عن حدائه قاصداً إلى زيمبار .

ولست أشك في أن هدمالدارة تمثل أخلاق غوردون كل التمثيل وهي منسجمة مع كثير من الرسائل التي بعث بها إلى السير ايفلين بارنج ( لورد كرور ) بعد ذلك بأربع سنين . وقد كان موظفوناً أبداً يكرهونه لتعوده خرق قواعد سياستهم والاخلال بمناهجهم الرسمية . وقد اعتقد بعضهم فيه الخسوس واعتقد آخرون أنه سكير وآخرون أنه متعصب ديني إذا عرضت له مشكلة استفتى فيها بحيلة أو اقترح عليها تأتيا قطعة من العملة في الهواء . فلم يفهمه أحد ولا وثق به أحد . في الوقت الذي اكتب عنه — اوانل ربيع سنة ١٨٨٠ — كان غوردون مستاءاً جداً من الحكومة البريطانية بسبب اللور الذي لعبته في عزل اسماعيل . وكان غوردون لسبب ما يحب اسماعيل ويكره خلفه توفيق فحين علم في الخرطوم بما حدث تحلى عن الحكم وساء علي وجه أخص ان خلفه فيه أحد الباشوات الأتراك ولم يخلعه أوربي كما كان يريد . وقد كان غوردون من أهل البوغ وله كثير من الصفات انبئيلة ولكنه كان كذلك مجموعة مناقضات ويظهر ان للوطنين عنذاً في اعتقادهم ان عقله لم يكن سليماً في كل الاوقات وقد كان هذا هو الرأي الرسمي فيه — كما سيظهر بعد — حتي في الوقت الذي عهد اليه فيه بأموريته الاخيرة في الخرطوم .

وهناك نذرة أخرى تاريخها ١٦ مارس أيضاً - مرت بالكردينال مابح وكان حديثاً في السياسة وقد سألي لمن أعطي صوتي في الانتخاب ؟ فقلت سأعطي صوتي للحمه خبيلات . فقال يريد أن تقول بانك لن تنتخب أبداً فقلت لا أستطيع

أن تأثير في نمى اهتماماً بمثل هذه الأشياء ، وأطرد الى المدينة كأنها مقصي عليها  
بافتناء ، والى السياسة كأنها أداة لا تستطيع أب تعمد النهاية أو تؤخرها . فقال  
الكردبال هذا هو رأيي وان كنت أبيع على مسألة أخرى . في الغالب ان أوروبا  
تروض المسيحية وتروض معها القامون الادبي . وقد تمجد اليوم حكم القوة علي نحو  
ما كلن في أقدم الاحيان ، ولا يمكن أن يكون لذلك نتيجة غير سوك الدماء ، والخراب  
ورمما قام على انقاض الكيبة تنى . آخر . ثم نكلما عن أشياء . فقال ان « رالف  
كير » أخبره أن اليهود يعرفون خفة وطأة حكمها هناك في الخوف وأنهم محترمون  
الروسين لانهم يحكمون بالقوانين العرفية . قلت ان الروسين أسويون وهم يحكمون  
بالطرق الاسيوية -- وبالتدليس اذا أهكى -- اذا لم يكن بالقوة . وهذا هو ما بينهما  
الاسويون . فقال الكردبال ان الروسين أسويون كما تقول وأريد على ذلك ان  
تجهلت بوديون وليس الهلينية من تناح الغرب ولكنها محصول شرقي .

وقد دارت انتخابات سنة ١٨٨٠ على مسائل الساسة الخارجية أكثر منها على  
أي شيء آخر . وكان غلادستون قد هاجم بكل قوته مشروعات دررائيلي في  
اتوسع الاستثمار . ووصف بمقدان الركن الادبي مداحه في الاستانة وبرلين  
فصلحة الأتراك كما أعجى بأشد اللاتعة على استيلائه على قبرص وشرائه أسهم قناة  
سويس واعتدائه على مصر -- كما حمل على حلتي الافغان وعلى حرب جنوب  
أفريقيا التي كانت لانزال ناشبة .

أما فيما يخص مصر فكان غلادستون قد أعلن آراءه كتابة قبل ذلك اد كتب  
مقالا في عدد أغسطس سنة ١٨٨٧ من « مجلة القرن التاسع » بعنوان « الاعتداء  
على مصر » وأعرب فيه بصارة حلية قوية عن معارضة أحد المجلتراء على عاتقها أبة  
مسئولية على ضفاف النيل . وهذا المقال من الشهرة والترفع عن المساوى التي  
أصابت مصر على يده بحيث يجب أن تقتطف شيئاً منه وقد ذكر في هذا المقال  
أنه يعارض في اعتداءه كذا لعدة أسباب . أولاً - لأنه يزيد في ثقل الحكم لشرقي  
المبصوع على عاتق بريطانيا والذي أصبح شبه عتضا الي الآن ثانياً - لان  
توسيع الحكم الاستعماري لا يمكن الا بوسائل شائعة . ثالثاً - لان زعم حجة طريق

الهدى ماحلال وادى النيل رعم كاذب لان طريق رأس الرخاء الصالح هو طريق المواصلة القيقى وراعياً لان أى تدخل فى قناة السويس أو فى القاهرة لا بد أن يؤدى الى محاربات أخرى فى أفريقيا . قال « وسواء اشترينا وجودنا فى مصر أم سرقيناه فلا شك فى أنه سيكون نواة امبراطورية فى شمالى افريقيا وهي امبراطورية لا بد أن سمو حتى تصل الى مابهم البحر الابيض وحتى نصل أبديا منها — فوق خط الاستواء الى أبدينا الأخرى فى نائال وكاب تون دع عنك الترנסفال والبرتغال فى الحبوب والخمسة وريزارا اللتين تتلعان أثناء الباحة . وقد تنعم من حيث سعة الاراضى بامبراطورية فى كل ركن من الاركن الاربعة ولكسان يكون منها آمين. »

ثم كتب كذلك فى معيى المحافظة على الحكومة الداتية الاسلامية فى القاهرة فقال « ان الاحساسات التى قد يؤدها فى مصر سوف تكون معقولة وعادله لأنها مأهولة من قرون كثيرة شعب اسلامى وقد حكمت هذا الشعب سلطات اسلامية وكان لمصر فى وقت من الاوقات سلاطين . وكانت مستقلة استقلالاً داخلياً أثناء لسعية تركية وهذه حالة سعيدة فى أى بلاد كانت فلا يجوز لنا أن نغيرها . ثم ان شكاوى الناس هناك جسيمة ولكن لا يوجد دليل على انها تستعصي على الشفاء . بعد أظهرت التجارب أن الاسلام لا يستطيع أن يؤسس حكومة صالحة على الشعوب المتعدية المسيحية ولكن أى دليل لدينا على أن المالة لا تكون كذلك . وانه يمكن تحقيق الاعراض السياسية اذا كانت الحكومة الاسلامية مهيمنة على شعب اسلامى حيث لا يوجد مناقصات الدم او الدين أو العادات أو أساليب التعبير » ثم تكهن بالمشكلة التى تنشأ بين بريطانيا وفرنسا على مصر فقال : « اعتقد أن اليوم احدى يشهد احتلالنا مصر يشهد كذلك توديعنا كل ما يربينا وبين فرنسا من العلاقات السياسية الودية . ثم أنه قد لا يحدث عراك فى الحال ولا مطامرات حارجية ولكن سيكون حقد سأك من متاصل كذلك المقصد الذى كانت تضمره أمريكا الماأنا . الحرب الاهلية وهو — قد الذى انطلقاً الآن . وعنى عن البيان أن الامم قوية الذاكرات » وقد حتم هذا القتال مدعوة حارة سأل الله فيها أن يبعد دسائس الزارات ويحقق بحرر الشرق قل : « ان الارض لم تنعم بمثل هذا الاقصاد

من أجيال طويلة ولا يسعنا نحن المحبلىز ألا أن نحزن ونألم لأننا لم نقدم شيئاً في هذا السيل على أنه كيما حدث فأن أرحو أن لا تقع في شر من هذا التعود .  
وأخبراً لنا الرجاء بعدم الوقوع في الخطأ العمد مصافاً إلى التحلي عن الواحد »

ولم يكن في طاقتي إلا أن أعطف علي هذه التصريحات البيلة التي كررها غلادستون في خطبة أثناء الحملة الانتخابية في سنة ١٨٨٠ لو أنها كانت قيمت بلحلاص أو على قواعد السياسة التي أعظم الاحرار أن يسيروا عليها إذا هم تولوا الحكم . ولكن غلادستون لم يوح الي في ذلك الحين شيئاً من الثقة وخيل الي أن الفرق بين المحافظين والاحرار كان طفيفاً .

٢٠ مارس . تشيى معاً اليوم حون بول سكرتير لورد ريبون الخاص . وقد تكلمنا في الانتخابات وقلنا انه لا يوجد فرق يذكر بين المحافظين والاحرار ولن أعطي صوتي . ومع أن سياسة سلبري ليست خساسة كسياسة لورد رافيل أو غلادستون دها اميل الى الالمانيين من أن نرصبي ولا شك في أن رول ألمانيا في الاستانة يكون أسوأ من أى شيء . يستطيع الروسيون أن يفعلوه .

٦ ابريل - باريس . ( كانت الانتخابات قد انتهت وأسمرت عن أعلية كبرى للاحرار ) تناولت الفطور وأنا وجود فرى وب تيرز ( ابن عمى فرسيس جون كرى ) ثم ذهبت إلى السفارة . شفيدل ( سكرتير لورد ريبون الخاص ) مباه بحكومة الاحرار الجديدة وبما قاله لهرنجتون وبما قاله غرنفيل له . ومع اني معتكف عن السياسة أظن ان نجاح غلادستون نكبة كبرى . والاحرار اقوياء جداً فلاما ص من ان نرى لم نجارب كثيرة على الدستور البريطاني . وستظل الآن كل قوايين الالهاب والاراضى . وكذلك سوف يطرأ على سياستنا الاسيوية من التعديل والتعذيب ما ننوء به . ولا يعرف الاحرار شيئاً عن الشرق وسيجنون . عن عكس سياسة المحافظين كما يحافون تنفيذها كما هي الي النهاية . وسيعملون على اصلاح تركيا ومنى تعذر عليهم الاصلاح طاشت احلامهم واندفعوا الى الحرب . وقد ساء في هذا التعير شخصياً اذ لا بد ان يستقيل ليتون مع الوزارة فتقوم اللوائح بيسا وبين زيارة الهد من الشتاء القادم ، ولكن هذه كلها اشياء نافية في سير التاريخ .

٩ أبريل — باريس . جاء في خطاب من آن مفعم السياسة . سيأخذ هارنجتون رئاسة الوزارة ويأخذ البحرية عوشن والمالية غلادستون . ولن يتغير شيء في السياسة الخارجية فستحفظ بغير ص وتساكن روسيا وتدار ركبا من عاليولي ولا يعرف لورد ريبون محله أن كان سيكون له محل . ولا رت اسمعهم يصور مدام توفيكوف (١) بأنها نجمة غلادستون السعيدة ... تقيت مع آدمز سكرتير السفارة الاول وقابلت هناك دفرر ولس الذي يذهب عدداً الى مصر مع دابسي وسوليفان وسيقوم ولسن بمهمة التصفية.

٢٦ أبريل — عدت الى إنجلترا حيث أصبح غلادستون موضوع حديث الناس وقد تقلد رئاسة الوزارة واحاط معه بجماعة معدومة الكفاءة مثل تشيلدور ورايت وعرافيل . وسيأخذ رانجتون الذي هو رجل من الطرار الثاني ورارة الهند وبذهب إلى الهند وريبون ولا يزال هذا الترتيب الأخير سراً .

وعلى ذلك لم يفعل غلادستون شيئاً حدياً في سبيل تغيد السياسة الذي كان يعظ مها غير ارسال ريبون إلى الهند . فريبون هذا ليس بالرجل التابع ولكنه رجل جد واستقامة . وقد أخذ على عاتقه مهمة الاحتفاظ بالسلم على احدود الهدية والشروع في سياسة جديدة الغرض منها تنفيذ المنشور الملكي الخاص بالسلم الداني بين الوطنيين . وقد أخذ معه غوردون كسكرتير حصومي فائز دهشة العالم الرسمي الذي كان يعد غوردون مجنوناً . وعندي أنه لم يكن يستطيع أن يرهن علي حسن نيته نحو الهندوبشي . أكثر من هذا . علي أن غوردون لم يكن من طرد السكرتيرين الخصوصيين حتي مع رئيس كريون فلم يكند يزل في بومباي حتي اسفقال . ولا أحسب أن ديبون كان مخطئاً في اختياره بل أعتقد أن الاستقالة ترجع إلى ثورة غوردون على جميع القوانين والعادات . وسأصف حكم ريبون في الهند عما أصل إلى سياحتي الهندية الثانية في سنة ١٨٨٤ . ويكي أن أقول هنا أنه اذا لم يكن أفاد كثيراً فذلك

---

(١) كانت مدام توفيكوف امرأة فنانة في خدمة الحكومة الروسية وكانت قد جاءت الى إنجلترا قبل هذا التاريخ قليل ورايت في كرات وقد مكثت معنا اسبوعاً ثم مضت ووقفت الى فتح سياسي مع غلادستون .

يرجع إلى جن الحكومة الانجليزية لا اليه ، وقد مرق مروق السهم في الطريق التي  
وسمته له في أول أمر ولكه — كالطفل الذي يسق احواله فيضحكون منه  
بالباطل والوقوف ليحد نفسه مفرداً — وجد بهه اشده دهشه يجري منفرداً  
وقد احدث الوزراء يضحكون من مثارته بعد أن عبروا آراءهم ولم يجبروه بذلك .  
ولا بد أن يكون قد تألم كثيراً عند ما اضطر هو أيضاً إلى التسليم . وقد أعطيت  
جيم الماسب العليا الاخرى إلى الاحرار ففقد لورد غرايفيل وراوة الخارجية وهو  
نييل حسن ، لطيف العشرة ، بحمد اللغة الفرنسية ولكنه أصم كسلان . وسياسة من  
الطراز القديم — طراز التأجيل والتسوية الذي لا يعمل اليوم ما يستطيع أن يؤحله  
لفقد . أو كما كان يقول سياسة التخبط وترك الاشياء تصلح نفسها ولم يكن ينتظر  
من مثل هذا الوزير أن يأتي سياسة جديدة والواقع أنه لم يحاول حذيداً في تركيا  
أو مصر أو في مكن آخر . فلم ترص معاهدة قبرص ولا حوت إلى أي غرض  
نافع وإذا استتبها الصغف المصيف الذي بسط على الباب العالي فيما يختص بمحدود  
الحل الاسود واليونان نستطيع القول بأن كل قديم بقي على قدمه .

وعاية ما حدث ان استدعى لا يارد واصح المعاهدة من الاستانة وعين غوشن  
مكانه وهو نفس عوش الذي كان قبل ثلاث سنين من ذلك العهد اجري التسوية  
الظالمة لحلة السدات وقومه — شركة عوشن وفريحيه — مهم والعمل الوحيد الذي  
يدل على ان وزير الخارجية كان يذكر حلة غلادستون على الانراك ، وكل ما عمله  
ليبرهن على ان غلادستون كان مصيباً كما كان دزرا بيلي وسلسبري مخطئين هو انه  
خلافاً لما تقضي به عقايد وزارة الخارجية ولوائعها نشر تلغرافاً سريراً كان لا يارد  
قد ناقض فيه جميع ما أعلنه في تلغرافاته غير السرية عن الحالة في الاستانة .

وقد اوضح في هذه الوثيقة المشؤمة كل سوءات عبد الحميد وضعفه ولا سيما  
جنبه الشخصي . وفصل ما لم يكن العالم الخارجي يعرف شيئاً عن حقيقته من نظام  
الغاسوسية في حكومته . وكل شر هذا التلغراف حيانه كبرى للا يارد ثم انه كان  
عملاً طائشاً لا تزال سياسته في الاستانة تروح تحت اعبائه . وقد كلف لا يارد  
صديق عبد الحميد الحميم وبالم من حوائره مالا يباله سعر اجبي فوق العادة . وقد



أظهر اسلطان معه لايارد كما يظهر معه لصديق يستطيع الاعتماد عليه فلما اكتشف له ما اعتبره هو حياة من لايارد فحدث التحول المودنه إلى الابد .  
ومع ذلك وبلي الرعم من أن الموقف في وزارة الخارجية لم يكن مشجعاً صممت  
رغبة في انجساح دعوتي أن أحصل على عطف رئيس الوزارة علي مشروعاتي وقد  
شجعتني على ذلك تميم أحد أصدقائي الحميمين سكرتيراً خاصاً له وهو ادوارد هاملتون  
« والآن المنزلة السبر ادوارد هاملتون » الذي قال انه معها يكن من قلب الاحوال  
الخارجية فان عطف غلادستون على الحرية الشرقية لم يحجب . ولم أحب عن هاملتون  
شيئاً من آرائي ومشروعاتي وقد ذكر لي انه لا يعورني لاقناع غلادستون بها الا  
أن اشهرها كناية . وهناك رسائل أخرى اعتقدنا انه يمكن التأثير بها في غلادستون  
وهي مفصلة في مذكراتي .

١٢ يونيو — أجدني هاملتون لزيارة السيدة ل . التي تسكن بيتاً كبيراً في  
ميدان م . وهي ارلندية ميمنة طيبة تبلغ الخمين كثيرة الكلام والتحرير وليس  
فيها أثر للحمال ولا لأي شيء آخر . وهي احدي مجوم غلادستون وكانت زيارتنا  
لها نصف سياسية حيث كان قد بدا لي أن ألقيها بأرائي العربية والفتح رئيس الوزارة  
بواسطتها . وهي عطوفة علي الدين رآهم من العرب ولها اهتمام كبير بالشرق .  
وقد قرأت لنا بحماس رواية كانت تصعبها على هيرود وكليونرا وبولوس قيصر .  
وهي رواية كنيية وان كانت قد اكثرت لنا ان غلادستون معجب بها كل الاعجاب .  
دعونا رولاند وهور ولن ولورنس اريفانت للعشاء ، وهذا الاخير ذو شخصية  
حذابة وقد عاد نواً من الاسنانة حيث كان يجهد في أخذ امتياز من السلطان باراض  
وراء الاردن ليستمرها أبناء اسرائيل .

٢٢ يونيو — دعونا آكل بلودن للعشاء ، وكذلك ادوارد هاملتون الذي هو الآن  
سكرتير غلادستون الخاص . وسيزهد بلودن عدداً الي بغداد كقيم سياسي وقد  
لقحته هو وهاملتون بأرائي في المسألة الشرقية .

٢٦ يونيو رارنا لورد كالتروب ورسني وندهام . وكنت ليفيت في كرايت  
وعرضا الجبل . وقال لي الاول انه اطلع كثيراً من أعضاء نادي ركاب الجبل على

خطابي الخاص بخيل الساق العربية وانه سيعرض المسألة في اجتماعات النادي خلال الشهر القادم وأنه حينئذ يحق لنا أن نقدر النجاح . وإذا استطعت أن أدخل أنجلترا أخيراً عربية أصيلة تتعامل فيها واستطعت أن أحرر بلاد العرب من حكم الأتراك أكون لم أعش عبثاً . ظهر في جريدة سيكيتور خطابي الرابع عن « السياسة في بلاد العرب الوسطى » وأعلنت . . . مجلة فورتنيتي رفيو عن مقالتي « وارث السلطان في آسيا » . ذهبت بعد حين إلى وزارة الخارجية حيث أنني لورد نورثبروك علي حطاباني ( وهي أول خطابات أرسلتها إلى الصحف ) وكان السير جارنت وليسي هناك وهو رجل قصير به نشاط ورعدة . ويشق علي المرء أن يتصور أنه قائد عظيم وقد ذكرته بزياراتنا لقبرص فقال « أظن لأدري أن نكتب كتاباً » فقلت نعم ولكننا لم نذكر فيه شيئاً عن قبرص فقال انكنا لم نكتب فيها وقتاً كافياً . فقلت لقد ظننا أنه لا يحسن بنا أن نذكر شيئاً عنها .

كانت مقالة « وارث السلطان في آسيا » قد قصداً بها كما أسلفت لفت نظر غلادستون إلى آرائي وقد بحثت في ذلك بواسطة هاملتون الذي عرضها لطره وأن كل لم يعجب فيها إلا أقل ما يمكن تعينه ، وما كان قليل الأهمية في نظري أن تصبح المقالات الأرمينية كولايات مستقلة في المستقبل . وكانت الفكرة التي شرحتها هي أنه إذا كان قد منح الاستقلال لحزب من تركيا أوروبا فقد وحب أن نشجع الأتراك . الأسوية الأخرى على انحلال الامبراطورية على أن تؤلف من نفسها إيلات مستقلة وفقاً لجنسيتها .

وقد دعوت المستر غلادستون باسمه إلى أن يحقق كلمته التي قالها حديثاً وأكثر منها في مصلحة حرية الشرق وذلك بأن يستخدم الأداة التي صنعها أسلافه — معاهدة قبرص — لا في تحقيق مقاصد أنجلترا الانانية الاستعمارية بل في مصلحة شعوب الشرق . وكل من وءاه شرح هذه المقالة في مجلة « فورتنيتي رفيو » ان دعيت إلى ديوان الوزارة في « دونج اسنريت » حيث أعطيت فرصة سرد آرائي وتأييدها أمام رئيس الوزارة . ويتضح أن شخصيته لم تؤثر كثيراً في هذا اللقاء الأول ولكنني نشجعت على استيلاء أوجه الرأي ومن ذلك الحين كان

غلاست، من يعتد بعض الاعتداد الآراء، التي كانت تصله مني بواسطة هاملتون .  
 ٢٧ يونيو - مررت على ١ . الذي وجدت معه كوينزرى فاحذ في الحال  
 يشرح لنا آراءه الأدبية في حالة انفعال ونحس . قال ان هناك كائنا أعلى ، لا ألها  
 آدميا ، ووحدا يهدى المرء في بحثه عن الكمال . والقاعدة الرئيسية هي التفة  
 بالانسانية . والواحد الرئيسي هو اللوع بالحد والروح الى أوج الكمال . ثم يكن  
 الماركيز بالمتكلم القرب اللسان « قرح أن يتلو علينا شعراً بدلا من الشرح والبيان .  
 وهو شعر قرضه - - وبينما كنا في انتظار التلاوة دخل فيليب كرى ومعه شبح  
 قصير ذو أظفار طويلة وعيين سوداوين وهو ملككم حاش السيفير العارسي . وقد  
 جلسا بيننا أحد كوينزرى يتلو الشعر وهو شعر مهم وعطي متحدث يتندى بالمادة  
 وينتهي بالانسانية . فلما فرغ تكلم الشرقي .

قال « ربما كل بهمكم أن تسعوا حكاية دين أسس في فارس قبل حتى عدة  
 سنين وقد كنت رعيه في يوم من الايام . وهذه الحكاية تريكم كيف نشأ الديانات  
 وأن مذهب الاسايه يصلح لآسيا كما يصلح لاوربا .

« وعندي ان أوربا عاجزة عن أن تنشئ دينا حقيقيا يستولى على أرواح  
 الرجال كما أن آسيا عاجزة عن أن تنشئ نظاما سياسيا . ان عمل آسيا خيالي كما أن  
 عقل أوربا على . اننا نتفق في فارس كل يوم « مسيحا جديدا » وعندنا « أباء لله »  
 في كل قرية ، وشهداء في سبيل الله في كل بلدة وقد رأيت نفسي مئات من البابيين  
 يتحولون الموت والتعذيب من أجل ايمانهم برسول لا تختلف تعاليمه عن تعاليم المسيح  
 وقد صلب كما صلب المسيح . ان المسيحية لا تعدو أن تكون دينا من مئات الاديان  
 التي أظهرها بين الناس ايمان بعضهم بها . ولو أنها بقيت ايمانا أسيويا لزال من  
 الوجود منذ زمان طويل كما زال مائة مثلها من التعاليم الادبية التي وجدت قبلها  
 ريبدها . وقد أنشأت في شبلي - كما أخبرتك دينا ، كل له في وقت من  
 الاوقات ٣٠٠٠٠٠٠٠ . ولقد ولدت أرمينيا مسيحية ولكي شأت بين المسلمين  
 وطريقة تفكيرى هي نفس طريقتهم وكنت أخا في الرضاة للشاه . فلما ولي الملك  
 جعلنى رئيس وزارته . فلما بلغت العشرين كنت حاكما مطلقا على فارس . وقد

رأيت مساوي، الحكم وندهور الرفاهية المادية في البلاد فساورتني فكرة الاصلاح . فذهبت الى أوروبا ودرست فيها نظم الدين والاجتماع والسياسة المتبعة في الغرب وعرفت فيها نزعات فرق المسيحية المختلفة وكيفية تنظيم الجمعيات السرية والهيئات الماسونية وألفت مشروعا يجمع بين حكمة أوروبا السياسية وحكمة آسيا الدينية .

وقد أدركت عبث الاحنهاد في تنظيم فارس علي مثال أوروبا فصممت علي لباس مشروعي اللباس الذي يفهمه الناس هناك — لباس الدين . فلما عدت جمعت زعماء طهران وأصدقائي ممن يري حاجة الاسلام الى الاصلاح موحجا توسلاتي الي بنابهم الادبي ومحتدم . وفي فارس كلمتان يعبر بهما عن الرجل — الانسان من اللغة العربية وآدم التي هي اشتقاق فارسي . وتدل الكلمة الثانية علي الرجل العبقري — وهو نوع خاص من الحيوان أما الثانية فتدل علي كائن أدبي ممتاز فقلت لهم كلكم يفاخر بانه أكثر من مجرد « آدم » وانه لذلك « انسان » ولكي أمكنكم من أن ترووا في هذا الزعم أصحكم بأن تفعلوا هذا وذاك . وقد وجدوا كلهم كلامي علي حق وفي وقت قصير كلنى ٣٠٠٠٠ تابع وتحت ستر الاصلاح الديني نفذت ما استطعت من الاصلاحات المادية . فلصاخي يرجع الفضل في انشاء الثلثون وتنظيم مصالح الادارة . ولكن كثيراً من هذه الاصلاحات التي حاولناها قد أدركه الفناء . ولم يكن لدي في أول الامر نية انشاء دين ولكن أتباعي أرغفوني علي أن أكون قديسا ونبياً فقد لقبوني « بالطيف المقدس » ولقبوا الشاه « بمصلح الاسلام » فوضعت كتابا ، انجيلاً ديني وأصر المتحمسون من أتباعي علي أني أجيء بالمعجزات . وأخيرا راع الشاه نحو قوتي التي سارت في الحقيقة أعظم من قوته . فصمم رغم صداقتنا علي قتلي كما صمم أتباعي علي قتله . وعاش شهرين في خوف دائم من الاغتيال ثم تفاهنا . لقد كنت أحب الشاه وأحترمه فاستأذنته في السفر وقد دعني أتباعي باللموع وقبل الموارن أقدمي فذهبت الي الأستانة معتزماً أن أحصل من السلطان علي اذن بالاقامة في بغداد وقد ذهبت اليها فعلا وصار لي فيها أتباع من الفارسيين المقيمين فيها ومن أهل بغداد الشيعيين ولكن الأتراك خدعوني واصطورت للرجل قبل أن آتم علي . وقد طلب أتباعي في فارس أن أعود اليهم ولكنني لم أعد لعدة

أسباب . فأولا حثيت أن أموت لئلا لا يؤمن به . وثانياً كانت صغنى معرفة . وثالثاً كسب قد تزوجت فكتبت الى الشاه الذي رد باستعداده لتقليدي أى منصب فآثرت البقاء في الخارج وقبلت منصب سفير لدى جميع الدول الاوربية .

وكل من الفرائد يمكن أن يسمع الانسان هذا الشيخ القصير دى الملابس الاوربية يتكلم محبداً الفرائد الى أقصى حد راوياً حكاية حد شرقية . وقد ذهبت معه الى ممره فيما بعد ( وكان يسكن على الجانب الآخر من هيدارك ) ووصل لي آراؤه في الشرق والحرب اللذين يعرفهما معرفة دقيقة فتركته معتقداً انه أعظم شخصية انتقلت بها في حياتي ومؤمناً أكثر من كل وقت آخر بصواب العقل الشرقي في ادراكه . وأنى رحل في أوربا كل يستطيع أن يحلل الانسان بشعر بأنه طفل ...!

وبد كل هذه المماثلة الفرضية في دار سيدة لطيفة في ملجرايا وفي قلب لندن أعمق تأثير في عيني وقد أحدثت ثورة في آرائي الى حد ما . والى هذه المقابلة وما أعرضها من الاحاديث مع هذه الشخصية المرمية يرجع الاعتقاد الذي عمرني بعد ذلك وهي اني أخطأت في اختيار نقطة الانتداع في كل ما يخص بأرائي في تحرير الشرق واصلاحه وانه اذا لم يكن بد من أن أعمل عملاً صالحاً للعرب أو غيرهم من المسلمين الذين يحكمهم الاثراك فانه يجب علي بديء به . أن أعرف أفكارهم الدينية حق المعرفة . وكنت الى الآن قد حللت بينهم كعرب عن آرائهم الحديثة علي الزعم من عطفي عليهم وان لم تكن ساورتني فيهم آراء كاثوليكي تعرض للمسيحيين لقد تعلمت أن أحترم الاسلام ولكنني لم أقبله ولم أتناقش في تعاليمه مع أي عالم تشريحي أو حبر برأيه المصري . وقد رأيت في الحلل ضعف موقفي لابل عبثه وصممت قبل أن أسير في طريق - لي أن أخصص الشنا . القادم لدرس فقط ذلك الدين الرئيسية علي الاقل من وجهة تأثيرها في السياسة . وعلى هذا رسمت مشروعات الشنا . وكان رأيي أن ارادهم الى حدة في وقت الحبح وهاك أدرس علي خير ما أستطيع ثم انهم المرحمة التي قد تعرض لي لاستثاف العمل . وقد اوفق الى احتراق بلاد العرب مرة أخرى من المحار ان امكن أو من الجن الى نجد . وكنت أحسب اني قد أحد من الوهايس العلم الذي يلتقي العقيدة العربية في الدين من حيث تعارضها مع

العقيدة التركية فيه ، واني قد أستطيع أن أقوم معه بحركة اصلاح أضع أنا عاصرها السياسية ويضع هو العناصر الدينية . ومع ظهور هذه الفكرة صدقت بها في ذلك الحين واعتراى بذلك يفسر لقرائي المصريين كيف اتفق ان سلكت الخطوة التي سلكتها في القاهرة بعد ذلك بعام .

وكننت متأثراً ككفلك في لندن خلال ذلك الحين شرقي علامة آخر يدعي صاونجي وكنت قد تعرفت به كأستاذ في العربية . وهو من أصل مسيحي مثل مالكام خان وقد أزعج مرة أن يكون قسياً واشتغل في نشر الدعوة في روما ولكنه صد عن السوح في آخر الامر وكان كالقبر يعطف علي الدين الاسلامي أكثر من عطفه علي دينه . وكانت له شهرة عظيمة كالم عربي وله حبرة تامة بالمسائل التي نصعبها سياسي ونصفها ديني والتي كان المسلمون يتناقسون فيها في ذلك الحين . وقد قام بالعمل الرئيسي للرحوم الدكتور مادحر في القاموس العربي الانجليزي المسي باسم الدكتور وكان يصدر في لندن يومئذ جريدة عربية اسمها « النحلة » ويكتب فيها كل شهر عظة اسلامية للمسلمين على أساس الآراء العصرية الراقية أما تمويل تلك الجريدة الصغيرة فكان لقرأ وكذلك كانت أغراضه من اصداره وهي أغراض لم أسبر أعماها قط . وتتلخص روايته لتلك الاغراض في انه وكيل عن سلطان زنجبار وهو حاكم مستنير حر العقل والتفكير . ولكني ما اقتنعت قط بهذا التعبير . ولدى من الاسباب التي وقفت عليها بعدئذ ما يحيلني على الاعتقاد بان أموالها وبعض وجها السياسي علي الاقل كل يأتي من الخديو اسماعيل . وكان اسماعيل في ذلك الحين غاضباً على الباب العالي الذي غدر به أمام أوروبا . وكانت « النحلة » تحمل على عبد الحميد حملات عنيفة ونهمه باعتصاب لقب « أمير المؤمنين » .

ولا أذكر الآن هل عرفت أول مرة تاريخ الخلافة وموقفها الحاضر من صاونجي أو من مالكام خان . ولكنها — وأنا علي ما أنا عليه من معارضة الحكم العثماني — أثرت في من وجهة أهيئها بالنسبة لنوع الاصلاح الذي كنت أشده الآن . وفي مذكراتي ما ثبت اني أرسلت مذكرة الي غلادستون في هذا الشأن . ولدى خطاب من هاملتون يبل على أن الوزراء اهتموا بأرائي .

٣ يوليو — حفلة شاي في منزل أ. ومن المدعوين رولاند وذرافن والبنات وقد خلوت بالاحيرس في احدى الغرف فكانت النتيجة أن اتفقا على أن نعمل معاً في المسألة الشرقية لكي نؤثر على الرأي العام البريطاني . وصممنا على أن نقعد اجتماعاً عهدياً عند رولاند يوم الخميس

٨ — مررت ببرسي وندهام واقفتم بمذهبي السلمي . وتلقيت زيادة في الموضوع نفسه من المستر جيمس المصو في مجلس النواب . وتعيشيت مع ذرافن والبنات وأنواي وبرسي وندهام وهرى براند وهوتكر محرر مجلة « البسات هرالد » في فندق الممر . والغرض من ذلك ان نضم خطة للعمل بقصد التأثير في الرأي البريطاني العام فيما يتعلق بآسيا . ولم نعمل شيئاً معيماً غير تأليف لجنة لتلقي الاخبار . ذهبت بعد ذلك الى باريس حيث التقيت برجل يدعي روبرتسون سميت وكان حديثاً في الحجاز ( وهو أستاذ معروف )

١٣ يوليو — دعينا الى حفلة عند قرية غلادستون . وقد بكرنا في الذهاب وقبل أن يأتي سائر المدعوين تحدثت مع الرجل العظيم عشرين دقيقة ففصلت له آرائي في احياء الشرق ، فلاح لي انه اهممها علي قدر ما يستطيع أن يهتم به رجل يجهد المسئلة . وقد بدت لي ملاحظاته سطحية وكانت أسئلته مناقضة للسئلة التي ألقاها علي سلسري منذ ثلاث سنين . وكانت النار قد أطلقت علي باخرة بريطانية في نهر الدجلة فقال لي انه يخشي أن تكون هذه الحادثة دليلاً علي عداا لبريطانيا من ناحية العرب .

وقد اعتبر حالة الامبراطورية العثمانية « حرجة » وقال انه يرجع ان الشرق لم يمر به مثل هذا الوقت المعصيب .

ولو ان معاهدة سان استامبول كانت نفذت لما تخرجت حال تركيا أكثر مما هي الآن . ومهما يكن من هذه الآراء . أظن اني نجحت في ارضائه بمكرتين : الاولى هي أن بقاء الخلافة في بيت عثمان ليس ضروريا . والثانية هي أن مدحت باشا كان أبلا . ولكن غلادستون لم يعقد البية علي أمر بل عول علي أن يسير علي مقتضي الظروف حتي تقع الواقعة .

١٥ يوليو — حضرت احناء عقده المشتعلون بالمسائل الاسوية . وذهبت بعد الطاهر الي الدماستون وهي حديقة أنيقة فيها مبرل عصرى منعبد وكنت أظن السير هنرى لايلرد من أهل الدعاوى والخيلاء ، ولكي وحده لطيفاً ومتواضعاً بالنسبة لمركزه ، وهو يحسن التكلم ولا سباً فيما يختص بسياساتنا ويفهم الشرق حق الفهم وقد ذكرني بسكين وزولاند وكابا من السنين في عهده القديم وعندي أن مذ كرات لا يارد تبث من الاهتمام واللذة ما لا تبعثه مذ كرات رجل آخر من أبناء هذا الجيل ، ويتضمن ارتقاؤه من افاقي متجول بين الاكراد الى سفير بريطاني لدى الباب العالي كل ما في الحياة البشرية من عاصر الرواة .

١٧ يوليو — اجتمعت بالسير شارلس دايل وكيل ودارة الخارجية فشرحت له فكرتي في الذهاب الى محد خلال هذا الحريف مع عبد الله بن السعود ولشد ما دهشت حين خيل لي انه يوافق علي ذلك ، ومع ان محادثتنا لم تكن طويلة قد تركتني مفتتحة بان دايلك رجل عظيم . وكانت أسئلته حلية وفي الموضوع . فلما فهم المسألة كتب مشروع تلغراف الى عوشن في الاسانة . ثم كلفني أن أذهب الي تتردن ( مدير الخارجية الدائم ) لمعرفة التفاصيل . وكانت الفكرة التي استغرقني في ذلك الحين هي الذهاب الى بلاد العرب وتروؤس حركة يقصد بها إعادة استقلال العرب . ولم يكن مضى على السير دايلك سنة ١٨٨٠ في ودارة الخارجية الا بضعة أشهر على انه قد قدر له أن يلعب دوراً هاماً في المسألة المصرية سنة ١٨٨٢ . وكان هو وصديقه السياسي شمبلين وبرايت يمثلون العصر المتطرف في الحكومة الجديدة . علي انهما لم يكونا من الطبقة التي يعين الوزراء البريطانيون منها عادة بل كانا من رجال الطبقة المتوسطة ولا زلت أذكر الفور الذي قبول به تعيين ذلك في ودارة الخارجية حين أن الدعاوى الارستقراطية تقليدية بين الكنتية ولكن ذلك لم يلبث أن ظهر معدنه بالطريق التي قبض بها على عمله في يده وبما هو أحدى معهم من ذلك ألا وهو استخدام اصطلاحات فرسية في حديثه كما هي ميرة موظفي وزارة الخارجية . لذلك لم يمض وقت قصير حتي وجد نفسه لا محتملاً فقط ولكن محبوباً أما عبد الله ابن السعود المشار اليه في مذ كرتي فهو عبد الله ابن ذبيان بن سعود



من بيت الامارة في محدد . وكان قد وجد سبيله الى الاستانة ولحقا فيها الى السفارة البريطانية طالبا المساعدة ليحصل أو يستعيد مركزا سياسيا فقدته في بلاده . وقد سمعت به من كركي ثم ربيت الى هذه النتيجة وهي انه قد يكون الفرصة التي أشدها في بلاد العرب . ومن ثم طلبت الى وزارة الخارجية أن تصل بيني وبينه وتوافق على سفرى الرسوم . ولكن المشروع لم ينته بآية نتيجة بالرغم من موافقة وزارة الخارجية كما مر بك وذلك لان لورد تتردن عارض في المسألة حين عرضت عليه قائلا أن المشروع اذا تم بموافقة وزارة الخارجية تعتبر المسألة كلها مهمة سرية ومثل هذه المهمات لا يتفق مع تقاليد وزارة الخارجية . وعلى ذلك انهي المشروع . وكانت أبنا هزيمة الجيش البريطاني في فاندهار بواسطة الافغانين قد وصلت الى لندن في ذلك الحين وصاعمت حذر الوزارة في دوسج سريت . وكانت الهزيمة ضربة حاسمة لليون ولسياسة المجاعة وراء الحدود الهندية وهي السياسة التي استعارها ليمسه . وأظن انه لم يمر وقت طهر فيه حظ بريطانيا الاستعماري في مثل المخطط الذي ظهر فيه في ذلك الحين .

هـ أغسطس — سافرا الى بورسموث لاستقبال ليتون وأمرته الذين جاءا منهم لتغراف بيني بوصولهم عدا أو بعد عدد وبورسموث هذه مدينة غربية على الطور القديم ليس فيها فندق طيب الى الآن وزلنا في فندق «الحبة ورباط الساق» وفي المتزل المقابل للفندق تمثال نصفي للسون ويستطيع الانسان أن يري من الدافنة سان لتست وفكتوري ومهما لمع من قلة مسألة الانسان بوطه — والله يعلم اني لست كذلك — فلا يسمعه الا أن يتأثر بهذه الآثار الدالة على عطمة انجلترا . ولم أكن حتى الآن قد أدركت تدهور حالها منذ ستين عاما الى الآن . وأنى صدمة كان يصيب بها نلسون وزملاؤه لو أنهم رأوا صحف اليوم غلأها انجلترا في محاربة تركيا نغر معاونة حارحية وبلا مال المدينة في أن ترى فرسا طريقا للمساعدة على احتيار صعوبات في اشرق . بل هذه الامور كانت تشغل فكري فضلا عن اشتغاله بعودة ليتون — ليتون الذي ادا سادت حال الهند — سوف يحل عليه التاريج انه أول الحائزين من تراب الامبراطورية في حكم الهند والمنشول عن صياعها

وعنى عن البيان ان هذه كلها أمور تورث الانسان حزناً لا يستطيع وضعه . ومع ذلك لم أكن واحداً من أولئك الذين أقاموا مناحه على سياسة ليتون وطريقة تسعيدها فقد كانت ضرورية وبعدت شجاعة ومحاج . وقد طهر في تاريخ تدهور المحلثا لايشيء الا انه هو نفسه طاهر . ولم يكن في استطاعته أن يصد تيار الحوادث ويدفع معها بمحاولا قيادتها على خير ما يستطيع ولكنه لم يستطع أن يعمل أكثر من ذلك . وعندي أن أسباب تدهور المحلثا أسباب واسعة لا يمكن إلقاء مسئوليتها على رجل فرد أو حرس واحد . انا بفشل لا ما لم بعد أسماء ولا عادلين ولا مهديين وحكومتنا « المامة » وليست هيئة ذات حصافة تؤيدها حصافة الامة . وما وصلنا الى المركز الذى نشغفه فى العالم الا بالثائرة العظيمة والحصافة القوية والبل العظيم فلما اقرصت هذه الوسائل هبطا الى مستوانا الطبيعى . وقد صنعنا الخير فى العالم خلال المائة عام الماضية وسصم الشر فيه خلال المائة عام القادمة ثم لا يعود العالم يسمع بنا بعد ذلك

٦ — أغسطس بعد امدارات كلادة أعطيت إشارة بوصول الباخرة « هيلاليا » وقد التقت لحسن الحظ بمجموعة صغيرة قادمة لتحية ليتون وركبا الزوارق لمقابلتها فى عرص البحر وصعدنا اليها قبالة « روبر » وقد وقف ليتون على طهرها وجه لوجه الشمس وملاس رديئة عمرها أربع سنوات وفى فمها « السيجارة » التى كلفتها حكم الهدى . وهي اتفه الأشياء التى يعتمد عليها فى النجاح بعض الاحيان !! ولو انه استطاع أن يكف عن التدخين فى الوقت الملائم ، وبذهب مع زوجته الى الكنية لعفر له الجمهور الانجليزى كل مساوئه ولو تجاوزت المحضر . أما والمال كما هي قد كان خطاه هذا ملازماً له طول مدة حكمه وقد أثقلت موازينه حين أصابته المزعجة السياسية . على انه ما كان يستدعي من الهدى لولا هذه . على انه لم يكن يعبأ بمثل هذه الشؤون وقد وثق من انه بذل أقصى جهده وأجاد وهو على حق فى ذلك . وقد عبثته على هذا الشعور كما عبطته على نهضة ذهانه الى داره فى نيوبورت .

ولما أوصلناهم البر وتناولنا معهم الشاى فى المندق ودعاهم خير وداع وقد سمعت لادى ليتون تصيح من أعماق قلبها « آه ! أحب مطر أولئك السكرى الاعراء الذين يسيرون فى الشوارع شذما أحهم » .

وكذلك اتفقت آراؤنا على أن آخرة الامراطورية البريطانية قربت . فاما فيما يختص بي فما كنت أعبا وقد حان حينها وأما ليتون فكلن أكثر منى وطنية ...

١٢ أكتوبر — كرايت . قصيت اليوم مع ليتون ... وقرأ لى دفاعه للمعد لمجلس اللوردات ولا شك لادى فى أن الحق في جانبه وستكون خطبته من أعظم خطب هذا العصر اذا صرح له بان يور جميع المستندات الموجودة لديه . وقد اطلعت على هذه المستندات فاذا بمراسلات روسية أحدثت فى كابل نص معاهدة سرية بين شير علي والروسين . وقد أخبرني « شوفاروف » انه مر بها حين كان ينهباً للذهاب الى الهند واقترح عليه قسمة أفغانستان بين روسيا وانجلترا .

هذا آخر ما قيدته في مذكراتى يومئذ علي وجه التقريب ويسوء في أي أهملت التيد فيها مدة عامين بعد ذلك أى بعد سنة ١٨٨٠ . ولم يصرح لليتون باز يشرح قضيته في البرلمان شرحاً وافياً وكان لخطبته وقع فائر في مجلس اللوردات بعد أن سلبت أقوى قطعا . على أنى سأقتطف هنا نبذة من خطاب كته انى فى ١٨ نوفمبر وبه يتم هذا الجزء من قصتى ولهذا النبذة قيمة خاصة من حيث انها تشرح حقيقة الحال السياسية يومئذ . قال ليتون « قرأت في احدى الصحف أمس أن عبد المطلب ، شريف مكة الحديد ، الذى هو أداة بيد عبد الحميد يعمل بكل نشاط وطبقا للتعليمات التى ترد عليه من الاستانة لاثارة المسلمين علينا في جميع أنحاء الارض وقد صارت الصيحة الآن : الخليفة في خطر . وعدى أن فرصة الاستفادة من العرب التى عرضت في العام الماضى قد أعلنت تماماً . ولست أرى نتيجة لما فعله علاءستون سوى انه اعدم نفوذنا في الاستانة وحوله الى المانيا بفبر أن يدبر وسيلة غيره لحكم العالم الاسلامي . ويلوح لي أن خطبته التى انتظرها الناس بفضول كبير ليست الا اعترافا ضعيفاً بالفشل الساحق الذى أصاب سياسة الحكومة البريطانية فهم يطرحون اليونان وأرمينيا وكل شيء آخر باعترافهم أن أصابعهم أخذت تتهترق بنار طرف العصا الذى قبضوا عليه منذ تسعة أشهر . ثم اهمم يتحبطون في سياستهم الارلندية بما لا يبعد معه ان تكون هذه المسألة سداً لسقوط الوزارة . والحقيقة هي ان الامة ترفض السياسة التى تريد الوزارة تمييزها في كل مكان وان الحكومة لا تهجرؤ على تنفيذ

السياسة التي تريدها الامة لرغبتها في المحافظة علي وعودها وتمهدياتها . وعلى هذا كانت النتيجة انه لا توجد سياسة معينة الآن . أما فيما يختص بي فأنتي سأكتأ حتى يجتمع البرلمان وان كان قلبي يحترق في صدري »

ولم تكن الاسابيع الاخيرة التي قضيتها في انجلترا من ذلك الحريف مشغولة بالسياسة فقد شملت بنشر جزء من ديوان شعري كان ليتون قد حرصى على نشره وقد تركت له (البروفات) لتصحيحها . وهذا هو الجزء الذي لقي اقبالا كبيرا ونفدت منه عدة طبعات للآن . وقد وضعي هذا الديوان في مركز أدبي كان له تأثير في أعمالى السياسية التي اعتبت نشره :



## الفصل الخامس

### زعماء الإصلاح في الأزهر

أبحرت من إنجلترا في خريف سنة ١٨٨٠ يوم ٣ نوفمبر الى مصر ولم يكن لي قصد غير الذهاب منها الى جدة لتعلم والدرس استعداداً لما عسى أن يعرض في المستقبل من الفرص وقد خيل لي مؤقتاً أن مشروعي الأشد تهوراً ليست عملية فصار أقصى هـي أن أحصل على المعلومات الكافية عن الدين الاسلامي وميوله الحاصرة لعلني أصالح للعمل متى سنحت الفرصة وكنت قبل رحلي من إنجلترا اتفقت مع هاملتون على أن تستمر المراسلات بيننا مدة الشتاء وعلى أن أكتب له عن كل شيء . قد يستحق الاهتمام من حوادث سياحتي وهو ينقل منى الى غلادستون ما يرى محالاً لقله . وكان هاملتون قد أكد لي أن غلادستون لا يزال بهم بآرائي . وكانوا يظرون الي في وزارة الخارجية كشيء خيالي أكثر منه حياً يمكن أن يكون له تأثير يذكر في وجهة النظر الرسمية للمسألة الشرقية على الرغم من وجود رئيس وزارة متطرف . ولما نزلت في القاهرة أدركت بعد بضعة أيام أنها قد طرأ عليها تغيير كبير ولكنه تغيير حسن فيما لاح لي . فقد حل عهد المراقبة الإنجليزية الفرنسية محل استبداد اسماعيل وقظمت المالية وأكثر فروع الادارة . وقد زرت بعض القرى التي عرفت يؤسها منذ خمس سنوات فوجدت انه قد وضع حد لما كانوا يألمون منه . ومع أن الفلاحين كانوا لا يزالون قراء رازحون تحت عبء الضرائب الفادحة فقد تبدد اليأس الذي حملهم على مكاشفتي بتاريخ شقاؤهم حين التقيت بهم أول مرة كرجل أجنبي يعطف عليهم . ولما ذهبت الى الوكالة البريطانية سرني ان وجدت فيها « ماليت » فصلاً جزئياً . وقد قص علي تفصيلات الاصلاحات التي أدخلت والتي لا تزال متتواة مصبوغة بصبغة وردية وكان أكثر هذه الاصلاحات لم ينفذ بعد الا فيما يخص بالمالية . وقال ماليت ان الامور تتحرك ببطء . ولكن بثبات وفي طريق التحسين ، وان السحب التي لا يرى غيرها في الاتفاق هي أولاً في السودان

الذي هو عبء باهظ على كاهل المالية المصرية وثانياً في الجيش حيث ظهرت أخيراً شواهد التآمر . وقد أكثر من امتداح الحديو الحديدي توفيق وأخذني لزيارته في القصر ومع أنه لم يمت أهتمامي فقد وجدته يحسن التكلم الاحسان الخليق بالامراء وفي الطاقة أن يستبين المطلاع على الخطابات التي كتبتها من مصر يومئذ صدى تفاؤل مألوت وقد كتبت الى هاملتون خطاباً أقتطف منه النبعة الآتية :

تمحست الامور كثيراً عما كانت عليه منذ خمس سنوات . ومما كانت قائلص حكومة انجلترا السابقة فلما ان تقول انها نجحت في مصر . وقد ممن الناس هنا وظهرت عليهم امارات الرخاء . وقد سمعت الناس الذين كانوا يشكون بحرارة منذ خمس سنوات يشنون على الحديو الجديد ويطرون الادارة . ويلوح لي أن ولاية الامور هنا وقضوا في طريق العمل وقد اقتصروا على تغيير الاشخاص الذين كانوا مصدر الخطر ولم يغيروا في الاساليب الا قليلا . لقد كان التخلص من اسمعيل عملا سياسياً كبيراً ولا شك في أن الرجل الحاضر يستقيم على المادة مع قليل من التوجيه السديد . وعندى ان ثروة مصر وقلة نفقات حكومتها يضنان نظام ماليتها متى قصرت مقامها على توفير الرخاء . على أنه توجد صخرة أو صخرتان في الطريق مثال ذلك حكم السودان الذي سوف يبق مصدرراً للاتفاق وسياً للاحتفاظ بجيش . ولا أدري لماذا أنهم مصر بحكم النيل فيما وراء الشلال الاول الذي هو حدها القديم . أما اقتضاء على تجارة الرقيق في افريقيا فاسار لا حاجة لان يحصل عليها غير البلاد لفية . ولا شك في أن سحب الرقابة والحماية التي تتمتع بها حكومة مصر يكون عملا سيئ الخط والواجب أن يستمر ا بضع سنوات على الأقل حتى ينشأ جيل أكثر تعوداً على حسن النظام من الجيل القديم . ولشد ما تتوق نفسي لرؤية سوريا تتمتع بهذا النظام واذا نحن لم نعبأ بالصحراء استطننا القول بأن سوريا قطر غني وفي الطاقة أن تنفق على نفسها . ولكنها سوف تكون في حاجة الى اعلان حماية اوروبية بحالة لا تتحمل الشك حتى يمكن أن نستغني عن الاحتفاظ بجيش . أما فيما يختص بحفظ الامن فتكفي لذلك قوة صغيرة . ولست أشك في أن القوم في انجلترا يبالغون في صعوبة المحافظة على الامن في بلاد أهلها مزيج من المسلمين

والمسيحيين فإن الشقاء الذي بلوه جميعاً في خلال القرون الطويلة الماضية لم يبق آثراً لما في صدورهم من الحزازات .

وقد أسعدني الخط من أول الامر فيما يختص بما أريد أن أنقله من شئون الاسلام وكان روحريك أحد المستشرقين الممتازين والذي عرفته قبل ذلك قنصلاً في دمشق قد جاء الى مصر وعين فيوزارة المالية فعرفت منه اسم عالم شاب متصل بالازهر يدعي الشيخ محمد خليل ومن ذلك الحين أخذ هذا الشيخ يتردد علي يومياً لاعطائي درساً في اللغة العربية وكثيراً مايتحدث معي طول بعد الظهر ومن ثم ظهر لي انه أكثر من أن يكون مجرد استاذ لتعليم لغة القرآن .

ولعل هذا الشيخ أعظم من عرفهم من المسلمين صراحة وإخلاصاً وتحمساً وكان من طلاب تلك اللدوسة الواسعة الثقية التي كان استاذها يومئذ استاذة الشيخ محمد عبده . وكان الشيخ خليل يبلغ الثلاثين من عمره في ذلك الحين وهو رجل ذكي طيب مجتهد لا أثر فيه للتصنع . وكان كذلك تقياً خوراً بدينه مجرداً من الرياء والتعصب للذهبي والتحفظ الذي عليه الصلف على بعض المسلمين في معاملتهم مع قوم لا يدينون بدينهم . لقد كان على تقيض هذا كله . وكل سروره منذ اليوم الاول في تحصيلي كل مايعرفه . وكان مذهبه في التفسير أوسع المذاهب . وقد اعتبر جميع الدبائنات التي نصر علي وحدانية الله صحيحة ولم تكن اليهودية والمسيحية في نظره الا صورة مشوشة لذلك الدين الحقيقي دين ابراهيم ونوح ولذلك لم يسح بسماع أى قدح في أصحاب هذين الدينين لقربهم في اعتقادهم من المسلمين . وعنده ان المثالب والحرارات انما هي ميراث الحروب القديمة ويعتقد ان العالم سير في الى حالة اجتماعية كاملة حيث تنزع الاسلحة ويتوثق الآحاد بين الامم والمذاهب . ويمكن تصور سرورى العظيم اذ شرح لي هذه الآراء . وأبدها بذكر التقاليد والقواعد معلماً انها تعاليم — الاسلام الحقيقية — أقول يمكن تصور سرورى اذ وقفت علي هذه الآراء التي هي قريبة جداً من آرائي ولا سيما حين أكد لي أنها من الآراء التي يعتقها الحيل الحاضر من الادهريين وعبرهم من الطلبة في العالم

الاسلامي وحكي لي كيف نشأت هذه الآراء في الازهر وكيف كان نشؤها في أول عهد بالتعلم في تلك الجامعة الكبرى.

ومن أغرب ما يروي أن الفضل في نشر هذا الإصلاح الديني المجرى بين العلماء في القاهرة لا يعود إلى عربي أو مصري أو عثماني ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغاني وهو رجل لم تتجاوز تجاربه العالمية قبل حضوره إلى مصر دائرة آسيا الوسطى وهو أفغاني المولد وتلقى تربيته الدينية في بحارى . وفي ذلك المسكن السحيق وبغير أن يتصل بأي أستاذ من الذين يعيشون في مراكز الأفكار الإسلامية الراقية . استنبط من درسه وتفكيره الآراء التي تعزى إليه اليوم . وكانت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي التي قد انحصرت إلى ما قبل ذلك في التفتت القديم ولم تسر في طريق التطور . وقد حاد في الترتين الأخيرين كثير من الواعظين القديس لم يزيدوا على أن علة ضعف الإسلام راجعة إلى كفا تنفيذ عن السير على سنن السلف الصالح ووجد كذلك في مصر وتركيا مصلحون نظمو الإدارة على الأساليب الأوروبية لأغراضهم السياسية . ولكن هؤلاء أدخلوا إصلاحهم بالعنف وبالتشورات التي حصلوا عليها من العلماء بالأكرام . وبغير أن يفتقروا بينها وبين قواعد القرآن وتقاليد . وكانت الإصلاحات السياسية تأتي من العتبة العليا ولم يزل حكم الرأي العام الرشيد قاسيا عليها . أما نبوع جمال الدين في اجتهداه في حمل الممالك التي وعظ فيها على أن تعيد النظر في الموقف الإسلامي كله وأن تستبدل التمسك بالقديم بالتحرك إلى الامام حركات أدبية منسجمة مع العلم المعاصر . وقد مكنته عمله التام بالقرآن والسنة من إقامة الحججة على أهمها وأحسن تأويلها مما لكل الإسلام كمؤا للاحداث تطور راق عظيم .

ولما آتم دروسه في سنة ١٨٧٠ وكان يومئذ يبلغ الثلاثين من العمر اخترق الهند إلى بومباي وانضم إلى الحج في مكة . وبعد أداء الفريضة حصر إلى القاهرة ثم ذهب منها إلى الاستانة . ولم يلبث في هذه الزيارة الأولى أكثر من أربعين يوما في مصر ولكنه وجد وقتا كلفيا لتوثيق عرى الصداقة مع نفر من طلبة الأزهر ولوضع أساس التعاليم التي شادها بعد ذلك .



أما في الاستانة فما أسرع ما به ذكره بما أوتي من الفصاحة والتبحر في العلم . وقد عين في منصب ديني سام وأخذ يلقي المحاضرات في جميع الموضوعات لعة معارفه ووفرتها . وكان حاد الذكاء قوى المحافظة حتي قيل أنه يستطيع أن يقرأ كتابا رمت في أي موضوع ثم لا يشرد من ذهنه كلمة منه بعد ذلك وقد ابتدأ بتعليم النحو ثم علوم اللغة ومنها انتقل الى الفلسفة والدين وقال ان الاسلام السني يوفق بين نفسه وبين أدقي ما تنصبو اليه النفس الانسانية وما تحتاجه الحياة العصرية وادكلن سببا صحيحا يحيط بالحوادث قد أصفي اليه الناس باحترام ثم لم يمض وقت قصير حتى صار له أتباع من صفار الطلبة . وكان يوحى الشجاعة بحجراته وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب أبي حنيفة فيقبل الناس تقدمه بما لا يمكن أن يتيسر لرجل غيره وكان همه أن يطلق العقول من الاعلال التي قيدتها طول الاجيال الماضية ويقيم الحجة علي ان الدين الاسلامي ليس شيئا ميتا ولكنه نظام يصلح للانسانية المتطورة في جميع العصور فهو لا يأتي التطور وكل هذا بمائل ما حدث من أحياء المسيحية ماوروايا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر علي ان القريب في شأن الاسلام القريب هو أن يعود الفضل في نشوء روح النقد بين أهله الى رجل تربى في بلاد رجمية كآسيا الوسطي وتعلم في جامعة سحيقة كجامعة بخارى .

وقد كانت الفترة التي قصاها الشيخ جمال الدين في الاستانة زاهرة ولكنها كانت قصيرة فقد كان رجلا غير مقيد وكان كأكثر الافغانين لا يحفل بالتقاليد المتبعة في خطاب العظماء وهي التقاليد التي كان لها أعظم اعتبار في عقلية العقل التركي ومع انه كان محوطا برعاية علي باشا ووادباشا الذين رأيا في تعاليمه تأييدا لاصلاحهما السياسي ضد قدماء العلماء وقع سوء فهم بينه وبين السلطات الدينية العليا ولا سيما فيما يختص بمسلكه الشخصي نحو شيخ الاسلام فلم تجد هذه السلطات سبيلا لان تجدد في محاضراته محلا للواخذة ولم يمض وقت قصير حتى اقتبست من اقواله قرات اخذتها ديلا علي الكفر والزيغ . فلما أجاب علي ذلك بأنه مستعد لان يناقش المسألة علنا مع من هم الكبار فزعت الدوائر الرسمية ورعبت وكان هذا التحدي قد أحدث حركة كبيرة بين « السفهاء » فكان الشبان منهم في جانب جمال الدين

وظهر أن النزاع قد يؤدي إلى عواقب وخيمة . ومن ثم أكره الساسة على إداره  
بجلائمة العودة إلى مصر والبقاء المقدسة فعاد إلى مصر في ظل هذا الاضطهاد  
الديني ولكن بعد أن بذر بذور النقد التي أثمرت بعد عدة سنين إذ اجتمع السخط  
على المطالبة بالإصلاح الديني . وهذا هو الحزب الديني في الحركة السياسية التي قدر  
أن تنتهي بالثورة التي قام بها مدحت باشا في سنة ١٨٧١ .

وقد تقدمت شهرته إلى الأزهر حين عاد إلى القاهرة ١٨٧١ وكانت مصر في  
عصر ديني، مظلم لأن فساد الحكم ولا سيما في عهد اسماعيل كان قد لوث جميع الطبقات  
واطعاً جذوة الشجاعة والاستقلال في صدور العلماء ومع ذلك كان فضول الناس  
يزداد حول عمال الدين . وقد رجب به الأصدقاء القليلون الذين كل قد تركهم في  
مصر . وجبوا به سرّاً أن لم يكن علناً ما لبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما  
حديثه أن جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدين كحدث في الاستانة . أما أم هؤلاء  
المريدين فهو الشيخ محمد عبده الذي قدر له أن يلعب فيما بعد دوراً هاماً في الشؤون  
العامة والذي هو الآن معنى الديار المصرية . والشيخ إبراهيم العجوي الصحفي  
المعروف . وإلى هذين استطاع الشيخ أن يقضي بكنوز علمه بلا تحفظ وأن يعرض  
فيها روح النقد التي طبع عليها وينفث فيها كثيراً من جرأته . والحق أن الشجاعة  
كانت ضرورية لكل رجل يتكلم في مصر بصراحة . ولم يكن اسماعيل يسمح بأقل  
معارضه وكان حكمه مطلقاً حتى قدت الاضطرابات المستقلة من أفواه الرجال . ولم يكن  
يجرؤ على الشكوى إلا الفلاحون المهذبون في قراهم أو غيرهم ممن لا يعتد بهم من  
الوجهة السياسية أما السلطات الدينية العليا والموظفون الكبار فقد طال سكوتهم على  
الظلم وآثروا الموازنة ما داموا يحصلون على أنصبتهم من الأسلاب .

وعلى هذه الأحوال البسيطة ، إن عقلية أو أدبية ، أشرقت تعاليم جمال الدين  
الحريّة كما يشرق الضوء الغرب وضمنت له شجاعته مؤقتاً أصغاه الناس بغير تدخل  
من جانب الحكومة وقد يكون الفصل في ذلك إلى أن المراك الذي أثاره جمال الدين  
في الاستانة قد برره في نظر اسماعيل أو يكون اسماعيل قد اعتبره أضال من أن يستدعي  
القمع أو ربما كان قد فكر — كما فكر على باشا وفؤاد باشا — في استخدام التعاليم

الحديثة في حربه الطويلة مع القناصل الاوربيين . ومما تكن الحقيقة في ذلك فقد أتيح لجمال الدين أن يصل محاضراته خلال السنوات التي بقيت من حكم اسماعيل ولم يلق القبض عليه الا في عهد نوفيق وبعد انشاء المراقبة الانجليزية الفرنسية . وقد أرسل بلا محاكمة الى الاسكندرية ونفي من انظر . ولكنه كان قد أدى رسالته واعتنق كل زكي نفيه في الازهر قواعد الاصلاح المر على الاساسات الدينية . أما عبادة المصلح نفسه فقد أقيمت على خير عائق يحملها بل لا أعالي اذا قلت أنها القيت على عائق أقوى من عائق صاحبها الاصيل وما كل معلمي اللغة العربية - الشيخ محمد حليل ولا يمكن أن يكمل من الاستماعة في وصف أستاذه الروحي - الشيخ محمد عبده -- ووصف كما أنه العقيلة وقد خلف هذا جمال الدين في زعامة حزب الاصلاح الحر في الازهر .

وقد وجدت بين أوراقي مفكرة يوحد فيها ان معلمي القناصل أخذني رؤية الاستاذ الشيخ محمد عبده في منزله الصغير بحي الازهر للمرة الاولى في ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ وهذا يوم يجب علي أن أميزه علي سائر الايام لانه فتح لي باب صداقة بقيت الآن نحو ربع قرن مع رجل من أحسن وأحكم الرجال المعظم . ويجب أن لا يتوهم أحد اني اذا استخدم هذه الالفاظ ألقى القول علي عواهنه أو أبالغ متقال درة ولكي أقولها معتمداً علي معرفتي باخلاقه في ظروف مختلفة وأحوال صعبة قد عرفته في أول الامر معلماً دينياً ثم قائداً لحركة الاصلاح الاجتماعي ثم زعيماً أدبياً للشورة السياسية ثم أسيراً في أيدي أعدائه ثم منفياً في أقطار أجنبية مختلفة ثم تحت مراقبة البوليس في القاهرة حين ألقي نفيه وأخيراً حين سودته مواهبه العقيلة ونصرته من جديد اذا استأنف محاضراته في الازهر وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم عين في أواخر أيامه مفتياً للديار المصرية فخل في أسمى مقام ديني وقضائي في مصر .

وقد كان الشيخ محمد عبده حين رأيت لأول مرة في سنة ١٨٨١ في الخامسة والثلاثين ربيع القامة أسمر اللون نشيطاً يلوح ذكأؤه السريع في عينين تمغذان الى الاعماق وهنه صريحة ودية توحى الثقة في الحال . أما في القباس والمظهر فشرقي بحث يلبس عمامة بيضاء وقفطاناً كما يلبس شيوخ الازهر ولم يكن يعرف حينئذ لغة

الجنسية أو أية لغة أخرى غير لغته وقد بحثت معه بمساعدة محمد خليل الذي أعان  
بحرفيته الضعيفة عربيتي في جميع الموضوعات التي بحثتها قبل ذلك مع محمد خليل  
وحصلت بهذه الوساطة على آراء واسعة فيما يختص بتعاليم المسلمين الاحرار ومخاوفهم  
للخضرة وآمالهم في المستقبل وقد دونت هذه الآراء في كتاب طبعته في آخر السنة  
باسم « مستقل الاسلام » وكان الشيخ محمد عبد مصر على ان الاسلام في حاجة  
الى اصلاح الديني الحقيقي وليس فقط لهيأة سياسية دينية . أما فيما يختص بالخلافة  
فكلن بشاطر كل المسلمين المستنيرين رأيهم فيوجوب اصلاحها وتحديد ها علي قواعد  
روحية . وقد شرح لي كيف يؤدي حسن استخدام سلطتها على وجه شرعي الى  
مساعدة حركة الرقي الادبي وكيف ان أصحاب هذه الخلافة أهملوا بحيث صاروا  
غير أهل لامارة المؤمنين . والواقع ان الاسرة العثمانية لم تحفل بالخلافة مثقال ذرة  
خلال القرنين الماضيين ولم يبق لها حق ولا سلطان حق السيف وسلطان . علي انهم  
ما زالوا أقوى الامراء المسلمين ومن ثم يستطيعون القيام بالشطر الاكبر من العمل  
لخير الجميع أما اذا لم يمكن حملهم على القيام بواجبهم فلا ماص من البحث عن أمير  
آخر للمؤمنين ولم يكن ثمة شك في حاجة الاسلام الى أساسات سياسية . وكانت  
آراؤه مشربة بروح الاعتدال وهي آراء زاد في اغماها انها عملية ورشيدة .

وفي أثناء الشتاء ذهبت وعقبلي لزيارة « جنة » حيث جمعت كثيراً من  
المعلومات التي كست في حاجة اليها عن نزعات الطوائف الاسلامية المختلفة وأحسب  
ان تلك كانت خير بقعة للادوي الباحث عن تلك المعلومات فقد تعرفت فيها بواسطة  
للدعو يوسف أفندي قديمي بعدد من الاشخاص المسلمين الذين تبهم معرفتهم .  
وكلن يوسف أفندي هذا متصلاً بالكنصلية الانجليزية . وكان بين الدين تعرفت اليهم  
الشيخ حسن حوهر وهو من خيرة علماء الصومال الاذكياء والشيخ عبد الرحمن محمود  
من جهة جيدر اباد بالهند والشيخ مشعث المكي وعدد من أعضاء أسرة بسام في  
غبرة بسجد وهر شيخ بنوى متعلم تعليماً راقياً من جنوبي مرا كش . ولم أقم في جنة  
سوى بضعة أيام فقد أصبت بحمى الملايا المنتشرة جداً في تلك الجهات وحال هذا  
المرض دون فكرة التعرق في داخلية البلاد . ولقد وجدت أن الوقت لم يكن ملائماً

أيضاً لتحقيق تلك الفكرة نظراً للعداوة الجديدة التي أبدتها السلطات في مكة حيال المحتل. فان السلطان كان قد بدأ فعلاً في حمل كلمته مسموعة بصفته الزعيم الديني للمسلمين وهو شيء لم يكن معروفاً منذ عدة أجيال لاسلافه العثمانيين بل إنه أصبح شديد القيرة على نفوذه في بلاد العرب بصفة خاصة بينما ان نزاعه مع حكومتنا جعله أكثر ارتياباً في النفوذ الانجليزى منه في أى نفوذ آخر . وقيل زيارتى لجنة بمكة أشهر فقط أراد أن يظهر مقدار سلطته في مكة فبين لها شريفاً ذا نزعات رجعية شديدة ضد الاجانب . فالشريف الاسبق حسين يدعون انه كان رجلاً ذا أفكار حرة ومعروف بصلاته الودية مع القنصلية الانجليزية فاستحق لذلك غضب السلطان ومات أشنع مئة . وليس من المستطاع الحزم اذا كان ذلك في الحقيقة بتدبير السلطان أو بواسطة الوالي ولكن الناس في جدة عد ما كت فيها كانوا على كل حال يعتقدون بان للسلطان دخلاً في القتل .

وقد وقفت على تفاصيل مقتل الشريف حسين من وكيله في جدة المدعو عمر ناصب الذي عرأ القتل للسلطان بلا مراء . وهذه الرواية هي انه في آخر موسم الحج ركب في صحبة الحاج قاصداً جدة — كما كانت العادة — لتوديع الحاج والدعاء لهم . وقد كان سفره ليلاً . وفيها هو يوشك أن يدخل بصفة رسمية الى الميناء على ظهر جواده بصحبة الحرم الذي كان بعضه عثمانيين وبعضه الآخر أعراب تقدم اليه أحد الحاج الافغانيين في ملابس رثة كما لو كان يطلب صدقة وطعنه في بطنه وبالرغم من هذا المرح فان الشريف ظل راكباً الى أن دخل دار وكيله عمر ناصب ومات في اليوم نفسه بسبب — كما سمعت — عدم تضييد هذا المرح غير المبيت تضييداً كلياً وكانت هناك ظروف عديدة تفرق بين أن يكون الاعتداء حادثاً مشوهاً لقمص الدينى أو حادث قتل عادي . ولم يكن القاتل من جماعة الشيعة كما تبادر الى الذهن نادى دي بدى بل كان من متطرفي السنيين . وقد فاه بعد القبض عليه بعبارات تدل على أنه كان يعتبر نفسه مكافئاً لفعل ما فعل فاه قال عند ما سئل عن السبب الذي دعاه لارتكاب هذه الجريمة . « يحكي انه كان يوجد فيل وهو أكبر الحيوانات الموحدة في القارة . فجاءته ملة وهي أصغر حيوان في هذا الموحود فعضته

«وأما» ولم تكن هناك أيضاً محاكمة علنية للجاني فقد أعدم بعد اعتقاله بأربعة أيام كما تخففت الاجراءات المسكة لاختفاء المسألة .

وكن الشريف عبد المطلب خلف الشريف حسين مر. بيت آل زيد وهي الأسرة المنافسة لاسرة الشريف حسين وكن أيضاً من أشد الرحيمين المسلمين تطرفا. وقد كن طاعناً في السن بحيث انه كان شريفاً لمكة عند ما كانت في أيدي الوهابيين الذين انضم الى مبادئهم ولو في الظاهر .

والآن وقد قدمت سنة اعيد الى ذلك المصب بلقب أمير ليتوى حركة الخالعة الاسلامية التي كانت سائدة في الاستانة . وفي عهد الشريف حسين كان في استطاعة أى فرد انجليزى أن يجتاز الحجاز من أدناه الى أقصاه بدون أى اعتداء بل ان « درى » والاساذ « روبرت سميت » حصل على مساعدته وحمايته والآن فمن أى محاولة من هذا القبيل تعتبر خطرة جداً وفي الواقع ان السائح الفرنسي « هير » قد حياه لمحاولته اجتياز الحجاز في السنة نفسها . ثم عدنا الى السويس فيما بعد ومن ثم الى سوريا عن طريق الاسماعيلية .

وفي أثناء اجتيازنا الاراضي المصرية وصلني الخطابان التاليان من « هملتون » رداً على الخطابين اللذين أرسلتهما اليه . وأهمية الخطابين هي في أن اهتمام الحكومة بالمسائل الشرقية بدأ يتحول الى المشاكل الداخلية كالتي كانت في ايرلندا . ومن اللدهش والمحرزن أن نلاحظ كيف ان الضرورة — كما سماها الاحرار وهم في الوزارة — في قمع الوطنية والضغط على الحرية في ايرلندا أحدثت رد فعل في الشعور الشريف الذي أبدلوه به — قبل دخولهم الوزارة — عطفاً على الحرية الوطنية في الشرق . ويظهر ان غلادستون — الذي كانت ميوله بلا ريب متجه نحو إعطاء هاتين الحنتين الحرية انتقاد لزملائه الاحرار في الوزارة اللذين كانوا معصبين على الميمنة في الطريق التي لا تلائم نزعتهم وكانت ايرلندا طول العالمين التاليين العقبة الكؤود في سياسته وسأبين في موضعه ان قرار القمع الذي تقرر في سنة ١٨٨٢ لاستعماله في ايرلندا كان في نفس مجلس الوزراء الذي قرر أيضاً استعماله في مصر . فالاشترك في سوء الحظ بين هاتين البلادين كان مأساة كبيرة لا لمصر وارلندا وحدهما بل لشرق المجتزر

## وهاهو الخطاب الاول

رق ١٠١ دوتنج ستريت

لقد نجحتم على عرض خطابك على عدد من الذين أعلم اهم يرغبون في قراءته ومنهم «اللورد غرانفيل» و«ريفرزولسون» و«بروك» و«هارى براند» وأعلن أن الخطاب سر «ريفرزولسون» بصفة خاصة لأن «ريفرز» يظن بعين الانبهاج الى ماضيه في مصر . وقد زاده سروراً أن يسمع من مصدر مستقل بأن العمل الذي كن له يدكبرى فيه قد أنتج هذه النتيجة الحسنة وانى أخشى من أنه يعتبر ان نصيبه في ادراك هذه النتيجة لم يقدر بعد حق قدره .

« وما برحت ايرلندا تحتكر كل وقت الحكومة ومجهودها وأخشى أن يكون من الصعب البالغة في الحالة الخطيرة السائدة الآن في ذلك البلد البائس . وانى لاحد الله على اتنا أصبحنا على مقربة من عودة اعتقاد البرلمان . وسيظهر اذا كانت الحكومة بالفت او لم بالغ في التذرع بالصبر والتمسك بجبل الاناة وليس لى أن ابدى رأيا في هذا الصدد . على أن الحالة لى بلا جدال عار على هذه البلاد (انجلترا) والحكومة ترى نفسها مضطرة الى العودة الى الخطة العتيقة خطة العنف والقمع . وقد بدأت أشعر — بالرغم منى — بأن ايرلندا ليست صالحة للحكومة الدستورية . واننا مهما سعينا لازالة المظالم المشروعة فليس من المستطاع استتباب السكينة فيها بدون العود الى ما يشبه سياسة كرومويل . وانه لعل تنفطر له الاقضية . فاذا لم يحدث تغيير غير عادى فنصبح في هذه البلاد معرضين لسقوط وزارة تلو الاخرى وهكذا في خلال بضع السنوات القليلة المقبلة . وانى لشديد التشاؤم بالنسبة للمستقبل . وبودى لو استطنا أن نطبق على ايرلندا شيئا من التطور فالذى رأيت في مصر ... أن ايرلندا البائسة هذه كادت تقضي على الحكومة قبل الاوان من حيث السياسة الخارجية . ولا يزال يؤمل أن يستطيعوا ايجاد مكن لليونان فلا يدعوا مسائلها تصبح نهائياً في زوايا انفسيان والا اصبح من المحتم نشوب الحرب بين تركيا واليونان . ان اليونان لا تستطيع وحدها أن تكلفح تركيا وقد بعنى دخول تركيا الحرب رفع لواء الثورة العامة في الروملى الشرقي وفي مقدونيّه . ولا ازال اؤمل أن توحد نسوة

لسألة حدود المملكة اليونانية بتدخل الدول العظمى باعطائها قطعة أرض صغيرة في الشمال وربما أيضاً بتسليمها جزيرة كريد . ولا جدال في أنه يلزم إيجاد وسيلة من الوسائل لتقوية اليونان وتوسيعها ليس لحفظ السلام في الشرق مؤقتاً فقط بل لوضع الأساس لما عساه أن يكون قوة مصادرة للعناصر الإسلامية ... » .

وهاك نص الخطاب الثاني :

رقم ١٠ دوننج ستريت

نحمرأى ١١ فبراير سنة ١٨٨١

لقد تناول الوزراء خطابك على آر وصوله . وقد تلوت بعض فقرانه للمستر غلادستون وقد اتيح للورد غرانفيل والمستر غوشن أن يقرأه بنفسها وباهتمام علي ما سمعت . أما اللورد غرانفيل فارسل صورة من الملاحظة التي ختمت خطابك بها وهي الخاصة بشؤون الهند الي لورد هارنجتون وأرجو ان لا أكون خنت الثقة التي وضعها في باطلاع الدوائر الرسمية على معلوماتك المذكورة في الخطاب . وقد اطلمت هاري براند عليها أيضاً . ولقد قامت في وجه والده — رئيس مجلس العموم — مصائب لم يقم مثلها لاحد من أسلافه في كرسي الرئاسة . ولكنه خرج من هذا الضال فائزاً . فاذا صرفنا الطر عن جلسات المجلس التي لا نظير لها والتي استمرت أياماً وليالي ووقف العدد العديد من الاعضاء المشاغبين قد مررنا في دور برلماني مريح . واني لشديد الامل باختفاء شبح العرقلة الناشي عن الشغب الخاص بالاراضي الارلندية . فاذا ما صادق البرلمان على الاجراءات القمعية او بالاحرى الاجراءات الراقية وصار المشروع العادل التام الجري الخاص بالاراضي قانونا فلن نصبح مهددين بالكابوس الارلندي في القريب العاجل على كل حال .

وفي الوقت نفسه كان اهتمام الجمهور في خلال الاشهر الماضية موحهاً طعماً الى تلك للملكة القاحلة ولذا لم يمن الجمهور كثيراً بالشئون الخارجية . وعلى كل فالمسألة اليونانية لم تصبح نسبياً منسياً . فاللورد غرانفيل مارال يشد طرف الخيل بمهارة تامة ونحتاج كبير على ما اعتقد والعبء الكؤود طعماً في سبيل التقدم بحاج في هذه للسألة المعقدة هي الدور المحري الذي لعبته فرنسا التي بعد ان هددت وتوعدت



خفت صوتها وبردت حرارتها . وعلى كل فان بشارك قد عمل على أن يتولى الامر بنفسه وذلك بمرض اقترح جديد قد يؤدي الى نتائج حسنة . فأول شرط تتسك به الدول العظمى هو طبعاً الاحتفاظ بالسلام الاوربي فلولا ان نشوب الحرب بين تركيا واليونان يؤدي حتماً الى حدوث القلاقل والقتال في بلغاريا والرومالي الشرقي ولولا أن اليونان لا تستطيع وحدها مكلفة تركيا لكن التمهيد الطبيعي لرفع اليونان نفسها الى صف الدول الاوربية هو الاتجاه الى السيف . فالرومانيون الحديثون ما كانوا لتكون لهم ملوكية متحدة لولا أنهم حاربوا في سبيلها ولا محل لان يشكو اليونان الحديثون اذا رأوا أنفسهم مضطرس لمواجهة أمثال تلك المصاعب والمخاطر . ولكن بصرف النظر عن الحرب التي يلزم أن يخوضها اليونان فان هذه قد أصبحت تحت كف أوروبا فلها الحق في ألا تتفاوض أوروبا عنها الآن . فإذا لم يكن تنفيذ حكم برلين سلباً وهذا يظهر انه مسلم به نظراً لعمل فرنسا — فان المآخذ الوحيد هو إيجاد صفقة معادلة لليونان وأقصد بذلك إعطاؤها تعويضاً في جهة أخرى عما لم تأخذه مثل نسايا واييبروس وهما الاقليتان اللذان قبل أخذهما والذان يمكن الدول فيما يبين مساعدتها على الحصول عليها وربما كان اقترح من هذا القبيل انحرافاً جديداً وأخشى من العلاج الذي تشير به — ولو انه أجمع وأكثر نجاحاً — هو من الشدة بحيث لا تستطيع أوروبا أن تقبله .

ولا اذ كر اتني كتبت في خطابي مايرر كل هذا الحديث الطويل عن اليونان التي لم تهمني بصفة خاصة في ذلك الوقت . وان عبارة الخطاب لتشبه لهجة السمر غلادستون نفسه الى حد اني أظن أنه لا بد أن يكون أملي هذا الخطاب والخطاب الذي سبقه . لهذا رأيت أن أثبتها بنصيحها ونظراً لاسبابه في شرح المصاعب المملوءة بما سياسة اليونان قد لاح لي أنه — اذا حدث عصيان على الحدود اليونانية ربما شجع في الوقت نفسه عصيان العرب في سوريا .

وكانت رحلتنا من الاسماعيلية سارة . فبعد أن عبرنا القارة تطوحنا الى جهة الشرق في طريق نحيط بها الوهاد الرملية الى تل غير مشهور يدعي جبل هلال . وكان هذا الوادي يشه من بعض الوحوه حالة مجد من حيث الزراعة وترتيب

مواقع الرماية فتعرفنا قبيلتي عبيده وطباها والى الشمال من ذلك بقبل نقيلة  
مراين وأيضاً قبيلة العرابعة وأيضاً كنا قاب قوسين أو أدنى من التصادم مع  
مجموعة أعوام وكانت هذه القبائل كلها مستقلة عن تركيا وقتئذ تقيم في الأراضي  
حتى لا صاحب لها التي تكون الحدود بين سورية ومصر . وقد كانت هذه القبائل  
كأحيى العادة دائماً في جهات بلاد العرب المستقلة — في نشاط بعضها مع بعض  
وكانت بينها ثارات الدم ولهذا استمرت الحرب بينها بعضها مع بعض مما سبب  
كثيراً من القتل حتى إلى قرب حدود عزة .

فلما تصعّب الحكومة العثمانية جداً لهذه الاضطرابات لحأت إلى إحدى وسائلها  
للمروعة فأرسلت دعوة إلى زعمي القبيلتين المتنازعتين للاجتماع بمصرف عزة  
اجتماعاً ودياً ثم أمرت بالقاء القبض عليهما غداً وخيانة وقد رجتها في سجن القدس  
كزينة حفظ السلام في الحدود . وفي ذلك الوقت كانت هناك الفوضى الانجليزى  
في تركيا في ادهان العرب فترتب على ذلك أن طلب إلى — نظراً لمعرفة  
الزعميين المذكورين — أن تدخل مع الحكومة لاطلاق سراحهما . فقبلت التدخل  
وأتمهما . ثم استصعبت على الشيخ القائم بشؤون قبيلة طبهاها وهو علي بن عطية  
والابن الصغير لشيخ قبيلة طرايين وقد ركبنا برقتنا إلى القدس فسرنا بطريق  
الليل إلى أن وصلنا القدس دون أن نخرج على مدينة أو قرية في أثناء رحلتنا  
هذه . وفي القدس زرت قنصلنا مور في الحال فحصلت بواسطته على إذن من الباشا  
بزيارة السجن وهناك وجدت الشيخين المطلوبين في طبقة سفلية تحت الأرض بالقرب  
من جامع عمرو . وقد كانا في حالة يرثى لها إذ كانا يشكوان من الامراض والسجن  
الطويل فوسطت لهما عند الحاكم على شرط أن يفرغ السلام بين القبائل . وقد  
تمكنت من جعلهما يوقعان هذا العهد . ولكن المتصرف أعلن أنه ليس في وسعه  
اطلاق سراحهما وإحائي على رئيسه وإلى دمشق فهو الذي يستطيع أن يفعل  
ذلك . فذهبنا إلى دمشق بصحبة علي بن عطية وبصحبة قافلة الجمالين عن طريق  
وادي الأردن وسهل حوران وهي سياحة شاقة ولديئة لأن الأرض نظراً لانتقطاع  
الامطار كانت كحصى عند غاصة بالازهار البهجة .

وفي حوران وجدنا الحرب ناشبة بين الحود العمانية والدروز ولكننا تمكنا من المرور بين الحيشين دون أن يمسنا الضرر ووصلنا الى دمشق حيث التقينا عصا التسيار أمام باب منزل صغير يحتوى على حديقة مساحتها عدان في حي باب توما كنت ابتعته منذ ثلاثة أعوام عند بدء رحلتنا الى نجد .

وكان منزلنا في دمشق ملاصقا لمنزل سيده انجليزية مشهورة تدعى اللادي التيره أو المسز ديجيبي كما تدعى الآن فبعد مخاطرات عرية في الشرق والغرب تزوجت وهي طاعنة في السن من شيخ بلوى من قبيلة عنيزة وأقامت في دمشق مع بعلمها مجبول بعد ان أصبحت لا تحمل متاعب حياتها السابقة في الصحراء . وقد علمنا منها ومن بعلمها المجيد الذي كنا نعرفه جيد المعرفة ان خير وسيلة لاطلاق سراح المعتقلين هي الا نعرض قضيتنا على القصل ولا على الوالي مباشرة بل بطريق غير مباشر على صديقهم الكبير السيد عبد القادر الذي عرفناه في عام ١٨٧٨ والذي كان له اكبر نفوذ في الحكومة في دمشق في كل ما يخص بالعرب . وكان عبد القادر وقتئذ في سن الشيخوخة وكان معتكفا على العادة وكان موضع اجلال جميع سكان المدينة . وكان له بين عرب مورية بصفة خاصة اتباع كثيرون لانه كثيراً ما أظهر انه حاميمهم وحامي مصالحهم . وقد أكد لي مجبول أن المسألة هي مسألة تقود مع الوالي فاذا تعهد السيد بان يفتح باب المفاوضات ويده مبلغ كبير فلن النجاح بمحقق . فذهبت معه ومع علي ابن عطية الي عبد القادر فوجدناه مع ولده الاكبر محمد وهو رجل مستقيم ولده من أم من الجزائر أثناء اقامته في تلك البلاد . فوقضاه علي مهنتا قبل السيد بارتياح أن يتوسط لنا لدى الباشا وأن يحصل الترتيب اللازم لاطلاق السجينين على الشرط المذكور وهو الاحتفاظ بالسلام العام بين القبائل . ثم أعطيته كيساً يحتوي علي ٤٠٠ جنيه فرنسي ( بنتر ) ذهباً فاجبروني أن المبلغ كاف لتحقيق رغبتنا . وكانت الرشوة من الامور العادية بين الموظفين العثمانيين وقتئذ حتى انني لم اشعر لا أنا ولا السيد ولا أى شخص آخر بينما باى تردد في تقديم النقود . وكان المبلغ كبيراً ولكن عطفي كل شديدا نحو السجينين المعتقلين وكنت مصمماً على الا أرسل علي ابن عطية الى القدس الا مصحوباً بامر الافراج عنها . وعلى ذلك

قدمت على هذه التصحية ولكن المفاوضات اُحفظت في ادراك العاية المطلوبة . وبعد بضعة أيام جاءني محمد اس عبد القادر ومعه الكيس دون أن يمس شئ ، وأخبرني أن والده كاهه بأن يلقى نجات الوالي وأسمه على عدم استطاعته فعل هذا المعروف لأنه خارج عن حدود وظيفته . فان المسألة قد أُلغيت الى الاستانة وهناك فقط يمكن تسويتها .

وان عاقبة هذا الحادث البسيط لمدهشة ولها علاقة مباشرة بما وقع في مصر من احوادث في السنة التالية . فعند ان فشلت محاولاتي المحلية عملت بصيغة الوالي كتبت من فوري الى عوشن سفيرنا في الاستانة وعرضت عليه القصة بمخاطبة رايكيا لأريد اهتمهم بالمسئلة اخبرته ان الحكومة الانجليزية قد تحتاج يوماً من الايام الى حماية ضفة قناة السويس الشرقية من المهاجرة اذا نشبت الحرب بين انجلترا وبين احدى الدول الاخرى . فأنشد عوشن — على ما أذكر — بعض الاحراء آت ولما خلفه اللورد دوفرين في منصب السفارة بعد بضعة أسابيع أوصاه عوشن بالاهتمام بالامر . وفي النهاية أحيب طلبي بعد طول الانتظار وافرغ عن الشيخين . على ان اقتراحي بمحصر النبال قد أتم فيما بعد ثمرة من نوع لم أكن أتوقعه أو أربح فيه ذلك لانه لما تقرر في صيف عام ١٨٨٢ ارسال حملة ولسلي تذكر عوشن أو شخص آخر له صلة بالحكومة اقتراحي السالف فتقرر ارسال مندوب سرى لاستعمال اسمي في القائل التي تعرفت بها في جنوبي غزة عرها الى عقد محالف مع القوات الانجليزية ضد الجيش الوطني المصري وكست اذ ذلك كما قالوا « كالباحث عن حقي بطلني » وهذه هي بضعة الملم الشهيرة التي سأنتكلم عنها مامهاب في حينه .

وكانت سورية وحدود بلاد العرب وقتئذ في حالة تخمر سياسي . فقد كان هناك تياران من الشعور بين المسلمين مخصوص الجامعة الاسلامية أحدهما شعور متعصب الديني وهذا كلن مستمداً من السلطان نفسه والآخر شعور الرغبة في الاصلاحات الحرة . وقد قيل لي في دمشق ان الشعور ضد السلطان ضد الادارة الصحابة الفاسدة قد بلغ حداً يصح معه توقع الثورة في أي لحظة وقد حادث محمد

ابن عبد القادر في ذلك الصدد فوجدته هو وأناه متشبهين لطريق الاحرار وانه —  
كثيره من علماء العرب — من انصار فسكر الخلافة اذا كان في الامكن تحقيقها  
وقد خطر لي وقتئذ ان ليس بين العرب من هو احق بهذا القرب من عبد القادر  
نفسه . وعلى ذلك رحوت محمداً ان يستطلع رأى آية في ذلك الصدد ويسأله هل  
يقبل أن يكون رعيه هذه الحركة اذا حدثها  
وقد فعل محمد ما أشرت به عليه وعاد الي بحمل رسالة من والده يقول فيها انه  
برغم شيخوخته التي تحول دون الاشتراك فعلياً في أي حركة من هذا القبيل فان  
أولاده يقولون ذلك وانه لا يمانع في ذكر اسمه كرشح للحلافة اذا طلب اليه هذا  
الترشيح . وعلى كل فان الحركة لا يمكن أن تصادف بمحاذاة المساعدة من الخارج  
فان الحكومة العثمانية قادرة حرياً على كبح جماح القامعين بها وقد تم الاتفاق بيننا  
على أن أبلغ رده بصيغة سرية الى الحكومة الانجليزية واستطلع ماذا تكون خطتها  
اذا حدثت ثورة في سوريا . وهو ما فعلته بالفعل عن طريق الوسيط المعتاد بيني وبين  
مستر غلادستون وهو سكرتيره الخاص هاملتون وقد سألت ما عن نوع المساعدة  
التي يمكن أن يعتمد العرب عليها . وقد اقترحت عدد الاشارة الى خطاب هاملتون  
الذي سبق نشره ان مثل هذه الحركة قد تنظر اليها حكومتنا بعين الارتياح خصوصاً  
بمناسبة المصاعب التي بينها وبين الباب العالي محصوص اليونان . ولكن اهتمام  
غلادستون بالشرق بل بالسياسة الخارجية على العموم كان قد خمد وقتئذ خورداً تاماً  
ولذلك كان جواب هاملتون موحراً ومبسطاً للعرائف . فقد كتب يقول « انني أؤمل  
أن يوجد ما يحول دون وقوع الحرب بين تركيا واليونان واذا ذلك فبستغني عن  
الالتجاء الى مشروعك في سوريا . وكلما أقوه هو انه يحتمل ان توجد حالة كهذه  
وادراك بصبح من اللارم استعمال الوسائل التي تشير بها ولكن هذه الحالة لم توجد  
بعد . ان هذا مهم وغامض ولكن أحشي ألا أستطيع ان أضيق الى ذلك شيئاً

آخره . فلم أحد مناصاً من الكوت على ذلك ولكي بادرت بأبلاغ النتيجة إلى السيد .

ولم يكن لبقية سياحتنا في ذلك الصيف أي غرض سياسي . وقد دررنا أصدقاؤنا من آل عبيدة مرة أخرى فوجدناهم ضارين خيامهم بالقرب من الميرا ولكن معاملتنا معهم انقضت على شراء الخيول ولم تكن هذه القبيلة تعاضاً بالسياسة فيما يخرج عن دائرة الصحراء . وكذلك كانت عايتها بالمسائل الدينية قليلة . والواقع ان الانسان لا يستطيع على وجه التقريب ان يسميهم مسلمين فانهم لا يصومون ولا يصلون ولا يؤدون أي فرض من الفروض الدينية الاسلامية . وكل ما يربطهم بالاسلام هو أنهم لا يزالون متمسكين بتقاليد الصحراء . وهي التقاليد التي بدت عليها الشريعة ولكنهم لا يعرفون من عقائد الاسلام الا التوحيد أما الرسل والاولياء . والقرآن فذلك ما لا يعرفونه وكذلك لا يعرفون شيئاً عن الدار الآخرة . وقد سمحنا معهم الى أقصى حدودهم المالية حتى وحدنا أنفسنا في حلب في أول حرارة الصيف ومنها عدنا سريعاً الى إنجلترا (١) .

(١) مما يخلق بالذكر بهذه المناسبة اننا تعرفنا في حلب بضابطين بريطانيين لعبا ضد ذلك دوراً كبيراً في الشؤون المصرية وحرب السودان أحدهما الكولونيل سيوات الذي اشترك مع غوردون في الدفاع عن الخرطوم ضد حملات المهدي . والثاني الكولونيل السير شارل ولسن الذي قاد القوات البريطانية في الثامنة بعد واقعة أبركيلة . وقد ساح سيوات بأعماله في ذلك الصيف بين بدو عبيدة وشمر ولكنه لم يستطع أن يتفاهم معهم وهذا راجع في الحقيقة الى خلوه من العطف على الشرقيين . أما ولسن الذي كان أوسم منه رأياً فقد صحبنا في سياحة العودة حتى أزمير التي وصلناها وقت القبض على مدحت باشا . وكان كلاهما في ذلك الحين قصلاً منفلاً لبريطانيا في تركية آسيا من النوع الذي نصت عليه معاهدة قبرص

## الفصل السادس

### مقدمات الثورة المصرية

قضيت صيف سنة ١٨٨١ كله في « كرايت » أكتب الكتاب الذى كان ثمرة تجارب الشتاء وهو كتاب « مستقبل الاسلام » وقد رصعته في مجلة وأحوال لا تساعد على دقة الحكم فقد ازدحت على الحوادث أثر الحوادث خلال كتابته حتى شق على أن أضغ نبوة هادئة عن مصير الاسلام يد اى اعتبر هذا الكتاب مؤلفاً جدياً رغم ما فيه من نقائص واداء لم تكن له أهمية تاريخية فلا أقل من أنه تصور آمال المسلمين ومحاذفهم في الوقت الذى كتب فيه. وقد دافعتى هذا الكتاب بلا تحفظ عن قضية الاسلام باعتبارها قضية ارضه الخير على شطر كبير من الارض وهي قضية يحب على كل محب للانسانية أن يشجعها لا أن يضعها. وبنيت أصل الاسلام ومعاخره ودهوره الظاهري الشبه بالتدهور الذي خيل للبأس أنه استولى على المسيحية منذ أربعمائة عام والذى قد تلافه الاسلام كما تلافه المسيحية بالاصلاح الدينى ونحرر أفكارها من قيود التقاليد الصيقة التى وقفت نظورها وعرفت تقدمها. وقد شرحت الآراء كما تطفها من الشيخ محمد عبده أستاذ المدرسة الحديثة الحرة وتوسلت الى مواطن بكل ما فهم من خير أن يعطوا على آمال أحرار المسلمين ويؤيدوم ضد الرحمين ذوى المكائد والتعصب الأعمى والذين يلجأون فى آخر الأمر الى حل مشكلاتهم الاصلاحية بحمد السيوف. وقد خاطبت إنجلترا بصفة خاصة اذ كنت أعرف ان صاحبة الهد لا بد أن تهتم كثيراً بمستقبل الاسلام طالبا أن تكون ذا سيادة نشطة مصادقة لافضل عناصر الافكار الشرقية في مكلفها أسوأ ما فيها من العاصر وألا تقتصر على الاستفادة من حالة الاضطراب لتوسيم ماضيها المادية وقلت « ان النقطة الرئيسية هي أن تنى إنجلترا بحق الأمانة التى حملها » باعتبارها وارة الامبراطورية المفولية وبحق علاقتها القديمة بالشؤون العثمانية « وهى أمانة رقية عاصر الخير الشرقية لاهدتها ان

أنجلترا لاتستطيع أن تهزم الاسلام ولا أن قطع علاقتها به لذلك يجب عليها بحق حائق الكون أن تأخذ بيد الاسلام وتعينه علي السير في طريق الفضيلة . هذه هي الحطة الحكيمة الخليفة بأنجلترا وهي لعمرى أشرف وأحكم من حرب صليبية تستغرق قرناً بتمامه .

وقد نشرت هذا الكتاب فصولاً شهيرة في مجلة « فورتيلي ريفو » فأحدث تأثيراً كبيراً في إنجلترا وبين قراء الانجليزية في المهد وترجمت أكثر الفصول الى العربية في مصر وكان طاهراً في الوقت الذي كتبت فيه أن حوادث خطيرة توشك أن تحدث في الشرق بل أنها أخذت تحدث بالفعل . فقد بكرت الحكومة الفرنسية في مايو الى عرونة تونس بغزو تنبيه أو امداد تمهيداً للاتفاقية السرية التي عقدت قبل ذلك بثلاث سنوات بين وارمجتون ووزارة الخارجية الانجليزية واحتلت نصب تونس لغربي بحجة حماية الباي من الخطر الذي يهدده به رعاياه — وهو خطر وهي — وأعلنت الحماية الفرنسية . ولم تكن في حالة الخار الذي هجم عليه هكذا عدداً ما يبرر هذا المهوم كسوء الحكم أو الخطر علي الاوروبيين أو حتي الصيغ المالي . وكان الباي نفسه رجلاً طيباً يحترم الشخصية ولم يأت بأي شيء يفقده حسن نية الشعب محوه فكلن اعتقاله بواسطة الجنرال « بربرت » واغتصاب سلطته بواسطة الجمهورية الفرنسية من الاعتداءات المصنوعة الظير حتي بين ما حدث من الاعتداءات علي الامم الضعيفة في عصرنا الحاضر اذا استثنينا اعتداءات بونابارت علي مصر سنة ١٧٩٩ . وكان لهذا الاعتداء أسوأ وقع في إنجلترا حيث كان الناس في جبل باتفاقية برلين السرية . أما في العالم الاسلامي فقد أوقد نار الغضب والاشتمزاز الذي أخذ يعظم حين افترض السوء .

ولم يكذب أهل تونس العربية يطلقون ناراً علي الفرنسيين لغزو ما لجأهم هؤلاء بالاعتداء واضطر الباي الى توقيع معاهدة قدمت له علي ذبابة السيف بواسطة الجنرال « بربرت » فكلمات الفجة أن قدمت تونس استقلالها قبل أن تعرف أن هي . ولكن أهل الشطر الشرقي من تونس نفروا الى أسلحتهم وقبل أن يتعصب الضيف تحت الثورة صحاوي اخرائر وطني موح الغضب علي الصراينة



الى الشرق وبدأ يؤثر تأثيراً خطيراً في مصر كما سأيس بعد كما أنه حيز المصلحين فيها الى الجدل في حركتهم وحمل جيشها على المطالبة بالحكومة الذاتية .

وبما يخلق بالذكر لاثبات اشتراك الحكومة الانجليزية في هذا الشأن العاضح أن لورد جرانفيل سمح لنفسه أن يكتبي بوعده بسيط من الحكومة الفرنسية بأن الاحتلال مؤقت لاعادة النظام على الرغم من أن السلام لم يكن قط مهدداً وبأن الاحتلال لا يستمر يوماً واحداً مما يتلزمه توطيد حكومة الباي . وهذه خطة زور قلدها لورد جرانفيل بكل دقة بعد ذلك بنة واحدة حين انعكس موقفا فرنسا وانجلترا في مصر . كذلك يستحق الذكر أنه مع أن البرلمان البريطاني كان معقوداً لرم لورد سلسبري رعيم المعارضة حانب الصمت المطبق فيما يتعلق بتومس على الرغم من أن أتباعه الدين لم يعرفوا شيئاً من سر المألة أقاموا ضجه كبرى طالين الشرح والبيان . كذلك سكت بيلارك في برلين ولم تبد أي دولة من الدول التي كانت ممثلة في مؤتمر برلين أي اعتراض وان كان الشعب الايطالي قد استاء كثيراً من فعل الحكومة الفرنسية . أما السلطان فقد نشر احتجاجه إذ كانت تونس جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وقبلت أوروبا الحالة كحقيقة واقعة .

ووجب على أن أقص تاريخ الحركة التي عرفت في صيف سنة ١٨٨١ باسم النهضة الوطنية المصرية . ويرجع أصل هذه الحركة الى الحقيقة الى مجاهدة اسماعيل حين وقع الخلاف بينه وبين ولسن واجتهد اسماعيل أن يحتفظ بسلطته ضد الوصاية التنصيلية التي أوقعه فيها سوء تصرفه ودبوه . وقد أراد اسماعيل أن يتردد مركزه الادبي الذي كان قد قدده ويستعيد حسن ظن رعاياه بشعر نداء عام يطلب فيه تأييدهم ومن ثم أعلن في ربيع سنة ١٨٧٩ عزمه على دعوة جمعية من الوجهاء . ولم يكن شك في أنه يريد أن يرفض جزءاً من الدين على الأقل مستتراً بالرأى المصرى العام . ومع أنه لم يعتقد فيه الاخلاص يومئذ الا بضعه من الاوربيين القسيسين في مصر فان فكرة معاملة السيئات التي كابدها الالهون بادخال نظم الحكم النيابي أخفقت نشج وتناصل في القاهرة من ذلك الحين . وكان الشيخ جمال الدين وتلاميذه قد حكموا بان اسناد أمراء المسلمين الآخذ في الريادة محالب لتعاليم الاسلام الذي

هو في الحقيقة جمهورية اسكل مسلم فيها حق الخطاة في مجتمعاتها كما أن سلطة اها ك  
 فيها لا تعتمد الا على حسن قيامه بتنفيذ الشريعة وبيعة الناس وقد طعن علماء الازهر  
 على اسماعيل فقالوا أنه امتد على القانون وطالم سياسى . وكثيراً ما تباحثوا سرّاً و  
 ربيع سنة ١٨٧٩ عر كفية عزله والوسائل التي تمكن من ذلك أو حتي من التخلص  
 منه بالاعتقال . وعدى أن شعور اسماعيل بالخطر المردوج الذي يهدده من الخارج وفي  
 مصر ذاتها من ناحية آراء الازهريين هو الذي حمله على الطهور بالمظهر الدستوري . وهنا  
 يجب أن نذكر أن الآراء الدستورية لم تكن سائدة في مصر فقط في ذلك الحين بل كانت  
 سائدة كذلك في الاسنامة وكان السلطان قد استدعى الجمعية قبل ذلك بخمسة أعوام  
 لذلك لم يكن المصلحين مد من المواضعة على حركة اسماعيل معها تكن تقهّم فيه  
 قلبية ومن ثم أحدوا بشرحون هذه الحركة على صفحات الصحف اللاني اشش في  
 مصر تحت اشراهم . وكان الآر بين الموظفين عدد عبر قليل يميل الى الطام  
 الدستوري ومن بينهم شريف ناشا وعلى مبارك ناشا ومحمود ناشا . امى البارودي .  
 ولم يقف الامر عند هذا الحد . فقد وقع وارث الخديوية محمد توفيق تحت نفوذ جمال  
 لديس القوى وصار هذا صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدهم مرة بعد أخرى بأنه  
 متى وصل الى العرش سوف لا يبعد شعرة عن حادة الحكم الدستوري . وقد كان  
 توفيق وشريف الدستوريان عصوين في ودارة اسماعيل الاخيرة التي عمرت ثلاثة  
 أشهر وكانت مقاليد الادارة في أيديهما حين عزل اسماعيل .

وعلى هذا ربح جمال الدين والمصلحون بلوتقا . توفيق منفضة العرش واعتبروه  
 دليلا على حسن الطامع . ومع أنهم أسفوا لان المصريين أنفسهم لم يستطيعوا خلع  
 سلطانهم فقد تطلعوا الى العصر الجديد بثقة الرجال الذين حطوا خطوة في سبيل  
 تحقيق أمانيهم . ولكن الخديو لم يلبث أن غير رأيه حين تسلم مقاليد السلطة ، شأنه  
 في ذلك شأن غيره من أولياء العمود ولم يمض شهر حتى نسى وعوده وغدر باصدقائه .  
 وقد كان توفيق صعباً . وكان قد ولدته لاسماعيل احدى سراريه فلم يعامله اسماعيل  
 المعاملة الخليفة بولي العهد كما ان والدته كانت تتركه في خوف مستمر من صولة والده  
 فلم تربطه بهذا الوالد راسطة الاحلاص والتقرب . وكانت نشأته بين سيدات الحرم

أكثر مما هي بين الرجال فتشاً صميحاً لا يسهه الا الادعان لاية ارادة أقوى من ارادته ولكنه يسعى بعد ذلك لتعيد ما يريد بالطرق الحفية . ومن ثم كان شديد العبرة محباً لحوادث الانتقام الصغيرة . أما فيما يختص بحياته المدنية فكان مستقيماً بالقياس الى أسلافه ولم يكن كذلك حلولاً من كثير من المضائل الكريمة ، وكانت سلبية أخلاقه تجعله خطراً كبيراً على أولئك الذين قد لهم أن يتعاملوا معه . وكان همه الاول أن يخفي الحقيقة ويلقى على الغير نبعة المثل الذي يكون قد حدث لمخطئه . وكذلك لم يكن بفضه لشيء . يظهر برصه اياه صراحة ولكن باصطفاق الاقاويل والوقية والتفريق حيث يريد أن يسود ويتنعم وقد ذكر عنه أنه لم يخلص لشيء قط وأنه لم يثق به أحد الا غدر به .

فلما ارتقى توفيق العرش ووجد نفسه بين قوتين متناقضتي الغرض - قوة أصدقائه المصلحين الذين أحضوا بحشوه على الوفاء بعهوده الدستورية وقوة القناصل التي منعتها أن ينزل عن شيء من سلطته التي كانوا يريدون أن يستعملوها باسمه أدع عن أولاً لاقتراح وزيره شريف بأن يصدر منشوراً يسمح به دستوراً ولكنه أبى بما على إشارة القناصل أن يوقع المنشور . وقد أفضى هذا الى استقالة شريف باشا فحل محله رياض باشا الذي رشحه القناصل لذلك والذي كانوا يعتمدون عليه في تعمد آرائهم الخاصة بالاصلاح الدستوري في الوقت الذي يتستح فيه بالسلطة المطلقة طبقاً لمنشور سنة ١٨٧٨ ويتصرف في شؤون الادارة كيف يشاء باسم الحديو وبغير رقابة من أي مجلس أو جمعية .

وقد كان الصعب الذي أظهره توفيق في هذا الشأن وهو أول شأن مهم عرض له في حكمه سبب كل ما أصابه بعد ذلك من المتاعب . ولو أنه وفي بعهوده للمصلحين ولوزرائه واستدعى مجلس الاعيان ليق رعاياه موافق له ولما كان قد وجد محل للدسائس التي راجت سوقها في المعادين التاليين والتي مهدت السيل لثورة سنة ١٨٨٢ أما والحال كما هي فقد وجد نفسه بعد ما أطلع القناصل مجرداً من السلطة وصار القناصل والوزراء يعاملونه كأنه دمية .

وقد احتل الناس في الحكم على رياض . وقد كان الوطنيون شديدي الحكم

عليه حين زارت مصر في خريف سنة ١٨٨١ وكانوا يحملونه تبعه احرآآت الصنف التي اتخذت ولكي أعتمد الآن ان التبعة كلها لم تكن واقعة عليه وكان رياض باشا من رجال العهد القديم ولم يكن يثق الا بأشد أنواع الحكم اطلاقا وقد أدار الادارة بالطرق التي كانت متبعة في عهد اسماعيل أي بالباسوسية وقوة البوليس والاعتقال والسبي . على أنه لم يكن ظالماً أو واثياً بالطبع وعندى أنه كان محوطاً في كل أعماله بضرب من الشعور الوطنى . وكانت فكرته في حكم مصر طوعاً لا مكره في فرنسا وانجلترا وعلى دعم الشعب تنحصر كما أكد لي في دغبة انتقاد مصر من مصاعبها المالية ووقاها بالديون ومن ثم التخلص بأسرع ما يمكن من كل تداخل أجنبي . وليس هناك شك في أنه بذل في السنة الاولى من حكمه جهداً عظيماً لتخليص الفلاحين من أتعالم المالية . ولكن الوفاء بالديون عملية طويلة بطيئة وليس بم دليل على أنه كان يمكنه أن يحج في تحريرها من الوصاية التي ضرت عليها أوحى تخليص الناس من أقطع ما حاق بهم من سينات الادارة . والواقع أن المراقبة الشائبة التي خدما رياض لم تكن إلا بالنسالة المالية طارحة كل ما عداها في زاوية الاهمال . وقد كان الفلاحون لا يزالون يحكمون بالكرباج . وكانت الحكام يؤرأ للفساد والملاك المدينين يمحسرون بملكهم للدائنين وكانت سلاسل الآراك والحركس لا تزالان تسودان البلاد .

ولم تتم الحكومة بأي تحسين أدبي ولا هي حسنت حتى نظم الادارة . وقد كان هذا موضع ضعف الحكم الإنجليزي الفرنسي وسبب فقله في ارضاء الناس . ومع ذلك يجوز أن نقاسم أن لم يكن بد من أن تأتي الازمة بالسرعة التي جاءت بها لو أن الخديو كل محلاً لوزيره ممنعاً عن الدس له ، ولكن هكذا كان طبع توفيق كما أسلفت - فهو ينحصر ظاهراً للضغط ولكن يحاول تحقيق غرضه بوسائل أخرى لذلك أخذ يديس لرياض من أول الامر وكان غيوراً من سلطته ناقساً عليه القوة التي منحها له . هذا هو التاريخ الصحيح لسلسلة الاوقات التي مرت فيها مصر سنة ١٨٨١ بما فيها القلاقل العسكرية التي انتهت بسقوط رياض من دست الوزارة . ان تدخل الجيش في شتاء ١٨٨٠ - ١٨٨١ كقوة سياسية في مصر له أهمية

كبيرة تستدعى الحال شرحه شرحا وافيا . وقد كلف هذا الجيش عاملا من عوامل الاستياء منذ حلت به الهزيمة في الحش وقصت على سمعة الخديو رد على ذلك ان الصعوبات المالية جعلت دفع المرتبات عسيرا وغير منتظم . وكان الخنود العائدون من الحرب قد استحقوا تقواهم الذين برهنوا على قوة كفائهم واشترك معهم أكثر الضباط الصغار في عواطف الاستعفاء والاستياء . وقد ساعد على ذلك ان مناصب الجيش العليا كانت مفضرة على الخراكة الذين يتكلمون اللغة التركية فهذه الطبقة احتكرت السلطة . أما الخنود والضباط الي رتبة يورناشي فقد كانوا من العلاحين . وقد اشدت الشعور بكرهه الطبقات حين حرم هؤلاء من مرتباتهم في الوقت الذي كان الروس الحراكة يستولون على مرتباتهم الكبيرة غير منقوصة . وعلي ذلك كان الخنود وصغار الضباط شاطرون الشعب استياءه في الثلاث سنوات الاخيرة في حكم اسمعيل وحدث كثير من المؤامرات التي لم تفلح ابداً بين صغار الضباط الذين وصلوا في وقت من الاوقات الى الشروع في استخدام القوة . وكان بين زعماء هذه الحركة منذ سنة ١٨٦٧ احمد بك عرابي الذي خولته رتبته - بكياشي - وهي رتبة قلما شغلها مصري - نفوذاً قوياً استثنائياً على مواطنيه . وأحسب ان المسكن هنا يتسع لكثافة شيء ، عن هذا الرجل الشهير .

ولد عرابي سنة ١٨٤٠ وهو ابن شيخ صغير في احدى القرى بملك غامية فدايس ونصف فدان في « هرية » القرية من الزقاريق حيث نشأت أسرته منذ زمن بعيد وكان لها احترام خاص شبه ديني وقد دعم كثيره من الشيوخ ان دماء السادة « سلالة النبي » تجري في عروقه أما عدا ذلك فهو فلاح فق ولكن هذه السيادة رقت قدره علي حبرانه العلاحين ولا أدري ما هو مبلغ الصحة في زعمه هذا وقد اختلف الناس فيه ولكنني أعرف انه حل الاسرة على العنابة بالترية الدينية التي لا يمكن تحصيلها في قري الوجه البحري ومن ثم أرسل عرابي في شبابه كما أرسل والده الى مصر ومكث عامين يدرس في الازهر .

وقد اقترح في الرابعة عشر من عمره وأخذ حديدا ولما كان شائنا طويلا القامة باكر النمو وكان سعيد باشا قد وضع مشروعا لتدريب أبناء مشايخ القرى ليكونوا

ضباطاً فقد مرق في الرتب الصغرى بسرعة وصار ملازماً في السابعة عشر ثم يوزباشياً في الثامنة عشر وصاعداً في التاسعة عشر وبكباشياً في العشرس. وقد حدث هذا الترقى السريع المعلوم النظير بالنسبة لآباء الفلاحين تحت حماية القائد الفرنسى الذى كان يصل تحت امرته وهو سليمان باشا الفرنساوى ولكن العصل الحقيقى فيه يرجع لرغبة سعيد باشا الذى اراد أن يكون مصرياً كرعاباه لافرداً من جماعة الأتراك ورغب كذلك فى أن يكون محاطاً بالضباط المصريين . وقد حظي عرابى الذى كان وسياً ووجيهاً برضائه حتى سمي أركان حرب له ورافق سعيد الى المدينة فى السنة التى سبقت وفاته. وعندى أن عرابى كونه آراء السياسة الاولى أثناء حديثه مع سيده فى هذه السفرة التى كانا فيها متلازمين وتحتصر هذه الآراء فى المساواة بين الطبقات وفى الاحترام الواجب للفلاح باعتبارهم الضمير الاساسى للمجدى الجيش المصرى . وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى ميز عرابى على مصلحي ذلك العصر . وغنى عن البيان أن حركة الإصلاح الازهرية كانت تشمل المسلمين ولا تميز بين الاحناس . أما حركة عرابى فكانت قومية ولذلك كانت الوطنية فيها أظهر واقبال الناس عليها أقوى وأكثر .

وكانت وفاة سعيد الفجائية ضربة شديدة على آمال تالعه عرابى فقد زالت الخطوة عن الضباط الفلاحين فى عهد اسمعيل وأعطى التفضيل كله للجراكسة وقد وجد عرابى أن هؤلاء يعاملونه بازدراء ثم أعطيت له مهمات ثابوية فى مصلحة النقل وفى المناصب المدنية فأدى هذا الى انضمامه للتذمرين وإلى تقاينه فى الدفاع عن حقوق طبقته . ولكن عرابى فصيحاً قادراً على شرح آرائه باللغة التى يفهمها مواطنوه وبمحبوبتها . نعم أنها ليست لغة صحيحة ولكنها حافلة بالمجازات محلاة بالقتبسات من القرآن وكان قد استمادها من دروسه فى الازهر . ومن ثم كان له نفوذ كبير عن الذين اتصل بهم .

وفى هذه الاثناء امتزج عرابى بكثير من الاوربيين ولا سيما فى الاسكندرية التى كان قد أرسل اليها بمأمورية رسمية غير عسكرية خاصة بدائرة الحدود وكانت علاقته بهؤلاء الاوربيين ودية وقد ظل عرابى الى اللحظة الاحيرة مجرداً من كل

شائبة من النقص فيما يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدبيره فمع أنه كان شديد المحافظة على مروه الدينية كان كذلك من أحرار المسلمين ثم أنه كان محباً للاساية في آرائه الخاصة بأحوال الام وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابي في الحرب الحبشية ولكن في خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كسفر زملائه ساخطاً على ما حدث فيها من سوء التصرف . وإلى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة وتعاظم غيظه الذي كان موحهاً بعد ذلك نحو الحديرو . وقد راد هذا الغيظ حين اعتقل هو والضابط الفلاح على بك الزوى نهمة كاذبة هي ان لها علاقة بالمهجوم على نوبار وهي متاوره قام بها اسماعيل ليسر وراءه . دوره الداني . وبعد الافراج عنه اشترك آونة مع بعض الصباط في مشروع لم ينجح وكان مؤداه خلخ الحديرو والراجح ان هذا الخلخ كذا يتم حتى لو لم تتدخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاعتقال ونفي عن البيان ان هذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هناك شك في أن حرب المصلحين والعلايين قد سرهم سقوط اسماعيل .

ومن الخطأ أن يظن أحد أن عرابي كان معادياً من أول الامر للحكم الحديرو ولم يكن بينه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حرازة بل كان يرى على عكس هذا نفوذاً ودياً صالحاً كما كان يرى في القناصل حماة للعلايين من ظلامهم القديما . رد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام في أحب الامكنة اليه أي في ثكنات العباسية . ولو أن مظالم الجنود الحقيقية عولجت شيء من الحدق والاعتدال وعين وزير للحرب عبر معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يشور عرابي ولا غيره في وحه الحكومة . ولكنه أرغم على الدفاع عن نفسه ولثيرة الحديرو توفيق من سلطة وزيره رياض شأن كبير في هذا .

وقد وقعت القلائل على النحو الآتي : لما أتمت وزارة رياض باشا عين عثمان رفيق باشا وهو ضابط مركبي من الطراز القديم لورادة الحرب . وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التي ظلت قروناً طويلة تنظر الى مصر كهيبة خاصة وتنظر الى الفلاحين كمبيدها وخدمها فكان ملكه بالنسبة للضباط العلايين ملكاً عادانياً من

شأنه من التعصب فيما يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدينه فمع أنه كان شديد المحافظة على فروضه الدينية كان كذلك من أحرار المسلمين ثم انه كان محباً للاساية في آرائه الخاصة باخاء الامم وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابي في الحرب الحبشية ولكن في خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كثر زملائه ساخطاً على ما حدث فيها من سوء التصرف . وإلى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة وتعاظم غيظه الذي كان موحهاً بعد ذلك بحو الخديو . وقد زاد هذا القبط حين اعتقل هو والضابط الملاح على بك الروي نهمه كاذبة هي ان لها علاقة بالمهجوم على توبار وهي متاوره قام بها اسماعيل ليسر وراه . دوره الداني . وبعد الافراج عنه اشترك آونة مع بعض الضباط في مشروع لم يحجج وكل مؤذاه خلع الخديو والراجح ان هذا الخلع كاد يتم حتى لو لم تتدخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاعتقال وعني عن البيان ان هذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هناك شك في أن حرب المصلحين والفلاحين قد سرهم سقوط اسماعيل .

ومن الخطأ أن يطل أحد أن عرابي كان معادياً من أول الامر للحكم الجديد فلم يكن يبه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حرازة بل كان يرى على عكس هذا معوذاً ودياً صالحاً كما كان يرى في القناصل حماة للفلاحين من ظلامهم القديما . رد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام في أحب الامكنة اليه أي في ثكنات العباسية . ولو أن مطالع الخنود الحقيقية عولحت شيء من الحذق والاعتدال وعين وزير للحرب غير معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يثور عرابي ولا غيره في وجه الحكومة . لكنه أرغم على الدفاع عن نفسه ولغيره الخديو توفيق من سلطة وزيره وياض شأن كبير في هذا .

وقد وقعت القلاقل على النحو الآتي : لما ألفت وزارة رياض باشا عين عثمان رفيق باشا وهو ضابط تركي من الطراز القديم لورادة الحرب وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التي طلعت قروناً طويلة تنظر الى مصر كهيعة حامية وتنظر الى املاحين كمبيدها وخدمها فكان ملكه بالنسبة للضباط الفلاحين مسلكتاً عادياً من



أول الامر وقد أعطي التفضيل للحرا كسة لا للفلاحين في جميع التعمينات والترقيات التي حدثت في عهده . وساء الجنود أنهم كانوا يكفون ماداء معات غير واحباهم الرسمية ثم أنهم كانوا معرضين لصروب شتى من الاشغال الشاقة كحفر الترع ومباشرة الاعمال الزراعية في أراضي الحديو ، وكانوا قد فقدوا طبيعة الحال عادة الاشتغال بالزراعة .

فلما وقف عرابي في جانب رحاله وأن أن يسمح بتشغيلهم في حمر التربة التوفيقية غضب عليه وريز الخرب وكانت هلك مسألة مرتبات سمعت فرفع عنها الضباط العلاحون مذكرة ٢٠ مايو ١٨٨٠ وكان عرابي واحداً من هؤلاء الضباط . ولم يكن في المذكرة شيء سياسي وقد رفعت بالطريقة القابولية الي وزارة الحرب فتدخل اتصالاً انجلترا وفرنسا وانفتحت لجنة التحقيق فأقرت اللحة مطالب الضباط . وقد انتصر الميورنح قصل فرنسا في هذه المسألة للضباط واستمر على حمايتهم من ذلك العهد الى حد ما خصوصاً اذ قد شجر بينه وبين رياض خلاف أثناء التحقيق . ومع ان عرابي كان يقوم في هذا كله بصيب كبير قد كان متبصراً معتدلاً وقد أرضي القناصل بذلك . وكان قد جدد الصداقة مع زعماء الاصلاح في الارمر منذ عاد الى القاهرة وقلد قيادة الكتبة الرابعة ثم انه كان متصلاً بواسطة زميله علي بك الروي بوربرين أحدهما علي باشا مبارك والثاني محمود بك سامي البارودي . وكان هذان علي رغم ما عرفا به من الميول الدستورية والتبعة لشريف قد احتفظا بوزارتيهما بعد سقوطه فكان الاول وزيراً للاعمال والثاني وزيراً للاوقاف .

وإذ بلغت الاحوال الى هذا المأرق رأى الحديو فيها فرصة سانحة للدرس ضد رياض فانصل بالصباط بواسطة أركان حربه على بك ضمي وهو صابط فلاح ولكنه اتصل بالقصر بواسطة زوجته الحركية الاصل وعين قائداً للكتبة الحرس الاول . وكان هذا الضابط رجلاً فاضلاً . ومع انه لم يوقع المذكرة التي أرسلها الضباط الي وزارة الحرب ولم تكن له آراء سياسية قد كانت صله بعرابي واحوانه ودية ولم يحد صعوبة في اقناعهم بان الحديو هو أيضاً في حانهم وانه أرسله خصيصاً لاثذارم نان رياصاً ورفقته يدبرون لهم تدبيرات سيئة وان الخطر سيظل يهدقهم أو يستقيل هذان

الوربران ، وقد سهل اقناع عرابي بذلك لان رياضاً كان الى ذلك الحين قد اعتقل كثيراً من المطالبين بالاصلاح الدستوري ومن بينهم كثير من أصدقائه . وكان الشيخ جمال الدين قد انتهى أمره بسرعة ونفي شاب من ذوى الاملاك في الشرقية يدعي حسن موسي العقاد منذ مدة قصيرة الى البيل الابيض لا شيء . الا لانه طعن على قانون المقابلة الذي كان الحديو اسماعيل قد أصدره وكان طعنه هذا رداً على خطاب نشره رفرز ولسن ومن ثم اقترح على الضباط أن يسبقوا عثمان رفقى فيطلقوا رفقته وان الحديو ينظر في مثل هذا الطلب بعين الرضا .

وقد انتهت المسألة الى أزمة في أواخر سنة ١٨٨٠ حين علم عرابي ذات مساء . وهو مع الضباط في منزل نجم الدين باشا أن الوزارة قررت حرمانه هو ورفيقه القائم عبد العال بك حلبي قائد الكتبة السودانية من مناصبهما ورفقتهما من الخدمة . وقد عي اليه في الوقت نفسه أن على بك فهمي هذا في منزله ويريد أن يراه ، فذهب الي داره فوجد فيها علي بك في انتظاره ومعه عبد العال حلبي الذي أ كدله صحة ما بلغه من الأنباء . وبعد أن تشاور الثلاثة — لان علي فهمي كان قد قرر الاشتراك معهم — قرروا أن يذهبوا الي رئيس الوزارة ويطلبوا منه أن يضع حداً لما يصيبهم من اضطهاد عثمان رفقى بعزله . وقد فعلوا هذا في اليوم الثاني .

وقد قص علي عرابي نفسه ما حدث في هذا اللقاء ولا شبهة عدى في صحته قال : ذهبنا بالعريضة الي وزارة الداخلية وطلبنا مقابلة رياض . أخذنا الي غرفة خارجية وانتظرنا ريثما يقرأ الوزير عريضتنا في حجرته . ثم خرج الوربر وقال لنا « ان عريضتكم مهلكة . فعي مسألة شتى . ماذا تريدون ؟ تريدون تغيير الوزارة . فماذا نضعون في محلها . من الذين نطلبون أن يديروا الحكومة ؟ » قال عرابي فأجبتة قائلاً : ولكن يا سعادة الباشا هل مصر امرأة لم تنجب الانماية أبناء ثم ابتليت بالمقم . وقد أشرت بذلك اليه هو والسبعة الوزراء فغضب جداً من ذلك ولكنه قال في النهاية أنه سيطر في المسألة . وهكذا تركناه .

وقد لعب الحديو دوراً . غادروا في مجلس الوزراء الذي عقد بعد هذا الحادث مباشرة ضد اقترح اعتقال الضباط ومحاكمتهم رغبة منه في توريث الوزارة اذ كان يعلم

في السيد دي ريج القنصل الفرنسي سيتدخل لحماية الضباط . ولم يكن عثمان رقيقاً ونحس هذا الاقتراح الذي يقضى الى محاكمته هو أيضاً بطبيعة الحال كما أن رياضاً لم يكن يريد أن تفتضح المسألة علناً وبذلك وقف في جانب الضباط . على انه قد أوعز لرياض سرّاً أن موقفه قد بسا ، تأويله فتعتبر معارضة تقصاً في اخلاصه للخديو فحسب معارضته واتفق في آخر الامر على أن يترك أمر الضباط لعثمان رقيقاً للتصرف فيه بالطرق التي كانت متبعة في عهد اسماعيل . لذلك لم يعمل شيء علناً ضد الضباط ولم يحصل مجلس الوزراء في سألهم بقرار .

أما ما تلا ذلك فمعروف . فقد دعي أصحاب المريضة الثلاثة بعد بضعة أيام الى قصر الليل ليتنقوا مع وزير الحرب على الادوار التي تشعلها كتابتهم في الاحتفال بتأهيل الاميرة جميلة . فلما وصلوا هناك وحدوا كثيراً من رؤسائهم الضباط الحراكسة مع عثمان رقيق ولم يمض على وصولهم لحظة حتى اعتقلوا وأهينوا . وقد تمك عرابي الى آخر الامر بأن المراد كن وصعهم في باخرة نيلية رابطة بحوار القصر والصعود بهم في الليل واغراقهم وليس ثمة ما يحمل على الشك في صحة ذلك . فقد كان كل غرض عثمان رقيق أن يتجنب محادثة قد تفضح ظله . ولو أنهم وضعوا في الباحرة وأقلعت بهم لاعلن حالاً أن هؤلاء الضباط رفقوا وأرسلوا الى بلادهم . ومهما يكن من ذلك فقد أقدم جنود كتيبة على بك فهمي في الحمال وقد زحفوا على القصر وفتحوا بالقوة أبوابه بقيادة الصاع محمد عبيد وهو رجل طيب مخلص قتل بعد ذلك في معركة التل الكبير . وقد قهرت القوات الحراكسة بعد ذلك وأرغم عثمان رقيق على الفرار من نافذة الدور الارضي ثم سار الضباط الثلاثة في طليعة جنودهم ووسط قرع الطبلات الى ثكناتهم . وهناك وضعوا خطاباً دونوا فيه ما حدث وقالوا انهم فعلوا ما فعلوا دفاعاً عن أنفسهم ولم يرقعوا سلامة أى انسان في خطر ثم أرسلوا الخطاب الى السيد دي ريج طالبين توسطه لدى الخديو في عزل عثمان رقيق وتعيين وزير آخر في محله وقد قبل الخديو ذلك في الحال . ولا شك في أن السيد دي رنج والخديو اجتهدا كذلك في حلع رياض باعتباره رئيس الوزارة هو أول مسئول عما حدث من الاضطراب ولكن رياض كلن مؤيداً من جانب المراقبين المبالغين

ومن جانب القنصل الألماني بل من جانب ماليت على ما أنظر وكان هذا كما أسلفت غير راض عن الضابط فلما رفعت المسألة إلى حكومتى باريس ولندن لم تحملا رغبة الخديو ولم يمض وقت قصير حتى استدعي السيد دى رنخ إلى فرنسا لتعزى في أديال الحية. وقد حدث هذا الاضطراب العسكرى في قصر النيل يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ وحدث بينما كنت لا أزال في مصر ولكي لم أكن في القاهرة وادكراني لم اسمع اسم عرابي قبل ذلك . ولكن علمه هذا أكسبه شهرة عامة واسعة وصار اسمه يذكّر في الانواء كرحل استطاع أن يتحدى الحكومة بنجاح ويرغبها على تغيير الوزراء . ولم يمض عدة أسابيع حتى صار عرابي قوة يعتد بها في البلاد وهطلت عليه من انحاء البلاد كلها عرائض المظلومين الذين يشكون اليه ما أصابهم ويطلبون معونته فيه والواقع ان ظهوره بظهر الدفء عن مصالح الفلاحين ضد طبقة الأتراك الحاكمة أكسبه حب الناس خارج القاهرة فأقل كثير من الاعيان والمشايع على الاتصال به . وكان عرابي يحسن الرد عليهم على قدر ما تسمح به قوته المحدودة . ومما يكن من شأن الناس الذين أقبلوا على الاحتجاج به فقد كان يؤثر فيهم ابتسامته الحداثة وبيانه العذب ورقته .

وقد كان مطر عرابي في ذلك الحين حسناً جداً لائقاً بالدور الذي قدر عليه أن يقوم به باليابة عن بني جنسه . فهو فلاح أصيل طويل القامة ثقيل الاطراف بطيء الحركة نوعاً كما هو يمثل تلك القوة العظيمة التي اشتهر بها الفلاح العامل في الوجه البحري .

ولم يكن في عرابي شيء من شموخ الجندي بل كل في اشاراته ذلك البطء الذي أعطاه مظاهر النبيل والذي يشاهده الانسان في مشايخ القرى ولم تكن ملاحة نذل على شيء من اليقظة وقت سكوته كما أن نظرائه كانت شاردة ولم يكن الانسان يتنظن الى ذكائه الكبير ولطفه إلا حين ينسم وينكلم حينئذ كان وجهه يستضيء كما يستضيء الوادي بأشعة الشمس .

والظاهر ان اباشوات الحراكة والأتراك ما كانوا يعملون مثل هيئته وهي هيئة الفلاح الذي سادوه قروناً واستعبدوه وأرغوه على العمل في حقولهم بغير أجر

ضوا أنه لا يصلح إلا أن يكون آلة في أيديهم لما كره . وقد كان رياض يحتقره من أول الامر إلى آخره ولم يعتد به مصلحو الأزهر الأ قليلا . ولكن هذه الطواهر كانت أعظم شعاعته لدى الفلاحين قد أدركوا أنه واحد منهم وقد تركت فيه حيلهم فصارت باهرة بما تحلى به من قوة وبما تعلمه في الأزهر من العلم . وهذا يجب علينا أن نذكر أنه لم يتفق في خلال الثلاثة قرون الأخيرة أن صدأى فلاح مصري إلى فدوة الشهرة السياسية أو ظهر في لباس المصلحين أو وسوس بكلمة واحدة فيها متى الثورة . على أني أشك في أن خصاله وحدها وقد كانت سلبية لا إيجابية تؤموا به التي لم يكن برهن على شيء منها بعد كانت تضعه في الطليعة كزعيم وطني ولا الاضطهاد الطائفي الذي انصب عليه من رياض في الأشهر التي تلت حادثة قصر النيل والذي استطاع دائماً أن يرفضه أو يتخلص منه بواسطة دسائس خصوم الوزير .

وكن أم أولئك الخصوم وأقدم على تحدير عرابي من المخاطر التي تهدده عطية موضعه محمود بك سامي الذي خلف عثمان رفقي في وزارة الحرب بتوصية لبيدي رنج والذي كان من أعضاء حزب شريف وكان دستورياً متحسناً . ومع أنه لم يكن قد تعرف إلى عرابي إلا الآن فقد كان يميل إليه ميلاً ودياً كما أنه كان صديقاً حميماً لبي بك الروبي الذي هو أحد الضباط الفلاحين . فلما تقلد وزارة الحرب أصبح في استطاعته أن يساعدهما بالفعل ويظلمهما على ما يصل إلى علمه من الدسائس التي تدبر لها وقد استطاع أن يفعل ذلك بنجاح لاقلائه من الاجتماع عرابي ولو أنه كان دائم الاتصال به بواسطة علي الروبي . وقد وعد الضباط وعداً صريحاً بأن يظلمهم حالاً على الحقيقة إذ انضم الحديري للذين يعملون ضدهم فإذ لم يستطع القذافي استئصال وكان عليهم أن يبدلوا استقامته اندلأ لهم .

أما محمود سامي البارودي فقد نال دوره في ذلك الصمام وهو سليل أسرة شركسية عاشت في مصر أجيالاً طويلة فكان على هذا من طبقة الحكم ولكنه كان كشراف باشا مصلحاً ووطنياً صادقا . أما من حيث مواهبه فقد كان أعجب بكثير من عرابي بل كان من أعظم الناس علماً وتهذيباً في مصر فقد كان

متصلاً في آداب اللغتين التركية والعربية كما أنه حجة في تاريخ مصر وهذا كله فضلاً عن مواهبه الشعرية العظيمة المنتشرة وقد وصمه الكتاب البريطانيون الذين اهتموا أو بمباراة أصبح ضلوا بما في الكتب الرسمية الدوق اذ قالوا انه كان بدمس لورير ينتمى لحزب غير حزبه ولم يتطوع هو لحدمته . وقد كان محمود سامي في الوزارة حين تقلد رياض الرئاسة في سنة ١٨٧٩ . وكل هالك تقام على أن يحتفظ هو وعلي باشا مبارك باستقلالها في كل ما يختص بوزارتيهما . ولم يكن ثمة شك في أنهما كانا بدمسان لرياض في ربيع سنة ١٨٨١ ولكن عرضهما من ذلك لم يكن إلا إعادة رئيس حزبهما شريف الى السلطة . ومن هذه الناحية يجب أن ينظر الانسان لاعمال محمود سامي ولست أشك ان تاريخ الوراثة البريطانية حافل بهذا الصرب من الدساتير وقد كان الدور الذي قام به فيما عقب ذلك من الحوادث دور اخلاص لمبادئه الدستورية والحركة الوطنية وقد دفع في ثباته ثمناً عالياً فانه كان رجلاً غنياً ومن ثم كان معرضاً أكثر من غيره للخسارة .

أما الدور الذي لعبه الحديوي أثناء الشهور السبعة التالية فلم يكن على شيء من مثل هذه الاستقامة الطاهر انه كان في حلال هذه المدة فريسة للتردد والغيرة والخاوف والمطامع . وقد كان خصوم رياض يوهونه أن هذا الوزير يدمس له ويصل لخلعه والحلول محله . ومع أن هذه فكرة لا يمكن تصورها فقد صدقها الحديوي في وقت من الاوقات . وفي أوقات أخرى أثارت شهرة عراقى غيرته فكان ينتقل من خوف الى خوف في الوقت الذي كان فيه يتوق لاستعادة السلطة التي كان يحكم بها والده وقد كانت المراقبة الانجليزية الفرنسية تثير ثائرتيه ثم انه كان يعرف ان السواد الأعظم يكرهه ويزدره . وكانت بطائته الحركية تصر أشد العدا للضباط الفلاحين ولا تقطع عن تحريضه على معاملتهم بأقصى الشدة وهذا بينما يستخدم شريف باشا واحوايه الدستوريين على أمل أن يعيدوا تمثيل الطائفة التي كان يريد أن يتخلص بها من رياض ومن المراقبة الثانية معاً . هذه هي الحالة التي كانت عليها البلاد في شهر أغسطس سنة ١٨٨١ حيث وقعت الازمة وحيث كان للاختار الذي عرى العالم الاسلامي من جراء اعتداء فرنسا على تونس تأثير كبير .

## الفصل السابع

### انتصار المصلحين

ليس من السهولة في شيء أن يحدد الانسان الدور الذي لعبه الحديو توفيق في آخر فصول رواية الثورة وهو المظاهرة العسكرية التي جرت يوم ٩ سبتمبر في عابدين وقد ذكر نينت وغيره من الكتاب أنه كل هناك اتفاق تام بين توفيق في ذلك اليوم وبين الزعماء العسكريين ابتغاء اسقاط رياص والتخلص من الوصاية الشخصية التي ضاق بها الحديو ولكن ليس هذا صحيحاً الا من الوجهة العامة وقد أكد لي عراقي أنه لم يكن له في سنة ١٨٨١ علاقة بالحديو خلاف العلاقة الرسمية التي كانت له بصفته قائد كتاب الحرس ولم يخاطبه عراقي شخصياً الا ثلاث مرات ولكن لم يرد ليلاسة ذكر في واحدة منها ومع ذلك لا شك في أن توفيق ظل وحي على الضباط بواسطة أركان حربه على بك فهمي فكرة المظاهرة العسكرية ذات الأغراض المحدودة ولكن هذا الضابط قد عاد الى خدمة الحديو على الرغم من اشتراكه مع عراقي في حادث قصر النيل واعتقاله معه وكان الحديو يستخدمه ساسوساً على الضباط المصلحين ووسيطاً لديهم في الوقت نفسه وكان توفيق يظن أن صلة على فهمي بالباطل بواسطة روجه ضمان لوفائه ولم يغضب عليه توفيق ذلك الغضب الشديد الا حين انضم هاتياً الى عراقي بالرغم من علاقته بالقصر . وقد كان توفيق كما قلنا متقلماً فيما كان يعتمد على الجيش في التخلص من رياص كان ينحرف عنه بدافع الغيرة من شهرة عراقي الآخذة في الزيادة . وقد برزت شهرة عراقي خلال ذلك الصيف ومكنته من الاتصال بكثير من مشايخ القرى ووجهاء الاقاليم وكان هؤلاء قد فرحوا بفكرة تحرير الملاح التي كان يلهج بها عراقي . وكانوا يسمونه في الارياض « الواحد » وعندى أنه كان جديراً بهذا الاسم فقد كان الفلاح الوحيد الذي استطاع أن يجمع بنجاح طبقات الحكم البركسية

وليس في الطاقة أن يتجاوز الانسان الحد معها فال في التأكد بان حركة سنة ١٨٨١ الوطنية كانت حركة فلاحية محنة غرضها تحرير المصلحين وأنها كانت موحدة

قبل كل شيء . آخر ضد حكومة الحراكة المدعومة الكفاءة والتي حربت البلاد وأنها لم تنجح ضد المراقبة الثانية الا حين وقفت هذه في حاب الطلبة وأيدتهم . على انه قد امتزجت شؤون أخرى بالحركة بطبيعة الحال . واد أقل كثير من وجهاء البلاد وأعيانها على عرابي والتفوا حوله وصاروا قوة لا يستهان بها أخذ كثير من الدستوريين الذين كلن أكثرهم من الطبقة الحاكمة يعاملون عرابي كحليف على الرغم من انهم كانوا في الحقيقة خصوما لحرية الفلاحين كما كان رياض معه . وكانت فكرة الدستور في عقول هؤلاء الرجال تنحصر في تخليص السلطة من يد الخديو ووضعها في يد طبقة الحكام الحراكة وهي الطبقة التي اعتبروها وحدها صالحة لحكم البلاد . وكان رأس هؤلاء الدستوريين شريف باشا وقد وحد نفسه في خلال الصيف متصلا بعرابي من طريق المراسلة وباعتباره واسطة الحصول على دستور يمهّد لشريف باشا سبيل الوصول الي رئاسة الوزارة مرة أخرى .

ولما كان عرابي ميالا لمكرة الدستور قد أخذ في تأييدها وخصوصاً ان سلطان باشا الذي كان أقوى وجهاء الفلاحين كان كذلك دستوريا كبراً وكانت واسطة الاتصال بين عرابي وشريف وقد اتفقوا فيما بينهم جميعاً على انه متى حانت فرصة ملائمة يلتقي عرابي بنفوذ الجيش في كفة أي ضغط يبدل لحل الخديو على الموافقة على طلب الدستور . على ان الخديو نفسه لم يكن يكره هذا الطلب لافصائه بطبيعة الحال الى إتالة رياض تلك الاقالة التي كانت عرضاً رئيسياً من أعراض الخديو . ولذلك أوعز الى عرابي بواسطة علي بك فهمي بصارات التشجيع وأكده موافقته .

وتدل أول رسالة تلقاها عرابي من توفيق في هذا الصدد دلالة واضحة على طرق الدس التي كان يسير عليها الخديو . فقد كان يتحدث ذات يوم الى علي فهمي عن الجيش ونما . قوته كعامل سياسي فقال « أنتم الثلاثة عرابي وعبدالمعال وأنت جنودي وأنتم أربعة بانضمامي اليكم » ثم أمره أن يبلغ هذه الرسالة الى عرابي . ثم تبعت هذه الماعات أكثر وضوحاً حتى اقتنعوا بأن الخديو يؤيد سرّاً ان لم يكن علناً كل مظاهرة عسكرية يكون الغرض منها اسقاط رياض . وكان يجب لاقناع القاصد أن يظهر بمظهر المضطر للاذعان بحكم القوة حين يقبل الوزارة .



واسكن الشك في مسلك الخديو لم يلبث أن عاد الى الاذهال حين دقت صلاحة العمل . وقد حدثت الازمة على الوجه الآتى : كان رياض باشا حتى شهر أغسطس قد احتقر حركة الفلاحين الى حد انه لم يحفل البتة بها ولكنه أزعج الآراء المرة الاولى . وكان يعتقد انه يستطيع أن يقمع الحركة العسكرية بوسيلة من تلك الوسائل الشاذة التي تعودت عليها حكومة الجراكسة وكان قد أحاط عرابي ورملاه بالمخاسيس واحتشد أن يورطهم في مشادة شخصية بواسطة رجال البوليس أو في قبح اضطراب آخر يقع في الشارع فيقتلوا في قبضته ولكن محاولاته ذهبت عبثاً . صد كل صديقهم محمود سامي وزير الحرب ينذرم بكل مشروع جدي يدبر لهم في الخفاء . فكانوا أبدأ على قدم الخنزير وكان قد اتفق بين عرابي ومحمود سامي على أن يتوقع الصراط الملاحون شراً كبيراً اذا اضطرت محمود سامي للاستقالة من وزارة الحرب حتى ولو لم يسمع شيء من جانب محمود . فلما فرغ صبر رياض في أغسطس ووقع الخصام بينه وبين وزير الحرب وأعلى ان محمود سامي قد استقال اعتقد الصراط فيما يخصهم أن ساعة العمل أوشكت أن نحين . وكان رياض أراد ان يرغم وزير الحرب على ابعاد النصابين الرئيسيين وفرقتيهما من القاهرة ووافق الخديو على ذلك في بونة من ثوب غيرته من شهرة عرابي فلما عارض محمود سامي في ذلك أعلن بالرفق في الليل . وكان الخديو ورياض لا يزالان يومئذ في مصيفهما باسكندرية فامرسل رياض الى محمود سامي خطاباً يأمره فيه بترك القاهرة والسر الى عزبته ولذلك لم يسمح وقته بمختلفة أصدقائه الضباط . ولكن هؤلاء عرفوا حالاً ان عهد انتاعب قد ابتدأ ولا سيما ان ذلك الذي خلف محمود سامي في وزارة الحرب لم يكن أقل ولا أكثر من داود باشا يكن زوج أخت الخديو وهو حنرال جركى من شرار الرجعيين . وقد عاد الخديو الى مصر في أوائل سبتمبر وكان الضباط قد تشاوروا في الامر مع سلطان باشا وحلفائهم الملكيين وقرروا أن يأخذوا حالاً في العمل . وقد صمموا على القيام لمظاهرة العسكرية معها تكن خطة الخديو محمود وان يصروا على صردرة استقالة الوزارة كضمان لازم لسلامتهم الشخصية . وكانوا قد رأوا اهم اذا سمحوا بان يتعدوا من مصر ويمرّفوا سهل حينئذ على رياض ان يصريهم واحداً فواحداً وكان أبسر

ما يتوقعونه على يديه ولكن الغالب ان بعدد الى اعتقالهم ومحاكمتهم تهمة العصيان على ماحدث منهم في فبراير . وكان في رابعهم المطالبة بزيادة الجيش فمضوا هذا الطلب الى الدستور الذي اعتقد الحليم انه الصياح الوحيد ضد ظلم الحكومة .

وانتهت المسألة سريعاً الى أزمة في ٨ سبتمبر فان داود باشا الذي كان كافراد طلقته يسرف في احتقار الصايط العلائين ولا يتوقع مقاومة من حامهم أصدر أمره سفر أورطة عرابي الى الاسكندرية وأورطة عدالعال الى دمياط . فلما وصل الامر الى الصايطين قررا أن يعملوا في الحال . ولا شك في أنهما اعتمدا على اانة الخديو اذا لم يكن على عطفه وكانا على بية من ضعفه الخلق وعرفا انه سيسهم الى الخائف الأقوى مها كان الفرار الذي اتخذته قل ذلك بتأثير رياض . وكانا يعتمدان كذلك على صداقة علي فهمي وان لثا في شك من أمره . وكانت أورطة علي فهمي لا تزال معسكرة في شكة عابدين ولم يرد لها ذكر في أمر القل الذي أصدره وريز الحرب فادا كان الخديو حصاناً لها وكان علي فهمي مطعماً لها فحينئذ لا بد من وقوع القتال والا فالراجح اذا لم يحدث شيء من هذا أن تبقى مطاهرتها سلمية وتنتهي سلام . ولأجل أن يتوقيا سوء الفهم أرسلنا مذكرة للخديو أطلعاه فيها على مشروعيها وقالا فيها أنهما لن يذهبا بمجنودهما الى قصر الاسماعيلية الذي هو قصره الخصوصي بل يذهبان الى عابدين الذي هو القصر الرسمي وإنما منه أن يقابلهما ويسمع شكواهما .

أما ماحدث بعد ذلك فاسمعه من فم عرابي نفسه . قال : كبت في صباح اليوم التالي خطاباً الى الخديو في قصر الاسميلية يتضمن مطالبنا وقلت اننا سنذهب الى قصر عابدين في وقت العصر لتلقى الجواب . أما سبب ذهابنا الى عابدين وليس الى الاسماعيلية هو أن عابدين مقره الرسمي وكما أردنا أن تجيب ارجاج سيدات بته . على اننا كنا قررنا الذهاب الى الاسماعيلية اذا امتنع الخديو من الحضور الى عابدين . فلما وصل الخطاب الى الخديو استدعى رياض باشا وخيري باشا وستون شا الاربكي ثم ذهبوا أولاً الى شكات عابدين حيث حاطب الخديو ورياض الخوود أمرا علي فهمي أن يحتل قصر عابدين بمجنوده . فوافق علي فهمي ووضع جنوده في

اعترف العليا بحيث لا يرام أحد وبحيث يستطيعون أن يطلقوا علينا النار من التوافد.  
 ولكي لا أعرف هل ردوا بحرطوش فيه رش أم لا. ثم ذهب الحديو والحمرالات  
 إلى القلعة وحاطوا الحدود بالمعى معه وطلبوا من قوده بك أن يساعد الحديو عليها  
 وقد أنه الحديو وهدده بأن يضعه في السجن ولكن الحديو حاف وترك القلعة ثم  
 جاء إلى العنابية بنصيحة رياض ليتكلم معي. ولكني كنت سرت بمجنودي بطريق  
 الحسية إلى عابدين فسألوا عن المدفعية قبل لهم أنها ذهبت هي الأخرى إلى عابدين.  
 ولما عاد الحديو إلى عابدين وجدنا معسكرين في الميدان وكانت المدفعية والجنود  
 الراكبة واقفة أمام الباب الغربي وكنت واقفاً بمجنودي أمام الباب الكبير. وكنت  
 قد أرسلت إلى علي فهمي الذي علمت بوجوده وتكلمت معه فحبب حنوده من  
 السراي ووقف هم معنا. وقد دخل الحديو من الباب الشرقي ثم قدم علينا بقواده  
 وأركان حربه ولكي لم أركض معاه وان لم يعد أنه كان هناك. ثم أمرني الحديو  
 بالترحل فترجلت. وأمرني أن أرفع سفي فرمته ولكن دملاني الضباط تقدموا معي  
 خوف الخيانة وكانوا نحو خمسين صابطاً وقد وقف بعضهم بين الحديو وبين القصر  
 فلما بلغت رسالي وذكرت الطلبات الثلاثة قال «أنا خديو البلد وأعمل زي ما أنا عاوز»  
 فقلت «ومعنا لست عبيد ولا موث بعد اليوم» فلم يقل شيئاً بعد ذلك ولكنه أدار  
 ظهره وذهب إلى السراي وبعد ذلك أرسلوا لي كوكسن مع مترجم سألتني: «لماذا  
 أطلب البرلمان مع أبي جندی» فقلت «ليضع حداً لحكم الاستبداد وأشرت إلى  
 جماهير الشعب التي احتشدت خاف الجود لتأييدنا مهددي قائلاً «ولكننا سنحضر  
 جيشاً بريطانياً. ثم دارت مناقشة طويلة بيننا. وقد عادت أو سبع مرات إلى القصر  
 وعاد إلي مثلاً حتى قال لي أحبراً أن الحديو وافق على كل شيء وأنه ذكر حيدر باشا  
 كخلف لرياض فلم أوافق على ذلك ولما سألتني أن أذكر خلفه ذكرت شريف باشا  
 الذي كان أعلن عن ميله إلى مجلس النواب. وكنت قد تعرفت قليلاً بشريف لما كان  
 يخدم في الجيش. وفي المساء نفسه أرسل الحديو يستدعيني إلى قصر الإسماعيلية  
 فشكرته على إجابة مطالبنا ولكنه قال «يكفي». اذهب الآن واحتل عابدين ولا  
 تستصحب الجنود موسيقاها في الشوارع.»

الى هنا تنتهى رواية عرابي وهي متفقة فى كل شىء مع المعلومات التى وقعت عليها من أوثق المصادر المصرية فيما يختص بحوادث ذلك اليوم بل هي متفقة على الصوم مع الكتب الزرق . ولم يكن الدور الذى قام به الخديو فيها ينطوي على شىء من الطولة ولكها كانت فى الحقيقة مسألة جبن مادى أكثر مما نربنا الروايات الانجليزية الرسمية . وكان الخديو يعرف أن لاخطر عليه من الخنود وهم لم يطلبوا اليه شيئاً لم يكن موافقاً عليه أو كان يتعذر عليه أن يعد بقصائه . ولكنه كل ينردد بين الطرفين بنية الانضمام الى الفائز وكان ملسكه هذا من القموض بحيث لم يمهه كلفن ولا كوكسن .

أما هذان الانجليزيان اللذان ذكرهما عرابي فأولهما السير شارلس كوكسن الفصل البريطانى فى الاسكندرية والقائم بأعمال الوكالة البريطانية أثناء غيبة ماليت باحارة فى القاهرة - وثانيهما السير أوكلاند كلفن المراقب المالى البريطانى . وكان تمثيل الهيئات الرسمية الاجنبية فى مصر يتكاد يكون محصوراً فيها لان الوكيل الفرنسى الجديد المسيو دى سكوكر لم يكن قد وصل الى مصر بعد وكان المسيو دى بلنجير زميل السير كلفن فى المراقبة عائناً أيضاً . لذلك كان عليهما عبء النصح للخديو وارسال التقارير للحكومة البريطانية . وكان كلفن يحمل الى أحد الامور بالثمة والصف لبيس أحدهما انه كان قبل ذلك موظفاً فى حكومة الهند ولم يكن يعرف من وسائل تدبير الامور الا التقاليد المريعة فى تلك الحكومة وهي تقاليد العنف . وثانيهما انه كان يحمل شبه التفاهم الموجود بين الخديو والضباط . لذلك نصح للخديو بأن يلجأ الى وسائل الصف التى كان يمكن أن يلجأ اليها محمد علي الكبير مع أمثال هؤلاء الضباط قبل ذلك بسنين علماً ولكها لم تكن مما يلائم الظروف الحاضرة وكانت نصيحتة تنحصر فى أن يطلق الخديو بيده مرسماً على عرابي بعد محادثة قصيرة . أما كوكسن الذى كان أدرى منه بضعف توفيق فقد نصح مع جهله بسبق الاتفاق القائم بين الخديو والضباط بالاتفاق واقترح الحل الذى كان يريده الخديو منذ زمن بعيد وهو اقالة رياض باشا ونصين شريف . ولقد يستفيد الانسان من قراءة ما رواه عن هذه الاحوال فى السكتب الرسمية الزرق كما يستفيد من قراءة

رواية كلفن للحوادث ذاتها في حريدة « انيس » وى « البال مال عاريت » التي كان هو مراسلا لها في مصر . وكانت نبیحة اعلان رأيهما أن أثنت علیهما الحكومة البريطانية وأعنت على كلمن برنة « سير » ووضعت في مركز سياسي لم يكن له قبل ذلك في مصر وعلى ذلك انتهت الحال . فان رياض الذى انقظ عما حرى لنوبار وعثمان رفق فلم يشترك في مناقشة الضباط بل بقى فى القصر حتى أقبل في ذلك المساء من الوزارة وسافر الى الاسكندرية ومنها الى أوروبا ليدق حتى يأتيه العون من الدول الحامية وحل محله في رئاسة الوزارة شريف باشا بعد أن أظهر شيئاً من المعارضة والغور . وقد استبطلت مصر في صالح اليوم التالى لتعرف ان المسألة لم تكن مسألة عصيان فقط بل كانت ثورة أيضا وأنه قد وضع حد للحكم الاستبدادي الذى طال عليه الزمن . وقد وعد الحديو أن يجمع الاعيان ويمنح الدستور وأن يحكم بلاد الفراعة والممالك والمشوات الترك من الآن فصاعدا على مقتضى قوانين الحق والعدل لا بواسطة الاحاب ولكن بواسطة نواب الشعب المصرى أنفسهم .

وكانت الاشهر الثلاثة التي عمقت هذه الحادثة الشهيرة من أسعد الاوقات التي مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسر في أن حظيت بمشاهدتها بعيني رأسي . ولو اني كنت سمعت بها سمعا لشككت فيها وعندى انها لم يكن لها شبهة في الايام التي رأيتها في مصر وأخشى أن تكون مقطوعة الطير في الايام التي يمكن أن أراها فيها . فجميع الاحزاب الوطنية وجميع سكان القاهرة اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية وشاركهم الحديو في ذلك على ماظهر يومئذ للاس . وكان قد سر بعد اقتضاء الازمة بنجاح دسيسته ضد رياض والمراقبة الثانية البغيضة . وقد وثق بان شريفا لا بد أن يخلصه عاجلا أو آجلا من عراي . ثم أن شريفا وزملاءه من وحها، الاثراك لم يكونوا كذلك أقل سرورا بمودة السيطرة اليهم بل ان الاثراك الرجعيين أنفسهم قد سروا بما سموه انتصارا على أوروبا . ونجا العسكريون من كابوس الخطر الذى طالما هددهم وارتاح المصلحون للديون للحرمات التي اعتقدوا اليوم أنهم لا بد حاصلون عليها . اما الذين شكوا وأسأوا الظن للنهاية . فقد اعترفوا

كذلك بأن انتاج قد روت الالتجاء للقوة وما كان لها من نصر لم تسلك فيه نقطة دم . ونصاعدت من انحاء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع مثلها على حواصب اسبل مد مئات السنين . وقد حدث فعلاً أن الناس كلن يستوقف بعضهم بعضاً في شوارع مصر ويتعاقون على غير تعارف سابق وينبهجون معاً لعصر الحرية المدهش الذي بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل . وكانت الصحف قد أسرعت بنشر الاباء السارة وقد حررتها رقابة الشيخ محمد عبده المستبرة من قيودها اسابقة واستطاع الناس أن يحتفوا ويتكلموا بلا خوف أبناً شاءوا في الاقاليم وبلا وحل من تدخل السوليس والحواصيس . وقد سرت عدوى السرور الى كل الطبقات فالمطون والمسيحيون واليهود قد سروا جميعاً وشاطروا السرور جماعة الاوربيين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالحياة الوطنية . وقد اعترف التفاصيل الاجبيون أنهم بأن العصر الحديدي خير من العصر القديم وإن رصاصاً قد أخطأ وإن أعمال عراي إذا لم تكن كلها سديدة فليست كلها طائاً .

وكان الملك الذي سلكه عراي نحو الحديدي والوزراء الحدد مسلكتا صحيحاً نبلا وقد اجتمع عدة مرات للحديدي فكانت حطته ودية كما أنه أظهر لشريف باشا ومحمود سامي الذي عاد مثقل وراة الحرب انه وقد تم عمله يريد أن يستحي حانياً ويترك أمر رقيقته وانمااته لاصدقائه المدنيين وكل الخطب التي القاهها في ذلك العهد — وبعضها مدون في الكتب الزرق — مشبعة بهذا المعنى الحكيم وتم علي تشعه هو نفسه باسمي الآراء الانسانية التي كانت من مقومات عمله السياسي . وليس في هذه الخطب الا العطف الواسع المدى على جميع المذاهب والطبقات ولا يمكن أن نجد فيها أمراً للخط على المراقبة المسالية الاورية التي كان عراي في مقدمة المعترفين بمواندها وكان المعنى السائد على خطبه هو أن الحكم التركي المطلق القديم قد انتهى وانند عصر جديد من الحرية الاهلية والسلام وحسن الية المتبادل بين جميع الناس . ولم يمض أسبوعان اثنان على تقلد وزارة شريف أرمه الحكم حتي سار عراي — يوم ٢ أكتوبر — في طليعة فرقته الى رأس الوادي بين هتاف سكان العاصمة المعترفين له بالجيل .

وأخيراً نكلمنا في علاقة مصر بكل من فرنسا وإنجلترا فاعترف عرابي بها بالخير الذي أصابته مصر إذ تحررت من استعبد وانطمست مآلئها ولكنه قال انه لا يجوز لمائتين الدولتين أن تحولاً دون تجديد مصر الاهلي بتأييد حكم الخديو المطلق والباشوات الحرا كسة ضد المصريين وكان يتوقع عطف المحتلرا علي جهاده للحرية أكثر مما يتوقع العطف من جانب فرنسا واكثر ما كان يتوقعه من العطف كان من ناحية المستر غلادستون الذي أظهر صداقته للحرية في كل مكان ، قال هداردا على الشرح الذي أبديته له على آراء غلادستون ولكنه كان يشاطر كل أهل القاهرة قلة الثقة في مآليت وقد بذلت كل جهدي لاربع حاطره من هذه الناحية ثم افرقتا . وكان لهذا اللقاء الاول من حسن الاثر على رأيي في الضابط الفلاح ما حملني علي الذهاب في الحال لصديقي الشيخ محمد عبده لافضي اليه بحقيقة هذا التأثير ثم اقترحت وضع برنامج بما أجبني عرابي به وأن أتولى ارساله الى غلادستون اذ لم يخالجي شك في عطفته علي الاماني الوطنية متى عرضها على حقيقتها من مصدر موثوق به . وقد خاطبت مآليت في هذا الشأن فقال ان مثل هذا العمل قد يعود بشيء من الفائدة ومن ثم وضعت أنا والشيخ محمد عبده وآخرون وصاحبونجي منشوراً يتضمن آراء الحزب الوطني بكل دقة . وقد أخذ الشيخ محمد عبده هذا المنشور الى محمود سامي الذي كان وزير الحرب وضمن موافقه عليه وكذلك أطلع عرابي على المنشور ووافق عليه . ولما تم هذا قدمت المنشور بعلم مآليت وموافقته الى غلادستون شارحاً له الموقف كله طالبا عطفه على حركة متفقة كل الاتفاق مع مبادئه المعروفة وختمت خطابي قائلاً : « لا أستطيع أن أفهم أن حكومة الاحرار البريطانية يمكن أن تأسف علي هذا الشعور أو تقضي على مثل هذه الاعمال . وفي الطاقة أن يحسن وجهها وأظن أن محي تقدم العرب لا يسهم الا أن يهتوا أنفسهم على شواهد الحياة السياسية الثرية وغير المتوقعة التي ظهرت في بلاد اعتبرت أقل مناطق الشرق الراكد فكثيراً وأذكر يلسيدي انك قلت لي مرة أن الأمم الشرق لا تستطيع أن تحمي نفسها الا بتجديد ارادتها الاهلية المعنودة فانظر الى هذه

الارادة الالهية الناشئة في مصر والتي تسذل حبيدها لتجد أقوالا تقع أوروبا  
بوجودها .

وبينا أرسلت « بيرنامنج الحرب الوطنى » هذا الى غلادستون أرسلته في الوقت  
نفسه الى حرية الشمس بناء على اشارة البر وليم جربجورى . واسكن ماليت لم  
يوافق علي هذه الخطة لاعتقاده انها تفقد الامور في الاستانة . وهي فكرة رسحت  
بقوة في عقله السياسي الرسمي ولكن جربجورى أصر على وحوب شره والا وضع  
على الرف في « دونج ستريت » وعض عنه النظر فوافقت على ذلك . وكان  
جربجورى صديقا شخصيا لشئى رئيس تحرير التمس الذي حدم القصبة الوطنية  
المصرية في وقته أعظم الخدمات . وكان شئى رجلا واسع العقل اذ يفكر في  
الشؤون الشرقية وكان على جانب عظيم من العلم باللغة العربية وقدر جيم وشر قطعاً  
شائفة من مقامات الجربرى ومن ثم كان واسم النظر في المسألة المصرية فلم يرها  
كعبها من الصحين مسألة لا تعني غير بورصة لندن على الرغم من أنه كان هو  
نفسه من حملة أسهم الدين المصرى . ومن ثم عي عناية كبيرة بنشر خطابات  
جربجورى كما أنه نشر لى خطابات كثيرة كتبها اليه في نضعة الأشهر التالية واستمر  
يشتر لى كل ما أرسله في تأييد الحركة الوطنية حتى بعد أن وقعت الحرب . وقد  
تجاوز شئى كل حد في الاتصاف بالحركة المصرية حيث كتب أن عرابي نفسه هو  
الذى أرسل اليه البرنامج ولكن هذا التجاور مكن ماليت الذى كان واقفا على  
الحقيقة من أن يعلى بواسطة شركة روتنر أن الوثيقة التي نشرتها التمس ليست  
حقيقية .

وبحسبى هنا أن أشرح الطريقة التي احتكرت بها الصحف البريطانية ولا  
سبا شركة روتنر بصفة رسمية في القاهرة وجعلت خادمة للسان السياسة . لم يكن  
للصحف البريطانية مراسلون معينون في القاهرة الا التمس والبال مال عاريت .  
وكانت هاتان الجريدتان فيما يختص بالسياسة في يد السر أوكلند كلهم المراقب  
البريطاني المالى . وهو موظف هندي داهية مشع العقل بالسياسة الهدية .  
وله تحارب صحفية مد كان متصلا بجريدة « يوبير » وهي جريدة انكليزية هدية



شديدة في استعارتها ، وكان السير كلفن مراسلها في مصر . وكان أيضاً مراسل مورلى رئيس محرر المال مال عاريت وكان واثقاً من اصعد الحكومة اليه من هذه الساحة . وستظهر قبة هذه العلاقة غير العلنية فيما صد حين يأتي الكلام على الجهود الذي بذله لتحقيق التدخل الانجليزى . وكل كمثلك أخيراً يوحى الى التيسر بأرائه واسطة مراسلها سكوت الذي كان يعتمد عليه في استقاء المعلومات أما وكلنا رور وهاماس فكانتا واقعتين تماماً تحت نفوذ المراقبة الثائية التي كانت تعطي كلامها الف جنبه في العام من الميرانية المصرية القديمة . وكانت وكالة رور بصمة خاصة لسان الوكالة الانجليزية وحادثتها وكانت التلغرافات التي ترسلها الى لندن لأرسل الا بعد مراقبة مالت .

ويجب أن أشير الى أن احتكار مصادرة الانباء العامة لمصلحة السياسة البريطانية لم يكن مقصوداً على القاهرة ولكنه كان موجوداً في جميع العواصم التي لها فيها وكلاء سياسيون وأن هذا أسلوب قوي من أساليب تضليل الرأي البريطانى العام . ولا تقوم السيطرة على تلك المصادرة عادة بدفع مبالغ معينة ولكن باعطاء المعلومات السرية النجاسة والامتيازات الاجتماعية الواسعة وكانت السيطرة على الصحف البريطانية تامة في السر الا في الاوقات التي كانت تحول فيها كثرة المراسلين وامكان السيطرة عليهم جميعاً ولكن هذا لم يحدث الا في الاوقات الخطيرة . أما في الاحوال العادية فقد كانت لموظفيا السيطرة العامة على الاخبار التي يجوز أو لا يجوز ارسالها الى لندن والاحبار التي تنشر أو لا تنشر في مصر من أخبار لندن . ويجب على المؤرخين أن يدركوا دائماً هذه الحقيقة حين يرجعون الى أشهر الصحف ليستقوا منها معلومات عن حوادث تلك السنين .

وإذا استبيننا هذا الخلاف البسيط مع مالت أمكن القول بأن علاقتي به بقيت الى آخر سنة ١٨٨١ . ودية وقد أسر الى شكوكه ومناعه وقلقه فيما يختص بالسير على مناصره ودارة الخارجية من الخطط وخوفه من أن يأتي في أبان أزمة بعمل يجوز الموازنة الرسمية . وقد قرر لي أنه يعطى كل العطف على الامانى الاهلية وأطه كلنى الحقيقة كذلك واعتمد على كرجل قادر في كل حال على وقايتة من كل صعوبة

عبيقة حتى يأتيه قرار دوسج سريرت بالسياسة التي ينهها . وقد دوت في مذكراتي انه هو والسير او كلند كلس الذي كت قد صادقه والذي لم يكن أقل عطفاً على الوطنيين من ماليت طلسامي يوم ١٩ ديسمبر أن أساعدهما في حل صعوبة ربط ميزانية الجيش .

كان الوقت وقت ربط الميزانية وقد طلب محمود سامي وبر الحرب لورارته مبلغ ٠٠٠ ر ٦٠٠ جيه . ولست أدكر الآن مقدار الزيادة في هذا المبلغ عن المبلغ الذي ربط لوزارة الحرب سنة ١٨٨١ .

ولم يكن على أفق السياسة المصرية في ذلك الحين الا عيمة واحدة هي ما يحصل من عدا سلطان تركيا لفكرة الدستور وكل عد الحيد بعد أن دأب هذه الفكرة وقتاً في الاستانة قد مرهن على انه ألد عدو للدستور ، إذ كل في ذلك الصيف بالذات قد أمر بتشيل مهلة محاكمة مدحت والحكم عليه وقد كان مدحت أعظم أنصار الدستور في تلك البلاد . ومن ثم قلق الساس حين حصرت في أوائل أكتوبر الى القاهرة حنة خاصة من قبل السلطان لتحقيق ما حدث في مصر ولاسيا مع مبادرة عراي بالذهاب الي رأس الوادي وتعجيل عد المال بالذهاب الى دمياط . علي أن زيارة اللجنة انتهت بسلام واستطاع الوزراء أن يقتنعوا بأن الحركة الالهية التي لم يبق شك في أنها حركة وطنية لا تطوى على شيء من قلة الولاء للسلطان .

وكان مصير تونس قد اتى في روع المصريين أن توثق الرابطة بينهم وبين الامبراطورية العثمانية هو عصمتهم الوحيدة من عدوان أوروبا وقد اعتقدوا ان الغرض من الثورة لم يكن الا منع المراقبة الثانية من الاعتداء على استقلالهم . ومن ثم حسنتية الجميع وساد الرضا والقنوع . واستطاع على نظامي باشا رئيس اللجنة أن يحمل معه تقريراً طليساً عن الحالة وقد أبدى في ذلك العضو الذي يليه في اللجنة — احمد باشا راتب . وكان هذا قد تحدث مع عراي شخصياً في رأس الوادي وهو ذاهب الي السويس في طريقه الى مكة :

وقد حدث هذا اللقاء الذي كان له فيما بعد أهمية بالنسبة للحالة السياسية في القطر بين الزقاريق والتل الكبير وقد أكد لي عراي أنه حدث اتفاقاً حين كان

عائداً الى رأس الوادى بعد زيارة صديقه احمد افدى الشمسي وسليمان باشا أمانه  
في الزقازيق . قال : « كنت عائداً بقطار رأس الوادى فانفق ان احمد راتب باشا كان  
في هذا القطار ذاهباً الى السويس حيث كان قاصداً الى مكة لاداء فريضة الحج .  
وقد وجدت نفسي في المركبة التي كان فيها وتبادلنا التحية كعربيين ودكرت له  
اسمي وذكر لي اسمه وانتواءه الحج ومسائل أخرى . ولكنه لم يخبرني عن اللحنة  
ولا سألته عنها . علي أنى أخبرته بأن موال للسلطان باعتباره رئيساً الديني ثم دكرت  
له كل ما حدث فقال لي « لقد أحسنت صنعاً » ثم تركه في رأس الوادى . وقد  
أرسل لي مصحفاً شريفاً من جدة ولما عاد الى الاستانة كتب الى مانه أحسن  
الشهادة في حق للسلطان ثم تناولت بعد ذلك الخطاب الذي أملاه السلطان على  
الشيخ محمد طاهر والذي يحتوي على الامور التي يعرفها « وعلي هذا انقصت مهمة  
اللحنة العثمانية فغير أن تحدث اضطراراً أو متاعب . وقد اتفق أن وصل معها الى  
مساء الاسكندرية مدفعتين بحريتان احدهما قريبة والثانية مريطاسية وكانت  
حكومتنا تحتلها وفرنسا أرسلتهما حين اتصل بهنأ نياً للمطاهرة العسكرية في عابدين .  
ثم أبحرت المدفعتان في نفس اليوم الذي سافرت فيه اللحنة من شهر اكتوبر . وكان  
ماليت قد عاد في هذه الاثناء الى مقر وطيفته وكذلك كن سكوكر المعتمد الفرنسي  
قد حصر واتفق الاثنان على أن الحالة ليست في حاجة الى تدخل من قبلها . وقد  
أحسن ماليت الشهادة أمام حكومته يومئذ في حق الوزراء الحدد وعراى الذي بدأ  
ماليت يعتقد الآن أمانته وصدق وطنيته .

وقد عدت الى القاهرة في أوائل نوفمبر حين كانت الحال كما وصفت ولم تكن  
قد وصلت الى أبناء جديدة من أصحابي الازهرين ولم أعرف مما حدث في أثناء  
ذلك الصف غير ما كان يعرفه الناس جميعاً ولا كنت أقصد الى أكثر من دور  
قناة السويس في طريق الى بلاد العرب حيث كنت قررت الذهاب اليها في الشتاء .  
وكان اهتمامي قد اشتد بالازمة التي أخذ العالم الاسلامي يقطعها كما كنت على أمل  
من أن أقوم أنا بنفسي بدور في المواقف المهمة — التي كنت أوقعها وإن لم أكن  
أعرف ماهيتها فيما عدا أنها سوف تساعد على تحرير العرب والاسلام . وكنت لما

أثارت أحوالها بسبب عندها، فرسا علي توس كنتت الى صاحبي السيد محمد عد  
فادري دمشق أطلب منه خطا يقدمى فيه لرعيث الثورة « أنى بامة » ولكه لم  
يستلم ذلك . ثم ذهبت عنأ كل الجهود التي بذلتها لمعرفة معرفة السيد جمال الدين  
الافغانى في أمريكا حيث قيل لى انه ذهب اليها بعد أن قضى عامين متحولا فى الهند  
وانتمت أفكركى الآن الى جزيرة العرب التي بدأت أنظر اليها كأرض مقدسة  
وأعتبرها مهد الحرية الشرقية ومهبط الدين الصحيح . ومن الغريب انى لم انتبه الى  
أن هدف أهمائى بالاسلام مائل بجانبى فى الثورة المصرية . وانى لم أعقد آلية على  
القيام بأى دور فيها — ولو كان دور المشاهدة — إلا بتأثير حادث عرمي .

ولعل السبب فى عدم أهمائى يرجع الى أن الصحف البريطانية صم ما وقع فى  
مصر من الحوادث أثناء الصيف بصيغة سكرية فلم يدرك أحد مغرى تلك الحوادث  
حي ولا وزارة الخارجية وقد كنت اشاطر أنصار الحرية ومحبتها قلة الثقة برحال  
العسكريين واعتقد انهم لا يتصرفون الا للطمع فلم استطع أن أصدق حتى ولا كما صدق  
ماليت أن عراي أمين القصد فيما فعل . ثم أنى كنت أعلم أن الشيخ محمد عده وعيره  
من اصدقائى الازهرين الذين لا يميلون الى استخدام القوة وأن تنفيذ الاصلاحات  
يستغرق فيما يعتقدون وقتا طويلا وقد ظننت أنه من المستحيل أن تتجح حوادث  
ذلك الصيف وحدها فى تحقيق تلك الاصلاحات أما عن الدستور الموعود فقد ذكرت  
الصحف البريطانية انه كلام فى كلام لا يبدو أن يكون دعوى كتلك التي استخدمها  
السميل ضد رفرفز ولسن . وقلن أن ماليت أعلن بان هذا الدستور سيبقى مجرد  
وعدا لا سلطان الذى اجتمع به فى الاستانة أثناء عودته الى مصر لا يمكن أن  
يسمح بتحقيقه .

ومما زاد فى ارتياي وجود لجنة التحقيب العمانية ذلك عمل اية عراي زيادة  
قوة الجيش ليكون ١٨٠٠٠ وهذه هي الاراء التي كانت شائعة يومئذى فى لندن ولم  
تكن لدى أنباء خاصة نصحيحها . واذكر أنى حين مرت قبل مبارحة لندن  
بوقت قصير بابن عمي فيليب كرى فى وزارة الخارجية ذهبت حين قال ربما كان  
فى الحركة الوطنية المصرية أكثر مما تدل عليه الظواهر وقد قال لى حينئذ أن ماليت

تصبح ميلا الى اعتماد ذلك . ثم أظهر نصيحة من عدم دهابي الى مصر وقال لي انى  
وحتت في بلاد العرب الآن الرجل الذى ابحت عه . وكلن فيليب يعرف طبيعة  
لشغل لآرائى التي لم يأخذها قط اصفة جدية ولم يعتقد انها أكثر من خيالات روائية .  
وقد قال لي ما قال بلهجة مراح فضحكا ولم تتناقش في المسألة . ولكى ذكرت  
بعد ذلك أقواله وحدثت من قلة تأثرى بها ولكن الحقيقة هي أن أفكارى كانت  
موجهة الى ناحية أخرى .

وبما يستحق الذكر أنى دعوت في عشية يوم سفرى الى عدا . في نادي السباح  
كثلاثة من أصدقائى الجيدين هم جون مورلي الذى كلن قد عين حديثاً رئيساً لتحرير  
« البال مال عاريت » فصلا عن قيامه برئاسة تحرير « المورد تيتيل ريفو » والسير  
« فردي لابل فنصلنا في حدة . وزهراب .

وقد تكلمت مع هؤلاء طويلا في الشئون الشرفية واتفقت مع مورلي على أن  
أخبره اذا عثرت على بطل الاصلاح الشرقى الذى أبحث عه وأن يتولي هو عرض  
قصيته نحس ما يستطيع على الرأى العام البريطانى . ولم يكن مورلي قد دخل بعد  
في البرلمان ولكنه كلن ذا نفوذ كبير في الحكومة لعلاقاته بشميرن وكانت  
جريدة « البال مال عاريت » من الصحف القليلة التى يقرأها علا دستون بل الصحفية  
الوحيدة التى يعتقد أن فى آرائها شيئاً من السداد وبولها شيئاً من ثقته .

وقد كلن عشاء ساراً وكنا متحمسين في عطفنا علي العرض الذى يمكن أن  
نعرض للاسلام أما فيما يختص بمصر فن سو . الحظ أن مورلي كلن واقفا تحت تأثير  
نفوذ غير نفوذى وقد كلن مراسله « البال مال عاريت » السير أوكلد كلفن عضو  
المراقبة الثانية عن بريطانيا فلما وقعت الأزمة في الربيع ظهر مورلي على غير ما كلن  
ينتظر منه لو أن كلفن لم يكن مراسله . أما والحال كما كانت فقد كلن في  
جانب الرأى البريطانى الرسمي ومن أقوى القائلين بحوب استخدام أشد وسائل  
العنف لقمع الحرية .

وقد اتفقت لي أثناء عودتى الى مصر سادة ساعود الى ذكرها حين يأتى  
السائق الذى نظهر فيه أهميتها . فقد وجدت في محطة « شارخ كروس » بلندن

المسترد ذلك وسكرتيره أومس لي مسافرين مثلي الى « درس تفصيت البياحة كلها معها . وكل ذلك مشرح الصدر طرودا فان صديقه الحبيب « عمنا » كان قد حلف في ١٥ نوفمبر السيو سانت هيلير في رئاسة الوزارة الفرنسية وكان ذلك عائداً الى باريس ليستأنف معاوضة الحكومة الفرنسية في تحديد المعاهدة التجارية المغفودة بينها وبين حكومة بريطانيا بعد أن تصدر عليه النجاح في السنة الأشهر السابقة أما وقد تقلد عمنا رئاسة الوزارة فقد كان ذلك وانقفاً من النجاح . وكان لعمنا مشروع خاص يستطعم أن يستمد فيه بذلك الذي كان وكيلاً لوزارة الخارجية البريطانية . وكان سانت هيلير قد أحدث ارتساقاً كبيراً في عزوة تونس وترك لحله شمالي أفريقيا يضطرم ماراً . وكل عمنا قد تقلد رئاسة الوزارة مصعباً على استخدام اسلحة والعض على ماضية الحال وكان مملوفاً بالخوف من ثورة اسلامية ثم انه لم ير في الحركة الوطنية المصرية الا مطهراً من مطاهر التعصب الاسلامي وكان أصله الاسرائيلي قد جعله مرتبطاً بالمصالح الماثلة في مصر . وقد عقد البية على أن يصيف الى اعتداء سانت هيلير على تونس التدخل بالقوة في مصر .

وقد أراد أن تصمم له الحكومة البريطانية في ذلك وتقوم الحكومتان بحرب صليبية باسم التقدم وأن يبدأ في ذلك بتقوية المراقبة الاوربية في مصر . وقد حدثني ذلك طويلاً عن مسألتى المعاهدة التجارية ومصر باعتبار الأولى مصلحة انجليزية والثانية مصلحة فرنسية . وكانت المسألة الأولى تتعلق بشرف حكومة الأحرار الحزبي قد أرادت أن تقيم الحججة على أنها إذا كانت تملك بحرية التجارة فلها أن تحمل الحكومات الاجنبية على معاملتها بالمثل .

وقد عرف بذلك أن نجاحه في هذه المهمة وحله الحكومة الفرنسية على تجديد الامتيازات التجارية بعد غرأ عظيمها له . وكان ذلك متحماً الى حد أني لم يسعني عد الفراق إلا أن أحاطب نفسي بصوت مسموع قائلاً . « ان هذا الرجل يريد أن يبيع مصر لفرنسا بالمعاهدة التجارية » وقد أثبتت الحوادث أن الحقيقة لم تكن الا كذلك . وسيظهر فيما بعد كيف ان حرية مصر كلها كانت مرهونة بتخفيض ليل في الضرائب التي نجحها فرنسا على الصادرات الانجليزية . نعم يمت حرية

مصر وفكرة الإصلاح في العالم الاسلامي كله وصحتها حكومة الاحرار الانجليزية بهذا الثمن الزهيد . ولكن الكلام على هذا لم يحن بعد

وقد أسلفت ان ذهاني الى القاهرة في ذلك الشتاء كل انفاقا وأخرى في ان أقول بأنه كان بتدبير العاية الالهية لولا اني أخشى أن أعبر ما فعلته في مصر معني عظيم السم وأهميته كبيرة . وقد شحطت الباخرة التي حصر عليها خدي وادوات معسكري في قناة السويس بعد أن كادت تفرق في خليج سكلى فاصطرت الى الذهاب الي السويس ثم برحت هذه الى القاهرة حيث اعزمت قضاء بضعة ايام . وكان قد شاع في المحلثرا أن مصلحي الازهر نبذوا فكرة الإصلاح وانصموا الي السلطان في آرائه الرجعية . واذا خلجي هذا الشك أرسلت أولى رسائلي الى أول أصدقائي من رجال تلك الجامعة وهو الشيخ محمد خليل وها حدث حادث عرب ودلا من أن يأتي الي الشيخ محمد خليل في فندق النيل الذي زلت فيه ورجوت منه أن يحضر لزيارتي جاءني شيخ آخر دلاسم معه . جاءني الشيخ محمد خليل المحرسي وحياني تحية الغرب للغرب اذا كان احد منهما لم يرى الآخر من قبل . وكان هذا القادم الحديد قد استلم رسائلي فطن انها من ناصر اوربي بينه وبينه معاملة ترجع الي قريه في الشرقية وجاء معه الخادم الذي حمل الرسالة . ومع أن هذا الشيخ كان أقل قيمة ذاتية من صاحبي الا انه كان ذا مركز هام في الازهر .

ثم ظهر لي انه قد يكون أخرى باهتامي من صاحبي في ذلك الحين لتوثيق الصلة بينه وبين الغرب العسكري في القاهرة ولعلاقته الشخصية بعراي ولو لم يكن للشيخ محمد خليل صاحبي ولا رئيسه الشيخ محمد عبده صلة من هذا القليل ولا كانا يستطيعان أن يفيداني أقل فائدة من هذه الناحية بعد ان لم يوافقا على تدخل جماعة العسكريين في الشؤون السياسية في سبتمبر وكانا لا يزالان هما وسائر مصلحي الازهر مبتعدين عن العسكريين على الرغم من فرحم نتيجة عملهم فلما أفاق المحرسي من الدحول الذي استولى عليه حين وجدني انجليزية وعرف أني لست بصاحبه التاجر لم يأنف مع ذلك ان يتحدث معي عن عراي واعماله ولما افضيت اليه بارآئي الخاصة بالإصلاح الاسلامي على قاعدة عربية أسر الى آواءه التي لم تكن تختلف كثيراً عن

أراني . وقد أخبرني أنه أحد شيوخ السادة الشافعية وإن له علاقة متينة بجماعة الإصلاح الأحرار بمكة . وكان هؤلاء يجهرون بمعارضتهم لسلطان عبد الحميد ويتطلعون إلى خلافة عربية . وكانت هذه نقطة اتفاق يساهم بمس وقت قصير حتى تبادلنا كل ما لدينا من الآراء . وعدى أنه ليس أدل على حرية الرأي والقول التي سادت يومئذ في مصر من أن الشيخ الذي لاشك في أنه كان يكتم هذه الآراء في صدره حتى عن أصدقائه قبل عام واحد قد أحاسى بكل صدق وصراحة على أسئلتي وأفضى إلي بأشد إيمانه خطراً على حين أني أوري وغريب عنه . ولا شك أن بعض هذه الصراحة راجع إلى أن أستاذي العلامة صابوني الذي كان معي وكنت قد أحضرته معي من لندن ليساعد ضعي في اللغة العربية .

من المحرسي علمت أول مرة ما حصل في مصر أثناء الصيف ومنه عرفت موقف العسكريين الحقيقي تجاه الحرب الوطني وهي حقائق أيدت صحتها عدة مصادر كما أيدها صاحبي الشيخ محمد حليل .

أما صابوني الذي كانت له براعة خاصة في هذا الصرب من الأعمال فقد أحد بطوف في القاهرة من أذناها إلى أنصافها يجمع لي الأخبار حتى أنه لم يمتص نصعة أيام الا كما قد عرفنا كل شيء تقريباً من مجريات الحال . كذلك لم يمتص وقت قصير حتى نعرنا إلى بعض الصراط الملاحين الذين اشتركوا مع عراي في المطاهرة وخصوصاً عيد دياب وعلى مهمي الدين كان لمعرفتي بها وقع حسن في نفسي وكانت الأمور التي يدور عليها البحث في ذلك الحين خلق الحديرو وهل بني لولا بني بوعده . لقد وعد بالدستور ولكن هل يكون هذا نزولاً حقيقياً عن السلطة هذرا مسؤولين أمام مجلس المثليين أو المسألة لن تخرج عن دعوة جماعة من الأعيان يكون لهم رأي استشاري ؟ ولم يكن الناس يتفوق في هذه النقطة بل كانوا يعتقدون أن ما لبت يفريه بأن يمثت بالوعد . وكان هذا قد عاد حديثاً من الاستانة وأعلن أن السلطان لا يوافق على دستور حقيقي .

هذه الحواكيت الطغفان المستعرة قد عصبت من الأسرة العلوية ولا سيما فرعها الذي ينبغي إليه توفيق واكلوا يذكرون ما أصابهم في عهد اسماعيل وحده اراهم من



الظلم التي قضت عليهم أدياً وخربتهم مالياً وجلبت عليهم نكدة التدخل الأجنبي. وقد بدأت الصحافة بعد أن تحررت من قيودها توجه المظالم تلو المظالم على لجان نظام الضرائب الذي وضعته المراقبة الأوربية فاعتفت الأوربيين وألقت نصب كله على كاهل الوطنيين كما أنها أتمت بأشد اللامعة على كثرة تعيين الفرنسيين والإنجليز في الوظائف التي لا لزوم لها والتي تدفع فيها مرتبات باهظة كما أتمت على سيطرة هؤلاء الأجانب على مصلحة السكك الحديدية والأراضي التي يقوم على اختارتها مندوبو بنك روتشيلد وعلى قصيدة التسعة آلاف جنيه التي كانت تدفع لحكومة الأوبرا الأجنبية على الزعم من فقر البلاد.

وكانت جريدة «الطيب» التي كن يحررها رجل حاد بابع هو «عبدالله النديم» تحمل حملة شديدة على الترحيص بإدارة الموالخير والحانات والمراقص والمغاني التي هجمت على القاهرة تحت حماية الامتيازات الأجنبية فاستاء منها كل مسلم تقي وكان في مصر صدى لاعتداء فرنسا على تونس واشتد العود مما اتصل بالمصريين من سيطرة الفرنسيين حرم المساجد واعتدائهم على النساء. ومع ذلك كانت العلاقة بين مسلمي مصر وقبطيها ودية للغاية. وكان الاقنات على العموم في جانب الوزارة وكانت العلاقات بين البطريرك والوزارة التي كن بطرس على أحد كبار أعصائها ودية جداً وكذلك كن اليهود والوطنيون بزعماء الزبائمي يطلبون الحكم الدستوري. وكن أهم ما يعنى به الضباط يومئذ مسألة زيادة الجيش التي قالوا بأنها واحة الآن بعد اعتداء فرنسا على تونس حيث لم يكن الباي على استعداد عكرى كاف للدفاع عن بلاده وكانت الفرمانات تحول مصر أن تؤلف جيشاً من ١٨,٠٠٠ جندي وقد طلب الضباط أن تكون القوة كاملة.

وقد حدث أول تدخل فعلى من جانبي مع الوطنيين على الوجه الآتي: أخبرني الشيخ محمد المهجرى أن بين طلبة مذهبي الشافعي والمالكي هياجاً براد به التخلص من شيخ الاسلام أو بعبارة أخرى شيخ الجامع الشيخ محمد العباسي الذي كان حقياً. وقيل لي أن السبب في ذلك عائد الى قلة الثقة في أن يقتي هذا الشيخ فتوى في مصلحة النظام الدستوري. فذا لم يمت وجري في ذلك على رغبة الخندبوي الذي

عنه استطاع الحديوي ان يجد عندها للبحث بوعده . وقد كان المذهب الحسني المذهب الرسمي في مصر وكذلك كان مذهب الولاة الترك من عهد السلطان سليم وكانت الحكومة تختار شيخاً حنفياً لرئاسة الجامع الازهر ولكن الغالية العظمي من الطلبة الذي كان يبلغ عددهم ١٥٠٠٠ كانت دائماً من اتباع المذهبي الآخرين وقد أراد الطلبة الآن اتباعاً لتقاليد ثورة اليوم أن يعودوا الى طريق تمييز الرئيس الديني الاعلى القديمة وهي طريقة الانتخاب . وقال لي المجرسي انه جاء ليمشيري في الموضوع لانهم يعتقدون ان ما ليت يؤيد الحديوي في تأييد الشيخ محمد العاصي وفي سعي الحديوي للتخلص من وعده بالدمستور وقد طل اب في استطاعني أن أرى الصعوبات اذا استحدثت هودي عند ما ليت . وقد وافقت على ذلك في الحال فانصح لي ان ما ليت يحمل كل الجهد المسألة كلها وانه لا يريد قدحلا في مصلحة أى طرف من طرفي هذا النزاع الذي . وفي ٥ ديسمبر حلج العاصي من وطيعته بقرار اعلى الطلبة وعين الشيخ الامباي خلفاً له . ولم يكن الشيخ الامباي أشهر المشايخ وأجهم لدى الطلبة الذين كانوا يميلون في الحقيقة الى الشيخ عليش المالكي وهو رجل ذو شجاعة كبيرة ونفوذ ديني عظيم وقد لعب دوراً هاماً في الحرب التي وقعت بعد ذلك ومات في السجن خلال أشهر الاحتلال الاوربي . والمعروف انه مات مسموماً كما انصح من الشهادات الصريحة التي أقيمت في محاكمة عرابي . وكان اختيار الابايب تبيجة رفض الحديوي تعيين الشيخ عليش . وقد صوت أربعة آلاف من طلبة الازهر في هذا الفرصة فكانت عدة الذين لم ينتخوا الشيخ عليش منهم خمسة وعشرين . وكان من شأن الخدمة الصغيرة التي أدبها لهم أن وثق الشيوخ الوطنيون بحسن نيتي نحوهم وقد رتبني على مساعدتهم ومن ثم طلبوا الى أن أوكل سفرى أو أنتظر ربنا أرام يخلصون من مصاعبهم فأجبت طلبهم في الحال وقد رأيت أن العمل الذي يطلبونه منى هو نفس العمل الذي أسى اليه وأرغب فيه فضلاً عن استطاعني أن أؤدى خدمة حقيقية فيه بالاعراب عن مطالهم لحقة المشروعة الى ما ليت هنا وعلا دستون في إنجلترا .

وكت أحتج بما ليت يوماً تقريباً خلال بضعة الاسابيع التالية وصار لي نفوذ

كبير لديه . وقد وحده قليل العلم بحقيقة أغراضهم على الرغم من أنه لم يكن مجرداً من العطف عليهم . ولم يكن يعرف شخصياً من زعماء المصلحين غير شريف باشا فكان يعتمد في توجيه الخالة الى ما ينصب كل من شريف والحديوى أن يجفرا به . أما من حيث الحوادث اليومية فلم يكن يعتمد في العلم بها الا على مترجمه اليوناني لورانجي الذي كان يلتقط الانباء من قهوات الاحياء الارثوذكسية . ومن ثم لم يكن لديه الا قليل من الوسائل التي يستطيع أن يعرف بها حقيقة الموقف ، ولم يكن زميله القنصل الفرنسي الجديد « سنكوكز » أفضل منه من حيث وسائل الاستخبار . وكان ماليت كذلك في حيرة من أمر مقاصد الحكومة البريطانية الحقيقية . ولكن لورد غرايفيل قد أرسل اليه حديثاً لتفراه المشهور في ١٢ نوفمبر وهو التفراف الذي ذكر فيه باهتمام وعروض عطف حكومة جلالة الملكة على الاصلاحات في مصر .

ولكن هذا التفراف كان واسع مدى التأويل ولم يكن فيه شيء خاص يرشد ماليت الى الوجهة التي يتجه اليها اذا قام شجار جديد بين الحديوى والمصلحين أو بينهم جميعاً وبين المراقبين الماليين . ولكن كذلك في شك من رأى المستر غلادستون في مسألة الدستور . لذلك كان من دواعي ارتياحه أن يجد رجلاً مثلي ذا سياسة معينة وقد كانت سياسته واضحة في وجوب مساعدة الوطنيين .

وقد استطعت أن أؤكد له بأن غلادستون نفسه سيكون في جانب الدستور متى وقف على الحقيقة . وقد أيدني في ذلك عند ماليت أصدقاء بريطانيون كانوا يسعون حينئذ في مصر واستطعت أن أقنعهم بأرائي .

كل أشهر هؤلاء الاصدقاء عضوا برلمان سابقاً أحدهما لورد هاوتون الذي كان في أوائل أيامه مداماً متحمساً عن حرية الشرق والسير وليام جرمجورى أحد أتباع غلادستون القدماء وعضو من الاحرار المروفين ولم يتصف شهر ديسمبر حتى كنت قد استطعت أن أضحم الى رأيي أكثر البريطانيين الموجودين في مصر حتى إن السير أوكلاندا كفن المراقب البريطاني الذي كان قد نصح للحديوى قبل ذلك ثلاثة أشهر بأن يطلق النار بيده على عرابي اعترف بأنه تحول عن رأيه إلى رأيي وأصبح ميالاً لعقد الصلح مع الثورة .

## الفصل الثامن

( سياسة غمينا — المذكرة المشتركة )

كان عرابي قد احتفظ منزله في رأس الوادي وهي نقطة عسكرية قريبة من النيل الكبير الى ذلك الحين ولكنه حصر الى القاهرة في ٦ ديسمبر ورأيته شخصياً أول مرة في ١٢ منه . وقد استأجر منزلاً بجانب منزل صديقه على فهمي الذي كان معه الآن قلباً وقالباً . وكان هذا المنزل قريباً من ثكنات عابدين . وقد ذهب الى مع عبيد دياب وصابو بجي بعد أن اتفقت معه على المقابلة بواسطة أصدقائنا المشتركين . وكان عرابي يومئذ في قمة شهرته إذ كانوا يطلقون عليه في طول مصر وعرضها لقب « الواحد » وكان الناس ينساقون من جميع أنحاء القاهرة ليشوه شكواهم . وكانت غرفته الخارجية بل كان الشارع الموصل الى المنزل يمتلئ . كل يوم بمجماعة الشاكين . وكان قد اتصل به نبأ عطفي على الحركة ورغبتي في مساعدة الفلاح فاستقبلني باسمي مظاهر المودة لهذا السبب وللصلة التي تربط أسرتي باللورد بيرون الذي قد كان عرابي وإن لم يعرف شيئاً من شعري بمحمده للقاءه عن حرية اليونانيين . وقد عنيت بذكر هذه النقطة لدلائها على عطف عرابي على الاساية كلها وعدم تفرقه في ذلك بين الاحناس والأديان وقد كان عرابي مجرداً من التعصب اذا كان معنى التعصب الكراهية الدينية ولكن أبدأ مستعداً لعقد المحاضر مع المسيحيين واليهود وحتى مع المشركين والكفرة للدفاع عن الحرية وإن لم يؤثر استعدادي هذا مثقال ذرة في تقواه .

وقد تحدثت معه بصراحة تامة وبغير تحفظ في كل مسائل اليوم فوجدته صريحاً الى أبعد حدود الصراحة . وقد أعرب عن الولا . للحدديو « فبقي محافظاً علي وعوده ولم يحاول أن يحول بين المصريين وبين حريتهم الموعودة » على انه كان ظاهراً أنه لم يكن يثق بالحدديو وأنه كان يعتقد أن واجبه يقضي عليه مراقبته دقيقة لتلا ينحرف عن الجادة . وقد قلت في خطاب كنيته للسنتر غلادستون في ٢٠ ديسمبر

بعد أن كان قد كثر اجتماعي عراقي ومباحثي معه « إن الآراء التي يعرب عنها عراقي ليست مجرد تردد للعبارة التي تستعملها أوروبا الحديثة ولكنها آراء تستند على العلم بالتاريخ وعلى تقاليد الأفكار العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الاسلام . أنه يفهم الاسلام الواسع الذي وجد قبل محمد يفهم رابطة عبادة إله واحد التي تربط دينه بالاسرائيلية والمسيحية وليس لعراقي مطامع شخصية ولا شك في أن الجيش والبلاد مخلصان له كل الاخلاص ... أما عن مركزه الخاص فيتكم بتواضع شديد . فهو يقول أنه يمثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش به ولكن الجيش نفسه هو الذي مثل الأمة وهو حاميا ومرشدا حتى تستفي عن ارشاده . ويقول ان الجيش هو القوة الواقة الآن بين مصر وحكومتها الاثراك الذين لا يحجمون عن تجديد مظالم اسماعيل في أي وقت إذا لاحت لهم فرصة ويقول أن المراقبة الاوربية تحول بصمة جزئية بين أولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين يتقضى أجل المراقبة . وهذا هو الذي يجب عليه أن ينظر فيه ويعنى به . ويقول لقد كتبنا للناس حق التكلم في مجلس الاعيان ونحن نؤيدهم حتي لا يتخذوا أو يزعموا من ثم بالقوة . ولنا نعمل في هذا لأنفسنا بل لأنبائنا ولأولئك الذين وشوا بنا . إننا نحن الجود وقف اليوم في مثل موقف ذلك الاعرابي الذي رد علي عمر في أواخر أيام حكمه إذ كان يسأل هل الناس راضون عن حكمه وهل جرى في كل أعماله في مجرى العدل فقال له ذلك الاعرابي لو رأينا يا ابن الخطاب فيك اعوجاجا لقومناه بسببونا

ويقول عراقي اننا نحن المصريين لا نحب الدماء ولا نود أن يسفك شيء منها ومتى عرف برلماننا كيف يتكلم تنتهي مهمتنا نحن الجنود ولكننا مصممون على حراسة حقوق الشعب حتى يتحقق هذا ولا نبالي بمون الله بقيمة الثمن الذي تقتضيه هذه الحراسة أو الذي يجب أن ندفعه في مقابل حراسة الشعب الذين يحاولون اسكت صوتة » .

وقد تأثرت كثير أجهذه اللهجة البعيدة عن اللهجات التي يتكلم بها ساسة الشرق للاوربيين ولم يعني أن أوازن بين عراقي وبطل الحرية الآخر الذي قابلته في

دمشق وهو مدحت باشا وشد ما كانت النتيجة في مصلحة عراقي . لم يخلط عراقي في أقواله فليس فيها سلك حديدية ولا نزع ولا ترامويات يمكن أن يرد للشرق حرته بل فيها كلمات تنفذ الى حدود الأشياء وأصولها وتضع مسئلة الحكومة الصالحة على العوائق التي تستطيع حلها وقد شعرت أن مثل هذه الأقوال قد نسمع إذا قيلت في مجلس النواب البريطاني على الرغم من امتلاء جوه بالشؤون الناجمة والمهتمة . وكان رأى عراقي حلياً فيما يتعلق بالسلطان وعلاقة مصر بتركيا . وقد ذكر لي أنه لا يصبر حباً للأتراك وقد أساءوا حكم مصر قروناً وأنه لا يقبل أى تدخل من جانب الاستانة في شؤون مصر الداخلية ولكنه فرق بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان الذي قال عراقي بأن طاعته واجبة عليه باعتباره أمير المؤمنين ما دام يحكم بالانصاف والعدل . وإن مثل تونس التي فصلها فرنسا أولاً من الامبراطورية العثمانية ثم ضمها بعد ذلك الى أملاكها لتحمل المصريين على التثبث بالعلاقة التي تربطهم برئيس العالم الاسلامي . وقال عراقي « كلنا أبناء السلطان ويجب علينا أن نعيش كأُسرة في منزل . وكان أن أعضاء الأسرة الواحدة يكون لكل منهم غرفة يطعمها حسب ما يهوى ولا يحق لأحد البيت أن يستريح حرمتها فكذلك لكل شعب من الشعوب الاسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها على ما يحب ويهوى . وقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وسنبذل كل جهتنا في المحافظة على ذلك الاستقلال ولكننا نخطي اذا طلبنا أكثر من ذلك ولا يبعد أن نقف حريتنا في مثل هذه المجازفة (١) » .

وقد سأله هل يثبته وبين الأستانة مخاطبات كما كان قد شاع يومئذ فأبدي لي أنه يلزم جاسب التحفظ في هذه القطة وراغ من السؤال . ولا شك عندي في أن ذكرى حديث مع أحمد راتب باشا عرضت لذهنه وقتئذ وكان ذلك سبب تردده ولكنه لم يشر الى شيء من ذلك في كل حال وقد كنت في ذلك جاهلاً أمر هذه الحادثة التي رويت حكايتها فيما سبق .

---

(١) نشر السير وليام جرمجوري في التيمس أقوالاً كهذه لعراقي وكان قد سمعها منه في نحو الوقت الذي سمعت فيه هذه الأقوال منه .

وقال محمود سامي انه طلب هذه الزيادة نظراً لوعد الخديو برفع قوة الجيش الى  
 مئذ الألفي الذي تسمح به القرارات أى الى ١٨٠٠٠ وقرر الورد أصراره  
 بقوله ان رفض الزيادة قد يؤدي الى مطاهرة عسكريه جديدة وقد كلفت أن أعرف  
 المبلغ الذي يرضي الجيش على وجه التحقيق وحولني كلن سلطة الاتفاق على مبلغ  
 لا يتجاوز ٥٢٢٠٠٠ جنيه وأن أجبر عرابي وزملاءه الصباط بأنه لا يمكن إعطاؤهم  
 أكثر من هذا من الوحة المالية . وقال لي كلن أنه لا يمانع في زيادة الجيش  
 بشرط ألا يزيد المربوط وأنه يطن أن المبلغ كاف لجيش عدده ١٥٠٠٠ وعلى ذلك  
 ذهبت الى عرابي وناقشته هو وزملاءه الصباط في المسألة وتمكنت من حلهم على  
 «كف عن المعارضة مؤكداً لهم أن في استطاعتهم أن يعتمدوا على كلمة كلن  
 قالوا أنهم قبلون مبلغ ٥٢٢٠٠٠ جنيه وسيريدون الجيش الى أقصى حد يسمع  
 به هذا المبلغ . وقالوا أنهم سيقنعون في وجوه يعرفونها ويلغون الجيش أقصى  
 قوته . وقد وعدوني في هذه الفرصة أن يصبروا ولا يقوموا بمظاهرات مسلحة  
 أخرى ثم وفوا بهذا الوعد الى اللحظة الأخيرة . وكانت آخر عبارة سمعتها من عرابي  
 يومئذ « من صبر ظفر » وقد أرسلت في اليوم نفسه مذكرة الى كلن أخبرته فيها  
 بالنتيجة ثم شكرني ما ليت على اخراجي لها من الصعوبة التي كانا يقاسيها . على  
 أن ما ليت لم يلبث أن أدهشني بعد ذلك بأسبوع واحد حين أطلعني وأنا ألاعبه  
 كرة التنس في دار الوكالة البريطانية بعد ظهر يوم ٢٨ ديسمبر علي صورة تلفراف  
 أرسله لوزارة الخارجية وقد ذكر فيه زيارتي لمصر والتشجيع الذي قدمته للوطنيين .  
 ولم يذكر في هذا التلفراف شيئاً عن المساعدة التي قدمتها له ولكنه شكاً من ارسالي  
 البرنامج الى جريدة التيمس على الرغم من معارضته في ارساله . ولما كنا قد علمنا  
 الى ذلك الحين باتفاق وولاء تام ولم يحدث مكدر أكثر من نشر البرنامج فقد أنبته  
 على سوء نيته في اخفاء الخدمات التي أدینها لسياسة وأصررت على أن يرسل تلفرافاً  
 يلني به تلفرافه الاول فلم يسمه الا أن يفضل ذلك امامي وأرسل تلفرافاً آخر أصلح  
 به بعض الحيف الذي أنزله بي . ولم أستطع قط أن أقسم عرض ما لبت من هذه  
 المساورة . وقد حملتها في ذلك الحين على محل الفيرة المعارضة وكرهيتها ان تعرف

وزارة الخارجية انه كان لي شأن في تحس الصلات بينه وبين الوطنيين . ولكي بعد انعام الطر جعلت هذه الماوردة علي صدره الطبيعي الذي أوحى اليه أن يحتاط ليدراً عن نفسه كل مسئولية امام الرأي العام فيما يختص برأيي في الوطنيين المصريين اذا بدأ للوزارة الانجليزية أن تطعن على هذا الرأي . ولعل هذا هو السبب الحقيقي والذي يؤيد ذلك أن ذمته لم ترتج الا حين كاشفي باجرا . انه الرسمية هذه . ومع انه ندم على غدره قد كان لي من عمله هذا محذراً لم أسه فيما بعد فكنت أشعر بشيء من وقع الصدر علي يديه في بصرة الاسابيع التي كنت أذهب فيها الي الوكالة البريطانية بعد ذلك . علي أني كنت مستعداً لمساعدته ولم يمض وقت قصير متى اضطرته الاحوال القاهرة الناشئة من عزله السياسية في القاهرة الى الاتحاد الى حذمانى . فأرسلني حين طعن عليه الموج كرسول السلام الى عرابي وأخوانه الضباط . وقد سار كل شيء علي ما يرام الى آخر ذلك العام وفي خلال الاسبوع الاول من سنة ١٨٨٢ كل الاتفاق قد ساد بين جميع الاحزاب المصرية وهذا الجيش واعتدلت لهجة الصحف تحت رقابة الشيخ محمد عبده المحبوبة لدي الجميع ، وأخذ الوزراء الوطنيون وقد اطمأنوا ولم يعد أحد يهددهم بضعون مشروع القانون الاساسي الذي يمنح البلاد حرياتها وفي ٢٦ ديسمبر اجتمع مجلس النواب للدولة في نصوص الدستور بالقاهرة وفتح بمخطة تدعو الى الثقة من الحديوي بالذات . وكان هذا قد أحسن السلوك نحو الحركة الوطنية الى حد أن كتب مالىت عنه الي لورد غرانفيل يقول « وجدت سموه منشروا لأول مرة منذ عودتي في سبتمبر وقد صار الآن كبير الامل من نحن الاحوال . ولم يستطع الانسان الا أن يرى هذا التغير الكبير فيه والظاهر أنه راض بالمالة كما هي » وكل عرابي قد كف عن شغل نفسه بشكوى الناس . واتفق معتمدا فرنسا وانجلترا على أن ينظم عرابي مركزه بقبول المسئولية المترتبة على نفوذه السياسي وذلك بأن يتقلد وزارة الحرب . وقد قصدا بذلك التوقي من خطره ووضعه الى جانب المحافظة على النظام .

ولم يبق محل للشك الا سلوك النواب حيال نصوص الدستور الذي اجتمعوا لمناقشتها . على ان اعلينهم بدت كاسدقائي الارهرين ميالة للاعتدال . وقال الشيخ



محمد عبده « لقد لبنا عدة قرون في انتظار حريتنا فلا يشق علينا أن نتنظر الآن بضعة أشهر » ولست أشك في أن ماليت وكافن وستوكوكز كانوا في ذلك الحين يعطون على طلب الوطنيين للبرلمان عطفاً حقيقياً . وقد بدأ برون ان هذا هو اللطاب الوطني العام وان البرلمان يقي من شر الافكار الاشد تطرفاً . ولو ان حكومتى فرنسا وانجلترا أعلنتا في ذلك الحين حسن النية حيال الاماني الوطنية لكان في الطاقة ان يوضع نظام حسن العمل بين المراقبة الثابتة والحكومة الوطنية ولو تم هذا لضمن مصلحة حملة الاسم كما ضمن حرية مصر . وقد حسبنا يومئذ ان الحكومتين لاتبثتان في اعلان كذا .

وقد نشر البرنامج الذي أرسلته الى التيس في عددها الذي صدر في اول يوم من أيام سنة ١٨٨٢ مصحوباً بمقال افتتاحي يتضمن الموافقة والاستحسان : وقد أحسنت أودبا تلقي هذا المنشور على الرغم من تطير ماليت بالسوء . ولم يكن له في الاستانة وقع سيئ . وكان هذا البرنامج من اعتدال الهمجة والصراحة واستقامة المنطق بحيث خيل اليها انه لا يمكن ان يسيء أحد فهم حقيقة الموقف في مصر بعد الاطلاع عليه . وكذلك لم يتصور أحد أن تسيء انجلترا استقباله مع وجود أعلىة حرة في مجلس النواب ومع وجود المستر غلادستون في رئاسة حكومة حرة . نعم لم تتصور ذلك نحن الذين كما نتنظر رد غلادستون ولم يخطر على بال أحد منا ان وزارة الخارجية البريطانية كانت في ذلك الحين تعد عدة التحدى والتدخل المسلح . ولكن من سوء الحظ ان هذه الوزارة كانت قد قررت مناهضة أماني المصريين وان لم يعرف أحد ما ذلك ولا ماليت نفسه . والظاهر ان البرنامج وصل الى غلادستون بعد الوقت الملائم بأسبوعين . وبينما سنا نتنظر رسالة سلمية اذا بمذكرة ٦ يناير المشتركة تقع علينا وقع الصاعقة . وقد نقضت هذه المذكرة كل آمالنا وضيقت حابنا وقدمت مصر ؟ . حرمة بحر لحي من المتاعب .

وهنا يجب على ان أقص الحقيقة في كيفية تكون فكرة هذه المذكرة المشنومة التي يرجع اليها كل ما حدث من المتاعب في خلال ذلك العام ، والتي أفقدت مصر حريتها كما أفقدت غلادستون شرفه وأفقدت فرنسا نفوذها على جانيي النيل . وقد

يمكن ان عرف الانسان شيئاً عنها من الوثائق الرسمية التي نشرت انجليزية كانت أو فرنسية ولكن الذي يمكن معرفته من هذه الوثائق ليس الا بعض الحقيقة ثم لا يمكن معرفته الا بطريقة غير مباشرة . وربما كنت أنا الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يقص قصتها كاملة اذا استنباها الدين وضموها وكانت لهم علاقة رسمية بها وقد اعتقد المصريون بطبيعة الحال ونظراً لاستخدام المذكرة في مصلحة الاعتداء البريطاني انها من وضع وزارة الخارجية البريطانية وقد وضعتها لاستخدامها في قضاء اغراضها الخاصة ولكن الحقيقة ليست كذلك فلم توضع المذكرة في خارجية بريطانيا بل في خارجية فرنسا ولخدمة المطامع الفرنسية التي لم تكن سياسية فقط بل كانت مالية أيضاً .

وقد ذكرت كيف سافرت مع السير شارلس ديلك من لندن الى باريس وسردت الحوادث التي دارت بينا في الطريق والتأثير الذي تركته في نفسي من حيث اغترامه ببيع حرية مصر بالمعاهدة التجارية وهذا هو نفس ما حدث تماماً

في ١٥ نوفمبر استقال سانت هيلير وخلفه غمبا الذي وجد امامه ثورة اسلامية على الحكومة الفرنسية في تونس والجزائر . وقد ازعجته صبغتها الاسلامية وعزاها الى نشر الدعوة الذي يقوم به السلطان عبد الحميد وقد ظن أن الحركة المصرية قائمة على الاساس ذاته وكذلك كان يمدد دسائس اسماعيل وحليم وغيرها . وكانت فرنسا معادية من أول الامر للحقوق التي يدعيها الباب العالي في شمالي افريقيا وقد تقلد غمبا الولاية مصمماً على مقاومة تلك الحقوق بالقوة والصرامة . واذا كان غمبا يهودياً فقد كان متصلاً بالمصالح المالية في بورصة باريس وكان كذلك ذا صلة متينة ببيت روتشيلد وغيره من أصحاب الاموال الذين اشتروا بملايينهم سندات الدين المصري . وكان نوبار ناشا ورفرز ولسن يمشان يومئذ في باريس فكانا اخص من يتنصحن بارائهم في المسألة المصرية وقد كونا رأيه في الموقف بناء على المعلومات التي كان يستمدّها منهما .

فلم يمض عليه بضعة أيام في الوزارة حتى اخذ بفاوض وزارة الخارجية البريطانية ابتغاء حمل انجلترا على الاشتراك مع فرنسا في القيام بعمل عيف ضد الحركة الوطنية

ولن يكون ذلك بمثابة حلحلة صليبية تقوم بها الدولتان تحت ستار الدفاع عن المدنية وتنظيم ما ياب  
مصر . وكانت وزارة الخارجية البريطانية تريد ان تجد للمعاهدة التجارية المعقودة بين فرنسا  
والمجترات التي أوشكت أن يمحى أجلها فأسرع ما يمكن . وقد ارادت الحكومة  
البريطانية أن تنهز فرصة الصداقة الموثقة بين رئيس الحكومة الفرنسية الجديد  
والسير ديك وكيل خارجية بريطانيا لاستكمال المفاوضات في هذا الصدد . وكانت  
قد ألفت لجنة لهذا الغرض في باريس منذ شهر مايو وقد مثل فيها ديك وولسن  
فمجلتوا ولكمها لم تصل الى نتيجة . وقد استقر الرأي على أن يعود ديك الى  
باريس لمفاوض في مسائل مصر والمعاهدة التجارية ولم يمض أكثر من اسبوع على  
تقد عثمان رئاسة الوزارة . وإذا راجعنا الصحف التي كانت تصدر في نوفمبر سنة  
١٨٨١ نجد المفاوضات بين الدولتين كانت قد وصلت الى نقطة حرجية حتى قد  
تشيع أكثر من مرة انها قطعت . ولكن عودة ديك أحييت المفاوضات أو على  
الأقل حالت دون انقطاعها . ولث ديك روح ويقود بين فرنسا والمجترات من  
٢٢ نوفمبر الى ١٥ ديسمبر وقد جاء في الكتاب الأزرق الذي صدر في سنة ١٨٨٢  
برقم ٥ ان عبتا أرسل الى لورد ليونس السفير البريطاني في باريس يوم ١٥ ديسمبر  
شروعاً يقضي بالتدخل المشترك في مصر . وقد ذكر في مشروعه انه يرى التدخل  
ضرورياً لتقوية سيطرة الخديو توفيق . وقال « انه يجب بذل كل جهد لحله على الثقة  
بتأييد فرنسا والمجترات وحضه على الخزم والثبت وانه يجب اقناع أنصار اسمعيل باشا  
وحليم باشا كما يجب اقناع المصريين عموماً بأنه ليس في استطاعتهم أن يخلعوا توفيق  
وانه مما يرغب فيه ان يوضع حد حاسم للمساكن الاستثنائية الخ . » وقد بلغ لورد  
ليونس هذه العبارات الى وزارة الخارجية البريطانية وفي ١٩ ديسمبر . « وافق  
لورد غرنفيل على أنه قد حان الوقت لشطر الحكومتان فيما يجب احرازه » وبعد  
هذا التشجيع انهز غبنا في يوم ٢٤ ديسمبر فرصة التام مجلس الاعيان المصري  
ليقوم « بمظاهرة جليلة على اتحاد المجترات وفرنسائي تقوية مركز توفيق باشا واضعاف  
المسلمين على الاخلال بالنظام » وقد التأم المجلس المصري يوم ٢٦ وذكرت التيس  
فن ديك الذي عاد الى باريس يوم ٢٧ اجتمع بغامبيا يوم ٢٨ وحادثه طويلاً بشأن

المعاهدة التجارية فيما أعلن لورد غرنفيل في اليوم نفسه موافقته على « أن يعطي توفيق باشا تأكيداً كيداً يعطى المحلثا ومرسا وتأيدهما له وأن يشجع سموه على الاحتفاظ بسلطته واظهارها فعلاً » .

وغى عن البيان أن اتفاق التاريخين كاف وحده لاثبات العلاقة بين المسألتين . وانه بين الملاحظة التي حدث فيها الاتفاق الخطر وان البرنامج الذي أرسلته الى غلادستون في ٢٠ ديسمبر وصل متأخراً عن الوقت الذي كان يمكن أن يحول فيه دون وقوع الكبة . وكان وصول الخطابات الى لندن يستغرق في ذلك الحين أسبوعاً وكان غلادستون متعباً عنها بإحارة عيد الميلاد فلم يتسع الوقت لان يرسله الى وزارة الخارجية معها كان ميله الى ذلك .

وعلى هذا الموال تودعت حكومتنا في سياسة غمبتا ومن ثم قدم هذا في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨١ الى لورد ليوس مشروع المذكرة المشتركة ( راجع الكتاب الاررق رقم ٥ لسنة ١٨٨٢ ) مكتوباً بخط يده ليرسل المذكرة الى مصر تأييداً لرسالته المؤرخة ٢٤ ديسمبر وهذا يجب علينا أن نذكر أنه أعلن في اليوم نفسه أن المفاوضات الخاصة بالمعاهدة التجارية استؤنفت رسمياً .

وفي أول يناير أرسل مراسل التيس في باريس الى جريدته مخوي المذكرة الثانية قائلاً انه يقدمها الآن اتباعاً لتعليقات غمبتا الذي قال له أن لا يذيعها الا في الوقت الملائم » . وقد دل هذا على أن ذلك صحيح في مهمته التجارية وقد عاد في اليوم التالي ، ٢ يناير ، الى لندن واني لأجد تأثير الخطاب الذي أرسلته الى غلادستون في تأخير خمسة الايام التي مضت قبل أن يوقع غرنفيل المذكرة على كراهية للتوقيع وفي نغفله الذي ذكر فيه « أن حكومة جلالة الملك لا تعتبر نفسها مقيدة بهذا التوقيع بالعمل بانه خطة خاصة » . وهو نغفط خليف بفرنفيل دال على تناقض الآراء في ذهنه وقد ظهر هذا التناقض بعد ذلك بين غلادستون وبين وزارة الخارجية ومن ورائها السير ديلاك .

هذه هي الشواهد التي أمكن استخراجها من الوثائق التي نشرت يومئذ على أن عددي خطابا من رفرر ولسن جادى بعد ذلك بعدة أيام - في ١٣ يناير - رداً

على خطاب لي . وخطاب ولس هذا يوضح المسألة في نضع كلمات . قال في هذا الخطاب « يسرى اهتمامك بالشؤون المصرية وانت تؤيد ما اعتقد أنه الحقيقة في هطين على الأقل وهما أن الصباط يعربون عن الرأي المصرى العام وإن الخديو توفيق يعمل بالاشتراك مع السلطان . وعدي أنه لا يحمل للدهش في هذه النقطة الأخيرة فقد قال عبتا منذ ستة أسابيع « أن الخديو حجر السلطان » والسبب في هذا ظاهر فتوفيق ضعيف مجرد من الشجاعة ، والحيش قائم صده والحرم يكرهه فلا يجد من المعونة التى يتطلع لها منهم طبيعة الحال ولم يجد بدم أن يلتفت الى ناحية يمكن أن يأوى منها الحلفور عاحات منها المعونة المادية أيضاً وهى ناحية حكومتى انجلترا وفرنسا وأنه لمعالجة هذه الحالة فكرت الحكومتان في نشر الدكرة الثانية مهما كانت الاسباب التى تنتحل لاصدارها الآن . وسيكون أسى عطيا اذا أخفقت المذكرة في استحداث هذه النتيجة ولم تلق فيدوع الصباط والعلماء والاعيان ان نجد الاضطراب لا يكون له بعد الآن معنى الاندحل أوروبا الملح . وقد لانحب حكومتنا مثل هذا التدخل ولكنها أصبحت مقيدة فرنسا بصفتها رسمية ولم يعد يسرها الانسحاب . ومتى ذكرنا المنصب الرسمي الذى كان يشغله دمر ولسن في باريس وأضفا اليه اتصاله التام بديك وغبتا عرفنا ان هذا الخطاب وثيقة تاريخية مهمة وقد رأينا كيف انه وضع على الحكومة الفرنسية بصعة قاطمة مسئولية اقتراح التدخل المراد وهنه مسألة تؤيدها الكتب الصفراء ذاتها دعماً عن عدم وضوحها . وقد سمعت حينئذ وأصدق الآن أن كيفية التدخل التى اقترحتها غبتنا هي أن تقوم انجلترا بمظاهرة بحرية وأن تترك فرنسا جنوداً في مصر . ولو حدث لما كان هناك شك في أن التفوذ الفرنسي كان يسود مصر اليوم . وقد كان هذا هو الذى يكون لولا ان حال دونه سقوط غبتنا اذ صوت مجلس النواب ضد حكومته في مسألة داخلية على غير انتظار في آخر شهر يناير لان غلاستون كلّف في ذلك الوقت أحد عن الميل الى استخدام وسائل العنف من أن يرسل اسطولاً بريطانيا مع جيش فرنسي فلم يكن بد حينئذ من أن تتوسع فرنسا في حركتها البرية .

وفي الطاقة أن يسترح الانسان أكثر من نتيجة واحدة من هذه القصة التاريخية. وربما كان من أهم هذه النتائج أن الوزيرين أحقق كل منهما في تنفيذ غرضه على الرغم من اشتهاكل منها بالبراعة السياسية في دائرته وعلى أسلوبه الخاص . ولا شك في أن غبنا وغرنيل تباها في الاسابيع الاولى من شهر يناير بفوزهما في تحقيق غرض مهم وتقويتها العلاقات الودية بين حكومتيها مما حدث من الاتفاق وقد فاز غبنا بالذكر كما فاز غرنيل بالمعاهدة التجارية . ولكن الحقيقة هي انه لم يستطع أحد من هذين الشاظرين أن يجلب السلب الى بلاده فقد عجز غبنا مع كل مهارته عن حل أغلبية مجلس النواب الفرنسي على الموافقة على المعاهدة التجارية فسقطت المعاهدة وسقط معها ما رعه حرب الاحرار البريطانيين من أن حرية التجارة لا تحمل أنجلترا في عزلة . ومن ناحية أخرى وجد غبنا انه لم يعد — اذ انجم في اكرام غرنيل على توقيع المذكرة التي اعتقد انه سوف يستخدمها لاعلاء شأن فرنسا — ان صامح سلاحا لا يستطيع هو نفسه أن يحسن استخدامه . وهو سلاح لم يمس عليه ستة أشهر حتى تحول الى يد مزاحه في الوقت الذي ظهر فيه ان الاتفاقية الودية قد هدمت بمجرد حدودها كل الشهور الودي الذي كان متبادلا بين الاثنين اثنا . حيل كامل . وفي استطاعتي أن أفرق بين اخفاق الدسائين وبين تنافس مصالح أمتيها أما المأساة الحقيقية فهي ان أملا وطنيا قد خاب واصلاحا دينيا قد تأجل سنين عديدة كرامة للمطامع دنيئة وشهوات أدنا منها .

كان نحدى غبنا للحزب الوطني خطر أ على السلام في القاهرة . وقد كنت مع ماليت بعد وصول المذكرة اليه بوقت قصير فأعطانها لأقرأها ثم سألتني رأيي فيها فقلت « سيصبرونها اعلان حرب » قال « ليس المقصود بها غرضا عدائيا » . ثم شرحت لي كيف يمكن تفسيرها بما يوافق الاماني الوطنية . وقد طلب مني أن أذهب الى ثكنة قصر النيل وأطلب الى عرابي الذي كان قد عين حديثا وكيلا لوزارة الحرب أن يقبلها هذا المعنى ثم خولني أن أقول له « ان معنى المذكرة كما تفهمه الحكومة البريطانية هي أنها لا تسمح بان يتدخل السلطان في مصر ولا تسمح للتخديون بمنح بوعده . ويؤذى البرلمان : » وأخبرني أنه يرجى أن ينال إذا بنشر تفصيل

مكتوب للمذكرة بالمعنى المتقدم ولكنه لم يخولني سلطة قول ذلك لعراي ، وأعرف انه أرسل أكثر من تلافيف طالبا مثل هذا الاذن وانه كتب ينتقد المذكرة بشدة ويقول انها خطيرة مجردة من السياسة ولكم لا نجد شيئا من هذه المطالبات والاحتجاجات في الكتب الزرق وان كانت تلك الكتب تظهر اهتمام لورد غرنيل بها الى حد اظهار رغبته في نشر تفسير للمذكرة ولكن غبنا معه من ذلك ، واطاهر ان سكويكر طلب هو أيضاً من حكومته أن تأذن له بتفسير المذكرة ولكنه منع من ذلك ، وكذلك أنجى السير أوكلند كائن على المذكرة اثناء حديثه معي فأشد اللائمة كما فعل ماليت .

وقد ذهبت الى شكة قصر النيل في ظهر يوم ٩ ( وكانت المذكرة قد وصلت يوم ٨ ) فوجد عراي وحده في مكتبه . وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي رأيته فيها عاضياً . وكان وجهه كحافة الرعد . وكان في عيه برق خاص . وقد رأى من المذكرة وان كان لم يفشر بعد وقد سأله كيف فهمها فقال « اخبرني كيف فهمها أنت » وحينئذ أدبت رسالتي فقال « لاشك في ان السير أدوارد ماليت يحسن اطلاقاً لفهم معنى الكلمات . هذه لغة محمد وتهديد وليس في هذه الادارة كاتب يستخدم مثل هذه الالفاظ لغير هذا المعنى » ثم أشار الى الفترة الاولى التي ذكر فيها الاعيان وقال « هذا نجد لحرماننا ، وليس لاعلان اتحاد فرنسا وانجلترا معني الا ان انجبترا متغزو مصر كما غزت فرنسا تونس » ثم قال « دعهم يأتون فكل رجل وطول في مصر سيفاتلهم . ليس من مبادئنا ان نصرب الضربة الاولى ولكسا سنعرف كيف نردها » ثم قال فيما يختص بالمحافظة على عرش توفيق « ان السلطان هو الذي يحافظ على عرش توفيق فليس هو في حاجة الى ضمان أجنبي وذلك ان نخبرني بما نشاء ولكنني أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف ماليت » والواقع ان تفسير ماليت كان هراء في هراء . وقد شعرت لما صرت امام عراي بخفتي وخجلت من حملي اليه مثل هذا الهراء ولكنني أكدت له اني أدبت الرسالة كما أتقما الى السير أدوارد ثم قلت وهو يرجوك ان تصدقها وأنا كذلك » ولم يبد عليه شيء من آثار الرقة الا حين استأذنت في الذهاب فصارول ذراعي وراقني الى

الباب ودعاني لزيارة منزله كما كنت أفعل قبل ذلك. فقلت « سأجيء عند ما تكون لدى أبناء أفضل من هذه » وقد أملت بهذا الى التفسير الذي أستاذن ماليت في نشره. علي ان الاذن لم يأت. كما اني لم أعراني في الاسابيع الثلاثة التالية ولكي رأيته بعد ذلك حين وصل الى خطاب من السير غلادستون ففسرته بما أملأه على التناؤل وكان هذا الخطاب سبب سرورنا.

وقد عدت الى الوكالة البريطانية وسألني ماليت كيف أدبت الرسالة فقلت « لقد نفروا وأصبحت مصالحهم مستحيلة وقد قذفت المذكرة بهم في أحضان السلطان » والواقع ان هذه كانت الحقيقة ليس فيما يتعلق بالحرب الوطنية وحده بل فيما يتعلق بجميع الاحزاب والطبقات. ولقد مثل غمنا وباء بالحياة اذا كان قد أراد تقوية يدي توفيق بمذكرته الحقاء هذه فقد رعب الحديوي أما الوطنيون فقد هاحوا ولم يخافوا. وهنا وجد المصريون أنفسهم متحدين لأول مرة.

وانضم الشيخ محمد عبده والازهريون المعتدلون الى الحزب المتطرف بكل قوتهم وحق كل الناس ومن بينهم الحراكمة من النهديد الاجنبي ورأى اعداء الترك كصديق المجرسي ان عرابي كان بعيد النظر محققاً ان اعتمد سراً الى السلطان وبهذا كسب عرابي شهرة عظيمة واحتراماً رهيباً ومضت عدت أيام لم أسمع خلالها من أصحاب المصريين الا كلاماً في الرابطة الاسلامية وكل من ألقاه يقول هذه سياسة روستاويه (١) وقد بذلت جهدي في النهدة حتى يصل التفسير الذي وعدنا به ماليت ولكن جهدي ذهب عبثاً. وكانت هذه الاسابيع الثلاثة مزججة للجسيم وهي الاسابيع التي أنقضت منذ أرسل غمنا مذكرته حتي سقط وكان يأتي في هذه الاثناء أنباء بان قوة فرنسية تحشد في طولون استعداداً للامحار. وقد كان هذا شكل التدخل الذي نوقمه الجميع. وعدى ان سقوط غمنا أنقذ مصر من مصيبة ربما كانت أكبر من مصيبتها الحاضرة — مصيبة غزوة فريسيه موجة علماً صد الاسلام وفي مصلحة المصالح الاوروبية وحدها.

(١) نسبة الى روستان الذي أعد مشروع المحكوم على تونس



## الفصل التاسع

### ( استقالة شريف )

ولم ينتصف شهر حني ظهر في القاهرة أن الازمة السياسية تقترب بسرعة والواقع أنه لم يبق ريب فيها. وقد اتفق أن نشرت المذكرة الثانية والقانون الاسامي في وقت واحد . وكان المراقبون الماليون قد ألحوا على الوزارة في أن لاتعس سلطتهم في وضع الميزانية على مقتضى اعتقادهم في الحاجات الاقتصادية وان لا يتعرض المجلس الجديد لها بحث أو اقتراح موافق شريف باشا على ذلك ووضع المشروع بغير أن يجعل للمجلس أى حق في المسائل المالية . ولم يكن غير طيبى ان تستاء أكثرية النواب من ذلك وقد قالوا أن المراقبة المالية الاجنبية ليس لها شأن الا الاشراف على كل ما يختص بمسألة الديون ولما كانت فائدة الدين تبلغ نصف الإيراد فقد وحب أن تكون الامة حرة في التصرف بالنصف الثانى.

ومع ذلك فليس ثم عمل لان تعتقد بان النواب كانوا يصرون على المعارضة لاسما أن سلطان باشا الذى انتخب لرئاسة المجلس كان متفقاً مع شريف في أن الفطنة تقضي بالاذعان . ولكن الاحوال تغيرت في آخر الشهر عما كانت عليه في أوله . وقد رأينا كيف سهل الاثنان بين وزارة الحرب والمراقبين الماليين على ميزانية هذه الوزارة. ولكن الاعيان صاروا الآن — أي تحت تأثير المذكرة — بعيدين عن فكرة المسألة فقابلوا مشروع شريف بمشروع وضعوه بانفسهم وضمنوه عدة مواد توسع سلطتهم البرلمانية ونضع نصف الإيراد الذى ليس للديون به شأن تحت تصرفهم . ومن ثم وقع الخلاف العملي بينهم وبين المراقبين وقد تولى بلنجير القيادة وجركفن وراءه . وقد أعلن المراقبون انه لا ماص من جاء الميزانية كلها تحت تصرفهم المطلق وقالوا أن المشروع الذى قدمه النواب ليس مشروع لائحة برلمانية بل مشروع « معاهدة » ولا شك أن هذه العبارة مقتبسة من اصطلاحات الثورة الفرنسية وأن بلنجير هو الذى وضعها فتلقفها منه كل من وارعه مالت على ازديادها وكان الخلاف جدياً وربما أفضى الى الشر الذى كان يخشاه مالت ويعطى للحكومة

الفرنسية فرصة التدخل التي تنشدها . ومن ناحية أخرى كان شريف قد ربط نفسه بوجهة نظر المراقبين وكان هذان يلحان عليه في الثبات أما موقف الحديوي فكان مشكوكا فيه . وكانت فرصة وقوع الخلاف بين الحديوي والوهاب على الميزانية المرتطة بالديون الأوروبية هي نفس الفرصة التي تنتظر الحكومة الفرنسية أن تنهزها بعمل "سوء" وكان غمنا لا يزال في رئاسة الوزارة .

في هذه السدة العصيبة طلب ما ماليت وكلفني الذي كل يود أن ينفذ رأيه كمراتب مالي وإن لم يكن يرعى عن تدخل فرنسا أن أساعدها مرة أخرى بأن أذل حمداً جديداً لحل التطرفين من الاعيان على النزول عن بعض ما يطلبون . وبعد أن تداولت مع الشيخ محمد عمده الذي كان كذاباً من الميل إلى التبصر والمسالمة اتفقنا على أن التقي في منزله وفد مهم لناقشهم في المسائل وأرهمم النتائج المحتملة للمقاومة أي التدخل المسلح ومن ثم قدمت وجهة نظر المراقبين الماليين مع كلهم ووصعت مع ماليت قواعد المناقشة التي عولت على استخدامها وكلها مدونة لدى في مذكرة عنوانها « مذكرة بالامور التي سأقولها لاعضاء البرلمان المصري في ١٧ يناير سنة ١٨٨٢ »

ويؤخذ من هذه المذكرة أن تعليماً كانت تنحصر في أن أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءات الميزانية الحاضرة انما هي مسألة دولية لا يستطيع شريف باشا ولا البرلمان أن يمسها بغير موافقة الحكومتين الرقيتين . وكان على أت أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأرهمم مذكرة خاصة وصفا ماليت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارقتها بالمشور الذي نص على انشاء المراقبة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وإن أطلب اليهم أن يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءات إصدار الميزانية مسألة دولية وليست كذلك . وهل اذا كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم وقد اعترفوا بان المسائل الدولية يجب أن لا تمس . ومسألة الميزانية مسألة دولية وعلى ذلك يجب أن لا تمسوها . وقد خولني كلن أن أقول بانه هو شخصياً لا يمانع في تعديل الاجراءات الحاضرة تعديلاً طامعياً بحيث يعطي للمجلس حقاً استشارياً قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراح . فاذا قبلوا ذلك عرض

ماليت المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع أن يطمئن علي قبولها من جانب إنجلترا أو فرنسا . أما سائر حلافاتهم مع شريف فعليهم أن يسووها معهم بانفسهم . الخ . الخ .

على هذه القاعدة وبمساعدة صابوحي والاسناد الشيخ محمد عبده ناقشهم طويلا في المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتضت بأنهم لا يدعئون نعم ائمتهم واقبوا على تعديل ثلاث أو أربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وأدبحوا التعديلات التي اقترحها عليهم فيما يختص بها في الامثلة التي شرت ولكمهم نشبوا برأهم في مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاسناد محمد عبده لي ولم يقبلوا أن يغيروا سطرأ من المادة الخاصة بها وعدت مطاطي الرأس لا تبلغ ماليت حكاية فشلي ولم أتوسط بعد ذلك بينه وبين الوطنيين . فقد بذلت أقصى جهدي لاساعده علي حل مصاعبه حلا سلمياً ولكن شقة الخلاف بين وجهتي نظرياً اتسعت منذ ذلك الحين حتي لم يبق محل لتعاوني معه . ومع أني بذلت كل جهدي لاجل الاعيان على الاذعان تحت تأثير اعتقادي بانهم مبددون بالتدخل الارمني لم يسعني مع ذلك الا الاعتراف بانهم على حق في طلبهم السلطة على نصف الميرانية اذا كان الحكم البرلماني سيكون حقيقة لا تخويها . وتدل تفرقات ماليت في ذلك الحين على ان الاعيان كانوا بدأ واحدة في هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذي كان بطبعه وجلاً ضعيفاً بسهل ارهابه أعلن بصريح العبارة أن دستور شريف باشا « كاطيلة » تحدث صوتاً عالياً ولكنها غلوة .

وقد حملتني كراهتي للأتراك على الانضمام للوطنيين في الضال الذي نشب بعد ذلك بينهم وبين شريف باشا . وكنت قد زرت شريف قبل ذلك بناء علي رغبة ماليت وبحثت معه في المسألة وخرجت من البخشخبر راض .

كان شريف تركياً متفرنحاً طيب المنصر والاخلاق ولكنه لم يخل من شيء من الفطرسه واحتقار الفلاحين وهما الوصفان اللذان كافا من مميزات طبقة في القاهرة . وكان ماليت يقدره قدرأ كبيراً لاجادته معرفة اللغة الفرنسية وعلومها وسهولة التعامل معه لاسيما في الشؤون السياسية العادية ولكن تفرسه هذا لم يكن يروقي كلما وازت

بينه وبين الرجال المصلحين ذوي الفكر السامية الذين كانوا رواة الحركة الوطنية الحقيقية والذين لم يكن يعترهم شريف الا بمثل الاحتقار الذي قد يستشعره رجل فرنسي نحوهم وقد كان شريف واثقاً من كفاءته لحكمهم وقلة كفاءتهم . وقد قال لي « ان المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الاطفال ، وقد قدست لهم الدستور الخلق بهم فاذا لم يرضهم كان عليهم أن يعملوا بدونه . ابي اما الذي أنشأت الحزب الوطني وسيجدون انهم لا يستطيعون العمل بدوني . ولا شك في أن هؤلاء الفلاحين في حاجة للإرشاد » ومن ثم لم يشق علي أن أختار الحامب الذي أوليه عطفي حين نشب بينه وبينهم النضال العلمي بعد ذلك بزم قصير .

ولم أكن في القاهرة عند ما بلغتني أنباء استقالة شريف في ٢ فبراير وكان فثلي في معارضة الاعيان قد نكدني وشمرت أن قايي بمعارضتهم قد أقدمى مودة أصدقائي الاوربيين وانهم ربما يسيثون في الطن لمحاولتي اقناعهم بخطة لا تتفق مع الحطة التي عقدوا عليها عزائمهم فبعت عن النضال الذي لم تبق لي عليه سلطة ولا عدت قادراً على أن أقوم فيه بمخدمة غرض طيب ومع الى كنت مقبياً اثناء الشتاء في فندق النيل . فقد كان لي خارج المدينة خيام وجمال وخدم من العرب وكنت أورد هذه الخيام أحياناً ولكني الآن قبعث فيها . وكانت الخيام مضروبة في الصحراء بين قصر القبة والمطرية في نقطة اسمها الزيتون ، وكانت هذه المنطقة كلها لا تزال صحراء قاحلة في ذلك الحين والخيام قائمة الى جانب بقايا شادوف وهي الأثر الوحيد الذي يدل على انه كان في هذا المكان سكان . وقد كنا منفردين في هذا المكان لولا معسكر الامير أحمد الذي كان خارج دائرة المطرية ولم يكن يوجد أي نوع من أنواع المواصلات العامة بيننا وبين القاهرة فكنا اذا أردنا الذهاب الى القاهرة نركب جمانا الى مكل بين القجالة والعباسية حيث نستطيع أن نكثري الخير . ولم يكن يوجد ولا منزل واحد في الرمل بعد العباسية من الساحة الشمالية الشرقية . وعلى هذا استطعت أن أنسى الياسة لحظه وأن أتمتع بالعيش في الهواء الطلق وهو ما كنت ولا أزال أفضله على كل شيء على أني كنت قد فمت لاصحابي بمخدمة أخيرة اذ كبت في التيمس دفاعاً حاراً عن الوطنيين . وقد حضى على ذلك السير جرمجورى الذي

ترسل أكثر من خطاب قوي بالمعنى ذاته الى التيمس التي كانت تعد في ذلك الحين  
قوى صحيفة في أوروبا بلا نزاع.

وليس في الطاقة أن أبالغ في أهمية أي خطاب ينشر في التيمس في تلك الايام  
كما انه لاشك في اهتمام الساسة الذين لم علاقة بالخطاب المنشور بالاطلاع عليه والعناية  
بأمره . كذلك ليس من المبالغة القول بان خطاباتي وخطابات السير جربجورى بصفة  
خاصة كان فيها وقاية لمصر من كثير من الاخطار التي كانت تهددها . وقد وثق  
ما أصدقائنا المصريون لما وصلت التيمس تحمل هذه الخطابات وترجمت الى اللغة  
العربية ونجدد اعتقادهم عليا . ولكن هذا صابق مألوف . فقد كان مثله كمثل كل  
رجال السياسة في بعض العالمية وقد حقق منا نحن الذين كنا موطئين في خدمة  
حكومة اذ نجاورناه هو وورارة الخارجية ولجأنا الى الصحافة . وكان يعرف كيف  
يتصرف مع مراسلي الصحف ولكنه لم يعرف كيف يفعل معنا نحن الكتاب  
الاحرار ولا استطاع أن يراقب آراءنا أقل مراقبة . ومن ثم انتهى عهد الصداقة  
التي كانت بيني وبين الوكالة الى ذلك الحين رغم ما حدث من الخلافات الصغيرة  
ولكن هذا من سوء الحظ الذي قدف بماليت — الذي كان دائما في حاجة الى الاعناد  
على من هم أقوى منه — في أحصان قوم أقل ميلا منا الى المسالمة والصلح .

وفي مذكرياتي أجده في ذهبت في يوم ٣١ يناير وهو اليوم الذي سقطت فيه  
بزلورة غمتنا الى القاهرة وقابلت كلن ونحدثت معه حديثا خطيرا . وقد استحدثت  
لحوادث التي جاءت بعد ذلك لهذا الحديث أهمية تاريخية لمحيته في تاريخ على مدى  
صحة أيام من الوقت الذي غير فيه المراقب البريطاني مسلكه ففرت معه سياستنا  
عمر الوطنية المصرية كما انه يضع على كاهل كلن مسؤولية القطيعة التي جلبها بأعماله .  
قد ذكرت فيما سبق طرفا من أخلاق السير أوكلاند كلن فهو نموذج الموظفين في  
خدمة الهند قوي الاعناد على نفسه وصار معتادا على الاساليب المتبعة منذ زمن طويل  
في الهند ولكنها تعتبر مع هذا جديدة بالنسبة للسياسة الاوربية ولا يميل الى الشرق  
لا الميل الذي يجعله يستحدمه للاغراض البريطانية بفكر ان يحبه وهو فوق هذا  
بارد الطبع عبر جذاب . وكنت قبل ذلك التاريخ قد أخذت الاستاذ الشيخ

محمد عبده لزيارته اشتاء، التقرب بيها وكذلك فعلت مع الصباط ولكن أخلاقه  
 عرت الشيخ منه وكل الصباط أشد حياء، من أن يذهبوا اليه مي . وكان كل من في  
 بعض الاحبال مدعاً في صراحته ولا زلت أذكر قوله لي ذات يوم اذ كان يتحدث  
 عن الاعمال الخفية التي اشتهر بها الشرقيون . انه محطى من بطن انب الشرقيين  
 يفوقونا في ذلك . قال ان في استطاعة أي انجليري يعرف اللعبة ان يعلمهم بأسلحتهم  
 وهم أطفال في العش متى قام بينا وبينهم النضال .

وقد كان في الفرصة الماخضة أشد صراحة منه في أي وقت آخر . وكان الخلاف  
 بين الاعيان وشريف في أشد أطواره فسألته عن رأيه في الموقف فقال انه يعتبره  
 خطيراً . فقد ظهر أن الوطنيين عقدوا النية على اسقاط شريف فادا محموا قطع كل من  
 علاقته بهم . وقال لي انه غير فكره تماماً بالنسبة اليهم . فقد كان يطلمهم معقولين  
 ولكه وحدهم خياليين وسينزل كل جهده في هدهم اذا تقلدوا أزمة السلطة .  
 فسألته كيف يفعل ذلك وكيف يقف حركة وافق عليها حديثاً وان كان قيادها  
 خرج الآن من طوق كل انسان . كيف يعقل ذلك بغير ذلك التدخل الذي اجتهدنا  
 جميعاً أن نحول دونه . فقال انه غير فكره فيها يختص هذا التدخل أيضاً وانه يعتقد  
 انه صار الآن ضرورياً ولا مفر منه وانه لا يضمن يبدل جهده في تحقيقه . فجادلته في ذلك  
 وقلت ان التدخل معناه الحرب والحرب معناها الضم . فقال انه يفهم بهذا المعنى  
 وانه شهد هذه المسألة تكررت مرة بعد أخرى في الهد . وليس في الطاقة أن ترفع  
 انجلترا القدم التي وضعتها في مصر ولا فائدة البتة من التحدث عن حقوق المصريين  
 أو اخطائهم النظرية . فليس ثم محل لاعتبار مثل هذه الشؤون . وقد كرر ماقاله عن  
 تدبير الحزب الوطني وقال انه أعلن عزمه هذا ولم يبق سراً وسيعمل للتدخل والضم  
 اذا لزم الحال .

هذا وأنا واثق من اني لم أحرف شيئاً من العناصر الرئيسية في هذا الحديث  
 ولم تكن المسألة مسألة كلمات قليلة تبودلت على عمل ولكها كانت ماقشة استغرقت  
 نصف ساعة وقد بلغ من تأثرى . بها ان قررت تحذير أصدقائي المصريين الذين  
 كنت قد أكدت لهم فيما سبق حس شعور كل من نقوم وقد وجب الآن أن

يتوقعوا أسوأ الشر من جانبه . وقد أحابوني بهم يعرفون ذلك وانهم قد وصلت اليهم أنباء كهنه عنه .

وقد فتح هذا الحديث عيني لخطر جديد . وكنت قد وصل الى قبل ذلك يومين خطابان أحدهما من مصكر المحافظين في اعلمترا وكلاهما يحصل مثل هذا الانذار . فقد كتب الى جون موربي رداً علي خطاب طلبت فيه مساعدته للقضية الوطنية المصرية يقول فيه « اني أشك الآن في أن تصيب مشروعاتك أي نجاح . فصر لسوء حظ أهلها ميدان المناقشات الأوردية وستحول مصلحة فرسادون حل مألها حلا يتفق مع مصلحة أهلها . ولست أجد مهراً من هذا . انها لعة الدنيا تلك العظمة السياسية التي سوف تفسد كل شيء » .

أما الخطاب الثاني فن يتون وقد جاء فيه ما يأتي « ان الجمهور الصغير الذي يعني بمسائل السياسة الخارجية في قلق من جراء المركز الكاذب الذي سوق أنفسنا اليه في مصر وهو يخشي أن يرفع صوته ويتكلم في المسألة . ويلوح لي أن آراءهم مع ذلك ليست واضحة . وعدى ان هذه هي أولي ثمرات سياسية مبنية علي خطأ وقد أخذت ما معونة ألمانيا والمسا ووضعت تحت رحمة فرنسا التي لا يمكن أن يكون بيننا وبينها أي تحالف حقيق في أي يوم » وقد كتب الخطابان قبل سقوط غيبنا ويخيل لي الآن اني أسمع صدى ما فيهما من الكلمات ولا سيما كلمات مورلي عن العظمة السياسية من رجل في استطاعته أن يفسد حلا عادلا لارضاء مصلحة فرنسا وكذلك مصلحة بريطانيا . والحق انه قد استولى علي الخوف وتدمت علي أن صدرت مني الكلمات التي قلتها لكلفن في هذه الفرصة . فقد قلت له « اني أتحداك لتتحقق ما تزعمه من التداخل أو الضم البريطاني » وكان ندمي راجعاً الى أن هذه الكلمات حركه من ناحية شخصية فضلاً عن الناحية السياسية لتنفيذ ماعمله بعد ذلك فقد صارت المسألة مسألة ملأاة بيننا .

ولما وجد شريف باشا بعد يومين أي في يوم ٢ فبراير انه لا يستطيع أن يطوى الواب الوطنيين لارادته قدم استقالته متأراً بتهدد كلفن بالتداخل فيما اعتقد خلفه

محمود باشا سامي البارودي الذي اختاره النواب وعين عرابي ودربراً للحرب فكانت الوزارة مريجاً وطنياً انتهجت به البلاد (١)

وقد جاءني الاباء في عزلي بالصعراء فقابلتها بشعور من مزيج الفرح والقلق ولم يخف قلقي الا في ٢٧ فبراير حين وصل الى رد المنبر علاءستون علي الخطاب الذي كنت أرسلته له منذ سنة أساييم وأرسلت معه البرنامج الوطني . ولا شك في أن التأخر في الرد راجع الي الحيرة التي ودرسته فيها ارتباطات عرنميل مع غمتا . ولكن سقوط غمتا اطلق الحرية لحكومتنا فأدجمت في خطاب الملكة عند افتتاح البرلمان فقرة تضمن العطف علي الاماني الوطنية المصرية . وهنا ارسل الي المنبر علاءستون رده وختمه بالعارة الآتية « انا واثق من استطاعتنا حل المسألة علي وجه مرض اذا لم يقع من أحد الطرفين أو كليهما أو علي الأصح من الجميع خطأ كبير . أما رأيي في المسألة المصرية فقد أعربت عه في مجلة « القرن التاسع عشر » قبل أن أقبل الوزارة بوقت قصير ولست علي بينة من أن هناك ما يستوجب تغييره الي الآن »

وكانت اشارته الي مقاله هذا الذي عوانه « الاعتداء علي مصر » علي جانب كبير من الاهمية لان المقالة كانت حكماً صارماً علي سياسة التدخل والضم التي أعلنتها

(١) كان في الوزارة نقطة ضعف أو قطنان أهمهما ما يختص باختيار وزير الخارجية . ولم يكن محمود سامي أو عرابي أو غيرهما من الضباط المصريين يعرف لغة أجنبية . ولما كانت معرفة الفرنسية ضرورة للتغاطم مع القناصل فقد اختاروا رجلاً يعرفها ولكنه ليس من حزبهم ولا يرتأي مثل آرائهم . وكان هذا الرجل مصطفى باشا فهمي من طبقة المحكام وأحد أتباع شريف وأركان حرب اسمعيل في سنة ١٨٧٨ والذي اشترك في مأساة اسمعيل باشا المعش . وكان فرعه من تلك الحادثة هو سبب تحوله الي المبادئ الدستورية . ولكنه كان مثل شريف يحتمل زملاءه الفلاحين وقد أصابهم بصرر بليغ بعد ذلك بشهرين اذ كان يصور قصبتهم في مراسلاته نصوراً سيئاً . ولم يستطيعوا أن يدركوا هذه الحقيقة لهمهم الفرنسية الا بعد فوات الاوان .



الى كلفن فلما حصلت على هذا البرهان اللامع على حسن نية غلادستون عدت بسرور الى القاهرة واستطعت ان اخبر عرابي انى لم اؤكد له عطى عبثاً . وقد وحده في وزارة الحرب بحيط به اصدقاءه وهو البطريرك القبطي وبعض المشاركين والاوروبيين الذين قدموا لتحية الشمس المشرقة . وكان عرابي يتحرك بمظاهر السيادة والنبل في هذا المحيط وشهد ما كانت تخيل عليه تلك المظاهر . ولم يكن الآن مجرد قائد فرقة بل كان رجلاً اكسبته المسؤولية الحديده التي اقيمت على عاتقه كثيراً من الرصانة . وكان لا يزال مع ذلك فلاحاً ووطياً وان اكتسب مظاهر الرجل السياسي . وقد افتردى فاطمته على خطب غلادستون واتهمها به معاً كبشارة سيئة .

على اننا لم تنتظر طويلاً اولى ثمرات عداوة كلفن . ولست ادرى مصدر الكذبة بالضبط ولكي اوضح ان يكون الحديوي هو الذي حملته غيرته السيئة من سلطه الوزراء على اداعتها . فقد أرسلت شركة روتر تليفرافا قالت فيه ان استقالة شريف باشا حدثت تحت التهديد العسكري . ثم قصت التيمس قصة طويلة مفادها ان سلطاناً باشا ورئيس المجلس لم يدع الا تحت تأثير التهديد الشخصي وان عرابي استل سيفه امامه وهدد بتقليم اطفاله وقد كانت هذه قصة طائشة فان سلطاناً باشا لم يكن له ابناء فلم يسع كل من عرف هذه الحقيقه في مصر الا ان يضحك من هذه القصة ولا سيما أولئك الذين عرفوا متانة العلاقة بين عرابي وسلطان باشا ولكن هذه القصة كانت كافية مع ذلك ليتخذ منها كلفن سلاحاً « لتدمير الوطنيين » فرت بسهولة من رقابة الوكالة البريطانية وذكروا ماليت في بلاغاته اليومية في حكاية أخرى مفادها ان الحديوي قبل استقالة شريف تحت تأثير تهديد كلفن .

ومما يكن من سخافة القصة فقد استاء منها سلطان باشا وطلب مني بعد ان كان الواب قد عرفوا صداقتي لهم ان اكذبها تكديماً باتاً لدى ماليت . وقد ذهبت الى منزل سلطان باشا فوجدت فيه طائفة كثره من الواب وكثيرين من ذوى الخيئات والمكانه في مصر وهم الشيخ العباسي وعبد السلام باشا الموليحي

واحمد بك السيوفى وهام افندى محادى وشديد بطرس احد كبار النواب الاقباط وغيرهم .

وقد أسكر هؤلاء جميعاً هم وسلطان باشا أنهم عملوا تحت تأثير أى تهديد وتكلم سلطان باشا بلهجة شديدة مستكراً القصة التى اخترعت عنه وقال « ان احمد عرابي إنما هو بمثابة ابن لى وهو يعرف حقى وواجه فمكانه في ودارة الحرب ومكانى في البرلمان . وهو ينتصح لرايى وليس يعتدى على حقوقى . أما من حيث استلامه السيف أمامى صولا يفصل ذلك الا اذا رأي أعداء يهاجونى . وهذه حكايات لا يصدقها رجل يعرفنا نحن الاثنين وهى حكايات كاذبة لا أساس لها من الصحة . ولك أن تتق بأن أصغر نائب هنا يمثل الناس بحسن الحكم على ما يحتاجه أولئك الناس أفضل من أعظم حندى . ونحن نحترم أحمد عرابي لاننا نعرف انه صادق الوطنية عظيم المواهب السياسية وليس لانه جدى » وقد نقلت كلمات سلطان باشا هذه عن مذكرة لى أثبتتها فيها يومئذ . وقد انجى الشيخ على مالىة لتشره مختلف الاباطيل وطلب منى أن أقبل اليه الحقائق وأن أبلغها لفلادستون وأتشرها في الصحف وقد أرسلت الحكاية بالتفصيل الي التيمس ولكنها لسبب لا أعرفه لم تنشرها وأرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه للستر غلادستون ثم أرسلت خطاباً مستقياً ضمه رأيى في الموقف كله .

وقد ذهبت في الحال من منزل سلطان باشا الى مالىة وجادته في المسألة بحدة . ولكنه أصر على أن حكاياته هي الحقيقة وانه استقاها من سلطان باشا بالذات فلما علم أي قادم من منزل سلطان عاد فقبل انه استقاها « من ثمة » فلما شددت عليه التكبير وسأته . « هنا » الثقة « حنة » وقال انى لا حق لى في استجوابه . ولكن ذلك آخر حديث لى معه في السياسة . وقد فهمت من ممالك مالىة هذا انه مثل كل من انضم الى مصر العدو وانه لم يبق محل للركون اليه . وقد طهر لى خطر الموقف ملموساً لابل الصحف ووزارة الخارجية كاتبا بين أيديهم وقد شعرت بضعف مركزى في ماضلتها على الرغم من اصفا . رئيس الوزارة لى وعدم ضن التيمس بنشر آرايى . لذلك قررت أن لا أؤخر عودتي الى انجلترا حيث أستطيع

أن أحدم المصريين أكثر مما أستطيع ذلك في القاهرة وذلك لحظاته والتسكك مباشرة مع غلاستون . وقد تحدثت مع كبار الدواب وأصدقائي الأزهريين قبل سمرى وأطلعهم على مشروعاتي فوافقوا عليها وانفتحت مع السير ويليام جرمجوري علي أن يتولى في غيبي الدفاع عن القضية المصرية التي كان متحمساً لها مثلي في التيسر والخطابات يرسلها إلى أصدقائه في إنجلترا . وكنت أحسب أنني سأعود إلى مصر في ظرف بضعة أسابيع وأن أشارك في التطورات التي قد تقع .

وررت عراني آخر مرة يوم ٢٧ فبراير وهو اليوم الذي سافرت فيه إلى إنجلترا . وكان قد مضى علي أكثر من ثلاثة أشهر في مصر وقد بدت لي كأنها عمر بما أنارته في من بواضت الاهتيام . وقد نظرت إلى مصر كأنها وطن لي ثاب واعتزمت علي أن أقف إلى جانب المصريين كأهم هم مواطني . وقد شعرت بالبعد عن مواطني في اليوم ما عدا السير جرمجوري الذي كانت تتألف منه الحالية البريطانية في مصر .

وقد اعتاد الجميع لآراء كلفن كاتقاد الغنم وصاروا جميعاً يقولون بالتدخل . ولم يكن التدخل الذي يتكلمون عنه تدخلا فرنسياً بل تدخلا إنجليزياً وقد تحول فصار الآن واجباً بعد أن كان محض اعتداء كما كل معبوما أنه سيكون من جانب فرنسا . نعم كان التدخل بغيضاً وكان اعتداءاً محضاً لما هدد به عمنا ولكنه صار عادلاً ومرغوباً فيه بل صار واجباً وطنياً لما مادي به غرنفيل وكذلك حدث مع الحالية الفرنسية في مصر فقد صارت في جانب المسألة لما تغير رئيس الوزارة الفرنسية وحلفه الميسو فرسينيه وعكس سياسة سلته . ولم يشد عن هذه القاعدة من الجالية كلها إلا الميسو بلنجير وغيره من المرنسين ذوي الوظائف الرسمية الذين خافوا الضغط في العهد الجديد .

وقد حد كلفن وبلنجير في بث الرعب بين أصحاب الوظائف وكان من دواعي الدهش أن غير الشاعر لورد هاوتون موقف العطف الذي كان قد اتخذته جبال القضية الوطنية حين أخبره زوج ابنته فترجى الله أن يعيشه اليوم أصبح مهدداً . وكان معبوما أن البرناج الوطني يقضي بالاعتصام في المرات عبر الصرورية وعدم السماح بأن يشغل رجل واحد وظيفتين ويقاوم مرتين . ولم يعز كلفن هذه الحطة

لسمها الحقيقى وهو الاقتصاد المشروع ولكنه عزاه الى « التعصب » وهذا لفظ يلائم الاعراض الجديدة . وقد بدأوا يكثرون من استخدامه في وصف الحركة الوطنية . أما الذى استندوا الى الحكم عليه فقد كان ماسحاه جماعة الموظفين البريطانيين « قرار مجلس النواب المصرى الفطيع » اذا هو تمكن من السيطرة على المبرانية على قطع الاما الخبسة التى كانت تعطى لشركة روتر . وكان يحجل لهم انه اذا قطعت هذه الاعانة استحال عليهم أن يعرفوا تفصيلات ما يجرى في سباق التوارب بين جامعى كبرجج واكسفورد !! أو تفصيلات الحصول على جائزة سباق دربي ... وكانوا كذلك يقولون أن المجلس سوف لا يبقى النسخة الآلاف التى تعطى للادورا وشد ما كان فترج الد بدى . ويعدى هذه القصة ويؤكد انها نتيجة التعصب الفطيع . وكانت هذه الترهات وأمثالها من التافيات قد اعتبرت جرائم هائلة ضد المجلس وضد الوزارة التى كان يقال لها متفتة مع المجلس في وجهة النظر . وقد تعودت أن أسمع قصة هذه الشكايات من حرجورى الذى كان الصق بالمالية الانجليزية الآس مي . وقد بدا لى أن أظهر ثقتى في نجاح القضية الوطنية — بعد أن أخذ أثر التهديد بالتدخل يطهر في انخفاض أسعار أسهم الدين المصرى والأراضى المصرية — فاشترت جينة الشيخ عبيد وهي أروعون فدا ما بين المريج والمطرية ونوبت أن أقيم فيها في المستقبل

وقد يعنى القراء المصريون أن يعرفوا سعر أراضى تلك المنطقة في ذلك الحين . ولم يكن قد بى ولا منزل واحد كما أسلفت في شقة الصحراء بين العاسية وكفر الحاموس وكانت الحكومة رغبة في بيع الصحراء لكل من يقبل أن يدفع في الفدان بضعة قروش . وقد فكرت دات يوم أن أنشي . لتسي مقرأ في المكان الذى ضربت فيه الحيام وتمحريت من صديق روجر بك الذى كان في مصلحة الأراضى بوزارة المالية عن الأسعار وقدمت طلباً لشترى مائة فدان في الزيتون على أن أدفع في الفدان خمسة عشر قرشاً . وهذه الاراضى يساوى الفدان منها الآن ، في سنة ١٩٠٤ مائتي جنيه . ولكن حدث أن حين كنت أساوم فيها علمت أن جينة الشيخ عبيد معروضة للبيع فاشترتها بالمراد من لجنة اللومين بأب وخسامة جيه . وقد كانت

حميد أحسن حديقة الفاكهة في مصر بحيطها سور وتروى من ماء بئر وكلت فيها شجرة من شجر الفاكهة في أحسن حال .

ولهذه الحديقة تاريخ لا بأس بآراءه . فهي قطعة أرض حصّة على حافة تصعرا ، وكل يملكها في أوائل القرن التاسع عشر أمام جيش إبراهيم باشا الذي عرّاه بلاد العرب . ولكن الامام وقع في أزمة فاشترها منه إبراهيم باشا وسور منها ثلاثة وثلاثين فدانا واحتر السواقي وطمها كما هي الآن . وقد حدث هذا كله من الثلاثين سنة الاولى من القرن الماضي . وقد حلب بعض الشجر المفروس فيها من الطائف في الحجارة وبعضه من سوريا . وكان إبراهيم باشا قد عيّن نائب يجعلها أحسن حديقة من نوعها وكان أراد بيع ما كنها في عصره وعصر ابن أخته مصطفى الذي ورث الحديقة ببلغ ١٠٠٠٠ جنيه . أما العمل فيها فكان سحرة على املاحين المحاورين وكان رماها من كبر الحجم بحيث شاعت بين السنانين قصة فخواها ان تلحل لا يحمل اكثر من ثلاثين رمانة من رماها وانه كانت ترسل كل عام هدية من هذا الزمان للسلطان . والذي أعرفه هو أنه في زمن بوقي حميد إبراهيم وفي لوقت الذي كلب توفيق فيه يعيش في عرلة أثناء حياة أبيه اسماعيل بقصر القبة كان سيدات الحرم يذهبن الى هذه الحديقة يوما في الاسبوع للرياسة في فصل الربيع . لما خلع اسمعيل في سنة ١٨٧٩ وقعت هذه الحديقة في أيدي المصنفين وكانت من المناطق الصغيرة التي استقر رأبهم على بيعها وهذا هو الطريق الذي وصلت منه الى السوق . وكما في العام السابق قد ضربنا خياما خارج أسوارها ونحس في الطريق الى سوريا وقد شاقنا ما فيها من جهال ولا سيما شجر المشمش الذي كان يومئذ في ابلان ارهاره لذلك ما أسرع ما أنقبت عليها ونبتت كل مشروعات الشراء الاخرى حين علمت أن في الطاقة الحصول عليها وهأما أكتب الآت في ظل احدى مجالها الظليلة :

والآن أعود لريادة الوداع التي زرتها لعراي . ففي هذه الريادة تناقشنا في كل الموضوعات التي كانت محل الكلام يومئذ في الدوائر الوطنية بما فيها من مشروعات للاصلاح وأمان ومخاوف في الداخل والخارج . وكانت بصمة الاسابيع التي قصاها

عراقي في مركزه الجديد — ورر الحرب — قد أصبحت وقوته فاقشي في كل الموضوعات رصانة واعتدال عظيمين سواء في التفكير أو في اللمحة . وقد أكد لي أنه هو وزملاؤه الورراء برغبون كثيراً في أن يصلوا الى تفاهم ودي مع الحكومة البريطانية في كل المسائل التي يختلفون فيها مع الوكالة البريطانية في القاهرة وطلب الي أن أبلغ رساله هذه بصفة رسمية الى علاءستون وقد شكاكشكوى مرة من كافر وماليت الدين طهر مسلكها العدائي من الحطة التي حريا عليها فيما يختص بشوويه سمعة الوطنيين في الصحف البريطانية . وقال لي « ان السلام لا يمكن أن يوطد في القاهرة ما بقي هذان وما بقيت علاقتنا مفصولة عليهما قاتنا نعرف انهما يعملان لا يذاثا سرأ ان لم يكن علماً . وسنف عمل عليهما جميعاً . ولكما لا نريد أن يختلف مع انجلترا كرامة لهما . دع المستر علاءستون يرسل لنا أيا كان خلاصهما لتفاهم معونهم ننتقله بأذرع مفتوحة » وقد أطلب كذلك في تفصيل مشروعات الاصلاح التي ينوبها محمود سامي وزملاؤه الورراء . وقد بعد كثير من تلك الاصلاحات بعد ان عرى للموطنين البريطانيين في عهد الاحتلال وادعى لورد كرومر انه مستكر كثير منها . فس ذلك الفاء السخرة التي كان يصرفها الباشوات الترك على الفلاحين واحتكار بيع الماء في مدة الفيضان وحماية الفلاحين من المرائين اليونانيين الذين أشوا فيهم الاظفار بسبب فقدان العدل في المحاكم المختلطة . ومن هذه الاصلاحات أيضا انشاء بنك زراعي تشرف عليه الحكومة . وهذا هو البنك الذي باقى به كثيراً المرحوم اللورد كرومر .

كذلك تناقشنا في الاصلاحات القضائية وكانت درائر القضاء يعمها الفساد كذلك تكلمنا في نظم تربية الذكور والانث في طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد ومسألة الرقيق . وقد أطل عراقي الكلام في هذه المسألة الاخيرة وكان الموظفون الاحانب في مصلحة الرقيق قد خشوا أن يتناول الاقتصاد في المرتبات مرا كرم ومن ثم كانوا يزعمون أن احياء الاسلام معناه احياء الاسرقاق . وقد أظهر لي عراقي ضعف هذا الزعم وما فيه من الاقتراء . وبين لي انه ليس في مصر من يود أن يكون لمعيد غير أمراء البيت الحديو والباشوات الاتراك الذين نعوذوا استبعاد الفلاحين

وانت الاصلاحات الجديدة سوف توطد المساواة بين الناس مهما اختلفوا في احسن واللون والدين وليس مع هذا الاصلاح محل الاسرفق أما فيما يخص ضرورة الاستعداد لحرب محتملة - ذلك الاستعداد الذي يجب أن يشغل ذهن وزير الحرب فقد تكلم به صراحة وقوة فقال ان الحكومة الوطنية لا تبرع سلاحها ولا تجمعها حتى يوطد الحكم الدستوري ونعترف أوروبا به . وكان يرحو ألا يتجاوز مربوط وزارة الحرب الذي اتفق عليه مع كلفن والا يضطر الى زيادة عدد رجال الجيش عن ١٨٠,٠٠٠ . أما اذا استمر التهديد بالتدخل فلا ماص لهم اتباع الطريقة البروسية أي التجنيد العام لمدة قصيرة ليتمكن من انشاء احتياطي كبير . وقد سأل عن رأيي في احتمال وقوع الحرب فقلت له صراحة اني عما علمته من احتداد كلمن في احداث التداحل وبما أراه من المياع الذي شه في الصحف أعتبر أن الخطر حقيق واني داهب الى انجلترا لا لشيء الا لأضع حداً للحجة الكذب التي ثارت في الصحف . وستكون مهني هناك نشر الدعوة للسلام وحسن الية . وفي الوقت نفسه لم أستطع أن أنصح له الا بالثبات والحزم في موقفه وبأن أفضل وسيلة لصيان السلم إنما هي الاستعداد للدفاع . وقلت ان شر أعداء مصر ليس الحكومات الاوربية بل الممالين الاوربيين وان هؤلاء لا بد أن يعكروا طويلا قبل أن يعرضوا مصالحهم للخطر بالحض على اثارة حرب طويلة ذات ففقات طائلة . وقل أن يسي أحد الى أمة مسلحة مستعدة للدفاع عن حقوقها . واذكر اني اقتبست له من شعر لورد بيرون قوله « لاتأمن الفرنج على الحرية » فوافق عرابي على ذلك وكانت هذه فيما أظن آخر كلماتنا . وقد وعدته بأن أعود وأنضم الى الوطنيين اذا شاء القضاء . ووقع السوء .

## الفصل العاشر

توسلي في « دوتنج سنريت »

هذه قصة الدور الذي قمت به في مصر أثناء ذلك الشتاء. قد رويتها تفصيلاً وبكل أمانة ودقة. وقد اعتدت في مراعاة حوادثه المهمة وضبطها على الخطابات والمذكرات الموحدة التي وجدتها بين أوراقى ولكن أكثر اعتمادي كان على قصصها الذي وضعته خلال حرب سنة ١٨٨٢ ونشرته في عدد سنريت في مجلة « القرن » التاسع عشر في ذلك العام » والواقع ان قصتي الحاضرة ليست الا تفصيلاً لتلك القصة.

أما قصصى الآتى فسيكون جديداً لاني اذا كنت قد كتبت قطعاً منه ونشرتها في أوقات مختلفة هـى لم أجدها بعد فراعاً لاستكمال ما كنته منه واعتمادي في تقرير ما سوف أذكره من التواريخ والحوادث سيكون على مذكراتى اليومية التي استأمت تدوينها منذ عدت الآن الى إنجلترا وعلى الخطابات الكثيرة التي نشرت أو لم تنشر ولا تزال عددى وهي الخطابات التي تبادلها مع كار الساسة الذين وحدثت بعضي متصلاً بهم في الأربعة الأشهر التي انقضت بين وصولى الى إنجلترا وصرب الاسكندرية والتي تبودلت بينى وبين الذين كانوا يقولون بمحاكمة عرابى بعد موقعة التل الكبير . فهذه شهادات سوف أثبت بها منى اقتنعت الحال سواء فى القصة بأنها أو فى ملحقها . وسيظهر أن هذه الحسابات وحدها تقص القصة بذاتها منى حبك بعضها الى بعض بالشرح الضرورى وسرد على القراء أسباب الحرب

وقد كان الموقف السياسى الذى وجدته فى لندن عند وصولى إليها فى ٦ مارس يباقر الموقف الذى تركته ورأتى فى القاهرة منذ اسبوع ماضية غريبة . كان قد مضى عامان على تقلد غلاستون رئاسة الوزارة وكان نجمه للقوميات الشرقية والحركة الشرقية ذلك التخمس الذى رفعه فى انتخابات سنة ١٨٨٠ الى فرصة السلطة قد قتر بي كل مكل ثم حلفته فى الدوائر الرسمية آراء العف الاستعماري ولا سيما مع الوطنيين الارلسدين فلم يكن فى ذلك فآل طيب لمصر . وكان مجلس الوررا، قد



اشترط شطرين فكل كبار زعماء الاحرار المتسيطرين على مصالح الحكومة المهمة  
 وهم هارنغتون وورث بروك وتشيلندر يميلون الى استخدام وسائل العنف والشدّة.  
 وكلن غلادستون وهار كورت وبرايت وخدمهم تقريباً يميلون الى المسألة أما الشعور  
 «عام في البلاد فكل قويا ضد «العصيان ومحالفة القانون» في كل مكان وكان  
 «قانون «القاء القبض» Habeas Corpus قد علق في ايرلندا واتى القبض على  
 بارل ومعه عشرون من أعضاء البرلمان الوطنيين والقوا بغير محاكمة في سجن  
 «كيلناهام» وكل سائر أعضاء البرلمان اليرلنديين قد أخذوا يعطون العمل في  
 مجلس النواب وصارت كل «قومية» قدي في أيمن حرب الاحرار. ومن ثم لم  
 يكن حو «وستمنستر» وغيره من الورايات صالحا لقيامي بشر الدعوة لمصلحة  
 «قومية المصرية». ولكن الاشخاص القليلون الذين يهتمون بمصر حقاً هم حملة سندات  
 ادين وهؤلاء أقسم كل من الذي كان قد احتكر الصحف على ما ريك بان عراقي  
 والحرب الوطني انما هم عصابة من الميحيين المتعصبين الذين لا يحجبون عن احراق  
 بورصة لندن اذا وجدوا لذلك سبيلا والذين نجحوا فعلا في تخفيض قيم الصنان  
 وجعلوا القطع صعباً وخطراً.

أما في وزارة الخارجية فكان الموقف فيما يختص بمصر كما يأتي : كل عر انفيل،  
 الحرم الاصم المكسك، حين وحد نفسه قد خلص من كابوس سياسة غمبتا الحرية  
 قد استسلم الى غرضته التي من شأنها فعل لا شيء وترك الشؤون نسوي نفسها بالهدوء.  
 اندي تسبح به الاحوال. فلم يكن راغباً في التدخل ولا كان يريد أن يقوم بأي  
 عمل عدائي نحو الوطنيين ولا بأي عمل على الاطلاق في الحقيقة. ولم يكلف نفسه  
 مشقة قراءة البلاغات ولكنه ترك الى سكرتاريه الخصوصيين مهمة العلم بما يجري  
 حوله وكان جل اعتناؤه على وكيله السير ديلاك الذي كان في استطاعته أن يفحص له  
 الالباء ويعرض له ما يختاره من الحقائق ويلائمه من الآراء. وكان ديلاك الذي  
 شاطر غمبتا مسؤولة المذكورة للشركة المؤرخة «ياير» قد أصبح عاملاً رئيسياً في سياسة  
 التدخل بعد اخفا، عبتا من قيادة الشؤون المصرية وكل يعمل «الاتفاق مع كل من  
 والمائين على دفع الامور الى مآرق لا يسع رئيسه المتخرج منه الا أن يتدخل. ومع

أن ذلك نفسه لم يكن وزيراً فقد كان يعتمد في هذا العدد على تأييد قوى من وزارة شمبرلين وهو صديق شخصي له وحليف ليس في طاقته أن يفهم الشؤون الخارجية . وكانت سمعته هو ورميله هذا هي أهمها أشد عناصر الوراثة نظراً ولذلك كان لهما نفوذ على قسم من حرب الاحرار يميل الى المحازقات الخارجية وكان سواد المتطرفين في البرلمان لا يعرف شيئاً من حقيقة الحال ولا يبالى بالمسائل المختلف عليها ما دامت على بعد شاسع .

يسد أنى وحدث في استطاعتي امت كثير من الانظار وكان قد كثر اطلاع المطلعين على خطاباتي التي نشرتها التيسر ثم كان الناس يقبلون بشوق لسماع كلامي وقد استطعت أنا والسير حريجورى أن ملف عرائى في مهجة البطولة التي كان خليقاً بها بصفته مدافعاً عن حقوق الملاحين وكنت أستطيع أن أحد من يسمعون لي من هذه الناحية دائماً . وكانت الاشاعات المختلفة لانفتاح تدور حوله وكذلك الحكايات المضحكة التي تصوره كفرنسى أو أسباني في أهلب مصرى أو كأجور من مأجورى الخديو اسماعيل أو الدعي حليم أو السلطان أو أي شيء آخر الا الشيء الحقيقي . أما أنا الذى رأى عرابي رأى العين فقد كان في استطاعتي أن أشرح الحقيقة على انه لم يكن أحد بينهم بالمسألة اهتماماً جدياً ولكن كانت مسألة فضول وكنت أجد من الناس أصفاءاً .

وكانت أول زيارتي بعد وصولي الى لندن لديوان رئيس الوزارة ومع انى لم أقابل المستر غلادستون شخصياً فقد قابلت صديق هاملتون سكرتيره الخاص وتحدثت معه حديثاً طويلاً مريضاً . وكنت بعد اختلافى مع ماليت في شك من الطريقة التي يستقبلوني بها ولكنه أسرع فاخبرنى أن تداخلى في سياسة ماليت لم يفض رئييه ولكن المستر غلادستون بعكس ذلك ممنون من خطاباتي ومن الخطوة التي سلكتها في مصر . وكانت المسألة الارلندية تكشف كل ما عداها في ذهن غلادستون ولكنى مع ذلك أستطيع أن اطمئن نفسي من ناحية المخاطر التي يلو . لي أنها توشك أن تحل بالقاهرة فهذه المخاطر لا يمكن أن تقضى الى متاعب حديثه ومما كانت آراء وراوة الخارجية فسيحول المستر غلادستون دون تنفيذها . وان

التدخل المسلح « مستحيل » ما بقي علاءستون في رئاسة الوزارة ، ولا ريب في أن الفكرة في دأها مصححة ، وسنألف الكلام في ذلك بعد كما في سوف أقابل المستر علاءستون . وفي هذه الأثناء ، سيجي هاملتون بان يقف لورد غريميل على ما حضوري ، وأخيراً تركت هاملتون وقتي كبيرة .

في صباح اليوم نفسه زرت ان عمي الحارون بورك وكان يومئذ معروفاً من أصدقائه باسم « باتون » (١) وكان مقدوراً أن يكون دوره في المسألة المصرية في ذلك العام دوراً مهماً ومن ثم كثر ما تكرر اسمه في مذكراتي وكان موقفه في الحياة الاجتماعية موقف شاب على الطراز الأخير وثيق الاتصال بالعالم الرسمي فانه كان الآن الأصغر للورد مايو الذي حكم الهند وكان ابن أخي النائب روبرت بورك ( الذي صار بعد ذلك لورد كوينبارا ) الذي كان وكيلاً لدارة الخارجية وكان اليوم أي في سنة ١٨٨٢ دعم معارضة المحافظين في مجلس العموم في مسائل السياسة الخارجية وكان باتون أيضاً له مركز في تحرير التيمس لا ك محرر ولكن كوسيط بين شبري رئيس التحرير ورجال السياسة . واد كل ان نبيل من ذوي الرتب كان يستطيع ان يدخل ابها ، المحللين . وكان يعرف كل انسان هناك وكل ما يجري من الشؤون ثم كان ذا صلة متينة رجال اللاط وبأصحاب الاموال وبجميع القاضين على أزمة الشؤون المهمة في الدولة . وكانت صداقتنا متينة وكان احلص نصحائي واكبر شغاتي في بضعة الاشهر العvisية التالية بما كان له من حكمة ذبوبة لا أستطيع أن أزمي بثلاثها وما كان في ذهنه من خصب وسعة حيلة يصعب بهما . واليه يرجع ثلاثة ارباع الفضل في ذبوع كتاباتي في الصحف وفي المعونة التي بذلت في البرلمان . ولما التقيت به رويت له كل ما حدث في مصر خلال الشتاء كما أفضيت اليه بمشروعاتي التي أعدتها للمستقبل . وكان رأيه في المعارضة يختلف كل الاختلاف عن رأي هاملتون لان معرفته بالروتشده صبرته علي بية من اخبال المالية التي يشدوها لتحقيق فكرة التدخل . ثم كل قليل الثقة بقدرة علاءستون علي فهم المسائل السياسية

الخارجية او التصرف في مسألة فيها من المصالح المالية أحدثت كل هذا التأثير على أسعار بورصات أوروبا . ومع ذلك كل يصبح لى المحافظة على المركز الذى نلته في رئاسة الوزارة وان استلهم تفوضى كأحسن ما استطيع فادا أحقق الاعناد على علاستون استطعت أن أعتد على المعارضة فى مجلس النواب وقد أ كد لى حصول عليها منى اقتضت الحال . فلم يبق لى فى تلك اللحظة إلا أن أأحدث كل من أعرفهم من أعضاء المجلس فى هذا الصدد والا ان استمر على مراسلة التيس وقد أخذت بهذه النصيحة الحكيمة ونفذتها بلا بطء .

وفي مذكراتى أحدى ذهبت يوم ٩ مارس لزيارة جورج هوارد ( والان لورد كلر ليل ) وعيخته ونجحت فى حملها ولا سيما السيدة على الانصام لآرائى . وكانت يومئذ كما هي الآن سياسية قوية وكانت عطية الثقة فى علاستون وقد نصحت لى بأن أصح كل تقضى فيه وانه لاشك فى انه سيحول دور وقوع أى أذى بالمريه . وكان . أما روجها فكان أقل ثقة ولكنه ماذر الى المواضه على احدى لمجلس العموم الذى كان عصواً فيه ليقضى بعد ظهر ذلك اليوم الى رملاته أعضاء حزب الاحرار الذين يعتقد أنهم أقدر على مساعدتي . ومن ثم ذهبنا معا ونعرفت الى دوائر برائس وغيره من الاعضاء ذوي النفوذ ولا سيما الذين كانوا منهم يعنون بمألتى بلغاريا وأرمينيا حين عقد مؤتمر برلين . وقد وعدني كل هؤلاء بالمساعدة كما وعدني بمساعدته ذلك الرجل الفاضل تشون الذى تحدثت طويلا معه ومع ستانلى زوج أخت هوارد فى غرفة الشاى . وكلت تشون ذا قوة سياسية كبيرة على الرغم من أنه لم يكن عضواً فى البرلمان وذلك انه كان يحترف السياسة اذ كان سكرتيراً لجمعية « حباة اهل البلاد الاصلاح » وكان يثير هياجا كلما اعتدت أوروبا على قوم غير أوروبيين وقد دلت الحوادث على عظم قيمة المساعدة التى قدمها لى فى أوروبا من ابتداء الامر الى آخره فقد كان دائم الاتصال اليومي بجميع أعضاء البرلمان المتطرفين . وقد نصح لى هوارد بالاأضح القضية فى أيدي جماعة « المحترفين بمقاومة التدخل » وان أقوم بنشر دعوتى على أساس مستقل . وكنت فى ذلك الحين حديد غير مترمس باحوال السياسة الانجليزية .

ولقد كنت قليل النهرس الى حد ان هذه كانت أول مرة دخلت فيها الى حجر مجلس العموم مع اني كنت في س الحادية والاربعين . ومنذ ذلك اليوم أصبحت كثير التردد على ذلك المجلس .

وفي اليوم نفسه حادثت فيليب كرى ملياً في وزارة الخارجية وتناقشنا طويلا في المسألة المصرية . وقد لمحت نادى دي بده انتمست . مما عملته في القاهرة — بسبب شكوى ماليت مي — طاناً اني ألعب « لعبة كرى عملية على حساب وزارة الخارجية » ولكن ماليت أن تلتشى هذا الزعم لاني مأسرع ما أقعته مخطورة المسألة وباهامي بها بصفة جدية وباني مصيب في آرائي فأشار علي بمقابلة ديلك وغرانفيل في اليوم التالي .

ثم اني أجدني أيضا في اليوم نفسه حادثت اللورد ملتون أحد لوردات إيرلندا مما يظهر الصلة القوية بين مصر وإيرلندا في الافكار السياسية وقتئذ . وهالك ما كُتبت عن محادثته « ان قصته — أي قصة ملتون — عن شؤون إيرلندا تشبه كل الشبه القصة التي يرويها الموظفون الاحانب عن مصر . فهو يرى أن المصاعب الموجودة في إيرلندا ليست الا من عمل المشايخين وان الفلاحين الإيرلنديين لا يميلون بتاتا الى الحزب الوطني وان التدخل بقوة السلاح كفيلا بأن يعيد الامور الى مجاريها الطبيعية » .

وفي يوم ١٠ قابلت ديلك في وزارة الخارجية بعد ان زرته في داره في سلوف ستريت . وقد كان في حالة غضب . فدلنا من أن يصي لاقوال شرع يشكو الي من الوزارة المصرية الجديدة قائلا ان وزارة عرابي مد تربعها في دست الحكم أقيقت على الجيش ما ينيف على نصف « مليون جنيه » وانها أنت أعمالا صيانية أخرى . وكنت أعلم أن تلك المسألة لا يمكن أن تكون صحيحة لان الوطنيين لم يجر عليهم في كرسي الحكم سوى ستة أسابيع فقط . فذهبت الى ساندسون وكان وقتئذ السكرتير الخاص للورد غريميل ( وهو الان سير توماس ساندرسون رئيس وزارة الخارجية ) وطلبت اليه أن يحقق حرافة النصف مليون الحيه فوجدنا بعد مراجعة الرسالة الخاصة بها أن الملح المذكور لم ينفق كما أخبرني ديلك في « الستة الأسابيع »

الماضية بل في «الأسنة» المماضية على أن هذا المشويه الغريب من جهة ديك — الذي قرر ما قرره كما لو كان حقيقة لا قبل الحدل — ربما كان مجرد غلطة شائعة ولكن الصحف رددت تلك الحرافة في ذلك اليوم مع أن عدداً غير قليل من تلك الصحف كان يستمد الوعي من ديك مباشرة وهو مثل للطريقة التي كان ينشر بها الاخبار الصارة بسعة الوطنيين المصريين بقطع النظر عن سحافة هذه الاخبار .

وكان مورلي هو السوق الرئيسي لديك كما أن البال مال عاريت (وهي الحريدة الوحيدة التي كان علاستون يقرأها دائماً) أصبحت طول الربيع وأوائل صيف ١٨٨٢ بسبب تأثير ذلك وكلمة معرض الاكاذيب المماضحة والقائلة بوجوب التدخل . فقد حل مورلي نفسه — على ما اعتقد — على تصديق ما أطلع اليه فراح يعمل بسلامة يته ولكن الشيء الاكيد بالرغم من ذلك كله هو أن مورلي يقع على رأسه أكثر من أي شيء آخر مسؤولية حل علاستون على الاتجاه الى القوة في مصر وهي أكبر خطبة في تاريخ حياة علاستون العمومية . ولم يكن موقف مورلي وقتئذ موقفاً مستقلاً كما أنه لم يكن هو صاحب الآراء المنشورة المعزوة اليه ولم يكن قد دخل البرلمان وقتئذ بل كان ينتظر فراغ كرسيه . فكل آماله في الحياة السياسية كانت قائمة على مساندة أصدقائه السياسيين مثل ديك وتشملرن .

لم يكن له والحالة هكذا ماصر — اذا لم يتأ الدول عن مطامعه الشخصية — في أعلى الخطة التي رسمها له ديك في الشؤون المصرية . ولكم كان أسفه شديداً فيما بعد على ما فعل حتى انه على ما أطل — ما كان يجب أن يتذكر الدور الذي لعبه وقتئذ . ولكن لا ريب في أن مسئولته عن اشغال دار الحرب كانت عظيمة . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن مورلي في كتابه المسمى «حياة علاستون» قد أخفى حقيقة الرواية المصرية ولا حتى تلخيصها تلخيصاً مشوهاً في بضع صفحات . ولكن التاريخ تاريخ ولا مفر من إثبات سلطته .

بعد تسوية هذه المسألة مع سادرسن أخذني كروي لرؤية لورد غرانفيل ولما أكن عرفته قبل الآن وهناك حدثت مناقشة أخرى .

وكان لورد غرانفيل على جانب عظيم من التهذيب وقد أخذ بسأل عن خلي

الحرية وبطريبي من أحلها ثم تحول الى موضوع المسألة المصرية وأخبرني « ان لديه معلومات موثوق بها تدل على أن عرابي اعما هو صيغة اسماعيل وأن المسألة كلها مسألة دسيسة يراد بها رجع اسماعيل » وكانت هذه أيضا حكاية من الحكايات عبر للعقولة التي دست لورارة الخارجية وللجمهور لحل الرأي العام على سوء الظن بالمسألة المصرية . وقد تمت الى وزارة الخارجية فيما أعلم من تلعراف أو خطاب خصوصي أرسله اليها السير أوغسطس باحث سفيرنا في بروم الذي قال له اسماعيل مباهيا على ما يظهر « ان عرابي في جيبه » .

وليس ضروريا ان يبحث هنا الاسباب التي حدثت اسماعيل الى ذلك فان كلمته هذه لم يكن لها أى قيمة ولا شك في أن ملك عرابي من أوله الى آخره يدل على عكس ذلك تماما . بل أن ملك عرابي في ذلك الحين كل أدل منه في أى وقت آخر على عدائه للشاوشات الحراكسة ، انصار اسماعيل الذين كانوا يدسون الدسائس لتوفيق . ولم يكن يخفى على كل حال ان لاسماعيل اعراضا في اظهار الحركة المصرية كأنما حدثت من احله . وكان دائم التشبث بفكرة ماآلها ان الدول الاوروبية سوف تقدم دات يوم على حلعه وان ترجع ابيه باعتباره الحاكم الوحيد القادر على حكم بلاد اضطربت امورها على اثر عيابه . على اني لم اكن اعرف في ذلك الحين مصدر الحكاية كما انه لم يكن في استطاعتي نقصها باكثر من التأكيد بان الزعيم المصري أشد الناس معارضة لاسماعيل (١) فقلت ذلك فابلغت الرسالة التي كتفتي عرابي ابلاغها الى غلاستون فلم يزد في الجواب على أن قال « هل ينزلون عن حق المجلس في الاقتراع علي الميزانية ؟ » قلت له اني أخشى ان لا يكون تمت أمل في

---

(١) وجدت بين مذكراتي بعد أعداد هذا للطبع مذكرة تاريخها سنة ١٨٨٤ تؤيد وتصحح عبارة باحث وهذا نصها . فيا في ٢٠ سبتمبر . تفذيت في السفارة . وكان السير باجيت أيضا . وتكلم عن مصر ولا يزال يذكر مترجم نوبار . وقد سألتني رأيي في عرابي سأله هل حقا أخرجه اسماعيل بان عرابي أخرجه فقال انه لم يخطب اسماعيل بشأن عرابي قط ولكنه ذكر ان اسماعيل قل ( لقد كلمي هذا الصبي مالا كثيرا )

ذلك نظر ألاتفاق جميع النواب عليه . فقال « ادن اعتبر انه لا أمل في مآلهم ولا بد أن نتعمي حملهم على الاذعان بالقوة » فقلت له اني لا أستطيع التصديق بأن الحكومة البريطانية تدخل في هذا الشأن حقاً وأن تصادر الحرية على مثل هذا الاساس . ولكنه احتفظ برأيه وتركه غير راض مصمماً على الا اصبح وقتاً آخر في اقتناع وزارة الخارجية وانما يجب على ان ابدل كل جهدى في الضغط عليها من الخارج وأنه « لا بد لي من مقابلة غلادستون » .

وقابلت في اليوم نفسه موزلى في مكتب تحريره محاولاً أن أشل معول الاقتراءات التي كانت نهال عليه من كل جانب ولكن عشا حاولت . فقد كان شديد الثقة بكلمن الذي كان مراسله المعلن في مصر . وكان تحت عود آخر يصل تحت تأثيره وقد شق علي ان أقاوم ذلك العود .

وفي الحادى عشر تعديت مع « باتون » الذى دعا جماعة لمقابلتي خصيصاً . وكان هؤلاء السير فرنسيس نولي سكرتير ولى العهد ورد جنالك بریت ( والآن لورد ايشر ) الذى كان يومئذ سكرتير لورد هارنجتون وكليغورد احد كبار كتاب التيمس والجنرال السير جون آيد الذى كان من اصدقاء ولى وحدم تحت امرته ذلك العام في الحملة المصرية وقد بقى مع ذلك عاطفاً على المصريين في كل ما حدث خدمة للانسانية كما سيتضح بعد حادث التل الكبير . وقد قضينا ليلة سارة وأظهر الكل اهتماماً بآرائى المصرية وبحثت اتحدث مع بعضهم الى الساعة الاولى بعد منتصف الليل ولقد أعرف ان نولى تأثر بأقوالى اما بریت الذى كان متصلاً بأكل روتشيلد وغيرهم من الذين كانوا يلحون بوحوب التدخل فقد طهر بعد ذلك انه من أعدى أعداء القضية المصرية . وكان يصل يومئذ لموزلى في « البال مال غازيت » وأوحى اليه انه لم يكن كتب منه بعض المقالات التي آمرت كثيراً على غلادستون .

وفي ١٣ قابلت عوشن . وكان قد أرسلني اليه هاملتون باقتراح غلادستون باعتباراه رجلاً تثق به الحكومة وقد خضت معه في تفصيلات القضية المصرية أكثر مما فعلت مع دبلنك وعرفيل وقد أظهر كثيراً من العطف على آرائى . أظهر أكثر



مما شعر في الحقيقة . باتساعى بأنه لا ينظر الى المسألة من وجهة مالية . ولا شك في أن ذلك يرجع الى أنه كان في الماضي نائباً عن مدياني اسماعيل . وقد وجدته لطيف الملك ذا صوت جذاب وبقيت معه ساعتين وقال لي « لك أن تطمئن الى شيء واحد علي الاقل وهو ان الحكومة لا تعمل الا وفقاً للبادئ . السياسة العامة العامة ولا تعمل وفقاً لمصالح اصحاب الديون وكان هذا القول مرضياً وخيل الى انه متفق كل الاتفاق مع حالة الموقف الراهن فقد كانت الصحف نشرت في ذلك الصباح اساءة استقالة بلنجير من منصبه كقريب مالى فرنسي في مصر . واستدل الناس في لندن من هذا الحادث على أن هناك خلافاً بين الحكومة الفرنسية وحكومة القاهرة الوطنية ولكي عرفت ان الحقيقة لم تكن كذلك فقد كلن بلنجير أسقى من كلن نفسه في العمل للتدخل ففهمت من استقالته ان حكومته قد تخطت عه وهذا هو المعنى الصحيح . ولو كان كلن قد استقال ذلك الحين ، ولم يكن ذلك صيداً فيما اعتقدت فقد كلن في الطاقة تجنب كل المتاعب التي حدثت فيما بعد . ولكن كلن كان مؤيداً من ذلك الى حد جعل ذلك غيراً .

وقد تركت غوشن وذهبت لاتفدى مع باتون فوجدته مع لورد ده لاوار وهو نيل من المحافظين ، وأحد جيرانى في سبلس . وكان قد ذهب في العام السابق الى تونس وتشرب شيء من العطف على العرب أثناء الغزوة الفرنسية . وقد علمنا ما بعد ذلك كثيراً في المسألة المصرية وبرهن على عظم قيمة مساعدته حين تخرجت الامور وانتهت الى أزمة يوليو . وكنت في ذلك الحين أحض على تأليف لجنة تحقيق تذهب الى مصر وكان يظهر أنه لا يبعد أن يرأس هو هذه اللجنة .

وقابلت هاملتون بعد طهر ذلك اليوم في « دو بيج اسريرت » وكان قد ظهرت في ذلك الصباح مقالة شديدة في « البال مال عايت » عنوانها ايقاد النار في مصر ولم يكن أكثر ولا أقل من تكرار الحكايات السيئة مضافاً اليها حكايات أخرى ترمي الى غرس سوء الظن في الوطنيين .

وقد أشار هاملتون الى هذه الحكايات باعتبارها أدلة مقنعة لظهورها في « البال مال » وانى لا بد أن أكون مخطئاً والا لما كلن مورلى يسمح بملوك هذا السلوك

المنافض الحرية وهو لا يقل عني انتصاراً لها وقد شرحت له موقف كافن بالنسبة لمورلى وأنا أكن شرحته له من قبل وطلت منه بالخارج أن أجمع برئيسه . وكنت قد أمسكت الى ذلك الحين عن شكوى الاصدقاء ، الذين كنت أعمل معهم في المرحلات الاولى رعيًا لصداقتهم ولكن وحدث الآن سكوني لا يتبع الا الضرر وصمت على احبار علاءستون بكل ما أعرفه عنهم . وكان مورلي قد أذرنى في اليوم السابق لهذه المقابلة باعتبار اني لا يمكنني أن أوافق عليها وطلب مني أن أورد عليها . ولكني كنت أكثر غضباً من أن أورد الا بذكر قصيرة اعقبها في اليوم التالي بزيارة الى شارع نورغرنلاند حيث وبجته على شتر مثل هذا المرء المؤذى ولكن السوء كان متوقفاً فقد سبق الشر طلب قدمه السير جورج كامل واستخدم لهذه الحكايات الشائنة وقد شهدت مناقشة هذا الطلب الذي تكلم فيها عوش باسم الحكومة ملهجة للمالة وان كان لم يذكر الوطنية المصرية مخبر ورعاً كان حديثي معه في الصلح قد أتقدا من شر ذلك وعلى كل حال لم يوضع قرارى مصلحة الحرية .

وقد جاء في مذكري اليومية في ١٤ مارس حديث جرى بيني وبين سير هنرى رولسون السفير البريطاني في فارس وهو من مؤرخى الشرق المشهورين وآراءه من طراز الآراء التي تسمع عادة من الانجليز القيسين في الهند . فقد قال ان المصريين كانوا في الماضي عبيداً وسيبتون كذلك في المستقبل وستنخل بلادهم ضمن أملاك انجلترا أو روسيا مع سائر بلاد آسيا . وقال ان معرفته بالاسيويين تجعله يدرك انهم لا يسترون الحكم الذاتي .

وقد تحدثت أيضاً مع والتر صاحب جريدة التيمس الذي اقترح على باتون أن أقباه . فأخذ يتكلم في أشياء لا قيمة لها ثم وعدنى في النهاية بان يرسل مكاتباً خاصاً للقاهرة لكي يبعث اليه بالانخبار ( واسكنه ) لم يفصل ذلك لان ما كدونالد مدير الادارة عارض محتجاً بعدم ضرورة صرف هذه المصاريف )

وفي الخامس عشر من هذا الشهر ذهبت الى سير حارنيت ولسلي وتحدثت معه حديثاً حديراً بان أذكره هنا بعد ما تكلمنا عن قبرص انتقلنا الى موضوع مصر وامكان مقاومة الوطنيين في حالة التخل وسألني رأيي عن ذلك . فقلت له انهم

ماطلع سيقاتلون والقتال ان يقتصر على الحدود لارب الامة سندعم بهم وربما استعملوا طرقا أخرى بعد ذلك وقد أبى أن يصدقني في قولي بان احمود ستقاتل . ولكن ثبت على رأيي وقلت له انه اذا كلف بان يذهب لغزو مصر عليه أن يأخذ معه على أقل تقدير ستين ألف جندي .

وقد بالغت بلا شك في هذا التقدير لاني كنت أرمي الى جعل هذه المهمة شاقة في نظرم حتى لا تقدم عليها الحكومة الا بعد تردد ومراعاة « وقد تطوع لي باحارى فانه قد استشير مرتين أو ثلاثا مدة الشتاء ، بعد العارة على مصر والاحتلال وقد أكد لي أن ليس هاهنا من يود التدخل وان احتلال مصر سيكون مكروها عند الحدود وأنه هو نفسه يكون آسفاً جداً اذا اضطر الى الذهاب الى مصر . ومن رايه أنه يحب على المصريين أن سرحوا جيشهم ويتقوا بحماية أوروبا . ولكني أخبرته بأنه ليس من المستطاع لي أن أصبح لهم بذلك وارث الامة التي تسوى القتال بدية صادقة قل أن هاجموا عدو . فقال لي انه ليس هلاك شيء يدعى الشرف في اخروب وادا كانت المسألة مسألة حرب فلا يجب عليهم أن يتقوا بنا ولا بأي دولة أخرى . ثم أخذ في الكلام عن الطرق الحربية المؤدية الى القاهرة فذكر بوهارت وطريقة على الشط الابسر بين فرع النيل وطريق الصحراء بين قناة السويس والدلتا حتى شعر بأنه اذا ذهبت الحيوش فستخذ هذه الطريق ولكني اخبرته من أن أعطيه أي معلومات فبيده أقل فائدة واكتفيت بالضحك عند ما سألتني عما اذا كنت فواقه لأدله على الطريق عند ما ترسل الحلة . وكان الأثر الذي تركه ولسلي في ذهني هو : « انه جندي لبق من الارلنديين الذين يعرفون من لهجة كلامهم . ولكني لم أشعر انه من العبقريين الذين كان يصف نابليون أحدم بقوله « قائد عشرة آلاف »

ومن الحديث بالذكر اني عند ما كتبت لشيخ محمد عبده بواسطة سكرتيري صابونجي أشرت الى الخطر الذي يمكن أن يقع فيه الوطنيون من عارته من جهة الامم اعيلية وأظن أن هذه الإشارة هي التي جعلت عرابي يشرع في تحصين القل الكبير .

وفي اليوم نفسه رأيت لبال على وشك أن يسافر الى الهند لأنه كان قد عين  
حاكماً لأحدى الولايات الشمالية الغربية .

وقد وجدته أقل الموظفين الأنجليز في الهند ارتباطاً في الحركة الوطنية المصرية  
وفي المساء تعشيت مع هاملتون وجودلى وهما سكرتيرا مسنر غلادستون وعرضت  
عليها مسودة الخطاب الذي أرسلته لورد جراسيل وفي هذا الخطاب أثبتت بصفة  
رسمية تحيات عرابي ونياته الحسنة نحو الحكومة البريطانية وشكواه من كالمين  
وماليت التي لم أذكرها له مع ما ذكرته من الأسباب عند ما كنت في وزارة الخارجية .

وقد وافق السكرتيران على هذه المسودة وكانت الموافقة أكثر من جودلى  
وقد جعلنى أمحو جملة كنت اعتذرت بها عن تدخلى في مسألة مهمة كهذه . فقد قاللى  
مؤكدآ : « تدخلك ليس في حاجة الى الاعتذار »

لقد كان جودلى رجلاً عادى المهنة وكان يمثل أحسن ما في أخلاق غلادستون  
من الحسنة والعطف لما هو طيب في هذا العالم والاحترار لكل ردى . وكان  
يخالف كل الموظفين الذين يجهلون الإنسان عادة في الوظائف العمومية إلا من حيث  
القدرة على الأعمال الرسمية وكان طول الازمة المصرية يعطف على ويساعدنى . أما  
هاملتون فقد كان يعطف أيضاً ولكن عطفه كان يرمى الى صداقته لا الى حمايته  
الطبيعية للتفضيه التي كنت أدافع عنها وقد كان ختام خطابى ما قدعته من الطلب  
للحكومة بأن ترسل بصفة للبحث والتحرى عن الحقائق الراحة في مصر  
وتفحص المسائل بروح الود والصداقة للمصريين . وأهمية الخطاب تبرر إثباته هنا  
برمته :-

لندن في ٢٠ مارس سنة ١٨٨٢

ان ما أظهرتموه من التكرم في سماعكم ماقلته لخصامكم عن بعض تفاصيل  
المالة في مصر يشجئنى على أن أقدم الاقتراحات التالية لتكون محل الاعتبار .  
وانى اذا كنت قد فهمت ما فهم به فخامتكم فالى اعتقد ان حكومة جلالة الملك  
تنوى ان تتعجل في الموضوع اذ هي تميل الى قبول حل سلمى — اذا تيسر هنا  
هذا الحل للخلاف بين المراقبة وبين الحكومة المصرية . وانها لا تلجأ الى القوة الا

في اللحظة الأخيرة عندما تمحور عن جميع الوسائل للمحافظة على المصالح الانجليزية والتهديدات الدولية من أن يصيرها الوطنيون بسوء .

هذا وإن واقف على آراء الحرب الوطني أو على الأقل على آراء رعاياه الظاهريين فيه ويمكن أن أقول وأؤكد أنه ليس هناك شيء أحب إليهم من التناغم مع حكومة جلالة الملكة . بل الواقع أن عراقي بك قد تلقى بلبس أؤكد لكم فخامتكم أنه إذا خوطب بلهجة الصداقة فإنه يستعمل كل نفوذ حزبه — وهو نفوذ خطير — لأن يخفف من مرارة الشعور الذي نشأ بين المصريين والانجليز وسائر الموظفين الأجانب وأنه مستعد لأن يسير إلى نصف الطريق إذا فُتحت للمفاوضات للوصول إلى تسوية سلمية .

وقد رجأ إلى مع ذلك أن أضع أمام فخامتكم مصاعب الحالة إذ قد أعلن للراقب العام الانجليزي عداً شخصياً نحوه كما فعل ذلك أيضاً الوكيل السياسي للفوض لجلالة الملك .

وخامتكم تعلمون أن سير أوكلايد كولفين قد كان ذا أثر كبير في تغيير الوزارات وفيما يمكن أن يسمى « ثورة » أي تلك الحوادث التي حدثت في مصر في السنة الأشهر الماضية ففي ٩ سبتمبر كان هو نفسه الذي أوعز إلى الخديو بأن يقبض على عراقي ويضربه بالرصاص . وعراقي الآن هو وزير الحرية . ثم هو لم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذه الحقيقة لأنه على ما أفهم أبلغ الصحف الانجليزية هذه التفاصيل

ثم من المشهور عند المصريين أنه على صلة بالصحف وأنه يكتب عن الحزب الوطني خصوصاً الجيش بلهجة عدائية وأنه عندما استقال شريف باشا صرح دون أن يتحفظ أنه ينوي تبديد شمل الحرب الوطني وأنه سيستعمل كل الوسائل المؤدية إلى هذا الغرض في إمكان التداخل . ولو كانت هذه الأشياء لا يعرفها سوى عراقي لأنغلها ولم يلق عليها أهمية كما قال لي ولكن لسوء الحظ قد صارت هذه الأشياء معروفة مشهورة بين الناس بحيث صار من المحال أن يظهر عراقي علاقة ودية بينه وبين هذا الرجل .

وقد قال عن سير ادوارد ماليت مثل هذا أيضاً بدرجة أخف . فقد كان من

سوء نخت سير ادوارد ان انفتت ريارته للاستانة مع نقشى الاشاعة عن تدخل الانراك الذى ذكرته الصحف الانجليزية فى الحريف الماسي . واني مقتنع بان الحكومة الفرنسية هى صاحبة المسئولية فى نقشى هذه الاشاعة التى لا يمكن استئصالها الآن من أذهان سكان القاهرة وهى أن سير مالبى قد اقترح مرارا مختلفة التدخل العسكري . واني أعرف أن هذا زعم باطل وان سير مالبى قد استنكر هذا الحال . ولكن هناك بعض حقائق نسوغ هذا الزعم . مثال ذلك انه رفض ان يعتبر طلب المصريين الدستور من الشئون الحدية الى وقت انعقاد مجلس النواب المصرى . ثم انه قد انضم الى سير أوكلاند كولين فى اعجابه الى شريف باشا وقت الفراغ بينه وبين أعضاء المجلس . وقد استاء كثيرون منه لتصريحه بانه يعتقد صحة الرواية المكذوبة التى لا أساس لها وهى ان عرابى قد أهان سلطان باشا رئيس المجلس وسبه . ومما يمكن من قيمة هذه المرائم فان الواقع الزاهى ان سير أوكلاند كولين وسير ادوارد مالبى قد قاطعتهما الحكومة المصرية او كادت . فلهذا السبب محرومان الآن من معرفة الحقائق والوقوف عليها من مصادرها وقد صار الميدان واسعا للدسائين من الدول الاخرى الذين ليس لهم مصاحبة ما فى اعتدال الوطنيين أو فى تجنب انقطاع المفاوضات انقطاعا نهائيا .

فاذا كنتم تخلصكم ترون ما قلته حقا فاني أستاذ فخامتكم فى تقديم الاقتراحات التالية :

ان الوزراء الوطنيين يشتغلون الآن فى اعداد جملة من الشكاوى عن النظام الذى وضعته فرنسا واجتثروا وصدقت عليه المراقبة . وبعض هذه الشكاوى حقيق . وهم يرغبون فى فتح باب البحث فيها بروح الاعتدال والصدقة . ولكنهم اذا رأوا من المراقبة والدول عدا . فمن المحقق أنهم سينظرون فيها بروح العدا أيضا . فان المسائل المختلف عليها هى حقائق راحة فى الاكثر فاذا روعي الحق والعدل وكان غرض حكومة جلالة الملكة ان تكسب منزلة أدبية لاشك فيها فيجب ان تفحص هذه المسائل بروح النزاهة وان يعتد ببينات المصريين كما يعتد ببينات الاوربيين واني أقر لفضامتكم انه من المحال على عملى جلالة الملكة أن يحصلوا على هذه

التي كانت سواء أكانوا مالين أو سياسيين وأن المصريين سيبترون اليهم بعين الانتباه والريبة . أفليس إذن من الأفضل أن يرسل الى مصر في مدة السنة الأشهر التي ستمر قبل استناد البرلمان المصري مندوبين لبحث الحال الراية وفهم المسائل التي يشتكون منها بروح الصداقة التي لا يمكن أن تتلافى الكارثة بدونها ؟

ولنرجع الآن إلى المذكرات فأقول إني أجدني قد كتبت بواسطة صابونجي سكرتيري خطاباً مطولاً إلى عرابي أخرته فيه بأني قد اقترحت على الحكومة تعيين مندوبين وأن آمالي كبيرة ولكنني قد رجونه أن يكون على حذر كما رجوت ذلك أيضاً من جرمحوري الذي كان لا يزال مقبلاً في القاهرة . أما الحالة في مصر في ذلك الوقت فتتلخص في أن مجلس النواب قد ألح في اثبات حقه بأن نصف الميراثية لم يكن مقبلاً بشرط الدين وإن له الحق في التصويت فيه . وأن الحديو قد أصدر لائحة موقعة باسمه بمنح الدستور على الطرق الادوية . وأن الوزراء قد عرضوا على المجلس حدوداً يتضمن عدة اصلاحات عملية كانت البلاد في حاجة شديد إليها منذ سنين وقد نفذ بعضها الآن .

فلما انتهى ذلك أحل استناد المجلس إلى الخريف القادم . وفي غضون هذه للدة شملت البلاد السكينة التامة ولم يكن من سبب الخلاف مع أوروبا سوى مسألة التصويت عن المالية وهي مسألة لن تبلغ درجة الحدة إلا بعد ستة أشهر عد ما يتم ترتيب الميزانية الجديدة . وليس هناك ظلم من الشك في أنه لو كان كولفن قد اقتنع بضرورة انسحابه من البلاد مثل ما فعل زميله الفرنسي مسيو بلانجير ولو كان اقترأحى بشأن إرسال مندوبين قد قبل لكات الحال في مصر قد عادت إلى الهدوء ولم يكن تمت حاجة الى التدخل العسكري . فان الوزراء المصريين لم يكونوا يرغبون في أكثر من أن يعيشوا في سلام مع جميع العالم وأن يتفاهموا مع حكومتهم المراقبة الثنائية عن جميع المسائل المتنازع عليها .

وفي ٢٠ مارس تناولت الغداء مع باتون لكي أقابل معه روبرت بورك الذي كان قد نوى أن يضع المسألة المصرية في البرلمان في الاسبوع التالي ويعرضها للنقاش . وكان بصحبة عضو آخر من المحافظين كان يهتم بمسألة تونس . وكان

هدان من الاسهم التي احتفظت بها في كساتي إذا خذلتني غلادستون . ثم ذهبت إلى الجمعية الاسبوعية وحضرت اجتماعاً فيها وقد كنت انتحيت عضواً فيها . وفي المساء تناولت العشاء مع رفرز ويلسون . ومع ويلسون هذا « قد تشاحرت مشاجرة عنيفة بشأن مصر » وقد قال بأنه قد ساعد في اعداد مذكرة جديدة على وشك أن ترسل الى ماليت من وزارة الخارجية الاغناخ عليه بأن يتقاضى الحكومة المصرية تأدية جميع التبعات الدولية . وكان القصد من هذه المذكرة أن تكون بمثابة الوعيد للحزب الوطني ولكنني أعلن أنها لم ترسل مطلقاً أو انها قد ألغيت إذ لم أجدها في الكتاب الأزرق . وربما كان خطابي الى حراغبل هو سبب الغائبا . وقد كان ويلسون يؤكد بأن جميع الحركة الوطنية هي من اختراع اسماعيل وأنه اذا فوضا وذهب الحديوي اللقي الى مصر ونزل في الاسكندرية لآتي اليه جميع المصريين وحشوا له على ركبهم . وبعد هذا العشاء قمت الى دار القيدى كبرى حيث رأيت القيدى سالزيرى وقد انتحيت في ناحية وأحدثت نألى بلهجة العطف عن القصة المصرية وقد عرضت عليها ذلك بأحسن ما استطعت علماً مني بأن ما أقوله لها سيعاد على مسامح زوجها اللورد سالزيرى . وبديهي أنه لا يوجد عطف حقيقي بين المحافظين على آرائى بصدد الحركة المصرية ولكن كل من مصلحتهم بصفتهم الحزب المعارض أن يتجنفوني سبباً الى حد ما في الخط من كرامة الحكومة والتيل منها : وكل من سالزيرى من القائلين بالتدخل الملحين فيه . وقد توجهت الى دارى بصحبة هاملتون وأخبرته في الطريق عن فخر ويلسون بالمذكرة الجديدة ورجوته أن يتوصل لى في مقابلة رئيسه وقد حتى على ارسال خطابي الى جرائل وارسال صورة أخرى منه الى غلادستون . وقد فعلت ذلك في الصباح التالي وكلفت هاملتون بإيصال الصورة . وكان قد هيا لى في ٢١ مارس مقابلة رئيسه في اليوم التالي . وفي المساء تمثيت مع روبرت بورك والجنرال تيل ومراقب حزب المحافظين والقيدى لى وعدد آخر من المحافظين

مارس ٢٢ — كان هذا اليوم من أهم الايام فقد مضى عليّ الآن أسبوعان وأنا بانجلترا ومع اني لم أتهاون أو أهمل في شيء فاني لم أحصل الى الآن على مقابلة



ميس الوزارة . ولكنى قد نلت حتى اليوم . فاني ذهبت الى شارع دونج قبل  
 ليل المضروب قليل حتى أتمكن من مقابلة هاملتون والتحدث معه قليلا . وقد  
 لي هاملتون ان الرئيس قد قرأ خطابي وعند ما كانت الساعة ١١ والدقيقة ٢٠  
 استقبلني الرئيس . وقد لاحظت ان مستر غلادستون قد تحسنت صحته فهو بحيل  
 الى أنه أصغر وأصح عافية مما كان منذ سنتين . فقد رأيته في ذلك الوقت وشعرت  
 كأنه في المهبوط أما الآن فهو أشيط الجسم منه الدهس . وقد استقبلني بكل نشأة  
 وود . وكان خطابي الذي أرسلته لورد جرايميل أمامه على المنضدة . وكان على  
 ما يظهر لي مشتاقا لسامع ما أتقنه عليه . وقد سألتني أن أوصي اليه بجميع ما عسدى  
 وأخذ يستمع لي دون أن يتكلم . وكل اصغاه في بما فيه من العطاء والتشجيع  
 بلعني على أن أتكلم بسهولة بل فصاحة لم أعتدها قبلا . وكنت أرى دلائل  
 الاهتمام بادية عليه في كل كلمة أقوم بها . وقد تركني نحو ربع ساعة لا بقاطفي  
 الا بنحو هذه العبارة : « لا تخبرني عن هذا فاني أعرفه » وذلك عند ما كنت  
 أريد أن يؤمن بحقيقة الشعور الوطني في مصر . وقد ظهر لي منه أنه كان قلما وقائلا  
 مع الوطنيين .

ثم سألتني عن موقف الجيش والسبب في ظهوره في المسائل الوطنية فانه توجس  
 من هذا الظهور . فأوضحت له تاريخ الحركة وأكدت له ان ما قبل عن تدخل الجنود  
 قد بولغ فيه وان تلك الرواية القائلة بان الجنود كانوا يتوعدون الدواب وبرهونهم  
 من الروايات المختلفة وقلت له أيضا ان الاستعدادات الحربية الحاضرة ليس لها  
 من غرض سوى الخوف من الاعتداء والتدخل . وأوضحت له موقف الحزب نحو  
 الحديو توفيق والحديو المعزول اسماعيل والامير حليم . فسألني عما اذا كنت قد  
 أنضيت بكل هذه الاخبار الى اللورد جرايميل . فقلت له : « ان اللورد جرايميل  
 منعتني من اخباره بهذه التفاصيل بقوله في ابتداء حديثه ان اسمعيل قد اشترى عراقي .  
 فماذا كان يمكنني أن أقول له ؟ »

وفي هذه اللحظة دخل الينا شخص يقول ان اللورد جرايميل في الممرل فحشيت  
 جذاً أن يأذن له مستر غلادستون في الدخول علينا لان دخوله كان بمنعني من تميم

قصتي . ولكن المستر غلادستون خرج بمنعها وسرح لورد جرايميل وعاد الى وحو  
 بفرك يديه فمل من مخلص من ثقيل . فكانت اشارته هذه تشجيعاً آخر لى فأخذت  
 فى الحديث فذكرت وقدمت اليه جميع رسائل عرابي عن الانجاء بالرقيق ومشروعات  
 الاصلاح الأخرى ثم جعلت أشرح له مركز ماليت وكولفن فقال لى بلهجة التأثر :  
 « ما ذا نستطيع أن نفعل ؟ انهما موظفان بمصرمان وقد نالا الأوسمة لخدمتهما فى  
 مصر » وأخذ يابح ويكرر ذكر لفظة الأوسمة . ثم سألتى أن أخبره شيئاً عن زعماء  
 الحزب الوطنى من غير الخنود فشرحت له أحوال بعضهم مثل الشيخ محمد عبده  
 واحمد محمود وسعد الله حلى وحسن شريفي وآخرين من النواب وكان آخر من  
 ذكرت له عبد الله بديم الصحفى الخطيب . وكان وصوى لهذا الاخير بأنه « صحفى  
 خطيب » قد لمت نظر مستر غلادستون فكتب اسمه على ورقة صغيرة امامه .  
 ومضيت الى الحديث حتى كانت الساعة الثاية عشرة حيث كان عليه أن يقابل بعض  
 الزائرين . فأكون قد قضيت معه أربعين دقيقة . فما كان أسرع هذه الدقائق .  
 وعند ما خرجت التفت اليه وسأله لحاظه خطر لى عما اذا كان يأخذ لى بأن أرسل  
 لعرابي خطاباً أجيبه فيه عن لسانه عن الرسائل التى أرسلها اليه . ففكر قليلاً ثم قال :  
 « كلا » ثم قال فى تدبر وروية : « ولكنك تستطيع أن تخبره عما فهمت من احاسى  
 نحوه » ثم غير لمجته وقال كأنه يخاطب مجلس العموم فكلز كلامه عندئذ مخالفاً  
 لمجته الشخصية التى كان يخاطبني بها : « اذا أراد (الوطنيون) أن يحكموا على موقعنا  
 فليهم أن يقرأوا ما قوله فى البرلمان وبخاصة ما أقوله أنا لاني أعنى تمام العناية بما  
 أقول فى البرلمان . ونحن فى رسالتنا الرسمية مقيدون برأى أوروبا ولذلك لا نكون  
 هذه الرسائل مطابقة للآراء الحرة فى مصر . فليهم أن يقرأوا خطباً » ثم التفت  
 الى المضددة وأخذ ورقة قد كتبت عليها رسالة موقفة فنظر فيها ملياً وشعرت كأنه  
 يتردد فى أن يرينها ولكنه ألقاها على المضددة . وقد شعرت أيضاً ان هذه الرسالة  
 مما تلى أعبرنى ولستون انه قد هيات ليرسل الى مصر . ثم عاد الى بشاشت وشكر  
 لى ارسالى الخطابات اليه ورجا الى ان أرسل ما يتحدد من الاخبار . وعند ما سلم

على وأيت في وجهه ولفظه من العطب ما كاد يجعلني أستعير لمرجت وأنا أحس  
أنك كنت في حصرة رجل طيب وعظيم معاً وصرت أنتحب كيف يصل مثل هذا  
الرجل الطيب الى مركز رئاسة الوزارة . فصرت أقول « الحمد لله ، الحمد لله ، نصر  
من الله وفتح قريب » .

هذا هو غلادستون الذي رأيته في ذلك اليوم : رجل بهط عطفاً كبيراً على  
كل ما هو طيب ومن يراه يقدم انه لا يجيد قيد شمة عن محبة الحق . ولكن  
كلن في شخصه غلادستون آخر هو السياسي الوصولي الذي يفتن المرص والذي  
قد كتب على أن أراه « يلعب الأعيب هوجاء تجمل الملائكة التي في السماء  
لا على نيكى » .

واليك وصف ما عرفته عنه مدة العشر السنوات التالية :

كلن غلادستون ذا شخصيتين . فكلن جابه الاساني بسر الباطرين ويجذب  
اليه قلوبهم وكان كبير العطف اذا أحب شيئاً أسرف في صرف حماسته عليه . وكان  
مع ذلك متواضعاً حتى مع أولئك الذين كانوا أقل منه مكانة فكانوا بذلك يحبرون  
على حبه والولاء له . وكان في خلقه أشياء من الضعف لم تذكر في التراجم التي ألقت  
عنه وكانت هذه الاشياء تجعل الناس يحبه أيضاً . وكان الشباب أكثر الطوائف  
نطقاً به وكان الناس يحبه أيضاً لهذا السبب .

أما حياته العمومية فكانت زوراً وغشاً كما هي حياة جميع العظماء من رجال  
البرلمان فان الخدع البرلمانية كانت قد انطبعت فيه . وكلن قد شرع في تعلمها أيام  
كلن طالباً في المدرسة فلما بلغ سن الثلاثين صار مقياس الحق والباطل في نظره  
أصوات البرلمان . وكانت مراعاته لهذه الاصوات تضطره الى أن يهمل ميوله  
الشخصية حتى اذا بلغ آخر سني حياته صارت ميوله هذه أشبه شيء . بأذواق منها  
بمبادئ . فكلن يشعر نحوها كما يشعر نحو الموسيقى أو الصيني أو سائر التحف ،  
يميل اليها ولكنه يقيد احاسله نحوها بما يشعر انه واجب الاكثريه البرلمانية .  
وقد كان هذا السبب الاخير في جميع أعماله بل ضميره الحق الذي كان يضغى له  
جمع أمانيه العليا . ثم أن حياته العمومية الطويلة قد ولعت فيه نوعان الخداع الذاتي

الذى يتولد عند المثليين . لانه لما كان مصطراً الى التئيل والظهور بغير المظهر الذى يهواه أتى عليه وقت صار يستطيع فيه أن يتخلق بأى خلق شاء .

فلما اتفق أن وجد نفسه مصطراً الى السير على خطة جديدة لا تتفق عمد الى نفسه فأغراها باعتقاد أن هذه الخطة ليس فيها ما يضره . وأخذ نفسه بذلك حتى يؤمن بما يتوهم ويؤلف فى سبيل ذلك جملة او عبارة يكسب بها رضا نفسه . ومن هنا كان عدم شعوره بالمعاطات . فكان مثله كمثل الطفل فى احدي قصص دكنز اذا أراد أن يمثل دور عليل دهن جلده بالسواد . هذا وأطلى فيما قلته لم أشط فى تدبير غلادستون . والحق ان أعماله فى هذه السنة وخيائنه للقضية المصرية يشتان كل ما قلته وهنا يمكن اختصار ما حدث قبل عيد القيامة فى لندن . فاني ذهبت لقضاء عدة ايام فى كرايت لاشغال خاصة بي ولكن هذا لم يمنعنى من مراسلة أصدقائي مثل عرايى ومحمد عبده وتديم وكنت أحرهم عن نجاحى مع غلادستون وأتوصل اليهم لكي يتصرفوا فى العواقب . وفى ٢٦ منه تسلمت خطا من باتون وفى الخطاب رقعة من أحد ذوى المناصب العليا . وقد وجدت هذه الرقعة لاتزال بين أوراقى وهى قصيرة وكيرة الدلالة فلذلك أرى من المفيد اثباتها ها :

« ٢٢ مه . اتى فى أشد الاشتياق لكي يذهب مستر بلنتويقايل ناني روتشيلد الذى لا يحتاج أحد الى ابضاح مصالحه فى مصر . فانه يكتر من التعصب الى وزارة الخارجية والى مستر حرافيل . وهو فى هذا العمل « يموت كل يوم » كما قيل عن القديس بولس . وانه ليعتمد الجميع خدمة عظمي اذا هو استطاع ان يوفق بينهم . وقد رغب إلى أن أسأل عما اذا كان مستر بلنت يمكنه ان يتشددى فى نيوكورت يوم الجمعة الآتى الساعة الاولى بعد الظهر فليعمل اذا استطاع . فان هذه المقابلة تكون مفيدة من عدة وجوه » .

فها يجد القارىء لب الموضوع فان قرض روتشيلد كان يبلغ تسعة ملايين جنيه وكان لاسرة روتشيلد وحدها نصف هذا المبلغ ولكن المعتقد أن هذا المبلغ قد أصبح فى خطر الضياع فى مصر . وبناء على هذا ذهبت الى لندن فى ٢٧ منه وهو اليوم المتفق عايه ومهى باتون . ولكن لسوء الحظ وجدت ان ناني روتشيلد قد سافر

خروج انجلترا هذا اليوم لان أحد ذوى قرباه كان مريضاً . فلم نجده . ولكنني وجدته قد ترك لي رقعة برحوني فيها أن أكتب له آرائي . ولقد أسفت على هذه المصادفة التي سمعت التفاني به لان مثل هذا الالتقاء كان يكون لذيذاً وإن لم يكن يؤثر على آرائي . ولقد أخذت بعد ذلك أنعجب من معنى « أن يوفق بينهم » وماذا كان يقصد من هذا التوفيق . وقد خاضرتني الشكوك بان الفرض الحقيقي كان ارشاه . عرابي بعد من الاسم حتى يخون بلاده . ويظهر انه قد عرض على عرابي مثل هذا الفرض بعد ذلك بشهرين عن سبيل أخرى . ولم ينتج عن هذه الزيارة سوى أني كتبت مذكرة مطولة لا يمكن اثباتها مما لطلوها قلت فيها ان المساهمين يخسرون بالحرب مع مصر أكثر مما يكسبون وان مصلحتهم هي في قبول الثورة كما هي فليسكنوا اليها . وقد علمت بعد ذلك ان روثيلد بعد أن كاد يقتله المم أيام ضرب الاسكندرية وهو يعتقد وقتئذ ان أمواله قد ذهبت عاد لما استردها باكليها ذكري بالسوء . ويقول آني نبي كاذب . ولكن هذا لم يكن ليهمي . فان مذكري إنما كتبت في مصلحة للدينين المصريين لا في مصلحة الدائنين .

وقد كتبت في ٢٨ منه في مذكراتي شيئاً على عقيلة كتاب جريدة التيمس . فقد ذهبت الي ادارة هذه الجريدة أول مرة في حياتي وكان باتون أيضاً دلي . قرأنا هناك مكدونالد مدير الجريدة وخطابه بشأن ارسال مكاتب الجريدة في القاهرة برسل اليها آراءه مستتلا عن أي تأثير وفكرنا في مكثري وولاس معتقدين انه يستطيع ان يقوم بهذه المهمة . ولكن مكدونالد كلن اسكوتلانديا يعرف قيمة اللال فلم يوافق على هذه المغامرة المالية . وقال لنا انه راض كل الرضا عن الاخبار التي تصل اليه من سكوت المكاتب في الاسكندرية . ثم قال ان للانجليز مصلحتين في مصر هما قناة السويس وحصة الاسهم وآراء سكوت من هذه الوجهة لاغبار عليها فاعدا هذا لم يكن يستحق اهتمام التيمس . ومع ذلك قد شكر لي ما كتبت اليه من الخطابات وهي خطابات لم آخذ عليها أجراً ولذلك هم بشكروني كل الشكر عليها وسينشرون لي كل ما سارسله اليهم . ولكن ليس هناك حاجة لارسال مكاتب خاص .

ولكنى الى ذلك الوقت لم تكن قد داخلتى الشكوك فكنت الى امدقانى فى القاهرة مسياً لم فى الاخيار السارة . اذ ما كنا نحشى وعلا دستون قد انضم الى صفوفنا . وكل ما سألهم أن يربثوا حتى تصل اليهم اللجنة التى طلبت ارسالها وهناك ما يدل على أن لورد جرانفيل لم يكن صادق البية فى تنفيذ الاقتراح أو أن من قاموه فى وزارة الخارجية مثل ذلك لا غير . ضد كتب الى فى الرابع والعشرين من الشهر بآلتى أن أتناول الغداء معاً لىكي تحدثت معه بشأن اللجنة ولكن لسوء الحظ - وربما لم تكن المسألة قاصرة على الحظ - لم تصلنى الدعوة الا بعد ان فات ميعادها .

وهذه مناورة تكرر حدوثها فى الاسبوع التالى . هذا والكتب الزرق تذكر خير مفاوضات لم تنجح مع فرنسا . وكان الغرض منها بحثاً جديداً للحالة . ولكن المفاوضات وقعت وعاد لورد جرانفيل الى طريقته المألوفة فى عدم الركون الى الحد والعزم . ولم تحض عدة أسابيع حتى كانت الدعائس قد انتهت بالقاية المقصودة منها فى القاهرة فى احداث القلاقل الجديدة وصارت مصاعب التوفيق أشد مما كانت وكنت أكتب فى هذا الوقت اليك مكرتير جمعية منع النحاسة . وهو رجل ذو جدارة وإن يكن محدود الآراء . فقد انتقدي سير وليم مور فى حريدة التيمس لأنى قلت فى أحد خطابانى أن برنامج الحزب الوطنى فى مصر يتضمن محوماً بقى من تجارة الرقيق فأخذ يبرهن بواسطة مقتبسات من القرآن على أن الرق من العادات التى كانت ولا تزال ضفة دينية فى الاسلام . وقد وجدت أن اليك قد غضب غضباً شديداً لقولى بأن عرابى يطلب الفاء الرقيق الذى كان اليك يعتبره من الاعمال الخاصة بجمعية منع الرقيق وحدها . فكان غضبه أشبه شيء بنفص صاحب كلاب الصيد التى قد وبضت على صيد الثعالب عند ما يجد أحد المزارعين يقتل ثعلباً بنمسه . فإن من آرائه أن محو الرقيق شيء لا يخص المسلمين إذ ماخا تكون قائمة الجمعية اذا فعلوا ذلك ؟ وعلى أى حال هذا هو الأثر الذى تركه فى ذهنى مناقشتى معه .

وقد وجدت أيضا ملاحظة في أول إبريل بشأن مقابلة ولي العهد الذي رغب  
 أن أنعش معه . وكان رب البيت في تلك الليلة هو ارد فست ولي العهد  
 الحليم . ولكنى لمط ملاقي لم أذهب الى هذا العشاء الذي كان يمكن ان يكون  
 ذا أهمية لى . وسبب ذلك انى كنت على ميعاد مع الاميرة لوزاف لورن في ذلك  
 المساء فلم أرغب في احلاف وعدى لها . ومع ذلك فقد ذهبت الى منزل فستنت  
 والتفتت بولى العهد بعد ذلك وتحدثنا معاً عن شؤون مصر ولكن الحديث لم يتناول  
 الموضوعات التى تهينى أهمية خاصة .

والى هنا يمكن أن أعتر ان حلقى الاولى في سبيل مصر قد انتهت . فقد  
 سلر كل شي ، على الرغم من العقبات الكثيرة . نحو شر دعوتى . وقبول الجميع  
 دعوتى عن الوطنية المصرية قفلا حساً في كل مكان وحقت أصوات القائلين  
 بالتدخل . وكان رجائي في بعض الاحيان عظيماً جداً لان باتون كان يؤكد لى ان  
 اللجنة التى اقترحت ارسالها لمصر قد تقرر ارسالها بالفعل وذكر اسم الشخص الذى  
 انتدب لذلك . ولكن واأسعاه . كان هذا الخبر اشاعة لس غير . ثم جاءت احارة  
 العيد فغادر الناس لندن ومام ان عادوا حتى فاحاتنا المؤامرة الشركية . فكانت  
 بداية النهاية المشؤومة

...

## الفصل الحادى عشر

### المؤامرة الشركية

يمكن القول . ان يحكم على الحال الحسنة في مصر في الاسبوع الاول من  
 شهر إبريل على الرغم من اشاعات القلق التى فشت في أوروبا بخطابين كتبها لى  
 عرابي وبخطاب آخر أرسله الى الشيخ محمد عبده . هذا وان الخلق العظيم الذى  
 يمتاز به الشيخ محمد عبده لزومه المقاتل ثم هذا المركز السامي الذى يملأه الآن فى  
 مصر وهو منصب الافتاء الشرعى كل هذا — يجعل لشهادته قيمة تاريخية  
 لا يبالغ الانسان معها قال فى مدحها . وهذه الشهادة يصح وصفها بحجاب الكتب

الورق لادحاض أكاديسها المختلفة . وكان في ذلك الوقت رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية ومديراً أقلم المراقبة الصحفية فكان مركزه هذا يجعله على علم بما يدور في الوزارة الوطنية . بحيث لم يكن ماليت أو كواص أو أى أوردوى آخر ليدعى مثل معرفته بهذه الشئون . فلهذا الاسباب ألفت نظر المؤرخين الى هذه الوثائق :

القاهرة في أول ابريل سنة ١٨٨٢

الى الصديق المحترم المخلص الخالص المميز مستر وفرد بلنت نصح الله مساعيه  
بعد حمد الله غالب الاقوياء . وناصر الحق أخبرك بان خطابك رقم ١٠ مارس  
قد واصلني وسرني غاية السرور . ولا شك في ان كل رجل حر الصير يفرح برؤية  
من هم مثلك من الصادقين في القول والعمل الذين عقدوا نيتهم على انقاذ مشرذعتهم  
التي يرمون بها الى منعة السوء البشرى عامة ومنفعة بلادهم خاصة

هذا وان محتويات خطابكم تدل على اسمكم قد شغفتم بحرية النوع النشوى  
واسمكم تفعلون جهدكم لخدمة مصالح اسمكم الانجليزية وذلك لعلكم بأن هذه المصالح  
وبخاصة تلك التي في مصر لا تكون مضمونة مأمونة الا اذا كان المصريون أحراراً  
فيكسبون بذلك ودهم . ومن الواجب على الانجليز الاحرار ان يساعدوا اولئك  
الذين يجهادون في سبيل الحصول على استقلالهم وعلى الاصلاح وعلى ايجاد حكومة  
عادلة وحمودك المدبرة بالشكر ستكسبك بلا شك اسما شريفا بين أبناء وطنك  
عدما يعرفون السكينة التي كشفت بها الضاع عن المفتريات التي أذاعها أناس  
ذوو أغراض .

واما بخصوصنا فعن نشكر الخدمات الحلى التي أديتها لمصر واعترا معاً .  
ونحن نرجو لانجليزنا أن تكون أقوى الاصدقاء لمساعدتنا في ايجاد نظام حسن على  
أساس الحرية فليس عندئذ على عرار الامم المتعددة الحرة . ونحمد الله فاننا سنرى  
قريباً نجاحك في حمودك ولهذا نقدر وصولك سالماً لبلادك فألا حساً لنتجاح المتظر  
أما بخصوص النصيحة التي زودتنا بها فنحن نشكر ونعجزك باننا لا نقصر في  
حفظ النظام والهدوء لاننا نعتبر هذا من أهم واجباتنا ونؤكد لك ان كل شيء هنا  
هادئ . فالهدوء والسلام بسودان البلاد ونحن واخوانا الوطنيون يدافع مانعوا



ما يمكننا عن حقوق جميع السكان تصرف الطار عن الامة التي يتمتعون اليها . ونحن  
نحترم جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية ولن نسمح لاحد بمساسها ما دامت  
قودنا تحفظ ونرعى علاقاتنا الودية معا .

اما عن تهديدات المالين واصحاب المصارف في أوروبا فاننا نقبلها بالعصاة  
والثبات . واعتقادنا ان هذه التهديدات تعود عليهم وحدهم بالاذى وتقر الدول  
التي تتخلع بأقوالهم .

وغايضا الوحيدة هي تخليص البلاد من الصودية والظلم والمهل وان رفع السكان  
الى مركز لا يمكن فيه الاستبداد ان يعود كما كان في الازمة الماضية يشر الحراب  
والدمار في مصر .

ان هذا الذي اكتبه اليك هو ما يعكر فيه كل مصرى عاقل يجب حرية بلاده  
ولوجود ان اقدم نسلاني لروحك الطيبة واجل محبات صديقك المحلل

احمد عرابي

القاهرة في ٦ ابريل سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز مستر وفرد بلنت

بعد حمد الله لما أنالنا من الحرية والاصلاحات التي أنعم بها علينا أحبك اني  
قطعت خطابك الثاني بعد ان أرسلت لك جوابي على خطابك الاول . وأنا استهز  
هذه الفرصة لكي أكرر لك شكراتي الخاصة لمساعدكم الحسة . واني أعتز من  
ولجباتي كما هو من واجب جميع الناس ذوي الضمائر النقية أن أشكركم لما أدبته  
من الخدمات العظمى . وفي الاعتراف بالصنعة توثيق الصداقة بين الافراد وكذلك  
بين الامم . فمن مبالون أشد الميل الى التفاهم عن المصالح المتبادلة بيننا وبين الدول  
المرتبطة بنا وليس للدول ذوات المصالح في بلادنا من سبيل للاتفاق بمقودم  
ومساعدتهم الا اذا كانت الصداقة التي بيننا وبينهم وثيقة . فاذا قطعت هذه الصداقة  
فالضرر لن يعود علينا وحدنا بل يعود على الدول أيضاً وبنحاسة انجلترا وليس هناك  
سيليبي كبير الادراك الا ويقيم قيمة المنافع التي تعود على انجلترا من صداقتها لنا  
ومووتها ايانا في كفاحتنا .

أنما عن المراقبة فيجب ان تطمئنا وتعرفوا أنها لن نجد منا ما يعطلها عن تأدية واجباتها حسب الحقوق التي خولتها إياها المعاهدات الدولية . هذا ولم تكن قط مقاصدا أو مقاصد أي انسان في هذه البلاد ان تمس المراقبة وتقلل حقوقها أو تستدعي على المراقبة الدولية .

فإذا كان ممثلو الدول في بلادنا يؤدون واجبه كما ينبغي لهم وبراعوا مصالح بلادهم فاحسن ما يفعلونه أن يعاونونا على تحقيق أمانتنا فيثبتون بالعمل ما يمدونا به بالقول أننا قد برهنا صدقة على ان يكون لامتنا مركز بين الأمم المتمدنية بنشر المعارف في البلاد والمحاطة على الاتحاد والنظام والقضاء بالعدل بين الناس أجمعين ولا يمكن لشيء في العالم ان ردنا عن قصدنا قيد شعرة . فلن نحشي الوعيد أو التهديد ولن نخضع الحكم الصداقة التي قدرها ونكبرها .

أما عن المدعو في مصر فتخبرك انه ليس هنا أي قلق . ونحن الآن نحاول ان نحمو الآثار السيئة التي تركها لنا الحكومة السالفة .

اما عن الاستلة التي وجهتها اليها فقد أرسلنا بواسطة الشيخ محمد عبد المنعم بالترغاف . والحق ان جميع الاشاعات المنتشرة في أوروبا بخصوص الاستعدادات الحربية العظيمة لا أساس لها البتة . فان المصروفات على الجيش لم تزد بارة ولم تنقص درهما عما كانت عليه سابقا . فهي الآن طبق ما كان قد تقر في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨١ في عهد شريف باشا . فيجب ان تطمئن وتعرف ان هذه الاشاعات مقترلت بروجها أناس لا ضمير لهم ، وانه لما يؤسف له ان نجد للاكاذيب مجالاً واسماً في صحف أوروبا المتدنية .

ونحن ندعو الله ان يرشد ساسة أوروبا المفكرين الى مواطن الحق حتى يعرفوا حق المعرفة حالة بلادنا . وبذلك يخدمون بلادهم وبلادنا معاً لان في علمهم هنا توثيقاً للروابط الحسنة . ونبتهل في الختام الى الله ان يمتعنا ببركات السلام وحسن الاخاء .  
احمد عرابي

وكان هذان الخطابان ردين أرسلهما لي عرابي عند ما بعثت اليه أخبره عما لاقته من شعور غلادستون نحو الحركة الوطنية في مصر . وقد أرسلت ترجمة هذين

الذين عد وصولها الى مستر علاستون . وكنت أظن أن مستر علاستون لو كان قد اطلع على هدى الدين لكان صرف اليها انتباهه . ولكنه كان في ذلك الوقت مجتهداً عن لندن وقد شطت أنباء أهم مما كان فيه — أعني أشياء تهدد كيان الحكومة — وهي الثورة في أرمينيا . ثم لم تسنح لي الفرصة لرؤيته أو رؤية هاملتون حتى انتهت احارة العيد حوالي آخر الشهر . وفي أثناء ذلك دخلت المسألة المصرية في طور خطير وذلك بسبب المؤامرة الشريكة التي وصلت أخبارها الى لندن في الاسبوع الثالث من شهر ابريل . ولم أعن العناية الكبيرة بهذه المسألة عند أول ظهور أخبارها معتقداً بأنها إحدى المفتريات التي تنشر عن مصر . ولكن الاحوال أثبتت أنها خطيرة تستدعي الانتباه . ولم تكن خطورتها متوقعة على حدودها من حيث هي بل من حيث أنها كانت فرصة للحكومة لتزقيها لكي توقع الخلاف بين الخديو ووزرائه . وكان مايلت قد خضع تمام الخضوع لكل من في هذا الوقت وصار يتصحب بنصحته ويسير على هواه .

وأصل هذه المؤامرة هو بلا شك الخديو اسماعيل . وأنا أعرف هذا من جملة مصادر أحدها إبراهيم بك المولى بى سكرتيره . فان اسماعيل كان وهو في نابولي يدبر حركة عصابته في القاهرة وكان يرسل بواسطة هذه العصابة نصائحه الى ابنه . وكان وكيله رجلاً يدعى راتب باشا الذى كنت قد سمعت عنه في الحريف الماضي بأنه عدو الوطنيين الازرق . وكان هو واسطة المؤامرة . وكان التدبير ينطوى على ايجاد حركة رجعية بين الضباط الشراكية في الجيش لمقاومة الفلاحين . فغرابي وسائر الضباط الفلاحين يحكم عليهم بالاعدام . فيؤدى هذا الحكم الى ايجاد حركة أخرى بين الضباط الفلاحين وبحصل التصادم فإذا جرى كل ذلك وأدى الى خلط هرج ومرج ووجد اسماعيل ثغرة يدخل منها الى مصر ويمود على عرشه . ولقد كنت أنا مقتنعا تمام الاقتناع بأنه لا أمل لاسماعيل في تحقيق هذا المشروع ولكن القارىء يذكر أن ريفرز ويلسون كان يعتقد امكانه بل هو صار يفكر في وجوبه باعتباره شيئاً مرغوباً فيه للتخلص من ضعف توفيق الذى لم يقدر على حامية المراقبة وكان توفيق متردداً بين سبيلين فلما أن يسير مع الوزارة الدستورية وعرابي

الذى صار الآن يفارقه أشد الفجرة واما أن ينضم إلى الرجعيين الاتراك ولو كان في هذا امكان رجوع والده . وكل شريف وماليت يشتغلان معاً وصار منزل شريف مركزاً للدسائس التي كان يوجهها اليهما كوفن لاسقاط الوزارة . ولست أقول ان كوفن أو ماليت أو شريفاً نفسه كانوا يعرفون المؤامرة ولكن كان من المعروف المشهور أنهم كانوا يرمون إلى وجود أي حزب يرمي إلى قلب الوزارة وكان هذا مما زاد ثقة المتآمرين . ومع ذلك قد وصل خبر المؤامرة إلى عرابي قبل مايتحقق . فقد حاول المتآمرون أن يقتلوا عد المال بك قبض عليهم في الحال وحبسوا . والفارسي ، مجدي في الخطاب التالي الذي أرسله إلى الشيخ محمد عبده في ٢٥ ابريل تفاصيل هذه المؤامرة وأخباراً أخرى مفصلة :

« أما عن ترقية الموظفين التي تلغظ فيها الصحف الأوروبية فاسمحوا لي بأن أوضح الحقائق . فأقول أولاً أن هذه التريقات لم تعمل ما . على أمر عرابي باشا وحده ولم تكن بمثابة الرشوة لأضباط لا كساب عظمهم نحو عرابي . كلا . فالواقع أن هذه التريقات عملت بناء على القانون الحربي الجديد الذي يأمر بإحالة الضباط الذين يلقون سنامعية أو يمرضون ويصابون بأمراض على المعاش . وقد نفذ هذا القانون في عهد شريف باشا وأحيل على المعاش ٥٥٨ ضابط . ثم أرسل ٩٦ ضابطاً إلى حدود الحبشة وزيلع وأما كن أخرى . بينما قد أخرج من الجيش نحو مائة ضابط توظفوا في الوظائف المدنية . فعدد جميع هؤلاء ٧٥٤ ضابطاً . فكان اذن من الطبيعي أن تحصل ترقية للموظفين في الوظائف الحالية . ولا يزال في الجيش خزون وظيفة قد حفظت للحزب المدعومة الحربية .

« والآن أريد أن ازيل من العقول هذا الوم السائد في ادعاء البعض أن عرابي أو الحزب الحربي أو الحزب الوطني آفة في يد الاتراك . فان كل مصري سواء أكل من العلماء أو من الفلاحين أو الصناع أو التجار أو الجنود أو الموظفين أو السياسيين أو غير السياسيين يكره الاتراك ويعتق ذكراً . ولا يستطيع مصري ان يفكر في زوال الاتراك في بلادنا بدون ان يشعر بعاطفة قوية تدفعه إلى امتشاق سيفه والمجرم به على هذا المعتدى .

ان الأتراك ظلة وقد تركوا في بلادنا من آثار السوء، ما لا يزال قلوبنا تضرب منه ضربان الحرج . فلنا نريد رحمتهم ولنا نريد ان نعود الى معرفتهم . وكفى الأتراك ما لهم من حقوق المراميات . صلبهم أن يقفوا عند هذا الحد ولا يتعدوه . ولكنا إذا علمنا بأنهم يحاولون دخول بلادنا فاما تلقى هذا الخبر بشيء لا يخلو من الترحيب . ولقد شعرنا نحن شيء . من هذه النية عند الأتراك ولكن هذا الشعور سبب استعدادنا . فاما ستفهم هذه الفرصة لكي تحقق استقلالنا التام . هذا وساسة البلاد وقادتها يترصدون لحركات الأتراك في مصر وسيففونها إذا رأوا أنها قد عدت طورها . ولست أنكر ان في مصر أتراكا وشراكة يدفعون عن الباب العالي ولكنهم قليلون في جانب اولئك الذين يحبون بلادهم

« هذا وبخصوص المؤامرة التركبة لاغتيال عرائس أحبركم انها ليست ذات خطر فان الحديو اسماعيل قد مصت عليه مدة طويلة وهو يصم الاقام لكي يدمر حكومتنا وهو يعتقد ان هذا العمل يرجعه الى مصر . ولكن الله القدير قد دد آماله في الهواء . لان كل مصري يدرك ان رجوع اسماعيل لا يعنى سوى خراب مصر . فهذا الفرعون قد أرسل الى مصر أحد الدفيس وهو راتب باشا الذي حصل على إذن بدخوله مصر بوساطة سرية في عهد شريف حيث اتصل بأخيه محمود أبدي طلعت البكباشي ثم استخدم ايضاً يوسف بك نجاشي ومحمود بك فؤاد من اخوت خسرو باشا وعثمان باشا وفقى « وكل من هؤلاء . شراكة » وهؤلاء أخذوا في نشر دعوتهم وهي قتل الوزراء الحاليين ثم قتل كبار الضباط في الجيش . ولكن هذا الحزب . الاخير قد اضطروا الى تأجيله حتى يجدوا من الاعالييل ما يبررون بها عمله . ثم حدث ان تسعة من الضباط «شراكة رفضوا الذهاب الى السودان . فأخذت عصابة راتب باشا في إنغراء هؤلاء الضباط واقترحت عليهم أن يرفضوا الذهاب الا بترقية

« وكانت الوزارة تعرف منذ زمن شيئاً عن هذه الحركات . فهد مجي . راتب باشا الى مصر كلن محمود سامي رئيس الوزراء . الآن ودربراً للحرية يطلب من شريف باشا أن يبعه الى خارج القطر . وانكى شريف على الرعم من نجدبر محمود سامي

رفض أن يأمر معه وسب ذلك أن رانادوج أمة شريف باشا والعض يظن أن  
الاثنيين متواطئان علي وجوع اسماعيل

« وحدث أن عصانة رانب دعت ضابطاً شركياً يدعى راشد أنور أفندي  
لكي ينعم فأني أن تكون له بهم أبة علاقة . فلما ترك المتأمرين قام  
نوراً وذهب إلى عرابي وكشف له المؤامرة . فألقى القبض عليهم وقدموا  
للمحاكمة العسكرية

« وقد أحدثت هذه الحادثة قليلا من التهييج بين العامة . والجميع يعرفون  
أن حياة عرابي مثل حياة أي إنسان آخر . وليس بين الناس أحد معها كان عطيا  
يستطيع أن ينجذب إليه قلوب الجميع دون أن يكون بينهم من يريده سوء .  
ولكننا جميعاً نصحك إذا قيل لنا أن المحتلرا على وشك العوضي لأن أحد المجابين  
قد حاول قتل الملكة

« أن عدد الشراكسة في الجيش لا يزيد عن ٨١ صايطا ولا يمكن عاقلا أن  
يتصور أن مثل هذا العدد قادر على قلب الحكومة

« أما عن تجارة الرقيق فنبلضكم بأن الوزارة الراهنة تعمل بحمد في إلغائها .  
والدين الاسلامي لا يعارض في هذا الالغاء بل بالعكس يرى أن أوامر الدين نعم  
اتخاذ الرقيق إلا من الكفار الذين يقاتلون المسلمين . فالعبد هو في الواقع أمير قد  
أخذ في حرب مشروعة أو هو أحد أفراد أمة ليست على صفاء في علاقاتها بأمراء  
المسلمين وليست بينها وبينهم معاهدات أو محالفات تحميها . رد على ذلك أن  
الكافر الذي ينتمي إلى أمة متحالفة مع أمير مسلم لا يمكن أن يؤخذ في الرق . ومن  
هذا يتبين لكم أن الدين الاسلامي لا يعارض في إلغاء الرقيق ، كما هو الحادث في  
هذه الأيام بل هو لا يوافق علي استمراره . وأولئك العلماء الذين لا يوافقون علي  
هذا الرأي في إنجلترا أو غيرها عليهم أن تأتوا إلينا ويعلموا نحن شيوع الأزهر  
أصول إيماننا فإن مثل هذا العمل يصير من المناظر المدهشة . فإن العالم الاسلامي  
بأجمعه سيصدق ويعتقد لسانه عند ما يعلم أن مسيحياً قد أخذ علي نفسه تعليم علمه  
أكبر حامية اسلامية أصول ديانتهم وكيفية شرح القرآن

« هذا مستند فتوي من شيخ الاسلام اعلناً بأن العالم الرقيق يوافق روح القرآن والسنة .

« وستنجد الحكومة المصرية في ازالة جميع العوائق في سبيل هذا الالغاء .  
ولي يهدأ بالما حتى تمحي هذه التحارة من جميع الاراضي المصرية »  
« محمد عبده »

وهكذا فشلت مؤامرة ٢٥ ابريل ولم تكن لتستتبع أى ارتباطا كالت أخرى لولا تدخل مالت . فدلنا من أن يصير الوزارة التي كانت هدف هذه المؤامرة مال بكل عواطفه نحو المتآمرين . فقد حوكم هؤلاء المتآمرين أمام محكمة عسكرية وحكم عليهم بالنفي الى البحر الابيض . وليس هذا بالعقوبة الهائلة وكثيراً ما حكم بمنالها في عهد المراقبة الثانية . فكتب مالت خطابات الى لندن يقول فيها ان العقوبة لا تقل عن الحكم بالاعدام . وأخذ مكاتب التيمس ينشر قصة مقتراة في جريدته مؤداها ان عراي ذهب الى السجن وعذب أمامه المتهمون . وليس لهذه القصة أساس مطلقاً ومع ذلك فقد ألبسها مالت رسالته شيئاً من الوجاهة لانه ذكر ان هذه القصة من الاشاعات الخارية على اللسان وانه سمع صراح من السجن في الليل . والحقيقة ان مالت جعل هذه القصة من الاعايل التي تقدم بها للحديدو لتساعية بين وبين الوزارة لكي يقل قضية المؤامرة من يدهم الى يد الحديدو بنية تخفيف الحكم الى بني بسطة مع أن هذا العمل طبقاً لقواعد الدستور الجديد لم يكن من حقوق الحديدو

ولنعد الآن الي مذكراتي فأقول اني اجدد في ٢٨ ابريل اني ذهبت الى منزل رئيس الوزارة وأنا في أشد الحلق لانه لم يعمل شيء الى هذا الوقت لمصلحة مصر . ولكن هاملتون نصح بالصبر وقال لي ان هالك فكرة ترمي الى ارسال بعثة لمصر تدرس احوالها الآن . وفي اليوم التالي أيضاً هنائي باتون « وقال لي أن هالك ازمة شديدة عن مصر وأن من رأى الباب العالي ارسال الجيوش وخلع توفيق وتولية الامبراطور مكانه واعدام عراي . ولكن الحكومة الانجليزية والحكومة الفرنسية قد معنا ذلك وان عراي سيعاود وسترسل البعثة » وفي يوم الثلاثاء سيكون موعد اللقاء نصريح من الحكومة في مجلس اللوردة خاص بمسألة مصر . وحير نحلل انساب

العالي هو بلا شك أزمة قد أوجدها رتشيلد بمعاونه مبارك . فقد تورت العلاقات بين الاستانة وادرت الوطنى فى مصر فى الاسابيع الاحيرة وذلك لطروف عديدة يلىق فى تفصيلها ها الآن مع اثبات المكاتبات القرية التى دارت بين السلطان وعرابى وهذه المكاتبات عطية الاهمية لانها تثبت سلطة عرابى ونفوذه وعلو ردها على سلطة سائر الوزراء.

والقارى، يذكر انه عند ما زارت بعثة السلطان مصر فى خريف سنة ١٨٨١ لقي أحمد باشا راتب ( وهو غير راتب باشا وكيل اسمايل ) ياور السلطان عرابى فى القطار عند سفره الى السويس لكي يذهب منها الى مكة . وقد تبادلوا الافكار والآراء فى هذه السمرة وتصادقا، وان ياور السلطان هذا قد وعد بان يذكر عرابى بالخير لدى السلطان ويبين له انه مسلم مخلص يدين بالولاة للحليفة. وجرت مكاتبات بينهما على اثر ذلك وعدى من هذه المكاتبات أصل الوثيقتين التاليتين. وقد وقعتا فى يدي فى وقت محاكمة عرابى وقد كتب هذان الخطاان فى الاسابيع الثلاثة التى تلت ودارة محمود سامى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وكان عرابى وزير الحرية فى هذه الحكومة . والخطاب الاول من أحمد راتب والثانى من الشيخ محمد ظافر وهو من كبار رجال الدين فى الاستانة وكل فى ذلك الوقت مكلما بملاحظة مكاتبات السلطان السرية . وقد كتب الخطاان بناء على أمر السلطان الشخصى !

« الى وزير الحرية المصرية احمد عرابى باشا

« لقد قصصت على جلالة السلطان الحديث الذى جرى بيننا فى القطار بين محطة الزقازيق والمهدية بعد رجوعى الى الاستانة فامرنى بان ابلغكم نحياته الشاهانية. وقصصت على جلالاته ما لقيته من حسن رعايتكم لى ولطف آدابكم فى القاهرة وقد سر جلالاته غاية السرور لذلك فتضاعف بذلك رضاه عليكم . وقد سبق ان بعض الناس أوهموه ولا أدري باى كيفية ياتكم لا تسبرون على الحق حتى جعلوه يسى . لطن بكم . اما الآن وقد عرضت عليه حقيقة الحال فاني أقسم لكم ان جلالاته قد أسف أشد الاسف لما سبق ان اعتقده خطأ بكم . واثباتا لذلك أمرنى ان اكتب لكم هذا الخطاب وان أخبركم بما يأتى :



« لاجلهم جلالتهم شخص الحديو . واما على حاكم مصر ان يكون افكاره ومبادئه وسلوكه موجه نحو المحافظة على مستقبل مصر وسيادة الخليفة وعليه ان يحافظ على ديانة البلاد وحقوقها

» وهذه الواجبات المذكورة يجب على الخالس على عرش مصر . ان يؤديها وقد عهد اسماعيل باشا ومن سبقه من الولاة الى ارشاد على باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا وسائر من يمثلونهم لدى الباب العالي من الخوة فأخفوا الحقائق ، وأحد ولاية مصر في البى والطلم وأثقلوا كواهل المصريين بما طلبوه منهم ثم هم فصلوا عن ذلك قد اقترضوا أموالا جسيمة ووضعوا البلاد تحت يبر تقيل وان حالة المصريين الآن لما تدعو الى الاسف والتحسر ولكن المسألة في غاية الدقة وهي تدعو الى العلاج السريع الواقى . فذلك يجب عليكم قبل كل شيء ان تتقوا كل ما من شأنه ان يخل على البلاد اندخل الاخني والأتحدوا عن بحجة الصواب والحق وألا تسعوا أقوال الخوة ولكن عليكم ان تحذروا جميع الوسائل والعناية العامة لمع الاحانب من احداث الفتنة هذا هو الكبر ما يرجوه السلطان

» وبما اننا مستكاتب نحن الانبي في المستقبل يجب عليك ان نحتاج حتى لا تقع خطايانا في أيد غريبة . وأسهل طريقة لذلك ان نعلم خطايانك لهذا الشخص الذى يحمل اليك هذا الخطاب وخطاب الشيخ محمد خافر

» هذا وأزيد على ما تقدم أنه يجب عليك ان ترسل الى اعتاب حلالة السلطان خفية دون ان يعلم أحد ضابطا من الواقفين على الحقائق في مصر ومن ثقب بهم لكي يخبر جلالتهم عن حقائق الاحوال بتفاصيلها

» وأرجوك ان ترسل الرد عن يد حامل هذا الخطاب احمد راتب

» ٤ ربيع الثاني — ٢٢ فبراير ١٨٦٢ »

\*\*\*

الى صاحب السعادة وزير الخرية المصرية

« لقد قدمت كلا خطايكم الى جلالة السلطان وقد علم من مضمونهما عواطفكم الوطنية ويقظتكم وبخاصة ما ذكرتموه من السعى في رعاية مصالح حلالة وقد طلب

الى حالاته لهذا السبب ان أعر لكم عن مروره وان اكتب اليكم ما يلي :

بما ان المحافظة على سلامة الخلافة واجب على كل رجل ذى شرف يحس على المصريين ان يعملوا لتوثيق عرى الاتحاد بين مصر والدولة وان يمنعوا السبل التي تؤدي الى خروج بلادهم من الدولة الى ايدى الاحزاب الطامعين فيها كما حصل في تونس . وحالاته بضع ثقته في شخصك وبطلب اليك أن تستعمل كل نفوذك لمنع وقوع هذا عليك وان تحترس والا تفعل عن هذه القطة وان لا تهمل في اتخاذ جميع الاحتياطات التي يتطلبها مآسا المآصر واصفاً نصب عينيكم في كل وقت الدفاع عن دينك وبلادك . وعليك ايضاً ان تحافظ على الثقة التي أحررها عدنا وأن ترعى الروابط التي تربطك بنا

« ان مصر ذات أهمية كبرى لسكان فرنسا واحتلتها وبخاصة لاحتلتها . وقد حدثت هنا دسائس من رجال هائيل الدولتين برحونهما لتحقيق أغراضهم اللعينة السائلة وقد رأوا أن يمدوا شاك هذه الدسائس الى مصر . لحالاته رعب اليكم أن تتيقظوا وتحذروا هؤلاء الناس . هذا ويرى من تلعنات الخديو توفيق باشا أحد أفراد هذا الحزب انه صعب يتطوح وراء أهوائه . ولاحظ ايضاً ان تلعناته متناقضة . وزيادة على ذلك تخبرك ان على نظامي باشا وعلى فؤاد بك قد حلتا حالاته بشأنك وامتدحاك لديه . وقد ذكر احد راتب باشا لحالاته الحديث الذي جرى بينكما في القطار بين الزقازيق والمهدي وحالاته يشق كثيراً بأحد ماشاؤلفه المناسبة قد أمرني أن أخبرك بثقته فيك وأن أكرر عليك ضرورة الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يكون سبباً في تدخل الاحزاب بأي وجه .

« اما الأمر التي سيتلقاها راتب باشا في هذا الصدد فترسل اليك على حدة وقد كتب هذا الخطاب والخطاب المرسل من احمد راتب باشا احد سكرتيرة حالاته ووضع كل منا ختمه عليه كما وضع ايضاً ختم على كل ظرف

« ثم أخبرك بصمة مربية خاصة ان جلالة السلطان لا يثق باسمجبل او محليم او توفيق ولكن الشخص الذي يفكر في مستقبل مصر وديةوى العلاقات التي تربطها بالخلافة والذي يحترم حالاته ويراعى الفرمانات والذي يؤكد استقلاله في الاسطة

وعبرها والذي لا يدع الرشي للموظفين . والذي لا يحرف قيد شعرة عن واجبه  
وأي يعرف أساليب الدسائس الأورويغويي ويحافظ لها ويحافظ على اللادام شرورها  
مثل هذا الرجل يسر جلالة ويحمد لديه قولاً

« ثم أرحوك الا تؤاخذني اذا كنت قد احتضرت القول في هذا الخطاب من  
احمد راتب باشا قد وصل الي هامد ثلاثة أيام وأخير جلاك عن ولائكم خفي  
وثق بكم جلالاته تمام الثقة . وهذه التعليمات المذكورة هامد قد تسلمها امس فقط .  
وابي آمل أن أرسل لك في بريد الاسوع الآتي خطانا أكبر تمصلا من هذا  
وعلى كل حال يجب ان نحدد لثلايق أحد الخطابات في أيد عربية وليكن لك  
رسول خاص . ويحسن أن ترسل الرد بواسطة حامل هذا الخطاب

خادمك — محمد طاهر

« ٤ ربيع الثاني

٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ »

هذان الخطابان عطيا الأهمية التاريخية واداد قدر لي أن أطبع مذكراتي في  
أصنع صورهما القنوعرافية اراء . رجتها . فها يوصحان ماحدث بعد ذلك في يونيه  
وقت بعثة الدراويش . واذا كل عراقي قد انحد لعمه في ذلك الوقت وفي مدة  
الحرب سلطة المستبد المستأثر فانه انما فعل ذلك وعنده من الوجهة الشرعية ما يبرر  
عمله وكذلك عنده من أوامر الخليفة ما يبرر مركزه ايضاً اذ قد مدبه الخليفة للدفاع  
عن البلاد وحمايتها من اعتداء الصرانية .

وكان الذي دعا الى تفسير هذه الحطة موقف هاريجتون فانه اعتبر مسألة  
قتل أخيه كأنها ظلامة شخصية له يجب ان تنأر ومن ذلك الوقت صار أعدي أعداء  
الوطنية الاردنية

وهذه الخطابات توضح ايضاً السبب في كراهية السلطان عبد الحميد لان يعلن  
في شهر أغسطس أن عراقي نأثر خارج على الدولة كاتين ايضاً سحافة هذه المهمة  
لجئ قدمت ضده في وقت المماكة

ومع ذلك يجب الا يعتقد القاري . ان عراقي قد رضى بان يكون آلة في يدا السلطان  
في أي شيء . مما له علاقة باستقلال اللاد الاداري . فقد كان موقفه من هذه الناحية

موقف ثابت فقد كان يكره الأتراك ومن المحقق انه كالب يقاوم بقوة السلاح أي محاولة مهم في دخول القطر المصري . وحطاب الشيخ محمد عند بشهد بذلك . وهو يتفق وما قاله عراي منه لي . فكل من كره في بلاط السلطان مقلدا غير ثابت علي حال واحدة لهذا السب فقد كان له صديقان في الاستانة هما أحمد راتب ومحمد ظافر ولكن كان له مجانبهما اعداء عديدون . وكان احمد هؤلاء ثابتا باشا السكرتير التركي للحديوي فانه لم يكن يهمل في أخبار السلطان كل ما يوغر صدره علي عراي . ولا نداه عند ما حدثت المؤامرة الشريكية وقبض علي عدد من وجهاء الأتراك وكان بينهم عثمان باشا رفيق اغتاط السلطان واستاء كثيرا . ولكن بطهران هذا الانسياق لم يدم طويلا لانه عند ما صارت المسألة تنحصر في مقاومة أوروبا عاد عراي فحسب رصي السلطان وبال خطوته . ولم يكن عند السلطان أي تردد في أيهما يجب أن يختص بهطه . توفيق العونة فرنسا وانجلترا أو عراي الذي ينود الدول المسيحية عن بلاد اسلامية

وأولى انه مما يؤسف له ان رغبة السلطان في خلع الحديوي وتولية حليم مكانه لم تعد لاه وان لم يكن لعراي أي صلة بحزب حليم في مصر فانه لم يكن يعارض في توليته مادام قد رأى الحديوي توفيق قد ألقي منه في احضان السياسة الانجليزية . وكانت هذه التولية تقابل بالاستحسان والموافقة عدد عظيم من سراة مصر الذين كانوا يعرفون ان حليم أكثر ذكاء وأسى آراء في اسباسة من الحديوي . ولو تدخل السلطان علي هذا الوجه وبهذا القصد لعد تدخله سديا ولما كان في حاجة الى تدخل حربي . وربما كان هذا علي وجه العموم أمثل حل للمسألة . ولكن فرنسا كانت ترغب أشد الرغبة في تدخل السلطان وكان ممثلو حكومتها في القاهرة يكثر من التعهدات لتوفيق . وكانت نهاية هذه المساعي أي فكرة ارسال بعثة انجليزية وهو ما كست اقترحه ايا وفكرة تدخل السلطان ان اقترح مسيو فريسييه ارسال بعثة مؤامره من قائد فرنسي وآخر انجليزي وآخر تركي « لاعادة النظام في الجيش المصري »

وكان اللورد ليونر هو الذي أشار علي مسيو فريسييه بهذا الاقتراح ولكن

هذا التورد عيّل الى الاخذ بآراء، ما لبثت . لان هذا الاخير كان سكرتيره الخصوصي  
مدة طويلة فكانت الثقة فيه لهذا السبب كبيرة

ولم يعمل شيئاً مما كنت قد وعدت به من الوراثة الانجليزية ولاتلك الكلمات  
قليلة التي وعدت غلادستون أن يفوه بها في البرلمان . وحدث لسوء الصدفة أن الامة  
التي كانت حادثة في مصر قد اتفق وقوعها في وقت الامة الارلندية . فقد جرب  
فورستر في أرنلدا نطائماً من الحكم يحصر في التهديد والضغط . فقد قبض على  
اعضاء من البرلمان وجلسوا دون أن يحاكموا ونمادى رجال الولىس في أنخاذ أساليب  
صارمة لم تؤد الى تهدئة البلاد . وكان غلادستون قد أقنع وزارته بضرورة تغيير  
هذه الخطة لمحلة المصالحة والمسالمة . وجرى اتفاق سري مع بارنل رعيم الارلنديين  
وهو في السجن ومع صديقه ديون وهذا الاتفاق يعرف بمعاهدة كلمنهام أفرح  
بمقتضاها عهدها . وكانت نتيجة ذلك أن استقال فورستر في ٢ مايو وحل على الحكومة  
لصعها في مجلس العموم . وكان هذا اليوم هو أي ٢ مايو قد عين لان يكون اليوم  
لدى تمهوه في الحكومة بتصريح عن مصر وكان مقترح هذا التصريح التورد دلاوار  
وقد وجدت في مذكراتي مايلي :

٢ مايو — تقيت التورد دلاوار في مجلس اللوردة . فأخذي الى الداخل وكنت  
أتظر ان أسمع شيئاً عن التصريح الخاص بمصر . ولكني بدلا من ذلك سمعت  
تصريح التورد حرافيل عن استقالة فورستر من ولاية أرنلدا . وحدث على أثر ذلك  
هياج عظيم في المجلس وكان يبدو على لور جرانفيل خيرة وارنباك . فقد وقفه لورد  
سالبري مرة أو مرتين وسمعت روزبري يقول نضع كلمات بيته مؤثرة مثلثة وقاراً .  
أما المسائل المصرية فقد أوجئت باعتبارها غير مهمة .

فقد أنشأنا أرنلدا جميع المسائل المصرية وبلغت هذه الحال حداً أن ذهبت  
مرة الى مورلي في السادس من الشهر لكي ينشر لي في جريدته خطاباً جاءني من  
الشيخ محمد عبده يوضح فيه المؤامرة الشركية فرفض مورلي نشر الخطاب معتزلاً  
لي بطوله وقال لي « ليس هنا من يهتم بمصر الآن » .

وكان هذا أول فصول المؤامرة القادمة . ففي السابع من الشهر اغتالت عصاة

أرلندية في دبلين كلفديش شقيق اللورد هارموتون وأحد أصدقاء غلادستون  
الحميمين وكان قد عيى والياً على أرلندا بدلاً من فورستر وفقاً لخطة المسألة الجديدة  
وقتل معه أيضاً مستر بورك. ولم يكن لهذه العصاة علاقة بحرب بارنل ولكن الجمهور  
لم يميز بين الاثنين وكانت النتيجة أن الأمة قامت بصوت واحد تطلب اتخاذ تدابير  
شديدة ضد الثورة في أرلندا. وصار غلادستون يقاوم هذا التيار وعرض على ذلك  
أحد الأحرار الذين كانوا مثل مستر تشبرلن على ولا. مع حزب بارنل أن يمين  
والياً على أرلندا ويستمر في اتخاذ خطة المسألة. ولكن ذلك لم يرقه هذا المنصب  
المخوف بالخطر ورفضه. وبات من الصعب أن يوجد من يملأ هذا المنصب

فكان امام غلادستون طريقان : إما الاستقالة وإما العزول عن سياسته. وقد  
وجد الأكثرية في الوزارة تحالفه فاختار الطريق الثاني وزل عن سياسته. فأرسل  
إلى دبلين عاصمة أرلندا ترصليان وانقعدت النيات على اتخاذ خطة حرم وشدة في  
أرلندا. وحدث مثل ذلك في مصر. فان غلادستون كان إلى هذا الوقت باعتباره  
صاحب الصوت الاعلى في الوزارة يتمتع بشخصه أى تدخل حربي على الرغم من  
خطة المسافة والمحاصرة التي ألزمتها وزارة الخارجية. أما الآن فقد وجد أكثرية  
الوزارة قد تبحث عنه فألقى بحصر إلى الثواب. فكان لأن حال زملائه في الوزارة  
يقول : انظر ماذا فعلت سياسة المسألة في أرلندا وما جنى منها »

وإذا كان ما قيل لي صحيحاً فإن القرار بشأن سياسة الحزم والشدة في أرلندا  
والقرار بشأن التدخل في مصر قد اتخذوا في جلسة واحدة في الأسبوع التالي من  
شهر مايو. وإليك بعض محتارات من مذكراتي عن تلك الأيام.

« ٨ مايو — كانت نتيجة الأحرار السيئة عن مصر أتى أرسلت « بلاغاً  
أخيراً » إلى غلادستون أرجوه فيه أن يخلصني من الحيرة التي وقعت فيها بسبب  
صمت الحكومة. فقد قلت أتى سأقول الحق إذا لم يفكك اللورد غرافيل. وأناس  
في كل مكان في هياج عن أرلندا فقد جاءت أخبار أمس تنبئ باغتيال اللورد  
كلفديش ومستر بورك وشعر الناس لأول وهلة كأن الحكومة ستوشك أن  
تستقيل ولكن بارنل قد كتب اليوم بكر أى صلة أو علاقة بهذه الجريمة وسيقوى

هذا الانسكل مركز غلادستون . وفي يوم الجمعة كنت بمجلس العموم في إحدى أروقته وكان الى جاني آرثر برايدس رئيس المجلس فأشار بيده الى «الثلاثة الارلنديين المتأمرين» وهم يتحدثون فتأملت باربل . وهو رجل ملوول حسن الوجه يبلغ عمره نحو اثنين وثلاثين سنة . وليس في سمته ما يدل على أنه من القليلة السماحين . اما ديون فطويل القامة شاحب جداً أسمر اللون تقريباً . ولو ألبسه الانسان عباءة وأمسكه خنجرأ لصار مثل جاي فوكس . وكان مطرها بشير عن سائر من حولها كما يتميز الرجل المهذب من بين أوباش يحيطون به .

« ١٠ مايو — جاءت احبار سينة من مصر . فان الحديبورفص ان يوقع على احكم في قضية المؤامرة الشريكية فطلب عرائ احكام مجلس النواب . وهم الآن يتحدثون عن خلم توفيق . وقد ذهبت الى معزل رئيس الوزارة ورأيت حودلي فألححت بضرورة حصولي على جواب من غلادستون على اسئلتى الماضية . فقال ان غلادستون غير موجود لانه ذهب لتشييع جارة اللورد كاهديش واتفقت مع جودلي على أن أعود في اليوم التالي لكي أحصل على اجابة . ورأى حودلي شدة قنني فوعدني هذه الاجابة قائلاً ان الوقت الحاضر فرصة سينة » .

هذا ما كنته في مذكري واني أندكر الآن أن حودلي كان يعطف على أشد العطف في هذه المسألة . قد كنت متأراً غاية التأثر . فقد تراءى لي عدد انه من الحزن أن يتوقف حظ امة بأسرها واحسن الآمل لاصلاح ديانة وكنائهما — الامة والديانة — ذات مكانة في التاريخ على الحصول على مقابلة رجل مسن والتحدث اليه مقدار نصف ساعة لاني كنت أشعر آني قادر على إقناعه . ولم أكن أعرف احدا في مجلس الوزراء ولكن لا بد ان حودلي كان يعرف كل شيء . واني أعرف انه كان على الدوام يعارض خطة الوزارة الخارجية نحو مصر وأطلى أنه شعر بمجبابة مسنر غلادستون في اشتراكه في الخطة عندما وقف يدافع عن التدخل وإعلان الحرب على حرية الشرقيين لمصلحة المالين . ولم يمض زمن طويل على تغيير خطة غلادستون حتى تركه جودلي وعين في وظيفة أخرى وكنت أشعر على الدوام أنه فعل ذلك احتجاجاً على مسنر غلادستون . وإليك المذكرات .

« ١٢ مايو — لقد صرح فريسيه بأن الأتراك لن يسمح لهم بالتدخل . وقد ذهبت الى منزل هوارد الذي وافق على ما رسمته وهو أن أنشر جميع الحقائق وعدي جميعها . وسنشرها التيمس . ويظهر أن روتشيلد قد اشتعل بمجد لكي يجعل الحكومة الفرنسية توافق على عزل الحديو ووضع الامبر حليم على عرش مصر . هذا وقد أمر أحد الأساطيل بأن يكون على قدم الاستعداد بعد خمسة عشر يوماً في بليموث . . . وقد قابلت ادى هاملتون وهو يعدن بالاجابة هذه القليلة . هذا وقد أحدث رفض ذلك لولاية ايرلندا غضب هوارد . وقال عنه : « انه سيفقد مكانته الاجتماعية بهذا العمل » فهم ينظرون الي ذلك في امتناعه عن قبول هذا المنصب كأنه قد أحجم عن خطر ولكن ربما كان الصحيح ان ذلك أثر البقاء في وزارة الخارجية ليشرف منها على جميع مسائل أوروبا ولو أنه قبل هذا المنصب لكان في قبوله خير لمصر » .

« ١٣ مايو — جاء جواب غلادستون عن أسكتلي وهو لا يستطيع إعطاء التعليقات ولكن القود جرافيل سيخطب يوم الاثنين وهو يرجو أن أنتظر الى هذا اليوم وكل ما يعد به أن خطة الاحرار ستكون طبق مذاهب الاحرار . وهذا ما يرضي . وقد كتبت الي غلادستون أقترح أن أذهب وأتوسط لفض الخلاف بين الحديو وعراي وارسلت التفراف التالي الى عراي . « أوجوك الصبر . ولو فعل شيئاً طائشاً أو بدون رأى البرلمان . وأجل ما تنوي أن تعمله مع الحديو وأنا أشتغل بمجد لمصلحتك ولكنني في حاجة الى الوقت . ان الخطر حقيقي » وجاءني خطاب في الساعة الخامسة من غلادستون يقول فيه أنه يظن ان خطابي الاخير قد كذب قبل أن تصل الاخبار الاخيرة من مصر .

ولا أدري ماذا يقصد بهذا القول لانه ليس في جرائد المساء شئ من الاخبار عن مصر وفي المساء جاء رد جوابي : « ١٢ مايو — أشكر لك نصائحك وقد عرض الخلاف على النواب المهدوء شامل . ليس هناك أقل خوف على الاوربيين . احمد عراي » وكنت في ذلك الوقت في كرايت وكل معي فان يينجنس القاضى المولدى المعروف وأحد المؤلفين وهو مؤلف كتاب « قاض محتلط » وهو من أحسن



الكتب التي ألقت عن مصر في عهد المراقبة الثنائية . وقد وجدت فيه رجلا شديد  
الحلف على الوطنيين المصريين .

واليوم التالى أي في ١٥ منه كان اليوم المعلن لكي تنفوه فيه الحكومة بتصريح  
عن مصر في البرلمان . وذهبت الى لندن وكلتي رجاء عن الحالة وقد تقويت بالتلغراف  
تهدى أرسله الى الشيخ محمد عبده . ولكن خيبة الامل كانت قد قدرت لى . فقد  
حدثت مناقشة في مجلس الأوردات عن مصر ولم يفه الاورد جرانفيل باكثر من  
التصريح بما يشبه الوعيد باعادة مذكرة عاميتا ويقول انه الذي اعتقد انه لم يكن صادقا  
فيه ان اغلست وجميع الامة في صف الخديو ضد الوزارة . فهذه اذن هي « خطة  
الاحرار » التي وعدنى بها هاملتون . فشعرت عندئذ بانى غير مقيد بهذا الصمت  
الذى التزمته نحو غلادستون الذى ظهر لى كأنه قد لعب بى وحذعنى . فتركت  
مجلس الأوردة عندما انتهى اللورد جرانفيل من القاء خطبته وأنا فى أشد الفيظ  
وعزوت من ذلك الوقت على الأرمي الحكومة . وأخذت افكر فى المسألة طول  
الليل لكي أقرر لنفي خطة وأخبر أقر رآي على شيء واحد وهو مقاومة الدساتر  
التي كانت تعمل والعمل لاقتصادها .

« ١٤ مايو - قرأت فى الإيزدفر أن سلطانا باشا قد ذهب أمس الى الخديو  
لكي يمضي الصلح بين الخديو وبين عرابي . واستنتج من ذلك أن تلغرافى قد  
أرسل فى حبه ووقته للملائم . وتقول الصحف أنه هو والمجلس قد انضيا الى الخديو  
ضد عرابي . ولكنى لن أصدق هذا حتى تصل الى الاخبار . والارجح أن  
سلطانا باشا بعد غضب لاجتماع المجلس اجتماعا غير قانونى وفي وقت غير ملائم . ولا  
بد أن الجيش لتفوزه الكبير فى الوزارة قد أوجد لنفسه اعداء . فربما كانت هناك  
غيرة ولكنى لن أصدق أكثر من ذلك . وكل ذلك طبعاً هو من عمل كوفلن  
وماليت وقد تشجع الشر كى لامل تدخل الاتراك وقد أمرت بعض البوارج بالانحار  
الى الاسكندرية وسيكون من تأثير هذا العمل اتحاد الجميع ضد الاوردوين

« وفى المساء جاء تلغراف من الشيخ محمد عبده لا أكاد أصفه يقول فيه .  
« ليس هناك خلاف بين سلطان باشا والبرلمان والذنب ( يعنى الخديو الخلع )

اسماعيل) الذي ذكرت لكم اعتقادي اشتراكه في المؤامرة الشركسية قد ثبت الآن انه مشترك فيها . وسائل الخلاف المهمة قد عرضت على الاعضاء . وليس هناك ما يحشئ به على الامن العام « وحقيقة هذه الامة التي حدثت في الصف الاول من شهر مايو في القاهرة كما علمت بعد ذلك كانت كما يلي :

وحد الخديو نفسه في الثاني من هذا الشهر أمام الخاضع عرابي وزير الحرية مضطراً الى التوقيع على أحكام التي علي المتآمرين الشركس . وكان من بين هؤلاء المتآمرين أصدقاء لهم عليه دالة الصداقة . فاستدعى مالميت لكي يستشيرهم فصح له بأن يمتنع عن التوقيع ووعده بمطاهرة السياسة الانجليزية له . ويجب أن يعتبر هذا الوقت أول فرصة عقد فيها الخديو نيته علي أن يترامي في أحضان الحكومة الانجليزية ويطلب حمايتها من وزرائه . وكتب مالميت علي أثر ذلك رسالة مهمة طبعته بعد ذلك في الكتب الرق قدح فيها باخلاق الخديو وعده جديراً بثقة حكومة حلالة الملكة . وبما علي هذا رفض الخديو التوقيع مع أنه ليس له حسب قواعد الدستور حق الامتناع عن التوقيع علي أحكام المحكمة العسكرية

وكان هذا الامتناع الذي عرف وذاع في الحال داعياً الى حقن الوزراء الوطنيين وكان علم الوزراء أنه أت عن فصل أجنبي مما يزيد حقهم . وكتب محمود سامي رئيس الوزراء خطاباً الى أعضاء البرلمان يستدعيهم للحضور الى القاهرة لاعتقاد البرلمان . وكان هذا العمل غير قانوني لان استدعاء البرلمان من اختصاصات الخديو . ثم أن الوقت لم يكن ملائماً لاعتقاد البرلمان من حيث الفصل فاستاء بعض الاعضاء لهذه الدعوة . ومع كل ذلك قد حضر عدد كبير من الاعضاء ولو أنهم لم يجتمعوا اجتماعاً رسمياً إلا أنهم في اجتماعهم في منزل سلطان باشا قرروا مؤازرة الوزارة . وقرروا أيضاً باكثرية ٤٥ ضد ٣٠ صوتاً انه اذا استمر الخديو علي دسائمه مع القسطنطين الفرنسي والانجليزى لم يكن ثم مناص من محاكته وخلعه . وكان مالميت في هذا الوقت قد تسلم تفرافاً من وزارة الخارجية تفيد فيه حتي خطبه . وكان مالميت قد وُعد من الخديو تردداً فذهب اليه وأخبره بأن الاسطولين الفرنسي والانجليزى قد أمرا بالبحار الى الاسكندرية لحماة الاجانب . فارسل الخديو او

سلطان باشا رئيس المجلس وعرض الموقف عليه وألقى في روعه وصار يلعب على اصرة التي كانت بينه وبين عرابي حتى أمراه بالانضمام اليه والثقة بمعاونة أوروبا بدلا من المغامرة بالحرب . فلما اجتمع أعضاء المجلس اجتمعهم غير الرسمي في المرة التالية صرح سلطان بأنه في جانب الحديو وأنه يعارض خطة الوزارة وانضم اليه ستة من الأعضاء في هذا الرأي . أما القانون فقد ثبتوا على ولائهم للوزارة . وكان هذا هو الوقت الذي تسلم فيه عرابي تلغراف في القاهرة ، يظهر أنه كان له بعض التأثير على سلطان الذي لا بد أنه قد اطلع عليه . ولكن الصحف الانجليزية نشرت في ١٣ منه أن المجلس قد انضم الى الحديو ونشرت في ١٥ منه أن محمود سامي قد استقال . وما يلي مأخوذ من مذكراتي .

وما هو الا أن جاء وقت فتح مكاتب التلغرافات في الصباح حتى أوصلت التلغراف التالية الى القاهرة وذلك في ١٦ مايو :

« الى عرابي باشا وزير الحريسة : قال لورد جرافيل في البرلمان ان سلطانا باشا والنواب قد انضموا الى الحديو ضدك . فاذا كان هذا القول غير صحيح فاطلب الى سلطان باشا أن يرسل الي تكذيباً . وادا اتحدتم فلا تخشوا شيئا ، ألا يمكنكم أن تؤلفوا وزارة يكون سلطان باشا رئيساً لها ؟ وعلى كل حال عليكم بالثبات » وأرسلت أيضاً هنا التلغراف التالية :

« الى سلطان باشا رئيس مجلس النواب : أعتقد أن جميع أولئك الذين يحبون مصر يجب أن يتحدوا . فلا تتشاجر مع عرابي . ان الخطر عظيم » وأرسلت الى كل من بطرس باشا و « أبو يوسف » ومحمد باشا الفلكي هذا التلغراف :

« هل الحزب الوطني مع عرابي الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعي أنه ليس كذلك اذا ذهب اتحادكم ضمتكم أوروبا الي أملاكها »

وأرسلت هذا التلغراف نفسه الى الأستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ المهجري وعد الله نديم الخطيب . وجميع هذه التلغرافات كانت موقعة باسمي وكست أعرف أني في ارسال هذه التلغرافات سأعرض لغضب وزارة الخارجية ان لم يكن لغضب

مستر غلادستون «سه . لانه لم يكن من المقبول أن الوكالة البريطانية في القاهرة تتجهلها لأن تليفارات شركة التلغراف الشرقي كانت تداع في الغالب عد وصولها ولكني كنت قد عقدت البية على المخاطرة وكل شي وارتيابي يحصران فيما اذا كنت قد أوصحت الخطر لثواب . واعتقدت ان عبارة « اذا ذهب اتحادكم ضمتكم اوروما الى املاكها » تؤدي غرضي . وذلك لانه وان لم تكن نية انجلترا او فرنسا في ذلك الوقت ضم مصر الى املاكها فان النهاية كانت نحو هذه النهاية وكانت كلمات كولفن تزن في أدبي . واعتقد أن الحوادث قد برزت اعتقادي . فلما أن دमित سهي ذهبت الي كرايت لاسترح وأتطر مانجي به الايام . فناء الحواب على تليفاراتي بأسرع مما كنت أظن . فني ذلك المساء . وأنا أتناول العشاء تسلمت تليفاراً من سلطان باشا يقول فيه :

« لقد رال الخلاف الذي كان بين الوزارة وبين الخديو ولم يبق له أثر . وكلنا متفق على المحافظة على الامن والسلام وعلى ماصرة الوزارة الحاضرة . سلطان »  
ولشدة سروري أرسلت هذا التلغراف الى مستر غلادستون كما أرسلته أيضاً الى التيمس لكي تنشره .

وعدت الى لندن في السابع عشر من شهر مايو وأنا في أشد القبطة وفي طريق تسلمت التليفارات الآتية .

« من الشيخ الامباي شيخ الاسلام . قد سوي الخلاف بين الوزارة والخديو والحزب الوطني راض بهراني . والامة والجيش متحدان » .  
ثم أيضاً هذا التلغراف التالي وهو بلا إمضاء ولا شك انه من أحد الاعضاء :  
« جميع البلاد تظاهر عرابي والوزير سامي . والملاحون والبدو والعلماء متحدون . وليس بيننا سوى واحد يقاوم الحرية المصرية ويجتهد في افساد الرأي العام » .

وجداني تليفراف ثالث من حمد عبيد في هذا المعنى .  
ثم جاءت صحف الصباح فأيدت هذه الاخبار السارة وذكرت أن الخديو «ساعي سلطان باشا قد صفع عن الوزارة . فظهر لي من ذلك اني قد فوذاً

سياسياً بها . فذهبت وأنا مسلح بهذه التلغرافات الى شارع دو سح حيث منزل رئيس الوزراء فوجدت هاملتون وجودلي فأريتها التلغرافات . فما لي على فوري . وأجبرتني ان هذه التلغرافات قد كلفتني عشرين جنيهاً فقال هاملتون انه يجب أن يدفع لي هذا المبلغ من محصنات العققات السرية . هذا وقد قال هذا القول طبعاً على سبيل المراءى ولكنه يدل على ان فوري على وزارة الخارجية قد قوبل بالارتياح وقد نصح لي كل من هاملتون وجودلي بأن أكتب الى مسر غلادستون — بما اني لم أره — خطاباً رسمياً أحل فيه على وزارة الخارجية لتعمدها الكذب . وقد قبلت أن أفعل ذلك وقطعت الليل في كتابة هذا الخطاب . وقد اتفقت مع باتون على انه اذا طرأت الحاجة تنشر الخطاب في حريدة التيمس . وفي اثناء ذلك أرسلت الى سلطان باشا تلغرافاً رجوته فيه أن يهني الحديو .

ولكن جاء الصباح فتوضعت آمالي واتقلب فوزى هزيمة . فقد نزلت في منزلي في لندن في شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت في طلب الجرائد فوجدت فهن جميعن تلغرافاً لشركة روتر وفيه نص تلغرافي الى الاعضاء الذي قلت فيه ان أوروبا ستضم مصر الى أملاكها . وفيه ان شيخ الاسلام قد تبرأ من الرد الذي جاءني باسمه .

ووجدت في «ذي ستاندارد» تلغرافاً من مكاتبتها في القاهرة يقول فيه انه قد صرح له من سلطان باشا بان يكذب التلغراف الذي أرسله لي ونشر في التيمس . وان تلغراف سلطان انما كذب وهو تحت تأثير الارهاب العربي . فكنت الى غلادستون خطاباً ثانياً وأرسلت اليه الخطابين مع رسول قبل الظهر . وكذلك أرسلت الى هاملتون مع نفس هذا الرسول أخبره بوجود نشر الخطابين . ووجدت باتون في المنزل ووعدني بأن الخطابين سينشران في التيمس . وقد سر كثيراً منها وقال لي انهما سيحدثان ضجة بين القراء .

ومع ذلك ومع انه قد صفت حروفها فانها لم ينشرا . وقد ذكرت سبب ذلك في مذكراتي . وفي الساعة السادسة وجدت رقعة من ادى هاملتون يقول فيها انه سيكون بالمنزل في أصيل اليوم التالي فذهبت اليه . فقال لي اني لم أكن أحسن صنأاً في ارسال تلغرافي الى شيخ الاسلام وانه لا يجسن بي ان أنشره .

« فسأله عن الضمان الذي يستطيع أن يقدمه لي عن أنه لا يقصد سوءاً بالاسكندرية فقال ان ذهب الاسطول لا يقصد منه سوى تأمين ارواح الرعايا البريطانيين . ولم يكن يعتقد أن من المرجح أن يطلب نزع الجيش المصرى أو ازال حنود فى الاسكندرية . وأكد لي أيضاً أن اللجة التى أشرت مارسالها سترسل الى مصر . وقد سررت بهذا وأرسلت دافيد (خادمى) الى التيمس لكي يقف بشر خطابائى » ولست أشك أن هذه التأكيدات التى سمعتها في منزل رئيس الوزارة كانت صادقة . ولكن أعمال وزارة الخارجية كذبها . وسكوني عن الرد على التلغرافات وضمو في موضع غير حسن لدى الجمهور . فقد قالت عبي سانت جيمس عازيت اني محرض أبش العين من مراقدها . ورات الحرائد الاخرى اني لزممت الصمت فاتبعتها في سى . وكان لهذه الاقوال رد فعل عند الحكومة وأيضاً عند مستر غلادستون ولو انه كان يعرف الحقائق التي كان يجهلها الجمهور . وواصلت زيارتي لمنزل رئيس الوزارة ولكن هذه الزيارات صارت تنقد بالتدريج الالة الساعة . ولهذا السبب آسف الآن على أنى قد رحيت بالا تنشر خطابائى في التيمس . ولو ظهرت هذه الخطابات لما كان هناك مجال لان يصدر البلاغ الاخير في ٢٥ مايو

## الفصل الثاني عشر

### الدسائس ومكائدها

ان تاريخ السنة الاسابيع التالية في مصر من بدء وصول الاسطولين الفرنسي والانجليزى الى ضرب الاسكندرية بالقنابل هو تاريخ محاولة السياسة الانجليزى في أن تستعيد مركزها الذى فقدته . فلما لم تنجح في ذلك لجأت الى احداث مصادمة . ومحاولة وزارة الخارجية أيضاً ان تدفع غلادستون الى أن يلجأ الى العنف . وفي كل هذه الاعمال كل المدار على احتقاد شخصية اكثر مما كان على السياسة او على النفوذ للماني فلم تكن ورايات اورما او « الدورسات » ملحة الخاضع يحمل التسوية السلمية مستحبة فقد تراحت فرنسا في وراية روسيه عن خطة عامتها الاعتدائية . وكانت راحية

محل الموجودة بالقاهرة بينما كانت النمسا والمانيا اللتان يمثلهماروتشيلد وبعض الماليين بصيتين بالانتجا الى الصلاح الماح الذي استعمل في سنة ١٨٧٩ بدخول السلطان والمملكة وتولية حليم مكلن توفيق . وقد كلن هذا حلا سهلا للتراع بين توفيق والوزارة وقد كانت جميع الاحزاب في مصر تقبله لحسم التراع وان لم تكن تعتبره مثل خلول . اما سائر الامم الاوربية فكانت تعطف على الوطنيين وكان أشدها عطفاً سويسرا وبلجيكا . وبلغت الحماسة في ايطاليا على الرغم من أن الحكومة كانت تعصد السياسة الانجليزية ان عاريبالذي كان يهيئ فيلقاً للذهاب الى مصر ومعاونة عراقي . ولم يكن الرأي العام منهيحاً ويطلب اتخاذ خطة نشطة الا في اجلتر حيث دأبت الصحف التي اغترهن وراة الخارجية على التأثير فيه . أما الاتحاد الشخصية المسألة فتتلخص فيما يلي :

فقد تورط مالت وكولفن عند تشكيل الوزارة في مقاومتها من البداية . فكلن كل حل يقضى بوجود هذه الوزارة واستقرارها يعنى في الواقع خزيهما وانهما معا قد كان محتوماً على كولفن ان يقال من الخدمة عدتد ويقبل مثلما فعل زميله الفرنسي دوبلانجير : أما مالت فانه كلن يرسل الى وظيفة صفرى لا تكون لاغلاطه فيها هذا الخطر . ثم كانت وزارة الخارجية مضطرة أيضاً الى المحافظة على كرامتها . فكان ذلك رجلا ذا اطماع وآمال ولم يكن يرضى بالهزيمة . وكلت جرانفيل هذا الشيح المسن على الرغم من حبه للراحة مفرماً بان تكون خطبه جيدة . وعلى هذا نجد من نصف مايو الى ١١ يوليو وهو تاريخ ضرب الاسكندرية عدة ماوراء لا تبررها الضرورة بل تخالف ايضاً مبادي غلادستون وليس فيها أدنى مراعاة للضير والذمة بحيث اني لا أعتقد ان في وزارة الخارجية ما يماثلها من هذه الوجهة

ومن الجانب الآخر نجد الحرب الوطنى في الوقت الذي اتال فيه مصر حق الحكومة الذاتية وحصل فيه على حق الحرية المدنية والشخصية وهي حقوق لم يسبق في التاريخ ان حصلت عليها مصر . وبعد ان اجتمع برلمانها واقضي الفصل الاول من اجتماعاته . وعند ما كلن النواب يشغلون بالاصلاح ورغبة الجميع الهندوء والسلام في هذا الوقت وحد الحرب الوطنى معه مهدداً بالخطر في الخارج وبالحياة التي

تؤاثرها الدسائس الاحمية من الداخل . وقد جاء في ثلاثة خطابات . الاول والثاني من عرابي والثالث من حون بينيه وهو الوحيد بين العاطفين على الوطنيين الذي بقى في مصر واشترك مع الجيش . وهذه الخطابات تبين القارئ شعور الوطنيين في الاسابيع الاولى :

القاهرة في ١٥ مايو سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز المخلص المستر بلنت

بعد حمد الله . نخبرك ان خطابك المؤرخ في ٢٠ ابريل قد وصلنا . وقد قرأناه ونحن في غاية السرور . ونرجو ان نحبي قريباً بما مساعيك . والحقيقة ان كل من نعتق الحرية يشهد بفضلك ويحمد لك مساعيك . وقد تضاعف سروري عند ما علمت ان خطاى قد وصلاك في الوقت المناسب . والله برحمته يهدي ، مائلاً بحسن الحال ويرشدنا الى ما فيه صلاح البلاد .

اما عن نشر الخطابين اللذين أرسلتهما لك فقد كان قصدي أن أسفه الاعداء الذين يحملون على ويتهمونني بأنني أركب الشطط وأطمح الى الاستبداد والاستئثار بالسلطة . وانت تعرف ان هذا ساذج ليس غير وأحب أن أذكرك نصفتي وذر الحرية فأنا مسئول عن وزارتي كما ان كل وزير آخر مسئول عن وزارته . وليس في الوزارة سوى صوت واحد وأنا أتبع رأي رئيس الوزارة والخطة التي يشير بها على كما يظهر ذلك من الخطاب الذي أرسله الى الخديو عند ما ألف الوزارة . وبممكن أن تتق بأنا جميعاً غيورون على مصلحة بلادنا مجتهدون في أن نسير على أصول الحق . وقد عرفنا بمعونة الله ان نطلب على جميع الصعوبات . فاذا كان في أوروبا أمة تميل الى الخير وتحب نشر الحضارة نود أن نضع يدها في يدنا لكي نعينها على العدم فنحن نسكون لها من الشاكرين . واذا لم يكن هذا فنحن نشكر الله وحده الذي أعاننا في البداية.

أما عن حالة البلاد فالهدوء شامل . والحرية الوحيدة التي نعانها هي في تلك الاكاذيب التي تنشرها الصحف الاوربية . فان هذا عداء لا مبرر له . ولكن عسي عشاوة الاعرار تزول عن أعينهم

احمد عرابي



القاهرة في ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢

بعد تقديم أحسن التحيات والتسليمات أقدم لكم شكراتنا على مساعيكم . هيامكم بمصالح بلادنا وسؤالكم عنا بالتغرفات والخطابات بعد الحوادث التي حدثت هنا . وقد أجبناكم الى ما طلبتم منا كما أجب أيضاً جميع الذين سألهم . يشرحنا الاحوال بالصدق والامانة . واليك الآن بعض التفاصيل .

ان جميع الاهالي في حزن لمحيى البوارج الانجليزية والفرنسية وهم يرون في هذا العمل بيات منطقية على السوء بالبلاد كما أنهم يرون فيه أيضاً اعتداء لاضرورة . ولا مبرراً . وقد قرر المصريون على ألا يسلموا للدولة التي تتدخل في شؤونهم وفي إدارة البلاد الداخلية . وهم أيضاً مصممون على الاحتفاظ بامتيازاتهم التي تتيها المعاهدات . ولن يسمحوا لأحد بانتقاص هذه الامتيازات أو مسها مادام بهم رمق . ثم هم أيضاً سيصدون في المحافظة على مصالح الاوروبيين وحياتهم وممتلكاتهم ومقائهم مادام هؤلاء لا يتعدون الحدود التي رسمتها لهم القوانين .

ونحن جميعاً نجهد في تأدية واجباتنا ونسلك على الله في الدفاع عن حقوقنا وبمعونه سال غايها . وعانيتا نحصر في سعادة الوطن ونشر السلام والأمن بين سكانه . ونحن نأمل في عدالة اوروبا ألا تتعدى الدول علينا بل بالعكس ننتظر منهم أن يحسوا السلوك معنا . لأن هذا في مصلحتهم ويؤدي الى تحقيق رغائبهم ويحسن بانجلترا ألا تثق بوكلائها هنا لأن هؤلاء الناس لم يأرب خفية شخصية يربدون تفقيها . ونحن نعلم أن نجاحهم في تحقيق مآربهم هذه سيعود بالضرر على بلادهم . وعلى حكومتهم .

في هذا ما يكتفي وسيأتيك القند بما تجهله الآن .

وقد أرسلت الى هذا خطاباً أرجوكم أن ترسله الى سير ولهم جرمجورى . وفي الختام أرجوكم تقديم تحياتي لصابونجي والبدى اتي بليت . والله برعاًكم بصانته .

احمد عرابي

أما خطاب تينه فذو قيمة خاصة من حيث التاريخ لأنه كتب في ١٩ مايو وهو آخر أيام الحكومة الذاتية في مصر . فهو يقول :

« إن قلبي وهو قلب وطبي سويسرى يتفطر الآن على هذا الظلم الصارح الذى ارتكبه الدول فى مصر . فالأمة بأجمعها قد اتحدت وانصبت الى زعيمها الشريف الذى أبنته مياه النيل وتكون من غرزة مثل سائر الفلاحين . وقد قلت الامة المصرية على نفسها أن تدفع الديون التى استدانها حاكم مستبد لا ضمير له . — هذا الحاكم الذى أنفق وبمصر فى ستة عشر عاماً نحو ثلثمائة مليون جنيه لكي يملأ جيوبه وجيوب الساسة كباراً وصغاراً وجيوب المرايين الصارى واليهود ... ثم حرث ثورة سلمية بارادة الأمة . ولم يحدث مدة هذا الانقلاب عمل واحد لا يليق بحكومة تراعى الذمة والشرف . ولكن أوروبا التى تهتم بالبورصات وبالاسهم أكثر مما تهتم بأمانى الشعوب ترسل أساطيلها . ولماذا ؟ لأن مجلس النواب قد وحد من المناسب أن يناقش الحكومة عن الميزانية . طار الحياة هنا ؟ هب أن وريراً من وزرائكم اختلف مع الملكة فهل ترسل الامة الكاثوليكية اساطيلها الى ارلندا لتهدئتها ؟ ومع ذلك فى المشابهة فارق . فان مصر هادئة . ولم يشك فيها أحد من الاوربيين أو المسيحيين . ألا نخرج هذه الحالة الصدور ؟

ومع ذلك فعراي رحل هادئ . عاقل ينتظر الغد بمحكمة فلاسفة العصور القديمة . فالجيش والامة والمدن معه . وقصص فرنسا كان الى الآن صامتاً . أما سير مائيت فقد كان الى الآن يطلب الصدام ولا يرغب فى صلح او اتفاق يسند فى القاهرة . وبند الخوف بدلا من أن يفرض الثقة والطمأنينة فى قلوب الأهالى . ولا تكاد ياسيدى تعرف مبلغ المفتربات التى تنشر فى التمس والأستانة والدليل نيوز بواسطة الشركات التلغرافية . ومع كل ذلك لا تسمع كلمة لوم ولا نجد من الاهالى ما يسي . أحداً . فقد كما وما زلنا فى هدوء . شبه هدوء المجتمعين فى بستان ريجنت فى يوم أحد . هذا . وينتظر وصول الاساطيل غداً . »

وتم خطابات أخرى تبين الحالة فى تطورها بعد ذلك . وكان هذا الظلم الفادح والمهجوم على اللاد أدعى الى تقيظ الأهالى وحنقهم بحيث تعدوا طورهم لأن هذه الدولة الهاجرة عليهم كانت الى هذا الوقت تعد فى نظرم صاحبة الأثر الحسنى فى حب الحرية والمذاهب الانسانية التى كان رجالها يدعون اليها بحماسة الرسل . هم

يكن اذن من المنهش أن يتلوح العقلاء ويتأثروا بمخاطر هوحاء. وهم قد رأوا  
 أنهم مهددين ساعة بالمحوم من جانب انجلترا وساعة أخرى بالمحوم من جانب  
 تركيا بفعل المسائس الانجليزية. فلم يكن لهم من يتقون به وكانوا يخشون الحياة  
 في كل مكان. ثم ليس أيضاً من الغريب أن يرتكب الزعماء بعض الاغلاط وهم في  
 مثل هذه الظروف المتغيرة المثقلة الشاقة. وكلما دقق الانسان النظر في هذه الاعلاط  
 شهد لهؤلاء الزعماء بالفضل. فانه عند ما مثلت دسائس وكلاشوا واحدة بعد أخرى  
 وقطعت في أيديهم أسباب الحياة التي لجأوا اليها ووجدوا أنفسهم بعد حملهم حبال  
 هزيمة محزنة — عند ذلك لجأوا الى المدافع والاسلحيل لكي تحمل عقدة لم يستطيعوا  
 تحملها. وعندئذ فقط تغير المصريون عن موقف الهدوء الذي لزموه الى الان.  
 واستطاعت عندئذ وراة الخارجية الانجليزية أن تدعي الظفر.

وإثبات هذه الاقوال لا يحتاج الى ان نسب الى عرابي او الى الزعماء الآخرين  
 صفات من الطراز الاول. إذ لم يكونوا من حيث الادارة او السياسة او العسكرية  
 يبلغون مبلغ خصوصهم وكان أكثرهم قليل الخبرة بأساليب الحكم وبقائق السياسة  
 الدولية. وأظن أن أحسن صفات عرابي هو تشبهه بفرسه الأصلي وهو استعداد  
 يصادف جميع العالم مع استعداده أيضاً للدفاع عن البلاد وحمايتها من جميع من يهاجمها  
 من الأعداء. وقد أدى من هذه الوجهة عدة خدمات لابناء وطنه مدة هذه  
 الاسابيع القليلة يجب نذكركم بها الآن.

فليس هناك شك في أنه لو كان عرابي أقل عناداً أو ثباتاً مما كان في عدم مغادرته  
 مصر خوفاً من التهديدات أو رغبة في الرشي ولو أنه لم يحارب لبقى الفلاحون عبيداً  
 لسيادهم الاتراك كما صاروا عبيداً أيضاً للأوربيين. إذ ماذا كان ينتج عن خضوع  
 عرابي؟ هل كانت تستمر الحكومة الذاتية؟ هل كان الحكم الأجنبي يكون أقل شدة  
 مما هو الآن؟ كلا ثم كلا. إنما كان يحدث شيء من نوع النظام الذي أعقب  
 الحرب. أي استبداد الشرطة والجاسوسية والعصابات السرية. يضاف الى ذلك  
 وقوف أوربا عن الاهتمام بالمسائل المصرية وجمود صيرها الأدبي من هذه الناحية.  
 ومن الممكن أنه كان يؤذن بوجود مجلس من الاعيان يجتمع « شكلاً » بضعة أسابيع

ويكون بمثابة هيئة استشارية ولكنه يكون عندئذ حلوا من النفوذ وساقطاً من حيث الدعوة الوطنية . وكان حكم طلبة الأتراك والشراكسة يعود الى ما كان عليه من القسوة وكانت المراقبة المالية بعد أن تكون قد رادت سلطتها التي تستعملها لمصلحة السالين الاوربيين تقف موقف الجود فلا نبالي بتحرير الفلاحين من ساداتهم الأتراك الذين هم أيضاً عبيد أوربا وكانت قصة الوطنية التي ذاعت عن الفلاحين نزول زوالا مخزيا لان الأمة التي لا تمحسر على القتال دفاعا عن كيانها جديرة بأن تحترق . وكانت الصحف الوطنية تنزل الى الدرك الذي بلغتته صحف تونس لا يكون للحرية الشخصية أو المدنية وجود كما أن حقوق الوطنيين تكون عندئذ لا قيمة لها ولم يعتد بها أحد . بل تكون مصر عندئذ كما كانت في سنة ١٨٨٣ حيث لم يكن باستطاعة أى إنسان أن يتكلم بصوت عال أو يأتى حاره على أن لا يؤذيه . فأقل ما فعل عرابي أنه محى بلاده من هذه الخيال . وإذا كلت قد أخفق باعتباره حديدا فانه لم يخفوا باعتباره وطنياً وبلاده مدينة له بذلك . فقد حال دون الاحكام عن الحرب في وقت كانت فيه الحرب لازمة لانهما كانت الفرصة التي أسداها التاريخ للمصريين ليصمدوا ويدافعوا عن حريتهم .

أما وقد قلت هذا فلا أراحع إلى قصتي . فأقول أن تاريخ التفراف الذي أرسل الي من القاهرة كما يأتي :

كانت الحال قد بلغت حداً خطيراً وذلك للموقف الذي اتخذته بعض الاعضاء ضعاف القلوب وبعض الزعماء من غير رجال الجيش . فان هذا الموقف كان يدمم الى الزيبة . وكلت مالييت قد أغري الحديو بالشجار مع وزرائه وكان الحديو قد أغري أيضاً سلطان باشا لكي ينحاز اليه وقد توصل الى ذلك بالغيرة التي كانت جرد سلطان وعرابي . وذلك أن سلطانا كان يؤمل أن يكون عضوا في وزارة محمود سامي فلما لم يحقق أمله شعر بالحيرة . زد على هذا أن الحديو أخبره بان الأسطويج الفرنسي والانجليزى كانا على وشك الوصول الى الاسكندرية فانضم اليه سلطة وأغري ثلاثين عضوا بالانحياز الى الحديو فبقى مع الوزارة ٤٥ عضوا . واستخـز مالييت أن يرسل الى وزارة الخارجية تلغرافا يقول فيه أن مجلس النواب يصـ

حسبوا على عراقي . ولكن تلغرافاتي أعادت الى الفرددين ثقتهم وجعلت سلطانا  
ذهب الى الحديو الذي كان يشتغل وقتئذ في تأليف وزارة برئاسة مصطفى باشا  
مسي وربر الخارجية ولم يكن ذا حطة سياسية معينة . فتمكن سلطان من إيجاد صرح  
بين محمود سامي والحديو . فاعتبر كل أحد أن الأمانة الوراقية قد انقضت . ولكن  
لم يكاد يتم هذا الترتيب حتى عاد فانتكث منه ما اعتقد . فان ماليت سمع بتلغرافاتي  
فأرسل في الحال في طلب سلطان ثم أحدث في وعده ساعة ووعده أخرى بالأسطول  
حتى أغراه بأن ينحاز الى المراقبة الأوروبية .

وكان سلطان الذي كثيراً ما دهم صد ذلك على عدم تأديته واجبه نحو القضية  
الوطنية يقول أن ماليت قد وعده بشرفه في ذلك الوقت العصيب بأن نراعي حقوق  
جرلمان . وقد قال لي أصدقائه أن سلطاناً مات وهو يوح نفسه لأنه صدق ما قاله له  
ماليت . ومع ذلك فإنه لم يشق صد ذلك أحد عن القضية الوطنية خلاف سلطان .  
وكان جميع الذين فصلهم تلغرافاتي يصدقوني أكثر مما يصدقون ماليت وتقوى  
سلطان عراقي بذلك عند ما جاءت الأمانة الكبرى بعد هذه الحوادث بعشرة أيام  
من لعبة ماليت من حيث إرسال الأسطول فشلت فشلاً تاماً . فقد كان غرض  
لورد حرافيل من إرسال الأسطول أن يكون حصة بغير طعن ليناك غرضه دون  
أن يلجأ إلى العنف وكان يؤمن بهذه الطريقة . وقد زاده إيماناً بها أنه حربها في  
العالم المنصرم في مسألة الحدود اليونانية في دلسينيو . وكان من الحكم التي تروى  
عنه قوله « التهديد يفعل فعل الصرب » وكان ماليت الذي يعرف عقلية لورد  
جرايفيل يعتمد على الحصول على انتصار لا تراق فيه دماء . وكان طول الوقت يسي  
تقدير العاطفة الوطنية . ولم يلجأ الى العنف والقوة الا عند ما عجز عن تحقيق غرضه  
بالوسائل السياسية فعد الى رأى كولفن فاتبه . وهذا هو تاريخ هذا التطور .

في ١٧ مايو انضم سلطان باشا الى ماليت . وطلب من الوزارة أن تستقيل .  
في ٢٥ مايو أصدر ماليت وسكيكس بلاغاً أخيراً قال فيه ان سلطاناً قد  
اقترح عليها إصداره وطلبا استقالة الوزارة ومفاداة عراقي لمصر .  
في ٢٧ مايو استقالت وزارة محمود سامي

في ٢٨ مايو هاج أهالي القاهرة وطلبوا رد عرابي الى مركزه وزياراً وأعيد عرابي وصار له شيء شبيه بالقوة الدكتاتورية وكانت الأحوال في إنجلترا في هذا الوقت على أسوأ ما تكون وقد رادها سواً تحلى سير وليم جربجورى عبي وأنا في أشد الاحتياج اليه . فان جربجورى قد انحاز منى الى الوطنيين منذ ظهور الحركة وقد كتب عدة خطابات قوية في التمس بمتاح فيها عرابي ويدافع عنه . وكل من نفوذه أكبر حشداً من نفوذى في المراكز الرسمية وكانت له مكانة عند تشري رئيس تحرير التمس . فلما رأى أن دهاب الأسطول قد يؤدى الى وقوع القتال أحذنه الخوف والعزع وصار يكتب في التمس خطابات يصل فيها ارتيابه ويشترط لأقواله السابقة شروطاً . وكان منذ أن ترك مصر في ابريل يسبح ويتجول في أوروبا وكنت أؤمل كل يوم أن يصل الى لندن لكي أدم به دفاعى عن مصر لدى الحكومة . بيداً من ذلك وجدت ما أحرزنى لأنه وان لم يكن يقاومنا الا أنه لم يكن معنا . وكما قد نواعدا على أن مذهب معاً الى اجتماع لمقاومة القائلين بالتدخل . ولكنه رفض الذهاب .

واليك مذكراتى :

« ١٩ مايو — لقد خدنا جربجورى فانه تعشى أمس مع تشري الذى أتى في قلبه الرعب وهو يرفض الآن أن يذهب الى الاجتماع . وقد ذهبت أنا وألقيت خطبة وأجبت على عدة أسئلة وأوضحت حقيقة مسألة التلغرافات . وقد طلب دولين من المجتمعين أن يصرحوا بأن سلكت مسلماً وطنياً »

« ٢٠ مايو — قيل لي ان لورد جرانفيل يسخط علي لاني قد شرحت مسألة التلغرافات »

وفي يوم الاحد ٢١ مايو — بعد ان دونت هاتين المذكرتين التفتت لجرايفيل وكانت مقابلتنا بعد يومين من اتمام الخطبة عن التلغرافات مما ضايق بعض المضافة فقد دعينا أنا وزوجتى الى قصا . يومين عند لورد بورنسوث وهو ابن عم زوجتي في قصره في بورستورن وكان لورد جرايفيل وآخرون قد دعوا أيضاً . وأظن ان جرايفيل قد قصد مقابلتي « صدقة » كما هي العادة المألوفة بين السياسيين . ولكن

كانت قد حدثت حوادث خطيرة فلم أكن أحب مقابلة ولم أكن أعرف انه مدعو.  
فترعجني حضوره يديا . وانفق سوء الحظ اما أحصرنا معا جريدة الازفر التي  
روت الحجل الذي نال رجال الاسطول بعد ذهابهم الى الاسكندرية . وهالك  
للكرات : « وصلنا مع لوريل سفير أميركا فلم نجد أحداً بالقصر لانهم كانوا قد  
ذهبوا جميعاً للكعبة . وعند رجوعهم بطرت هزعت عند رؤية لورد جرانفيل  
وزوجته قادمين ممسائر الضيوف . ولكن سارت الاحوال علي ماأشتهي لان الجميع  
كانوا في صني وخصوصاً عند ما أطلعوا على الخبر القاتل بان عراي عند رؤيته الاسطول  
في مياه الاسكندرية طلب في الحال نعتة اعيش . وان أربعة آلاف من الزديف قد  
تطوعوا للقتال . والقلق طاهر على اللورد جرانفيل ولذلك فان حجنى قوية ودفاعي  
عن الوطنيين لا يرد . وقد تحدثت معه عن كل شأن في العالم الا مصر . وهو رجل  
نطيب للالسان صحبتة فانه يحدث من الطرار التقدم اذا أورد قصة أيقن ايرادها  
وقصصه وان لم تناسب المقام كل المناسبة هي على الدوام جيدة . أما مع سائر الضيوف  
فقد كنت أتحدث عن مصر وأرى العطف والسرور ماديين علي بحيا كل من كنت  
أحدثهم . فقد كان هنري كوبر حذاباً وكان لوريل وستوارت راندل يعطمان أشد  
العطف . وكان ثايها لا يبدى عطفه الا عدا ما يغيب عنا لورد جرانفيل وكان اليوم  
جيبلاً فأخذنا تتشي في البستان والحداثق . وكان هنري كوبر يقص علينا القصص  
المستلمحة . وقد روى لنا قصة عن دررائيلي بخصوص المسألة الشرقية . فقد سمع  
ددرائيلي يقول عن نانكرد وهو قصة قد ألفها عن المسألة الشرقية انه كثيراً مايراجع  
هذا الكتاب لفائدة لا للتسلية ... »

وكان لوريل كما قلت يؤمن أشد الايمان بالحزب الوطني وكان طول الصيف  
عند ما يجتمع برانق علي جميع ما أقوله .

وبما هو جدير بالذكر وله علاقة بهذه الزيارة أن لورد جرانفيل أرسل بعد  
يومين أي في ٢٣ مايو تلفرافاً الى ماليت يفوض له فيه أن يعمل بما يناسب وكانت  
نتيجة ذلك ارسال البلاغ الأخير في ٢٥ مايو

وكانت الأحوال كما كان براها مورلي في جريدة البال مال كما يلي :

« لا تزال الأحوال في طور خطير . فعراي مستمر في اتحاد حملة التحدي . وهو الآن يلعب بأحسن ما عده من الورق . وقد أحصرت حدود الاحتياطي ابي القاهرة في السلاسل والحدود ترسل بسرعة الى الساحل لمقاومة زول اسحارة الى البر . وقد أرسلت فرق المدفعية الى الاسكندرية والمدافع تحيط الآن بالبورج . وربما كان كل هذا في الأرجح نهوياً . يقصد به عراي الحصول علي شروط اصلح مما ينتظر »

وقال مورلي في الحريدة أيضاً : « ان تجربة الاحتجاج الشديد بواسطة البوارج قد تمت وقد فشلت تماماً وهالك المذكرات :

٢٢ مايو — عدت الى لندن . وقابلت هاري راند الذي قال لي ان ذلك قد أخبره بأن المسألة لن تنتهي الا بالتدخل وقد أرسل هوون يطلب مني أن يستثيرني عن مصر وقد قابلته في بهو مجلس اللوردة ونحادثنا ملياً . وقد نصحت له بأنه اذا كان سيدفع الحكومة الى ارسال جيوش الي مصر أن يرسل الى ابنته في الحال ليستدعيها الى مصر

٢٣ مايو — سئل اللورد حرافيل في مجلس اللوردة عن شؤون مصر فأجاب اجابات فكاهية

٢٦ مايو — تكلم غلادستون عن مصر فضاء عبارات طويلة كلها خطأ بلا معنى ولكن أهم ما فيها انه أعلن ثقته بان المسألة ستسوى تسوية سلمية . وقد أرسل القناصل بلاغا أخيراً طلبوا فيه أن تعاد الى الحدبو ملطه وأن يبنى عراي

٢٧ مايو — أنكر سلطان باشا أنه هو الذي اقترح كتابة البلاغ الأخير . رفض البلاغ الأخير . قابلت جرمجورى . وكلانا يعتقد أن المصريين لا بد أن يحاربوا وأشعر أنه يجب علي أن أذهب الى مصر لكي أنضم إليهم . في تليفراف في صحف المساء خبر استقالة وزارة عراي .

٢٨ مايو — كنت في كرايت يوم الأحد . جميع الأحوال تبدل علي أن الأمور تسير نحو الخراب في مصر . وأظن أن سلطة الحديوستعاد اليه الآن تحت المراقبة . واذا غادر عراي البلاد وسرح الجيش أو أعيد اليه ضباطه الشراكة فان



مصر ستودع الحرية الزداع الأخير وسيكون نصيبها نصيب تونس . لقد اتصرت يا كوفن .

» ٢٩ مايو - لم أستطع اليوم فلما كانت الساعة الثالثة فت أعشي . لقد آتني وعذبي اني لم أذهب الى مصر عند ما أتى حرافيل خطته . فربما كنت أقدر على تسوية . الآن عاد التوتر . قد حدث انقلاب مدهش في الجرائد فأنها أعلنت أن جمهور القاهرة قد هاج وطلب إعادة وزارة عرابي وقد حصع الحديو لهذا الطلب . وهذه الاخبار لا تكاد تصدق لأنها لم تكن تنتظر . ولا يمكن الشك في صحتها لأن غضب الجرائد يدل على صحتها .

« فقد عدنا الآن الى الحال السابق بل نحن في حال تفصلها وليس ثم ما يخشي من سوى الباب العالي . وقد استقر رأيي على أن أسافر في الحال الى مصر . . . ذهبت الى لندن وزرت حرمجورى وتناولت القاء . عند هوارد وكتبت خطابا الى هاملتون أخبره فيه عن نيتي . »

وهذا هو خطابي الذي كتته الى هاملتون وأما متأثر بالحو الفلاستوني :

عزيزي هاملتون .

انه وان يكن مستر علاستون لم يسره ارسال تلغرافاتي الى مصر منذ أسبوعين فاني لا استصوب الاقدام على عمل ما في مسألة مصر دون أن اكون على علم به . وأنا مقتنع بأنه سوف يغفر لي ما فعلته ويستصوب ما أنوى فعله الآن . وأنا واثق تمام الثقة بأنه سينحو في مسألة مصر ذلك النحو الذي تخيله عليه حملة الاحرار وذلك عند ما يقف على الحقائق .

وهأنذا أخبرك بالصبط عما سأقوله لزعماء الوطنيين . فاني سأحضهم بادي يده علي أن يزيلوا من بينهم أسباب الخلاف الصغرى وهم الآن حيال خطر عظيم . وسأحضهم أيضاً كما سبق ان فعلت في الماضي على أن لا يشتبكوا مع الحديو في شجار . واذا منحت لي الفرصة بمقابلة الحديو فاني سأحبه أيضاً علي أن لا يتقاد الي القصاص الذين يفرغونه بالامة وسأحض عرابي على البقاء في وزارة الحرية حتي تكون قيادة الجيش في يده ولكني سأصيح له بأن يترك جميع المناصب الاخرى لكي يملأها

رجال من غير الجيش وخاصة من أعضاء مجلس النواب . وسأحدث المصريين على أن يحتفظوا سقاء أحسن العلاقات الودية مع السلطان الا فيما يختص بدخول الجيش التركي للبلاد كما عليهم أيضاً أن يحتفظوا مثل هذه العلاقات مع الدول الاوربية إلا فيما يختص بحقوقهم الدستورية .

وأيضاً سأوضح لهم بأن يسلموا ببعض ما تطلبه منهم المراقبة كما سبق أن نصحت لهم بمثل ذلك في يناير الماضي . فتنال المراقبة بذلك ما تدعيه بشأن الميزانية وسأطلب الى النواب تأجيل النظر في حقوقهم الى العام الآتي . وسأشرح لهم الحالة بمقدار ما يتيسر لي فيها فأخبرهم بأن الحكومة الانجليزية وان تكن ترعب في بقاء استقلالهم فهي مع ذلك مرتبطة بروابط قد عقد عقدها الورداء السابقون . وسأخبرهم أيضاً عن مرامي الحكومة الفرنسية التي تجري على الماثور من خطتها وهي خطة التوسع في الحر التوسط وأن الماليين يدفعونها الآن الى الحري على هذه التحطة . وسأخبرهم عن مرامي الحكومة الالمانية وانها تنوى تحويل اتجاه السياسة الفرنسية من المسائل الداخلية الى المسائل الخارجية والى حل التحالف الانجليزي . ثم أخبرهم أخيراً عن مطامع السلطان واحلامه في الخلافة وهذه مسألة يهيمونها على الأقل بمقدار ما أقهرها أنا .

ولست أقصد الى الاشتراك معهم في المسائل الحربية اذا نشب القتال إلا عند الضرورة القصوى اذا كان الأتراك هم المعتدين عليهم لاني لا أعرف شيئاً عن الحرب ونفسي تشنئ منها وتستفظها .

ولكى سأحرص المصريين على أن يقاوموا الغزو من أي الجهات أتاها . وفي حالة الهزيمة عليهم أن لا يدفعوا الضرائب التي لم تقرأها القوانين . أما إذا لم يمتد عليهم أحد فاني أطلب اليهم أن يقوموا بداد جسيم ما عليهم من الدين الى آخر فلس . ولست في حاجة لأن أجد فيهم روح التعصب لاهم ليسوا متعصبين ولكني سأخبرهم صوتي الى صوت عربي في تفسير قوانين الحرب بما يلائم قواعد المروءة . ثم اني أرغب أن أكون قريباً من الوطنيين حتى أستطيع حماية الاوربيين في بدء القتال .

وأظن أني لست مخطئاً في اخبارك بهذه الأشياء . فالحطة التي أرسما في ذهني لكي يجري عليها الوطنيون هي أن يتخذوا قاعدة يسرون عليها تقابر ما يجري عليه سائر الشرفين معبرة تامة . فاني أطلب اليهم أن يقولوا الصدق حتى لأعدائهم . وثني يكون في حودهم من المروءة أكثر مما أعد أعدائهم من الخنود الاورويين . وأن يكونوا من حيث الذمة أشرف من دانيهم . لأنهم بهذا فقط يمكنهم أن يحققوا الإصلاح الذي ينشده رجال الدين عندهم واني المخلص لك

و - من بلنت

وقد ذكرت اليال مال في هذا التاريخ أقوالا جديرة بالاثبات هنا . لأنها تظهر كيف أن وزارة الخارجية بواسطة كولفن ويك وأمثالها كانت تصور الحالة تصويراً كاذباً . فان رسائل ماليت قد حطت هذه الوزارة تعتقد أنه ليس ودا . عراى سد من الأمة وأن الحديدو محبوب عند جميع أفراد شعبه . وانه لم تكن الأحوال تستدعي سوى شيء من التظاهر بالمساعدة الخارجية من ناحية الاستانة حتى يتضح الولا . للحديدو . واذا كانت هذه المساعدة الخارجية لا تحمل الحيش بخضع فاتها ستحدث حرباً أهلية تتطلب التدخل .

وهاك ما تقول اليال مال في ٢٦ مايو :

« ان البلاغ الأخير الذي أرسلته فرنسا وانجلترا للوزارة المصرية سيقبل أو يرفض في ظرف ٢٤ ساعة . وعلى ذلك ستحل الأزمة هذا المساء . وسيرسل الى الاستانة في طلب « الجندرمه » لكي تعيد الى الحديدو سلطته تحت مراقبة انجلترا وفرنسا . »

وتقول أيضاً في ٢٧ مايو . « ان الحالة في مصر سيفصل فيها في بضع ساعات وسنرى ما اذا كانت الأزمة ستفرج في سلم وأمان أو تنتهي بحرب أهلية وتدخل أجنبي . لقد استقالت الوزارة وقبلت الى الآن شروط اللاع الأخير الذي أرسلته فرنسا وانجلترا . لكن علينا أن نحسب لما سيفعله عراى حساباً فقد يلقي القناع عنه ويصارع رئيسه بالعداء . »

أما هذه الحرب الالهية التي تقول عنها البال مال ووضعتها في اليوم التالي أي في ٢٨ مايو اذ قالت :

« قضى الخديو ليلة أمس في قصره بالاسماعيلية يحيط به اثني عشر ألف بدوى من المخلصين لسموه . ووجود أطفال الصحراء هؤلاء في عاصمة مصر سيكون حائلا دون ظهور عرابي وانتصاره . ولا شك أن وقوع قتال بين البدو والحيش المصري سيكون من الأشياء المرجحة الحقة . ولكن حدوث هذا القتال سيحل الازمة حلا سليا ... فان مركز عرابي لم يعد كما كان قلا . فانه ليس ينمرد الآن وحده بقوة السيف . لأنه اذا كان الخديو لا يستطيع اخضاع عرابي بمعونة البدو والى طهره البوارح الانجليزية والعربية ومعه مجلس الأعيان فان الحالة يجب أن تكون عندئذ أكثر مما قدرها الناس الى الآن » .

فما أعجب هذه الأقوال : أحل أليس من العجب أن يقال أن اثني عشر ألف بدوى قد أحاطوا بقصر الخديو بالاسماعيلية ؟ وان أعضاء مجلس النواب علي ولا . تام للخديو وان عرابي قد وقف معرداً يهدد الجميع ويلقي الروع في قلوبهم ؟ ومع ذلك فان هذه المتريات التي كان يذيعها جون مودلي « الشريف » هي التي أغرت غلادستون بأن يعاقب الوطنيين المصريين الذين لا يخضعون بأن يرسل اليهم الاتراك حتى تفعل بهم جنودهم ما كان يفعله الباشبوزق في الفظائع البلغارية بل كان يود لو يرسل اليهم « رجل الخطية » عبد الحميد نفسه . ولكن هذا الزعم الذي أذاعته هذه الصحف عن الخديو وانه محبوب عند شعبه لم يش يومين اثنين . لأننا بعد ذلك قرأ في البال مال جاريت في ٣٠ مايو ما يلي :

« لقد آن الأوان لأن تقوم بعمل عاجل في مصر . فان الخديو قد سجن في سرايه . أما الاثني عشر ألف بدوى فقد ذهبوا في الهواء كأن لم يكونوا .. » الخ وكنت في هذه الأثناء أنتظر خطاباً من دار رئيس الوزراء رداً على خطابي السابق وكنت أيضاً أتتبع المسير الي مصر في أقرب وقت . وكان مستر غلادستون خارج لندن يقضي نعمة أيام مع لورد روبري في دوردان . وكان وجوده خارج

سدى ذلك الوقت مثير شؤم لى : فقد كست أعرف آراء ووزيري عن المسألة نصرية لاني كنت قد قابلته في دار رئيس الوزراء قبل ذلك وخرجامعاً يصحبها هاملتون وممرنا مدة في الحديقة الصغيرة القريبة من باب متفرع سان جيمس . فسالته وعن في الطريق عن رأيه في مصر فأجابني جواباً مختصراً بقوله : « ليس لى آراء مطلقاً عن مصر . فان رأيتي هم رأى المساهمين » .

فقد كان ينهم بالوجهة المالية في الموضوع وذلك لان زوجته كانت من أسرة روتشيلد ولذلك اعتبرت زيارة غلادستون له في هذا الوقت مثير شؤم . ولم يكن دوربري يعد عضواً في الحكومة ولكنه كان دا نفوذ عند غلادستون وقد عرفت من باتون ان روتشيلد كان يدفعه الى تحقيق غاية السياسة . واستمرت الحال على ذلك سوات وقد كانت المهمة التي سافر من أجلها الى برلين في سنة ١٨٨٥ يعزى بحاجتها الى مساعي روتشيلد . وبعد ذلك كلن بوالى خدمة أسرة روتشيلد في وزارة الخارجية ولو اني قد سمعت انه باع أسهمه في الدين المصرى قبل أن يعين في الحكومة

#### واليك شيئاً من المذكرات :

« ٣٠ مايو — لم يصلنى الى الآن رد من هاملتون . ومستر غلادستون ليس في دوردان الآن . ولكن كل شىء يسير سيراً حسناً في مصر . فالمعترف به الان أن عرابي قد امتلك ناصية الحال . وقد وصلتني رقعة امس من هاتون يطلب فيها ان براني ثانياً . وقد ذهبت اليه في منزله في مايفير وأخبرته بعزمى علي السفر الى مصر . وقد شعرت من أسلوبه أن لورد جرايفيل قد دسه لكي يعجم عودي . وقد أخبرت ادارة المصرف الذى أحفظ به أموالى ان يعد لي ألف جنيه ذهباً فرنسوا لكي اقضها على مصاريف الحرب . وانى أكره هذا السفر الآن ولكنى سعيد لاني أؤدى حقاً . وسيسافر معي أيضاً صابونجى

« ٣١ مايو — بكرت في الصباح وذهبت الى لندن فوجدت رقعة أخرى من هاتون يؤكد على فيها بصدم السفر : واما متأكد الآن ان ماقاله اما قد أوحى اليه به من مقام رسمي . وفي رقعة هاتون ما يستحق الذكر . فهو يقول : « عزيزى

لست . تؤكد عليك بأن لا تذهب الى مصر في هذه الاوقات . من ما ستفعله أو تفعله هناك سيء ، وسيبره ويحمل على حمل لم تقصد اليه . وقد تحالف الحرب العسكري و الباب العالي وهذا التحالف لا يوافق آراءك . وأرحوك أن تخبرني عما يصلك من الاخبار . هذا وابنتي لا تزال في الاسكندرية ولكن قلني بخصوص قترحيرالد الذي يكرهه الجيش الآن لاقتصاده الحربي — واقتل صداقة الخلع لك — هاتون . حاشية . اذا ذهبت فاحضر معك صديقك عرابي ونعال معه اليها هنا لتناول العشاء معاً »

« وجاءني أيضاً تلمراف من هاملتون يقول فيه : « وصلنا خطاكم . أرحوك أشد الرجا ، ان لا تفعل شيئاً قبل أن تراني . وسأعود هذا المساء » وكان قد ذهب الى سالزرى وفي الساعة الخامسة والصف وجدت هاملتون في منزل رئيس الوزارة فرحاني كثيراً أن لا أذهب الى مصر لأن مركري هناك وعلاقتي بمنزلة دستون سيء ، فمها ومحمدان حلبة وضحة ها . ثم وعدني بان الجيوش لن ترسل الى مصر ولن يحدث تدخل ما . أما انا فقد سأله الا يصدوتني مشولاً عن حوادث قد يمكن وقوعها وكان وجودي هناك يمنع وقوعها هذا . فقال اهم لن يلقوا على هذه المسؤلية . »

« وصلتني رقعة كبيرة من اليدى جبراهيل تدعوني فيها لحضور احتفال سيعقد بوزارة الخارجية في الثالث من الشهر تذكراً ليوم ميلاد الملكة . وسأحفظ هذه الرقعة باعتبارها جواباً على التهمة التي ينهني بها هاري براند بأنني أخون بلادى والان أنا في غاية الرضا وسيذهب صاونجي بدلا مني وسيقوم بجميع ما أربه . وقد أرسل الى عرابي تلمرافاً عني جواباً على خطابه لي . وهذا نص التلمراف :

« وصل خطاكم . لا تخش الوارج لن يحدث التدخل . ورج منشورات في جميع أنحاء البلاد بخصوص سلامة الاجاب »

وكان هذا التلمراف قد أرسل بناء على اقتراح هاملتون

« أول يونيو » تسير الاحوال كما أشتئى . فعرابى مالك لتأصية المال و مصر . . . ويعطن باتون ان التيسر ستدفع لي من التلمرافات اذا أرسلها اليها صاونجي

وهذا ما أحب . وقد انصقت مع صابونجي على أن أدفع له مرتباً قدره ثلاثون حنيهاً شهرياً غير مصاريفه . . . ذهبت الى مجلس العموم مع نيجل كـحـكـوت وهو القيم على خيول ولي العهد . فدخلنا في قاعة الرئيس . فأعلن غلادستون أنه سيعقد مؤتمر في الاستانة . ولن نبأ الجيوش في الهند ولن نرسل جيوش الى مصر . لأن هذا الصل يجعل حياة الأوربيين في خطر . وقد سألت مكوان رئيس تحرير جريدة الليفانت هيرالد السابق عما اذا كنت سأسافر الى مصر لكي أدير فتنة هناك . فأجاب ذلك بأنه يعتقد أني قد تحولت عن هذه الية .

ثم صرح غلادستون بهذه العبارة العجيبة وهي : ( ان عرابي قد ألقى عه الساع ) وهدد الخديو بالخلع ووضع حليم مكانه على عرش مصر . وهذا القول خفيف ومن واجبي ان اتقصه وهو أيضاً برهان على مبلغ الجهل الذي تورط فيه وزاراتنا الخارجية . ولا شك ان غلادستون سيفصب من ماليت لأنه قد قاده الى هذه الورطة . وقد صاحبي فرائك لاسل في الطريق وأخبرني أنه رأى تلفراف ماليت الخاص بتصریح غلادستون . وكل ما في التلفراف ان الخديو أخبر ماليت بذلك وأنه لا يضمن صحته فيمثل هذه الاخبار تتعلق سياستنا »

وتلفراف ماليت كما ظهر بعد ذلك في الكتب الزرق يصرح بأقل من هذا وهذا نصه : « ارسل الخديو اليوم في طلبنا انا ومسيو سينكفـكـز وأخبرنا أنه علم أن الحزب العسكري ينوى خلعـه ساء اليوم واعلان حليم باشا حديوياً لمصر . . . وقال لنا الخديو انه لا يكاد يصدق هذا الخبر » ومع ذلك فان مستر غلادستون يتعلق بهذه الاشاعة الواهية مع انه سبق أن صرح لي بأنه لا يلقى القول جزافاً في البرلمان وقد أشار علي أن أنتظر مايقوله في مجلس العموم وان للمصريين سيرون في أقواله بشري سعيدة بلادم . أقول انه مع كل هذا يفوه بهذه الكذبة بعد مدة طويلة لم يقل فيها كلمة عن مصر . وان هذه العبارة يدرك منها هذه الطرق التي يتبعها الوزراء والاسباب التي يتعلق بها عقل غلادستون وكن الأثر الذي أحدثته خطبة غلادستون في ذهني زوال الشك والأمل في مسألة مصر من ناحية وزارتنا فلم نطاولني نفسي بعد ذلك على أن أثق في مستر غلادستون أقل ثقة . حتى انه عندما

فلم يدافع عن الحكومة الذاتية في اربلدا وجعل من نفسه زعماء هذه الحركة لم انخدع به بل اعتبرته رجلا برلمانيا لا أقل ولا أكثر . واست اقول اني عند ما قابلته في ٢٢ مارس وحاطني وكله مروءة وحماسة عن الوطنية المصرية لم يكن مخلصاً فيما قال ولكي اقول ان عطفه على الحق لم يكن العامل الأكبر في سياسته التي كانت عليها عليه بواعث النجاح وانتهار الفرص . ومن ذلك الوقت زال عني ما كنت أنوهمه فيه ولم يعد الى رأيي السابق فيه .

وابيك المذكرات : ٢٠ يونيو . كان بمنزلي لورد دلاوار وحريجورى وبراندي وباتون . وكلهم متعاطون عن الحالة إلا براندي ولا يزال هاري يقول اني خائن وان عرابي قد أنرى إثراء عطيا وانه يجب طرده من مصر . ثم اتفق باتون مع صابونجي على رموز لكي يستعملها باتون في ارسال التلغرافات اليه . وقد اعطيته مائة جنيه لمصاريفه سيقدم لي عنها حساباً . وسنرسل الى التلغرافات فاحولها أنا بواسطة باتون على التيسر . وقد اعطيت التعليقات اللازمة لصابونجي وأنها أن يخبر عرابي بان يتصلح مع الحديرو وأن لا يذهب الى الاستانة معها كانت الاسباب . وقد رزمت له أمتته وودعه وليس عندنا من قلق بشأنه سوى الخوف من أنه ربما يحجز في الاسكندرية . ويقول لي باتون اني لو كنت المحت على الذهاب الى مصر لكانت الحكومة أصدرت الأوامر لسير سيمور بمنحي من النزول في الاسكندرية .. وأنا الآن مطمئن » .

ولو كنت سمعت خطبة غلادستون قبل أن أعد هاملتون بعدم السفر الى مصر لما رحمت عن نيتي في الذهاب . ولكي لا أعلن أنه كان ينتظر من هذا السفر شيئاً من الفائدة كادت علي ذلك الحوادث الثانية . ولو كان قد سمح لي بالنزول في الاسكندرية لما كان لي من النفوذ لدى عرابي أكثر مما كان لصابونجي . لان صابونجي كان قدأ في تأدية مثل هذه المهام ولا أعتقد اني كنت أحصل على خير منه لو لم يتم هو بها . فقد كان رئيساً لتحرير صحيفة تدعي النحلة . وسواء اكانت هذه الصحيفة تحصل على اعانة من اسماعيل أم لم تحصل فانها كانت تدافع عن الابرار سائرة في سبل التقدم واصلاح الاسلام . فكان لصابونجي مركز عظيم عند رجال



لأحرار ثم هو كان مع الحركة الوطنية قلباً وقالاً وكان يقابل بالترحاب عدد جميع قوطيين باعتباره نائباً وكانت الثقة فيه عطية حذاً وهو أيضاً كان حديراً بهذه الثقة. فان الخطابات التي انتمت على إرسالها إلى وحال الحركة قد وصلت إليهم وقد لمخني جميع ما قالوه له. وهذه الخطابات شاهد عدل بل الشاهد الوحيد على مجرى الاحوال في تلك الاوقات. وفي نهاية هذا المجلد يرى القاري حلاصة هذه الخطابات وقد وصل صابونجي إلى الاسكندرية في ٧ يولييه وبقى فيها إلى قبيل يوم خربها بضال البوارج.

« وقد بقي صابونجي في خدمتي إلى آخر سنة ١٨٨٣. ثم تركني وسافر إلى الهند حيث كان له أقارب. وتقلب به الاحوال حتى انتهت به إلى ما ينتمي إليه جميع رجال الثورة الشرقيين. أي سراي يلدر. فقد عين هناك مترجماً ينقل للسلطان ما يريد معرفته من الحرائد الأوروبية. وأعلن أنه لا يزال هناك إلى هذا الوقت أي سنة ١٩٠٧ »

## الفصل الثالث عشر

« بهنة درويش »

لقد وصلت الآن إلى نقطة في تاريخ هذه الدسائس لو لم يكن لدي مواد مطبوعة شبيهة بالرحمة اعتمد عليها لعد القراء ما أروبه لم قصصاً خيالية لا أصل لها. فان الانسان لا يكاد يصدق أن حكومة حرة على رأسها هذا العظيم الطيب القلب غلادستون تقدم على عمل يخالف الآداب سواء كان هذا لاسباب سياسية أم مالية أم لضرورة خاصة. وقد وضع جون موزلي ترجمة غلادستون فاغضي عن تاريخ هذه الاقتحامات التي اندفع فيها غلادستون في مسألة مصر. فلم يذكر عن هذه المسألة في ترجمته هذه سوى خمس عشرة صفحة مع أن الترجمة تحتوي على ألف وخمسمائة صفحة كلها ترميز. وله الحق في ذلك لأنه لو أراد الاسهاب والتفصيل لما وجد ما يبرر خطة المترجم له. ومع كل ذلك يجب أن يكون لدى المؤرخين الذين

لا يضطرون الى مراعاة انكتم هذه التفاصيل . لان التاريخ الذى يهمل هذه الاشياء عن احتلال مصر لم يساوى قيمة الورق الذى يطعم عليه .  
فانه عندما جاء أول يوبه تبين أن خطة الارهاب والتهويل التي اقضت بحبي الاسطول للاسكندرية قد فشلت فشلاً تاماً . نعم ان ودرة محمود ساقى قد استقالت ولكن هذا النجاح الابتدائي قد أعقبه حبوط عظيم .

وكان البلاغ يطلب من عرابي بكل وصوح أن يخرج من مصر . فلم يقال عرابي هذا البلاغ بالعصيان فقط بل ان الحديو نفسه قد اضطر بقوة الرأى العام أن يردده الى مركز ودارة الحرية ثانياً بعد أن رادى سلطته ووجاهة مقامه . فوجدت ودارة الخارجية نفسها بين أمرس . اما أن تكظم غيظها وترضى بهذه الهزيمة العلنية واما أن تبرر ارسالها هذا البلاغ وتقم لكلمانه وزناى وقت كانت قد بدأت فيه أوروبا تنظر الى عرابي باعتباره بطلا من أبطال الوطنية .

وكانت فرنسا شريكة المجلترا فى هذه المسألة قد أخذت منذ وقت طويل تحمر مرغها فى الخروج من هذا المأرق . فكادت حكومة متر غلادستون تكون الوحيدة فى الاستمرار على هذه الخطة . وكانت هذه الخطة من أعرب ما يمكن حكومة مسدية أن تتبعه وكان وجود متر غلادستون على رأس الحكومة الانجليزية مما يزيد هذه الخطة غرامة . فقد كانت تلخص هذه الخطة فى الرغبة الى الباب العالى أن يتدخل ويخلص مصر من عرابي . ولم يكن هذا التدخل قائماً على استعمال الباب العالى سلطته باعتباره صاحب السيادة على مصر ولا كان أيضاً بأرساله « الجندرمه » التى سبق أن ذكرنا الأشاعة التى راجت فى وقت ما عنها . كلا . فانما كان هذا التدخل قائماً على تلك الأساليب التركية القديمة المبطونة على الحياة والفنر . وهي أساليب كثيرأما استعمالها الباب العالى فى اخاد حركات التأثير المسيحيين وغير المسيحيين من رعاياه عندما كان يشتم منهم بارة النجاح فى أوراسهم وأول ما يلهم الى هذه التدبيرات ما ذكرته البال مال غازيت فى احدى مقالاتها الموحى اليها بها وذلك فى ١٥ مايو حيث ذكر مورلى بعد ان أوضح رضى الحكومة عن الحالة « ان عرابي قبل مضي رمن طويل ستخلص البلاد منه بطريقة سلمية

هذات هـ وهذه التدابير لم يمش بالطمع سرها في الكتب الزرق . ولكنها ظهرت حد ذلك في البال مال حيث صرحت ناشيا . صراحة - ادحة كأن كانتها لم يسعر أقل نعود بعدم اليقاة بما روى . وحلاصة هذه التدابير أن يرسل السلطان الي مصر سحوثا حريا من طراز الحدود اللرس مارسوا الخدمة مدة طويلة وفيهم من النشاط والاستعداد للدوس علي الصمير ما يمكن ان يجنب بها المصريين ويحولهم عن مقاومة . أما عن عراي فان النية كانت في ان يغريه بالنزول في احدي - اسمن حتى اذا استقبلها انحوت به الي الاسانة . وادا لم يصح هذا التدبير كان علي هذا المبعوث ان يدعوا عراي الي اجتماع ثم يقتله معه . وكان هذا المقترح يوافق ما كان قد اقترحه كواهن مسند نعمة أشهر علي الحديوي وكا كواهن يقتحر بذلك فلم يكن اخذ هذا التدبير بعيد الاحتمال . وعلى ذلك أرسل السلطان رجلا يدعى درويش باشا وكان من حيث الخلق والسوابق يوافق هذه المهمة التي انتدب لها في القاهرة

وقد قال مورلي في مقال بطمح سرور آ لارسال هذا المبعوث العجا مايلي :  
« لقد وصلت الازمة المصرية أقصى حدودها . ولكن يظهر ان في القاهرة الآن رجلا يستطيع ان يملك ناصية الاحوال . فان في وحاجة درويش باشا الهادئة الرصينة شيئا من التأثير . فهو بلا شك رجل الساعة . فانه مما يريح البال ويزيل القلق انه بعد عدة قلبات ومرامعات مارسها السياسيون الذين يمثلون الآن هذه الدراسة المصرية نجد رجلا يجعل الآخر يخلصون لارادته بقوة شخصيته الكبيرة . فليس هناك شيء . أكبر آرا من اثباته لسلطته ولا أبرع من اشارته اشارة عرضية الي مذممة المالك . ان درويشاً رجل من حديد وحق عراي لن يرتجف أمامه . فما هو ان ينطق بكلمة خرقا . حتى يرى رأه . ه تدرج أمامه علي السجاد . أحل ان درويشاً قادر علي ان يعالج عراي بالطريقة الشرقية لا بالطريقة الغربية . ومن المرجح ان الثورة المصرية قد وجدت سيداً لها في هذا التركي القوي العزيمة »

ثم هناك ما يقوله أيضاً في ١٥ يونيو « ان نارنج درويش الماضي حافل بالحوادث التي تزيد هذا الأمر الذي تركه في القاهرة من حيث نشاطه وقوته . فهو أشط اقواد في الجيش العاني وأقلهم احتفالا بالصمير والدمعة . وهو مع انه في السبعين من عمره

فان ارادته لانزال كما كانت قديماً من حديد . وقد مارس الحروب أولاً في الجبل الاسود وكان الجليون يرون فيه أخطر القواد الذين يقاتلونهم . وفي آخر قتال حدث بين الباب العالي والجبل الاسود (في سنة ١٨٥٦) سار درويش الى جراكوفو وهي أبعد بلاد الولاية الشمالية . ومع بعض الاهالي من التتهقر الى الجنوب فلدجأوا الى معارة واختبأوا فيها . وهذه عادتهم اذا داهمهم عار . لان هذا الكهف الذي كانوا يأوون اليه كان يمنع على الغزاة احراهم منه لان الطريقة المألوفة في مثل هذه الحالات وهي التدجين على باب الكهف لم تكن ناجمة في هذه الحالة . وحاول الأتراك الفوز الى المغارة ولكنهم ردوا عنها بسهولة . فصد درويش الى المفاوضات واتفق على التسليم بشرط أن يحترم حياة المحصورين وأموالهم وحريتهم . وكانت النتيجة ان الأتراك بقيادة درويش حافظوا على شروط هذا الاتفاق بأن قتلوا جميع المحصورين . وكيفية ذلك اهم سيعوا الي مطبق في القاعة ثم وضعوا في الاغلال كل اثنس منهم معاً طيراً طهر ثم قتلوا . وذلك بأن يقتل أحد الاثنين فيحمله الثاني الى حيث يدفنه . . . . . وبعض الناس لا يعرف الطريقة التي سلكها درويش في الحرب الالبانية . فقد ذهب الى البانيا لكي ينفذ قانون التجنيد ف فشل فشلاً تاماً . وقد أشاع أساطير عن معارك لم يكن لها أصل لأنه لم يلق مقاومة تذكر . ولكنه نجح في طريقة أخرى وذلك بأنه كان يرسل في ضياع الييكويات الاغنياء وكان ينصرم حتى يخرج منهم آخر ولس . فاذا انتهى من أحدهم ذهب الى غيره . وكل يرسل الى الامتانة . بالقدود ولكه لم يرسل اليها مجتدين . فاذا كما نبتني قنبونا بصدد البقعة درويش في مصر على أعماله السابقة في البانيا والجبل الاسود فاننا نرى انه سينجح في مصر . فان المصريين أقل ميلاً للقول من الجليين والالبانيين ولكن عتدة المسألة المصرية يحتاج أيضاً الى السيف قطعها »

فهذه أقوال عجبية وجدير بحجون موزلى اذا تذكرها الآن ان يعرفه المجرى والجبل لانه قد انخدع بما قاله له أصدقاؤه في وزارة الخارجية حتى وقف من قبه في ذلك الصيف محامياً ينفود عن جرائمهم . فلا عجب بعد ذلك ان لا يذكر للمحة المصرية الا في عدة صفحات في تاريخه . وهذه أعمال عجبية أيضاً من رجل مثل

علاستون اذ ماذا يقول فيها لو أنه دعى الى ابصارها امام صميره الرسمي او غير الرسمي . حقا ان طيف درانيلى ليصحت من هذه الاعمال والاقوال ا

الا ان بعثة الساطن لم تكن كما توهمت ودارتنا الخارجية مهرة من الأنتم ساذجة فان امير المؤمنين لم تكن له رغبة في أن يكون آلة مسخرة في يد الغرب يفعل لهم أفاعيلهم ويحترم جرائعهم . فقد كان راضيا بالتدخل ولكن على هدى . وكان يجهل الحالة في مصر وكان يريد أن يستعد لجميع الطوارئ . وكان لعراي أصدقاء في البلاط يمثلونه باعتبارهم مدافعا عن الدين ولم يكن السلطان يثق مطلقا بتوفيق . وكان يرغب أن يصحح حلما في مكانه . فانسع السلطان طريقته المعهودة في تعيين وكيلين متعارضين في الحطة . فانه الى جانب درويش عين شخصا آخر يدعى الشيخ احمد اسعد وكان من مشايخ طرق المدينة وكان يقيم بالاستانة ويستخدمة السلطان في المهمات السرية الخاصة بالمائل العربية . وكان يستشير في جميع المائل الخاصة بالعرب والدعوة الى الجامعة الاسلامية . وكان هذا الشيخ مواليا لعراي

فلما وصلت البعثة الى الاسكندرية تبين الثامران لهاصفتين . أحدهما في شخص درويش وتطوى على تهديد عراي . والاخرى في شخص الشيخ احمد اسعد وتطوى على المصالحة والمسالمة . وكان من المهمات التي عهدت الى هذا الشيخ خاصة ان يبلغ السلطان عن الشعور العام وعن رأى علماء الازهر وكان يخاطب السلطان بأرقام قد اتفق الاثنان عليها قبلا وكان درويش لا يعرف هذه الأرقام . وكان عراي وأخصاؤه قد علموا ذلك قبل وصول البعثة فقاموا بشئ من الترحاب . فكان مسطر استقبالا غريبا . فمن جهة كان الشراكة والأتراك يرحبون بندريش بينما كان المصريون يرحبون نسيخ المدينة

وقد أرسل كل من الحديو وعراي مندوبين لاستقبال البعثة في الاسكندرية فكان ذو الفقار باشا ينوب عن الحديو وكان يعقوب سامي باشا ينوب عن عراي وكان عراي قد سبق فأرسل عبد الله نديم الخطيب لكي يهيء الجمهور حتى يحسن استقبال البعثة ويحتج أيضا على البلاغ الأخير الذى أرسله مالييت وزملاؤه الفرنسيون للحكومة

وعلى هذا استقبل الجمهور المبعوثين وكان كل مهبط في مركته ومعه مندوب .  
فشكل الجمهور بصيحه « الله يبصر السلطان » ثم يلي ذلك : « اللاحمة مرفوضة .  
مرفوضة » يريدون بذلك رفض البلاغ الاخير . وأيضا « ردوا الاساطيل » .  
وكان لهذا الغتاف أثره عند درويش فانه احتاط لنفسه من ذلك الوقت . وقد  
ذهب الى البعثة وهي في الاسكندرية والقاهرة مدعون من الاعيان والتجار والموظفين  
وكان درويش يجيبهم على السواء . إجابة عامة . وهي ان السلطان سيجري العدل وانه  
هو قد أتى لكي يرد للسلطان سلطته وبعيد الظلم . ولم يصرح الا للأتراك بأن  
عراي سيرسل الى الاستانة . اما للمصريين فانه كل بصرح أن الاساطيل ستفادر  
الميناء في أقرب وقت بينما كان الشيخ اسعد يطمس عراي ويخبره بان السلطان لا  
ينوي محوه الا باليات الحسة .

أما الصفات التي اعتقدت وراثة الخارجية الانجليزية ومورلي وجودها في  
درويش كما يدل على تلك القطعة التي نشرها مورلي واقتبسناها فلم يكن لها تلك  
المسحة القاسية التي توقها مورلي . فقد كان درويش رجلا منسا وكانت عاقبته أن  
يلا جيبوه لا أن يشتبك في نزاع مع رعيم الملاحين . وقد تمكن توفيق من أن يدفع  
له خمسين ألف حيه وقدم له من هبات الخلى ما يقدر بمئة خمسة وعشرين ألف جنيه  
ولكن درويشا مع ذلك لم يحاول ان يصرب عراي صرعة قاضية . فقد حاول مرة  
ان يهدد المواطنين ولكنه تعلم من هذه ألا يعود الى مثلها بعد ذلك . وفي يوم الجمعة  
التالى لقدومه زار بعض المساجد وعبر عن استيائه من العلماء لأنه عندما خرج من  
الأزهر نحرأوا على أن يقدموا له عريضة ثم لم يكتفوا بذلك بل رادوا جرائهم وذهبوا  
اليه بعد الظهر وزاروه وعبروا عن أفكرهم بحرية لم يألفها .

وكان جميع هؤلاء العلماء باستثناء العباسي شيخ الاسلام السابق والبحري والاياري  
والسادات في صف عراي . أما هؤلاء الاربعة فكانوا في صف الحديوي . وقد طلب  
العلماء من أن يرفض البلاغ وبخاصة تلك الفقرة التي تشترط بي عراي . فأمرهم درويش عند  
ذلك أن يلزموا الصمت وقال انه اتما أتى لكي يلقي الاوامر لا لكي يسمع النصيحة  
وطردهم وفي نفس الوقت أنهم بالسام العالي على شيخ الاسلام وسائر المنشقين .

ولكن الرأي العام تحلى في الحال بصورة لا تترك مجالاً للشك . فقد عاد هؤلاء الشايخ من لدنه وهم في أشد القبط وأحبروا كل واحد بأنحاء التيسار حسب مارأوه من لهجة درويش وفي نفس هذا المساء أرسل الوطيون رسلكم الى المديرية في قطارات المساء لكي يذهبوا للاحتجاجات . وعقدت عدة اجتماعات تلك الليلة في القاهرة تسخط فيها المجتمعون على البعث . وفي اليوم التالي عقد اجتماع كبير من الطلبة في الازهر واحتجوا على الاهانة التي نالت مشايخهم وفي هذا الاجتماع دعى عبد الله نديم الى الخطابة فخطبهم خطبة بليغة .

فلما بلغ درويشا هذه الحوادث اهتز لها ففقد ثقته ولم تمض ساعات حتى أرسل الى عرابي الذي كان الى ذلك الوقت يرفض مقابلته ودعا أيضا محمود سامي وخطبهما بواسطة مترجم وبليغة المصالحة . وكان الشيخ أسعد مع المترجم يساعده في إيضاح ما يريد على الرغم من أن درويشا لم يقدم لهم القهوة أو السجائر — وهو ملاحظه عرابي ورفيقه — فان لهجته كانت غيل الى المصالحة . فقد جعلهما يجلسان الى جانبه وأخذ في فحص الحالة فحسا عليهما الصراحة . فقال : « اننا هنا جميعا اخوان لاننا أبناء السلطان . ويمكننا أن تطرا الي والى هذه اللحية البيضاء باعتباري أنا لكما . ثم ان قصدنا جميعا واحد وهو مقاومة الاجاب ومبارحة الاسطول الذي يهدد سلامة القطر المصري ويحلب العار بوجوده هنا على السلطان . فالواجب علينا أن ننظر الى هذا الغاية وأن نظهر غيرتنا لمولانا . كل هذا يمكن عمله بان (وهنا وجه الخطاب الى عرابي) نزل عن سلطتك لي ولو في الظاهر وتساقر أنت الى الاستانة لكي ترضى السلطان » فأجاب عرابي بأنه مستعد لان يستقيل . ولكن بما ان الحالة خطيرة والمسئولية عظيمة فهو لا يرضى بأن يؤدي نصف العمل . فاذا استقال فيجب أن تكون استقالته بالفعل والقول . ولكنه لن يستقيل الا اذا تسلم خطانا تدون فيه اقالته . ثم انه لن يكون مسؤولا عن الاشياء التي تعزى اليه والتي يعتبر نفسه بريئا منها . فقد سبق ان اتهم بارتكاب المظالم وانتهاب أموال الحكومة وما الى ذلك فهو لن يترك منصبه الا اذا حصل على اقالة مكتوبة تتضمن تبرئته مما عزى اليه . ثم انه يؤجل سفره للاستانة الى وقت تكون قد هدأت فيه الحالة . وعندئذ يذهب باعتباره أحد أفراد

المسلمين ليقيم دروس الطاعة للحليمة . ولم يكن دروس مستعداً لقبول هذا الجواب فلم يستمره وتعبرت هيته . ولكنه قال : « فليعتبر أن المسألة قد سويت » ثم أشار الى الميخاض الذي رآه في الاسكندرية وقال : « ارسل نلعرفاً لعمر ماشا اطلعي ( المحاط ) . وقائد الحامية في الاسكندرية . وقل لها انك قد زلت عن وظيفتك الى وابلت تعمل الآب باعتبارك وكلي . وبوم الاحد سيجمع القاصل بالحدود وستعطيك الاقالة التي تطلبها » .

فرض عرابي أن يفعل ذلك قائلاً انه لن يستقبل حتى يتسلم خطاب الاقالة . ثم اقترق قادن أن يحدث بينها تفاهم .

هذا هو بيان ما جرى في هذه المحادثة كجرواها بيه وغيره ممن وقفوا عليها . وكانت هذه المقاتلة في طهر يوم ١٠ يونيو . وهي ذات أهمية من عدة وجوه وخاصة لما كلف لها من العلاقة عما حدثت في اليوم التالي من الشعب الذي كان في الأصل مشجرة بسيطة بين مالطي ومكلى مصرى . فقد اندثرت هذه للمشجرة في الساعة الأولى بعد الظهر وانتهت في الساعة الخامسة وكانت نتيجةها ان مائتي شخص قتلوا وكل بينهم صابط من البارجة « سيورب » وقتل أيضاً مائتا اوروبي زيادة على ذلك . وحدث لكوكسون القصل الربطاني عدة اصابات خطيرة وأصيب أيضاً قصل ايطاليا وقصل اليونان بعض اصابات . ولم يهدأ الاضطراب حتى وصلت الحنود النظامية فأخذته . وكان هذا الاضطراب أول ما حدث من نوعه بعد عام من الثورة في مصر . وقد أحدث خبر هذا الاضطراب الذي ارسل الى اوروبا بالتلغراف ضجة كبيرة وخاصة في انجلترا .

وبما أن تمة هذا الاضطراب الذي عاد شؤمه على القضية المصرية قد اقيمت على كاهل رجل هو أكبر من اودى منه — اعني به عرابي — وبما أن هذا الاضطراب قد أخذت وزارة الخارجية الانجليزية تستقله لمصلحتها وتطلبت به لصرب الاسكندرية لأنها اعتبرت مصر « في حالة من الفوضى لا يمكن اسكرها » فانه يحسن أن نتفها قليلاً لكي نقرر مكل هذه التبعة وما لحقها من المرام . فاني عند ما سمعت عن هذا الاضطراب في لندن شعرت لأول وهلة أنه نتيجة



سيرة التي دبرها رجال وزارة الخارجية بواسطة درويش لايقاع عراقي في اشراك  
سى نصب له والغدر به . ولكي لم أحصل على المستندات الخاصة بهذا الاضطراب  
لا عد الحرب . فلم يكن في مقدوري الدفاع عن الوطنيين وتبرئهم من ارتكاب  
هذه الجناية الا بعد حصولي على هذه المستندات .

فانا نعرف الآن جميعاً أن هذا الاضطراب وان كان في الأصل قد حدث  
حول تدبير سابق فان حزب الحديو كان ييوى احداث مثل هذا الشغب لكي يثبت  
عدم أهلية عراقي لحفظ النظام في البلاد .  
أما الحالة في الاسكندرية فكانت كما يلي :

كانت الاسكندرية أكثر من كل بلدة أخرى في مصر تحتوي على عدد كبير  
من الأجانب فكان فيها الى جانب المسلمين عدد كبير من اليونان والاطالين  
والمالطيين . وجميعهم يشتغلون بالتجارة وأكثرهم يشتغل بالربا . ولم يكن بين  
طبقتي الأجانب والوطنيين ود كبير . ثم أن مجيء الأسطول الى الاسكندرية  
كل القرض الطاهر منه حماية الأجانب باعثاً على إيفار الصدور . فقد كان محافظ  
البلدية يحتاج الى صفات الثبات والولا . والرفق لكي يحافظ على النظام كما كان رجال  
الأسطول أيضاً محتاجين الى الرزاة ولكن كان المحافظ لواء الحظ وهو عمر باشا  
لطني بكره الوطنيين . فانه كان شركياً وأحد أفراد الماشية وكان موالياً لاسماعيل  
وقد خدم توفيقاً وقت المؤامرة الشركية بأن فاض الدوى في المهادت الغربية بأن  
يكونوا في صف الحديو . فهو لهذا السب كان يشجع العناصر الوطنية على الشغب .  
أما اليونان فقد كانوا مسلمين من قبل بواسطة رئيس طائفتهم امبراز سينادينو وهو  
رجل منر ولكن أيضاً وكلا ليت روتشيلد في مصر . وقد نلح المالطيون أيضاً  
واغضى عنهم القنصل الانجليزى كوكسون . فكانت جميع الأحوال مهيأة لاجداث  
شغب منذ الأسبوع الأخير من شهر مايو توقفاً للحرب الأهلية التي يذكر القارىء  
أن البال مال غازيت قد تنبأت عن حدوثها واعتبرتها حلاً لا بأس به اذا رفضت  
الوزارة الوطنية أن تستعمل .

وليس هناك من شك في أن الساسة الانجليز في القاهرة كانوا ينتظرون هذا

الاضطراب ليعتبره حجة على الفوضى بل انه كان في نظرهم لا ينأى خطهم . ومن السهل أيضاً أن تثبت أن عمر لطفي كان يرغب في ازالة عراي من مسرح السياسة . وقد ورد في التلغرافات انه عد ما كان البلاغ الأخير بوشك أن يرسل للحكومة المصرية كانت قد هيات قائمة بأسماء أعضاء الوزارة الشريكية الخديوية المرشحين بعد استقالة وزارة محمود سامي . وقد رشح لوزارة الحرية بدل عراي محافظ الاسكندرية هذا عمر لطفي . ولم يكن هذا الخبر غير مؤسس على حقيقة لأننا نعرف انه بعد ذلك بأيام دعا الخديو عمر لطفي الى قصر الاستماعيلية وعرض عليه هذا المنصب .

ح. في المال مال عاريت في ٢٨ مايو ما يأتى : « القاهرة في ٢٧ مه — اذنع في سراي الاستماعيلية ظهر اليوم عمر باشا لطفي وشريف باشا وسليمان رئيس مجلس الاعيان وراغب باشا ... وستكون رئاسة مجلس الوزراء لشريف باشا أو لعمر باشا لطفي ... وسيكون عمر باشا لطفي وزير الحرية » .

وقد سلم البلاغ الأخير في أول يونيو واستقالت الوزارة في ٢ يونيو وانتظر الوزراء يوماً لأن الخديو أخبرهم بأنه سيرسل تلغرافاً يستشير فيه الاستانة ولكن عند ما حاه الوزراء في الصباح أخبرهم بأنه قد قرر أن يقبل البلاغ ولو أنه لم ينسب من الاستانة جواباً على تلغرافه . فلما كان اليوم الثالث من يونيو ورأى الخديو انه مضطر الى إعادة عراي بضغط الرأي العام عليه ومظاهرات الجمهور وماصرة القصر الالمانى والتفصيل النموى لعراي لأنها كانا بريان فيه أ كفاً رجل لحفظ السنة في مصر كانت خيبة آمال عمر لطفي كبيرة . وكان يرى في حبة آماله هذه ما يذهب الي تنفيذ رأى هذين القنصلين باقامة برهان على . وهناك زيادة على ذلك شخص آخر يقوى ثقتنا في انهام عمر لطفي . وذلك أن الخديو الذى كانت خيته لا تفر عن خيبة عمر لطفي أرسل في ٥ يونيو تلغرافاً قال فيه :

« لقد تمهد عراي بحفظ النظام وأعلن ذلك في الحرائد وقبل على نومه المنوي أمام القاصل . هذا يمحج في هذا التمهيد فان الدول يتقرب به وعندئذ تضع اعتبارات ثم أن أساطيل الدول في مياه الاسكندرية فقول الناس منهجة بالمشاعر ليست

مبة الحدوث بين الاوروبيين وغيرهم . فالآن : احتر لنفسك اذا كنت تنوي  
حصة عرابي فساعدته على تمهده أو تنوى خدمتها .

وكان في هذا التلميح ما يجعل عمر لطفي يتحد اجراءاته . وكان ماغتياره محافظا  
« حق الأمر على المستحفظين وهم يؤلفون بوليس الاسكندرية الشبه بالحربي  
بواسطة هؤلاء . أمر أن نجمع السابيت في أماكن الأقسام لكي توزع في الوقت المعين  
« أعد الاعدادات اللازمة الأخرى لاحداث الاضطراب المقصود .

وهناك أدلة قوية في الكتب الرق ثبت اشتراك البوليس في الاضطراب .  
وإن هك احتلاطاً في التمييز بين رجال البوليس هؤلاء وبين الحدود وذلك لأن  
هذه عسكى تدل في مصر على الاثمين . فإن الحدود النظامية كانت بقيادة المحافظ  
حربي ولم تشترك في الاضطراب الا بعد ما دعيت في الساعة الأخيرة بناء على  
طلب عمر لطفي عند ما رأى ان الاضطراب قد عدا طوره وأنه لا يستطيع امتلاك  
باصيته . ومما يلاحظ أن ديس المستحفظين سيد قنديل وكن من المستصرين لعرابي  
وهو رجل ضعيف القلب رفض أن يشترك في أعمال ذلك اليوم واعتذر الى  
المحافظ بالمرض .

فالاضطراب كان قد دبر عند وصول درويش ورفيقه الى الاسكندرية في ٨  
يونيو . والأرجح أن المقصد كان أحداثه في نفس الوقت الذي يقبض فيه على عرابي  
ودلك لاقامة البرهان أمام مبعوث السلطان بان عرابي غير قادر على حفظ النظام .  
ولست مقتنعاً بأن درويشاً كان يجهل ما سيحصل وأظن أن الأرجح أنه كان يعرف  
كل شيء قبل حديثه مع عرابي . وأنه لو كان قد نجح في جعل عرابي يستقبل لكن  
أنهى تدبير هذا الاضطراب . وهناك ما يدل على ان الاضطراب وقع قبل الوقت  
الذي كانت النية مخطوة على أحداثه فيه . لان من المحقق ان حادثة المشاجرة بين  
المكشوى والمالطي كانت حادثة عرضية ولكن المرجح أنه لم تصدر أوامر الى البوليس  
بوقف المشاجرة فاستمرت وفقاً لبرنامج الموضوع للاضطراب . ولكن ما لا شك  
فيه ان الحدوي في القاهرة وعمر لطفي في الاسكندرية كانا يحتكران المواصلات  
التلغرافية بين هاتين المدينتين . وان عمر لطفي كان يؤجل وهو يتعلل بعدة أعذار

طلب الحدود الذين لم يكن لهم الحق في العمل الاثامه باعتباره المحافظ الملكي للمدينة. ثم ان هذا الاضطراب كان مدعاة الى اعلان المرح يس رحال بلاط الخديو بينها كان مدعاة الى الاسف عند عراي والوطنيين الذين أخذوا أيضاً في التصغير من شأنه ثم ان اللجنة التي عيها الخديو لتحقيق هذه المادئة كانت مؤلفة من أعضاء من حزبه ولكيلا يجعل تحقيقها قيمة جعل عمر لطفي رئيساً لها وصلة الخديو بعمر لطفي تزداد وضوحاً عند ما يعرف انه لما اشتدت شهة القاصل في عمر لطفي مسحة الخديو احارة . فلما حضرت الاسكندرية ظهر ثانياً ونال ما كان يطمع فيه وهو وزارة الحرية . وقد بقي هذا المنصب في يده الى شهر مايو سنة ١٨٨٣ عند ما أنهى لورد راندولف نشرشل في البرلمان هو والخديو . فاستقال عندئذ . وفي ملحق الكتاب براهين أخرى تؤيد اشترا كهما في احداث هذا الاضطراب .

ولكن هالك نقطة في هذه المسألة المشومة لاتزال عندى موضع الاشكال . وهذه النقطة هي تقدير المسؤولية التي تحملها وكلاؤنا في القاهرة والاسكندرية من هـ . الحوادث . فان في رسائل ماليت ما يعبر منه الانسان انه كان ينتظر خلاص له مصاعب السياسة الى كانت تواجهه وذلك في وقت الذي كان يدبر فيه هـ الاضطراب . ثم ليس من يشك في ان جميع ما كان محتج به على الوطنيين ان اذا ستؤدى الى الموضى . ثم من المحقق أيضاً ان كوكون القصل الانجليزى ماسكد . قد تفاضي عن تسليح الماطلين . ومع ذلك فهناك فرق شاسع بين هذه الامور وبين التواطؤ على احداث هذا الاضطراب . وكل ما أعرفه عن اخلاق مـ . وسلوكه في المستقبل يدعوني الى تبرئته من هذا الاضطراب .

وكان ماليت يثق في توفيق ويعتبره حديراً بالثقة وكان يصدق جميع . يقصه عليه وقد علمت ان وقوفه على حقيقة توفيق بعد الحرب قد آلمه أشد . وهذا القول يصدق أيضاً عن كولفن . فانه كان يجهل تدبيرات الاضطراب . كل يجهل أعمال الخديو منذ عام ولو انه من الصعب ان يعتقد الانسان انه يعرف الحقيقة بعد ذلك بوقت قريب . فانهما كانا متحابين مع عصبية

والاضطراب وعدم ما حدث الاضطراب سارعا الى صديق الخديو لاهما رأيا في تصديقه ما صادف هواهما فلم يبحثا عن الحقيقة .

وكان لاهما يطر الى الاضطراب عتاره اذا شغل بتعبد مآرهما وكما يحتاج به على الوطنيين وأن ادارهم ستؤدي الى الخراب وتدخل الاحي . هذه صفة الى لها بالاضطراب هي كل ما اتفق عليه من المسئولية .

ويمكن تلخيص ما حدث بعد ذلك في اضطراب قليله قلما أعود بالقارى الى مذكراتي فأقول : أن نتيجة الاضطراب لم تكن كما توقعها الخديو وأصحابه بالضغط ضد حرج الاضطراب عن الطور الذي عين له قديما في ربماهم حتى دعت الحالة الى ادخال الحدود الطامية لاعادة السكينة . وبدلا من أن تسقط كرامة عرابي به حدث من الزعب بين الاجانب وهم طائفة ترتعد لاقبل حادث ما جعلهم يطورون الى عرابي . عتاره المحي الوحيد لهم حتى أن الماصل باستثناء القصل الانجليزى واقوه على رأيه . ثم ان الطام الذي أحدثه وجود الحدود الطامية في الاسكندرية راد مقام عرابي في أعينهم . وهذا أقول أنه لو كان عرابي رجل أعمال بدلا من أن يكون رجل أحلام وأمانى أي لو كان فيه صفات الحاكم القوي التي كانت لسوء الحظ متوفرة كثيرا لاستطاع في ذلك الوقت أن يكسب المعركة السياسية من حصومه الذين كانوا لا يراعون الذمة او الشرف فيما كانوا يفعلون . فلو كان عرابي حاكما قويا لكل من الضروري أن ينهم المرتكبين لجرائم الاضطراب ومحاكمهم وكان عندئذ يثبت للجميع أنه ليس من يد أقوى من يده وأن العقاب سريع النزول بمن يحدث أي خلل بالامن العام . فكان يمكنه أن يباشر أوروبا والسلطان بكلمات عليها طابع الحاكم القوي بحيث لم يكن من الممكن عدم المبالاة بها . وفي هذه الحالة لم يكن لحكومتنا أن تشذ عن الجميع وتناوثره :

ولكن عرابي لسوء حظ الحرب لم يكن رجلا قويا وإنما كل دا أماني انسانية وكان في خلقه شيء من العناد والتشبث لأرائه والرعة في تحقيقها . فكان يجهل أوروبا جهلا تاما وكان يجهل أصلا الطرق والاساليب السياسية الغربية . فصاعت منه الفرصة السانحة وكلت مالبت وكوثر قد عرسا الخوف في قلوب القاصل

وفي الوقت الذي كانا يكلماه فيه بالمحافظة على النظام في الاسكندرية كانا يهينان صربها بالاسطول . ومن ذلك الوقت رال الامل في تسوية المسألة بالوسائل السلمية .  
حدث بين عرابي وبين سير بوشامب سيمور قائد الاسطول مشاجرة تشبه ما يقع بين الدئب والحل . وكان الدافع اليها ان خادم سير سيمور وهو رجل يدعى مستراكت . قتل في الاضطراب . فاراد سير سيمور ان ينتقم من الاسكندريين لقتل خادمه بصرب الاسكندرية ولو كان في الميدان رجل أقوى من عرابي لاستطاع الخروج من هذه الأزمة . ولكن عرابي لم يكن يزيد عن أن يكون فلاحا متفوقا له عدة أسكار قليلة حلياة فكان يصيه العشل . ولكنه مع ذلك لا يستحق الثوم الذي اتاه عليه بنوطه . فانه لم يستطع أحد منهم أن يفعل شيئا يفصله (١)

ولنرجع الى المذكرات :

« ٣ ريو — كنت بورادة الخارجية ضيقا عند ليدي حرافيل وكان جميع السياسيين هناك . وكان جميع المتصلين بالوزارة مرحون ويدشون . وقد تكلمت عن الحالة مع ولسلي ورولتسون والسفير الأمريكي « لوبل » وغيرهم . وتحدثت أيضا مع سير الكسندر واليدى مالت على الرعم من الشجار الناشب بيني وبين انهما . فكانا يحدثانني ببشاشة ولطف . ويظهر على الجميع أنهم قد تمسوا الصعداء . لتأجيل الازمة المصرية . ولكن ولسلي يقول لي ان السلطان رفض أن يشترك في مؤتمر . وكان ابن عم الخديو وهو رجل صميم يدعى عثمان باشا احد الضيوف .

(١) المرجح ان الذي منع عرابي من محاكمة عمر لطفي هو أولا اضطراره الى وقوفه الى صفه باعتباره مسلما مثله في شجار مع عبر مسلمين . والثاني انه كان هناك شبيهة بتواطؤ الخديو معه . وكان لا يرغب أن يدخل في شجار مع توفيق في ذلك الوقت لانه مضي وقت طويل على تصالاه معه . وكان قد اقصم منذ أيام قليلة أن يحافظ على حياته كما يحافظ على نفسه . ففضل أن يلقي الثوم على كوكسون وسينادينو وهما بلا شك يستحقان الثوم . وهذا طاهر من خطابات صابونجي ووثائق أخرى ملحقه بهذا الكتاب .

« كن حاضراً أيضاً ولي العهد وأمرأه آخرون وبما أدهشني تلك المشاة التي وجدتني  
في هنري ستانلي . فقد قال انه يحب شديد الإعجاب بعراي لأنه يصر الإيمان  
بأنه يستحق الترقية وإن يسقى هو وتوفيق في التماهرة . وبما انه يمثل في أقواله  
هذه آراء الاستانة فقد اطعمت من هذه الساحة . فدا لم تطرأ حوادث جديدة  
لنحوز لنا » .

وهذه الإشارة الأخيرة عن لورد ستانلي ذات أهمية . فإنه كان صديقاً حميماً  
لي قديماً . ولكما كنا نختلف في الرأي عن المسألة المصرية وسبب الاختلاف  
هو هذا :-

فقد كان مزمعاً طويلاً ملحقاً بسفارتنا في الاستانة وهالك تشيع بمصر الأتراك  
وكان حب الأتراك في ذلك الوقت نزعاً فاشية بين الإنجليز . وفي سنة ١٨٩٠ كان  
قد سافر إلى الهند الشرقية فآمن بالاسلام . وقد عرفته بطريقة غريبة في ذلك الوقت  
فقد كنت مسافراً إلى إنجلترا عن طريق أثينا والاستانة ونزلت في نهر الدانوب في  
أحدى البواخر . فلما وصلنا إلى إحدى مواقي رومانيا نزل إلى الباخرة عائلة أمير مر.  
أمرأه الفلاح وبصحبها الإنجليزي شاد الهيئة سادج القباس ظننته أولاً مرئى الصبيان  
أو سكرتير رب العائلة . ودامت سياحنا عدة أيام فصادفت هذا السائح وقد لذي  
وقتنه معرفته الواسعة بالشرق ولكه لم يخبرني عن أمته . وعند ما وصلنا إلى فينا  
اقترح على أن يذهب معي إلى دار السفارة .

وهالك تحققت من شخصيته وسافرنا من هناك إلى مونيخ حيث كان أخوه  
ليولف ستانلي يتعلم الألمانية . ومن ذلك الوقت عرفته حق المعرفة وانهمز  
هذه الفرصة الآن لكي أقول انه على الرغم من اطواره القريصة كان رجلاً شريفاً  
بعيداً عن الانانية .

وكان باعتباره مسلماً شديد الحماسة والعطف علي آرائى ولكه لم يكن  
يوافقني على تفضيل العرب علي الأتراك الذين كان يرى فيهم قادة الاسلام .  
وكان وهو في لندن على اتصال دائم بالسفارة العثمانية . ولذلك فربأه عن علاقة

السلطان مرابي في الوقت الذي كانت تروج فيه اشاعة ارسال بعثة درويش له قيمة تاريخية عظيمة .

واليك ما كتبت في مذكراتي بهذا الصدد :

« ٤ يونيو — في كرايت يوم الاحد . وهو أول يوم لم نضكر فيه بمصر بعد اسابيع عديدة كثر فيها اشتعالى بهذا الموضوع . وأظن ان المسألة قد سويت الآن وقد لعبت التمس سد الطهر وانا فرح . ولكن الحسو مديعاً وزارنا وتورث ونوبل وفرانك لاسل وهنرى وكور ومولوني وآخرون .

« ٥ يونيو — عدت الى لندن . . تقول ليدى جريجورى انهم الآن غير مرتاحين الى سلوك كولفن ويقولون انه غير موافق لمركزه في مصر . وقائل هذا هو اللورد نوبل تيروك . ولكن لورد جرايفيل قد ارسل الى سير ويليام جريجورى يستشير في موضوع مصر » .

وعما يلاحظ ان ليدى جريجورى قد بقيت على عهدها الاول موالية للقضية الوطنية بخلاف زوجها . وقد خدم كلاهما عرابي بعد ذلك وبخاصة في وقت المحاكاة وكانت صحف لندن قد بدأن يهتم بمصر ويكتب عنها بشي من المعرفة وأرسل أكثرهم مكانين خصوصيين في القاهرة والاسكندرية . وكان من بين هؤلاء مكاتب الديلي تلغراف الذي انتصر لمرابي بشدة .

« ٦ يونيو — جريدة الديلي نيوز نهى، نفسها منذ الآن لأن تدعو الى العودة الى الحالة التي كانت قبل ارسال البلاغ الاخير . والارجح ان اكثر الجرائد سيسير وراءها في القول بهذه الخطوة بل جميع الجرائد ما عدا التيس والبال مال التيس قد وعظا عن الحق فأبنا أن تعظا . وليس لأرى العام الانجليزى قيمة الآن . . . تحدثت مع لاسل بمحادثة طويلة وأرجو أن أكون قد جعلته في صف مصر . وفي المساء كنت راكبا مع برنارد كراى وقد تطوع ان يراهن على انه لن نخسر خمسة عشر يوما حتى يكون قد اتبعى عرابي واهرم .

« ملاحظة : برنارد هو شقيق فيليب كرى احد اصحاب المصارف وهو أيضاً من انصار غلادستون المتصلين به . ورأيه هو بلا شك رأى رئيس الوزارة »



٧ يونيو — زارتني ليدى جريجورى وأنضت الى بحبة أخبار . فأخبرتني .  
لورد جرانفيل قد قال لزوجها ان آمالم معلقة على مئة درويش . ومما قاله لورد  
جرانفيل ان درويشاً عديم الدمة والشرف ويستخلص من عراي بطريقة ما وأظن  
هذه الطريقة هي الرشوة (١) ويظهر ان لورد جرانفيل قد ألمع الى غير ذلك فقد  
يكون طريقة التخلص بواسطة فتجان قهوة ولكني لست أخشي هذا . لان غرض  
سلطان لا يرمي الى قتل عراي بل الى حفظه بالاستئانة رهية . ومع ذلك فأنا في  
ند الاثنياق لان يصل صابونجي . ولا يزال يساورني الشك بأنهم لمعرفتهم بصلته في  
سيمون نزوله الى الاسكندرية . وقد كتب الى رقة وهو في القطار زاد فيها بعض  
علامات ليستعملها في الاصطلاحات التلغرافية التي اتفقنا عليها وهي علامات  
مصححة . ثم قابلت جريجورى وقد أعاد على جميع ما قالته لي روجه . وهو يظن  
نه يجب استدعاء كولفن وماليت .

وقد كتب بيمروك الى برلين يقول له أن حق وراوة الخارجية على لاحد له .  
ولكن هذا لا يهمني . . . التقيت بأوسنين لي في النادي فسألني عن آخر ما وصل  
من الانباء من مصر ولى هذا هو سكرتير ذلك . فقلت له انه بلغني انكم منرسلون  
الى مصر عدلا من الملح لتعلقوه في ذنب عراي . فأجبتني علي الفور قائلا : كلا .  
فان الملح يستعمل في تعليقه . وقد ركبت في المساء مع سيريل فلور وقد تزوج من  
أسرة روتشيلد فنصحت له بأن يبيع اسمه المصرية . وتناولت العشاء مع برترام  
فكان أرق من قبل . فهو يؤمن بفلاستون ويعتقد ان أولدا ستحصل على الاستقلال  
الداني . ومما قاله ابن غلادستون يتقدم الزمن الحاضر بجمل فبعد مضي عشرين  
سنة سنؤمن بقيمة الاهام بمائتنا .

---

(١) اجد في المذكرات عن سنة ١٨٨٨ مايلي :

« القاهرة في ٢٢ ديسمبر — تناولت الغداء مع زير ماشا وقال انه حضر  
محادثة بينه وبين درويش باشا فعرض عليه درويش ان يذهب الى الاستانة بمرتب  
شهري قدره ٢٥٠ جنيه . فأجابه عراي بأنه لو رضي هو نفسه لوقف بينه وبين السفينة  
عشرة آلاف شخص لمنعهم من السفر »

« وقد كتب فريدريك هاريسون محتج على تدخلها في مصر . وكان مقاله شديد الاهجة وقد نشر في البال مال تحت عنوان : المال . أيها السادة . المال » وقد توالى الخطابات على أثر هذا المقال . وقد أسعت كثيراً على عدم معرفتي بالكتاب قبل الآن فهو أعقل وأشجع من يكتب في المسائل الخارجية في حزب الاحرار وأقوي المؤلفين الذين ينشرون الرسائل السياسية ولو كنت قد لقينته منذ شهر أو شهرين لما حصلت الحرب لانه وان لم يكن في البرلمان قد كان ذا نفوذ عظيم بين الاحرار . ومما يزيد سوء المظالم لم يكن في الحزب أحد ذو مكانة ذهنية في هذا الصنف باستثناء فريدريك هاريسون . لان الجميع كانوا متقيدين بالوظائف ...

« ذهبت الى ليدي سولزرى مدعوا في سهرة . وتحدثت مع ملتون وكان الاستياء باديا عليه بشأن أعمال في المسألة المصرية وذكر تلغرافاني فلم يتكلم عنها بآداب . وتحدثت أيضاً مع ستراتشر فقال لي انه يود ان يذهب بعشرة آلاف جدي لكي يشق عرابي . وحرى بيبي وبين عثمان باشا وكامل باشا أبي عم الخديو حديث في غير السياسة ... وقد وصلت بعثة السلطان الى مصر »

« ٨ يونيو — وصل تلغراف من صابونجي يقول فيه انه قد صرح له بالمرور في الاسكندرية وبذلك زال غنى هي . وهو يقول ان البعثة التركية قد سافرت الى القاهرة ... ويرفض هاري براند أن يزورنا في كرايت حتى يرى ما تنتهي اليه الحال في القاهرة . وأخشى ضياع امواله في مصر فان جل ما يملكه فيها

« ٩ يونيو — كتب فريدريك هاريسون خطابا آخر في البال مال . وقد كتبت اليه اقترح عليه أن أطلعه على مكتباني مع ستر غلادستون . وزرت جريجوري . وقد قبولت البعثة بالترحيب والتهليل في القاهرة وظلي أنف الناس هناك يتناولون بإيجاد نسوية . وكتب الى صابونجي يخبرني بالتلغراف أن عرابي قد أعلن انه سيقول المجنود التركية اذا انزلت في سواحل مصر . وهو لا يزال في الاسكندرية وهذا يقلقني لانه ينبغي أن يكون في القاهرة الان . وتناولت العشاء في منزل وتورث لكي اقابل سير مارتل فرير وهو رجل حلوا لسان دكي الفؤاد »

« ١٠ يونيو — تناولت الغداء مع ستر حرين وزوجته وهما يعطلمان على مصر

كثيراً — والاحظ هنا ان متر جرس هذا هو المؤرخ المعروف . وكانت سخته قد تضمضت في ذلك الوقت واني أذكر الآن عطشه على وعلى القضية التي كنت اذافع عنها . وكانت وفاته حسارة كبرى لجميع الذين يدركون قيمة سياسة البيرة .

« لقد ابتدأ القلق يفتريني هذه الايام عن الحالة بعد مضي اسبوعين وأنا مرتاح البال . وتقول صحف المساء أن درويشاً قد نجح وذلك بأن « اشترى » جزءاً كبيراً من الجيش وأنه يطالب عرابي بأن يذعن له . فإذا لم يصد له عرابي فإن كل شيء يذهب سدي . وبعد تفكير طويل قرأني على أن ارسل هذا التلغراف الي صابونجي . الساعة ٧ مساءً . « اقبضوا على البيعة . لا تخشوا أحداً الا الله » وبعض هذا التلغراف أرسل بالارقام . ولكني أخشى أن لا يكون قد ذهب صابونجي الى القاهرة . والا فلماذا لا يرسلني . هل حدث له ما يمنعه ؟ ... تناولنا العشاء عند ليولف ستانلي وكلن معنا آخرون منهم رابط . وكان كلامه عن مصر كله مروءة وقد انضبت اليه ببعض الحديث وأطه كلن مناسباً . وصرحت له بجملة ما عندي والمسألة الآن تتوقف على مقدار الحرامة التي عند أعضاء الحزب الوطني . وأظن أن أوامر درويش كلن القصد منها سبر عور الحزب من هذه الناحية فإذا وجد منهم مراساً شديداً عضدتم . وهو لو استطاع لسحقهم على أيدي الشراكة ولكني أرجو أن يستقوه أو على الأقل يخيفوه فان السلطان لا يجرؤ على اتحاد الحركة بالعنف .

١١ يونيو — سافرت في قطار الصباح الى كرايت وقد كنت قلقاً ثلثا أبجد في الجرائد خبراً عن حدوث انقلاب . ولكن اليزرفر تقول انه لم يجد شيء . وتذكر الجرائد بعض الحكايات عن كبرياء درويش وتفطرسه نحو العلماء . ولكن لا أهمية لهذا . . . في الساعة الثانية جاء اليها الامير عثمان والامير كامل وابن عمها — وفيههما عارف بك ودليلهما الانجليزي وهو رجل يدعى بليرير لكي يروا خيولنا وبينما كنا نريهم الخيول جاءني تلغراف من صابونجي هذا نصه :

« القاهرة في ١٠ يونيو الساعة ١٢ — تحدثت مع عرابي . البرلمان والازهر

والجيش يعضدونه الاسطانا ماشا وشيخ الاسلام والامة قد قرأها على خلع  
الحديو . والباب العالي لا يميل الى مقترحات أوربا . وعراى يلج على انه لن يتفر  
السلام حتى يخرج كولس وماليت وهو سيقاوم هجوم الاراك ولى يسافر الى  
الاستانة . عين الشيخ عليش شيخاً للادهر . قرر الباب العالي خلع الحديو . ماليت  
يلج على البعثة بان تقبل مقترحات أوربا . خطب عبدالله مديم في عشرة آلاف مس  
قدم هذه المقترحات وطس في الحديو « ولو كان ابا عم الحديو قد قرأ هذا  
التلغراف لما استطاع أن يتفدىا . وقد ناقشا في الموضوع ووسرسل لهم تلغرافاً  
تنصح لهم فيه باعلان الجمهورية في حالة خلع الحديو . وقد رال عى المهم الآن  
لوجود صابونجي بينهم »

واني فيما قلته هنا عن الأمير عثمان وكامل لم أقل كل الحق . فانها لم يكن  
يحسن توفيقاً وكان أبوها مصطفى قد طرد من مصر وأخذ اسماعيل أكثر أملاكه  
وكانا هما على شيء كبير من الوطنية . وقد برها على ذلك مدة الحرب اذ  
ينتصران لعراى . وقد قدمت أختها الأميرة نارلى مساعدة كبرى لعراى وف  
محاكمته . وكان عارف بك رجلاً ذا كفاة ولكن كرديا فيه شيء من الدم العرب  
وكان حاصله على تربية راقية وله مزايا عليا وقد صار بعد ذلك سكرتير محتار باش  
في القاهرة وكان يحرر مجلة أدبية ولكنه انغمس بعد ذلك في الدسائس واختفى  
أما الشخص الرابع فكان تركياً متفرنجياً من رجال ملاط السلطان ولم أر اسمه في  
المذكرات . وقد أخذنا في الحديث عن السياسة الشرقية وقت الفداء وان لم نذكر  
عن مصر . وكان كلامنا عن الجامعة الاسلامية والأمل في طرد انجليترا وفرنسا من  
شمالى أفريقيا.

وبحسن بيها أن أثبت خطأنا أوسطه الى صابونجي في التاسع من الشهر  
وخطاباً آخر أرسله هو إلى يوم ١١ يونيه .

« شارع جيمس رقم ١٠ »

« ٩ يونيه سنة ١٨٨٢ »

« ان تلمزناكم الذى نحربونى فيه عن وصولكم للقطر المصرى قد أراح نال  
 س. وأردحو أن تكون قد سافرت الى القاهرة والتقيت بأصحابنا وأطل أن  
 من ما يصوبه الآن أن يحمى علاقتهم مع رجال البعثة. ولكن يجب عليهم  
 أن يأتوا حاسبهم لأنى أعرف أن أعداء مصر يعلقون آمالاً عظيماً على درويش  
 شلوه رجلاً عديم الدمة والشرف فى كيفية معاملته للتأثرين. فأنهم سيحاولون  
 بكل قوتهم أن يفلوا عرابى الى الاستانة. ولكن يجب ألا يفعل ذلك. وسيغروه  
 يحاولون إرشاءه ويقولون له ان الغاية من سفره صلاح البلاد. فلا يفترون بهذه  
 الأقوال. ومن المكس أنهم يحاولون القرض عليه أو دس السم له وان كنت  
 ترجح هذا. ولكمهم اذ ادأوا انه ثابت لا يتزعزع أمامهم وان الأمة من ورائه  
 معه فأنهم لن يتشاوروا معه ويصيحى الوحيدة له هي أن يخضع لتوفيق باعتباره  
 فى السلطان على شريطة أن يبقى ودرراً للحرية. فاذا قبل ذلك لم يعد لدى  
 حكومة الفرنسة أو الانجليزية مجال للشكيرة معه واذا اجتمع المؤتمرون الاوربي فانه  
 يشير بالتدخل. وأنا متأكد بأن حكومتنا لن تلج على تنفيذ شروط البلاغ  
 الأخير بخصوص عرابى من البلاد. ولكن الحكومتين الانجليزية والفرنسية  
 مصطرتان الى تعضيد توفيق باعتباره حاكم مصر الاسمي. فعلى عرابى أن يحتفظ  
 مركزه بحيث يصير الحاكم الحقيقى للبلاد. والناس هنا ساحطون على ولكنى  
 لا أعيا بذلك ما دامت مصر تنال حريتها ».

وهناك خطاباً أرسله الى صابونجي من القاهرة يوم حدوث الاضطراب فى  
 الاسكندرية ولكن قبل أن يسلّم به :

القاهرة فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

عند وصولى ذهبت الى عرابى ومحمود سامي وغيرهما من أعضاء الحزب. وقد  
 قالونى بحماسة وسألونى عنكم. وقال لي محمد عبده انه قد بلغه أن بعضهم قد نصح  
 لك بأن لا تنجى الى مصر. وقد غرني عرابى بالسرور والطرب عند ما رأيته.  
 وقبل وصولى لأسبوع خطب فى اجتماع وقرأ خطاباً مني أصبح له فيه بالاتحاد...  
 أما الحالة فعلى كما يلى :

لقد أخبرتك في تلغرافاتي عن جميع ما حدث من قبيل استكشاف المؤامرة الشريكية إلى هذا اليوم . وقد أصدر الشيخ عليش شيخ الجامع الأزهر فتوى قال فيها بما أن الخديو قد حاول أن يبيع البلاد للأحباب وأطاع اشارات قاصل أورده فإنه لم يعد يصلح لأن يكون والياً على المسلمين المصريين ويجب لذلك خلع . وقد قبل جميع علماء الأزهر هذه الفتوى وركوها لأنها صادرة من رجل هو زعيمه الروحاني . وقد ذهب الشيخ محمد خضير ومعه ٢٢ من الاعيان إلى درويش باشا وقدموا له عريضة وقم عليها عشرة آلاف نفس طلبوا بها منه أن يرفض طلبات الدول ويخلع الخديو . وفي مصر ١٤ مديرية ومع ذلك فليس بها سوى ثلاثة مدبرين يكرهون عرابي . أما الفلاحون أقباطاً ومسلمين فجميعهم في صف عرابي ينصرونه . أما الابائي شيخ الاسلام فإنه قد وقف على الحياد وذلك لحوفه من الخديو ومن الحرب الوطني ولا يتدخل في السياسة متعللاً بسوء صحته . وقد أخذوا عرابي بأنه لن يخضع لأوربا أو تركيا وقال لي : « فلنسلوا لنا حيوشاً أوروية » . هدية أو تركية فاني ما دمت وبني رفق فاني سأدافع عن بلادى وعد ما عوت جميعهم يمكنهم أن يمتلكوا البلاد وهي خراب وحسناً لحر الدفاع عن الوطن . وليس هذا فقط فان حرباً دينية تنفست في أثر الحرب السياسية وتعة ذلك تقع على الذين يثيرون الحرب الآن .

هو مصمم على المقاومة ولن يذهب إلى الاستانة واكثرية الامة تؤيده . فليس بين الأعضاء من يعارضه سوى تسعة فقط . وقد تركه سلطان باشا وانضم لمح الخديو لأنه خاف من ماليت ومن الاسطول . وجميع المصريين ينظرون إليه ولم الخديو كأنها خاتمان . وحال من المديريات مندوبيون يطالبون خلع الخديو ولا يمكن أن يقال أن عرابي قد أجبرهم على ذلك . وقد وقع تسعون ألفاً العرائض يطالبون من درويش رفض طلبات أوربا واقام عرابي في منصبه .

وجميع علماء الأزهر الا الاماني ( امانة ) والقبلي والسادات يؤيدون عرابي وكذلك عبد الرحمن البجراوى وقد عقد اجتماع من عشرة آلاف من في الاسكندرية تحطيم نديم وطلب رفض طلبات اوربا وعدم كفاية الخديو

من يستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد تاريخية لكي يبرهن على صحة ما يقول ويقنع السامعين بصحة حججه . وخطب عرابي أيضاً خطبة حماسية مدد بعظام الأسرة المالكة من عهد محمد علي الى توفيق . وقد تكلمت مع عبده بدم وآخري عن وحب كتابة خطابات رسل لكم بوقتها الاعيان والعلماء والملاحون والتجار لكي يشوا بذلك حقيقة وجود الحركة الوطنية . وقد ائتمنوا معي على أن يعدوا هذه الوثائق في طرف عشرة أيام وسأرسلها لكم .

وقد ظهر لي أناسا كما محطئين في تقدير محمود باشا سامي فان تحدثت معه كثيراً وسألت عه حتى من أعدائه فقلت أنه كان من مديري الحركة الوطنية من عهد اسماعيل . وقد كاند كثيراً من المشاق لاجل آرائه ولكنه لم يتزعزع وكثيرون من الحرب الوطني مثل مدم وعبد بل عرابي معه يعرفون بأنهم مديونون له مساعدته لهم وولائه . وقد أعراه اسماعيل على أن يترك الحزب وعرض عليه المال ولكنه رفض . وهو يصرف جميع ابراده الآن على الحرب ومبرله أشبه شيء بقافلة قد حطت رحالها في الطريق . أما حياته الشخصية فحياة فيلسوف فلا يصرف على نفسه شيئاً وهو قانع راص بما يأتي له من الحظ . وهو ليس رجلاً جاهلاً فانه متصلع في الآداب العربية ويعرفها أكثر من عرابي وكون الأتراك يكرهونه دليل على وطنيته . وسيكتب خطاباً الى اللورد حرافيل لكي يثبت له فيه حقيقة وجود الشعور الوطني في مصر ويصرح فيه بصداقة الوطنيين لاجلتمرا اذ هي نصيرة الحرية وكثيراً ما مدت يدها لاسعاف الام الهاضمة الطامحة الى الحرية . وقد اقترحت عليهم بأن يكتب عرابي والشيخ الامباي خطابات أخرى مماثلة لمسنر غلادستون واللورد حرافيل وتطوعت بترجمتها وارسلها .

وعند ما أشيع بأن السلطان يسوي ارسال درويش لكي يحض عرابي علي قبول بلاغ الدول الأخير سافر بدم الى الاسكندرية وخطب مدة ساعتين في عشرة آلاف نفس مندداً بالبلاغ وحث كل فرد من الموجودين على أن يحتج عليه . وقد قوبل مقترح بدم بالانتهاج . وعند ما ذهب الناس الى منازلهم أخذوا في تعليم زوجاتهم وأطفالهم هذا الاحتجاج وعند ما نزل درويش في الاسكندرية كان الاولاد

يصبحون « اللايحه . اللايحه » قرد الساء قائلات : « مرفوضة . مرفوضة » وقد اعتبر درويش بهذه العبرة ونحول عن موقفه السابق .

أما الشيخ الامامى فانه بعد أن تظاهر بالعداء للحزب الوطنى لأنه أعلن رصاءه عن حلع الحديو عاد الآن وعقد الصلح بينه وبين الاعضاء . ولكن سلطان باشا قد خيب رجاء الجميع . فانه يصبر الحديو على غير هدي وذلك لحوفه من التدخل الاجنبى ولأنه قد أكد له مائيت بأن عرابى لن يبقى فى منصبه . وهكذا وقع سلطان فى الشرك الذى نصب قلا لشرىف . وهو الآن غير محبوب ولم يفده انقلابه هذا أدنى فائدة .

وحدثت أمس حادثة عرية فانه عند ما طلب درويش العلماء واستشارهم فى أحسن الوسائل للحصول على صلح شريف وحد الجميع كانوا فى صف الحزب الوطنى ولم يجد فى صف الحديو سوى اثنين .

فاعتاط درويش من ذلك وفص الاجتماع وقيل بالأسامة الاثنين المشفقين وهم البحر اوى والايارى . فلما علمت النتيجة وذكرتها الخرائد حدث فى الازهر حركة شبيهة بالثورة . وقد حصرت عدة اجتماعات للعلماء ولغيرهم وكان الغضب فى جميع شديداً . وكان المتكلمون يكثرون من ذكر القرآن والحديث ويثبتون معها ان توفيقاً لا يصلح أبى يكون والياً على أمة اسلامية . ولم يكتفوا بمقد الاجتماعات الخاصة بل قرروا أن ينفذوا اجتماعاً عاماً فى الازهر احتجاجاً على الاهانة التى لحقت بهم . وعقد الاجتماع بالفعل فى الازهر حيث تقام الصلاة وطلب من دعيه أن يخطب الحاضرين وكانوا يزيدون على أربعة آلاف نفس . وليس عندى من الوقت ما يسمح لى بوصف التأثير الذى أحدثته خطبة بديم . فقد سمعت أنت نبرة وتعرف كيف يشتاق الناس الى سماعه وإلى أى حد يتأثرون من فصاحته

صا بنجى



## الفصل الرابع عشر

توسلاتي الى غلادستون

هكذا كان شعور الوطنيين في دوائرهم الخاصة في القاهرة عند ما حدث اضطراب  
.سكندرية . وفي اليوم التالي قمت الى لندن وأنا مبتهج وملي تلهراف صابونجي  
سي أرسله في العاشر من الشهر . وكنت أنوي أن أريه هاملتون . وأنا في هذه  
حال وإذا بالمرائد تطالغني بأخبار الاضطراب .  
وهالك المذكرات .

١٢ يونيو رعب جديد اضطراب في الاسكندرية جرح فيه كوكسون  
.تمتل ضابط البارجة سيورب وخسون أوستون أودي . وقد أحدث هذا الاضطراب  
هياجاً عظيماً . ولست على يقين فيما اذا كان هذا الاضطراب في مصلحة عرابي أم لا .  
انه سيثبت ان عرابي يملك ناصية الاحوال . هذا اذا لم يكن دسيسة من درويش  
يقصد منها ان يسافر عرابي الى الاسكندرية فيقبض عليه هناك . ذهبت الي هاملتون  
وأخبرته بان تحت يدي مستندات تدل على ان عرابي يحكم البلاد وان توفيقاً  
معرض لخطر الخلع بالنسبة لشعور الجمهور بحبه واحم اذا لم يكونوا يعرفون ان يلدجأوا  
الى العنف في حل المسألة فعليهم أن يسارعوا الى الاتفاق معه . فوعدني بان يقول  
لغلادستون جميع ما أخبرته به . وظاهر لي الآن انهم مستعدون لان يقبلوا أي  
نسبة مادام توفيق يبق جالساً على العرش .

« ذهبت الى مجلس العموم . وذهب هاري براند الي أبيه رئيس المجلس  
وقال له ان « الثائر بلس » يطلب مذكرة لكي يدخل احدى شرف المجلس . فقال  
أبوه « انه لا يستحق » ولكنه أعطاه واحدة . وكان ذلك يجيب عن أسئلة متنوعة  
عن مصر وهو يوم ان درويشاً والحديث لا يحدد الآن ما يعارضها . وقد أرغمني  
هذا الكلام . وهناك اشاعة بان عرابي ودرويشاً قد سافرا الى الاسكندرية ( وقد  
ظهر ان الاشاعة كاذبة ) وأحس الحيانة الآن . وقد أرسل لي صابونجي التلهراف  
التالي : « ردت عرابي وسلته رسائلك . والهدوء شامل . خطب عبد الله بديم في

أربعة آلاف في الارهر حمل على العنة التريكو والحديد . وقد صحبت العنة مقترحات أوروبا واني أوصل قرب السلام الآن . وشرأكة يدسون الدسائس . وعاد شيخ الاسلام الى الحرب الوطني اما سلطان باشا فلم يفعل ذلك الى الآن . الاضطراب لا أهمية له » .

وقد وضعت رداً على هذا التعريف وأنا بالقطار وأرسلته من تزي بردجس وهذا نصه « درويش يريد سوءاً . فهو يريد ان يرشي عراني أو يفتاله . اعتقدوا اجتماعاً كبيراً برئاسة ديم وعبيد وعلما الازهر يكون فيه نحو مائة ألف نفس واطلبوا خروج درويش من القطر فاداً لم يخضع لهذا فاقصوا عليه بالوليس واعدوه . وانفقوا مع الحديد ولا تعاكوا اتصال . وليكن نديم المتدنى هذا العمل اما عراني والحيش فيجب ان يحيا على الخيال .

« قبل أن أرحل لادن التفتت بقردريك هاريسون ونحدثت معه عن مصر وكان قد كتب مقالاً آخر في البال مال عن هذا الموضوع . عرضت عليه خطاباً في المسر علاستون وستكون معونه لنا ذات قيمة . وعد ما كسا على وشك مبارحة شارع فليت اندفعت اليها ليدى ماليت وأحدث تسألني عن حقيقة ما فعلت في مصر . فأجبرتها بكل شيء تقريباً . فقالت ان شرفي عرصة للحظر اذا لم أرى نصي من نعمة الدس لوطي والسكيد له . ثم توسلت الى ان أهدى الخالة هناك وقد وعدتها بأني سأرسل لعراني خطاباً أطلب فيه منه ان لا يمس شعرة من رأس ابها . وسأكتب وفي البريد المسافر غداً اما اليوم فان التعريف يعني . ولا اعتقد ان هناك أقل حظاً على ابها مسكية ليدى ماليت ابني لاشفق عليها . فقد أخبرني ان الناس يقولون بانى أنا ومستر علاستون نتآمر على احباط سياسة ابها في مصر . فأكدت لها هو علاستون عبر مسئول عن تلفراتي وأنا وحدي متحمل هذه المسؤولية . وقد جعلتني أعدها بان أرورها ولكنها تنظر الى كما تنظر الى القنلة » .

« ١٣ يونيو — كنت قلقاً طول الليل انتظر حرق القمض على عراني أو اغتياله ولكن اصحبت تقول ان كل شيء الآن في قبضة يده . والحديد يشكل الآن

ورادة سيكون فيها عراقي ودير حرية كما هو الآن . وليس عليهم إلا أن يعدوا درويشاً وكل شيء عندئذ يسير سيراً حسناً .

هذا ما كانت تقوله جرائد لندن ولم يكن بحالها في ذلك سوى البال مال التي كانت تعتقد أن المسألة لم تسو بعد . وهي تكتب بإعزاز من ودارة الخارجية التي لا برضي موظفوها بأي تسوية تترك مقابلد الأمور في يد احرب الوطنى . وهذا ما يقوله مورلى . « من الصعب أن يخطئ الانسان هذا الخطأ الذي وقع فيه محرر التيمس هذا الصباح عند ما يعتقد ان التسوية المؤقتة التي تمت بين الحدود و درويش وعراقي والفاصل هي تسوية نهائية للمسألة المصرية . فان المباح في مصر قد بلغ من الشدة درجة صار فيها لا يؤمن على حياة الاوروبيين وليس في البلاد قوة تستطيع صط الرعاع سوى الجيش . وهذا الجيش في يد عراقي فالخاتمة تصطرنا الآن الى استخدام عراقي لمنع المدايح . ولكن كون درويش تلقى مسنوية الطام على رأس عراقي هذا لا يبعثه من التعميم على اقرار الحال الراية كما ان اتفاق فرنسا واحتلوا مع عراقي انما كان اساسه الاحكام عليه بان يستعمل حدوده في احكام الاضطراب في الامكنة المصرية . »

ولسكا حذعنا نحن في احتلوا كما خدع عراقي في القاهرة هذا الاتفاق الذي عقده مالت وكولفس وكانت ينتها القدر والحياة . فتعهد عراقي لتوفيق واقسم له شرفه أن يحمي كما يحمي نفسه معها حدث واستعمل الحدود هذا التعهد لمصلحته مع انه كان لا يصبر في قلبه سوى القدر عراقي .

وهاك ما أحده في مذكراتي عن ذلك اليوم : « أخبرني باتون اس ان روتشيلد قد عرض على عراقي ان يدفع له اربعة آلاف جنيه في العام اذا رضى بأن يخرج من القطر المصري (١) . . . وعند ما ذهبت الي لندن تسلمت هذا التفراق :

---

(١) أخبرني عراقي بعد ذلك بمدة سين انه لم يسمع بأن روتشيلد قد عرض معاشاً لكي يعطيه له اذا خرج من مصر . ولكنه قال لي انه بعد ارسال البلاع الاخير راره الفصل العرسى وسأله عن قيمة مرتبه الشهري ثم أخبره بأنه

« القاهرة في ١٢ يونيو — كنت في زيارة عراقى وهو برسل لك نسلجانه ويطان ان مقترحات اوربا لم بعد لها أهمية وان الصلح قد تم . وقد سافر درويش . وروح الحديبو القاهرة الى الاسكندرية وكان عراقى بشيعة بدراعه . والحرب الوطني في انتصار وقد اشتغلت بمعد ولكي سمحت » وقد كادت دموى تسقط من الفرح عند قراءة هذا التلغراف فأخذته وذهبت به نواً الى منزل رئيس الوزارة وأجبرت هامتون وسيمور بما حدث . وتبين لى انهما يطان ان غلادستون في هذه الساعة الاخيرة سبري غلطة ويصالح عراقى . واثون بطل ان هذا ممكن أبصاً . ولكن وزارة الخارجية ستتصلب تضيف في المنزل ثم ذهبت الى حملة ساهرة في وزارة البحرية فوجدت هناك حريمجوى وسير جولده سمث فتحدثت مع اللورد نورثبروك عن مصر . وقد صرحت له بكل شىء تقريباً . وقلت له : « انت كل شىء . يتوقف عليك الآن . فأنت صاحب الامر والكلمة فيما اذا كانت ستفك دماء في مصر أم لا » .

« ١٤ يونيو — لقد نصبت حدا . التقيت عزيز هوارد في البستان فقالت لي انى قد تغيرت والحقيقة ان مصر تساورى مد الازمة سواء كنت ناعماً أم مستيقظاً قضيت الصباح وتناولت طعام العطور مع جولده سمث الذى سيسافر هذه الليلة الى الاستانة في مهمة خاصة وقد رودنه نارائى وعرضت عليه جميع مكاتباتى مع مستر غلادستون .

مستعد ان يدفع له ضعفي هذا المرتب أى خمسمائة جنيه في الشهر اذا خرج من مصر وأقام في باريس فتعامله الحكومة الفرنسية كما تعامل الامير عبد القادر . فأنى ورفض أن يتكلم في الموضوع قائلاً ان الواجب بقضى عليه أن يقاتل ويموت من أجل بلاده لا ان يتركها . وقد وجدت عندي هذه المحادثة ولكنها غير مؤرخة . وفي ١٨ مايو قالت جريدة الببال مال :

« يقال ان عراقى ينكر في زيارة اوربا لان صحته ليست على ما يحب . وهذا قصد حسن ولن يحدث ضرر ما اذا منح مبلغاً كبيراً لمصاريفه على شرط أن لا يعود لبلاده »

(ملاحظة - هذا الخبرال حولد سمد عين بعد ذلك رئيساً لمكتب الاحبار  
سريعة في حبش واسلى . وهو رجل ماعم اللسان كنت عرفته منذ عام في القاهرة )  
« تنفيذ مع لاسل وهو حسب ما يظهر منه بواقى على آرائى عن مصر »  
( وقد فكر بعضهم في ودارة الخارجية في ارسال لاسل هذا الى القاهرة بدل  
- بيت لانه كان قد سبق له معرفة مصر ولو انه عهدت اليه مهمة الاتفاق والصلح  
تد ما أحسن قيام . ولكن لسوء الحظ لم يقرر هذا التعيين )

« في الديلي لتفراف اليوم ما يشت أقوال صابونجي أما الحرائد الأخرى  
جعتران سفر درويش والحديدو الى الاسكندرية يقصد مه رد النظام الى نصابه . ويقال  
ن درويش جمع ١٢٠٠٠ حدى وسيزحف بهم على عرايى الذى ليس له نصير الآن  
في القاهرة . وأرسلت الى عرايى هذا التفراف : « احمدا الله على هذا النصر »

« وكان هذا آخر أدوار الكماح الذى كست أ كالج فيه كوفن لكي تنخب  
احرب وكنت الى الآن متصراً أما بعد هذا فلم أوفق لانتصار . وكان الذى جعل  
علاستون ينتهى الى قرار وخطة معينة هو احتجاج بعض البلدان الصناعية في شمالي  
انجلترا على توائيه في معالجة المسألة المصرية وان هذا التوائى عاد بالصرر على مصالح  
هذه البلدان التجارية وكان هذا الاحتجاج يستعمله تشمران للضغط والتأثير على  
علاستون وكان ذلك يحرزه من وراء ذلك »

« ١٥ يونيو - أتى قلق على الحالة في الاسكندرية ولكى أظن ان عرايى  
يثق برجاله هناك . قالت المجرة اليها متواصلة وكذلك الحال في القاهرة . وما  
يرجع بالى أن ماليت غادر القاهرة ودرويش لا يزال بالاسكندرية وهو والحديدو  
يقبان في قصر رأس التين تحت حماية مدافع الاسطول . وجاء تلفراف آخر من  
صابونجي يقول فيه : « كثرت الوسوس حول سفر الحديدو . هاج . نشاط في  
الاستعدادات الحربية . ونديم وعرايى وعبدو يتحدثون الباب العالى علناً . وعرايى  
ساهر يقظ يتكلم باعتدال . حدثت مؤامرة لقتل نديم . وهناك خوف من حدوث  
اضطراب بين الاجانب . ودرويش لا يريد السفر حتى يتسحب الاسطول . ستحلفكم

ماثله ان تستدعوا ماليت فالجميع يستحطون عليه وسيقتلوه اذا استمر » وقد ذهبت الى هامبتون ورحلته ان يطلب من ماليت أن يستقل احدى الوارج، فأجاب ملبي ثم أرسلت الى هامبتون خطاً حذرت فيه الحكومة من الارتكان على الجيوش التركية. ثم بعثت بهذا الرد الى صابونجي : « مدوب تركيا يطلب من الدولة ارسال جيوش لاقطر المصري . وليس من المرجح ان ترسل . ولكن استعدوا . واحمطوا القلالم مها حدث . فان اضطررنا آخر سيقضى على كل شئ . وسيمادر ماليت مصر قريباً . فاصبروا قليلاً » وبعد ذلك ذهبت الى لورد دلاور وتناولت العشاء هناك . وعند رجوعي الى البيت علفت ان مواصلة حط تلغراف القاهرة قطعت وسب ذلك فيما أطل هروب كثة التلغراف وهذا يقلقى بعض القلق »

« ١٦ يونيو - ذهبت الى باتون فوجدته كله رجا، ولكن ايماني في غلادستون قد رال وأطل ان الحكومة الانجليزية اضطوت على انشر الآن . وقد أعطيت كيجان بول أمس مكاناتي مع غلادستون لكي يطبعها حتى تكون مهيئة في حالة حدوث أسوأ ما أنتظره . وقد وصل تلغرافي على الزعم من كل شئ . »

وجاء هذا التلغراف أيضا من صابونجي : « وصل الى ها مندوب حديد بتعليمات غير معروفة . والأمة والخيخ يتشاوران كل يوم في تدير وسائل الدفاع ولا يثقان بالبعثة المردوجة . أحترني عن حطة مستر غلادستون ولورد حرافيل . وعراي ثابت . عطلت جميع الحرائد فلا يصدر سوى الوطن والجريدة الرسمية . العرب مستحوذ على الاجانب وقد شكر الخديو عراي لحفاظته على الأمن . الهدوء شامل . منع نديم من عقد الاجتماعات »

قابلت هامبتون أمس فأخبرني بأنه يحسن أن لا أزوره في منزل رئيس الوزراء . لانه قد قدمت له ملاحظات عن ذلك واذا كان هناك ما يحسم من الاخبار فيحس ان أرسل له كتابا عنها . وقد كتبت اليه خطابا أسأله فيه بيان خطة غلادستون الحقيقية . فخافني الرد وهو غير مرض . وفي سانت جيمس غازت خبر بصدد الامر بإرسال جود لمصر . ذهبت الى كراست وأنا في توتر عصبي شديد . وقد انعقد مجلس الوزراء أمس في عرفة مستر غلادستون الخاصة انعقاداً عاجلاً . فهل كان

تعدد من انعقاده ارسال الجنود لمصر ؟ اني لا اتأكد من الطل بأنهم يريدون تدخل السريع . ولكن يظهر ان الفرنسيين قد تصالحوا مع عراقي .

وأقول هنا أن جميع الدول وإس فرنسا فقط كي راضيات بالاتفاق مع عراقي وصحية ترفيق حفظاً للنظام والأمن . وهناك ما تقوله البائل مال في ١٦ يونيو . « المطنون أن دولتي الوسط ربعيان في الاتفاق مع عراقي على أساس تنازل توفيق ونولية ابنه القاصر مع وجود وصي . وهناك فوائد لا تترك لهذا الاتفاق وان كانت فرنسا وانجلترا معطرتين الى مطاهرة توفيق الذي أطاع فصالحهما وبخاصة نصائح المثل الانجليزى . ومن المقول ان خبة توفيق العملية وهي شخصية وسياسية مما قد أوهمت الدول بضرورة استبدال آخر به » .

وهذه رسالة ماليت المؤرخة في ١٤ يونيو : « ارسال وكيلان النمسا والمجر والمانيا الى حكومتها أن نتيجة التدخل الحربي الاجنبي مالم يكن مصحوباً بمجيوش تركية سيجعل حياة الاوربيين في خطر . وهما بمتران المسألة السياسية ثانوية بالنسبة الى حياة رعاياها . وهما لذلك يؤيدان الرأي القائل يوحوب ترك المسألة في يد الباب العالي وحده ويستقدان ان أصلح الطرق لتحب أهول المصائب أن أخرج أمان البلاد وأن يبرحها كذلك الاسطول »

وقد سمعت أن ماليت كان يقول لاصدقائه أن حياته السياسية قد قصى عليها . فكان نجاحه هو وكولفن يتوقف على إجماع الحرب .

« ١٧ يونيو — قضيت ليلة كلها قلق وأرق . ولكن ليس في جرائد اليوم ما يثبت ارسال الجنود . والسبا صاحبة ولذلك عاد الى انتعاشي . وظاهر أن السلطان لا يجرؤ على ارسال الجنود . وقد اتفق الفرنسيون مع عراقي وهناك الساع الى أن النمسا والمانيا ستفتمان معه أيضاً . فلا أهمية لما تفعله انجلترا بعد ذلك .

كان عندنا في كرايت ابرنجتون . لمجنحتون . فاركار . هامتون . دالاس . كنجركوت . بورك . ولتر سيمور . وقد كذب خبر ارسال الجنود . وكل شيء كما نهوى وقد اتفقتا على أن لا نقول شيئاً عن مصر ولكسنا لا نستطيع ذلك » . « ١٨ يونيو — الاحد وهو عيد وأنزلو . ولم تطهر انجلترا يطهر السحب

والحدود كما تظهر اليوم . وفي وقت الافطار سلمت تلعراقاً مائت راعياً وعراقي  
أما وراة ترضي عنها الدولتان الخربايتان وبركا مسح الآس في طرب شكر الله  
وبحسب بي ها أن أنتت ثلاثة خطابات أرسلها الى صابوحي في تلك الايام  
الاخيرة وهي توضح حالة الوطنيين وما كان يجري في أذهانهم .

القاهرة في ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢

ذرت اليوم عراقي باشا بعد وصول تلعراقك اليه بدقائق قليلة . ولقد تحدثنا  
نحو ساعة ونصف . وسأته عن سبب هذا الرعب المنتشر في البلاد اذا كان قد  
اتفق مع الخديو فقال لي : ( أما عني أنا فاني أعتقد ان الخديو محصل مادام  
يكون بعيداً عن السير ماليت . فانه قد اقتنع الآن أنت ليس في الحكومة رجل  
يستطيع حفظ النظام سوى هذا الرجل الذي يحتقره رجال السياسة الاوربيون احمد  
عراقي . وقد تصالحت أنا والخديو وعهد إلى أمام سنة من عملي الدول الاوردية  
وأمام درويش باشا أن أحافظ على الأمن العام . وقد قلت ذلك وأقسمت أن  
أحافظ على حياته وحياته جميع من يسكن مصر من أي ملة أو أي أمة . وسأقودها  
بعد ما دامت لي السلطة . ولكن اذا كان هذا الصلاح مبنياً على النفس والخذاع .  
فهذا من شؤون الخديو وحده . أما أنا فاني محصل مع كل من يخص لي . فالدس  
بعاملوي بالسكر والنفس أعاملهم بالمثل . فقد علمنا الدهر واسماعيل كيف نفهم  
مكر الانراك ، وكما نستعمل مدافع الترك وأسلحتهم ودخانهم كذلك نستعمل  
مكرهم عندما يضطروننا الى ذلك . فلن نعدي على أحد . ولسكننا سنقاوم كل من  
يحاول الاعتداء علينا . فان أمنا نعرف الاحلاص ونشكر لكل من يأخذ بيدها  
ويساعدها على اصلاح البلاد . فلما نرغب في شيء سوى الاصلاح ( وهما أكد  
هذه اللمعة ) .

قال عراقي : « أما الذين يمدعونا فانهم يمدعونا أشد خداعاً منهم فأوردوا ،  
وخاصة المجرم اسطر اليا كما نطير الى متوحشين وهم يقولون أنهم يقدرون على سحق  
في أربع وعشرين ساعة فليجرؤوا ذلك اذا أرادوا ولكمهم سيفقدون دس الحكومة



في ٨٠ مليون جنيه ودراس الاقاليم ٢٠ مليون جنيه . من أول رخصة انطلق مستحروا من قبود هديس الدين . والامة في هذه الحالة لا ترغب في شيء . اصل من الحرب . وقد سمعت هذا الكلام من عدة اساس والاستعدادات تجري على سابق وقدم . وقد وجدت ذخائر كثيرة وصادق عديدة كان قد حياها اسماعيل عندما كان يسوى أن يستقل عن الباب العالي . وهم يقولون ان هذه الذخائر سندهم في الحرب وقد أخبرهم بأني أوصل أن لا نحصل هذه الحرب وهم يقولون أنهم يستطيعون المقاومة سنوات لان الله قد بارك لهم في حاصلات هذا العام حتى بلغت ضعي ما كانوا يحنونه في السنوات الاعتيادية .

وقد عثمت عود عرابي عن حليم فوجدته يعصل حليما على توفيق ولكنه يقول انه اذا كان توفيق لا يسير وراء مائيت ولا يصحى لاقواله ونصائحه فان الاحوال تستوى ولا يعود هناك مجال للشكاية منه . ورايه أن كולם أضل مائيت وأضر بلاده ضرراً طليماً كما أضر مصر بشرة الاخيار الكاذبة عنها .

في ١٧ يونيو - ذهبت مساء أمس الى منزل شريف باشا حيث كان هناك عرابي ومحمود سامي وعبد العال وعلى فهمي ونديم وهجرسي وكانوا جلوسا يناولون العشاء . فبعد العشاء أخذنا ندخن وتحدثت عن السياسة واذا بصايط قد دخل علينا ومعه خطاب من سيدة انجليزية تطلب حمايتها لان بعضهم نصح لها بمغادرة القاهرة . وقد صار عرابي في نظر السيدات الاوريات طلاقاً وقد ممنعن يدحه حمايته لمن . وعندما يكون في مركبته تتسارع السيدات لرؤيته من النوافذ والشرف . وكلما قابلت أوريباً دعوته الى مناصرة عرابي .

في ١٨ يونيو - في ظهر أمس عندما أعلن بالتلفراف خبر تعيين راغب باشا رئيساً للوزارة ذهبت الى عرابي فقرأ لي تلفرافاً بعث به اليه الخديو يطلب منه فيه ان يتعاون مع راغب باشا باعتباره ( أي عرابي ) وزيراً للحرية . وعندما شربا القهوة كتب رداً يشكر فيه الخديو . وكان الرد غاية في الادب من حيث العبارة . ثم قال لي بعد دقائق . « فلتركب عربية ولنسرى في شوارع المدينة لكي نبعث الثقة في صدور الناس » فركب هو وعلى فهمي في عربة وركبت أما ونديم في أخرى وسرنا في

العجالة تتقدما جنود و نزلنا عند منزل الشيخ الامباري شيخ الاسلام . وقال لي عرابي  
« نعال مصالاعك بطركما » فنزلت معه وعد ما دخلنا وجدنا الشيخ جالسا  
على ديوان قصير فوقه وتقدم عدة خطوات فلم عرابي عليه وقبل يده . أما أنا  
فحييته بهريده فقط . ودعانا الى المجلس فجلسا . وكان معه كثير من علماء  
الازهر وكان ابن الشيخ العروسي أحدهم . وبدأوا بالكلام عن الوزارة الجديدة  
ثم أخذوا في الحديث عن علاقة الشيخ الامباري بالخدوي في الحوادث الاخيرة .  
وقد استطعت أن أعرف من هذا الحديث أن ما أشيع عن وجود فتور بين عرابي  
والامباري لا أصل له . وعندما كنا نشاول القهوة قدمني عرابي اليه وبين له اني  
صديق المستر بلدت فأوضح لي الامباري مسألة التفراف فقال لي انه كتب الرد  
بيده وانه لم يعتذر للخدوي عنه . وهو يعتقد ان ماليت سمع عنه من سلطان باشاؤ من  
أحد أنصار الخديو .

ثم عرض عرابي على الشيخ مشورا بصدد حماية ارواح سكان مصر وأملاكهم  
مهما كانت ديانهم أو قوميتهم ورجاه ان يكتب هو مشورا مشابها له يقول فيه  
باعتباره شيخ الاسلام ان الاسلام لا يجمع المسلم من أدى اليهودى او النصراني فقط  
بل يفرض عليه حمايته لانه في ذمته . فوافق الشيخ الامباري على ذلك ثم قام في  
حضورى وحضور المشايخ الاربعة الآخرين وصلى لله كي يلهيه طريق الصواب في  
اصلاح البلاد ووعد ايضاً بان يساعد عرابي لتقوية روح السلام بين المسلمين وغير  
المسلمين اذ هم في الحقيقة اخوان وان اختلفوا في الايمان

ومن هناك بمننا منزل أرتين بك غيانا وبالغ في التحية ثم مررنا في شارع كاوت  
بك ثم الموسكي وسائر شوارع المدينة وكان الناس يقفون على الجانبين صائحين  
بقولهم : « الله ينصرك »

وفي نهاية هذه الحولة أخبرني عرابي بانه دعى الى منزل السيد حسن موسى المقاد  
لتناول العشاء فاحدني معه وكان بصحته باشوات وضباط ومشايخ وعلماء . وكان  
مرحل هذا السيد على سعته مكتظاً بالضيوف . فكان بينهم عرابي ومحمود سامي  
واحمد باشا وعده ونديم وانا وكما جميعا في الغرفة الكبرى . وكنا نشد الاشعار

في الدنايح والاهاجي وكما سيلي محو راعب ناشا . فطعم عراي مقطعة وانظم  
سما شتين اما بديم فطعم ارساوا كتي سامي ناشين . وعند العشاء حلت الى  
حب عراي . وقدم لنا ثلاثون لونا تقريباً وهذا غير العطاائر والحلوى الاوربية  
والشرقية والفواكه .

وبعد العشاء احدثنا في الحديث عن السياسة وعن انواع الحكومات واسبابها .  
: كان النوع الجمهوري هو المفضل في الحديث . وأحد محمود سامي وهو ذو دكا .  
ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية للبلاد مثل مصر . وبما قاله :  
« لقد كنا نري منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا وعندئذ  
انت نعصم الناس سوريا وبنيها المحار . وكما وحدنا العلماء لم يستعدوا هذه الدعوة  
لهم كانوا متأخرين عن مهمهم . ومع ذلك سنجهد في جعل مصر جمهورية قبل  
ثلاثين عامًا » .

في ١٩ يونيو — كما أنا وعبدو وبدء سامي تتكلم أمس عن الوسائل السلمية  
تي يمكن اتحادها لكي نغمر بها مصر أزمتها الحاضرة . فقال عبده انه اجمع رأيه على  
أن يجمع جميع الوثائق والمستندات التي لديه أو التي يستطيع حيازلها ويذهب بها الى  
انجلترا لكي يعرضها نفسه على مستر غلادستون والبرلمان الانجليزي . وسيأخذ معه  
أحد وجهاء التجار وأحد الاحرار من يونيون عن الملاحين . فوافق محمود سامي  
على هذا الرأي وقال انه هو أيضاً يريد أن يذهب الى اوربا لهذه الغاية . وعبدو  
يستمع الآن للسفر . وكان نديم والسيد حسن موسى العقاد يريان ذلك أيضاً . وهذا  
الاخير من أغنياء التجار في القاهرة وهو وطني ذو ثروة عظيمة ونفوذ كبير .

وقد صار راغب رئيساً للوزارة ولكن بما أن خطته تركية فليس من مرضى عنه  
سوى الشراكسة والباس يتوحسون من نعيمه ويخشون أن تكون هناك دسيسة  
تركية . وأنا أهدتهم .

وقد كانت الحوادث الاخيرة باعثاً بين الوطنيين على كراهة الأتراك والشراكسة  
والسلطان نفسه . وقد سمعت سامي وعبدو وندبما يلصون السلاطين والامم التركية  
من عهد حسين خان وهو لا يكو الى عبد الحميد . وقد الف حرب كبير يستعد لاعلان

الاستقلال عن تركيا اذا تدخل الامرالك في مصر مدخلا حربيا . ولكن التركي الماكر قد أدرك الخطر وامتنع عن التدخل . وقد قال بدم ومحسن راجعون من شره انه سيهتكم عرش السلطان قبل ان يموت .

ويجب أن أحرك بأى الآلى الآن من الحماوة والاحترام ما لم أكن أعلم به . فجميع الشاؤون والضباط والمشايخ والتجار يلاقونى بالباشا والود والشكر . وقد اتفقت مع نديم على ايلام ولجنة اكرامالك وشكراً على ما أسديته من المعونة للوطنيين في هذا الكفاح .

القاهرة في ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢

ذهبت الى منزل محمود سامي حيث قابلت جميع أصدقائنا واخطأنا بالباشا وسائر الرعا . وكان حديثنا طول الليل عن السياسة وقد أخبرتهم بفعوى خطابك الذي وصل الى اليوم عن طريق برنديزي ولخصت لهم أيضا أقوال الخرائد التي أرسلها أنت وليدى آن الى . وبعد ذلك قدمت لمحمود سامي عريضة وقعها الوطنيون يطلبون فيها من مستر غلادستون أن يرسل اليهم معتمداً يهتم أحوال بلادهم . وقد وافق سامي على العريضة وقال أنهم سيوقعونها عند ما يجي عراقي الى القاهرة وستقدم العريضة بواسطتك الى مستر غلادستون . وفي آخر الشهر قيل لي أن ماليت عرض توفيقا وطلب اليه أربع مرات أن يقبض على عبده ونديم ومحمود سامي وعلي "أنا أيضا" .

في ٢٣ يونيو — عند ما صدق الخديو على تعيين راجب باشا استدعاني أنا وديما الى الاسكندرية . وفي ليلة الاثنين جاءتني في الصدق عربة وفيها رجل يدعو لي بـ « حسن باشا اللوملى » فذهبت أنا ونديم لاني خشيت أن أذهب وحدي . ففد وصلنا قولما بحماوة ثم أخبرني أن راجب باشا عهد اليه بتبليغي رعيته في رؤيته في الديوان في الاسكندرية فقلت « لأأس » وقال نديم انه سيذهب معي أيضا . وخرجنا من المنزل وقد عقدنا بيتنا على أن لا نكون لنا علاقة بـ راجب

وهكذا تعرف انه في الوقت الذي أرسلت اليك تلغرافا أدعوك فيه الى أن  
تدعى ماليت لتلا يقته المتعصرون كان هو يشير بالقصص على . وقد كنت على  
لدوام عند مايتكلم شبان المصريين المتحمسين عن اغتيال ماليت أس لهم حطامهم  
وانه ليس هناك أقل منفعة للقضية الوطنية من هذا العمل

في ٢٤ يونيو - كان محمود باشا الملكي قد ترك الوطنيين لانه لم يتقدم وزارة  
في عهد رئاسة محمود سامي وقد نرضاه عراي باعطائه منصب وزير الاشغال  
( وأخذ صابونجي هادي وصف الامة التي سبقت استقالة وزارة محمود سامي  
وتوسلات عراي الى السلطان ومئة درويش ثم مئة عثمان بك وكيف أن الوطنيين  
كانوا يتلقون السلطان باعلان الاحلاص والولاء له )  
وهالك مايقوله صابونجي بعد ذلك :

أما عن عقيدتهم الحقيقية فهم لايعون بعد الجيد أكثر ما يعنون بسكان  
القرى فهم يستخدمونه لمصلحتهم ويعتمدون عليه حتى يروا الوقت ملائماً لاعلان  
الجمهورية المستقلة وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية ولكنهم تبصروا في  
العواقب فرأوا أن يسبوا سيرا وتبدأ في هذا الموضوع هديم يوجه جهوده نحو  
هذه القاية منذ بذورها في أدهان الحيل الحديد ومنذ وصولي الى ها وأنا وبديم  
لاعترق . والشايخ والعلما والاعيان والتجار والصباط يقابلونا بأذرع مدسطة  
ونحن نحدثهم عن مساعيك وعن الخدمات التي أدتها القضية الوطنية وكأهم مشتاق  
الى رؤيتك يدونك غيبتهم وتسليمتهم . والحقيقة أن هؤلاء الناس الطيبين  
يستحقون كل عطف ومعونة  
صابونجي

ولست أذكر بالذقة ذلك الوقت الذي قر فيه رأي غلادستون على أن يث  
فتة في المصريين ويعول على التدخل الحربي بعد أن أغرى به وأعواها بأن هذا  
التدخل الحربي ليس في الحقيقة حربا . ولكني أظن أن قراره هذا قد انتهى اليه  
بين ٢٠ يونيو وآخر يونيو . وكانت الاعتبارات التي أخأته اليه ممية على  
الخطط البرلمانية ، فان الاحرار من حره كانوا على وشك الانتفاض عليه وكان  
تشير لي يقص عليه القصص عن القلق المنتشر في احماء البلاد وكانت هزيمة ودارة

الخارجية واضحة لا يمكن إحصاؤها ما كان حراسيل يلجأ إلى خطته في التأجيل ويقول ان انه يهدد بالحرب يساوى الحرب معها فاستعمل هاتين الخطتين وكانت النتيجة أن انحلتا صارت أضحوكة العالم في معاملتها لدولة المصرية . وكانت أحوال البورصة عبر عادية والتجارة تعاني أزمة دامت زمنا طويلا ، وقد استعملت وزارة الخارجية جميع « وسائل الحضارة » في حل المشكلة وهي تتلخص في الكذب والحيلة والفش فذهبت كلها هباء . أما عسادر الوطنيين فقد أشرت انجلترا على جلالة قدرها وعظم نفوذها عرايى بأن يغادر البلاد فرفض أمرها ، بل حدث عكس ذلك إذ رادت قبضة عرايى في عين العالم الاسلامى وكانت هذه الزيادة على حساب انجلترا ، فقد ظن كثيرون في ذلك الوقت أن دعاة الحاممة الاسلامية في الهند سيقومون بهتة ، وكانت انجلترا في يوم عيد واترلو أسحب ما كانت في تاريخها كما سبق لى قول هذا ، فقد فرغ أكثر الموططين واستيقظت في المحافظين عاطمة القتال التى أخذت منذ هزيمة دزرائيلى في سنة ١٨٨٢ وهبت تدعو الى الدم ، فقام مستر غلادستون وأخذ صميره ولست أظن انه عمد الى أخذ المسألة في يديه بأمر وينهى فيها وإنما أظن انه اقتصر على السكوت وترك ( المصالح ) تعمل مآثرها واجبا ، ومعنى ذلك أن المسألة صارت في أيدي رجال وزارة الخارجية ووزارة الحربية وسيرسيمور وكولمن لان ( ماليت كلن قد سحب ) لكي يحلوا المسألة بأنفسهم . فقد كسنا نحن القصة من الوجهة السياسية وهرمنا وزارة الخارجية هزيمة تامة فكان لانجلترا أن تهزمنا من الوجهة الحربية

واليك للذك كرات :

» ١٩ يونيو — في بورصة لندن فزع سبه اشاعة استقالة برابط ونشميرلن ( وكان هذا الفزع يدل على جهل الجمهور بحقيقة نشميرلن اذ قروا اسمه الى اسم برابط )

» ٢٠ يونيو — كنتت الدبلى نيوز مقالا معقولا ، وينصح لى فريدريك هاريسون بان اكتب لمستر غلادستون خطابا مفتوحا وأطمعه ، وهو يضمن حسن تأثيره في انحاء البلاد ، وقد بدأت في تحرير هذا الخطاب

٢١ يونيو - انتهت من خطابي وذهبت الى هوارد لاستشارته فطلب مني أن أفتح بعض المبارات حتي لا يقع غلادستون شخصياً تحت المسؤولية . وكان داسل هناك . ثم اتفقت مع ناتو على نشره في المد أو يوم الجمعة على الأكثر ثم أرسلته الى غلادستون .

٢٢ يونيو - بكرت في الصباح وذهبت الى باتون وكلانا يظن أن البية بمصر سيئة وقد كتب هاري برايد يقول انه اذا وافقت فرنسا على المدكرة فن الحكومة تعمد الى العمل في مصر ولو رفضت المانيا الاشتراك . وأنا أشك في ما اذا كانت فرنسا مستعدة لذلك وسألخى خطابي لمستر غلادستون بخطابات أخرى اذا دعت الضرورة وأنا متأكد أنه اذا أنزلت إنجلترا جيوشاً في أي مكان في مصر فإن السلطان يعلن الجهاد وتحدث فتنة بين مسلمي الهند ونحن الآن في مأزق عجيب .

وقد ظهر خطابي في التيمس في ٢٣ يونيو وهو اليوم الذي انعقد فيه مؤتمر الاسنانة . وقد أحدث رجة في الرأي العام وهذا نصه :

سيدى

ان خطورة الحال الحاصرة في مصر ومصالح الامة الانجليزية وكرامتها المتعلتين بهذه الحال الآن تدعوني الى مخاطبتكم عن الامور السياسية التي قادتنا الى المأزق الحاضر والى تدوين بعض الحقائق التي يجب ألا ننحني عن أعضاء المؤتمر القادم اذا كان ينوى أن يقرر خطة جديدة

فأنت تعرف أنني في الشتاء الماضي توسلت بين سير ادوارد ماليت وسير اوكلاند كولفن من جانب وبين زعماء الحزب الوطني المصري من جانب آخر وقت بمفاوضات بينهما هي ان تكن غير رسمية الا انها كانت ذات أهمية وكان شرفي فيها رهيناً بتولاه . لو كيلي حكومة جلاله الملكة . ثم اني منذ مجيئي الى إنجلترا وانا على اتصال دائم مع هؤلاء الزعماء . فلذلك أجدني الآن في مركز يجبرني الى الكلام عن مسلك هؤلاء الوطنيين وأنراضهم . وتعرف أيضاً أنني حضرت رجال حكومة جلاله الملكة عدة مرار من الخطر الذي كانوا يتعرضون للوقوع فيه لعدم ادراكهم الحقائق واسي

حشنتهم على ان يسارعوا الى التسليم مع اولئك الذين يقودون الحركة في مصر  
وتعرف أيضاً ان مراعاة للحق والعدل نصحت المصريين في الارادة الاحيرة  
ان يسبوا الخلاف الذي نشأ بينهم وبين الحديو وحشنتهم على ذلك بكل ما في «هدى  
وقد حصات بالفعل هذه النسوية الآن . وقد تحملت في على هذا مسئولية عظمى  
ولكني أعتقد ان الحوادث برزت على .

وانهم الحوادث الماضية التي أريد اثباتها هنا هي :

أولاً - في شهر ديسمبر الماضي عاينت رجال الحزب في نشر برنامج بلحوص  
فيه آراءهم وكانت آراء ، عادلة صحيحة وقد راعوها مراعاة تامة . وفي ذلك الوقت ثم  
بعد ذلك الى ٨ يناير حين أرسلت المذكرة الثانية لم يكن بين المصريين وبين المحلثرا  
او الانجليز ما يدعو الى الخصام او الشجار . ولم يكن بينهم وبين الحديو أو المرافقة  
الثانية اى خصام بل كانوا يتقنون هاتين الهيئتين ويعتمدن عليها لمعاوئتهم  
في السير نحو السبل البرلمانية والحكومة الذاتية الدستورية . وكان غرضهم ولا يزال  
ان تعود مصر دولة تتدنى دينها وتصلح قضاها . وكانوا كما هم الآن يتقنون بالحيش  
لكي يزيلهم هذه الحقوق والبرلمان لكي يصل بهم الى غايتهم . وكانوا مستعدين  
لان يتدرحوا في تقدمهم لا يحدون عن الاعتدال

ثانياً - ان المذكرة الثانية التي أعدها مسيو غامبتا كانت عاينه منها ان يورط  
انجلترا في سياسته العدائية نحو الاسلام وقد فهم المصريون انها أول خطوة  
خطتها انجلترا نحو السياسة التي تتبعها فرنسا في تونس فصارت ثقتهم من ذلك  
الوقت في انجلترا توجسا عميقاً . وبدلاً من ان تخففهم هذه المذكرة اجأتهم الى السرعة  
في عملهم . فهي التي جعلتهم يلحون في طلب استقالة شريف باشا ، الذي كانوا  
ينهمونه بالحباية ، ويطلبون من الحديو تأليف وزارة وطنية . وهذا الاحراج الذي تقول  
الصحب الانجليزية انه صدر من الجيش هو في الواقع صادر من الأمة الممثلة في  
نوابها . ويمكنني ان أقدم عدة شواهد على هذا .

ثالثاً - ان سقوط مسيو غامبتا الذي لم يكن ينتظر منع تنفيذ الوعيد الذي  
حا في المذكرة الثانية بالتدخل الحربي . ولكن فكرة التدخل وان تكن عبر



مباشرة قد بقيت . قال المراقب الانجليزى والعربى احتجعا على الدستور الذى منحه الخديو في ٦ فبراير وامتنعت الحكومتان الانجليزية والعربية عن اعلان رسامها عنه واعتبرت المادة التى تسمح للبرلمان بمناقشة نصف الميراثية التى لم يكن مقبداً . يمدون محاولة للارتباطات الدولية ، وكان المصريون ينكرون حجتها التى أساسها على بعض فرمانات الباب العالي وديكرتات الخديو .

راجعاً — ان الوكيلين الانجليزين تبعاً لاوامر حكومتهم ( كما هو المفروض ) نصبا من نفسيهما في الثلاثة الاشهر الماضية خصمين بغيال احداث ثورة لقلب النظام الذى أوحده ارادة الأمة والحرية التى منحها اباها والى البلاد . ولم يشجع المراقب العالم الانجليزى ، مع انه موطن فى الحكومة المصرية ، عن أن يشترك فى هذا العمل . ولم يرض وكيل انجلترا بأى نصب فى المداخلة بين الخديو وورثته توصلاً لهذه الغاية . وامتنع المراقب من حضور جلسات مجلس الوزراء معتمداً على أن الوزارة الجديدة لعدم مراتها مشغولة . ويقف هو من بعيد بحصى عليها اخطاها . وكل مكاتبو الصحف الانجليز مقيدين قديلاً في نشر آرائهم فما هو ان ظهرت الوزارة المصرية الجديدة حتى أذن لهم في نشر الاخبار التى تؤذيها مع علمهم بكذبها . وانى أجروا على ذكر بعض الاخبار المزعومة التى نشرها هؤلاء المكاتبون ولم يكن لها أصل ، فمن ذلك خبر انتشار قطاع الطرق في افوحة البحرى ، وخبر ثورة البدو ، وخبر ثورة السودان ، وخبر عرب الحبشة ، وخبر التفقات الحربية الهائلة ، وخبر امتناع الناس عن دفع الضرائب ، وخبر استقالة مديرى المديرية ، وخبر افعال أعمال الرى ، وخبر الخطر الموشك ان يقع بقية السويس ، والاخبار القائلة بان عرابي صار مأجوراً لاسماعيل ثم لحليم ثم للسلطان . سم انه قد يكون هناك أساس واه لبعض هذه الاخبار ولكن ليس لاكثرها أصل التة ،

وقد خاطبت في ٢٠ مارس لورد جرانفيل في هذا الموضوع بما ، على طلب عرابي وأوضحت له الخطر الحائق بالسلام من مملك وكلاء انجلترا وانجحت في طلب ارسال بثة لسكى تبحث شكايات المصريين

وفي شهر ابريل كشفت مؤامرة لاغتيال الوزراء الوطنيين الذين عرفوا ان يد

اسماعيل هي التي حركت هؤلاء المتآمرين . فأخذ قنصلا انجلترا وفرنسا في استغلال هذا الحادث لمصلحتهما وصاروا يحصان الخديو على مساواة ودرائه . وكان المهتمون بهذه المؤامرة قد حكم عليهم بالنفي وكانوا من ذوي المقامات العالية بشركون مع الخديو في القومية والجنسية لاجلهم من الأتراك والشرس ولهذا السبب رفض الخديو التصديق على الحكم وقبل اشارة الذين أعروه بالامتناع عن التصديق وأدى هذا الى القطيعة ما بين الخديو ووزرائه . ثم أرسل محمود سامي باشا في طلب النواب لكي يفصلوا في الخلاف بين الوزارة وبينه . وجاء النواب ولكن سلطان باشا رفض أن يعقد اجتماعاً رسمياً برياسته وذلك لحشد الذي كان عالماً على عواطفه . وأخذ القنصلان في استغلال هذا الحادث الثاني فصاروا يجرسان جميع المعارضين للحزب الوطني بالاتفاف حول الخديو . وخشي بعض سعاة المصريين حدوث اضطرابات فانضموا الى الشراكية . وانخدع القنصلان بهذه الحركة فأعدا مسميها لضربة نهائية وأرسلوا السلاح الاخير الذي طلبوا فيه استقالة الوزارة وابعدا عرابي عن القطر المصري . وراى الناس كأن البلاغ نجح لأن الوزارة استغلت بالفعل ولكن ظهر في الحال ان القنصلين أساء فهم الشعور الوطني ورجع عرابي في اليوم التالي الى منصبه بقوة ارادة الامة الواضحة

ولست أستطيع أن أفهم ان ملك وكيلنا في هذه المسألة يمكن تبريره او انقول بأنه موافق لمبادئ الاحرار وعلى كل حال انه لم يصب نجاحاً

خامساً — عندما أرسل الاسطول الى الاسكندرية حاولت ان أحذر ولاية الامور وكان تحذيري مبنياً على ماعرفته مدة اقامتي من شعور الوطنيين وقد قلت ان وجود الاسطول في مياه الاسكندرية ونجاحه اذا نزل بعض البحارة الى المدينة قد يحدثان في الاغلب اضطراباً واقترحت ان اذهب الى مصر لكي اعمل جهدي في تخفيف بعض النافع التي كست اخشى وقوعها

سادساً — في نفس هذا الوقت رضيت الحكومة الانجليزية بارسال مبعوث مركبي الى مصر وكان المفروض ان يفود السلطان في مصر عظيم لدرجة ان الاهداف سيخضعون لأي اشارة تصدر من مندوبه او ان المقاومة لما يبشر به ستكون ضعيفة

لا يؤبه لها . وممبح الباب العالي بان يسلك المسلك الذى برغنه فأرسل درويش باشا . ومما يؤسف له ان وزارة الخارجية كانت تعتمد فى حل المسألة على ما كان يشاع عن هذا الرجل من انه كان حلواً من الصمير والذمة فى معاملته للثائرين . وعندى ما يداني على ان ما كان ينتظره هو ان يدعو عرابى الى الامتانة فاداً لم ينجح فى هذا فانه يلجأ الى الرشوة فاذا خاب هذا المسعى الثانى أيضا يقتله بنفسه باعتباره ثائراً على السلطان . ولست أناقش الآن فيما اذا كانت هذه تعليمات أمر بها درويش او هي من ابتكاراته . وبظهر لى ان الباب العالي مثل حكومة حلالة الملكة لم يكن يقدر مبلغ الشعور الوطنى وان اتحاد الأمة المصرية وشجاعتها هما اللذان أفتما السلطان بأن الوسائل التى استعملت فى البابا مع الثائرين لن تمضى شيئاً فى مصر . وعادت الصائغ المعقولة الى مكان هذه الاقوال ونصح لكل من الحديو وشعبه بالصلح .

فهذا ياسيدي هو باختصار تاريخ سياسة إنجلترا فى مصر فى الستة الأشهر الماضية . وهو مما يؤسف له لصدوره من وزارة خلوحتنا . ومع ذلك فان المستقل لا يزال فى يدنا وان كان المؤتمر عند ما ينقذ لن يحسب لإنجلترا سوى صوت واحد . وليس لى الحق فى ان اقترح ما يجب ان يقال فى هذا المؤتمر ولكنى اجزؤ على القول بأنه اذا كان وكيل حكومة حلالة الملكة يتقدم الى المؤتمر ويعترف باخطائه ويعلم عطف إنجلترا على مصر فاننا عندئذ نكسب ما خسرناه . لانه على الرغم من غضب المصريين للحيل والألاعيب التى استعملتها معهم وزارة خارجيتنا فانهم يعتقدون ان هناك عطفا عليهم من جانب الأمة الانجليزية يحو أعمال هذه الوزارة وان هذا العطف لا يسمح باستعادم لأوهام عن المصالح المالية وعن قناة السويس . وقد أكدوا الى المرة بعد المرة ان غايتهم هى السلام والاستقلال والاقتصاد وان قناة السويس تكون فى أمن وحى جميع الدول وان الجبل يرجع الى إنجلترا اذا صارت مصر دولة عزيزة الجانب مثل سائر الدول . فحسبكم ان غدوا الى المصريين يد الصداقة لالوا منهم الشكر والحمد

« ولفر دسكاون بلنت »

هذا وانى خادمكم المطيع

## الفصل الخامس عشر

### ضرب الاسكدرية

نأتي الآن على ذكر ضرب الاسكدرية وهو قتال دبره الاميرال سيمور بالاتفاق مع كولفن لاسل خروج ماليت آل الى وضع القوة السياسية كلها في يد كولفن ولم يأخذ لاسل كما كنت أؤمل مكن ماليت بل عين في مركزه كانت صغير يدعى كارتريت وكان لحم له وعجزة آلة في يد المراقب يفصل به كيما شاء . وليس عندي ما أزيد على مدكراتي في وصف الاساييح الثلاثة التي تلت ما تقدم في القاهرة والاسكدرية . وقد حلب على خطابي المتوح الى ماستر غلاستون عاصفة من السباب من أصدقاء ماليت وكولفن ومن الراعيين في الحرب ومن المعاصر المالية في الصحافة والبرلمان واليك المذكرات :

« ٢٤ يونيو — في جريدة التيمس اليوم خطاب شديد من هنري ماليت (شقيق ادوارد ماليت الاكبر) . وقد أعلن لورد لامنجنون انه سيسأل الحكومة يوم الاثنين عن « معارضاتي غير الرسمية » . كلما كثرت المناقشة كان هذا في مصلحتنا . كان عدنا يوم الاحد في كرات جماعة كبيرة من الزوار بينهم لاسل »  
« ٢٥ يونيو — كتبت رداً لتيمس على خطاب هنري ماليت وأرسلته . وقد لطفتم لهجت تهذبة للغواطر . لم تكن لي رغبة في الشجار مع أصدقائي وكنت قد قررت ان لا أضرب الا عند الاضطراب

« ٢٦ يونيو — ورد خطاب طويل من صابونجي ( هو الذي دوتته في الفصل السابق ) فهم في القاهرة يولون ولجنة رسمية اكراما لي . التقيت بلورد دولوار ولورد لامنجنون ( وكانا متصاهرين ) في مجلس اللوردات وقد جعلت اولهما يسأل عن رسالة ماليت التي ارسلها في ٢٦ من شهر ديسمبر ( ولكن ماليت قد قال انها لها ) وكان لورد لامنجنون ينوي ان يبنى خطبته على رسالة ماليت ولكني اوضحت له

حجة هذا العمل . ومع كل قد التي حطبة شديدة على وكانت لهجته عابة في الحدة  
مصر فميت وجه لورد حراصل وان عليه الملوك ولكنه صرح بالي قد حاولت  
— في الجيش في احدى المرات وهذا نصريح بعيدا وقد اسكر هري مايت  
م ( ثم قال انه لا يتذكر رسالة ٢٦ يونيو ولكنه سيبحث عنها »

( ان سب ثلثي الحكومة وارتا كما عدم ما سئلت الوزارة عن « مفاوضات  
مصرية رسمية » هو انها كانت قد تورطت منذ عام في مفاوضات غير رسمية مع الينا  
في يد مستر ارنهوتون تصدد موقف الكهنة الارلنديين )

« تناولت العشاء مع هري مدلتون في النادي وذهبت معه الى اجتماع عقدته  
جمعية عدم التدخل في شارع هرنهوتون . وكان سير واعرد لوسون رئيساً للاجتماع  
— ثم تكلم فاحسن وهو اذ من سمعت . وقرأ فريدريك هاريسون خطبة لخص فيها  
سألة المصرية تلخيصاً معتدلاً » لاحظت هـ أن هري مدلتون كان يعرف مصر  
— قد أقام فيها مدة طويلة وكان يعرف الطوائف العبطية . وقد كتب اليه بطريرك  
لاقاط خطاباً مدة الحرب وقد نشر هذا الخطاب وهذا الخطاب ذو أهمية من  
حيث انه يظهر كيف أن الاقاط كانوا جميعاً مع عرابي في ذلك الوقت .

« ٢٧ يونيو — تناولت العشاء عند بيمروك . وكنت جميع أعضاء نادي  
ويلتون هناك وهم يقيمون من الاربعين وعند العشاء ساقيا بعضنا نخب بعض .  
ودعيت الي الخطابة . وشعرت اني في وسط لا يطر الى بين الرضا لأن اكثر  
المجتمعين كانوا من الراغبين في الحرب . ولكن هاملتون وقف وشرب نخبني منوها  
بخدماني العمومية . فلما وقفت للرد قلت ان بعض الناس يخدمون بلادهم بطريقة معينة  
وبعضهم يخدمها بطريقة أخرى ولكن ما دام الانسان يخدم ويؤدي واجبه فلا أهمية  
للطريقة التي يتبعها » .

( وهذه الخطبة لم تكن بالطبع خطيرة الشأن لأن الاجتماع كان مقصوداً به  
اللهو وكان الحاضرون من اصدقاء لورد بيمروك الخواص وكانوا يأتون لزيارته مرتين  
أو ثلاثة في العام لهذا الغرض )

« ٢٨ يونيو — ذهبت الي جورج هوارد وعرضت عليه خطاب صابونجي

ومكانياتي مع غلادستون . وصابونجي يقول ان الرعاء الوطنيين في مصر يفكرون في المجيء الى إنجلترا لكي يعرضوا قصيهم على مستر غلادستون - وقد سألت هوارد أن يتوسط لي في مقابلة رابط فاني اعتقد أن رابط يفاد الى الحق اكثر من سواء وربما كان في معرفته فائدة . وليس هناك شك في أن الاستعدادات الحربية قائمة على سابق وقدم لفرص ما . ولست أعتقد الا أن القصد من هذه الاستعدادات هو تقوية يد دوفرين في المؤتمر ليس غير . وقد أرسلت تلفرا ما الى صابونجي أخبره فيه بأنه لم يتقرر بعد شيء . بصدد ارسال الحدود وأسأله أيضاً أن ينصح بالصبر .

« ٢٩ يونيو - زرت رابط في منزله في بيكاديلي . وكان يتكلم لهجة الصداقة ولكن عطفه ومعرفته كانا أقل مما رأيته من مستر غلادستون . ولكن النتيجة كانت مع ذلك مرضية . فهو يؤكد لي أنه لم تتخذ الى الآن اجراءات حرية وهو لا يطمئن أنها ستتحقق وهو يعتبر قوة السويس قليلة الفائدة الحربية لما من حيث تدبير الخطط . وهو يوافق غلادستون على تفضيل طريق الكلب للمواصلات مع الهند . وقد أوصحت له رأيي عن الاصلاح الاسلامي وبينت له الاختلاف بين الحركة الموحدة بمصر وبين اسكندر السلطان النازعة نحو التعصب . وأطن أن زيارتي هذه ستقوى حزب السلام في الوزارة »

( ألاحظ هنا أن رابط قد استهجن مسألة التدخل واحتمال نشوب القتال في الاسكندرية أكثر مما توهم القارئ . هذه المذكرة . وقد أشار على بأن اطمئن من هذه الوجهة . وأما علي يقين بأنه كان يقول ما أعتقد . ولكن هذا المسكين الذي كانت مبادئه تنافي الحرب والقتال كان يجهل ما كان يجري في وزارة البحرية ووزار الحربية وقد أخبرني بعد ذلك أنه قيل له أنه في حالة التهديد بضرب الاسكندرية سيقبض هذا التهديد حبراً على ورق . وكانت النظرية التي وضعها وزارة الحربية أمام مجلس الوزراء أن الامة باجمها في صف الخديو وليست مع عرابي وانه عد المطلق أول قنصلة من الاسطول يتسارع الناس ويقبضون على عرابي الذي سيفرد وحده بالمقاومة فيضعونه عند اقدام مولا الخديو ولما عرف برابط كيف أنه قد احتيل عليه حتى رضي بصرب الاسكندرية الذي انتهى باحراقها وجعل الحرب

منها اعتباط أشد الغيظ واستقال من الحكومة ولم يغفر لغلادستون اشتراكه  
والمكر به أو تخليه عن مبادئه .

« زرت ليدى حرمجورى التي كنت مقالا عن مراقبة مصر وهو مقال  
جلي القارى، بعض التسلية وتناولت العشا، عدد هوارد وكانت زوجته متحمسة  
شأن ترسباني »

« ٣٠ يونيو — يكذب كولمن بواسطة مكاتب التيس انه هو أو مايت قد  
وسطاني في أي عمل أو استخدماتي لأي شيء . وهذا التكذيب سبيل مكنتي  
اصيته بعد التصريح الذي القاه اللورد حراميل هذا الصدد يوم الاثنين الماضي .  
ان هذا التكذيب الصريح لأشياء ليس من المعقول أن يكون كولمن قد نسبها  
لا يحتاج الى وصف منى . ولم يقلل من مسؤوليته ما كتبه لي في خطاب خاص في ٦  
بريو بمجرد فيه ما قيل في تعراف مكاتب التيس . وقد قلت يياه في ذلك الوقت  
واعتبرته محضاً فيه ولكنى عند ما طلبت منه أن يحدد ما قيل في التعراف علماً  
رفض احانة طليلي وكان رفضه بمثابة الاصرار على الكذب .

تناولت المطور مع دلاوار لكي أقابل برودلى مكاتب التيس في تونس

( برودلى هذا هو نفسه الذي عهدت اليه بعد ذلك الدفاع عن عرابي وذلك  
باء على نصيحة دلاوار . فانه كان محامياً يمارس صناعة المحاماة في المحاكم القسيلية  
في تونس وكان يكاتب التيس أيضاً . وكان رجلاً ذا كفايات وقد خدم دلاوار  
في عدة مهام فكان يقدم له المعلومات التي يحتاج اليها عن المسائل الشرقية التي يشغف  
دلاوار بالبحث فيها . وكان يحرص له خطبه التي يلقيها في مجلس اللوردة وذلك عند  
ما يكون مقبلاً في إنجلترا . وعند ما عرفت فرنسا تونس أعده هو يدافع عن اثنتين  
في التيس ويبرر ثورنهم والى بعد ذلك كتاباً في هذا الموضوع سماه : « الحرب  
الفرطاجينية الأخيرة »

« وهو يقول اهم في تونس وطرابلس ينتظرون مجيئ السلطان . والا فان  
السوسى يقود المسلمين الى مهضة جديدة ... كنت خطاباً للتيس ردأ على كولمن  
وفيه ما يكفي لخصه . تفديت عند حرمجورى »

« كتب إلى هاملتون يقول ان غلادستون ان يرجع عن خطة العطف التي اتواها نحو مصر واستقلالها اذا كان ما أخبرته به صحيحاً . وأطل ان الذي جعل غلادستون يقول هذا هو رايك » .

هذا الخطاب المشار اليه ها هو ذو أهمية بالنسبة الى النسبة التي حوت بعد ذلك بمسدد مكرر مصر . ثم أبصاً وعد لورد دفرين الذي تعهد فيه بالمحاولة على استقلال مصر ومعاهاها الحرية . وكان هذا الوعد موعزاً اليه به من غلادستون . ولولا اني كنت قاصداً على غلادستون من هذه الوجهة لما كان عدى شك في ان مصر بعد معركة النيل الكبير كانت تضم الى الامبراطورية البريطانية . من جميع الاحرار في الوزارة كانوا يقصدون الى ذلك »

« ٢ يوليو كنت في بروكث وهي قعة ريفية لم أر مثلها قط سوى ويلتون . نجيب ما فيها لم يتجر بل هو باق كما كان منذ خمسين أو ستين عاماً في عهد كلروين لام اولون ملبورن وقد مات ها لورد بالمرستون وهي الآن من املاك هيرى كوبر وهو يعطف علي كثيراً . وكما جماعة مؤلفة من هيرى براند وزوجته والسفير الاميركي ولورد هاتون ولجنحتون وليفسون حاور شقيق لورد جبراهيل وسكرتيره وقد ناقشنا كثيراً عن مصر وكانت الالهة حية حتى لفيون بهـ لم يقصص اما السفير في صي . وبعد ان لعبا التنس أنا وليفسون نحدثنا . وكان يتكلم بلهجة القانط من مستقبل الامبراطورية وقال ان احملترا يمكنها ان تعيش اذا لم تحدث فيها ثورة . ومثل هذا الكلام في بروكث يشير الاشجان . . . في الانزفر حلة هوجاء أخرى على .

« ٣ يونيو — كنت في بروكث . أظن أنه اذا قر القرار على التدخل فستكون ايطاليا هي الدولة التي تستغل ذلك بعد إشارة المؤتمر . وليس هذا مما يرغب فيه قان الايطاليين يعطون الآن على المصريين ولكنهم اذا اتقوا باعهم وغامروا بالفتح فانهم سيلجأون الى طرق التوحش . ثم ان الايطاليين لا يمكن تقدم في محالهم النياية كما هو الحال هنا وفي فرنسا » .

(ألاحظ ها ان الحكومة الايطالية ستلت لكي تشترك معا في التدخل وفصت



• وصلت لوحات سخطاً من الاحرار حيث كان غربالدى أحد رعايهم الشهورين  
• مجلة لمونة عراقى .

« ذهبت الى كيبورث وتنديت هناك . وقد حطط لينون طريقاً الى المنزله .  
هناك . ونكلمنا معاً عن الامبراطورية البريطانية وكان يعادلي في قوته . ويطن  
المحتاج كان مقدراً لمساعدى في مصر أو لمساعد أى واحد عبرى ما دنا لأنتكى  
بى الصدقة . وهو ينهأ بوقوع ثورة فى الهند بين المسلمين مها كانت الحوادث ...  
وفي الليل ذهبت الى براند .

٤ يوليو - في لندن . وجدت تلغرافا يقول ان عربى لن يذهب الى الاسكندرية وخطابا من صابونجي مرعيا . إذ يظهر انه فتح في إدارة البريد وما فيه نو أدبع يؤدى الوطنيين في الاسكندرية . وفي الصحف تلغرافات عن تجدد الشعار بشأن استحكامات الاسكندرية ما وقد سمعت ليدى حرمجورى من سياراسكين ماى ان سر سمور قد امر بضرب الاسكندرية في القلعة .

( سر ارسكين ماى هذا كلن على ما أعتقد كبير الموظفين الدائمين فى وزارة البحرية. وأول إشارة الى ضرب الاسكندرية فى الكتب الزرق مؤرخة فى ٢٦ يوليو حيث أرسلت وزارة البحرية الى سير سيمور التفراف التالي : « اذا كانت الحيوش المصرية تستعد للهاجة حابر أمير البحر الفرنسي واستعد لقتال » وهذا التفراف يظهر التعلل الذى كما تتعلل به لكي نهاجم المصريين. وهو أشبه شيء بقصة الدثب والحلل . ونحن نعرف من جريدة المار التى سنشير إليها بعد ان سيمور قد عقد بنية على ضرب الاسكندرية منذ ٤ يوليو . وما جعل الوزارة وعلاستون يقرر ان القرار النهائي ما أذيع من فرية مذبحه بها التي لم يكن لها أصل مطلقاً وكان الغرض منها تهيج الرأي العام الانجليزى على عرابي »

وتقول لیدی جرج بجزیری أيضاً أنها سمعت ان كولن قد استقال وان استقالته قد قلت .

ولست أعرف اذا كان هناك أصل لهذه الاشاعة ولكن استقائه في هذه الساعة  
جاءت متأخرة فلا تأثير له الآن على سير المواقف والارجح ان الاشاعة كانت كاذبة.

اي في أشد الملح مخصوص التهديد بصرب الاسكندرية وفي الساعة الثانية عشرة ذهبت الي مجلس العموم وسمعت ذلك يقول ان « الاسطول قد أمر باب بسلك مسلكاً معيماً اذا حدثت ظروف معينة ».

وقد تعديت مع سير ولغرد لوسون وهو رجل لطيف وقد قرأت له خطابات صابونجي بشأن مقابلته للوطنيين . وقال لي انه هو وآخرون سيفعلون جهدهم ولكن ليس هناك ما يمكن عمله الآن . وقد طبعت خطاباني التي كنت أرسلها الي غلادستون ولكي لن أشرها حتى أعرف خطة الباب العالي . تعشيت عند ليدي رودا مونت كرستي وكان بول هالك وقد قال ان صرب الاسكندرية سيشرع فيه في الغد وهو مت في صقي . واني أحشى الآن أن بحاطر الوطنيون بما عدمهم علي مارلة الاسطول لأنهم حما سينهمون فتؤدى هربهم الي تثييط عرائهم وأظن أنه يلزمهم أن نتركوا الاسكندرية ثم يحفروا الخنادق ويمسكروا بعيداً عن مدى اطلاق المدافع من الاسطول . ولكي لا أجسر الآن علي أن أصبح لهم بشي ما » .

( قال لي ناتون حوالي هذا الوقت أن الخطة التي ستبناها ودارة البحرية هي ازال اخود وقت ضرب الاسكندرية وانغايه من ذلك قطع الطريق علي عراي اذا أراد أن يتهمقر وكان لهذا الخبر تأثير علي تلفراي في اليوم التالي وخطابي الذي أرسلته في السابع من الشهر ) .

٥ يوليو - أرسل أمير البحر سيمور بلاعاً أخيراً . وقد أرسلت الي صابونجي التفراي التالي : « يجب ألا تعاكسوا الاسطول . ارسلوا عبده الي غلادستون » . ولا أعرف اذا كنت قد الهمت السداد في هذا العمل ولكن اتصبر ليس في كل الأحوال ثم أن عراي سيدطر في الحالة دون النظر الي رأي وهو لم يحطلي . للآن . وقد أرسلت نسجاً من مكاتباني الي الكلدريال ماسج والي نولس والي لورد دفرس . وبعد العدا، ذهبت الي هل رئيس تحرير جريدة الديلي نيوز . وهو الآن بعد فوات الفرصة قد انضم الي حاسا . وقد وعدنا بأن فكتب ما يمكنه . . في الماء نسلت خطانا من صابونجي يقول فيه ان الهدوء شامل فظني أن الصعوبة

قد ارجئت ... كنت اليوم الى هاملتون أعده مرض خطابت صابوحي عليه ( وهي التي نشرها ) وهذا علاج المستنثس ولكن هذا هو حكم الظروف .

٧ يوليو - ذهبت لزيارة ستالي والدري وحضضته على ريادة موسوس لكي يجمع حدوث أي شقاق بين عراقي وبين السلطان . وقد عرست عليه حقائق الحالة على وجه التفريب ولكي فهمته ان الوقت الحاضر ليس من الاوقات المناسبة لوجود شقاق بين المسلمين ويمكن الأتراك والمصريين تسوية ما بينهما من الخلافات في المستقبل . وبظهر لي أنه يوافقني ... ثم كتبت خطابا الى صابوحي أسأله فيه أن يصح بعدم الشجار مع الاسطول وإنما عليهم أن يسكروا في خنادق بعيدة عن مدى اطلاق مدافع الاسطول . ولا زالت أعتقد انه لن ترسل حملة بحرية الى مصر وان المصريين سيضطرون الى مقاتله الايطاليين أو الأتراك ... والصحف تشير الى تسوية سلمية بين الاسطول وعراقي . فاذا كانت هذه التسوية قد تمت في هذا ما يرضي .

٨ يوليو - في كرات - وفي البريد الثاني وجدت خطابا من هاملتون بهم منه ان غلادستون لا يزال قابلا للشائقة والاقناع وهذا أكثر مما كنت أظن . ( ان ما كتبه هاملتون في خطابه هو : « اظن أنه من المسلم به ان ردة الحكومة هي الوصول الى الحقيقة ولكن يظهر ان هذا ليس سهلا » وبناء على هذا أخذت أكتب ملخصا لخطابات صابوحي . وفي المساء حضر لاسل وآخرون .

٩ يوليو - الاحد - استشرت لاسل في مسألة ارسال خطابات صابوحي الى غلادستون فقال لي انه يظن أن الوقت قد فات . اد أن هارنجتون أخبره أنهم يريدون احتلال مصر ووضعها جبراً على مبدأ مكهاون القائل : « ان هنا ولن أخرج » وقد قال نشامبرلن : « لقد أخرجنا مركز الرجل ( غلادستون ) فليس له مناص الآن من الحرب » ولذلك سأنتظر الحوادث . وحريدة الأبرزور تتوقع نهديداً آخر أو بلعاً أخيراً . وعناية الله الآن هي الموكلة على ما يحدث . ( ان ما ذكرته هنا عما أخبرني به لاسل ذو أهمية تاريخية . فقد كل في مركز

كما قاوم جيوش واسلي . ولم تكن كل هذه الاقوال سوى تسمية الاكاديب الرسمية التي اعنتها وزارة الخارجية لكي تعتد بها عن تصميمها على التدخل لمصلحة المايين ويمكن أن يراها الانسان في خطة لورد دوفرين في افتتاحه مؤتمر الاستانة وهي بليفة في الاكاديب الفجة . فان السير الانجليزى يقول قبل ضرب الاسكندرية ان حالة مصر حالة الفوضى حيث لا تؤمن الارواح أو الاموال وحيث تقع المذابح بواسطة عرابي وجيشه وضباطه الآخرين الثمردين . ولكن كل ذلك يمنع الحكومة من ان تعمل لاستتباب الامس أو بلوغ حالة الثبات المالى . وقد أوصحت فيما سبق مبلغ المبالغة في وصف حالة مصر بهذه الاقوال ومبلغ المعتريات والاكاديب التي فيها . وما تحتاج اليه الآن هو تقرير المسئولية التي تقع على عاتق عرابي في ضرب الاسكندرية (١)

فليس هناك ريب في أن عرابي كان يقول بالاستعداد الحربي بعد ارسال

---

(١) قال لورد دوفرين : « ليس من المبالغة ان نقول انه منذ بضعة أشهر قليلة كانت لغوضى التامة منتشرة في مصر . فقد رأينا عصابة حربية ترتكب الجرائم دون ان تنته شي ، ما كما هودأب العصابات التي من هذا النوع حتى صار العصيان تمرداً والتمرد ثورة والثورة استيلاءً للسلطة العليا . وكانت النتيجة أن ادارة البلاد وقعت في الارتباك .

«وقفت حركة التجارة ولم يعد الفلاحون قادرين على دفع الضرائب لأنه ليس هناك من يشتري علاتهم . ونزلت ايرادات الحكومة لهذا السبب . وقد أدت هذه الحال الى الاضرار بمصالح التجارة التي يشتغل فيها دعايا الدول العظمى . وليس هذا فقط بل أن الارتباطات التي ارتبطت بها مصر لفرنسا وانجلترا قد جعلتها وقد فصل الموظفون الذين عينوا لكي يراقبوا تنفيذ شروط هذه الارتباطات من وظائفهم وهدم النظام الذي ابتدأ أن يظهر أثره في منفعة العالين . ولم يخسر الدائشون حسائر جمة فقط بل أن حياة الاوربيين لم تعد في أمن كما تدل على ذلك مذبحه الاسكندرية التي قتل فيها الرعاع عدداً كبيراً من أبرياء الاوربيين »

الندكرة المشتركة في ٦ يناير ولكنه كان طول هذا الوقت يطلب السلام لا الحرب فقال بالمقاومة لا بالحرب ولم يكن منفرداً بهذا الرأي ثم ان وصول الاسطول لمياه الاسكندرية قوى مركزه وضم الى رأيه رأى الجمهور . ذلك انه كان أمام الجمهور مثال تونس فكان من المحال أن لا يرى المصريون ماذا كان يجباً لهم على أيدي الدول الأوروبية . فانهم كانوا يفهمون معنى إيجاد حالة كاذبة من الفوضى والفتنة تبرر بها الدول التدخل لحماية أرواح الأوربيين وأملأكم ثم القرض عنوة أو اعراء على حاكم البلاد مدعوى حمايته هو أيضاً من رعاياه الثائرين ثم احاراه على قبول الحماية الحربية . فقد فعل الفرنسيون ذلك في تونس ومجحوا فكانت الية إعادة هذا العمل في مصر على يد الانجليز . فلم يكن من الصعب أن يفهم الوطنيون وهم يرون هذه النتيجة المتوقعة ان المقاومة أشرف من التسليم .

وكان صوت عرابي ذا أهمية كبرى في رفض طلبات أمير البحر ميمور في ١٠ يوليو ولكنه لم يكن في حاجة الى الالتحاح في هذا الطلب أو التهديد لتعنيده . فان المجلس العام الذي عقد للقرار على الرد لم يتردد في الحكم بأنه ليس من حق الخديو أن يتزل عن شيء من أرض مصر طاعة لاوامر دولة أجنبية دون أن يحصل على رضى من السلطان بهذا الصل . ولم يكن الخديو نفسه معافاً لهذا الرأي . وكان في هذا المجلس عدد من الممثلين من غير اعضاء الحكومة وكانوا جميعاً يلحون في الدفاع عن الحصون وكان الخديو يشاركهم في هذه الالهة الوطنية يعاونه في ذلك ممثل السلطان درويش باشا . ولم يجرؤ أحد من المسلمين الحاضرين في هذا المجلس حتى سلطان باشا الذي انضم نهائياً الى الانجليز أن يعلن بأنه يمكن قبول طلبات ميموره . وكانت النتيجة أنهم قرروا بالاجماع تعيين عرابي وزيراً للحرية والبحرية وان يستعد للدفاع عن الحصون وان يقاتل الانجليز اذا أطلقوا النار على الحصون ووافق الخديو على كل هذا . وأرسلت أوامر مستعجلة لوكيل الحرية في العاشر من الشهر بأن يعلن في انحاء القطر بأن الحكومة قد عقدت بينها على الحرب وانها تدعو الرديف وتنوى تأليف فرق جديدة من المجندين . وقد يقال ان الخديو لم يكن مخلصاً في موقفه عند ما وافق المجلس على الحرب . وليس من يشك في ذلك . فان

جميع أعمال توفيق العمومية كانت على الدوام تدل على عدم اخلاصه . والارجح انه هو وسلطان باشا قد اتفقا قبلا على أن يتظاهرا بالوطنية حتى يحميا بالرأى العام في حالة ما اذا ثبتت المحصور ولم تنهر امام الاسطول الانجليزى . ثم يجب ألا ننسى ان معوثى السلطان كانا حاضرين في المجلس وكانت خطة الحكومة الانجليزية في ذلك الوقت وهي الخطة التى كانت نعلنها على الملأ انها لا ترغب سوى أن يتدخل السلطان في الرراع وكان توفيق كمادته يلعب دوراً مزدوجاً وعائنه أن ينضم الى الفريق المنتصر .

و في الكتب الرق رسالة عربية تظهر لقارى ما قاله الحديوي لمتشابه الانجليز . فقد أبلغ في السادس من الشهر عن عزم سيمور على ضرب الاسكندرية وطلب منه كما يظهر ان يذهب الى احدى البوارج الانجليزية لكي يكون بعيداً عن الاذى ولكن هذا الاقتراح لم يتفق ومخاوفه التى كان يحسب حسابها في المستقبل . فأرسل الى كولس يخبره عن خطته في المحافظة على نفسه وقت إطلاق النار على المدينة . وهو يقول في رسالته هذه انه ليس له مناص من البقاء في مصر . فانه لا يستطيع أب يتحلى عن أولئك الذين وقفوا في صفه مدة هذه الازمة . وانه لا يستطيع ترك مصر عند هجوم دولة أجنبية لانه يقال عندئذ انه لم يراع سوى سلامته الشخصية . فهو لذلك سيذهب الى قصره على ترعة المحمودية ويبقى هناك مع درويش باشا . وقد لاحظ أيضاً في رسالته هذه انه اذا انتهت هذه المسألة بسرعة كان ذلك أسلم عاقبة له . وكان هذا هو البرنامج الذى اتبعه ولكنه بدلا من أن ينزل في قصر المحمودية نزل في قصره بالمرمل وهو يبعد نحو ثمانية أميال عن الاسكندرية وكان آمن من قصره السابق الذكر لبعده عن مدافع سيمور .

وبعد الحرب بمدة قصيرة قابلت سيرشارلس ريسفورد . وكان مدة الضرب يقود البارجة كوبردور وعين بعد ذلك أميناً على الاسرى في الاسكندرية قتال الى أقوالا تدل على تردد توفيق باشا اذ صرح له أحد الايام بالسبب الذى دعاه الى البقاء في الاسكندرية مدة الحرب وهو عدم تيقنه من معرفة الفريق الغالب . فقد كان المعتقد في مصر ان الدوارج سيفترقن وقد قضى يوما كاملا في قصره بالمرمل

وهو في أشد القلق والارتباك فكان يصعد من وقت الى آخر الى سطح القصر ويصدر الى الاسطول لكي يطمئن على سلامته ولم يقر رأيه على أن ينضم نهائيا الى سيور الاعداء ما جاء الماء. ورأى الدوارح كالملة لم تنقص بينا الحصون قد أسكتت وارى هنا من اللازم ان أوضح القارى ان اقامة برسفورد القصيرة في الاسكندرية قد جعلته يحترق توفيقا أشد الاحترار كما جعلته يعطف بعض العطف على عرابي والملاحين الذين حاربوا على الرعم من تخلف أميرهم وعدم قيامه بواجبه.

ولكن سواء أصبح هذا الذي ذكرناه أم لم يصبح فان رضى توفيق باعطاء اسمه لقرار المجلس بصدد الدفاع عن البلاد الى النهاية قد صنع الحرب صبغة شرعية بحيث لم يعد لاوامر الحديو التي أصدرها بعد ذلك مخالفة لهذا القرار - وذلك عند ما انضم الى جانب الاعداء ضد بلاده - قيمة شرعية. وعليما نحن ان نذكر ذلك اذا أردنا أن نفهم موقف الوطنيين وقت المحاكمة وموقفهم بعد ذلك عند ما تجلى لهم غدور الحديو. فان الرأي الاسلامي عن الحرب سهل واضح - فهو يقول بأنه متى نشبت الحرب فعلى الزوال والامة ان يستمر فيها حتى يحقق النصر أو تنزل بهما الهزيمة. واذا أسر الزوال فليس له حق اعطاء الاوامر. وليس للوالى الخائن من باب أولى هذا الحق أيضا. وكان المصريون ينظرون الى توفيق بهذا الروح حتى رده الانجليز الى مركزه وقلوب الامة نائية عنه وليس في التواريخ الانجليزية شي. مما ذكرناه هنا بل ترى بعكس ذلك مديحا لتوفيق لولائه لانجلترا وكيفية ثباته على خدمتها دون خجل الى النهاية. وسأعود الى هذا الموضوع.

وهناك نقطة أخرى وهي تحديد المسؤولية بصدد حفظ النظام وتنفيذ القانون وقت الحرب وتدمير الخطط في هذه الحرب ومبلغ اشتراك عرابي وسائر الوطنيين فيها مدة هذين الشهرين الحافلين بالحوادث. فهذه هي الحقائق التي استطعت أن أتحقق منها.

لستين انه لا يمكن الامة أن تنظر الى الحديو باعتباره رئيسا للحكومة بزوال حقنه في إصدار الاوامر ألف مجلس عمومي ودعى أعضاؤه للنظر فيما يجب عمله. وكان الداعون الى تأليب هذا المجلس من رجال الدين وسائر طبقات الامة أكثر.

كثيراً من الداعين اليه من رجال الجيش . ولم يحضر عرابي اجتماع المجلس العمومي لانه كان عائباً مع جيشه في كفر الدوار ولم يزد القاهرة مدة الحرب أو يتدخل في إدارة الشؤون هناك . وكان المجلس حادياً لعدد كبير من الاعضاء . وكان فيه العلماء ورؤساء القضاة التركي والمفتي وشيخ الاسلام ورؤساء المذاهب الأربعة وكان كباراً . نواب المسلمين هناك وبينهم أربعة من أسرة الخديو آخوند عذهب الوطنيين . ودعى اليه أيضاً عدد كبير من مدبري الاقاليم وعدد كبير آخر من الاعيان وكان هناك أيضاً من غير المسلمين بطريق الاقليات وحاخام اليهود .

فكانت قرارات هذا المجلس صحيحة من حيث أنه كل مؤلفاً من أعضاء يوبون عن جميع الطبقات والطوائف . وكان أكبر الزعماء فيه يشعرون الى أصل شرطي ولكم كانوا باعتبارهم مسلمين محلصين يرون ان المسألة قد انتهت الى مأزق يضطر الأمة الى مقاتلة دولة أوربية عارية وان هذه الحالة تقتضي أن لا يصن بمحرمات أية كانت في سبيل الدود عن البلاد بصرف النظر عن الخلافات الحزبية . وقد قرر هذا المجلس بالاجماع ان الخديو لم يعد في مركز يسمح له بقيادة الأمة وان أوامره ما دام في أيدي الانجليز لا قيمة شرعية لها . وكان أول ما عمله توفيق في موقفه الجديد انه فصل عرابي من وظيفته وهي وزير وزارة الحرية . فقرر المجلس إبقاء عرابي في وظيفته وأمره بأن يستمر في الدفاع عن البلاد . وتألف مجلس دائم لكي يعاونه في اتخاذ سبل الدفاع وكان هذا المجلس برئاسة يعقوب باشا سامي وهو رجل قدير فكان وكيل وزارة الحرية . وأحد في نهضة أسباب التجديد مدة الحرب ومد الجيش بالمؤن والذخائر . أما من جهة إدارة البلاد فانه بالأسبعية لغياب راغب باشا في الاسكندرية ومعه سائر الوزراء الذين حجزهم الخديو وحرصه الانجليزي تقرر أن تسير الوزارات على ما ألفته من الاعمال . وسار العمل على هذه الطريقة دون أن يحدث أقل إهمال لأن وزارة راغب كانت في الحقيقة وزارة اسمية فلم يؤثر غياب الوزراء في سير الاعمال أقل تأثير . والحقيقة ان صلاحية الحكومة في ذلك الوقت لأداء واجباتها كان ظاهراً ككل الظهور حتى ليصح أن تقول ان مصر لم تر حكومة أصلياً من الحكومة التي أدارت شؤونها وقت الحرب . فكانت وزلولة



مداحلية يدبرها ابراهيم بك فوردى الوكيل وكل يدبر الوائيس اسماعيل اعدي حودت وكلا الرجلين من أهل الكفاية والندرية وقد جمعوا الامن في ذلك الوقت المضطرب في جميع أنحاء البلاد . وقد حاول اثنان أو ثلاثة من المدبرين الشراكة أن يقتلوا عمر لطفي محافظ الاسكندرية في احداث القلاقل في المديرية خدمة لتوفيق فقبض عليهم واعتقلوا الى نهاية الحرب . ولم يحدث بعد هذا أى اضطراب . وقد حوفظ على الاوروييس الذين ظلوا في القاهرة بعناية تامة وكان أولئك الذين برعوبون في مغادرة البلاد يخفرون الى يوسعيد .

وليس هناك أكذب من قول لورد دفرس في مؤتمر الاستانة ان المسيحيين يذبحون كل يوم في مصر . وهكذا كانت الحال أيضاً في سائر المصالح والادارات . فلم يتعطل حيي الصرانب ولم يتعطل الصرف على المرافق العامة . ولما انتهت الحرب كانت خزانة الحكومة في حالة التوازن الواضح فلم يظهر أى عجز عند ما سلمت الى موطنى الحديو بعد معركة التل الكبير ولم يسرق منها أى شيء . ولم يظهر في دفاترها أى تلاعب وكانت الحاكم تسيير سيرها الطبيعي ولم تكن هناك أى علامة تدل على ان البلاد تعيش في أوقات شاذة . وعند ما انتهت الحرب كل في مخازن الحرية من المؤن ما يكفي الجيش أربعة أشهر استولى عليها جميعها الخزانة ولسلى .

وبقى مركز عرابي ذا صبغة سياسية فقط فكان يدبر شؤون وزارة الحرية ويدبر شؤون القوات الى أن وصل ولسلى الى التل الكبير فاضطر عندئذ أن يأخذ القيادة على عاتقه . وكان مقامه بين العلماء والملاحين في الوجه البحرى من أكبر البواعث على بث الحماة في صدور الاهالى وكانت الامدادات تتدفق لهذا السبب على وزارة الحرية مجانياً . ولكن المتطوعون يتوافدون لهذا السبب أيضاً . وكان عرابي بهذه المثابة ذا فائدة كبرى للأمة وقد أحسن صنعا في عدم أخذه القيادة على عاتقه في ميادين القتال . وقد عزا أعداؤه ذلك الى جبنه ومن الصعب أن يكذب الانسان هذه الدعوى أو ينفي هذه التهمة . فان عرابي كان فلاحاً لا شائبة فيه فلم تكن فيه تلك الغرائز الحرية التي توحدهد بعض الشعوب ولكنها غير موجودة عند الملاحين فقد كانت شجاعته من نوع آخر ولم تكن من النوع العسكري ثم هو لم يشاهد

معركة حرية قبلا . والارجح انه كان يعرف هذا القص في نفسه كما كان يعرف أيضاً جهله بالمعارف العلمية التي كانت تطلها الحروب . فهو لم يحظ بترية حربية حديثة ولم يكن له من التجارب سوى ما عرفه من التجارب العسكرية التي تدرب عليها في الثكنات وأطن انه لو دعى الى عمل متاوردة بقصد العرض لما استطاع ذلك

ولكنني أظن مع ذلك أن السب الحقيقي في عدم حمله عب القيادة في ميادين القتال انه كان في ذلك الوقت رئيساً للحكومة وانه بهذه المناطة لم يكن ينتظر منه أن يقود الحىوش بنفسه . ومع ذلك هذا لا يبرئه في نظري راءة تامة ولم يبرئه بنو وطه كذلك هم يلومونه بحق لأن سيفه لم يصطلق بسيف العدو ولا في أواخر أيام القتال .

ولست أدعى معرفة تفاصيل سير القتال مدة الحرب ومع ذلك سأحاول أن أدومها هنا حسب ما علمته من المصريين لا من الانجليز . ولسوء الحظ هرب صابو ينجي قبل ضرب الاسكندرية مع سائر المارين . وبقيت بلا أخبار حتى نهاية الحرب . وليس في أوراق التحقيق في محاكمة عرابي ما ينير المارى . في هذا الموضوع . وجميع ما جمعت من هذه التفاصيل أخذته من الاقواء بعد الحرب من أناس شاهدوها أو اشركوا فيها ومثل هذه المعلومات تكون بالطبع غير دقيقة من حيث ضبط التواريخ والأرقام .

وكان الاوربي الوحيد الذي اشترك مع الجيش المصرى في الحرب هو الرجل السويسرى صديق الوطنية المصرية جون تينيه

وكان جون هذا في مركز يسبح له بأن يعرف شيئاً كثيراً مما كان يجرى لأنه قضى الشهر الأول من الحرب في كفر الدوار مع عرابي وكان يعاونه في مكاتباته مع الاجانب وقد تحدثت عدة أحاديث الى تينيه هذا . ولكن بما يحل روايته أنه شديد التحس للعرابين وقد وضع كتابا في سنة ١٨٨٤ وهو ظاهر الاهمال كثير الاستسلام للجدليات بحيث أنه لا يمكن القارى . أن يثق به كل الثقة . زد على ذلك أن تينيه لم يكن مع الجيش عند ما شرع الانجليز في حملتهم الحقيقية فانه بقى في كفر

الدوار حين كان الجيش في التل الكبير . وما علمته عن الحرب يمكنني أن أقوله هنا باختصار .

لما ضربت الاسكندرية ثبتت المدفعية المصرية للاسطول عدة ساعات أكثر مما كان ينتظره سير سيمور أو أحد من ضباطه . وكان المصريون يعانون شدة عظيمة لقدم القلاع التي كانوا يدافعون عنها . وكانت هذه الحصون من عهد محمد علي وكانت واجهاتها مبنية من الاحجار كما كانت العادة وقتئذ . ولكن الاحجار تعود بالضرر على المدافعين لانها تنفقت شظايا وتزيد قوة انفجار القنابل المعادية . ولم يدرك هذا النقص أحد حتى محمود همي نفسه وهو مهندس كبير في الجيش فكثرت الاصابات بين المدافعين . وتقول الكتب الزرق أن حامية الاسكندرية كانت بين ٨٥٠٠ و ٩٥٠٠ جندي وهذا العدد يوافق على وجه التقريب ما ذكره الوطيون . وبلغت الاصابات نحو الم بين قتيل وجرع . فإذا كانت هذه الارقام صحيحة فالتسبة في الاصابات عظيمة . وعلى كل حال فإن شرف الحامية موقور وكان ثباتهم أول ما دعا الى رد الفعل في الرأي العام في إنجلترا وقد ظهرت هذه الحالة بوصوح في الاسابيع التالية . وكان عمل عراي في الدفاع عن الاسكندرية كسائر عمله في الحوادث التالية غير مهم . فقد بقي مدة الضرب في دار البحرية وهي ليست بعيدة عن رأس التين فلم يكن بعيداً عن قتال الاسطول ولكنه لم يذهب للتفتيش على الحصون الا عند ما كلف الاسطول عن الصرب . وكان قد اكتفى بأن يصدر الاوامر ويتلقى الاخبار . وفي المساء ذهب الى الرمل لكي يخبر الحديو بالنتيجة وكان توفيق هناك في قصره فاخترع لكي يخبر سرورده مشاجرة سحيقة لان عراي لم يكتب له تقريراً عن حوادث اليوم .

ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف أن عراي لم يدرك المهمة التي كان يتجه اليها ميل الحديو والارجع انه كان يعرف ذلك فانه في صبيحة اليوم التالي أرسل الحديو حرساً قوياً لحمايته في الطاهر والحقيقة أنه كان يريد مراقبته وأرسل اليه أيضاً رسالة يقول له فيها أنه بما أن سيمور يهدد بتجديد الضرب فانه يدعو الى أن يتراجع الى حيث لا تصل اليه مدافع الاسطول وأشار عليه بالفرار الى القاهرة . وكان يجب على عراي

أن يذهب معه الى نوفيقي ويجبره على قبول دعوته ورفض جميع تعالانه ويحمله معه سجيناً لابل مثل ماي تونس كلان أمامه ثم هو لم يكن يحمل مكر الحديو وانه لا يمكن الثقة بشرفه . وكان خطأ عراي هنا قاضياً عليه والطاهر أنه كان مشغولاً ذلك اليوم بمألة جلاء الخنود عن الحصون فلم يكن عنده من الوقت متسع لزيارة الحديو مرة أخرى . وفي أصيل ذلك اليوم تمكن الحديو بارشاء العمال من السفر الى الاسكندرية في القطار الذي كان قد أعد لفته الى القاهرة فصار بذلك في حياية سيمور الطاهرة . وقد حمل معه على القطار أعصاب وزارته ودرويش باشا فكان هؤالا بذلك شركا . في الحياية . فلما صار الجميع في رأس التين تخرجهم قوة من البحارة الانجليز تابع سيمين رحلا صار الجميع في الواقع أسرى حرب . وتمكن درويش الذي كان له يمت خاص وكان قد حاشته أوامر مستعجلة من الاسنانة بالفر اليها من أن يخرج من هذا الاسر المهين وسافر على الزعم من الاسطول الذي حاول رحاله أن يمتعه من السمر . أما راعب وزملاؤه الوراء فأنهم بعد أن وقعوا في الشباك رضوا بالمحالة ويقوا في رأس التين خدماً للحديو الى أن أنشئت شبه حكومة شرعية تولوا ادارتها الى حين جاءتهم الوزارة الانجليزية المحصة قفضت على ساطعهم . وكان عراي يحمل طول هذا الوقت أنه خدع وكان أيضاً مشغول البال بنقل القوات الى خط الدفاع الآخر في كفر الدوار .

وأطن أن اختيار هذا الموقع الحسن يعرى الى فطة محمود فهي المهد من فان كفر الدوار على محطة السكة الحديدية الموصلة الى القاهرة وعلى جانبيه أراض مستنقعة . ولم يكن هالك أنفع من هذه البقعة لكي تكون معسكراً حديداً للجند وقد كانت بعيدة عن مدافع سيمور ولم يكن في وسع جيش معاد أن يقترب منها الا على طريق السكة الحديدية الضيق فكانت بذلك حصينة من جهة الاسكندرية بينما هي مفتوحة السبل من جهة الدلتا وما فيها من كنوز الذخائر والامداد . وكانت الطريق بينها وبين القاهرة واصله . وتمكن الجيش المصري هنا من مقاومة الانجليز حمة أسابيع يرد هجومهم ويطاردهم الى أبواب الاسكندرية تقريباً ولو لم يكن هناك باب آخر للدخول الى مصر لنجح الوطنيون وكسوا الحرب

أما عن احراق الاسكندرية فاني لم أستقر على رأى في مقدار نصيب الجيش المصرى فيه . فقد أنكر عرابى كل الاسكر أنه أمر بهذا الاحراق . واعتقضى أن مثل هذا العمل يحتاج من النشاط العظيم أكثر مما يأتلف ما درج عليه عرابى من التهاون واللين بحيث أرى من الانصاف أن يرفض هذا الرأى . ومن الواضح أنه قد اعتبر هذا الحريق طرفاً ملائماً لأنه لولا لهلك هلاك كبير في استطاعته الحلاء بمجرده الى كسر الدوار لان حيشه كل مهروما . نعم لم تكن قوته المعنوية قد ذهبت تماماً ولكنها كانت قد ذهب لو نزل الحدود الانجليز ووقفوا على السكة الحديدية لمنع التقهقر . وقد كلف الانجليز يدبرون الوسائل لايقاع عرابى وحيشه في الشرك في الاسكندرية وربما كان سبب امتناع سيمور عن ارال الخنود للبر هو مكيدة وضع الراية البيضاء وشعاعة الخنود التي لم تكن منطرة . وقد مكن حريق الاسكندرية عرابى من التقهقر الى كسر الدوار وأعطاه من الوقت ما استطاع به أن يرد الى حيشه قوته المعنوية .

وقد كان تبنيه باسكندرية مدة ضربها وهو يعزو الحريق إلى قبائل الاسطول والاربع أن هذه هي الحقيقة . لأنه لو لم يكن الاسطول سبب ذلك لما دعر الناس وتركوا سارلم في اليوم الثاني عشر من الشهر . ثم لو كان الضرب مقصوداً على القلاع كما كان يدعى البحارة لما هجر الناس سارلم اذ لم يكن ثمما يدعوم الى ذلك . وسواء أكان الضرب حدث قصداً أم اتفاقاً فالتبنيه يعزو الحريق اليه . ومن المحقق أيضاً أن الحريق قد مد عمداً إلى الحي الاوربى وأن مؤخرة الجيش هي التي فعلت ذلك وكانت قد هجرت الاسكندرية في حال غير منتظمة فأخذت في النهب الذي كان قد شرع فيه بدو المدينة قبل هذا الوقت .

من المؤكد أيضاً أن عرابى لم يسأل سليمان باشا قائد المؤخرة ولم يحقق معه عن هذا النهب . ولست أعتبر هذه المسألة ذات قيمة أدبية لأن مثل هذا العمل يعد من الاحتياطات التي يجوز لأي قائد أن يتخذها لكي يؤمن طريق تقهقره ويمنع العدو من انزال الحدود الى البر . ولكنه مهم من الوجهة التاريخية لذلك أقول أن عند وزن البيانات أجد الجيش قد اشترك في تقهقره في الاحراق . ولم يكن اشتراكه بتبعة

الفوضى والارتباك الشائنين عن التفهم . ولما كانت الريح هب بشدة في ذلك الوقت امتدت النار وما جاء نصف الليل حتى كانت المدينة لهيباً يحترق .  
ولكن كل ذلك لا يقلل ملمع النعمة الملقاة على حكومتنا في تدمير المدينة لانه لو لا سو ، نطار وكلانا في تقدير العواقب لكان يمكن التنبؤ بكل ما وقع والاحتراز منه ولما أرسح الجيش أقدامه في كفر الدوار في ١٣ منه وقف ينتظر الحوادث .  
فأخذ عرابي مركزاً له إلى شرق الجيش من ناحية القاهرة ورسم محمود فهمي خطوط الدفاع وعادت بذلك الطمأنينة والثقة إلى القلوب .

أما الفارون من الاسكندرية فقد أرسلوا بالتدرج إلى داخل البلاد فأخذوا قلائق عديدة لأنهم كانوا في حال شديدة من العصب فكانوا على الدوام يرغبون في الثأر عما لحقهم ممن يقابلونهم من الاوربيين أو المسيحيين الوطنيين . وكان في سلطان مدير شركسي يدعى ابراهيم آدم وكل يعرف أن الخديو وبلاطه ينظران بعين الرضى الى ما يحدث من القلائق بين المسيحيين والمسلمين فعمل على إحداث ما أشبه أن يكون مذبة . ولولا تدخل أحد الوطنيين ، وهو أيضاً صديق عرابي أعني به أحمد مشاوي بك الذي أخذ هذه الفتنة بتابعه من الفلاحين على الرغم من المدير لامتدت هذه المذابح إلى البلاد الاخرى . ثم قبض على المدير وأرسل إلى القاهرة فاعتقل هو واثنا عشر آخراً لم يكن يوثق بها إلى نهاية الحرب . ثم لم يحدث قلائق بعد ذلك .

وفي مساء ١٤ منه وصلت الى عرابي رسالة من الخديو ذكرها تينيه ولكنها لم تذكر في الكتب الرق . وهي وثيقة خطيرة لانه يظهر ان الذي أملاها على الخديو هو كولفن أو أحد مستشاريه الانجليز لأنها تدل على وجه النظر الانجليزية في ذلك الوقت . فهي تنبدي . بذكر سبب القتال وانه نتج عن عدم مواظبة عرابي على طلب الاسطول الانجليزى بمخصوص تحريد الحصون من السلاح وان أميرال الاسطول لم يكن يرغب في الحرب مع مصر وانه يرغب الآن في إعادة العلاقات الودية مع البلاد المصرية . وانه مستعد لان يسلم المدينة لجيش نظامي مطيع وفي حالة عدم محبي . هذا الجيش فانه يسلمها للجيش العثماني . ولكي تقل ادارة المدينة من هذه

حال الى الحال الحديدية فان الحديد يدعو ودير الحرية لأن يحضر اليه ورأس التين لكي يتفاوض مع راعب باشا وسائر الوزراء في هذا الشأن . ثم تقب الاعمال الحرة اذ لم تعد منها فائدة .

ونحن نعرف من الكتب الزرق أن هذه الدعوة اما كانت شركا براد إيقاع عرابي فيه لكي يصير في أسر الانجليز . وذلك لاننا برى في رسالة تلغرافية من كرزيت الى لورد جرانفيل ارسلت اليه في ١٥ منه ما يأتي : « طلب الحديد من عرابي أن يحضر الى هنا فاذا أتى سيقبض عليه واذا لم يأت يعتبر عاصياً خارجاً على القانون »

وهذه الحادثة تدل القارىء على مبلغ استسلام توفيق للانجليز حتى صار اللسان مطلق عن خطتهم وكيف ان الحكومة الانجليزية ابعت طرق الحكومة العثمانية في بعد بالخارجين عليها . وكلن جواب عرابي للحديد ان سموه هو ودرويش باشا هما اللذان حضاه على رفض طلبات سيمور وطلبا منه أن يباركه القتال اذا هو اتع تهديداته بالعمل الحربي . وأن الواقع الراهن ان الحرب موحدة وانه لا يمكن الجيش أن يرجع الى الاسكندرية الا اذا خرج الاسطول من الماء . وأعقب ذلك أن الحديد نشر منشورات مطبوعة لكي ترسل الى المديرين واحباء البلاد يقول فيها : بما أن عرابي قد رفض أن يسافر الى الاسكندرية لكي يتفاوض مع الوزراء . فقد فصله الحديد من وزارة الحرية . وكلن طبع هذه المنشورات هو الذي دعا الى عقد مجلس عمومي بالقاهرة أقر عرابي على البقاء في مركزه كما ذكرنا آنفاً .

كان الشهر الذي تلا هذه الحوادث حافلاً بالآمال في نظر جميع المصريين ولما تخلص الأهالي من ربقة ولائهم للحديد بانضمامه الى الانجليز أخذوا يظهرون وطنيتهم دون أن يستروها وقد تيقنوا في ذلك الوقت أنهم بحاربون من أجل حريتهم وكان الفلاحون قد استغرقهم الديون التي للدائنين اليونانيين عليهم فكان هذا من أسباب حماسهم لانهم توهموا أن الحرب تخلصهم من هذه الديون فصاروا يمدون الجيش بالأموال والرجال وظهر بعد ذلك ما يأم أن انحاذ كفر الدوار مركزاً للجيش جاء موثقاً لوطنيين لان الجنرال اليسون حاول أن يهاجم الجيش

لعدة آلاف أنزلها إلى البحر فارتد مهزوماً وهكذا تعلقت الآمال باطالة الحرب بعدة طويلة بهذه الطريقة وكان عراي لا يزال وزيراً للحربية ولكنه كان أهم عصب في الحكومة وكان يتواعد إليه أيام البلاد والعلماء والتجار وكان يقبض في سرادق عظيم كان يملكه سعيد باشا أهدنه زوجته إلى عراي عندما كان ياور زوجها وكانت نازلي هام وبعض الأمراء يظهرون إعجابهم ببطولة عراي بهدايا عديدة يهدونها إليه .

وقد وجدت ما يلي في مذكراتي عن سنة ١٨٨٧

« زرت اليوم الأثيرة نازلي وهي ماهرة بمقدار ما هي جميلة وحديثها بارع ولو وجدت في أي وسط لرائته وقد أخبرتنا عن أشياء كثيرة خاصة بعراي وهي تعجب به وتأسف لمصيره ولا تل من الكلام عن زواجه أغراضه ومما قالته أنه لم يكن جديداً حساً لأن قلبه كان أطيب من أن يساعد على ذلك . ولو كان رجلاً بسيطاً ويصف مثل محمد علي لأخذ توفيقاً مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رؤوسهم وصار أميراً على البلاد ولو استطاع أن يجعل الخديو يسلط معه مسلط الشرف لجلسه ملكاً على البلاد . وكان عراي في رأيها أول وزير وطني جعل الأوربيين يحترمونه ويخضعون له . وكان المسلمون في وقته يرفعون رؤوسهم ولا يمكنوا الأوربيين أن يحالفوا القوائين . قالت وقد أخبرت توفيقاً بكل هذا فان المصريين الآن يخضعون للقوائين بينما الأوربيون لا يكثرثون لها . »

ولا أنكر أن التعلق قد أضر عراي وأنه أثار الحسد الذي كان سيء العاقبة . عند ما جاءت الأزمات فإن الفروض وقتئذ كان أنه إذا نجح عراي في صد الانجليز فإنه سيكون رئيس البلاد وشعر الضباط الذين كانوا حاصلين على تربية أعلى من رتبته والذين كانوا يعرفون أنه فلاح سادج وأنه سيتفوق عليهم فأعضبهم هذا الخاطر . وكان عراي يستشعر هذا الشعور فحصى في أحلامه بتحليل أن الاقدار قد حابته وهيات له مستقبل عظيم وجعله في مركز الخلف لامت . وكان يحيط نفسه برجال الدين لأنه كان مسلماً ورعاً وكانت الاوقات التي يحب عليه أن يقصها في تطعيم وسائل الدفاع بصرفها في الأدعية والصلوات ويظهر أنه لم يقطع عن هذه الاعمال إلى النهاية . ومن الصعب أن يعرف الإنسان ما كان هياه من التدابير الحربية . ويقول تسيه أنه كان



يعتقد انه اذا طاللت الحرب فان اوروبا ستضطر الى الاتحاق معه . وكان المؤتمر معقدا في الاستانة وكان اعضاءه يحضرون السلطان على التدخل وكان أكبر ما يخشاه السلطان من دخول الحدود التركية ان تتأخر مع الحدود المصرية عند التقاء الجيشين . وكان عراقي يعرف أن مسلمي العالم ينظرون اليه باعتباره رعيي الاسلام وبصيره وذلك لأن حجاج الذين عادوا من الحجاز أحبروه بذلك فكان يرى انه من الصعب على سلطان أن ينضم الى اعدائهم وبخاربه . ثم كان أيضا لا تزال عنده بقية من الثقة في علاءستون وكان يعتقد ان الانجليز يحسون الحرية وأنهم سينصرونها اذا عرفوا حقيقة وادركوا ان المصريين ثابتون على وطنيتهم وقد كانت كل هذه أحلاما يدر عليها لأن غيره كان يعتقد صحبها ولنحاحه بعد حوادث الستة الاشر السابفة .

ولما أنزل ولسلي بعض جوده للبر ووجد خطوط كمر الدوار حصينه وعاد عنها وحده الوطنيون في القاهرة اهم بحسب عليهم محصبين مصر الشرقية من ناحية قال سويس . فعبا على هبي حيث في القاهرة وسار به حتى احتل القناة ورسمت خطوط الدفاع في التل الكبير

ولم تكن الى ذلك الوقت قد عمل منها شي . على الرغم من التحذير الذي سبق ان ارسلته لمحمد عبده . ثم ظهر أيضا وجوب سد القناة من الجهة الشمالية خوفا من أن يسارع الانجليز الى احتلالها بيوارجهم فيزلوا جودهم في الاسماعيلية . وكان الرأي المتفق عليه بالاجماع بين الضباط وجوب هذا العمل ولو كان بالرغم مع شركة القناة . ولكن عراقي — وهذه هي غلطته الثابتة — بقي مترددا في هذا الشأن . وكان تردده ناشئا عن التأثير الفرنسي فان مسيو دلبيس كان قد وصل الى الاسكندرية في أواخر يوليو ولما علم بنية الانجليز في استعمال القناة خاف وفزع من ذلك وسافر الى بور سعيد وجعل يناشد عراقي بشرفه أن يمنع وصول الحرب الى القناة . وكان دلبيس رجلا كثير الثقة بعصه وكان يعتقد أن وجوده وحده يكفي لتخويف حكومتنا وكان يقول أن القناة أرض محايدة يجب ألا يقربها أحد المتحاربين . وبعد الحرب عند ما كنت مشتغلا بالدفاع عن عراقي كنت اليه أسأله أن يرسل الي ما يمكنه أن يكون في مصلحة عراقي مما يشهد هو به قايما بواجبه لتقدم والانسانية ، فارسل الي

صوراً من خطابات أرسلها اليه عراقي في ذلك الحين ولكنه لم يرسل الى النسخ الاصلية ( وقد نشرها في ملحق الكتاب ) ومن هذه الخطابات يتبين للقارى . أن عراقي قد ضلل به .

وبعد مكاتبات أولية نجد عراقي يوضح رأيه في هذا الشأن . فقد كان في القاعة عدة بوارح بين الاسماعيلية والسويس بقيادة الاميرال هيوث وكتب دلسبس يشكو من أنهم يشرون منشورات بين سكان شاطي . القاعة .

وقد رد عراقي على دلسبس في هذا الشأن فأذكر حق الاميرال هيوث في اداعة هذه المنشورات وقال انه أرسل هذا الرد بناء على اشارة المجلس وأنه موافق على رغبة دلسبس في حيدة القاعة « وخاصة لأنها من الاعمال العطى التي سيعيش اسم سعادتك في التاريخ لانكم قتم بانعامها . ولي الشرف أن أجبركم بأن الحكومة المصرية لن تنهك حرمة هذه الحيدة الا في الحالة القصوى وفي حالة ارتكاب الانجليز أعمالاً عداية في الاسماعيلية أو بور سعيد أو أي نقطة أخرى من القاعة . » والمداها واضح ولكن نقطة الضعف تحصر في انتظار عراقي لان يتندي الاعداء بارتكاب الاعتداء بدلا من ان يتقدمهم هو ويقطع عليهم طريق الاعتداء . ومع كل ذلك فان تبنيه يؤكد ان الاستعدادات كانت قد تمت سراً لسد القاعة في نقطة معينة بين الاسماعيلية وبور سعيد . وقد أثبت لي هذا الخبر آخرون . ولم تذهب هذه الفرصة سدى وبفضل المشروع الا لان عراقي كان يكره جداً ان يعصى على هذا الامر مع رغبة جميع اعضاء المجلس فيه . وعند ما وصل الاسطول الانجليزي الى بورسعيد يحمل ولسلى وجيشه أرسل دلسبس الى عراقي خطافاً سكه ادعاء . وقد ذكر تبنيه نصه كما يلي :

« لانحاول أى محاولة في سد قاتى . فاني ها . فلا نخش شيئاً من هذه الناحية . فاهم لن يستطيعوا ازال جندي انجليزى حتى يكون الى جانبه جندي فرنسي آخر . وانا مسئول عن كل شيء »

وكان هذا الخطاف سبباً في عقد مجلس آخر في كمر الدوار اجتمع جميع الاعضاء . فيه سوى عراقي وحده على عدم اعتبار رسالة دلسبس ووجوب سد القاعة

ولكن عراقي كان الى هذا الوقت معدها بكلام دلبيس عن ارسال حود فرنسية. ومع انه أعطيت أوامر في مساء تلك الليلة بتحريب القصة تخريباً « مؤقتاً » فان الوقت الذي صرف في المناقشة عن هذا الموضوع كان قد أصاع الفرصة ونمكر ولسلى من الدخول الى القصة بوارجه . وضعف عراقي في هذه المسألة هو أكبر لطحة على شهرته الحربية كما انه أبصاً بسمة بطابع المعز السياسي . وقد قال ولسلى بعد ذلك عد ما كل البرلمان يناقش في مسألة حفر قناة بين إنجلترا وفرنسا : « لو ان عراقي سد القناة كما كل يوى ذلك لكننا الآن لا نزال في البحر محاصرين مصر . فان تأخر عراقي ٢٤ ساعة نجاتنا »

وكان احتلال ولسلى للاسماعيلية في ٢٦ اغسطس ومن هذا الوقت صار الدفاع عن مصر أمراً ميثوساً من الوجهة العملية ولو ان القتال لم يكن نزهة للأنجليز كما ادعى مصهم ذلك . وكان الجيش الأنجليزى يربى على ثلاثين ألف جدى ربما لم يكونوا دوى قيمة كبرى اذا أصبح لهم أن يقفوا في وجه جيش أوروبا مطم ولكنهم كانوا يكفون لمرة حوش عراقي القليله فان كافة الحود في كمر الدوار لم يكونوا يريدون على ثمانية آلاف جدى نظامي ولم تكن مدافعهم تزيد على ثمانين مدفعا من مدافع كروب . ولم يكن الجيش المصرى بأجمعهم يزيد عن ١٣٠٠٠ رجل أما المجاهدون المحدد فلم يكونوا لاثقين للخدمة العسكرية فلم ينتفع بهم الجيش الا في الاعمال اليدوية في الخنادق . فلم يحدد ولسلى عاه كبيراً أمامه عند ما أنزل جنوده الى الروايس بينه وبين القاهرة سوى حطوط التل الكبير التي لم تكن قد تمت بعد . ولكن المكتسب السرى للجيش الأنجليزى أراد ان يزيد تأكده وطأ بيته فانخذ الاحتياطات السرية التي الفت استعمالها الحيوش المتحاربة في الحروب الحديثة وان كذت تسكرها على الدوام . ومن العدل ان أدون ما فعله الجيش الأنجليزى فقد وقعت في بدى تفصيلات أهم حادثة من هذا النوع . أسكر كتابنا الأنجليز ان تقدم ولسلى كل بمرى الى حد كبير لمثل هذه الشؤون فهالك الآن ما ثبته .

كانت وزارة الحربية ووزارة البحرية في إنجلترا قد عقدتا النية منذ أوائل السنة أن يكون المحوم على مصر من ناحية قناة السويس وتعد في أواسط يونيو

أن تمهد السبل لذلك بالشوة بين مدو الشرق . وكان الفصل في اقتراح هذه الخطة يعود الى لورد نورثروك الذي كان يفتخر بنجاحه في هذا الصدوقه . كان من اكبر أسباب افتخاره أنه بنى حظنه على ملحوظة فلتت مي ولم اكن أدري وقتئذ ان أحدًا استغل حديثي لمحاربة أصدقائي . فقد كنت في ربيع سنة ١٨٨١ في الصحراء الشرقية للقاهرة وكنت قد عرفت بعض مشايخ الطياحة والبرايس وكانوا يفتسون ذل الاسر في بيت المقدس ولكي أغري سفارتنا في الاستانة بالسعي في فك أسرهم قلت ان هؤلاء المشايخ قد يؤدون لنا بعض الخدمات اذا كانوا على صفاء مع اخلائنا . وعرف لورد نورثروك بهذه القصة فتذكرها في هذه الازمة المصرية واستغل اسمي بعد أن أضاف اليه الذهب في استخدام هؤلاء البدو ضد عربي

ولم يكن في احتراي في ذلك الوقت من يعرف العربية وكان من الصعب وجود من يمكن ارساله للقيام بهذه المهمة . فاستدعي لورد نورثروك أستاذ اللغات الشرقية في كامبردج وهو ادوارد بالمر وكان عارفاً باللغة العربية ممتازاً فيها وكان يعرف أيضاً القعة التي يعيش فيها أولئك البدو لانه كان فيما سبق عضواً في بعثة استكشاف فلسطين . وكان في ذلك الوقت يعيش في لندن في حالة اطلاق يستعين بالصحافة على شؤون العيش وقد زاد عمره زواجه الحديث . فلما كلف يوم ٢٤ يونيو حاته دعوى الى المكتب السري لكي يزور لورد نورثروك ويتناول معه طعام الفطور وهناك عرض عليه أن يقوم برشو هؤلاء البدو فطلب من القبول فوراً اذ عرض عليه ٥٠٠ جنيه للصاريف الابتدائية ووعده بالمسكنة في حالة النجاح . وقبل سفره أي في ٢٦ منه جاء وراي وقال لي أنه مسافر الى الاسكندرية لكي يكون مكاناً لصحيفة ذي ستاندارد وطلب مني أن اكتب له خطابات التقدمة اليهم لكي يتعرف بهم وانه يعطى على الحركة وسيصرها في رسائله على الدوام . وكان قوله هذا بمثابة الغطاء يخفي به عمله الحقيقي الذي كان مسافراً لأجله فاجبت طلبه وأنا متوجس منه لأنني شعرت بان لهفته لم تكن صادقة فكتب له بعض خطابات مقدمة لصايومي وغيره ولكنني اعتقد اني لم اعطه خطاباً لعراي وكان البرناج الذي وضعه وزارة البحرية للامر هو ان يذهب أولاً الى

استجابة لكي يتفاوض مع الاميرال سيمور ثم يذهب من هناك توا الى بابا  
القدس الشرقي ويذهب الى الصحراء الواقعة في الحبوب العربي من مرة ثم  
الى خليج الطيحة والتمارين اللتين كانت أذاع عنها مسد ١٨ شهرأ وأما  
صغير . وقد كتب هو مدكراته وطبع بعضها وهي كبيرة الفائدة لما من حيث  
- تتناول الوسائل التي توسل بها للوصول الى غرضه . فهو يشير فيها الى  
تصيلات الخاصة بالاتفاق بينه وبين لورد نورثبروك . ثم يصف بعد ذلك نزوله  
بمخت الاميرال سيمور في الاسكندرية حيث أمر هناك بأن يسافر في الحال الى  
صحراء لكي بشرع في عمله . وقد أعطاه الاميرال « مدساً وندقية وعدة  
حريوشات » ويرى ان الاميرال هناك « ينتظر الحرب في اقرب فرصة وقد تقع  
عدها » ثم يقول :

« اني مسرور لأن الحرب ستقع . فاني وان كنت سأبقى مدة بعيداً عن  
بلادى سأستفيد منها فائدة كبيرة وسأكون عاملاً من عوامل الانتصار لبلادى...  
وقد قال لي أمير البحر انه يهني الوطن لأنه اهتدى الى رجل قادر مثلي لكي يقوم  
بهذه المهمة الشاقة »

ويقول بالمر انه رأى سير اوكلاند الوكيل السياسي ثم يقول بعد ذلك في  
مذكراته ان أمير البحر أخبره بأنه سيمصرب الاسكندرية قريباً . ثم يذهب بعد ذلك  
وهو في أشد الطرب والزهو الى بابا على إحدى سفن أمير البحر يخفق فوق رأسه  
العلم البريطاني ومعه بحاران « لكي يحملوا البندقية والمسدس »

فإذا وصل الي بابا نزل عند القنصل البريطاني شايرا اليهودى . والقنصل  
يرسل انه معه الى غرة لكي يهيئ له رحلته في الصحراء . وبعد هنا بدويا يسافر معه .  
ويشتري عندئذ لباساً عربياً وسائر ما يحتاج اليه . ثم يشكو من الحر ومشاق الرحلة  
ولكنه يعزى نفسه وبمنها بالكفاءة الجسيمة في المستقبل . وفي الخامس عشر قبيل  
قيامه بالرحلة يسمع صراً عن ضرب الاسكندرية . فيقرر الذهاب الى السويس  
ويكتب في طلب زورق لكي يأخذه الى مكان مأمور .

وفي السادس عشر يلتقي بعض افراد من قبيلة الترابين وهناك مايقول : « كانوا

يطهرون فضولا كبيراً يريدون معرفتي ومقاصدي . فقال لهم البدوي الذي معي إني ضابط سوري مسافر الى مصر . وكنت بالطبع مرتدياً ملابس العرب المتحضرين وقد علمت عنهم كثيراً عما عرفوا عني . وأما الآن أعرف مشايخ الصحراء وأما كنهم وقد انفتحت مع الطليحة وهم أكثر الدوشجاعة وأقوام على أن يؤدوا الى كل ما أطلبه منهم . وعسى ما أعود سيكون في استطاعتي أن أضم الى منهم أربعين ألف رجل . وقد كان من حسن حظي ان عرفت هذه القبيلة . ومعنى الآن نسير سيرا حسناً وأنا في أشد الاشتياق لتسلم الاوامر من السويس ولعرفة ما اذا كانت جنودنا قد نزلت الى البر . ولم أكن أنتظر كل ما وحدته ها . وأظن اننا قد أصابنا الحظ ولنا الثروة » ثم يقول في الثامن عشر :

« كابدت اليوم أمراً عظيماً . فقد التقيت بكبير شيوخ العرب . ولكي جعلته يقبل آرائي »

ثم يقول في ١٩ يوليو : « إني أتعجب من محاسني . فقد ضمنت الي رحلانا حاول عرابي عبثاً أن يستميلهم الى صفه . وعد ما تتطلب الحاجة سيضم الى لوائي جميع البدو من عرة الى السويس ... ولست أعرف بالطبع ما حدث في مصر منذ مغادرتي لها سوى ان الاسكندرية قد صرحت كما أخبرني أمير البحر بأن هذا الامر سيقع حالا . ولكن العرب يقولون لي ان الحزب العسكري لا يزال مسلحاً . وعلى هذا أظن ان جنودنا قد نزلت الى البر »

ويقول في العشرين : « هذا الشبح هو شقيق سليمان وهو الذي يضمن عدم اعتداء العرب على رك الحليج الذي يسافر من مصر الى مكة . فهو اذن خير من اعتمد عليه . فقد أقسم لي قسماً عربياً رهيباً أنه يستطيع اذا أردت أن يضمن سلامة القناة ضد عرابي نفسه وهو يقول لي إني اذا قدرت على تخليص ثلاثة من المشايخ من السجن فهو يضمن انصاف جميع العرب لنا . وأنا أؤمل ان أحلص هؤلاء الثلاثة بواسطة سفيرنا في الاستانة »

ويقول في ٢١ منه : « أنا في اشتياق للذهاب الى السويس لاني قد انتهت من الاعمال الابتدائية . فإذا تسلمت الاوامر فاني أتفق مع العرب في أسبوعين أو

« وأنتهى من كل شيء . أما البدو الآن فيسيقون في سكة ولما ينضموا الى  
 . نى ولكنهم سينظرون كمتى لكي يعملوا ما أشير عليهم به . وهم يعتبرون  
 سادة أفندي ( كما يسمونني ) رجلا عطيا »

وفي ٢٢ يقول : قال لى بدوى جاء حديثاً من مصر ان عربى قد أحضر الى  
 قامة ٢٠٠٠ حبال من بدو النيل . ولما سلكهم سيرجعون عند ما يصلون الى السويس  
 . دالم نجد الوسائل السلمية فالى سأرسل لهم عشرة آلاف من الطيحة والبرابن لكي  
 طردوهم . وقد انصم الى بدوى آخر وهو الذى بعد ركب الحج بالجمال ووعدت  
 نير المشايخ بمساعدة حنيه هو لذلك لا يحجم عن عمل اى شيء آخر لاحتلى . أما فى  
 ضد السرور لان الحرب قد وقعت بالفعل . وصار على الآن أن أقوم بواجبى  
 عظيم وأنا متأكد من النجاح . وسأعرف قريباً ما يجب أن أفعله . وقد قال لى  
 ورد نورثبروك أن يعطى ٥٠٠ جنها عند السفر وأما عن المفاوضات فيستقون معى  
 تعاقبا آخر . وسأقصد هذا الشهر على الأقل ٢٨٠ جنها وهو ربح لا بأس به من  
 عمل شهر واحد . ولا أظهم يعطونى أقل من ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه للقيام  
 بالمهمة بأكملها . . . .

ثم يقول فى ٢٦ منه : « وجدت انه من الممكن أن نحصل على السفن من السويس  
 وسأسافر غداً وأرجو أن أكون على ظهر سفينة بعد أربعة أو خمسة أيام . لقد  
 نجحت نجاحاً يورلى ان أطلب من الحكومة مبلغاً آخر وسأقول انى صرفت كل  
 ما معى في الهدايا . وبصفة مئات من الجبهات ليست شيئاً يذكر فى نظر الحكومة  
 ولكنها ذات قيمة كبرى لئلى . وسأرسل الى روجنى نحو مائة جنيه عد اول  
 وصولى للسويس . لقد دفعت كثيراً ولكن لا يزال معى ٣٠٠ جنيه بعد  
 نفقات سفرى الى السويس . وهذا أفضل من الشغل فى الصحافة بمرتبة ٣٠٠  
 جنيه فى الشهر . . . . أكلت اليوم الخبر والملح مع العرب الى حياة كل منا  
 الآخر الى الموت »

وفي ٢٨ منه يقول : « انصم الى مشايخ الحويطات . وقد نجحت نجاحاً ناهراً  
 وقد قبلت فى القصر أنشد الشعر العربى لهؤلاء البدو حتى تعلقوا بى »

وفي أول أغسطس يصل البحر إلى السويس فيقول : « أما الآن على ظهر إحدى سفن شركات الملاحة الإنجليزية . وقد نسلمت خطاك ( من زوجته ) . أما كيفية وصولي إلى السميرة فاني سرت مبدأً عن السويس في الليل ثم نزلت إلى السفينة في نصف الليل . وقد كلفني هذا العمل عشرة جنيهات ولكي نخرج من الحرس المصري . وسنأتي الحياض يوم الخميس أي بعد غد . . . كنت عند أمير البحر منذ وقت قصير . وقد سر بنتيجة عملي وأرسل تلغرافاً إلى لورد نورثبروك . وكان قد أمر بأن تخصص ثلاث سفن لمراقبة الشاطئ من أجلي . ولكنني وصلت إلى السفينة وحدي »

وفي ٢ أغسطس يقول : « ذهبت إلى الصحراء ثانياً وسأقي فيها يومين إذ كلفت بأن أقلع أسلاك التلغراف وأحرق الأعمدة حتى تقطع المواصلات بين عرابي وتركيا . وصل الكابتن جل امس إلى بورسعيد وسيصل إلينا هذا الصباح . كان امس يوماً مشهوداً . زرت جميع ربابة البوارج وكانوا يرحبون بي ويستقبلوني أحسن استقبال وكانوا يلحون علي في أن أشرب معهم الشبانيا الثلجة وفي المساء أولم أمير البحر ولية تكريماً لي ! وكانت الوليمة فخمة ولم أعد إلى سفيني إلا في الساعة الأولى صباحاً »

وفي ٤ أغسطس يقول « أمرت يوم الاثنين بأن أرافق ضابط القوة للاستيلاء على السويس فزلتنا معنا خمسمائة رجل وثلاثة مدافع . وفرت الجنود المصرية فلم نقاتل . وكنت في أول الرواق التي وصلت إلى الشاطئ . ثم أمرنا المحافظ بأن يصلنا المدينة وخمسين ألف جنيه كانت لديه ففعل . . . أمس الأول أرسل لورد نورثبروك رسالة لأمير البحر بهتني فيها بسلامة وصولي ويقول أنني قد عينت رئيساً للترجمة في جيوش جلالة الملك في مصر . وضرت بذلك في هيئة أركان الحرب التي يرأسها أمير البحر . وأما هنا ( في السويس ) في الفندق أعيش على حساب الحكومة معيشة فخمة ولا أتناول الطعام إلا مع أمير البحر . وبعد غد سأذهب إلى الاسماعيلية في زورق مجهز بالمدافع وقد قال لي أمير البحر في السويس « لا تدع الأميرال هناك يحجزك عنده لأنك انت هنا مفيد اسمك بين رجال باراجتي . ويستغل الآن تحتدي يلسني



محو أربعين شعصا . وقال لى امير البحر مند ابام انه متأكد من انى سامنج  
يسام الشجاعة ونجم الهند . وم لا يرعون فى ذهاني الى الصحراء . الآن لانهم  
يزهون ان ابقي معهم . . . . واما الآن احد ضباط الحلة ولذلك ارانى مرهوا زهوا  
كيرا وسيسل غدا الاثلاي ٧٢ وسأبحث لرجاله عن جمال . اما الأجرة فستكون  
حب قرارى ولكنى لم أقررها للآن »

ثم بعد ذلك نرى هذه الجملة العجبة وهي لب هذه المذكرات : « وضع الكاتن  
حل فى بدى عشرين الف حنيه لاوزعها بين العرب »

واما ما بقي من هذه المذكرات فاحلام وأمان فى ٦ اغسطس يقول : « فى  
السويس . . . سأقوم غدا الى الصحراء لمشترى الجمال . وسيدهب معى الكاتن جل  
وملازم امير البحر ولن نخشى أى خطر . . كآنى الآن فى حلم . وقال لى امير  
بحر بما انى افضل أن تقرر الحكومة مرتى فيمكننى قبل قرارها هنا أن أسحب  
ما أريد من الأموال لبقائى الشحصة وعلى هذا سأرسل اليك ( لزوجته ) خمسمائة  
حنينه عند رجوعى . ويمكننى أن أفعل ذلك الآن ولكنى لا أريد أن يظهر على  
تمصر . فقد بقي لى بعد جميع نفقاتى ٢٦٠ جنيتها واليوم دفع لى عشرون الف حنيه  
ولى أن أنصرف بهذا المبلغ كيتما شئت . وأنا الذى أعطي الخوازات للحرص . واذا  
رأيت اثنتى عشر فرسا فاني اشترىها دون مساومة . وأمس رأيت ثلاثين جلا  
عاطلي صاحبها ٣٦٠ جنيه عنما لما بمجرد ان كنت هذا المبلغ على قطعة ورق .  
واليلة أترجم أقوال المحافظ الذى كان يتناول العشاء مع امير البحر . وعدى الآن  
خدم وكتبة ومتربجون يطبعون أوامرى والخلاصة أنى فى مركز لم اكن أحلم به .  
ونحن هنا آمنون فى خنادقنا والعدو على بعد ثمانين ميلا ما وعدا ستأتينا الحيوش  
الهندية . ويدبى أنا فى حرب ولكنى بما أنى فى هيئة أركان الحرب فاني لست  
أخشى أى خطر . وأمير البحر رجل ظريف وقد قيل لى أنه لا يسى صباطه وبحب  
على الدوام أن يرقهم وقد قال لى انى استحق وسام نجم الهند »

وهذا آخر ما كتبه بالمر فى هذه المذكرات التى تثير الاحساس . فقد خرج فى  
اليوم التالي بصحبة جل وشارنخون الى الخل فى الصحراء الشرقية وكان الغرض

من خروجهم قطع التعرف الواصل بين مصر وسوريا وقد أخدمهم لهذا الغرض صدوقاً مملوءاً بالديناريت وكانت مهمة بالمر الطاهرة شراء الجلال وكان الجميع مرتدين ملابس عربية . ولكن كانت مع كل منهم كوة حرية لكي يلبسوها عندما يكون بين القبائل المواجهة لهم تكبراً لشأنهم . وكان المبلغ الذي أخذوه معهم من العشرين الألف جنيه التي أعطيت لبالمر يتراوح تقديره بين ٣٠٠٠ و ٨٠٠٠ جنيه وكان جل قد صرح بعدم موافقته على خروجهم في هذه المهمة فإنه طالب أن يأخذ المبلغ كله ليورعه بين العرب كما كان الاتفاق بينهم وبين بالمر ولكن أمير البحر عارض في ذلك .

وكل الفشل مقدراً لهم . فان الحرس للوثاق من البدو الذين ساروا معهم عرفوا وجود المال معهم . وكان هؤلاء العرب من قبيلتي الخوايات والحويطات وكان المال محصواً لأطياحة . فرعب الحرس في المال ويظهر أنهم كانوا متواطئين مع حاكم النحل ( وهي بلدة واقعة بين السويس والقنة ) على أخذ المال وقتلهم مما هو أن ساروا بضعة أميال حتى هوجوا وأوتوا وسلبوا ما معهم ثم ضربوا بالرصاص على حافة وهدة في وادي صدر . وهكذا انتهت آمال بالمر المسكين . وكانت الكثرة من العداحة بحيث سئلت عنها أسئلة في البرلمان ووقف ذلك الرجل سبر هنري كبليل بارلمان وكان وقتئذ وكيل وزارة فكلت بحجب على الاسئلة ويسكر المهمة السرية التي كانت موكولة الى بالمر ورفقائه ويقول أنهم لم يخرجوا الا بنية شراء الجلال .

ولست مذكرات بالمر المالية الوحيدة . فان الكاتبين جل قدرتك أيضاً مذكراته وهي تثبت هذه الحقائق . فان مهمته في غربي القناة كانت لا تختلف عن مهمة بالمر في شرقيها . وتبتدى هذه المذكرات في الاسكندرية وهو يقول فيها أنه ذهب لمقابلة سبر فريدريك جولسبيد وأنه يأمل أن يكون بين البدو في غرب القناة بعد قليل من الوقت . ثم يقول أنه أخذ من الخديو قائمة مكتوبة بخط يده عن أشهر المشايخ بين القناة والارض المزروعة ويذكر منهم اثنين وهما سعود الطحاوي في الصالحية ومحمد البغلي ( البقلي ؟ ) في وادي طوميلات . وكان يعتقد أن البدو ينظرون للانضمام الى الجانب الذي يوافق مصالحهم . وفي بورسعيد يقابل المحافظ المعزول

يجبره هذا بأنه يمكن شراء البدو مجنبيين أو بثلاثة جنيهات الواحد . وفي ٤ منه تم إرساله قرأ تقرير بالمر لسير سيمور . ثم يقول : « لو اني كنت عرفت أن التقرير سيوصل رأساً الى سير سيمور لكنت سألت هو سكندر عما اذا كانت لديه النقود اللازمة بالمر » ثم يقول :

« يقول بالمر انه يستطيع أن يشتري خمسين ألف بدو بخمسة وعشرين الف جنيه يسألح في اعطائه هذا المبلغ »

ثم يذكر تقريراً له يقول فيه أنه لا يمكن سد القضاة الا من نقطة معينة يذكرها وذلك لقلة وحود الاحجار في الاماكن الأخرى وصعوبة اغراق السفن بدونها ثم يذكر دلّس فيقول انه يستطيع الحاق الاذى بالقضاة لأن جميع الكراكات والزوارق التي تحت تصرف الشركة هي في الحقيقة تحت تصرفه . وفي ٥ أغسطس يذهب حل الى القضاة ويصل الى السويس ومعه ضابط آخر ومعها عشرون ألف جنيه ذهباً لكي يعطيها بالمر . وعندما يكون في الاسماعيلية يقابل مستر بيكلرد فيناقشه في أحسن الوسائل لتدمير التلغرافات . ثم يذكر ان أحسن الطرق ثلاث . وهي : (١) تدميرها قريباً من الشاطئ . في العرش وكلاهما يعتقد أن هذه طريقة خطيرة . و (٢) تدميرها عند جسر القنطرة ولكن يعترض على هذا العمل بأنه يخالف جيدة القنطرة . و (٣) من السويس وهذه ميسورة . ويظهر أنه لا يثق ببيكلرد فيقرر أنه يذهب الى السويس ليقطع خطوط التلغراف بعينه .

وفي ٦ أغسطس يذكر سرورده لأنه تخلص من مبلغ العشرين ألف جنيه اذ سلمها بالمر . ثم يذكر أنه سيذهب مع بالمر لمقابلة المشايخ في النحل ثم يقول انه بعد أن يذهب معه سيرى مبلغ آمال بالمر التي عندها على هؤلاء البدو وهل حالة البدو تبرر هذه الآمال .

فهاتان الوثيقتان أي مذكرات جل ومذكرات بالمر تثبتان كل الاثبات استعمال الرشوة قبيل معركة التل الكبير .

وقد كنت متصلاً بهذه المسائل صيد حدودها . وذلك لأن عائلتي بالمر وجل طلبنا الى أنب أطالب الحكومة بالاعتراف بمجدهما القتل ومكافأة عائلتيهما . وبعد

أن أنكرت الحكومة المواقف التي أدت إلى قتلها جعلت صهرى لورد وتورث مطالب الحكومة بإيضاح هذه المسألة . وكانت مطالته هذه سبباً في تغيظ اللورد من حرب الحكومة ووقف لورد حرافيل ولورد بوديرون ينكران أشد الإنكار أن الحكومة حاولت أن ترشوا البدو . ومن العجب أنني ذهبت إلى لورد سالزبرى وطلبت إليه أن يساعدني في الاعتراف بخدمة هؤلاء القتل ومكافأة عائلاتهم فقال لي أنه يوافق على أن ينكر اللورد . جميع ما عمل في المصالح السرية . ولكنه مع ذلك أمكن لورد وتورث من شرح المسألة بينما غيره كان يعارض في ذلك .

ولكن مع كل ذلك لم تكن أعمال الممر وجل ذات قيمة كبرى لولسلي فأنما المساعدة الحقيقية للحيش الانجليزية جاءت على يد الحديو . فانه أعزى سعودا الطحاوى من مشايخ العربان بخيانة عرابي وكان هو الوحيد الذي نجح في خيانه أو ثنت على الحياة . وكان سعود قد أخذ مكافأة على هذه الحياة مبلغ خمسة آلاف كرون عسوي . وكان دائماً على الحياة منذ انتقال الحيش من كفر الدوار إلى التل الكبير . وكان سعود من سادة العرب وكان على شيء من الذكاء . ولكن اختلاطه مد ليس والفرنسيين الذين كانوا في القنطة على بسد يوم من خيامه أنلفه فاهو المعتاد اذا اختلط العربي بالفرنجي وحاول أن يمثل دور الجنرال . فكان يخاطبهم ويصيد الغزلان معهم . وعدى ما يشبه أن يكون أقراراً منه بأنه كان جاسوساً للانجليز في جيش عرابي فاني مرتت بالصالحية في سنة ١٨٨٧ فنزلت في خيمه . فلما عرف أي انجليزى وكان بالطبع يجهل ميولى السياسة أخذ بشكلم عن اعماله في الحرب فلم يترك عندي مجالاً للشك . فقد كان يشغل عند عرابي ويقوم لجيشه بالاستطلاع فكان رجاله بروحون وبفسدون من نجيم إلى آخر . ولم يكن في عمله ما يشغره منه لأن البدوي ينظر إلى المصري والتركي والافرنجي باعتارم جميعاً أجاناب ليس لأحدم عليه ولا . وإنما هو يخدم الجميع بمقدار ما يستفيد منهم . وليس للبدو البازلين في شرقي النيل إلا القليل من الاحساس الديني بحيث لا يتمتعون لذلك من خدمة الكفار اذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم . زد على ذلك أنه لم يكن قط حب بين الملاحين والبدو .

ولكن أكبر ما عاد بالأذى على عرابي وعجل انتصار ولسلي هو ما فعله بعض  
عصريين المستغنيين في القاهرة والتل الكبير من ارشاء ضباطه بالمال والوعود بالترقية  
حيث تلخ هؤلاء الضباط ولا هم له .

ولم يفعل ذلك ولسلي أو أحد من رجال المصلحة السرية الانجليزية وإنما الذي  
صنع ذلك هو الحديو لانه كان يعرف من يمكنه أن يعول عليهم أكثر من الانجليز  
يحيى كان الانجليز هم الذين قدموا للحديو المال اللازم . وكان أنشط وأذكي الذين  
وكل اليهم هذا العمل ياوره عثمان بك رفعت الذي كان يعرف عوامل الغيرة بين  
الضباط وميول كل منهم . وكان يوصح للضباط الذين هم من أصل شركسي عدم  
مقابلة انصاهم للعرايين وعدم فائدة المقاومة لان الحديو سيفوز في النهاية ويكافي  
من ينضم اليه من الآن ويعاقب من يعمل خلاف ذلك

وكان الانجليز وولسلي يخدعون الحديو وكان السلطان الذي أعلن ان عرابي  
ثامر وكان على وشك ارسال الجنود يفعل فعلهم . وكانت أقوال عثمان دفعت ذات  
وزن واعتبار في نظر الضباط الشراكية أما السفلة من الضباط المصريين فان الاموال  
أنعوتهم . وكان عرابي على الرغم من ان الجنود والضباط كانوا يحبونه قد ألقي الغيرة  
والخس في قلوب بعض كبار الضباط الذين كانوا يرون أنهم يفصلونه في قيادة الجيش  
وما زاد استياءهم تلكوه في مسألة سد القناة . فان ثقتهم فيه زالت من وقت أن  
نزل الانجليز من القناة ولم يردم الفرنسيون الذين كان عرابي يعتمد على وعودهم  
في رددهم فلم يعد العدة للملاقاهم عند شاطئ القناة . اما مع رعاء الوطنيين من غير  
الجنود فقد كان للحديو وكيل آخر هو سلطان باشا الذي كان زعيم الملاحين  
قبلا ثم اقلب عليهم وانضم الى الانجليز ولم يعد ينجح من بذور الشقاق بين  
الوطنيين الذين كانوا لا يزالون متعلقين بوطنهم وقد يصعب الخيل الجديد من  
المصريين ويتبادل عن السب الذي حمل رجلا شريفيا يتنسى الحياة بالوطنية الحارة  
ثم ينتهي بالمهبط الى ذلك الدرك . وتفسير ذلك هو ما يلي :

كان سلطان باشا رجلا ذا كبرياء له ثروة واسعة وجاء عريض وكان له

صدر المكلن في أى اجماع يعقد وكان يسمى ملك الوحه القبلى بين كار الملاك وكان يرى أن من حقه لهذا السب وعامة الملاحين .

وكان ينظر الى عرابى نظرة الرعاية التى ينعتف بها الكبير على الصغير وكان يرى فيه أداة لتحقيق أغراضه ولكنه لم يكن يتوقع ان عرابى سيأخذ مكانه بين الجمهور . ولما ألفت وزارة سنة ١٨٨١ ولم يكن وزيراً بها اغتاض من ذلك ولكن كانت له بعض التعزية اذ عين رئيساً للبرلمان الجديد . واغتاظ أيضاً عما ألفت الوزارة الثانية في سنة ١٨٨٢ ولم يكن عضواً فيها ف شعر ان الوطنيين لا يعطونه حقه من الاحترام فانحدر الى الجانب الآخر . ثم جاء الاسطول الى الاسكندرية فأخذ مالت في إغرائه ثم في تخويمه حتى صرح بأنه يرضى ماحاة مطالب الانجليز ثم انصم نهائياً الى حزب الخديو فليس في انحدار سلطان كما انه ليس في انحدار الخديو شئ . يستصمى على الفهم فقد صارت المسألة في نظره عاداً بعد ان كانت طموحا الى منصب ثم مما تخفف عن نفسه خرى الصغير ما وعده من أن تدخل الانجليز لا يقصد به سوى إعادة الحالة على ما كانت عليه قبل وزارة محمود سامى وأن مصر ستبقى دستورية كما هى . وبما على ذلك لوسل لجميع أصدقائه العديدين خطابات يقول لهم فيها ان التحالف الموجود بين الخديو والانجليز هو تحالف مؤقت وستخرج الانجليز من مصر عند ما ترجع للخديو سلطته وان عرابى قد فقد ثقة السلطان وان الاستمرار على المقاومة فى القاهرة لم يعد مجدياً والمسلمون يستكرونه . وقد كان لهذه الخطابات التى وزعت بعناية أثر كبير وكان للاموال أيضاً أثر آخر . ويظهر ان سلطاناً وكان يقدم هذه الاموال من جيبه الخاص لا من اموال الحكومة للمصرية التى قررت بعد الحرب منحه سلطان مبلغ عشرة آلاف جنيه بحجة انها توفىقت لما ناله من الخسائر مدة الحرب ومنح أيضاً لقب سبر من الحكومة الانجليزية . والاغلب على الظن ان ما صرفه سلطان لهذه الاغراض لم يكن كبيراً لانه كان بعد الوعود لبعض الضباط « ولم يف بها بعد ذلك » ولهذا كان هذا المبلغ اكبر مما صرفه ومما كان كل ذلك فاننا يمكننا ان نقول ان الخديو قد مهد طريق العصر لوسلى (١)

(١) نحدد هذا في مذكراتى عن سنة ١٨٨٧ « ١٣ فبراير - زارنى عبدالسلام

وكان الجيش يستطيع على الرعم من هذه الدساتس أن يبطل مدة الدفاع لولا  
 سو، المخط الذي لازمه مدة الحرب . فانه عند ما عرف ان الانجليز سيهجمون من  
 شرق ذهب محمود فهمي المهندس القدير وكان من أكر أعوان عرابي الى التل  
 الكبير وأخذ يرسم خطوط الدفاع التي لم يكن له من الوقت ما يكفي لانماها . وذلك  
 انه عند ما كان يشتغل في تخطيطها وقع في أسر الانجليز في يد جماعة من حرس  
 الجيش الانجليزي . وكيفية ذلك ان محمود فهمي كان قد خرج عبد الماء ومعه ياوره  
 قط وكان قد خلع ملابسه الحربية لحر الشدد وصعد على ربوة لكي يستطلع  
 الصحراء الواقعة بينه وبين الاسماعيلية . فانقضت عليه جماعة الحرس الانجليزي  
 هذا وأسرتة في الجانب الآخر من وادي الطميلات . ولما لم يكن في ملابسه  
 الحربية احتار الملازم تالبوت في كيفية معاملته وكاد يقل أقواله من انه امسدى  
 بملك بعض الارض في تلك الجهة وكاد يطلق سيده لهذا السب ولكنه أمسكه  
 وأخذه الى مضارب الجيش الانجليزي حيث عرفت أهميته . والواقع ان أسره هذا  
 كان ذا أهمية عظمى وكان نكبة لا يمكن تقديرها على الجيش المصري في التل  
 الكبير (١)

وكانت النكبة الاخرى ما أصاب قائدس من أحسن قواد عرابي في القصاصين

المويلحي فقال انه كان صديقاً حميماً لسلطان وانه كان من حربه وقد تشاجر مع عرابي  
 ولكنهم أسفون على انشقاقهم عه الآن وقال انه لم يوافق على سلوك سلطان مدة  
 الحرب . وان سلطاناً قد خدعه مالميت ووعد به بقاء البرلمان بعد الحرب . وأراد  
 سلطان ان يحصل على وعد كتابي من مالميت بذلك ولكن الخديو طلب اليه ان  
 يكتفي بالوعد الشفهي ولما عرف سلطان هذه الخديعة بعد الحرب أسف كل الاسف  
 ومات وهو يتحسر ويطلب ان يغفر له عرابي فعلته والا يذكره الناس بخيانة الوطن.  
 وكان سب مشاجرته مع عرابي حسده له لانه صار وزيراً أدونه »

(١) ان ما حكيتة ها عن محمود فهمي قد قاله هو في نفسه . وقد روى غيري  
 روايات أخرى عن كيفية أسره وقال بعضهم انه انضم الى الجيش الانجليزي ولكن  
 من يعرف محمود فهمي لا يصدق هذا

وهما على فهمي صديق عراقي المجرب وراشد باشا وكان كلاهما جسدياً محرباً وكانا من الشجعان الذين قد جربا الحرب قبلاً . وهما أول من قام بالمحوم على حبش ولسلي في القصاصين . وكان ما أصابهما شر ما نزل بالحيش المصري في جهوده وفي صد الانجليز .

ويقول الرواة المصريون ان العدو كان قد فوجئ وبقيت الحرب سهلاً بين الفريقين وكاد اللوق كنوت أن يقع أسيراً . ولو كان هذا اللوق أسر وصمد الحيش المصري لاعدائه لكان الأرحح ان المصريين حصلوا على الصلح واعترفوا بالهزيمة بالحالة الجديدة لان الرأي العام كان في ذلك الوقت قد تحول وصار الناس يخرجون من محاربة فلاحين يقاتلون من أجل حريتهم ورد المطالم عن أمهم .

ولكن كان يتدخل مديراتهما أى على فهمي وراشد باشا ( تقصان . فان هذه التدبيرات كانت تقضي بان يزحف محمود باشا سامي بالني جندي في الصباح وبهاجم الانجليز من الميسة . فقاتله في الليل رجال سعود وأضلوه عن الطريق فلم يصل الى الميعاد . ثم أن عراقي لو كان جندياً له سليقة الحرب لانضم اليها ووقف الى صفها ولو في مؤخرة الحيش مع الاحتياطي ان لم يقف في المقدمة . ولكنه لعدم فطنه ذلك لم تطهر في الميدان جميع قوة الحيش التي كان يجب استخدامها . وأصيب هذان القائدان بجروح منعهما من مباشرة الحرب . ثم من المؤكد أيضاً أن أحد القواد المصريين وهو على بك يوسف قد خان الحيش .

فكأن الحيش المصري لهذه العوامل في ارتباك هائل في التل الكبير وقد مدت بوادر الخاتمة المحزنة . فان عراقي قد أحسن قواده ولم يعرف أحداً يقوم مقامهم . وكان الذين يثق بهم قليلين ولم يكونوا من أهل الكفاية . وكان هناك رجل وبما كان يمكنه أن يسير بالدفاع على نحو ما وهو عبد العال حلمي ولكنه لعله غير واضحة بقي بعيداً عن الميدان .

وكان عبد العال هذا أحد « الضباط الثلاثة » وكان من أشجع ضباط الحيش وكان قبلاً معيماً في الدفاع عن دمياط توقعاً لنزول الانجليز هناك وكان معه عدد كبير من أفضل الجنود وبخاصة تلك الفرقة السودانية التي كانت فرقته الأصلية .



ولو أن هؤلاء الجود أحضروا إلى التل الكبير مع قائدهم لكانوا على الأقل نحو الجيش من وصة العار لأنهم كانوا في حماسة حارة ولم تكسر قلوبهم هزيمة ساقية ولكن يظهر أن اللجنة أبقت في دمياط اعتقاداً بأن هذه البلدة لا تزال تحتاج حماية إذ لم تقرر تعيين عبد العال خلفاً لملى فهمي .

وقد جال بخاطري بعض الاحيان أن يعقوب سامي رئيس لجنة الحرب مع ماسبق له من الخدمات في هيئة أمر الدفاع قد أغراه بعد ذلك وكلاء الحديو . فإنه كان مسلماً من أصل يوناني ولذلك كان من حزب الحكم السادة وعدى وثائق تدل على أنه بينما كان يظهر كأنه ساعد عرابي الايمن اذا به رحل الحديوى الذي يعتمد عليه ويظهر أن الحديو كان يسطر اليه هذه النظرة ويعده من حاله ولذلك عومل بشدة بعد الحرب . وكان أحد الباشوات السبعة الذين بقوا الى سيلان . وقد أظهر خصوصاً وندماً في المحاكمة وجعل يدافع عن ولائه للحديو . وهذه الوثائق تثبت حده لعرابي وغيرته منه . فمن الممكن اذن أن يكون قد احتهد بعد اصابته على فهمي في عزل عرابي ابتداء التعجيل في هزيمته في التل الكبير ولم يرسل اليه عبدالعال لهذا السبب . وقد أعطيت القيادة لرجل طيبو لكه غير قادر على القيام بأعبائها هو على باشا روبي أحد رفاق عرابي القدماء . ولكن لم يكن له صفة أخرى تجعله صالحاً للقيادة .

اما عرابي فإنه على الرغم من قرب هجوم الانجليز فقد بقي في خيام يحوطها الاعيان ورجال الدين الذين كان يقضي وقته معهم في الصلاة والذكر . وكان يعتمد على سعود الطحاوى لكي يبنه بتقدم ولى . وكان سعود يفشيه ويطمئنه وكان جيش التل الكبير في غاية التفكك فان الجنود المنظمة لم يكونوا يزيدون على ستة آلاف او سبعة آلاف وكان معهم نحو الف خيال ومثل هذا العدد من المدافع وكان رجال الطوبجية يعرفون حرفتهم . وهذا هو كل القوة التي كان يمكن الاعتماد عليها . أما ما عدا هؤلاء فكانوا جماعة من المجندين الجدد الذين لم يدربوا وأجسادهم تكاد تكون عارية وكانوا من الفلاحين السذج يشغلون بمجد في حفر الخنادق ولكن لم تكن لهم قيمة حربية . وربما كان عددهم يبلغ عشرين ألفاً ولكن ليس عندى احصاء صحيح عنهم . وكانوا يكدون ليل نهار في انعام حفر الخنادق ولكن كان هذا فقط

كل ما استطاعوا أن يعملوه . وقد قال ستون ناشا الاميركي بعد الحرب أنه يعتقد أنه لم يطلق واحد من جميع هؤلاء خرطوشة واحدة والارجح أنه مصيب في اعتقاده .  
وحادث الحادثة فجأة في محرم ١٣ ستمبر . فقد كتب الكتاب الحريون الانجليز قصصاً خيالية عن تقدم الجيش الانجليزى سرّاً في الايل تحت جنح الظلام يهتدي بالنجوم وبهداية صابط من البحارة حتى خرج من المحسة ووصل الى التل الكبير حتى لا يتوهم القاري . أنه كان يتحس طريقة في الظلام لا يدرى الى أين يقاد . ولكن الواقع خلاف ذلك . كان حواسيس العرب والبدو الذين أشرت اليهم بدلوته على الطريق . وكان اثنان من صفار الضباط في جيش عراي قد ارتشيا من الحديدو قبل على يد وكلائه وكانا في مركزين مهمين . واسم كل من هذين الضباطين يجب أن يدون تخليداً لعارهما وقضيتهما . فالولها هو عبد الرحمن بك حسن قائد الحرس الراكب وكان في مقدمة الجيش مع فرقته خارج الخطوط وكانت الصحراء من جهة الشرق مكشوفة أمامه . ففي تلك الليلة الممهودة نقل رجاله الى جهة بعيدة نحو يسار الجيش حتى يصير طريق الهجوم خالياً أمام الانجليز . وأما الثاني فهو الذي سبق أن ذكرته واسمه على بك يوسف الذي كان على قيادة خطوط الخنادق المتوسطة . وكانت هذه الخطوط لانعوق سير المدفعية . وظهر من التحريات بعد ذلك ومن أقوال عراي أن هذا المخلوق لم يكنف باخلا . مرا كره بل وضع المصاييح لكي يهتدى بها جيش الانجليز . وقد ذكرت في أسماء أخرى لمن خانوا بلادهم ولكني لعدم ثقتي بالرواية أوتر عدم ذكرهم . أما هذان الاثنان فان خيانتهم قد اشتهرت في القاهرة مدة سنوات لانهما لم يخفيا فعلتهما وخاصة على بك يوسف الذي كان نائب الشكوى من قلة المكافأة التي كوفى بها على حياته ووطه

فقد دفع له الف حنيتها قبل المعركة وكان قد وعد بعشرة آلاف جنيتها بعد المعركة ولكن الحكومة لم تدفع له سوى معاش شهرى قدره ١٢ حنيتها مدة حياته . وكان عراي وسائر الجيش قد باتوا تلك الليلة مطمئنين لان سعود الطحاوى كان قد غشهم وخدعهم . فبات هؤلاء الساكنين في خنادقهم ووراءهم عراي على بعد ميل منهم واذا بمجروش العدو تصب عليهم فاخترق الانجليز الخنادق من أمامها

الضعيفة وفي مؤخرتهم المدافع تصب النار ففر جميع المحمد بن الحدد دون أن يطلنوا طلقة واحدة وكانوا في حالة تشب العري وقد أضناهم حمر الخنادق ورموا بادقهم وهرعوا يعدون والمدافع تمصدم وكانوا ليلهم بكيفية التسليم يطهرون كأنهم لا يزالون بحاربون فكانت الحرب أشبه شي بمجرة وحدث كل هذا في القلب وفي المينة . أما في الميسرة فقد صمد محمد عبيد وكانت المدفعية المصرية تمجيد الضرب هنا وهناك ولكن كل هذا لم يستغرق بالارجع أكثر من أربعين دقيقة . ووقع محمد عبيد في هذا الدفاع الشريف ووقع معه أكثر رجال المدفعية الذين صمدوا للقتال ولكن لم تمض ساعة حتى انتهى القتال وصار الجيش الوطني حليطاً مشتباً .

أما عن الدور الذي مثله عرابي في هذا الصباح المشؤم فاني أرويه نقلاً عن بيان خادمه محمد سيداحمد الذي كان خادمي مدة سنة ١٨٨٨ مدة سنتين وهذا فضلاً عما رواه لي عرابي نفسه بعد ذلك .

تقد كن سيداحمد هذا يروي لي هذه الحوادث عدة مرات وكان يقول لي ان الجيش كان مستغرقاً في اليوم تلك الليلة لان الطلائع كانت قد روت ان الانجليز لم يتحركوا . وكانت خيام عرابي تبعد عن الخطوط نحو ميل لكنها كانت قريباً في وسط خيام الجيش .

وكان عرابي مطمئناً كسائر الجنود قد خلع ملابسه وذهب الى فراشه ونام نوماً عميقاً ولم يستيقظ أحد الا على زئير المدافع . فلبس عرابي في الحال كسوته الحربية وامتنطي حواده وذهب الى خط النار وكان معه خادمه هذا وآخرون . ولم يذهبوا بعيداً حتى قابلهم جمهور من الفلّوين يقولون انهم قد خسروا المعركة ولكن العرب البدو الذين ينتمون الى الحائن سمود الطحاوي يركضون خيلهم هنا وهناك فيزيدون الارتباك . فجعل عرابي يحض الجنود على الثبات وصار يتقدم بهم الى الامام في ناحية محمد عبيد الذي كان لا يزال صامداً للانجليز ولكن أمواج الفلّوين ردتهم الى الوراء . وحمل خادمه سيداحمد هذا برجوه ان يفر وينجو . فامتل عرابي أخيراً الى هذه النصيحة . ولم يكن الخادم يعرف ان واجب مولاه ان يصمد ويموت في مكانه في ميدان القتال وكان يتحتر بأنه استطاع ان يجعل مولاه يسمع نصيحته .

وكان كلاهما ممتطياً جواداً كريماً قد أهديا البها من مدو النجوم الغرية . فوصلا الى محطة التل الكبير قبل وصول الانجليز بدقائق ولم يتمكنوا من أخذ القطار . ولكنهما عبرا الحرس المقام على القناة قبل أن يقفل ولما صارا على الضفة الاخرى وحد نفسيهما في وادي الطميلات فسارا الى بليس ركضاً . ولم يكن معهما أحد لان الارتباك الذي نال الجيش فصل عرابي من أركان حربه . وكان كل م عرابي أن يصل الى القاهرة قبل وصول خبر الهزيمة حتى يهيئ وسائل الدفاع عن عاصمة البلاد . فأخذ القطار في بليس ووصلا الى القاهرة بعيد الظهر .

( وقد سمعت مثل هذه الرواية من مصطفى بك طبيب الجيش رواها لها في سنة ١٨٨٤ وكان ليلة معركة التل الكبير مائماً في خيمة قرية من خيمة عرابي وفي ملحق هذا الكتاب رواية عرابي نفسه )

ويظهر أنه عند وصول عرابي الى القاهرة كانت لا تزال برأسه آمال عن الاستمرار في الدفاع عن المدينة . فذهب توأ الى قصر النيل وانضم الى لجنة الحرب التي عقدت اجتماعاً وكان القرار الذي انتهت اليه اللجنة عبارة عن تسوية تقتضي الخضوع للتخدير من جهة والدفاع عن القاهرة أيضاً من جهة أخرى . ولم يفعلوا الاكثر من ذلك الى اليوم التالي عما وصلت الحنود الهندية بقيادة دورري لوالى العباسية والحقيقة أن وكلاء الحديو كانوا قد كسروا قلوب الوطنيين بدسائسهم كما أن اعلان السلطان بان عرابي نائر كان قد فت في عضد الوطنيين . ولم يكن يقول بالدفاع في هذا الوقت سوى رعا الشوارع وكاتوا بجهلون كل شيء . وكان في المدينة حامية من الهنديين الجدد وكان في مقدورهم أن يشتبوا في القلعة ويحسوها ولكنهم لو فعلوا ذلك لدمر الانجليز المدينة . ولم يكن أحد مستعداً لذلك ولذلك قررت لجنة الحرب أن تسلم في الحال مفاتيح القلعة التي طلبها . وكان عرابي قد قضى الليلة السابقة مع جون تينيه وهما في قلتي ومباشرة فنصح له تينيه بالتسليم فذهب الى القائد الانجليزى في الصباح وسلم سيفه واستأسر

( هذا رأي أحد في مدكراتي في سنة ١٨٨٤ انه في ٢٩ اكتوبر جاءني الامير  
الصرمان عثمان وكامل وكابا يتكلمان بحماسة وطنية عن الحرب وقالوا لي أشياء كثيرة .

فما قاله عثمان أنه لم يكن هناك وقت الحرب لأنه كان سميماً ولكنه كل يعطف على  
القمصة الوطنية وقد سلك سلوكاً شريعياً بعد الانتهاء . وكان كامل عصواً في الحكومة  
المؤقتة وكان يرى عرابي كثيراً وشهد بولطته ولكنه لأمه على نهاونه . فقال أنه كان  
يجب عليه أن يصرب على يوسف بالرصاص بعد القصاصين لأنه قد عرف تماماً أنه  
خائن وقد أخذ قبل المعركة خمسة آلاف حية . وحدث أنه كان يوجد ١٨ ألف  
جندي مصري ليس أمامهم سوى ٢٥٠٠ جندي انجليزى بقيادة الدوق كسوت  
نعم ان على يوسف الذى كان في القلب حمل على الانجليز ولكنه ترك ميدان القتال  
فاختل نظام الجيش . وكان معظم هذه الرشوة التي رشاه بها الانجليز رافعة بها كمية  
كبيرة من الرصاص وبعد المعركة امتلأت القاهرة بهذه القود الرافعة واشترتها  
الحكومة بسعر القطعة عشرة أو خمسة فرنكات .

وكانت الحوالات البريدية أيضاً مزودة ولكن على يوسف ألح في أن تكون  
حوالاته موقفاً عليهما من شخص يعرفه . وكانت القود التي ارتشى بها عدد لغفار  
انجليزى زائفة فأخذت زوجته بعصايتها وذهبت به الى زوجة اسماعيل جودت لكي  
تستبدل بها قوداً أخرى . وكسر الامير كمال بعض هذه القود فوجد في داخلها  
رصاصاً . اما البدو فلم يخذعوا فان الخائن سمود الطحاوى لم يقبل سوى الريالات  
الفضية نسلها من أحد قواد الانجليز كما أخبر الامير كمال بذلك بعد الحرب . فكانت  
المسألة فضيحة من جميع النواحي وكان كمال قد أمر بأن يذهب الى التل الكبير  
لقبض على علي يوسف ولكن المهرجة في التل الكبير حالت دون ذلك . فيظهر من  
ذلك ان جميع من كان حول عرابي قد خانوه بعضهم حباً في المال وبعضهم حسداً .  
وكان محمود سامي يمجد عرابي وقد أضاع الفرصة في القصاصين لأنه لم يكن قائد  
الجيش بدلاً من عرابي .

قد كان عليه أن يتقدم من الصالحية ويحافظ على ميعاده مع علي فجمي الذي  
كان جندياً شريعياً قادراً بينما كان غيره لا قيمة لهم . وكان عرابي يمنع الأتراك من  
القيادة وفي الوقت نفسه لم يكن يمدد من الملاحين سوى غير الأكفاء . وكان محمود  
سامي هو التركي الوحيد الأمين ولكنه آثر شخصه على مصلحة البلاد . وكان الامير كامل

حاضراً في مجلس الحرب في قصر النيل عند ما وصل عرابي وأخبر الاعضاء بهزيمة الجيش وهو يبكي أحر بكاء . وقد قال انه حارب حتى لم يبق سواه . وليس هذا صحيحاً . فوئحه الامير كامل وقال له « ان من يفامر بعمل عظيم يجب عليه أن يحسب حساب الخسارة »

( وقد قال لى الامير كامل ان عرابي لم يكن جديراً بأن يتولى القيادة العامة . فلو انه ضرب بالرصاص أو شق ستة أشخاص في أدوار الحرب الاولى لار كل شئ سيراً حسناً . ومما فاته أيضاً ان ما يقال من ان الجيش الانجليزى كل فى هذه الحرب يسير سير المتزهد عار عن الصحة .

( وقال لى محمد سيد احمد انه كان حول عرابي نحو ألف جندى دبحوا جميعاً قبلما يترك ميدان القتال . ولكي لا أغلق أهمية على صحة هذه الرواية أو كدها وبخاصة من حيث العدد . والمطنون ان القتلى والفرحى من المصريين قد بلغوا نحو عشرة آلاف . وأكثرهم كانوا قتلى لان الانجليز لم يستعملوا أقل هواده . ولكي مع كل ما ذكرته لا أضن صحة هذه الارقام . وعلى كل حال فى التل الكبير أكوام من عظام القتلى وم شهادة باطقة على ما جرى فى المعركة )

## الفصل السابع عشر

### محاكمة عرابي

لما كانت هذه الحوادث تجري فى مصر كنت أنا أقضى الصيف فى كرايت والحرن يقطع نياط قلبي . وكانت كل عواطفى بالطمع مع المصريين ولو ان جميع أسباب المكائبات بيدي ويهمهم قد قطعت . وكانت حمى الحرب فى الاسابيع الاولى من القتال عظيمة بدرجة لا تدع أية منفعة من كلامي . فصمت امام الجمهور واستعددت لان أقدم دفاعى عن موافى اراء المسألة المصرية . ومما كان يذكر ضدى ما ذكرته شركة روزر من ان عرابي قد فتح دارى القرية من القاهرة ووجد فيها سبعة عشر جسدوا قتلوا بالبنادق ووجد أيضاً مدفعا محاسياً من النوع الذى يحمل على ظهر

اليخوت والحقيقة في ذلك هي أنه لم تكن نعمة الاسع عشرة بندقية وهذا المدفع وكنت قد اعددت ذلك لاهديه الى ابن رشيد في حائل . وكانت هذه الاشياء في منزلي فسمع بها بعض ولاة الامور فقلوها الى القلعة . ولم أحصل على معلومات عن هذه الاشياء . للارتباك الذي أعقب الحرب الا ما أشيع في لندن من ان مدفعي النحاس قد عديم غنائم الحرب وانه حل الوزارة البحرية لكي يمرض على انظار الجمهور . وبعد الحرب بعشر سنوات كنت أتناول الفداء مع ابن عمي لورد ويندهام في القلعة في القاهرة . وبعد الفداء أخذني لكي يرى أسلحة دلو الصنعة فرأيت هناك مدفعي وسائر أسلحتي . ولما كان الصندوق الذي يحوى البنادق لا يزال اسمي عليه فإني استطعت ان أسترد جميع هذه الاسلحة .

وكانت مدة الحرب مكروهاً في دوائر الحكومة ولكن علاقتي كانت لا تزال متصلة بدار رئيس الوزارة . وكنت أقابل هاملتون وقد عرصت عليه دفاعي الذي نشرته في مجلة القرن التاسع عشر في وقت كانت أوشكت ان تذهب فيه حماسة الحرب وتنطفي حذوتها وكان المعكرون من الامة أخذوا يفسادون عن السبب والعاية من الحرب . وكانت مقالي تستند في الدفاع الى العاطفة أكثر من العقل . وكانت تقيحها أكبر مما انتظرت فان سيرلوسون ومسترجيموركي وعبرهما من الاحرار أخذوا يطوفون البلاد يدعون الى وقف الحرب وصار في البلاد شبه رأى عام يقاوم الحكومة في هذه الحرب . فتشجعت من ذلك . وحوالي ذلك الوقت أيضاً نلت خطاباً من الجنرال غوردون مؤرخاً بتاريخ ٣ أغسطس وكان وقتئذ في مدينة الكلب وقد صرح لي فيه بعطفه على القضية التي كنت أدافع عنها وهذا نصه :

مدينة الكلب في ٣ أغسطس سنة ١٨٨٢

عزيزي متر بلنت

انك تقول في التيمس إنك ستنشر بياناً عن المكاتبات التي دارت بينك وبين الحكومة فأرجو أن ترسل لي نسخة من هذه المكاتبات . فقد كتبت أنا مسودة كتاب عن الحوادث التي جرت بين بعثة كيب وبين ارتقا . شريف مصعب الوزارة وسأسميه « اسرائيل في مصر » وسأبعثه بأخر اسميه « سفر الخروج » ولا أعرف

إذا كنت سأطبع هذا الكتاب لانه ليس من الصواب ان يثمت الانسان أعدائه .  
أعني بذلك الأعداء الزمانيين .

ما أبلغ الدمار والحراب اللذين جرهما مالت وكولمن بل ما أوحى عواقب  
سياسة التكنم التي جرى عليها ذلك وكولمن ومالت . قد فر ذلك من إجابة  
الاسئلة التي أقيمت عليه في البرلمان بدعوى المصالح الانجليزية . فياله من شقي اتني  
اعتقد تمام الاعتقاد انه لا يدري عن خطئه أكثر مما يدري بواب ورارة الخارجية .  
وهل كان يمكن أن تكون خواتيم الامور أسوأ مما هي الآن لو انه صرح بكل شيء ،  
كلا . إذ ما هي النتيجة الراحة ؟ زوال المراقبة وزوال الموظفين اللذين يتنازلون في  
العام ١٩٧٣ ألف حصيه وزوال نفوذ القناصل وزوال توفيق وزوال الربا وخراب مدينة  
الاسكندرية وفوق ذلك أمة نكرهنا وسيدهم ككولمن الى الهدم ومالت الى  
الصين ولن نسمع عنها شيئاً . وكل هذا لأن القناصل والمراقبين لا يرغبون في أن  
يساقش أعيان البلاد الحكومة عن الميزانية في وزارة شريف . وأما عن عرابي فها  
حدث لشخصه منه سيعيش في قلب الامة الى الابد : ولن تكون هذه الامة  
« خادمتكم المطيعة » مرة أخرى .

(ك.ج. غوردون)

واقبل نحيات المخلص لك

وقد رأيت في الحال أهمية هذا الخطاب لآتي وان كنت في ذلك الوقت مكروها  
في الدوائر الحكومية الا ان اسم غوردون كان ذا قيمة كبرى عند الجمهور وبخاصة  
عند ذلك الجمهور الذي بدأ بمضدي فاعتسدت على هذا الخطاب لكي أشرع في  
مكاتبات جديدة مع هاملتون . وكان مستر غلادستون قد قال في البرلمان عني  
أني « من الشاذين السيئين » اللذين لا يعرفون مصر فأرسلت اليه عن سبيل هاملتون  
نسخة من خطاب غوردون لي ثم لفت نظره الى ما ذكرته الحرائد من روايات  
الفظائع التي كان يرتكبها توفيق هو وورداؤه الشركس مع المعتقلين الوطنيين . فقد  
روى أن محمود فهمي القائد المهندس قد غلب وان السياط وسائر آلات التعذيب  
قد استعملت بلا رحمة . فسألت أما مستر غلادستون عما اذا كانت الحيووش الانجليزية  
قد أرسلت لمصر لهذا الغرض . وجاءني رد سريع وقد أضافني بعد ذلك عدما طلبت



لا يترك عرابي تحت رحمة الخديو حتى يهوي عليه بالهلاك بلا محاكمة .  
وهناك نص هذا الخطاب :

« ١٠ شارع دوتنج سيريت — هوبتول »

٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لا أظن أنني في حاجة لأن أخبرك أن القلق قد ساور مستر غلادستون بصدد ما أشيع من ارتكاب العطايع مع الموظفين في مصر . وقد أرسلت في الحال تعليمات للبحث عن حقيقة هذه العطايع ومع الإشارة بالاحتجاج على ولاية الأمور إذا كانت قد وقعت . ولا والله ليسرني أن أخبرك بأن ما لدينا من الحقائق يبي وقوع هذه العطايع المزعومة وقد أعطيت أوامر شديدة بأمر بمعاملة الموظفين معاملة المروءة والإنسانية .

ويظهر أن هناك بعض الزبنة في ارتكاب التعذيب مع أحد الحواسب ولكن التحقيقات تجري الآن والضمانات تؤخذ لمنع تكرار التعذيب . ولكن على يقين بأن مستر غلادستون سينتكر « العطايع المصرية » ويدد بها كما يدد بالعطايع البلغارية . ولست أعلمك من أن أدركك بأن رأيك أو رأي غوردون الصيبي عن عرابي سيتغير عند ما تقرأ الوثائق التي قرأها .

« فذا أشهر قليلة ( وهذا خبر لا يجب أن يعشي ) فما بعض التحريات عن غوردون فإنه قد عرض علينا بعض مقترحات بارلندا وكانت نتيجة هذه التحريات أنه ظهر لنا أن عقله لم يكن سليماً »

وكانت هذه الحجة الأخيرة غريبة فإن السبب الذي جعل حكومة مستر غلادستون تعتبر أن عقل غوردون لم يكن سليماً هو أن غوردون كان قد ساح في غربي ارلندا وأرسل وقت سياحته إلى أحد أعضاء الحكومة وهو لورد نورثبروك يقدم له مقترحات عن رد الأراضي للارلنديين باليمن وأيضاً يقترح الحكومة الدانية لهم .

وكان هذا الخطاب فاتحة علاقات حسنة بيني وبين دار رئيس الوزراء وصار لي بعض النفوذ عقب انتصار الحزب الانجليز في التل الكبير وأسرع عرابي وكانت نتيجة انتصار الحزب تغييراً هائلاً ونحولاً في رأي الجمهور . فكان من حسن الحظ

أني استطلعت أن أقول كلمة مد أسبوعين لأنني لو لم أقل هذه الكلمة في ذلك الوقت لما سمع بعد ذلك أحد صوتي في جليلة الصر . وكانت نتيجة هذا العور أيضاً أن برزت الحكومة جميع أعمالها السابقة وقسي مستر غلاستون من ناحية الوطنيين . وكان هناك خطر من أن يلجأ غلاستون لتبرير ذبح الفلاحين أمام ضميره إلى تضحية عراقي نفسه . وكان عنده الوحيد فيما ارتك من الفاضل الحربية ماسبق أن أغرى به نفسه من أنه يعامل في شخص عراقي رجلاً مجرمًا معصيًا غير جدير بالاحترام الذي هو من حق الوطنيين كالأ يمكن اعتباره قائد جيش متمدين .

ولدى ما يجعلني اعتقد أنه لو كان عراقي قد وقع أسيراً في يد واسلي في التل الكبير لأعذبه في الحال ولولا تدخل سير جون أديو وهو قائد أكبر سناً من واسلي وأكثر تجارب لضربه بالمرصاص أيضاً في القاهرة عند القبض عليه ولكن سير جون أديو أظهر لولسلي البار العظيم الذي يلحق بالهيش الانجليزي إذا كان قائد قوة منظمة قد احتاحت الحكومة الانجليزية إلى تعبئة ثلاثين ألف حدي لقمه لا يعامل المعاملة الشريفة التي هي من حق أسير الحرب . ثم أن برأيت قد صرح لمستر غلاستون برأيه وهو في أشد القبط عن هذا الموضوع وطلب معاملة عراقي معاملة حسنة . ويحب أن يعتقد أن قوة الرأي العام وحدها هي التي جعلت الحكومة تحجم عن تضحية عراقي كمارة عن اغلاطها وكان مستر غلاستون ولورد غرانفيل وسائر اللوردات الأحرار في الوزارة مصممين على ذلك . ولكي أبين الأساليب التي جعلتهم يعدون إلى الوسائل الانسانية في معاملة الوطنيين بحبان أذكر التفصيلات الآتية :

فقد أعلن تسليم القاهرة وأسّر عراقي في جريدة التيس في يوم ١٦ منه وفي هذا اليوم أيضاً أرسل موبزلي بل مكاتب التيس في الاسكندرية تلفرافاً لحريته يطلب فيه التبريد بعراقي وعشرة آخرين من زعماء الوطنيين . وأدركت من هذا ان النية سينة بل في غاية السوء وأرسلت في الحال تلفرافا الى ناتون أسأله عن رأي الدوائر الرسمية . وكان جوابه الاول مطمئناً يقول فيه :

« ليس هناك في ظلي أقل خوف من أن يصرب أحد بالمرصاص . ولكن يجب عليك مع ذلك ان تطلب معاملتهم بالرفقة »

ولكن بعد ذلك ساعتين أرسل لي التفراف التالي :

« ان لائحة الدوائر الرسمية تصدأ أصدفانك لا تطمن فاكفب لى خطباء  
استطعب أن أوبه لرئيسي »

وكان يقصد هذا الرئيس نشري رئيس تحرير جريدة النمس وكانت علاقته  
به حسنة جداً . فكفنت فى الحال الى هاملتون أقول :

« لا أطل أن هلك أى خطرم من وجهة أعدام أحد من الوطنيين فى القاهرة  
ولكن اذا كان يوجد هذا الخطر فانا أمل أن نجبرى فى الوقت الملائم لأن لى نص  
مفترحات بخصوص محاكهم محاكمة عادلة ومخصوص مسائل أخرى »

ومما هو ذو دلالة أنى لم أنسلم ردأ على هذه الرسالة مدة يومين وبعد ذلك جاءنى  
رد يقول ان هاملتون عى وشك أن يسافر الى الارياف وعلى ذلك فلا يمكنى أن  
أعتمد عليه .

ولكنى لم يسقط فى يدى هذا السب فأنى كفت رأساً الى مشر غلادستون  
وقد فعلت هذا بعد أن استشرت باتون وبرودلى وهذا الأخير قابلته فى منزله بعد  
طهر يوم ١٩ مه وقررنا أن يكون ردولى المحامى عن عراى وسائر المعتقلين السياسيين  
وكان باتون الذى يعرف دحائل المسائل يرى أن الوقت لا يتسع للأرجاء والتسويم  
واتقناع مع ردولى على الدفاع بمبلغ ٣٠٠ جنيه ثم زاد هذا المبلغ الى عثمائة جنيه وهذا  
غير ما كلب بدفع له فى تأجيل القضايا . وفى أثناء ذلك خدمنا باتون خدمة كبيرة  
بأن نمكر من أن يجعل جريدة النمس تعلن بأن عراى ورفاقه لن يعدموا الا برضى  
الحكومة الانجليزية وأنه سيدافع عنهم محامون قادرون . ولم يكن عددا ما بدفع هذا  
الخبر ولكن بما أن النمس قد أعلنته فان الحكومة وحدث من الصعب أن نر-  
عن خطة الانساية التى أدهاها عنها وسماها اليها .

وهاك خطابى الى مشر غلادستون

١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

سيدى العزيز

أما وقد انتهى المصريون من معارومتهم الحربية وبما أن عراى وسائر الزعماء

قد سلموا أنفسهم لقوات جلالة الملكة فاني اتحرا على مخاطبتكم لمصلحة العدالة ولمصلحة أولئك الذين اُقتل بهم مقادير الحرب في أيديكم .

والظاهر أن الية المقودة على تأليب محكمة عسكرية لمحاكمة الرعايا العسكريين للثورة للبحث عن علاقاتهم ببعض الاعمال العنيفة التي ارتكبوها . وسنساعد المحكمة العسكرية بمحكمة مدنية في هذه التحقيقات . فاذا كانت هذه هي الية المقودة فاني أرجوكم أن تعتبروا الظروف التالية لاما حديرة بطركم وعابنتكم .

١ - اذا كان أعضاء المحكمة العسكرية المقترح تأليفها مصريين بينهم الخديو فاسمهم لن يكونوا أحراراً في حكمهم وسيستحون من المصايط الذين كانوا من حرب الخديو فيكونون لذلك معرضين .

٢ - واذا لم يحصل ذلك فيجب أن تذكروا أن شهود الزور كثيرين في مصر وتزوير الوثائق العربية سهل فلذلك لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الشهادات . فيجب إذن وجود خبراء . له حصص هذه الشهادات قبل قبولها .

٣ - واذا كانت الينات مما ياعد المعتقلين فلا يمكن مثبها أن يقولها الا وهو حائف . فنفسه تغريه بالا يقدم مثل هذه الينات فيما تغريه البلاط الشهود فان يقدموا يينات نصر بالمعتقلين . واذا كان الخبراء وطنيين وسيكونون معرضين لجميع هذه الظروف .

٤ - وشهادة الادريين المقيمين في مصر ستكون مصوغة بصيغة تاني مصلحة المعتقلين فهم ذو مصلحة في القضية . فقد خسر بعضهم بعض املاكه وتعطلت تجارة البعض الآخر وأصيب بعضهم بما مس كراته فهو لذلك يرغب في الانتقام . ولهجة الانتقام بادية منذ الآن فيما يكتبه الاخيلز المقيمون في مصر وفي الصحف الانجليزية .

٥ - ولا يمكن اذا أريدت محاكمة المعتقلين بالعدل أن يوجد ممثل للحكومة جلالة الملك في شخص أحد التراجة أو نحو ذلك وقت التحقيقات . لأن الشعور السياسي قد طمأ بحيث لا يمكن لاحد في القاهرة أن يحكم حكماً نزيهاً بعد حوادث الستة الأشهر الماضية .

٦ - اذا كانت الية معقودة على أن يضم ضابط انجليز الى الاعضاء الوطنيين في المحكمة العسكرية كما هو الحال. فاهم سيحملون لغة المعتقلين وان يستطيعوا فحص البيانات أو استجواب الشهود فيكونون لهذا السبب في أيدي المترجمين الدين ربما يفهمون الاقوال للاضرار بالمعتقلين. وأكثر ترجمة القنصليات سوريون مسيحيون يكرهون المسلمين كراهة شديدة. وليس في مصر انجليزى يوثق به للقيام بهذه المهمة. فوظفونا لايصفون العربية أو يعرفونها معرفة قليلة ثم أن علاقتهم بالقليل ستفسد بالطبع رأيهم السياسى .

فذلك يظهر أنه اذا لم تتخذ احتياطات خاصة فان الخطر من عدم تحقيق العدل عظيم .

وتلافياً لذلك يقدر الامكل قد عولت على ان أعين محامياً على مقتي أنا وبعض أصحابي للدفاع عن أهم المعتقلين وسأذهب به الى القاهرة لكي تجمع البيانات للدفاع عنه : وسيكون معي القسيس صابونجي كترجمان . ولما كانت معرفتى بالعربية ناقصة فلست لذلك أستطيع ان اشتغل وحدى وصابونجي هو أحد أصدقاء المعتقلين وهو قادر على أن يتكلم عنهم . ثم هو يجيد معرفة الانجليزية والعربية والفرنسية والايطالية والتركية وربما كان خير من يعرف العربية . والمعتقلون يثقون به واعتقادي انهم يثقون بي أيضاً .

وهذه الطريقة فقط يمكنهم أن يحصلوا على ما هو من حقهم أى تحقيق كامل خلو من الغرض .

وفي الحتام أرى أنه ليس من الضروري ان أعد باى وقت اشتغالى أنا ومن يقومون معي بالدفاع عن المعتقلين لن نتدخل مطلقاً في السياسة . وأكون شاكراً لكم إذا نكرتم باخبارى في أقرب وقت عن نوع المحاكمة وبام التهم التى ستوجه الى المعتقلين . وأرجو أن أجد أنا ومن معي التسهيلات التى تسهل علينا القيام بعملنا في مصر ولن أشك في اسم لما جلت عليه من حب العدل والحق ستمكنوني من القيام بهذا العمل هذا وأني الخ .

ولفرد سكان بلت

وهذا الخطاب الذي كنت أعرف ان من الصعب على مستر غلادستون بعد أن ذكر « المطامع المصرية » الى حاسب المطامع البلغارية ان يرد عليه بالرفض ، امتته اليه بعد أن ردت هاملتون وأحبرته بتي . ولكن هاملتون لم يشجعي كثيراً كما نلت ذلك لي أبصاً من رفته التي أرسلها لي في الصباح التالي ردأ على خطاب مي له . ففقد قلت له في هذا الخطاب اني سأكتب الي عرابي وأسأله عن حكيمة إرسال خطاب اليه ( الى عرابي ) وقد رجوت ان أحصل على رد من رئيسه مستر غلادستون قبل يوم الجمعة . فكلن ردها ملتون كما يلي :

« اي آسف لان أخبرك بأن خطائك قد تأخر بحو ثلاث دقائق . ولكن على كل حال بحسب الاعتد علي جواب سريع . فان مستر غلادستون سيتقل كثيراً ثم هو ان يكتب الرد حتى يستشير آخري . وأنا نفسي أجهل المسائل التي ربما تؤدي اليها مقترحاتك ولذلك لن أنطوع برأي .

ولكن أليس من المشكوك فيه انه يمكن الدفاع عن انسان بواسطة محامين حاسب وان هذا بخلاف القوانين الدولية والعرف ؟ وأني أجهل أيضاً كيفية ارسال الرسائل الى أسرى الحرب ولكنني أظن انه لايتسى ارسال أية رسالة لعرابي الا اذا رضي الحديو وقائد الجيش الانجليزي . وعلى كل حال فواسطة المفاوضات سيكون مائت في الارجح »

وبناء عل هذا الاقتراح كتبت خطابا الى عرابي أخبره فيه عن الطريقة التي ستمتها في الدفاع عنه وألحقت هذا الخطاب بصورة منه لكي يطلع عليها مائت ولزيادة الاحتياط ذهبت بنفسى الى وزارة الخارجية وسلمت الخطابين لكي يرسلوا الى لورد تتردن حتي يكتب عليهما مايفيد العناية بهما . ولكن سوء الحظ أني الا أن يموت اللورد في ذلك الصباح وكان البريد على وشك السفر فاضطرت الى إرساله على يد حادم باتون . وكان الخطاب موحاً الى القاهرة ولكن مائت أني أن يعلم

لخطاب ورد الى رسالتى . وهذا يدل على مبلغ معاكسة الحكومة لى في تعيين  
صالحين للتعيين وهلك كتابه لى :

القاهرة فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٨٢

سيدى :

بناء على التعليقات الواردة الى رئيس حكومة حلالة الملكة ها أما إذا أرد اليك  
كتابك المرسل الى عرابى طي كتابك المرسل الى بتاريخ ٢٢ من الشهر السابق .  
ادوارد ماليت

اما كتابي الى عرابى فكان كما يلي :

الى صديقى الشريف أحمد عرابى باشا

انك كخندى ووطنى أدرك الاسباب التى معنى من انت اكتب اليك أو  
أرسلت مدة هذه الحرب المشؤمة . اما الآن وقد انتهت الحرب فاني ارجع ان  
أريك ان صداقتنا لم تكن مقصورة على الالفاظ فمن الارجح انك ستحاكم وستكون  
تتمتلك الثورة أو غير ذلك من الهمم التى لا أستطيع معرفتها الآن ، فإذا لم يقدم  
عك دفاع قوى يارع فانك تكون معرضاً لان يحكم عليك حكماً سريعاً . ولذلك  
عزمت بعد مواظنتك على ان أسافر الى مصر لكي أقدم اليك التى تفيدك في  
المحاكمة وسيكون معى محام انجليزى شريف قادر على الدفاع عك وقد أخبرت  
الحكومة الانجليزية عن نيتى هذه فارحوك أن تولكنى فى القيام بهذا العمل فى  
أقرب وقت لان رضاك ضرورى . ويحسن لك ان ترسل لى تفرافاً بالقبول وكتاباً  
آخر توافق فيه على ان أقوم بمهمة الدفاع عك . ويمكنك ان تعتمد على طول مدة  
اعتقالك فى ان عائلتك لن تحتاج الى شئ . ما . والله يقوى قلبك ويعمحك القدرة  
على تحمل السراء والصراء .  
ولقد سكاون بلاست

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كرابت — مسكس — انجلترا

وكلن حواب غلادستون قد جاء الى قبلما كنت انتظره ويظهر من انه كان قليل

البل الى محاكمة زهبة وكان رأيه في ذلك هو رأى وزارة الخارجية . وكان الحواب  
مرسلا عن واسطة هاملتون وهو :

١٠ شارع دوننج .

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لقد قرأ مسر غلادستون الكتاب الذى بعثته اليه بخصوص محاكمة عرابي  
واقترحك تعيين محام انجليزى للدفاع عنه . وكل ما يستطيع أن يقوله لك الآن  
انه سيرض طلبك على لورد جرايفيل الذى سينشيره في هذا الموضوع ولكنه  
لا يمكن أن يؤكد لك مد الآن بأن طلبك سيجاب »

ولم يكن هذا الكتاب فضاً بآناً ولكن التبيط ظاهر فيه . وقد أضاف هاملتون  
بعض عارات تريد قوة هذا التبيط إذ قال في خطاب له : « اعترف بأنى كلما فكرت  
في المصاعب التي تخطر ببالى أجدها تزداد عدداً باقترحك هذا . وستعرف عن هذا  
الموضوع بعد يوم أو يومين أشياء كثيرة . ولكك لن نسمعا لأنى كلما سبقنا  
أخبرتكم عازم على السفر »

فبقيت في شكوك فيما كانت افالة تزداد حرجا كل يوم . ولم أكن أحسر على  
السفر الى مصر قل ان احصل على جواب فاصل لأن وجودى في القاهرة لن يكون  
منه أقل فائدة مالم أكن حاصلا على سلطة من الحكومة . وربما كان لا يسمح لى بأن  
أقابل المهين . وكان برودى قد سمم الانتظار وسافر الى تونس . وكان فصل  
البرلمان قد انتهى وأكثرت الناس كانوا يبادرون لندن وكان الوزراء يوكاون وكلام  
في القيام بأعمالهم وركدت حالة الاشغال

وكانت الصحف في أثناء ذلك تتناقش في مسألة اعدام عرابي وكانت صحف الترعة  
الحرية يصرخن مطالبات باعدامه ولم يكن يسمح الاحتجاج على هذه الاقوال الامن  
النواحي الضعيفة . وكانت اللجنة المصرية التى الفاسير وفرد لوسون في الصيف وقد  
أدت إذ ذاك بعض الاعمال الطيبة قد سكنت وأرسل لى لوسون نفسه كتاباً مملواً  
باليأس قال فيه :

« أي اشك كثيراً فيما اذا كانوا سيسمحون لعرابي بأن يحاكم محاكمة زهبة :



لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم اذا فعلوا ذلك سيحكمون على أنفسهم. والسياسيون احدثق من أن يفعلوا في هذا الفتح . وعلى كل حال أنت مصيب بما تحاوله من انالهم شيئاً من الانصاف »

وكان كل مايمكنني ان اعله هو أن أبقى في لندن الخ على رئيس الوزراء . باجابة طناني وأوعز الى التيسر مكتابة ماأريد . وبعد ان انظرت اربعة ايام كتبت الى علاءستون الكتاب الآتي اطلب منه جواباً فاطمأؤ ذلك لأن الحالة في القاهرة كانت قد بلغت درجة خطيرة

٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كتبت اليكم منذ عشرة ايام بصدد إرسال محام للدفاع عن عرابي باشا وسائر المعتقلين من الزعماء الوطنيين في حالة محاكمهم وكذلك اخترتكم عما نوبته من السعر الى القاهرة لكي اتولى تقديم اليبات التي تفيدكم ولكي ارقب الاجراءات . وقد رجوتكم بأن تبلغوني في أقرب وقت قراركم بهذا الصدد

وقد كان جوابكم الذي ارسلتموه بواسطة هاملتون جعلني اعتقد أن اقتراحي سينظر فيه وأن كنتم لاتؤكدون باجابه طلبي

وبما على ذلك قد اتفقت مع أحد المحامين المشهورين على أن يدافع عن المعتقلين في حالة رضى الحكومة بأن يدافع عنهم ولكي احصل على موافقة هؤلاء المعتقلين بأن يدافع عنهم محام كتبت الى عرابي باشا عن سبيل سير ادوارد ماليت أرجوه بأن يوافق على أن أرتب الدفاع عنه ولم يصل الى الرد للآن . وكذلك لم يصلني منكم أو من لورد جرايفيل كتاب للآن .

وقد قرأت في التيسر رسالة من مكاتبها في القاهرة يقول فيها أنه قد قرر أن يحاكم النهمون امام محكمة عسكرية سيدكر أعضاؤها . وهذا هو نص الرسالة : « سنعين المحكمة العسكرية لمحاكمة جميع المتهمين غداً . والحديدو وشريف ورياض يلعبون الخلفاء كبيراً في ضرورة اعدام الزعماء وهذا رأى يكاد يجمع عليه الجميع الا القليلين »

وقد قال لي شريف وهو رجل معروف بأنه معطور على اللطف والرافة : اني

لا أطلب موت المتهمين لأنى أحقد على أحد منهم ولكن لأن موتهم ضرورى للامم  
المام فى هذه البلاد . وليس من يسكر فائدة الحملة الانجليزية ولكننا لا نريد أن  
تأثينا الجيوش كل اثنى عشر شهراً »

فإذا كانت هذه الرواية صحيحة فانها تؤيد ما كنت أتوحيس منه من ان  
مستشارى الخديو يودون قتل هؤلاء المعتقلين وهي أيضاً تبرر ما سبق ان قلته من  
ان المحاكمة لن تكون نزيهة . فذلك أعود الآن وألح فى وجوب منع المتهمين حق  
الدفع الشرعى عن أنفسهم . وأرجوك لكي تخفف آلام الشكوك والمسئوليات  
فتحترق صراحة هل توى الحكومة أن تسمح لمحامين انجليز بالدفاع عن المتهمين أم لا .  
وهل تعطى إلى التسهيلات التى وعدت بها فى مكانة المتهمين والموصول على مترجمين  
قادرين ل ترجمة أقوالهم .

وليس يمكنى فى حالة الشعور الزامن بين الموعظين ان أعمل أنا أو سواى  
شيئاً لمصلحة المتهمين ما لم تحصل على الحماية والمساعدة السياسية .

ومرورة الحالة وحرارتها عذرى فى رحاى لكم بسرعة الرد  
ولكن هذا الكتاب لم يصل الى مصر غلاستون لانه كان قد برح لندن  
وكان سكرتيره الذى يتلم ما يرد اليه من المكاتبات هو هور سيمور فأخذ كتابي  
هذا وأرسله الى وزارة الخارجية . وكتب الى يقول .

« بالسبة لقيام مصر غلاستون وقت وصول مكاتباتك أرسلت مصمبون  
طلباتك اليه الى وزارة الخارجية . وقد فعلت ذلك لانه كان قد سلم كتابك السابق  
اليه الى لورد جرانفيل كما أخبرك بذلك هاملتون ولأنى فهمت من رقتك أنك  
توافق على هذا العمل وفيها أيضاً توفير الوقت . وقد علمت ان لورد جرانفيل سيرسل  
اليك رداً رسمياً يوضح فيه رأي الحكومة عن المسائل التى عرضتها »

وعلى هذا فهمت ان مصر غلاستون قد رفع عن نفسه مسئولية قول « نعم »  
أو « لا » وألقاها على عاتق لورد جرانفيل . ولما لم يكن جرانفيل أيضاً ببلدن فانه  
لم يبق سوى كتبة وزارة الخارجية للفصل فى المسائل التى عرضتها على مصر غلاستون  
وعلى الرغم مما قاله سيمور من أن الحكومة سترسل لى رأياها فانى لم اتسلم سوى

ساعة موقفة بامضاء جوليان بنسفت يقول فيها ان مستر غلادستون قد احال  
رسالتى الاثنين على لورد جرانفيل وان لورد جرانفيل يأسف لانه يشعر ان ليس له  
الحق فى مكاتبتى عن هذا الموضوع . وهكذا تحلى مستر غلادستون عن المسؤولية التى  
حارلت ان اربطه بها وكان قد عقد نيته على ان يقتل عرابى وكانت هذه أبصاً بية  
رجال وزارة الخارجية . وقد شرحت تفاصيل هذه المسألة لاهميتها التاريخية ولكي  
اين لقارىء ذلك المكر الذي كانت تلجأ اليه الحكومة .

وقد قرأى بعد ذلك على ان لانضج منى مرة اخري فتشاورت مع باتون  
ولورد دلاوار الذي كان قد آتى الى لندن وعرض ان يدفع نصف نفقات الدفاع  
عن عرابى ( ولكي لاحظ هنا انه لم يف بوعده ) وقرأياً على ان يرسل الى مصر  
اول محام نجده يكون خالياً من الاشغال لكي يكون مساعداً لبرودلى الذي كان فى  
ذلك الوقت فى تونس . فيعمل مايمكنه عمله فى القاهرة حتى يصل اليه برودلى .  
ولم يكن لورد جرانفيل موافقاً على وجود محامين للتمهين . ولكن التيسر كلسق  
ان ذكرنا كانت قد قالت عن الحكومة انها لن تسمح بقتل عرابى الا بعد موافقتها وانه  
سيدافع عنهم محامون مهرة : ولم يكن لرجال الحكومة قوة على تكذيب مانسبته اليهم  
التيسر علماً . وكان نفوذ باتون عند رئيس تحرير التيسر كبيراً لدرجة انه صار واثقاً  
من انه يستطيع ان يجعل لورد جرانفيل يقبل وجود محام انجليزى مالاخاح على  
هذا الطلب فى جريدة التيسر

وعلى هذا ذهبنا فى ذلك اليوم الى مكاتب المحامين للبحث عن محام ولكننا  
وجدناها خالية لانا كنا فى اوقات العطلة ولكنا وجدنا فى الساعة الاخيرة الرجل  
الذى كنا نشده وكان هذا الرجل مارك نيبار ولم يكن يفضل أحد في سعة الحيلة  
ومعرفة القانون وقوة العارصة . وكان يمتاز أيضاً بأنه ابن سفير فكان يعرف الاساليب  
السياسية ويجيد معرفة الفرنسية وهي ذات قيمة كبرى فى القاهرة . فلما رضى بالذهاب  
واعطياه ماسمحه الوقت من المعلومات اخبرناه بان يذهب رأساً الى مالت ويخبره  
بانه قد حضر لكي يدافع عن عرابى ويلجأ فى مقابلة موكله . وهذا كان كل  
مايستطيع ان يفعله وهو اذا قدر على ذلك فقد أدى عملاً عظيماً . فاذا رفض مالت

طله فعليه ان يخرج وان يستبد من كل حادثة لمصلحة المتهمين . ثم عليه ان لا يقطع عن اخبار ما عما يحدث كل يوم بالتلغراف ويمن ها ان اسكت عن المطالبة في الصحف وفي وزارة الخارجية حتى يحال الى ما يطلبه . ولم يكن مارك نيسار ممن يتحدثون بوقار السياسة وحرمتها لانه كما قلت كان ابن سفير وكان يعرف دخائل السياسة . وسافر تلك الليلة عن طريق برنذبزي ومعه بعض كتب التقدمة وجدول ارقام للاستعمال في ارسال التلغرافات . ولم يكن معه من الامتعة سوى حقيبة يد .

أما انا فقد ارح على دلاوار في ان لا اذهب الى القاهرة لانه كان يعرف حتى وزارة الخارجية على .

وذلك لاني لو كنت بالقاهرة لوضعت تحت مراقبة الحواسيس اوروبا كانوا قبضوا على وردوي الى انجلترا في حين اني يبقائي هنا في انجلترا بمكني ان اولى الحملات من الصحف الا ان كان في مقدورهم وحدهم ان يكسب القضية لمصلحتنا . وقد تمكن باتون في تلك الليلة من عمل مهم في التيسر وذلك ان دلاوار كان قد حصل على تأكيد من حراويل بان الحديو سيمسح المتهمين جميع العرص التي تمكنهم من الدفاع عن انفسهم . وكان هذا التأكيد لاقية له من حيث الحصول على محاكمة زهبة لان جميع المحامين الذين كان يمكن المتهمين ان يستخدموم كانوا من رجال سواحل البحر المتوسط الشرقية ولم يكونوا يفضلون المحامين الوطنيين بشي . ولكن استخدام حكومتنا لمثل هؤلاء المحامين كان يرفع عنها عبء انتقاد الجمهور وكانت في الوقت نفسه تستطيع ان تنفذ اغراضها وتقدم المتهمين .

وكانت الية ان ننهي محاكمة المتهمين في المحكمة المصرية في يومين فاذا ما انتهت عليهم ادلة الثورة عوقبوا في الحال بالاعدام وفي هذه الحالة يرفض قبول المحامي الانجليزي باعتباره اجنبيا ليس له حق التدخل

وكانت الصارة التي فاهها جرانفيل امام دلاوار لانه عياني : « ليس عدى ما يجعلني اشك في ان الحديو هو صاحب الخطة الشرعية سيمسح المتهمين جميع العرص المعقولة للدفاع عن انفسهم مادام لا يؤذى هذا العمل الي تأخير غير ضروري او غير عادي وعلى المتهمين او اصدقاءهم ان يشهدوا ما يناسبهم من الاحباطات تحت مسؤوليتهم

فأخذ بانون هذا التصريح وكتبه في التيمس بالشكل الآتى :

« كتب لورد جرايميل يقول ان جميع التسهيلات المقولة ستمسح لله تعالىين في مصرهم واصحابهم لكي يهينوا لم المحامين عنهم ونا. على هذا قد أرسلت تالمرات من منبر برودلى بأن يقوم في الحال ويسافر الى مصر »

وظاهر من المناقشة الشديدة التي جرت بين لورد جرايميل ولورد ديلاوار كيم حسب جرايميل من تفسير كلامه على هذه الصورة ( انظر الكتب الزرق ) ولكن سر هذا الخبر في التيمس بهذه الصورة وضع لورد جرايميل في مركز لا يستطيع - برتد عنه وهكذا أمكننا بهذه الحيلة ان نفمس يديه على الرعم منه مرة أخرى في للسألة (١)

ومع كل ذلك ندنا فقد كل شى. وذلك لعودة كوا من العجائية الى القاهرة مرة أخرى . وهو ثاى اثنين ( هو والحديوى ) بخشان علىة التحقيق . وكل عرض زيارة الخارجية في ذلك الوقت تعجيل المحاكمة والانهاء . مها قبل وصول برودلى من تونس . وذلك لان تونس كانت ولا تزال غير متصلة مباشرة بمصر وكان المرجح ان تنتهي عشرة أيام قبل وصول برودلى الى مصر . ولم يكن عسدم علم . نا أرسلنا نيبيل . فاعطيت لذلك الاوامر في الحال بنقل عرابى من اعتقال الانجليز وإرساله الى مسجن الحديوى حيث لا يمكن أحداً ان يزوره وفي الوقت نفسه نرفع المسئولية عن عاتق الحكومة الانجليزية . وقد عمل هذا العمل يوم ٤ اكتوبر أى قبل وصول نيبيل بيومين فقط . وحدد يوم ١٤ اكتوبر للمحاكمة فيما لم يتمكن

(١) لقد قبل لى حديثاً بان تأييد التيمس لنا في وجوب محاكمة عرابى بمحاكمة زينة كان الغرض منه خيئاً وذلك لأنها كانت ترغب ان تتحمل الحكومة المسئولية حتى ينتهي ذلك بالسيطرة على مصر ولكن لم أسمع ما يشير الى هذه النية في ذلك الوقت ولا زلت أحب ان اعتقد ان الباعث على تأييدنا هو العواطف الشريفة التي هي من أفضل تقاليد جريدة التيمس وأيضاً ما عرف به شرى رئيس التحرير من طيبة القلب .

برودا، من الوصول الى مصر قبل يوم ١٨ مه . ولم يعد هذه التذيرات سوى ظهور نيبيار الفجائي في القاهرة .

ولكي يجمخوا الدواع شاقا ويمحلوا المحاكاة حملوا القانون المرسى هو المصمول به في المحكمة العسكرية . وهذا القانون في حكومة لانزعى الذمة آله قوية للأنهام . فبناء على هذا القانون يجوز استجواب المتهمين والشهود قبل أن يروا محامهم ويستشيروهم وبهذه الطريقة لا يستطيعون ان يقولوا شيئا خشية ان يواجهوا بما سبق ان قالوا في استجوابهم الاول . ثم ان خصيان الخديو الزوج كانوا يزورون المتهمين في الفترات التي يكونون فيها في السجن فيضربونهم ضربا مبرحا لكي يلقوا الرعب في قلوبهم ويكسروا اعنهم وعزة نفوسهم . وبعد كل هذا اعلنت الحكومة المصرية ان الدفاع عن المتهمين لا يكون ألا باللغة العربية وعلى هذا صار لا يمكن ان يدافع محاموهم عنهم وقد ارسل الى نيبيار هذه الاخبار بالتلغراف

وكان كل مافعة الحكومة الانجليزية لمنع الخديو من التماذي فيما كان يرتكبه من المظالم وضروب العنف السافل في اشخاص هؤلاء المتهمين انها عينت اثني عشر من الانجليز لكي يشرفوا على التحقيقات . وكان هذان الاثنان رجلين شريطين ذوى مروءة . فكان اولهما سير تشارلس ولسون الذي رافقني في سياحتي من حلب الى أرمير ومسنر اردن بيهان الذي كنت أعرفه في دمشق وكان في هذا الوقت المترحم الرسمي عند مالت في الوكالة . وكان كلاهما يعرف العربية وقد تأثر كلاهما من وقوف عراقي وقت المحاكاة والاعتقال وكانا يعطيان نيبيار ما يحتاج اليه من المساعدة

وقد نجح نيبيار في ان يجعل مالت يعترف بمركره كوكيل لعراقي ورقائه كما اعترف أيضا بمركره ايف كمحضر للدعوى . ولكن نيبيار لم ينجح في ان يحصل م على وعد بأن يكون المحامي عن عراقي انجليزيا . وكان مالت سوف في اجابة طلب نيبيار في رؤيه موكله أى عراقي بأن يجعله على الدوام على رياض باشا وزير الداخلية في وزارة الخديو . وكان هذا فرض طلبه على الدوام . وطول هذا الوقت كانت التحقيقات تجري بسرعة فتبين لنيبيار اهم مخدعونه وان تنتهي التحقيقات والمحاكاة قبل ان يؤد له بالدفاع عن المتهمين

ويبى كانت الاحوال في هذا المأرق إذا رسالة حادتي من دلاوار في ١٢ أكتوبر يقول فيها « اذا لم تتحدأحراوات شديدة فان حياة عرابي في خطر . ولا بد انك قد قبلت معلومات عن ذلك من بيبار »

وعلى أثر هذا الخبر السيء خرجت في احوال وذُهِبت الى باتون ووجدته لحسن حظي في مكتبه وكل معلوماته توافق معلوماتي فقرر رأياً على أن نلجأ الى الجمهور وسأشده بخصوص محاكمة المتهمين وان يحمل على وزارة الخارجية ونحبر مسرر علاستون على اعلان خطئه . فجلست وكنت كتاباً نهائياً الى مسرر علاستون عبرت فيه عن عيبي من جرائميل وعددت جميع التهم التي اتهم بها ولم اسس ان اهمه علاقته بجميع تفاصيل المسألة وعظمه القديم على الزعماء الوطنيين . ولم نتطرحوا ان لان باتون وضع هذا الكتاب في مكل طاهر في التيمس التي كتبت مقالا افتتاحياً تعليقا عليه وذلك كله انما كان يسحا . شيرى رئيس التحرير وعطفه على مساعيا . وكان باتون قد عرف ان المحاكمة سنستدئ . يوم الاحد وان الحكم سيطبق في يوم الاثنين ويتبع ذلك اعدام عرابي مباشرة . وكان اليوم وقتئذ الجمعة فكل لا يزال امامنا ثلاثة أيام ( وكان احدها الاحد ولا تصدر فيه الصحف ) لا يقاط الرأي العام . وكانت هذه الايام القليلة كافية لحسن خطانا لذلك

واظن ان هذا الوقت هو الفرصة التي انتهزها برابط وذلك عندما قرأ كتابي الى التيمس فذهب الى علاستون واخبره بأه سيعد في التاريخ جاحداً للمبادئ . الانسانية اذا هو سمح بارتكاب هذه الخيانة العظيمة . وسواء أصبح هذا ام لم يصبح فان وزارة الخارجية سلت به واقرت بصوررة المحاكمة البرهة وكتبت الى مالت بان لا يعرض علي وجود المحامين عن عرابي . والتفراف التالي الذي ارسله لي بيبار يدل على نجاحنا « أرسل جرائميل الى مالت يشير عليه بان بدافع عن عرابي محام انجليزى . والمنظر أن الاجراءات متطول »

وقد رأيت أنه من الضروري أن أذكر تفاصيل المصاعب الاولى التي اعترضتنا في سبيل محاكمة عرابي لأنني لا يمكنني بدون ذلك أن أنحو أثر تلك الاسطورة التي راحت في مصر وحلاصها أنه كان هناك اتفاق سرى بين عرابي

وعلاستون بأنه لن يعدم . في استنطاعني ان اثبت بالوثائق التي تحت يدي ان  
علاستون لم يكن يطر الى المهجين روح الأفة . دع عك الاتفاق معهم - بل  
بالعكس كان يجارى حراويل في السبي في اعدام عراقي بواسطة الحديو وذلك بإيجاد  
محكمة نحاكة محاكمة صورية لكي يبرروا علطانهم وتورطانهم في السنة الاشهر الماضية  
في مصر . ولم يكن وخر الصير هو الذي مع غلاستون من السير في خطته الى  
النهاية بل أن صوت الجمهور الانجليزى هو الذي أخافه وأذره بالخطر الذي يهدد  
شهرته ادا هو معي في طريقه الى آخرها . وهذه هي الحقيقة التي أراد أصدقاء  
علاستون أن يبرروها حطاً لسمعته . ولا عبرة أيضاً بما تقوله الكتابات الفريسيون  
من التجاء علاستون الى الرفق بعد العنف من حراء ما طوه من وحود علاقة خفية  
بين غلاستون وعراقي .

ولما انتهى دور الخطر هذا لم يكن من الصعب أن يتنبأ الانسان بأن نتيجة  
المحاكمة ستكون سليمة . فان المحاكمة البرية في محكمة عليا ووجود محام انجليزى يش  
معرفته أقدار الحديو وبكشف عن الخرائم المخبوءة - كل هذا لم يكن مما يفكر  
فيه الحديو الا وهو يرتحم خوفا . ثم أن التحقيق العلنى هذا كان من شأنه أن يفسد  
على الحكومة الانجليزية تدابيرها وبعد نظريتها عن الحوادث الماضية التي بت  
عليها معاذيرها لانتخاب خطة العنف . ثم أن السلطان كان في حاجة الى عدم افشاء  
أسراره . ولم يكن الخوف على حياة المتهمين قد زال ولكن الامل كان كبيرا في  
الوصول الى تسوية اذا لم يمكن الحصول على البراءة . وقد ظهر التغير في الحالة في  
القاهرة منذ ١٦ الحادى كما تدل على ذلك التلغرافات التالية . وسأقص بقية قصة  
المحاكمة كما وصلتني في التلغرافات والكتب :

من فييار الى بلنت في ٢٠ اكتوبر

« بظن ان الحكومة المصرية ستجنهد في الفاء المحاكمة وان الرؤساء والزعماء  
من المهجين سيطلب اليهم مبارحة البلاد فقط . وليس عندي من المعلومات ما يمكننى  
من الحكم في قيمة هذا الخبر ولكنى أظن انه غير مرجح »

وهالك تلغراف آخر ارسله الى برودلى وكان قد وصل في يوم ٢٠ اكتوبر الى القاهرة



« أعلن بوريلى بك النائب العمومي في الحكومة المصرية انه ليس للحكومة قانون أو اجراءات تتعها ولكنه اقترح علينا ان نتفق على الاجراءات وصرح لنا أيضاً بان أعضاء المحكمة اغفال لا يهتمون . وهو يرجو ان لا أسس السلطان والحديدو الا بكل ما يمكن من القاطع والرقى »

من نيبيل الى بلانت في ٢٠ أكتوبر

« أظن انه يحكى الآن ان تقدم للدفاع دون ان نحشي شيئاً . ان الاذن بالمحاكمة لا يقل قيمة عن عرش الحديدو نفسه »

وكلن الخطر الذى يواجهنا هو رغبة وزارة الخارجية ان تتوصل بجميع الوسائل لانهايم عرابي بتهمة ما تقتضي اعدامه . فقد كتب الى شينرى يوم ٢٠ أكتوبر يقول : « بين العظام ها شعور شديد ضد عرابي وذلك لما برعونه من انه كلن له يد في مذبحه الاسكندرية او انه اعصى عن المصريين فيها »

ولكن هذا الخطر لم يظهر شديداً في القاهرة وكلت في الحقيقة ابعداً ما يمكن ان يوجه الاتهام نحو عرابي . لان الحالى الحقيقى في مذبحه الاسكندرية هو الحديدو وليس في التحقيقات ما هو جدير بلفت النظر اكثر من تحوط الاتهام ونجسه السؤال عن هذا الموضوع ثم عدم ظهور أى بية تثبت تهمة احداث المذبحة على أى شخص ومع ذلك كانت هذه المسألة ذات اهمية كبرى في اعتبار حكومتنا من حيث وجوب القاء التبعة على عرابي نفسه . لان هذه المذبحة هي الاساس الذى بنت عليه حكومتنا خطة التدخل عنوة والقتال وبدون هذا الاساس نسط الحجة الادبية للتدخل

ويمكن ان يقال هذا أيضاً عن سو . استعمال الراية البيضاء وقت اخلاء حصون الاسكندرية . وهذه مسألة كلن غلادستون نفسه لا يفتأ يكررها مع ان رفع الراية البيضاء من الامور المسموح بها في الحروب . فبان ان التهمتان أى مذبحه الاسكندرية ورفع الراية البيضاء وقت التهنير كانتا من اهم ما يمكن اتهام عرابي به تذرعا الى الحكم عليه بالاعدام لان الجمهور الانجليزى لم يكن يعاين الاتهام السياسية ولا يرضى بان تكون سبباً للحكم بالاعدام

وفي أثناء ذلك كانت الاحوال تجري على ما رام في القاهرة وفي ٢٢ من اكتوبر

ونيبيلان بدخلا الى عرفة عرابي وعرفا بما اخبرهم به كيمة نية دفاع قوى معه . وكان موقف عرابي وهو في الحس مملو . بالوقار لانه مها قتل عن شحاته المادية كل على مبلغ كبير من الشحاته الادبية . وكانت هيته وسلوكه لذلك عد مقابلتها بلوك المعتقلين الآخرين يلفتان النظر . فقد كتب دون ان يتردد تاريخ المسائل السياسية التي اشترك فيها باجمها وكانت روايته صريحة مقنعة . ولم تكن صراحة دون ذلك أيضاً عد ماروى ضروب الاساءات التي عامل بها اولئك الاوغاد السفلة خصيان الخديو توفيق عندما قتلوه من السجن الانجليزى الى السجن المصرى وطول مدة بقائه في هذا السجن

فقد كان مولاهم الخديو يرسلهم في الليل فيضربونه ويشتمونهم هو ورقائه ولكن رفاقه لم يصبروا لما فيهم من قصص الشحاته الادبية بما نالهم من المراتم التي انقضت فيها يد ذلك الظالم الحان الذي صار رئيسهم الآن . فليس هناك اسوأ ولا ادعى الى الاسف من موقف الحس والذلة الذي وقع فيه المهومون مازال الخديو الذي كانوا يكرهوا ويمقترونه منذ شهر فقط . وكان من الحوادث المهمة استرجاع اوراق عرابي التي كان محبوسة في بيته والتي اخبر هو برودى بها لاحتصارها . وقد كان من الصعب حد اقتناع روحته واسمها وهما مروغان بضرورة البحث عن هذه الاوراق وتسليمها للمحاميين معه وسب ذلك ان خدم الخديو كانوا قد زاورها أيضاً . وأخيراً احضر محمد سيد احمد خادم عرابي هذه الاوراق وسلمها الى برودى . وكان لهذه الاوراق أهمية كبرى لانه وجد بينها كتماً من السلطان ومن غيره لعرابي . وقد أدى خبر وجود هذه الاوراق الى القاء الرعب والفرع بين أهل السراى وصار احتمال ترك المحاكمه أمراً مرجحاً

فقد كتب الى نيبيلان في ١٣٠ أكتوبر يقول : « اعتقد اننا قد ملكنا ناصية الخال الآن وان الخديو وعصيته يودون لو يستطيعون الخروج من المأزق الآن بترك المحاكمه في اقرب وقت . وقد تمكنا بواسطة امانة خادم عرابي وولا . زوجته من الحصول على جميع اوراقه ماعدا واحدة فقط . والاوراق محفوظة الآن في خزانة حديدية في عرفة بيان في التفصيل ... ولن تستطيع الحكومة مواحه دفاعا ومبتدحون عليها

من نسوبة كالنقي مع عدم مصادرة الاملاك . وماذا عكسا ان «عمل اكثر من ذلك  
: لمن ان هذه مسألة ستدرسها قريبا »

ويجب ان نلاحظ ههنا ان التغير الذي اصاب الحالة السياسية في القاهرة قد وجد  
: صدق في لندن بين الصحف . فقد كانت القاهرة حافلة بمكاتب الصحف وكل  
رودلى من مهرة الفن الصحافي فلم يمحض عليه قليل زمن حتى جعلهم في صعه . وكان  
كرمه (على حساني) كرم اسراف وبذخ فلم يكن يصنع بالدجاج والشمانيا . اما مالت  
وكولفن اللذان كانا يتفوقان في الزمن السابق فانهما لم يقفرا على صالتيار الآ  
وصارت الاسرار تفشى وتهدم النظرية التي سورها للتدخل بان عرابي وحشيه هما  
وحدهما فقط اللذان كانا يعارضان في المطالب الانجليزية وان الحركة الوطنية لم تكن  
عامة . وكان مقام كولفن قد نزع في وزارة الخارجية ومار يعتبر كانه مصلل اما  
مالت فقد ثبت عدم كفايته تمام الثبوت : وهاج محاحا هداورد حراميل ولما رأى  
ان الحالة في مصر تسير الى ارتباك لا يرجى له نظام احال المسألة جميعها الى لورد دوفرين  
لسي يصل الى نسوبة ما وكان هذا العمل افضل ماعمل . وقد اخبرني باتون عن  
هذه الحركة الجديدة وان أول اعمال دوفرين عند وصوله الى القاهرة سيكون ايجاد  
نسوبة في المحاكاة . وقد ارسلت في ذلك الوقت كتابا إلى برودلي بالنسبة إلى هذا  
الموقف الجديد وهو جدير باثباته ها :

من بلنت إلى برودلي في ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

ارغب في أن ابين لك مرة اخرى افكولري وآمالى في قيامي بامر الدفاع عن  
مرابي وعن رفقائه لانه اذا تحققت هذه الامال فاني اجد فيها ما يبعصنى عما اعتنت  
ن الاموال بل اجد فيها اكثر من ذلك . فدهسي ان الغرض الاصلى من الدفاع  
كان تخليص حياة المتهمين واظن اما قد حصلنا على هذه النجعة وذلك لان حالة  
لأرى العام الانجليزي وعدم نجاحهم في القاء نمة فتة يونيو وحريق الاسكندرية  
على عرابي يرجعان ذلك

وليس باقيا في اليمت ما يمكن ان يصح حياة المتهمين في خطر . ومند وصولك  
الى القاهرة وبما اطهرته من البراعة وما اصبحت من التوفيق قد صرنا بعد انفسنا الآن

سعداء. فأوراق عراى دلا من ان تكون في وزارة الخارجية قد صارت الآن في يده وانت الآن تخبرني بأن دعاها سيكون وجها اد قد حصلنا على مركز تستطيع منه ان نملي شروطنا على الخصم وعلي هذا لن تقع نافل من البراءة الشريفة او ترك المحاكمة وترك المحاكمة هو المرحح الآن فقد أمر لورد دوفرين بالسفر الى مصر وأخذ رئيس الوزارة اس في شخص الحالة وهل يمكن عمله نسوية . واسمع انه سيقدم مقترحا بشأن الوصول الى اتفاق مانجها للفصائح التي تنتج عن افشاء الاسرار

فليس يتوقف عليها تخليص حياة عراى فقط بل شرفه وحرية وأيضاً حرية المساحين السياسيين المتهمين معه

« واعتقد ان لورد دوفرين سيجهد غاية جهده في ان يجعل عراى يرضي بالنفي في جزائر اندمان او في مكان آخر في الامبراطورية الانجليزية حيث يبقى سجيناً يعامل بالرفق ولكن لا يؤذن له في التجول . وأظن أيضاً انه سيجحاول الحصول على أوراقه . ولكن يجب الا يتح لورد دوفرين في هذين المسعين ويجب ان تردوا عليه كل مقترحاته التي من هذا النوع وتقالوها بالرفض . فليس من واجنا ان نلخر للخدو او للسلطان شرفه او ان نخلص لورد دوفرين من المآزق التي يجوزها . وأنى سأعتبر فشلنا عظيماً جداً اذا لم نحصل على اكثر من ذلك . ثم اظن انه يجب على عراى ان يطلب أولاً ان يحاكم محاكمة نزهة لكي لا يجرح شرفه ولكن يثبت أيضاً راءة جميع الذين اشتغلوا في مدة الحرب وم جميع افراد الامة . والا فاذا لم تكن النية بما كت فيجب سحب جميع التهم التي اتهم بها . ويجب ان يصد عفو عام وان وان لا تأخذ منه أوراقه وان كان يمكن الاتفاق معه على عدم نشرها مدة معينة من السنين . ولا يمكن في الظروف الحاضرة ان نعارض كل المعارضة في النفي لانه لا يمكن ان يقال عندئذ ان في قدرة الخديو نفيه بواسطة قرار . وهذا العمل من مصلحتنا لان دستور سنة ١٨٨٢ مع الخديو من استعمال هذا الحق . ويجب ها ان نشر هذا الدستور وثيقة كبيرة الالهية لان السلطان قد اقره بعد ان صحه الخديو . ومع ذلك يجب ان رفض السجن فقد يستطيع السلطان نفيه من السلطنة العتابة ولكن ليس لاحدهم الحق في تعيين المكان الذي ينفي اليه

وتم لا يمكن الحكومة الانجليزية بعد ان سلت عرابي للتخديوى لكي يحاكمه  
تأخذه ثانياً ونعامه معاملة المحرم وهو لم يحاكم بعد . وقد ادركت الحكومة الانجليزية  
فهاوايت ان تأخذ عرابي ثانياً . فديهي ادن انه اذا لم يحاكم ويحكم عليه بحرمانه  
بجب ان يخرج من مصر وهو حر . ثم لا يمكن شرعاً ان يحرم من رسته ومن  
نه . ولكنى اعتقد انه سيرضى بان يرح البلاد برتبته الحربية وبشئ من المال  
يوم ينقته ويرد عنه العاقبة حتى لا يحتاج الى ان يكسح يديه لكي يعيش . وهذه  
شروط تحفظ كرامة عرابي فيمكننا ان نلج في الحصول عليها والا فليمان ان ندخل  
ب . همة الدفاع ومجاهد بكل قوانا واعتقد انك لن تصنى الى أى مقترح بخصوص  
محاكمة صورية لا يلى فيها الخديو الا بكل لطف ورفق كما قال بورلي . فأما أن  
نشر جميع المقائق الصحيحة واما ان نسحب جميع التهم . وانى أثق بانك ستعاوى  
في الحصول على هذه التبعة دون ان تعتبر ما عسى احساسات القناصل والسفراء  
والولاة هؤلاء . جميعهم لا قية لهم عندنا وانما يسا حداثاً لاهية شرف عرابي .  
ولست أشك في أن مهارتك السياسية لاتقل عن مهارة دوفرين وقد استطعت ان  
تجعل مالت يفعل ما شئت وستجعل دوفرين أيضاً يفعل ما ترغب . فاذا نجحت في  
ذلك فانا لن نقاش عن « اعقاب » الدعوى وطى هذا كتاب تقدمه الى  
لورد « دوفرين »

أما الكتاب التالى فهو من متر بيان مترجم مالت الرسمي وهو شاهد لا يمكن  
انتقاص شهادته أو تجربتها وذلك هي ذات قيمة تاريخية كبرى . وقد كان بيان  
يدبر الوكالة البريطانية في القاهرة في بضعة الاسابيع التى سبقت ضرب الاسكندرية  
ولما كان مجيد معرفة اللغة العربية كان لذلك واقفاً على حالة البلاد الحقيقية اكثر  
من أى أحد آخر . وقبل أن يرسل الى هذا الكتاب كان قد عين لان براقب التحقيق  
بالتباية عن مالت وهذا هو الكتاب :

من بيان الى بلنت في ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٢

« . . اليوم آخر الايام قبل التأجيل . . ورجال قصر الخديو ها في نهيج  
وارتباك بشأن مجيى دوفرين . وهو سيصل هنا عدا . وقد كان قدوم رودلى شديد

الالم عليهم اما قدوم لورد دوغريس فهو الطامة الكبرى . واني أعتقد ان دوغريس سيعرف في الحال حقيقة صاحبا توبيق والقول انه سيصفي الى كل من يتقدم اليه بقول ما . وعلى ذلك ستكون سعادته المؤقتة على معرفة بالحقائق أكثر من الوكالة الدائمة . وقد كنت أخلط بالاهالي قبل ضرب الاسكندرية ولذلك عرفت وجهة النظر الانجليزية والتركية والعراية والتوقيفية . وجميعها يختلف بعضها عن البعض الآخر . ولما لم يكن أحد يثق بما أقول احتفظت بمعلوماتي لعملي ولست قد قدمت بعض الملحوظات لجمعية سير تشارلس ولسون وهو الآن أكبر من جميع المواقف المصري من الرجال الرميين وهو رجل شديد الحذر له نصيب كبير من المهارة وصحة الحكم ونواسطته تمكنت من ايهال بعض الحقائق الى مانت ولولاه لاخبرت مانت نعتي عن هذه الحقائق . وأطلى الآن ان مانت لم يعيد بحتمه الحديو أو يرى له أقل كرامة . وطول مدة الاحراات كان يسلط معا سلوك التراحة الا فيا بمس مصاحته . . وانت تعرف مقدار ارتباطه بالحديو فهو الآن يذوق الكائن المرة ويرى الصنم الذي كان يعبدته يتهدم امامه كأنه بيت من ورق . .

وأظن ان أعمال ابراهيم اعما وحده تدل على طبيعة الحديو . فقد سمعت الحكاية رأساً من انقصر وكيف ان اثنتونجي ( أو حامل عليون الحديو ) قد قبل يد الحديو وطلب أن يأذن له أن يصبق في وجوه المساجين وقد بحث سير تشارلس ولسون عن هذه القصة فوجدوها صحيحة بأكملها . ومع ذلك ولكون هذه القصة تمس الحديو وتظهر للبلاد قدراته قد اتفقوا على ان يتركوها . وقد اقترحت عبد ماحلف الشهود زورا أن يطلب منهم القسم بالطلاق ثلاثا وكاد سير تشارلس ولسون يوافقني على مقترحي ولكن انتهت المسألة بالاهمال والترك

« وامرأة مموه لا تنكر الان هذه الاعمال . فهذا اذن هو الرجل الذي جئت الى مصر لحايته (١) »

---

(١) لقد شهد الشيخ محمد عبده بان حصيان الحديوي قد دهبوا الى رعمه الوطيين في السجن وصر يوم واهل يوم . وكان الشيخ محمد عبده معه أحد حويلا المساجين وقد وقت له الاهانة مثل غيره .

« واداً لم يكن مركزي عنى من ان اوح لهرودلى بما أعرفه عن الحديوى  
 دن لاجبرته باشياء لو قيلت فى التحقيق السكبان فيها طرد الحديوى من القدر ومع  
 ذلك فاني ارجو ان نقضى هذه الاسرار . واول رجل يحب التخلص منه هو رياض  
 فانه يمثل فى مصر دور الميس . وقد قال مند ايام : « ان المصريين ثعابين والطريقة  
 الوحيدة لمح نقشي الثعابين هو سحقها بالاقدام . وسأسحق انا المصريين وهو  
 يسحقهم بالفعل الان »

وهذا الخطاب يصف حالة القاهرة فى الاسوع الاول من شهر نوفمبر أى وقت  
 وصول بعثة دوفرين . وكان من خطا الخس فى ذلك الوقت ان البرلمان كان مسعدا .  
 فقد انضم اليها من اعضاء البرلمان عدد من دوى القدرة على الكفاح مثل تشرشل  
 وولف وغوردست ولوسون ولاوشير وروبرت بورلا ولورد مائرر وايلى ولورد ويمس  
 وعصوان أو ثلاثة من الارلنديين . وكان برسى ويندهام هو العضو المحافظ الوحيد  
 الذى انضم الى الاقلية التى كانت مؤلفة من ٢١ عضواً لمقاومة الحرب

## الفصل الثامن عشر

### بعثة دوفرين

لما وصل لورد دوفرين الى القاهرة فى ٦ نوفمبر اتخذت الاحوال شكلا جديداً .  
 فقد كان رياض باشا وسائر وزراء الحديوى يفعلون ما يشاءون ولم يكن عليهم من الرقابة  
 سوى رقابة مالت الضعيفة . اما دوفرين فكل من عنصر آخر ولم يرض عليه طويل  
 وقت حتى اطهر للحديوى ان مركزه بالنسبة اليه ليس مركز مستشار بل مركز سيد  
 يطاع . ولم يمر اقوال الحديوى التفاتاً كبيراً وكذلك لم يلتفت الى روايات مالت بل  
 فتح ابواب السفارة لكل واحد يستطيع ان يزوده بمعلومات عن الحالة . وقد تمكن  
 ما كنزى وولاس فى بضعة ايام من الوقوف على حوادث مصر مدة السنتين الماضيتين  
 ووضع كتاباً عن هذه الحوادث هو اصدق ما رأيته من حيث صحة الروايات .  
 وكان ما كبرى وولاس هذا معاين لورد دوفرين وكان لورد دوفرين على الرغم  
 من كسبه يشط عند القزوم ويعرف كيف يتوصل الى معرفة ما يحتاج اليه

قد معي اسبوعان بعد وصول دو فريين ومحاكمة عرابي مستمرة وكانت تسيطر على هذه المحاكمة رعية الحديوفي احما. الحقائق وشعفه بأن لا تفلت الفريسة من يده. وخير ما يدل القارى. على الحالة هو تلك الخطابات والتلفرات التي كل برسلها الى كل يوم كل من برودلي ونيبيار ونيبيار القارى. منها كيفية التدرج الى التسوية النهائية من برودلي الى بلنت في ٦ نوفمبر

« اوافقك على جميع ما فاته وسأشتغل بكل نبره . وانا الان هي. أركان الدفاع وهي تنحصر فيما يأتي :

- ١ - طهارة اغراض عرابي وشرفها
- ٢ - اتمامه الزام مع توفيق لقائة ١٢ يوليو
- ٣ - اتمامه مع السلطان في جميع الاوقات
- ٤ - كون الحركة الوطنية كانت عمومية
- ٥ - كون تأليب الحكمة العسكرية غير شرعي
- ٦ - سخافة دعوى وقع الزاية البيضاء
- ٧ - مروءة عرابي وتطرفه في انسانته
- ٨ - الظلم الفاضح في جميع ما عمل قبل وصولنا
- ٩ - تعذيب المساجين
- ١٠ - الخطابات التي ارسلها توفيق ضد اهلنا
- ١١ - اكاذيب صحيفة المونيتور

« وسأطلب اخلا سبيل جميع المحرفين . ولا فزع مضمون هذا الخطاب . وكل ما أخشاه هو عظم الثقة التي تحتاج اليها مدة دفاعا فقد تستغرق ثمانية او تسعة اشهر . فسد عرابي وحده ٤٠٠ شاهد . . . وانا اصرف هنا بسخاء . فاني أولم الولاثم لمكانتي الصحف وتمكنت من جعل الاجيشيان عازيت لسان حالنا وجعلت الرأي العام هنا يميل الى عرابي . وعندما الان نحو ١٢ مترجما تراوح مرتبائهم من جيه الى جنبيين ونصف حيه في الاسبوع . . . وغيايبي عن تونس هو بمثابة فقدان كل شي. هنالك . فقد ركزت جميع القضايا التي كانت بمكتبي ولكن بعضها



في غاية الاهمية . ويمكن يورك أن يخبرك بان عندى موظفين احدهما يتناول ٢٥٠  
حينها والآخر يتناول مائة حبة في العام .. فأرحوك ان تعتبر كل هذا ... وكل  
ما اقله الآن ان يحاح علما ما يتوقف على الاساق مسخا ان لم يكن بتدبير .  
ثم اذ كر ان كل اسان ها ضدنا والناس هالا يشتعلون الا بأجر ... فاجمعوا  
تبرعات باسم عرابي .. ولا نس محاكة تشبورن التي دامت تسعة اشهر . فقد  
تكون الحال ها كذلك .. واعود فأقول ان كل شي يتوقف على ما نفقه . فلا  
تفتكر بشاني وانما اذكر النفقات .. وانا اشتعل ١٦ ساعة في اليوم ... ولا يمكن  
بتدبير خدمة نيبار »

من نيبار الى بلنت في ٦ نوفمبر

« يظهر انك مرتاب في جدول التهم التي انهم بها عرابي . فهو للآن لم يرسل  
اليها بطريقة رسمية ولم يقدم اليها حتي تتم شهادة الشهود ولكن حلالة التهم هي كما  
ذكرتها التيمس في احدى تفرقاتها :

١ - سوء استعمال الراية البيضاء .

٢ - الاشتراك في مذابح الاسكندرية ونهبها في ١٩ يونيو

٣ - الاشتراك في إحراق المدينة بالنار

٤ - اثارة الحرب في ارض السلطان

٥ - التمرد على الخديو وعلى السلطان »

من برودلي الى بلنت في ٧ نوفمبر

« اذا لم تكن نخشى النفقات فالنجاح مؤكد ... أطر خطابي المرسل

لك امس .

« والسألة الوحيدة هي هل يفرج عن المعتقلين بدون محاكة أو هل يتاح لهم ذلك  
بالدفاع عن أنفسهم . وانا مقتنع بأن الحكومة هانسي لوقف التحقيق لان الحقائق  
التي ستظهر عند الاستجواب ستوقم جميع الموظفين الكبراء الموحدين الآن في  
الحكومة في خطر وتفضي أيضا أسرارنا نشين الخديو . وقد نرضى حكومتنا الاتفاق  
مع عرابي لهذا السبب الاحير لانها نخشى ان تظهر المحاكة اما قد عانا الحيوش

وأحضرناها الى مصر وغزونا البلاد وقاتلنا الوطنيين دفاعا عن اسفل اسان فيها .  
وانا شخصياً ليس عندى شك فى ان الحديو وعمر لطفى هما اللذان درامدبحة  
الاسكندرية وذلك لسكى يقضيا على نفوذ عراي ومكانته اذ كان قد تحمل مسئولية  
الامن العام . وفي يدى وثائق تؤدى الى نصف الطريق فى اثبات ذلك ولكن لم  
يأت الوقت بعد لاعلاها »

من برودلى الى بلنت فى ١٨ منه ( بالتلغراف )  
« أعتقد انا منحصل على احسن تسوية . ولا نحمل على وراة الخارجية .  
اكنم هذا السـ »

من برودلى الى بلنت فى ٢٠ نوفمبر ( بالتلغراف )  
« لندن تناوض دوفرين . رغبة الحكومة المصرية فى التسوية قد قلت بالنسبة  
لما نعتقد من تغير الرأى العام نحو عراي . « شهادة سليمان سامي بأنه أحرق  
الاسكندرية . وهي شهادة مزورة »

من برودلى الى بلنت فى ٢١ نوفمبر  
« نتحدث قريباً أزمة شديدة . وأصدقاء الحكومة المصرية يؤكدون النية على  
شنق عراي . ابقى فى لندن »

من برودلى الى بلنت فى ٢١ نوفمبر  
« لست أستطيع أن أصف لك مبلغ السفالة فى ممالك الحكومة المصرية .  
فعلي لا تعتبر قواعد اجراءات المحكمة ورحالها يقولون انهم لا يبالون شي . لانهم  
يتفاضون بالطرق السياسية لشنق عراي »

من نيبيار الى بلنت فى ٢١ نوفمبر  
« نحن نكفح جميع قوات الحكومة المصرية وليس من يساعدنا . ولكنى  
اعتقد أن لورد دوفرين سياتى وبخلصنا فى النهاية . ان الحكومة تنوى ان تتر  
هؤلاء المعتقلين ظلاً وعدواناً ونحن نجد ليل نهار لسكى نحبط مساعيهم . وولسـ  
ودفرين يساعدانا ولكن الحكومة المصرية سريعة بقطه ولا ذمة لرحالها . أمابحـ  
فبالضرورة نسبر بيطـ . وحذر »

من برودلى الى بلنت في ٢٦ نوفمبر  
 « تقترح الحكومة المصرية محاكمة عراي على حدة . أرسل لنا رأيك  
 بالتأخراف »

من برودلى الى بلنت في ٢٧ نوفمبر ( بالتأخراف )  
 « أرسلنا لك خطابات لبيان الحالة . عندى ما يحملني أعتقد ان الحكومة ترضي  
 نفي عراي ومحمود سامي وطلبة الى مدينة السكك أو أى مكان آخر اذا اعترفوا  
 بشبهة الثورة وبالاستمرار على الحرب ضد أوامر الخديو ونحسبكم على الباقيين بالفى  
 البسيط أو العمو . أرحوك أن لا نبوح بشئ . من هذا . وأنا ونييبار موافقان على  
 هذه التسوية وذلك للصعوبة القائمة فى سبيلنا في نفي تهمة الاحراق الخ »

من بلنت الى برودلى في ٢٨ منه  
 « لا أوافق على الشروط التي ذكرتموها . لا أوافق مطلقا على النفي في  
 السكك . سأستشير بعض أصدقائي عن المال . وسر كونا السياسى قوى جدا .  
 وسأرسل الرد النهائي بعد »

من برودلى الى بلنت . خطاب مؤرخ في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٨٢  
 ( خصوصى ويجب عليه الرد بسرعة )

عزيزى بلنت

« أوجو ملك ان نستعمل نصرك وهدو . بطرك وحكمتك فى موضوع هذا  
 الخطاب . لقد تحدثت اليوم مع دوفرين حديثاً طويلاً وهو يتكلم معنا بلهجة الصداقة  
 وأملنا الآن ملف القضية . وليس يواجهنا من الصعوبات سوى مسألة احراق  
 الاسكندرية . وليس هناك ما يبرهن على ان عراي قد أمر بالاحراق . ولكن يبقى  
 بعد ذلك حقائق كريمة . مثال ذلك انه لم يأمر مطلقاً النار ووقف التهب ثم صدقته  
 اللجنة مع سليمان سامي بعد ذلك ثم عدم معاقبته المجرمين ثم شر انه التورول بكليات  
 كبيرة ثم الكيفية المنظمة التي اتبعها الخنود فى احراق المدينة

« هذه هي الصعوبة . فهل لم يكن فى وسع عراي وقف الحريق ؟ ثم ان خطبه  
 السابقة فيها لهجة النار وتكاد نوحم بالدعوة الى الاحراق

« وإذا أقرعنا ببعض التهم الرسمية كأن يعترف مثلاً بعصيانه أو أمر الخديو  
عند ما أشار عليه بالسك عن الحرب فانه عندئذ يبق  
« وعندئذ يكون المني مدينة السكك مع التساهل السكافي . وأظن أني أقدر  
ان أحصل له هو وسامي وطللة على هذه الشروط  
أما الآخرون فالثاني البسيط أو المعوي . وأظن اني أقدر على أن أحصل له على  
مرتب بعد استصفاء أمواله مع عدم تجريده من رتبته » وإذا لم رض نحن بهذا فان  
المحاكمة ستطول وقد يتغير الرأي العام . فريد عليا المقات ولا نفس مع كل ذلك  
همة احراق الاسكندرية

« وإذا أفضيت شيئاً من هذه الاسرار فانك تؤذينا اكبر اذى . فتأمل في كل  
هذه المسائل واذكر مسئوليتنا المعظمي الخطيرة . ودورس يتودد اليها . ارحوك  
إذا وافقت على مقترحاتي ان ترسل لي بالتلغراف كلمة « سلام » وإذا لم توافق  
وكتت نرغب ان نستم في الدفاع لارسل لي كلمة « حرب » وانا مستعد ان اكلمك  
كفاح الرجال الى النهاية المرة . ولكنني اعرض عليك كل شيء فتأمل وتدبر  
واذكر الطوارئ .  
صديقك الخالص

بردولى

من نيبال الى بلنت في ٢٧ نوفمبر

عزيزى بلنت

ان بما يؤسف له جد الاسف ان مصلحة البريد قد وقتت على مكاتبنا ضد  
فتحوا خطابك الاخير المسجل الذى ارسلك الى وتسلمته انا يوم الجمعة الماضي .  
وكان الخطاب جدول التهم التى قدمها لنا بورلى وملحوظة صغيرة منك . ولا اظن  
انه سرق من الخطاب شيء . وسأرسل هذا الخطاب الى هـ . هاسكويت فى قاعة  
الحامين « نبل بار » فى لندن وذلك حتى لا ينبهوا اليه وينتبهوه . وقد احتججت فى  
الحال والى لا اعتقد أنهم سيكشفون عن التحسس . ثم اني آسف ايضاً لأنى لا احتفظ  
بنسخ من الخطابات التى ارسلها لك لكي اراحها . فلا تدش اذن اذا وجدت  
تكراراً في اقوالى . ولست أقدر على اخبارك بجميع المكاييد التى يصوبونها لنا لاجلها

على الجملات . ويظهر لي ان الخطاب قد فتح من فوق الختم ثم الصق بالصمغ ثانياً . وكان هذا العمل متقناً ولولا ان الصمغ لم يكن قد جف تماماً لما كشفت هذه الفعلة ضاحكة انفتح من مكان الصمغ وسأرسل لك رقعة عن البريد الرأسي فلا تدهش بتأخر هذا الخطاب

« وقد اشتغلنا بمجد مد ارسل البريد ولكن لم يجد شيء . منذ ذلك الوقت سوى انه قد أذن لنا بالدهوع عن محمود سامي وقد جلسنا معه عدة جلسات . أما « طلبة » فريض ومرضه ناشي . في الاغلب من التهييج العصبي وهو يشكو من علة الربو ولا أعرف هل يموت ام لا واسكني على أي حال قد اجتهدت لالحصول له على المعوية الطيبة وجعلته ينقل من عرقه وأحصرت له حادما وسيريرا

« ان الينبات عن حريق الاسكندرية لم ترسل البنا واما علمنا بها من الاجنبيات جازيت وهذه الينبات قد تكون صحيحة وقد لا تكون . وهي ليست قوية ولكن فيها ما يكفي لان يصعب المهمة الصعبة الحقةفة . فمن المهم جداً أن نبحث عن طريق أخرى للخروج من هذه الصعوبة وإيجاد حل آخر غير الحل الذي نتظره من المحكة العسكرية . ولست أشك في قدرتنا على تنفيذ هذه الينبات بل سمحها سحفاً وقت الاستحواض في المحكة . ويمكننا أيضاً أن نوجه الاهتمام عن مذبحه ١١ يونيو ولكن للراح العليا نعتقد انه ان ثبت احدى هاتين التهمتين على عرابي فسيحكم عليه بالشنق . فلنفرض ان المحكة حكمت على عرابي بالاعدام فليس هناك سوى الحكومة الانجليزية لاتقاء هذا الحكم . واني أعتقد ان من الخطر ان تترك للحكومة الانجليزية لخص الينبات ومعرفة الطرق التي حصلوا بها عليها . اذ من المحتمل ان وزارة الخارجية تنظر نظرة عاجلة وقد تترك عرابي في يده المحكة وتصرح بأنه قد عمل كل شيء . لضمان نزاهة المحاكمة وانها لا يمكنها التدخل اقلب الحكم بعد اذ منح الدفاع جميع القرض اللازمة ليشرح موقفه . ثم ان من المرجح انهم سيحكمون بحكم ما على عرابي وأي حكم تنطق به المحكة ها يكون كبير الخطر عليه وعلى سائر المعتقلين .

« والآن أرى بعد التأمل والاعتبار انه يجب على المعتقلين الا يأمنوا جانب المحكة اذا وجدوا للحلاص طريقة أخرى . فاداً عرضوا عليها شروطاً مقبولة لثني مع

مبان المعيشة فيجب الا ترفضها . والخلاصة انه اذا قر قرار المحكمة على ان عرابي مجرم فمن المؤكد الحكم عليه بالاعدام . واذا برى . فيبقى بدون ما يضمن له معاشه في مناه . وعندى ما يمتنى على اعتقاد ان هذه التسوية مقبولة عند الجميع ماعدا رياض اما دوفرين فموافق عليها  
« متطر ردك اسكى أقف على رأيك واقل نحيات المخلص لك »

« نيبار »

« حاشية — من جهة القضية كل شيء يسير على ما برام . فقد عالجتاها من الجهة القانونية ومن جهة الحقائق ومن جهة سعادة الاجراءات . ولكن هناك الاخطار والاعتبارات التي أشرت اليها . وقد ناقش برودلى جميع الادعاءات في المحكمة ولدى دوفرين بكل قدرة وهمة وحكمة . والعمل في صفنا ولكن الحكم لن يصدر من المحكمة وانما سيصدر من مجلس الوزراء . ومن المحال ان تنكر قيمة الاشاعات وليس لدينا من الوسائل ما يمكننا من تمحيصها »

من برودلى ونيبار الى بلنت في ٢٨ نوفمبر ( بالتلغراف )  
« نخادنا ماويلا مع دوفرين . فترجوك أن تأذن لنا بالاتفاق على امثل الشروط والتأخير يقضي على كل شيء . ولا يمكن الثقة بمعونة وزارة الخارجية . ودوفرين يميل الى الخروج تعليلاته لكي يساعدنا وهو الآن مسيطر على الحكومة المصرية . ودفاعنا عن مهمة حريق الاسكندرية غير متسع ومن هنا القلق فانهز الفرصة الراحنة . ومساعدة دوفرين ضرورية جداً . ارسل لنا بالتلغراف الاذن بالاتفاق . سنحدث مع دوفرين غداً في الساعة الحادية عشرة »

« برودلى ونيبار »

من نيبار الى بلنت في ٢٨ نوفمبر  
« اقسم لك بشرى اي لا أرى اننا يمكننا الحصول على اصل مما ذكرناه في تلغرافنا السابق . فوافق ولاحظ ان مصلحتنا الشخصية لا تتفق مع هذا الطلب »  
« نيبار »

من بلنت الى برودلى ٢٨ منه ( نصف الليل )

« لا أوافق على شروط النبي إلا اذ كان نفياً شريعاً بدون اعتقال مثل عدن أو مالة أو القصير . فاتفقوا في حدود ذلك »

من برودلى الى بلنت ( بالتلغراف ٢٩ نوفمبر )

« اعطانا عرابي وثيقة مكتوبة يقرر فيها السلطة التامة لنا لكي نتفق بشأنه مع دوفرين . ودوفرين يقترح أن عرابي مذهب من حيث الثورة فقط والغرول عما عدا ذلك من الهم . أما الحكم فيسقط الى النبي في مكان طيب تتفق عليه أنت مع وراة الخارجية مثل جزر الاروريس وسيعطى مرتباً مناسباً ويوضع عن استصفاة امواله »  
« واكبر غثي أنك لاتدرى الصعوبة التي نكابدوها في دفع تهمة حريق الاسكندرية والحصول على شهود الدفاع . ووزارة الخارجية لن تتدخل في الحكم اذا كان أقل من الاعدام فاذا كان الحكم بالسجن مدة طويلة في مصر فهي لن تتدخل وانا مقتنع بان النتيجة ستكون أسوأ من هذا وانى أحشى هذه المسؤولية وذلك لوقوفى على الحالة ها . فارجو أن تكتب لنا بالموافقة على ما نعمل لكي تجنب وقوع كلثة »

من بلنت الى برودلى في ٢٩ نوفمبر الساعة الثالثة بعد الظهر .

« استشرت دلاوار وأنا موافق على النسوية على أساس التلغراف الذي ارسلتموه الى »

من برودلى الى بلنت في ٣٠ نوفمبر .

« كل شئ يسير على ما برام : اجتمع مع دلاوار في البحث عن مكان النبي . وهنا يقترحون فيجي . واشكرك على ثقتك »  
من بلنت الى برودلى في ٣٠ نوفمبر .

« لا قبل أن يكون النبي فيجي أو ازورس . يجب أن تلعب في ان يكون النبي في وسط بلاد اسلامية لكي يؤدي عرابي فرائض دينه . وهم لا يقدرين على الرفض . سأستشير . دى لاولر ليس هنا »

من برودلى الى بلنت في أول ديسمبر .

« سلوك دوفرين جميل جداً . وهو يقترح أن يناوض دلاوار وزارة الخارجية

عن المنفى . والمغتفلون كلهم راضون »  
 من برودلى الى بلنت في ٣ ديسمبر .  
 « انتهت محاكمة عرابي . والاجبار الصحيحة عنها في حريدة ستاندارد .  
 قامت الحكومة المصرية بجميع عهودها »  
 من برودلى الى بلنت في ٤ ديسمبر .  
 « لقد سر عرابي من النتيجة . وهو يشكر ويميل الى أن يكون المنفى في  
 الكلب . دوفرين جدير بكل ثناء . »  
 من برودلى الى بلنت في ٤ ديسمبر .  
 « مدعش لندم كتاباتك . نجاحنا تام . الانجليز هاهنا في حق »  
 من بلنت الى برودلى .  
 « أمي . الجميع . يقول دلاوار أن دوفرين حر في اختيار مكان المنفى . ولا أنظر  
 الكلب يوافق فما رأيك عن حل طلاق أو حرزى ؟ استشر عرابي »  
 من برودلى الى بلنت .  
 « أشكر على تفرغك »  
 يدرك القارئ . من هذه التفرقات أي لم أرض بالتسوية التي عرضها دوفرين  
 الا كرهاً . فقد كان الرأي العام مصافي ذلك وكنت أعرف أنه ليس في وضع  
 وزارة الخارجية الا أن تقل ما يريد عليها ولم تكن لدغية في أن تلصق بناتهم الثورة  
 ولكن في الوقت نفسه لم يكن بمعنى بازا . تفرقات برودلى وخاصة تفرقات نيبيل  
 أن أرفض التسوية . فان المسؤولية كانت كبيرة .  
 وكان على أيضا أن اعتبر مسألة التفرقات . صحيح انه قد فتح باب التبرعات  
 ودخل فيه عدد من ذوي المداواة . ولكن مبلغ هذه التبرعات لم يزد على مائتي  
 جنيه وذلك في حين أن نفقات برودلى كانت قد بلغت في ذلك الوقت نحو ثلاثة آلاف  
 جنيه . ولو استمرت المحاكمة شهراً آخر للفت التفرقات أكثر مما كنت أستطيع حمله ،  
 وذلك في قضية لم تكن قضيتي بالذات . فلذلك استشرت ديلوار وروبرت بورك  
 لحدرنى هذا الاخبر من الاعتماد على الرأي العام ونصح لي بالرضا . واتذكر الآن



حديثي معه ونحن نروح ونغدو في ميدان مونتاجو حيث كان يسكن وضيت متورداً نحو ساعة انتهت في آخرها بالرضا وكانت النتيجة اني أرسلت تلفراف الموافقة وبعد ذلك وبعد مجادلات طويلة رصينا ان يكون المني حرية سيلان وهي المكان الذي يؤثر عه انه نفي اليه ابونا آدم عند ما طرد من الفردوس . ولم يكن من المستطاع وجود مكان أشرف منه

ولم يكتب دوفرين شروط الاتفاق ولكن برودلى قد سها ان يطالبه بذلك لانه كان يجب عليه أن يلح في كثافة شروط ولو فصل ذلك لوفر علينا غنا كبرا . وكان هذا الاهمال سبباً في تجريد عرابي وسائر المساجين من رتبهم العسكرية ولم يكن برودلى ينتظر أن يرضى دوفرين بهذا العمل ولو انه كان منتظراً مشكلاً بعد الحكم بالاعدام . ثم نشأ النزاع أيضاً عن قيمة المرتب الذي سيسمح به لعرابي بدلاً من أملاكه التي استصيفت . والظاهر ان برودلى كان قد بالغ للمساجين في أمر هذا المرتب . أما انا فأعتقد انهم عوملوا بسخا لان أملاك أكثرهم كانت قليلة القيمة ثم ان أملاك زوجاتهم لم تستصف . وكانت أكبرهم خسارة محمود ساي لانه كان يملك أملاكاً واسعة استصفتها الحكومة . أما عرابي فإن ما أخذته الحكومة لم يكن سوى ثمانية فدادين وورثها عن أبيه وأثاث بيته المستأجر في القاهرة وخيوله ونحو سبعة فدان من الارض البور اشتراها في أيام عزه . وكانت كل هذه الممتلكات وقت الاستصفا لا يزيد ثمنها على ألفي جنيه أو ثلاثة آلاف لان العدان من الارض البور في ذلك الوقت لم يكن يزيد ثمنه على بضعة ريالات . ولم يكن عنده من الوقت ما يساعده على اصلاحها (١)

---

(١) منذ مدة قريبة أرسل عرابي الى الملك ادوارد عريضة طلب منه فيها تمويضا عن هذه الارض وهذا الطلب من اوهاام عرابي وهو يدل على ما يعرفه عنه المحتكرون به وهو انه قد دخل في س الهرم فهو في خرف الشيخوخة وقد كان أسره شر وقساوه انا لم نطلب تحديد معنى العفو العام ومن هنا نشأت اتهامات جديدة

وهناك مسألة أخرى كثر فيها النزاع في ذلك الوقت ولكن لم يعد لها أهمية الآن وهي هل اقرار المساجين كل اقراراً للحكومة الانجليزية المصرية ؟ ولكني لا أحتاج الى عاء البحث الآن في هذا الموضوع وانما أقول ان الحكومة الانجليزية قد حققت غايتها فحسبنا قهر بالثورة ثم استندت الى هذا الاقرار لكي تدخل تدخلها في مصر ذا وجه شرعى. فلما حصلت على هذا لم تمن أقل عناية بسائر المساجين الذين لم يشملهم العفو فبطش بهم الخديو توفيق . ولكن ما حصل لهؤلاء . حصل لهم في عهد الاحتلال وانما لا اكسب عنه الآن والمذكرات لانسع هذه التفصيلات . واطن اني قد اوضحت جميع الاعمال التي قمت بها في الثورة المصرية في هذه المذكرات والآن وأنا أعيد النظر الى اعمالى الماضية واتذكر كيف ابتدأنا بالجراح وانتهيا بالفشل في محاولة الحصول لمواطنين من الحكومة الانجليزية على حقهم في معاملة حسنة — اقول انى وأنا الذى نظرت الى الوراء عن اعمالى الماضية لا ارى انى علت ما آسف عليه . وقد أعطأت بالطبع عدة اخطاء . واشعر انى مشول الى حد كبير عن تصميم المواطنين الذى أدى الى الحرب . ولكني لا أزال اعتقد أن حظهم كلن يكون أسوأ لو أنهم لم يقاتلوا الانجليز . وسدوا بمطالب القناصل الاوروبيين . فأقل ما فى عملهم أنهم استمدوا من سماع العالم لقصيتهم واذا كلن العلاج قد انتصف بعض الانصاف من ظالمه فذلك لا يعزى الا الى جهود عرابي التى كست اشجعها فيها حتى الى وقت اعلان الحرب اذ كانت هذه الجهود نتيجة مبادئ الوطنية السياسية . وقد كانت هذه الثورة حيا في أن تصفى انجلترا الى شكوى الفلاحين بعد ذلك وهي وان كانت قد حرمتهم حق الحرية السياسية قد عالجت معظم شكواهم

ولست أدري ماذا يأتي به المستقبل لمصر . فقد زادت ثروة مصر منذ الاحتلال الانجليزي ومع انى لا اعتبر ان ثروة البلاد وغناها يدلان على حسن حافها قد كلن لها مع ذلك قيمة من حيث انها جملا الفلاح يثبت في ارضه ويحتفظ بها لنفسه دون الاجانب وما دامت الحال كذلك فستبقى الامة حية وربما يأتي اليوم الذي يعاد فيه الى الفلاح دستوروه وعندئذ يدرك الفلاحون حقيقة ثورة سنة ١٨٨٢ ويعرفون انها كانت مدحياهم الوطنية وهي لذلك من محاسن تاريخهم ومفاخره

## تاريخ احمد عرابي بقلمه

( الدليل الاول لكتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطاني )

هذا هو تاريخ حياة عرابي وحوادث سني ١٨٨١ و١٨٨٢ كما كتبه لي  
أنا ولقد سكاون بلنت أمس في ١٦ مارس سنة ١٩٠٣ في الشيخ عبد

—XOXOXO—

كان مولدي في سنة ١٨٤٠ في بلدة هرية قريبا من الزقازيق في الشرقية. وكان  
أبي شيخ القرية وكان يملك ثمانية فدادين ونصف فدان ورثها عنه وأصفت  
إليها ما اشترته مما سكنت أخره من مرتبي الذي بلغ أحيانا ٢٥٠ جنيه في الشهر  
فبلغت أملاكي ٥٧ فدان وهذا هو المقدار الذي استصفته الحكومة وقت محاكمي .  
وكانت هذه الأرض وقت اشتريتها رخيصة لا يزيد ثمن الفدان عن بضعة جنيهات  
في حين انه يساوي مملعا كبيرا الآن ، لأنها كانت في ذلك الوقت رديئة أما الآن  
فهي جيدة ولكن لم يكن فيها شيء . وكان كل ما أخره اشترى به أرضا ولم يكن  
لي أملاك أخرى أو مقولات الا اثاث البيت والخيول وكلها لم يكن يتجاوز ثمنها  
الف جنيه .

ولما كنت صبيا دخلت الأزهر ودرست فيه سنتين ولكني جئت وعمرى  
١٤ سنة لأنني كنت مديدا القائمة وكان سعيد محمد نجيد أولاد المشايخ لكي يصيروا  
ضابطا . فامتنحت دفادني في الامتحان ما كنت قد تعلمت في الأزهر فميت كاتباً  
بدرجة « بلوك أمين » ولم أنظم في صف الخنود وأعطيت مرتباً مقداره ستون قرشاً  
في الشهر . ولكنني لم أحب هذا المركز لأنني خشيت الا أرتقي وكنت أطمح الى  
منصب عالي يماثل منصب مدير مديرية . فقصمت عريضة الى دنيسى ابراهيم بك  
لكي يردي الى الصف . فاجبرني ابراهيم بك بالي أخسر في هذا العمل لأن مرتبي  
ينزل عندئذ الى خمسين قرشاً ولكني ألححت عليه فقبل . ثم لم يمض قليل حتى  
امتنحت مرة أخرى ففرت وكنت الاول فيه فجعلوني « جاويشاً » ثم امتنحت

مرة ثالثة فعينت ملازماً وكان عمرى وقتئذ ١٧ سنة . وكان سليمان باشا المرئى  
يحبني فألح علي سعيد باشا لكي يرقني فصررت فأعقما وكان سني عشرين سنة . ثم  
تخفي سعيد باشا معه كباوره عند ما زار المدينة قبيل وفاته بهام وكان هذا في  
سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٢ م)

وكانت وفاة سعيد باشا من الكوارث التي نزلت بي لانه كان يحب أبنا البلاد  
لما اسما عيل فلم يكن كذلك ، ففي زمنه أعيد كل شيء الى أيدي الأتراك والشركس  
وصل مصرى في الجيش مجرداً من الحماية ومن الترقية ، فبقيت فأعقما مدى ١٢ عاماً  
ولم يحدث فيها شيء حتى جاءت حرب الحبشة ، ولم أكن قد أرسلت الى الحرب  
الروسية ولكن لما نشبت حرب الجيش طلب جميع الجنود وسعيت الحاميات من  
طريق الحج وكلفت أنا بالذهاب لقيام سحب هذه الحاميات ، وذهبت وحدي  
فلم يكن معي جندي واحد ولم أزود بقرش واحد وكان علي أن أصـ ل الى مكان  
هؤلاء الجنود على الجمال بقدر المستطاع ، فذهبت الى النخل والعقة والوجه وصررت  
أجمع الحاميات وأضع مكلمها العرب كحفراء للحصون . ثم عبرنا البحر الى القصير  
وذهبنا الى قنا ومن هناك الى القاهرة . ولم يدفع لي قرش واحد على قيامي بهذه  
المهمة بل قت أنا نفسي بنفقات سفري . وكانت البلاد في حالة مروعة من الظلم  
ومن ذلك الوقت بدأت أهتم بالسياسة وجاء أن أخلص البلاد من الخراب . ثم ذهبت  
الى مصر وعاشرت في الحملة التي كانت بقيادة راتب باشا وكان لورنج باشا الأمريكى  
رئيس أركان الحرب . ولم أشهد معركة لأنى كنت قائماً في ذلك الوقت بمسألة النقل  
بين مصر والحيش ، وكانت المعركة من السكبات التي نزلت بالجيش اذ قتلت  
جنود سبع كتائب . وكان الخطأ بعزى الى لورنج باشا . وكان ابن الخديو حسن  
هناك وكان فتي صغيراً يعلم الجندية ولم يكن يقود الجيش ولم يؤخفا سير أعند الاحباش .  
وبعد ذلك أخذت أفكر في الشؤون السياسية . وأتذكر اني رأيت الشيخ جمال الدين  
ولكنى لم أكله وقد أفادتي علاقتي القديمة بالأزهر معرفة عدد من الطلبة . وكان  
من أفضل من عرفتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل . وكان أول كتاب  
أدركت منه بعض الآراء عن المسائل السياسية كتاباً مترجماً الى العربية عن

« حياة بومارت » تأليف الملازم لويس. وكان سعيد باشا قد أخذ هذا الكتاب معه في زيارته المدينة وكان ماذكر فيه من أن ثلاثين ألف جندي فرسى قد فتحوا بلادنا قد هاج غضب سعيد باشا فرمى بالكتاب الى الارض وقال لي : « انظر كيف قهر مواطنوك » فأخذت الكتاب وقرأته طول الليل فلم أتم حتى الصباح . ثم ذهبت الى سعيد باشا وأخبرته بأنني قد قرأت الكتاب وإن السبب الذي جعل الفرنسيين ينهضون هو أن حبشهم كل مطا وأنا نستطيع أن نعمل ذلك بمصر لو اردنا .

والآن نأني عن الشعب الذي حصل في وقت اسمعيل ضد نوبار وهل لي يد فيه . فأقول أنه لم يكن لي يد فيه لاني كنت في وقت ذلك الشعب في رشيد مع الأساى . ولكن في اليوم الذي سبق يوم الشعب أرسلت الى الحرية أما واقفانم الآخر محمد بك نادى نهاراً لكي مطر في أمر الدين فصاروا من الجيش ولم يدفع لهم متأخر مرتباتهم بل لم يكن لديهم ما يقتاتون به . وكانوا وقتئذ في العباسية . ولكني لم أعرف ماذا كان يدبر ضد نوبار باشا . والحقيقة ان اسمعيل باشا هو الذي دبر هذا الشعب بواسطة أحد خدمة شاهين باشا وصهره لطيف افندي سليم ناظر المدرسة الحربية . وانضم اليهم بعض الخنود المعزولين ولم يكونوا كثيرين . ووجدوا نوبار على أبواب الوراة على وشك أن يركب مركبته . فهاجموه ولكوه وشدوا شاريه . وذهب الخبر الى اسمعيل باشا لكي يهدي . الشعب فذهب ومعه عبد القادر باشا وعلى فهمي مك الملازم في حرسه فأمره بأن يطلق النار على الطلبة ولكن على فهمي أمر بإطلاق النار في الهواء فلم يجرح احد . ولم يكن على فهمي معنا في ذلك الوقت فقد كان اميناً لاسمعيل وكلت قد تزوج احدى سيدات السراي واسكنه لم يحب أن يهرق دما . هؤلاء الشباب

ولكي يخفي اسمعيل اشتراكه في ايجاد هذا الشعب انهمي أنا ونادي بك وعنى بك الروني بأننا زعماء المشايخين وقدمننا للمجلس المؤلف من ستون باشا وحسن باشا أملاطون وعثمان رفقي الذي صار بعد ذلك وكيل وزارة الحربية وآخرين . فقررت في ذلك المجلس . اسالاً يد لنا في هذا الشعب اذ كنا في رشيد ولم نصل الى القاهرة الا في اقليل ومع ذلك قد ومضنا وفصل كل ما عن أليه . فأرسل نادى الى

المصدرة وأرسل الزوي الى الفيوم . وأرسلت أنا الى الاسكندرية كوكيل لمشايخ  
 الصعيد الذين كانوا يرسلون المتأخر عليهم من الضرائب عيناً كالقول وغيره من  
 الغلات الى الاسكندرية فكان يتسلمها بعض يهود في الاسكندرية ويرتونها جراً  
 ما يقرضه منهم اسماعيل من الاموال

ولكن قبل أن نفترق اجتماعنا اقترحت عليهم أن نكون عصبة لخلق اسماعيل  
 ولو فعلنا ذلك لخلصنا المسألة من قفها لأن القنصل كانوا يرغبون في التخلص منه بأية  
 طريقة وكنا قد وفرنا على أنفسنا جميع المشاكل التالية وكنا وفرنا أيضاً ١٥ مليون  
 حتى أخذها اسماعيل وقت خلعه . ولكن لم يكن قد ظهر بعد من يقود هذه الحركة  
 فوافق الموحدون علي رأيي ولكننا لم تقدر على تنفيذه . ثم خلق اسماعيل فزال عا  
 عبه ثقيل ولكننا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا نخلصنا من عائلة محمد علي  
 بأجمعها ولم يكن فيها أحد جديراً بالحكم سوى سعيد وكنا عندئذ أعلننا جمهورية . وقد  
 اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل على حصر قصر النيل فوافق  
 محمد عبده على الاقتراح . ولكن اسماعيل قد جمع أموال المديريات قبل خلعه بستة أشهر  
 وقد اعترف لطيف بعد ذلك باشتراكه في هذه الاعمال . وقد اودع لطيف السجن  
 ولكن جماعة الماسون طلبوا من نوبار الافراج عنه فخلى سبيله

ولما خلف توفيق اسماعيل أعلن في أول أعماله انه ينوي منح البلاد دستوراً .  
 والآن نسأل هل كان مخلصاً في هذه النية ؟ فأقول أنه لم يكن مخلصاً ولكنه كان  
 ضيقاً الى درجة لا تصدق ولم يكن يقدر على أن يقول « لا » وكان يتأثر بما يثير عليه به  
 وزيره شريف باشا الذي كان يحب الظلم الدستورية في الحكومات . وكان في عهد  
 والده بجميع الاموال وكان هذا ام ما جهن له . فكان يأخذ الهدايا من جميع المتقدمين  
 بالعرائض لايه وكانوا يعتقدون أنهم بارشاد توفيق يستطيعون تحقيق أغراضهم عند  
 والده اسماعيل فلم يكن توفيق يرغب في وجود دستور ولكنه شق عليه أن يقول :  
 « لا » عندما عرض عليه شريف هذا الرأي فوعده به ولكن لم يمض شهران حتى  
 وقع تحت نفوذ القنصل الذين منعه من إصدار قرار الدستور فجمع عندئذ شريف  
 ووزرائه وقرروا معه انه اذا استقال هم أيضاً يستقيلون وأقسموا له بشرهم ولكن

على الرغم من القسم انضم بعضهم الى وزارة رياض باشا الذي صار رئيساً للوزراء . مكان شريف . ولكي يرغبهم رياض في وزارته تعهد لهم بأن كل وزير سيكون مستقلاً في وزارته وأن توفيق لن يتدخل في ادارة أعمالهم . فصار محمود سامي وزير الاوقاف وعلى مبارك وزير المعارف وعثمان باشا رفيق وهو تركي كل يكره الفلاحين صار وزير حرية وكانت الحكومة الجديدة حكومة جائرة . فقد كتب حسن موسى العقاد عريضة بشأن نظام المقابلة ( الضرائب ) فكان جزاؤه لتفديم هذه العريضة النفي الى البحر الايض ، وعزل احمد فهمي لعريضة أخرى . وعزل آخرون لان الوزارة لا تنتظر لهم بعين الرضا وكان أسوأ هؤلاء الوزراء جميعهم عثمان رفيق

وكنّا نحن الضباط كل منا مع الألبه وكنا نقاسي صنوف الظلم لاننا مصريون : وكان الضابط المصري يقبض عليه لاي علة ويوضع مكانه رجل شركي . وكانت النية أن يعزل جميع الضباط المصريين . وكنت أنا من المغضوب عليهم لأنني رفضت أن تؤخذ جنودى لحفر قناة التوفيقية وكانت العادة أن يسخروا في مثل هذه الاعمال دون أجر . ودرت التدايير لكي اشبك في مشاجرة في بعض الشوارع فأقتل ولكن حب جنودى لى كان يسجنني على الدوام من هذه المشاكل . وبات جميع الضباط الذين لم يكونوا شراكسة في خطر وفزع لا يرحلهم وكل هذا هو السبب في أن على فهمي الذي كان متصلاً بالبلط الحديو لزواجه احدى حواريه انضم اليانلاه كان يخشى أن يعزل ويوضع مكانه شركى او تركي . وكان ضابطا في الآلاي الاول من الحرس وكان مركزه عابدين وكنت أنا في الصاسية مع الآلاي الثالث . وكان عبدالعال حلمي في طرّه وكان على روني يقود الخيالة .

ثم حدثت أزمة في يناير سنة ١٨٨١ . فقد كنت ذهبت الى دار نجم الدين باشا في المساء . وكان هناك بعض الباشوات فاخذوا ينسأرون عن التغييرات التي ينوي عثمان رفيق أن يقوم بها فقلت من كلامهم أنه قد قرر أن يعزل أنا وعبدالعال من قيادتنا ويعين في مراكرنا ضباط شركي . وفي الوقت نفسه جاءني رسول يقول أن على فهمي وعبدالعال في بيتي ينتظرا تني فذهبت الى البيت ووجدتهما وصحت منهما هذا الخبر السي . فجلسنا نتشاور فيما يجب أن نفعله فاقترح علينا

عبد العال أن نصطحب قوة ونذهب الى منزل عثمان رفيق وقبض عليه أو نقتله .  
ولكنني قلت له : « كلا يجب أن تقدم عريضة أولاً لرئيس الوزراء . فإذا لم يقبل  
نقدم عريضة أخرى للخديوي »

فكلفتني بأن اكتب العريضة . فكتبت العريضة وأوضعت الحالة وطلبت عزل  
عثمان رفيق وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندي وعلان الدستور الموعود .

« ملمحوظة من بلنت : أعلن أن عرابي قد أخطأ هنا اذ خلط بين هذين الطرفين  
الاخيرين وبين الطلاب الاول الذي قدم في ٩ سبتمبر ولكنه ألح بأنه قد أثبت هذه  
الثلاثة الطالبات في فبراير »

ثم وقصنا نحن الثلاثة هذه العريضة مع علنا بأن حياتنا قد صارت في خطر .

وفي اليوم التالي ذهبنا بعريضتنا لرياض في ودارة الداخلية فقرأها في غرفة  
داخلية ثم خرج الينا وقال لنا : « هذه عريضة مهلكة . ماذا تطلبون ؟ تفسير الوزارة ؟  
ومن يأخذ مكانها ؟ ومن تقترحونه لكي يقوم باعمال الحكومة ؟ »

وكنيت أقصده هو ووزراء السبعة بذلك . فغضب مني ولكنه قال أخيراً أنه  
سينظر في طلباتنا وتركنا . وفي الحال التأم مجلس الخديوي وجميع رجال بلاطه  
وأبضا ستون وبلنت . واقترح الخديوي أن يقبض علينا وان يحاكم ولكن الآخرين  
قالوا : « اذا حاكمت هؤلاء فيجب أن يحاكم عثمان باشا أيضاً » وعلى هذا تركت  
المسألة لثمان ليعالجها كما يرى وانت تعرف الباقي .

أما عن سؤالك هل كان يعرف الخديوي في ذلك الوقت عرفنا على كتابة العريضة  
فأقول انه لم يكن يعرف ذلك ولم يعرف أيضاً أن علي فهمي قد انضم الينا .

أما عن سؤالك هل كنت أعرف البارون ديديج فأقول اني لم أكن أعرفه ولم  
أكن أعرف أحد من القناصل . ولكنني سمعت ان أكبر القناصل نفوذاً هو القنصل  
الفرنسي فكتبت اليه أخبره عن موقفنا ورجوته أن يخبر سائر قناصل الدول بأنه  
ليس هناك أقل خطر على وعايام .

أما محمود ساسي فلم أكن قد عرفته بعد ولكنه كان صديقاً لصديقي علي دوي  
وسمعت انه من المتعلقين بالجرعة .



وكان من أصل شركسي ولكن عائلته عاشت في مصر نحو ستمائة سنة .  
أما في المظاهرة الثانية التي حدثت في ٩ سبتمبر فقد كما نعرف أن الحديو كان  
في صفنا . أنه أراد أن يتخلص من رياض الذي كان لا يكثر لأوامره . وقدراته  
ونكلمت معه مرتين في ذلك الصيف ولكما لم نتكلم في السياسة . وكانت رساله  
لي على لسان علي فهمي مقصورة على هذه الكلمات

« أنتم ثلاثة جنود وأما رابعكم »

والآن نأتى عن احلاصه فأقول أنه لم يكن قط مخلصاً وإنما أراد أن يتخلص  
من رياض . ففي هذه المظاهرة طلبا عزل رياض مع سائر الوزراء . ونحن نعلم انه  
سيفرح لهذا الطلب . ففي صباح يوم ٩ سبتمبر أرسلنا كلمة الى الحديو نقول اننا  
سنذهب الى قصر عابدين لكي نطالبه بأداء وعوده السابقة . فجاء . وكان معه كوكون  
وكان حديثي أنا مع كوكون هذا فأتى كوكون هل ترضى بحيدر ماشا فاجبته  
بأن لا ترضى برحل يمت الى الحديو بقرابة ، ولم يكن لنا في هذه المرة الثانية طلبات  
مكتوبة وإنما جددنا طلباتنا التي قدمناها في أول فبراير وهي : مجلس النواب وزيادة  
الحيش الى ١٨٠٠٠ جندى كما تنص على ذلك القرارات وعزل رياض ، فوافقونا على  
كل ذلك ، وفرح الحديو بذلك ، واستأعرف هل كان كوكون هناك وهل نصح  
للحديو شئ . ما ، وإنما رأيت هناك كوكون وجولده سمعت وكنت أخطب كوكون  
ولو حاول الحديو قتلى لأخلفت النار عليه ، والحقيقة أنه كل في أشد الجذل  
والجور لهذه المظاهرة .

نأتى الآن عن أبي سلطان ( سلطان باشا ) فأقول انه كان مفتاحاً لأنه عند  
ما ألقت وزارة شريف لم يعين في احدى الوزارات . وكان الطن ان مصبر رئيس  
مجلس النواب أشرف وأهم . ولكنه هو لم ير هذا الرأي فساء . انه ليس عضواً  
في الوزارة . وهذا أول ما جعله يتقلب علينا . أما عن سؤالك هل أسيتت معاملة  
الشراكية الذين قبض عليهم وأودعوا السجن للوزارة عند ما كنت وزيراً  
للحرية فأقول آني لم أدخل السجن القدي كانوا فيه ولم أؤرم يذيون بل لم اقرب من  
السجن مطلقاً

أما عن مسألة هياج الاسكندرية فليس هناك شك في أن الذي دبر هذا الهياج هو الحديو وعمر باشا لطفي المحافظ ومستر كوكسون . وقد دبر هذا الهياج قبل وقوعه بعدة أيام وكل الغرض منه ازالة الثقة في لاي كذ قد تعهدت بحفظ النظام . فان الحديو أرسل نقرأاً بالارغام الى عمر لطفي كما تعرف . واتفق عمر لطفي مع السيد قنديل رئيس المستنصرين على إيجاد هياج . وأخى السيد قنديل هذه المسألة عنا ونحن في القاهرة . أما اشتراك مستر كوكسون فينهصر في أن عدداً من الصادق التي تحتوى على الاسلحة البارية أنزلت الى الاسكندرية وأرسلت الى دار القنصلية حيث مستر كوكسون وبديهي انه كان يقصد بإزالة هذه الاسلحة للمدينة تسليح بعض الناس وعندما سمعت بالحادثة أرسلت في الحال يهتوب سامي الى الاسكندرية وأمرته بأن يبحث بحثاً وائياً فأنتهى من البحث بإثبات جميع هذه الحقائق التي ذكرناها . وقد قُلت أشياء كثيرة غير صحيحة . فليس صحيحاً انه وجدت أجسام من القتلى النصارى في لباس اسلامي . وابتدأ الهياج بين مالطي وحمار . ولكن هذه المشاهدة كانت عذراً ليس عبر . وكان عمر لطفي كما تقول من شيعة اسماعيل . وتألني لماذا ترك مثل هذا الرجل المخطر في مثل هذا المنصب الذي كان يساعده على احدث اكبر الاضرار وكل ما أقوله انه لم يكن تابعاً لوزارة اخري بل كان يتسلم أوامره من وزارة الداخلية . وكان من سوء حظنا اننا تركناه في مركزه . ولم يذهب نديم ولا حسن موسى العقاد الى الاسكندرية في هذا الشأن وانما ذهب حسن موسى العقاد في مسألة مالية .

وما تألني عنه بصدد اسماعيل باشا صحيح . فقد عرض عليا اسماعيل أموالاً . وظروف المسألة هي هذه : كما طلبنا بعض المدافع من المانيا ولسكنهم دفعوا أن يملوها لنا ما لم ندفع الثمن . ولم يكن عندنا مال . فعرض عليا اسماعيل ٣٠٠٠٠ جنيه على شرط أن تقول اما نشغل في مصلحته . وكان الذي عرض علينا هذا المبلغ هو مسيو مجس ( ماكس لافيسون ) وكبل اسماعيل الروسي وكل لحسن موسى العقاد يدق هذه المسألة . ولكن الاموال لم تظهر واذا كان اسماعيل قد أرسل المبلغ حقاً الى الاسكندرية قد بقي في ايديهم فاننا لم نلـه



ولم تكن تنتظر هجوماً لانتالم تكن نسمع إطلاق المدافع . وكنت أننا نأتمنا وإذا بي استيقظت على هدبر المدافع قريباً منا . وكان على روبي في المقدمة فأرسل الى يقول يجب أن أعبر مركزي لان العدو يضربنا من الجنب . فقامت وركبت حوادتي وذهبت الى حيث كلن لنا قوة من المتطوعين وأمرتهم بان يتبعوني لكي نذهب الى الخطوط الاولى ونامون المقاتلين . ولكنهم كانوا فلاحين ولم يكونوا جوداً وكانت القنابل نسقط حوالهمم فلاذوا بالفرار فذهبت الى الامام وحدي وورائي خادمي محمد . فلما رأي وحدي وانتي أتقدم الى الموت الا كيد أخذ بزمام حوادتي وأقسم علي أعود . فلما بانتي في المريعة ورأيت الجميع يفرون عدت : وراضني محمد حتى عبرنا وادي التل الكبير ثم حاذينا قناة الاسمعية حتى وصلنا الى بليس وهناك وجدنا معسكراً آخر وقد وجدت ان على روي كان سبقي هناك فعزمتنا على ان تقاوم . ولكن ما هو ان وصلت خيالة دوروري لين حتى فر الجميع فتركنا كل شيء وانجهمنا نحو الحمة الشمالية ولكنه لم يكن خائناً . أما الحوة فهم عبد الغفار على ما أظن ومن يليه في القيادة عبد الرحمن بك حسن وعلى يوسف خنفس . أنت تقول سعود الطحاوي ؟ ربما كان ذلك فهو لا البدو لا يوثق بهم وكان جده مع بونا نارت لما جاء مصر منذ مائة سنة .

والآن قد رجعت الى بلادى بعد عشرين سنة من النفي والأسي وبنو وطني صاروا يفتقدون اني قد بعث بلادى للانجليز وذلك لان بعض الصحف الفرنسية تقول ذلك .



## رأي الشيخ محمد عبده

في تاريخ عرابي

( في ١٨ مارس سنة ١٩٠٣ عرضت على الشيخ محمد عبده في منزله في عين شمس تاريخ عرابي كما كتبه لي . فوافق على أكثره ثم قدم لي الملاحظات التالية عنه —  
ولقد سكاون بثلث )

أولاً - بخصوص الشغب على نوبار أقول ان رواية عرابي صادقة ما عدا قوله عن علي فهمي . فان الامر الذي أعطي له باطلاق النار على الطلبة لم يكن يقصد منه التنفيذ . فكان على فهمي اطاعة للاوامر يطلق النار في الهواء . وقد أمر نوبار بالقبض على لطيف بك بعد انتهاء الشغب ولكنه أفرج عنه بعد ذلك لان الماسويين طلبوا ذلك وكان لطيف عضواً في الجمعيات الماسونية . وكلف يصرح بما قلم به في اهذه المسألة . أما ما قاله عرابي بصدد خلع اسماعيل وأنه اقترح ذلك فأقول انه من المؤكد اننا كما نتكلم سرّاً في هذا الشأن وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع واقترح عليّ أنا أن أقتل اسماعيل وكان يمر في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاماً نهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ولكن كان يقصدنا من يقودنا في هذه الحركة . ولو اننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت فرمّا كان في إمكاننا ان ننظم الحركة معه لان قتل اسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله ولكن يمنع تدخل أوروبا . ولكن لم يكن من المستطاع في ذلك الوقت تأسيس جمهورية اذا نظرنا الى حالة الجهل الذي كان سائداً على العقول . أما عن قول عرابي ان اسماعيل أخذ معه الى نابولي ١٥ مليون جنيه فليس هناك من يعرف الحقيقة . وأما المعروف ان المبلغ الذي أخذه معه كان كبيراً جداً . وكان اسماعيل يدير المال في الاشهر القليلة التي سبقت خاله . فكانت الاموال التي نحجي من المديرية لكي ترسلها الى وزارة المالية يأخذها هو لنفسه .

ثانياً — أما عن قول عرابي أن توفيقا كلن يأخذ الهدايا والرشى من مقدمي الأمراض لوائده أيام كلن اسماعيل خديويا فقد يمكن أن يكون صحيحاً . ولكن لم اسمع هذه الاشاعات وهذا العمل لا يتفق مع سلوك توفيق لما صار حاكماً . فذلك لست أصدق هذا القول .

ثالثاً — أما عن ظلم رياض فاقول أن رياضاً كلن ظالماً ولكن ظلمه لم يكن يبلغ سفك الدماء . فانه كلن على الدوام يكره ذلك . فلم أسمع انه كان يأمر بالقتل بالناس سرّاً . ولم يكن هناك على أى حال خوف من أن يفعل ذلك باحد قبل حادثة قصر النيل . ولكنا سمعنا أقوالاً وروايات عن محاولة قتل عرابي وغيره من الضباط في صيف سنة ١٨٨١

رابعا — اما عن حادثة اول فبراير سنة ١٨٨١ في قصر النيل فأرى ان رواية عرابي مرتبكة وغير صحيحة . فان العريضة الاولى التي قدسها عرابي وسائر الضباط كانت تتضمن الشكوى من الحجب الذي يقع بهم من عثمان رقتي . وكان هذا العمل سبباً في غضب وزير الحرية فقد نبهته على ان يتخلص منهم وكان هذا اول ما لفت طر القنصل الى عرابي .

وكان البارون ديرنج في خصام مع رياض فاهتم لذلك بمسألة الضباط . اما العريضة التي يقول عرابي انه قدسها بنفسه الي رياض في يناير فلم تبين فيها أى اشارة الى الدستور او الى زيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندي . فان هذه الطلبات لم تقدم الا في سبتمبر بعد المظاهرات . وكانت عريضة قصر النيل لا تزيد عن ان تكون شكوى من مساوى عثمان رقتي وطلب عزله من الوزارة . وكان رياض في المجلس الذي عقد عقب المظاهرات موافقاً على عمل تحقيق عن هذه العريضة . وكان هذا التحقيق يتطلب محاكمة الضباط وايضا عثمان رقتي امام المحكمة العسكرية . وكان رياض يكره العنف . ولكنه لما اوضح له انه اذا لم يستعمل العنف سيعد سكوته دليلاً على تشبعه مع الضباط ضد الحديو اضطر في النهاية ان يترك المسألة لعثمان رقتي يتصرف فيها كيفما شاء .

خامساً — أما عن مطاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ فاني أقول أن

السبعة الأشهر التي كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت منعمة بالانشاط السياسي الذي شغل جميع الطبقات . فقد صار عرابي محبوباً عند الأمتواصل بالحزب الوطني وعرف سلطان باشا وسليمان أبانله وحسن الشريبي وعرفني أنا أيضاً وكنا نحن الذين طلبوا الدستور . وقد أهم هو بالدستور لأنه رأى فيه ضماناً من انتقام الحديو أو وزرائه منه كما كانوا ينتقمون أيضاً من سائر الضباط .

وقد قال لي هو ذلك جملة مرات وبناء على ذلك قدمنا المرائض بطلب الدستور وحملنا في الصحف حملات عديدة في هذا الصدد . وكان عرابي يزور سلطان باشا كثيراً في ذلك الصيف — وكان سلطان مترافكاً يرسل إليه الهدايا من الثياب والحيل وغير ذلك لكي يعتمد علي قوة عرابي ونصفيده لهذه الحركة الدستورية . وحدث مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان وقد أصاب عرابي في قوله أن سلطان كان يطمع في أن يكون وزيراً بعد سقوط وزارة رياض .

ولكن شريف باشا الذي صار رئيساً للوزارة لم يفكر في تعيين سلطان . وبعد ذلك أمكن مصالحة سلطان بإعطائه رئاسة مجلس النواب . ولم يتشاجر مع عرابي إلا بعد اللامحة أي البلاغ الأخير الذي أرسله القناصل إلى الحكومة فإن عرابي جرد سيفه هنا في وجه سلطان ووجه أعضاء المجلس عندما رأى منهم تردداً في رفض اللامحة وكانا إلى هذا الوقت يسيران يداً بيد

ورواية عرابي عن توفيق من أنه أرسل يقول له : ( انتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم ) صحيحة وهي تظهر مركز الحديو أمام الضباط . وكان كولفن مع الحديو في عابدين ولكنه لما كان لا يعرف العربية لم يلتفت عرابي إليه . وكان الكلامهم كوكسون وكان البارون دي رنج قد استدعته حكومته بناء على طلب رياض الذي شكك في جميعه الضباط سادساً — أما عن الشغب في الاسكندرية فإن عرابي صادق في روايته عن عمر لطفي والحديو فهما اللذان دبرا الشغب قبل حدوثه بضيعة أسابيع . ولكن روايته عن سيد قنديل غير صحيحة فإنه كان ضعيفاً فلم يقو على اخلاء الشغب وهو أيضاً مخبطي . فيما ذكره عن كوكسون . فإن الاسلحة التي وردت إلى القنصلية إنما حرم بها لحاية المائطين وسائر الرعايا الانجليز . وقد حكم بالنفي على سيد قنديل 'عشرين

عاما ولكن عني عنه بعد ذلك فرجع وهو الآ في داره في الريف في مصر — وكثيراً ما تحدثت معه في هذا الموضوع . وعراقي صادق في قوله أن حسن موسى العقاد وعبدالله نديم لم يشتركا في أحداث الشف . فانه قد ذهب الى الاسكندرية لالقاء خطبه أما العقاد فقد ذهب في مسألة مالية .

## رأي الشيخ محمد عبد الله

في الثورة العراقية

( في ٢٠ مارس سنة ١٩٠٣ قدم لي المفتي الملحوظات التالية عن الثورة العراقية . وافرد سطاون بلفت )

في أواخر أيام اسماعيل ساول البعض ادخل الماسونية الى مصر . وكانت جميع المحافل المصرية منصلة بالمحافل الاوردية وقد انضم الشيخ جمال الدين الى أحد هذه المحافل ولسكنه لم يجد لها قيمة فخرج منها ، وكان اسماعيل باشا قد أخذ يشجع الحركة بنية الاستفادة منها وذلك عند ما وقع في ازماته . ولكن الماسونية لم تبلغ يوماً ما مركزاً قوياً في مصر

ومن المؤكد أن الشيخ عبيد قتل في التل الكبير ، فقد سمعنا اشاعات تقول انه حي برق في سوريا . ولما كنا في المنى في بيروت كنا نرسل الى داخل البلاد لسؤال عنه ولكنهم كانوا يرجعون ويقولون ان رواية وجوه كاذبة

وكان محمود سامي دستورياً من عهد اسماعيل . وكان صديق شريف وكان كلاهما يشدان آلا سياسية واحدة ومن الأرجح انه انذر عراقي بازمام القبض عليه لانه كان في ذلك الوقت عضواً بمجلس الوزراء . ولا بد أنه كان يعرف هذه النية أما بعد مسألة قصر النيل فانه كان مع عراقي والضباط قلباً وقالباً وكان هذا هو السبب في أن رياضا نخلص منه وعين داود باشا مكانه

وكان رياضا لا يقدر أهمية عمل عراقي ولكنه بعد ذلك صار يبخشاه . فابتدأ باحتقار الحركة والتقليل من شأنها لان هذه كانت عادته إذ كان لا يستقد أن للملاحين شأماً يذكر في السياسة



واستقال شريف باشا في فبراير سنة ١٩٨٢ لانه تشاجر مع عرابي بل لانه كان يخشى تدخل أوروبا . وكان يعارض مجلس النواب في طلبه مناقشة الميزانية واستقال لهذا السبب وكان راغب باشا من أصل يوناني ولكنه كان مسلماً . وكان رئيساً للوزارة في عهد اسماعيل ولكنه كان دستورياً وقد عين بعد الالتماع ( البلاغ الاخير الذي اوسله القناصل للحكومة ) رئيساً للوزراء . وكان عرابي وزيراً للحريتين هذه الوزارة . وكانت علاقته بعرابي شريفة وقد بقي مع الحزب الوطني مدة الحرب ويقول بتران اول عريضة قدمت كان تاريخها ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ والراجع

ان هذا التاريخ صحيح

وكان ابراهيم الاعاني من أقدر تلاميذ جمال الدين وأفضلهم في الارهر وهو لا يزال الآن حياً وهو موظف في المحكمة :

لما انعقد مجلس النظار لكي ينظر في عريضة عرابي التي طلب فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقي ارتأى الخديو هو وعثمان رفقي أن يقبض على عرابي وينفي الي البحر الايض ولكن رياضاً طلب القيام بتحقيق أولاً . وبعد ارفض المجلس قابل طه باشا رياضاً وأجبره بأنه اذا اصطنع الرفق مع عرابي فان الخديو يظن أنه ( أي رياض ) قد انضم الى الجيود ضد الخديو طمعاً في الخديوية لنفسه فلما سمع رياض ذلك سكنت عن المعارضة . وقد أجبرني بهذا بعد ذلك محمود سامي وكان وزيراً في وزارة رياض وكان ابراهيم افندي الوكيل وحسن الشريسي واحمد محمود زعماء الاحرار في مجلس النواب .

## آراء أخرى

للشيخ محمد عبده عن الثورة المراتية

( في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٣ قدم لي الشيخ محمد عبده الملحوظات التالية ) :  
 ما نرى الشيخ جمال الدين بعد عزل شريف بيضة أيام سنة ١٨٧٩ أمرت بان أروح  
 القاهرة وكنت استاذاً في مدرسة المعلمين وطالب الى أن أذهب الى قريتي . وكان  
 حلي في المدرسة الشيخ حسن وكان أعني . فسئمت وعودي في قريتي وارتدت الذهاب  
 الى الاسكندرية وكان الموليس براقيني . فذهبت خفية الى طنطا وأخذت أجول  
 فيها مدة طويلة . ثم رجعت الى القاهرة أملاً في أن أقابل محمود سامي وكان صديقي  
 وكان في ذلك الوقت وزيراً للأوقاف . ولكنه كان غائباً . فذهبت الى علي باشا  
 سارك وكان صديقي ايضاً وكان وزيراً للأشغال ولكنه قابلني أسوأ مقابلة ونصح  
 لي في ذلك الوقت بأن لا أمكث في القاهرة ثلاثاً ، الطن في وأتهم بالاشترار مع  
 مصبة التي تألفت من شاهين باشا وعمر لطفي وغيرها من حزب اسماعيل ضد رياض  
 فذهبت ثانياً الى قريتي .

ولكنني تولاني السأم ناية لان القرويين كانوا لا يفتأون ينشاجرون فعزمت  
 على أن أرجع الى الازهر لكي أدرس فيه . وكان رياض لا يجد أحداً يجيد الكتابة  
 بالعربية لتحرير الجريدة الرسمية فاستشار محمود سامي فأخبره بأنه لو كن في مصر  
 ثلاثة مثلي لنجت البلاد وكذلك قال بهذا الرأي الشيخ حسن الذي عين خلفاً لي  
 بمدرسة المعلمين .

وعلى ذلك عينت في آخر رمضان ( أكتوبر سنة ١٨٨٠ ) محرراً ثالثاً للجريدة  
 الرسمية ولكن المحررين الذين كانوا هناك أحسا الغيرة مني فلم يتركوا لي شيئاً أكتبه  
 وعلى هذا لم يتحسن تحرير الجريدة . فاستاء رياض من ذلك وأجرى تحقيقاً كانت  
 نتيجة أن عينت رئيس التحرير م رقيت بعد ذلك الى رئيس المطبوعات . وكان  
 هذا قبل نهاية سنة ١٨٨٠

وكانت أول مرة لقيتك فيها عندما زرتك مع روجر في فندق النيل وقد أرسلت لك محمد خليل . وهو الذي جاء بك بعد ذلك لزيارتي في منزلي . وكنت أنشد الحكومة بشدة في الحريدة الرسمية وكنت لا أضيق على الحرائد باعتشاري ونبس قلم المطبوعات . ولكن لم تكن الثورة من رأيي وكنت قائماً بالحصول على الدستور في ظرف خمس سنوات فلم أوافق على عزل ، ياض في سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وقبل مظاهرة عابدين بمشرة أيام التفتت بعراي في دار طلبه عصمت . وكان قد جاء مع عراي لطيف بك سليم وكان هناك عدد كبير من الزائرين . فنصحت لعراي بالاعتدال وقلت له : « اني أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا وان لمة الله ستقع على رأس من يكون السبب في ذلك » فأجابني عراي أنه يرجو أن لا تقع هذه اللمة عليه وأن سلطان باشا وعده بأنه سيحصر له عرائض لطلب الدستور ممضاة من جميع الاعيان . ولكن هذا صحيحاً . فان جميع العدد كانوا مستائين من رياض لأنه منعهم من نسخير العمال وقطع هذه العادة . ولم ينضم سليمان أباطه الى الثورة لانه كان يعتمدانه لم يش أو انها بعد وكان الشرعي باشا ضد الثورة أيضاً .

ولكن لما منح الدستور انضمنا جميعاً الى الثورة لكي نحى الدستور . ولكن عراي لم يتمكن من ضبط الجيش وكانت عدد الصباط مطامع عديدة . ولم أكن أعلم شيئاً عن مظاهرة عابدين ولم أخبر عنها قبلاً لاعتقاد أني من حزب رياض . ولكن المظاهرة دبرت برأى سلطان باشا وشریف باشا وكانت آراء الحديو كثيرة التقلب من جهة عراي . وقد انضم الى رياض والى داود باشا في محاولتهما سحق عراي . ولكن المتظاهرين أخبروا الحديو عن المظاهرة قبل حدوثها يوم وافق عليها لانه كان يرغب في عزل رياض .

## حديث مع عرابي

في الشيخ عبيد في ٢ يناير سنة ١٩٠٤

سألني عن تاريخ أول اتصال الحديو توفيق بنا نحن الجنود . فأقول أنه قبل حادثة قصر النيل أرسل إلينا الحديو على فهمي لخبره بما فعل ولكن على فهمي كان صديقنا وانضم إلينا في الرياضة التي رفضناها إلى رياض باشا وقبض عليه أيضاً معنا ولما رأى الحديو مكانتنا في عين الجمهور بعد حادثة قصر النيل أراد أن يستفيد بنفوذا في مناوأة رياض فارسل إلينا على فهمي بهذه الرسالة : « أنتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم » ولكن هذا بعد شهر من حادثة قصر النيل . وقد علمنا أيضاً من محمود سامي الذي كنت وزيراً أننا لما حطوة الحديو . وقال لنا محمود سامي في ذلك الوقت : « اذا رأيتموني عزلت من الوزارة فاعلموا أن الحديو قد تغير نحوكم وانه يريد بكم شرّاً »

وكان في سنة ١٨٨١ عند بدء القلاقل في الصيف ثقب بمحمود سامي وكان رياض باشا وزيراً للداخلية يث علينا العيون ويحمل البوليس براقتنا .

وكن الاستياء مني عظيماً لأنني رفضت ان اسمح سفر جنودي لكي يجمعوا قناة التوفيقية بأمر على باشا مبارك وزير الاشغال . فتغير الحديو لهذا السبب ولا سباب أخرى علينا وعزم مع رياض على ان يصلا لشق الاتحاد الموجود في الجيش وذلك بقشيت الفرق في أماكن بعيدة يحول بعدها دون اتصال الضباط فطلب الحديو وكان في ذلك الوقت في الاسكندرية من محمود سامي وزير الحرية أن ينفذ هذه الخطة فلما رفض محمود سامي تنفيذ هذه الخطة كتب إلى رياض يقول « قد قتل الحديو استغاثكم » ثم أشلوا كلاهما أي الحديو ورياض على محمود سامي أن يبرح القاهرة ويسافر إلى قريته قريبا من طنطا وانت يلزمها ولا يعود إلى القاهرة أو يكتب الضباط . ولكنه حضر إلى القاهرة ونزل في منزله فذهبنا لزيارته فرفض ان يقابلنا . علمنا انه يراد بنا شر . وعين الحديو بدلا عنه داود باشا يكن فاشتد غيظنا من ذلك وايضا أنهم سيحاولون اهلاكنا

وفي اوائل سبتمبر عاد الحديو ووزراؤه الى القاهرة وعقدوا نيهم على أن ينهوا منا فاستشرت عد المال وعبد الغفار قائد الحيلة في الجزيرة وفوده بك حسن التنايقام في القلعة وكان المير الاى في القلعة قد عزله محمود سامي قبل استقالته ولم يعين مكانه أحد . وكان الامير الاى من جنسنا ولكنه كان خائفاً فاتفقنا على ان قوم عطايرة نطلب فيها عزل الوراوة وتعيين وزارة وطنية وعقد مجلس النواب وزيدة الجيش الى ١٨٠٠٠ رجل ولسكتنا لم نجبر على فهي عن اتفاننا هذا لاننا لم تكن نتق به في ذلك الوقت كل الثقة . وفي صبيحة اليوم التالي كتبت طلباتنا وبشئنا الى الحديو في قصر الاسماعيلية واخبرته باننا سنسير الى ميدان عابدين في العصر لكي نتسلم حوايه . وسب ذهابنا الى عابدين بدلا من قصر الاسماعيلية هو ان قصر عابدين هو مقامه الرسمي ولم تكن لنا ايضا رغبة في ازعاج سيدات القصر ، ولكنه لو لم يحصر الى عابدين لسكتنا ذهينا اليه في قصر الاسماعيلية .

فلما تسلم الحديو عريضتنا أرسل الى رياض وخيري باشا وستون باشا فذهبوا الى ثكنة عابدين لمخاطب رياض والحديو الجنود وأمر ا على فهي بأن يحتل هو وحنوده قصر عابدين . فأطاع على فهي ووضع جنوده في الغرف العليا حتى يستطيعوا أن يضربونا بالدار من التوافد ، ولكنني لا أدري هل كانوا قد اعطوا حراطين أم لا ؟ . ثم ذهب الحديو ووزراؤه الى القلعة وخاطبوا الجنود بمثل ما خاطبوا به في عابدين وطلب الحديو من فوده بك أن يتنقض علينا ويمنه قائلا له : « سألتك في السجن » . ولكن الجنود تكلموا حول مركبة تخاف الحديو وأمر السائق أن يسير به الى العاصية وذلك باشارة رياض لكي يخاطبني أنا أيضا . ولكنني كنت حينئذ أعوذ جنودى وذهبت الى عابدين عن طريق الحسينية . فسألوا عن المدافع فقبل لهم أننا أخذناها الى عابدين . فلما وصل الحديو وجدنا قد احتلنا الميدان ووجد الحيلة والمدافع تواجه الباب الغربى

وكنت عند وصولي الى ميدان عابدين قد علت بوجود على فهي في القصر فبعثت اليه بكلمة فترك القصر وجاء الى الميدان وانضم اليانا ودخل الحديو الى القصر من الباب الشرقي ولكنه لم يشب عما طويلا فانه جاء اليانا ومعه حرسه وقواده ولكنني

« أر كوفن بينهم وربما كان مع ذلك هالك، فطلب مني الحديو أن أنزل عن حوادي  
نزلت . فطلب مني أيضاً أن أعقد سيفي . فأعذته . وها أقربت من الضباط لانهم  
كانوا يخشون الحياة والقدور . ووقف بعضهم أى نحو خمسين منهم بين الحديو وبين  
القصر . أما رياض فانه لم يخرج من القصر الى الميدان بل بقي فيه

فلما أفضيت الى الحديو بجملة مطالبنا الثلاثة قال لى

« أنا خديو البلاد وأعمل زى ما أنا عاوز »

فأجبت « ونحن لسنا عبيداً ولن نؤثر بعد اليوم » فلم يقل شيئاً آخر ولكنه  
رجع الى القصر . ثم ارسلوا فى الحال كو كسون مع مترجمه فسألني لماذا اطلب وجود  
برلمان مع أتى جندى . فقلت له اننا نطلب ذلك لكي تقضى على الاستبداد وأشرت  
الى سائر الوطنيين الواقفين وراء الحنود . فأخذ يهددنى وقال لى : سنطلب هنا  
حيثاً أنجليزياً » وطال الجدال بيننا وكان يروح ويقف ويقتربنا وبين القصر وفعل ذلك  
نحو أربع مرات ثم أخبرني فى النهاية بأن الحديو قبل كل شيء . وقال ان الحديو  
يرغب في تعيين حيدر باشا بدلا من رياض . فلم أوافق على ذلك . فلما سألني  
الى أن أذكر اسم رئيس الوزراء الذى أرغب في تعيينه ذكرت شريف باشا  
وذلك لانه كان لا يعارض فى وجود مجلس نواب وكنت أعرفه قبل ذلك معرفة  
قليلة فى زمن سعيد باشا عند ما كان فى الجيش . وفى المساء أرسل لى الحديو وذهبت  
اليه فى قصر الاسماعيلية . وشكرت لمواقفته على مطالبنا فقال :

« كفى . كفى . أذهب الآن واجل عن عابدين ولكن بدون موسيتي فيا شوارع »

وذلك حتى لا يظن أحد اننا نفعل هذا لسرورنا

ولما حضر الى القاهرة على باشا نظامي واحد باشا راتب من قبل السلطان  
خاف الحديو لئلا يفتح تحقيق . وكان محمود سامي وزيراً للحرية فأمرنا بأن نهرج  
القاهرة فنذهب أنا الى رأس الوادى وذهب عبد المال الى دمياط وبقي على فني  
في القاهرة . فلم أر على نظامي . ولكنى كنت قد ذهبت الى الزقازيق لزيارة  
صديقي احمد افندي الشمسي وسليمان باشا أناظه . ثم بعد انتهاء الزيارة ألقى القطار  
الى رأس الوادى . وكان احمد باشا راتب فى نفس القطار وكان مسافراً

الى السويس . فحدث نفسي في مركبة واحدة معه فتبادلنا التحيات وتعرف كل منا بالآخر فاجبرني أنه يريد الحج وأشياء أخرى ولكنه لم يجبرني عن المهمة التي حا. الى الحديو من أجلها وأنا أيضاً لم أسأله . ولكنني أخبرته بأنني على ولا. لاسلطان وقصصت عليه جميع ما حدث . فقال لي . « لقد احسنتم »

وتركته في رأس الوادي . وبعد ذلك أرسل لي نسخة من المصحف الشريف من جلة وبعد ذلك لما عاد الى الاستانة نسلت خطاباً أملاء السلطان على الشيخ محمد ظافر يجبرني فيه السلطان بأشياء أعرفها

أما يعقوب سامي فهو من أصل أغريق من الاستانة . وقد ذهب بأمرى الى الاسكندرية لفتح تحقيق عن مسألة الهياج ولكنهم لم يسمحوا له بعمل التحقيق . وكان يعقوب سامي هذا هو راغب باشا صاحب الاقتراح بقطع رأس الحديو . وأنت تقول الآن انه كان يحسن بنا أن نفعل ذلك . ولكنني كنت أرب في أن تتم ثورتنا دون أن تراق فيها قطرة دم واحدة .

## اضطرابات الاسكندرية

هذه مدكرة تاريخية وضعت في سنة ١٨٨٣ عن اضطرابات الاسكندرية التي حدثت في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ . وهي موضوعة على أساس الادلة التي قدمت عن سباب الاضطرابات :-

« هذه هي الحقائق التي أسمر عنها البحث في مسألة الاضطرابات :-

١ - علي أثر الخلاف الذي شجر بين الخديو ووزراء . وأعضاء الحزب الوطني في مسألة المؤامرة الشركية ( مايو سنة ١٨٨٢ ) اجتهد الخديو أن يجد قوة يعتمد عليها بدلا من الجيش الذي كان يؤيد الوزراء . فعمل لشراء مساعدة البدو الذين يقطعون اقليم البحيرة بين القاهرة والاسكندرية بواسطة رجل يدعى ابراهيم بك نوبق . وقد اتفق في هذا السبيل عشرين الف جنيه . حصلت قبيلة أولاد علي علي أكثرها . وقد جاء مشايخ هؤلاء العربان الى مصر فاستقبلهم الخديو استقبالا فخما واتفق معهم علي أن يدخلوا جاغفيا آمن رجالهم الى القاهرة بطريق الخيصة على نيسة أن يمدثوا حياجا في المدينة . وذلك أن حزب السراي كان بجادا في ذلك الحين في اثبات أن الفوضى ضاربة أطنابها في مصر ولكن غرضه من ذلك أن يقيم الحجة على عدم كفاءة الوزارة الوطنية . وقد فشل هذا المشروع بسبب ضعف البدو الذين خافوا دخول المدينة التي يضلها النيل عن صحرائهم والتي يكثر فيها الجنود . ولكن عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية الشركي استطاع بعد ذلك أن يقنع جماعة من قبيلة أولاد علي بدخول الاسكندرية ، وهي في منقطعهم ، غير مسلحين لعب دور في الاضطرابات أما أسلحتهم فقد حفظها لهم رجال البوليس وصدوها لهم يوم الاضطراب

٢ - كان عمر لطفى ، رغم شركيته ، يتظاهر حتى أواسط مايو بأنه كأكثر الموظفين موال للمحركة الوطنية مؤد لقائمين بها ولكن ما علم الخديو أن استنتم اليه عمر لطفى هذا بعد الانذار القصلي النهائي الذي قدم في ٢٤ مايو سنة ١٨٨٢ والذى استقالت الوزارة الوطنية أثر تقديمه . فلما وصل إلى القاهرة عرض عليه الخديو يوم ٢٦ مايو منصباً في الوزارة التي كان يسعى الى تشكيلها . ولا شك في أن



عمر لطفي كان يفوز بهذا المنصب لولا عودة عرابي الى السلطة ( وهذه نقطة مهمة لأنها تكشف عن سبب اهتمام عمر لطفي بعد ذلك بأسقاط عرابي )

٣ - لما رجع عرابي إلى السلطة باعتباره الرجل الوحيد القادر على حفظ الأمن والنظام وبعد ضمان الأمن الذي أعطاه لقصاصل عاد الحديو الى مشروعه الاول ، مشروع خلق الموضى واخلال النظام ولكن في ميدان جديد غير ميدان القاهرة . وكانوا ينتظرون أن يعمل درويش باشا بسرعة ليحكم بين الحديو ووزرائه فكلن ضروريا أن يجد الحديو مطلقا يتذرع به الى التشهير بالوزراء . ومن ثم أرسل يوم ٣ يونيو الى عمر لطفي تلغرافاً بالشهرة هذا نصه : —

« ضمن عرابي الأمن العام وأعلن عن ذلك في الصحف وحمل نفسه مسئولاً أمام القصاصل . فإذا نجح في حفظ الأمن فلا بد من أن تنق به الدول وان يصيح ما بقي لاس اعتبار أصف الى ذلك ان أساطيل الدول في مياه الاسكندرية والحواطر متهبجة عليك الآن أن تختار لنفسك : فاما ان نخدم عرابي في ضمانته للأمن أو أن نخدمنا »

٤ - أرسل الحديو صهره حيدر باشا مرتين خلال الاسبوع التالي الى الاسكندرية وكان يقابله مقالة سرية قل ذهابه وبعد اياه . وكان حيدر باشا في الاسكندرية يوم وقع الاضطراب . فلما انتهى الاضطراب عاد الى الحديو في الخلاء . — نشرت حريدة المحروسة ( لسان حال شريف باشا التي كان يحررها سلم نقاش السورى الماروني ) في الاسبوع الذي سبق الاضطرابات بياناً مكنوفا عن اضطرابات حدثت في القاهرة . وكلن الغرض من ذلك اعداد الاذهان لقبول انباء اضطرابات الاسكندرية وقد وزع هذا البيان في دوائر الاسكندرية الرسمية ووصل التحقيق الي مصدر التوزيع .

٦ - احتشد البدو الذين تقدم ذكرهم خلال هذا الاسبوع في ضواحي الاسكندرية وقد لفت نظر المحافظ عمر لطفي الى احيائهم بلا نتيجة وكذلك لفت نظره بلا نتيجة الى احتشاد الرعاع في الاحياء الافرنجية بلا مبرر وخلافاً للعادة .

٧ - حدث يوم ٩ يونيو ( أى قبل الاضطرابات بيومين ) انه بعد أن تخبر

لخديو مع درويش باشا مندوب السلطان ان استقدم الخديو عمر لطفي الى القاهرة على قطار خاص وبعد ان فاضله طويلا مفاوضة سرية عاد عمر لطفي الى الاسكندرية في القطار الخاص . وهلك أدلة غير مباشرة على ان درويش باشا والشيخ أسعد حين وصلا الى الاسكندرية تسلم كل منهما هدية من الخديو فأخذ درويش ثلاثين ألف جنيه وأخذ أسعد تسعة آلاف جنيه وهذا المبلغان حصل عليهما الخديو من طريق رهن ممتلكات زوجته الخصوصية .

٨ — في يوم ١٠ يونيو أى في اليوم السابق ليوم الاضطراب حدث اجتماع في منزل درويش باشا بين درويش والشيخ أسعد أحمد رسول السلطان من ناحية وعرابي ومحمود سامي من ناحية أخرى ولكن هذا أول اجتماع بين درويش وعرابي . وكانت مقابلة درويش ودية جداً وقد طلب من عرابي أن يتخلى له عن قيادة الجيش باسم المصاحبة العامة وأن يوافق على الذهاب الى الاسكندرية . وقد وافق عرابي على هذين الطالبيين بشروط أهمها ان يحجج درويش باشا كتابة من عهد المحافظة على الامن وما تبعه من المسئوليات . وقد وعد درويش باشا ما جاء هذا الطلب على أن يسلم امرأى الوثيقة المطلوبة يوم الاثنين ١٢ يونيو بدعوى أنه سيمقد اجتماع بين الخديو والتماسل في ذلك اليوم وهكذا مكرت مسألة التخلي لدرويش عن قيادة الجيش الى يوم الاثنين أيضاً .

٩ — حدث في اليوم نفسه وهو اليوم التالي ليوم عودة عمر لطفي الى الاسكندرية أن استدعى هذا قنديل رئيس البوليس ليتفق معه على تدبير اضطراب سبقي ساعتين وقد كان قنديل مربصاً أو مجارفاً ولكنه أتى غير أنه لم يشأ ان يورط نفسه في المسألة فعاد الى منزله ولزم فراشه تاركاً قيادة البوليس لحسن بك صادق . وليس ثمة أدلة على أنه كان في النية عمل شيء غير اضطراب ساعتين اثنتين . والراجح انه لو سلم عرابي بمطالب درويش بلا شرط لكان التدبير قد اتى أو لكن الاضطراب قد وقع في أول لحظة بواسطة الحد الظاهري الذي كان يستخدم حينئذ باسم السلطان وهنا يجب الا ننسى ان البوليس والمستعظمين كانوا تحت قيادة عمر لطفي وهو الذي كان يتقدم مرتبائهم وانه ما دامت لم تكن قد أعلنت حالة حصار فلم يكن في الطاقة

أن يتدخل جنود الجيش في المدينة الا بناء على أمر مكتوب موقم عليه من المحافظ أما المحافظ فلم يكن مسؤولاً قانونية الا امام الخديو لانه منذ استقلال محمود سامي لم يعين وزير الداخلية .

١٥ - حدث يوم ١١ يونيو يوم الاضطراب بالذات ، ان استأجر مائطي حجاراً ( وقبل مركبة في بعض الروايات ) وسعد ان طاف على محال الشراب في الاحياء الاوروبية وقف عند مشرب « القرار » ثم أخذ ينشاجر مع المكشوي أو السائق وهو مصري مسلم يدعى سيد العجان على الاحرة فلما تبعه هذا الى المشرب طعنه المائطي بسكين فاصى هذا الى تعميم المشاحة واتساعها ولما طلب الى البوليس ثم الى المستحفظين بعد ذلك ان يتدخلوا أبوا أو اهم تدخلوا ليضيقوا ضيقنا على ابالة ثم أطلقت النار من منزل يسكنه مالطيون على الجمهور في الشارع ثم جاء جماعة من المسلمين اكرم برابرة مساجين بالعصي من الحي الوطني في المدينة ودخل البدو الذين تقدم ذكرهم في المدينة أيضاً واشتركوا في الشجار وهكذا تحولت الحادثة الى معركة عمومية وقد اهتم القنصل الانجليزي الذي وصلت اليه رسالة من لطفي عمر وضرب - ولم يحضر عمر لطفي في اول الامر الى محل الحادث فلما جاء في نيابة المدينة ولم يفضل قط شيئاً من شأنه ان يقف الهياج لابل انه قد سمع بمحض بعض البدو على الضرب ولم يخطر عمر لطفي حتي العصر السلطات العسكرية ولا هو أرسل الانباء الي عرابي في مصر ولكن تبادلت تفرقات كثيرة بينه وبين الخديو . وقد أمره الخديو في تفراف من هذه بالأستخدام الحد النظامي . ولكن اقترح عليه ان يقف الاضطراب الذي كان قد تحول الى مذبحه مستعيناً بام آلات الاساطيل الاجنبية الراسية في مياه الاسكندرية . وهكذا لم ترسل رسالة الى سليمان سامي قائد الجنود الا بعد الساعة الرابعة ولم تكن الرسالة التي أرسلت بعد ذلك مكتوبة ، الامر الذي أدى الى تأجيل التداخل العسكري وقتاً آخر . على ان أغرب من هذا كله ان طلب تدخل الجنود على الا يكونوا مسلحين ، وأخيراً أرسل سليمان سامي الجنود مسلحين على مسئوليت في الساعة الخامسة وقع الاضطراب .

١٦ - حدث بعد ظهر يوم الاضطراب ان أقيمت الافراح في قصر الخديو

وفي الديوان نفسه وصرح علناً فيها أن عرابي قد هدم . وهناك أدلة حجة على هذه الافراح التي أقيمت في السراي وعلى ما وقع فيه الوطنيون من الاضطراب والخيرة ولم يدع عرابي الى التدخل في الامر الا حوالي الساعة الخامسة تقريباً

١٢ — لم يتحدث بعد يوم ١١ يونيو تحقيقات جديدة عن أسباب الهياج رغم الحاح عرابي المتتابع في شأنها . وثبت ان الخديوي كان يستعين ببعض القناصل كما انه من المعروف ان بعض الاوروبيين لعب دوراً في المراحل الاولى من الهياج ، وانه حينما تولى راغب رئاسة مجلس الطار وبعد التهام الطاهري بين الخديوي والحزب الوطني ممح بأجراء تحقيقات ولو أن المسألة كانت قد عرفت تماماً .

١٣ — لم يتحدث تحقيق علني ولا محاكمة مع كل من عمر لطفي وحسين بك صادق ( الذي كان يتولى قيادة النوليس بالنيابة في يوم الهياج ) بل على العكس من ذلك أعطيت أجازة لعمر لطفي من الخديوي عقب الحادث بقليل وكان على وشك مغادرة القطر المصري حينما أطلقت النيران على الاسكندرية . وانه كان بعد ذلك يقابل بالترحاب في السراي ثم منح المنصب الذي كان وعده به في حالة سقوط عرابي وهو مركز نظارة الحرية الذي يتربع فيه الآن ويستمتع بكل ما يحوطه من الأبهة والشرف .

## تقرير احمد بك رفعت

الذي كبه سنة ١٨٨٢ وهو في السجن

عرفت أسباب حادث ١١ يونيو وعرفت المساعي الاخرى التي بذلت لاحداث مثله بفرض اسقاط هية مجلس الطار الوطني وضباطه والحزب نفسه الذي كان يدبر دفة السياسة في ذلك الوقت في أعين الدول الاوروبية .

وحيثما نشأ الخلاف بين الخديوي ووزارة محمود سامي ( وذلك قبل الانذار ) جرت في القاهرة اشاعة فخواها ان الخديوي سيعمل بواسطة بعض أتباعه على اثارة مذبحه في القاهرة — حتى ان محمود سامي ( وزير الداخلية حينئذ ) وهو بمنزل عمر

بك رحى في ليلة من الليالي وصلت الى مسامع هذه الاشاعة فدعى اليه حكمدار البوليس في الحال وأمره أن يذهب على فوره ويزيد قوة الغفر الليلية وأن يعمل كل ما في جهده لحفظ النظام وخرج الحكمدار في الحال ونفذ الاوامر . وأسمرت الوزارة طول مدة بقائها في الحكم ساهرة على منع تحقق هذه الاشاعة على وجه خاص وحينما رأى الحديوى أن خطته في هذا السبيل غير مكللة بالنجاح دعى اليه ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب منه أن يجمع مشايخ البدو ورؤساء القبائل وأن يحصرهم اليه . وحدث ذلك فعلا . وحينما مثل الاعراب بين يديه قالهم بترحاب عظيم ووعدهم بعود جمة وأهم المدير أن يأمرهم بجمع ثلاثة آلاف رجل من الاعراب وأن يحصروهم الى العاصمة عن طريق الجزيرة — وأمله من ذلك أن الاعراب قوم لا نظام عندهم ولذلك فالاضطرابات تنشأ في المدينة بوصولهم ويعكر صفو السلام وينسب كل ذلك الى الجيش . وكان رأى ان الاعراب تدخل كهراس للحدوي . ومضى شهر ومشايخ الاعراب يروحون ويبحثون دون أن يتمكنوا من جمع هذا العدد الكبير واحضاره الى القاهرة وسبب ذلك خوف هذه القبائل من جنود الجيش وحينما فشل الحديوى أيضا في هذه الخطة كتب تلغرافات بالشفرة الى عمر لطفى وكان حينئذ حاكما لمدينة الاسكندرية وأخبره بما يأتي « ضمن عرابي الامن العام وأعلن عن ذلك في الصحف وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل . فاذا نجح في حفظ الامن فلا بد من أن تضع فيه الدول ثقتها وعندها يضع مالنا من اعتبار . أضف الى ذلك أن أساطيل الدول في مياه الاسكندرية والحواطر منهجة عليك الآن أن نختار لنفسك : أما ان نخدم عرابي في ضمانته للامن وأما أن نخدمنا » وسرعان ما ذاعت أخبار هذا التلغراف على اللسان وقيل حينئذ أنه من أحد موظفي مكتب التلغراف بالسراي .

وفي يوم الحادث ( ١١ يونيو ) ذهبت الى ديوان السراي أو للمعية ( كما نسميه نحن مكتب مدير البلاط ) ووجدت موظفي السراي في سرور وفرح عظيم لما قد حدث . وكانوا يتحدثون عنه ويبالعون في أخباره ويهزأون بعرابي وبضمانته في حفظ الامن .

و كانت العادة المتبعة مند الحديوى السابق أن موظفى السراى لا ينتقون الا ما يرضى مولاهم . وفى كل يوم يتحدثون بما يصل اليهم من الاخبار وكانوا يهشون بفرح ان كانت موافقة لهوى الحديوى ويتظاهرون بكل ما يملكون من مظاهر الحزن ان كانت غير ذلك .

وفى اليوم التالى لحادث انتشرت الاخبار فى القاهرة ان الحديوى أرسل تلغرافا لى عمر لطفي يأمره فيه بما يأتي : « اطلب المعونة العسكرية من الاميرال ولا تطلب حودا مصرية . » وأن عمر لطفي أجاب على ذلك بقوله « أن الاميرال غير موافق حشية أن يحدث شي . آخر من الحنود فى المدينة مما يكون من الصعب تلافيه . »

وحينما كنت فى الاسكندرية بعد الحادث باثني عشر يوما سمعت جميع الاهالى يقولون بلسان واحد ان المحافظ ( عمر لطفي ) هو الذى ترك الحادث يصل الى هذا الحد لانه كان هناك ولم يصدر أى أوامر معها كما انه لم يشرحه الى مكان الحادث لا بعد مرور بضع ساعات . وأنه لم يستدع الحنود النظاميين مع انهم كانوا على مقربة من المكان وقالوا أيضا ان هذا التصرف كان بتخريض الحديوى . وسمعت منهم أيضا انه عند انتهاء المذبحة كان المحافظ ( عمر لطفي ) ينتقل من مكان الى آخر وان احد الاوروبيين كان مطلعا من نافذة ويده مسدس فقال احد البدو للمحافظ « هل اطلق النار على هذا الرجل يا باشا » . فأجابه « نعم اضربه » . فاطلق الاعراب عليه رصاصة وقتله . وقالوا ان كثيرا من الاموال المسلوقة فى هذا اليوم الاسود دخلت بيته وبيت أقاربه .

وسمعت من الاهالى فى الاسكندرية أيضا ان ( عمر لطفي ) كان يحرض بعض الناس أثناء المذبحة بكلمات تشجيع وأنه كان يعمل اشارات لرجال البوليس مغزاها ان لا يهتموا بشي . ويقول « سيوم يموتوا ولاد الكلب » . وقبل الحادث ذهب حيدر باشا مرتين الى الاسكندرية وكان يعود فى كل مرة الى القاهرة وأنه فى يوم الهياج كان موجودا بالاسكندرية وحينا اتعنى عاد الى مصر . ورحل بعد ذلك مع الحديوى فى زيارته للاسكندرية .

وحينما الفت القلم للبحث فى أسباب الهياج لم يوحه أى سؤال الى عمر لطفي .

بل على العكس من ذلك أوعز اليه أن يستقبل بحجة المرض وان يقول انه يريد الذهاب الى أوروبا للاستشفاء. وبعد تنفيذ ذلك استمر متقلبا بين مصر والاسكندرية الى أن أعلنت الحرب وعدها استقر بالاسكندرية وأصبح (أو عين) ناظراً للحرية. وكان عرابي في أثناء ذلك كله عاملاً جهده للمحافظة على تحقيق ضيائه للامن دائم المرور في طرقات القاهرة أثناء الليل ليتنقذ بنفسه البوليس وأرسل أوامره لجميع الأنحاء ان يسهروا على حفظ الامن .

كان عمر باشا لطفي حاكماً لمدينة الاسكندرية أثناء الهياج وكان هو الشخص المسئول قانوناً عن الامن ولكنه أهمله اهمالاً تاماً ان لم يقل انه عمل على زيادة الاضطراب فاذا كان ذلك الاهمال بناء على أوامر عرابي — كما يدعي عمر لطفي مع ان صلاته في مركزه كانت مباشرة مع الحديوي من يوم ان أصدر الحديوي مرسوماً يقول انه بعد استقالة سامي من وزارة الداخلية يكون مرجع جميع شئوننا الى السراي — فكيف عين ناظراً للحرية ام هل كان ذلك مكافأة له على اطاعته لاوامر عرابي ولخفافته لاوامر سيده الحديوي ؟ واذا كان الاهمال من عند نفسه وبدون اعزاز فكيف انه مع هذا الاهمال والعجز بعين ناظر آ للحرية ؟ وكيف انه لم يوجه اليه سؤال واحد مع انه اول شخص يجب ان توجه اليه الاسئلة ؟ والحق ان يجري الحوادث ينبغي في بيان واصح على ان الحديوي بالانضمام الى عمر لطفي هما سبب هذا الهياج ؟

وقد لعب الحديوي دور الدسائس نفسه في السودان واعتاد ان يكتب الى الحاكماً هناك ان لا يأبه بتقديم المهدي رغبة منه في زيادة الاضطراب . وكانت التلغرافات التي ترسل الى السراي من حاكماً السودان غير هذه التي ترسل الى ديوان الحكومة . وفي اليوم الذي أرسلت فيه الاخبار الى ديوان الحكومة بان المهدي قتل احتشدت السراي ان تنفي هذا الخبر وكان الحديوي يتضرع من أي انسان يمنح في حديثه الى الهدوء ونشر السلام

وحينما كان الحديوي في سراي الرمل بالاسكندرية أثناء الحرب كان الاعراب الذين قدموا أنفسهم اليه لاثارة القلاقل متجمعين حول القصر . وهم الذين نهوا وحرقوا الاسكندرية وارجعوا المهاجرين من أهالي البحيرة وسلبوا أمتعتهم واحترقوا

على هذه الحال الى ان عزل المدير الذي كان بشخصهم وعوقب كثير منهم حتى امتنعوا خوفا من الجنود الذين وصلوا الى المدينة واحتلوها  
هذا ما أعرفه عن الحادث ولو كنت خارج السجن لاثبتته بشهود لا يمكن دحضهم بحال من الاحوال .

## تقرير الشيخ محمد عبد الله

الذي كتبه وهو في منفاه بسوريا عام ١٨٨٣

قبل حادث ١١ يونيو مايا م قلائل أعلنت جريدة المحروسة ( وهي جريدة تعبر عن رأي عمر لطفي ) ان الاوروبيين في الاسكندرية يعملون استعدادات حرية . ولم تعلن ذلك لاهالي الاسكندرية فحسب بل للقطر المصري بأجمعه وعينت في الوقت نفسه عدد الذين يسلحون أنفسهم .

وقد دفعت غرامة الخبر - اذ لم يكن هناك أى داع لهذه الاستعدادات - بعض الاعيان الى سؤال أحد محرري الجريدة عن الامر - فقال انه أمر بنشره ولكنه لم يبع باسم الشخص الذي أرسله اليه .

وقد ذهب يعقوب سامي ( وكيل نطارة الحرية ) الى الاسكندرية قبيل الهياج بمدة خمسة أيام ليستقبل درويش باشا . وحينما وصل الى هناك سمع ان تلغرافا من القاهرة يقول ان الخديوى ذبح وحينما بادر الى السؤال بالتلغراف من القاهرة عن حقيقة الامر أباهوه ان الخديوى قتل حقيقة وان العاصمة في هياج والمذابح قائمة ضد الاوروبيين . فأرسل تلغرافا ثانيا وهو في حالة شديدة من اليأس والذهول الى مكتب قصر النيل فاستلم رداً ماقصداً للاخبار التي سبق له سماعها وتبين فيما بعد ان هذا الخبر المكذوب أرسل من مكتب الازبكية بالقاهرة وقصد به إثارة الخواطر بالاسكندرية ولكن وجود يعقوب سامي هناك حينئذ أخر الهياج الى زمن آخر .

وقبل الاضطراب الحقيقي بيضة أيام شوهدت حركة غير معتادة بين الاوروبيين في الحى المجاور للميدان الاكبر ( ميدان القناصل ) وقد وجه احمد افندي نبيه رئيس



بوليس الناحية انظار الضبطية والمحافظة اليها بدون أى جدوى . وكذلك قدم طاهر افندى الكردي من ضباط البوليس تقريراً عن معلوماته الخاصة عن هذه الحركة ولكن عمر لطفي لم يتخذ أى احتياطات .

بل ان عمر لطفي نفسه كان من أهم الشخصيات الظاهرة التي اعتادت حينئذ على عمل الولايم لرجال الحرية حيث كان يدعى الخطباء الى منزله وهناك كانوا يحضون على اعتناق مبادئ رجال الجيش . فهو الذي من لغيره الخطة وتبعه كثيرون من ذوي الجاه والنفوذ في عقد مثل هذه المجتمعات وكان هو أهم من يدعي اليها . وكانت هذه المجتمعات تطرق بالخطباء والمصحفين والاجانب وغيرهم . وكانت تلقى الخطب على مسمعيه دون ان يظهر أقل إشارة تدل على رغبته في منها . وأول شيء سمعته في سبيل هذا المنع كان تصريحه الذي نشر بعد ذلك .

ولكن سعادة المحافظ عاد أخيراً وادعى ان الهياج تسبب عن خطابات نديم مع ان خطابات نديم في ذلك الوقت كانت تعتبر من المسكنات لانها كانت تدعو الناس الى عدم الاشتباك في مشاجرة حتى ولو أسيت معاملتهم أو ضربوا بواسطة أوباش الاوروبيين منها أيام ان تلك هي الغاية التي كان يرمي اليها الخصوم لاصطلاح الانجليز حجة بتسكنون بواسطتها من اطلاق النار على الاسكندرية . وهناك كثير من الاعيان يشهدون بذلك والحقيقة أيضاً ان نديم لم يكن في الاسكندرية عند حدوث الهياج بل كان في القاهرة .

بدأ الهياج عند الساعة الواحدة بعد الظهر في شارع ابراهيم على مقربة من مركز البوليس بين وطني اسمه العجبان وآخر من الجنسية المالطية ضرب الاول والقاء الى الارض مدرجا في دمائه . وحينما أراد شقيقه ان يستعين ببوليس ايطالي لقبض على المعتدى لم يكن من هذا أيضاً الا ان ضربه واساء اليه وعندها قابل هذا الشقيق أعمال البوليس الايطالي بالمثل . وتجمع الناس وأصيب أحد رجال البوليس بضربة من شقيق المعتدى عليه . وكان رجال البوليس من القلة بحيث لم يتمكنوا من تفريق المتجمهرين ولكن لم تكن الى هذا الوقت قد وجدت مشاغبات بمعنى الكلمة الى أن أطلقت أعيرة نارية من النوافذ بواسطة فريق من الاوروبيين .

وقد هاجم نفر من الاوروبيين المسلحين بعض أوياش الاسكندرية الذين قابلوا ذلك بجمع كل ما وقعت عليه أيديهم من عصي ومظلات وكراس من الخواتيت وقوائم الطاولات وغير ذلك ولكن سعادة المحافظ لم يخف الى مكان الحادث الا بعد ساعتين ونصف من ابتدائه . وعندما أرسل القنصل الانكليزي المستر ككسون لكي يلحقه الى هناك بدون داع نعرفه لهذه الدعوة . وما كان من القنصل الا أن حضر وأخذ يشق صفوف الجماهير المحتشدة معرضا حياته للخطر .

ولم يادر عمر لطفي حينئذ الى دعوة هذا الفريق من البوليس الذي كان تاهأا للضبطية وخاضعا لأوامره الخاصة . ولم يكن له علاقة ما بنظارة الحرية اذ كانت مرتبته وأنظمتها كلها في أيدي الادارة دون سواها . وحينما اضطر أخيراً الى دعونه ( البوليس ) طلب اليهم ان يحضروا غير مسلحين مما أدى الى اقتناءهم من المحافظ يرغب في زيادة الاضطراب . ولذلك حضروا الى مكان الحادث بهذه الروح وعلى هذه العقيدة واشتركوا مع الرعاع في القتل والنهب وكانوا يرسلون ما تطفربه أيديهم الى بيت سعادة المحافظ .

وحيثما رأى المحافظ ان الحالة أصبحت من الخطورة بحيث أن مسؤوليته الجنائية محققة أرسل في طلب الاسلحة وأمر أن ترسل في عربة من عربات الحكومة . ولكنها لم توزع على البوليس الذي كان قد نشئت حين وصولها .

ولقد كان معسكر الجنود النظامية على مقربة من الحادث ولكنه ترك أربع ساعات طوال ثم دون أن يهم بدعوتها وحينما أرسل في دعوتها كانت رسالته شفوية غير قانونية تخاف رئيس الفرقة مصطفى عبد الرحيم من التسولية وأرسل يطلب ان يكتب اليه الطلب بالطريق الرسمي المعتاد . وحينما أرسل هذا الطلب خرجت الجند وفرقت الجماهير وأعادت الامن بشهادة جميع قناصل الدول الاجنبية أنفسهم .

وكان يقصد المحافظ من اهمال الانظمة والاصول العسكرية ان يطول الجدل بينه وبين قائد الفرقة وبذلك يساعد نيران الاضطراب ان تمتد وتنتشر . وقد قيل ان سماعته كان يحرض الناس على النهب وحين سئل عن ذلك بواسطة أحد من

وصلتهم الاشاعة قال « نعم فعلت ذلك لكي أحول أنظار الجماهير عن القتل » يا الله  
السماوات أنها سياسة رشيدة حقاً !

وفي أثناء الهياج طاف احد خدم المستر ككسون القنصل الانجليزي على  
الاوروبيين وحرصهم على التقدم وان يشاربوا على الصال .

وحينما كان المحافظ وقائد القوات العسكرية ووكيل الصبغة جلوسا في ديوان  
الحاكم المختلطة بعد المغرب ساعة واحدة وصل اليهم خبر غزاه ان عربية مملوءة  
بالاسلحة كانت متجهة الى دار القنصل الانجليزي . وبينما قابل المحافظ هذا الخبر  
بدون أى اهتمام قام قائد القوات العسكرية وأوقف العربية وأمر غ ما بها في ديوان  
الصبغة .

وحينما تبين لقائد القوات العسكرية الموجودة في « باب شرقي » ان عمر لطفي  
نفسه يمرض على الاضطراب ثم بالقبض عليه . ولكنه لم يتمكن من ذلك بما أن  
القطر لم يكن تحت الاحكام العرفية حينئذ ولذلك انتظر حضور وكيل نظارة الحرية  
يعقوب سامي لكي يقضي اليه بمحققة المسألة . ولكن فكرة القبض قد تلاشت حين  
وصوله الى الاسكندرية

وحوالى الساعة السابعة مساءً وصلت أخبار الى الاميرالاي مصطفى عبد الرحيم  
أن قواربا تسرع الى الشاطي . وعليها جنود بريطانية بقصد ابصالحهم الى البلدة .  
وفي الحال أخطر المحافظ الذي استبعد ذلك كل البعد ولكنه لم يقع وتوجه الى  
القنصل الفرنسي الذي راقه مع فريق من الضباط وشرذمة من الجند الى شاطئ  
البحر . وهناك نأكدوا من صحة الخبر وتوجهوا نواً الى القنصل الانجليزي وبعد  
شيء من الجدل صدرت الاوامر الى القوارب بالرجوع ثانية بمن عليها .

ولقد احتج أغلب من قبض عليهم من المتهمين في اليوم التالي للقبض مباشرة  
بأن الذنب ليس ذنبهم فقط بما أن سعادة المحافظ نفسه أمرهم بالنهب والاعتداء . ولو  
أنه حصل تحقيق في هذه الايام القلائل الاولى لاحتصرت الشبهة بناء على أقوال  
الاغلبية الساحقة من المتهمين في شخص المحافظ . ولكن الاميرال سيمور .

يسمح بمثل هذا التحقيق لتلاشي السبب الذي اعتمد عليه في اطلاق النيران على الاسكندرية.

ولقد كان عند السيد قنديل أوراق تبين كيف ان الامر نظم بواسطة المحافظ والهندوى ودبر بالاتفاق فيما بينهما ، وحينما قبض عليه أجبر على تسليم هذه الاوراق ومع ذلك لم يوجه أى سؤال الى عمر لطفي بل على النقيض من ذلك رقي الى أعلى مراتب التولية .

وحيثما قامت المذبحة في ططا ذهب ابراهيم باشا أدم مدير الغربية الى بناء الحكومة وجمع بقية الموظفين والكتاب والسكرتيرين وأغلق عليه وعليهم الابواب تاركا الاهلين وما يفعلون وبذلك انتشر الاضطراب وكان لابد أن ينتشر أكثر من ذلك لولا ان أحمد بك المنشاوى وأخاه — ولم يكونا من موظفي الحكومة — أخذوا الاضطرابات وأخذوا ارواح اليهود والمسيحيين والاغنياء من الرعاع ومهاجري الاسكندرية . ومع ذلك لم يسأل هذا المدير أيضاً عن شيء وأعيد الى وظيفته بعد الحرب ... ألا فلي سجل الله عنده في أم الكتاب وزر من كانوا سبباً في اراقة هذه الدماء !

وفضلا عن ذلك فان من بين الاحكام التي أصدرت في هذه الايام حكم صدر من محكمة الاسكندرية العسكرية ضد عبد الرزاق علوان وكيل مديرية البحيرة أثناء الحرب قاضيا بنفيه خمسة عشر عاما الى « مصوع » وذلك لمعاومته ومخريضه الثوار في دمنهور وبعلم الله وكل انسان يعرف كيف أنه عرض حياته للخطر في سبيل خدمة الناس والمحافظة على أموالهم . والسبب الحقيقي في هياج دمنهور هو ابراهيم بك توفيق المدير — الذي رغم فصله من وظيفته في اليوم السابق على الهياج ، عمل على تنفيذ خطته قبل ان يستلم المدير الذي عين بدله أعماله — ومع ذلك أعيد الى منصبه في مديرية البحيرة عقب انتهاء الحرب . وقد أخذ هذا الرجل أيضا ما يقرب من الاثنى عشر ألفا من الجنيئات رشوة من الاهالى . وعلى العموم فما عمله من سيئات كان يستلزم زمنا طويلا لاصلاحه

وانى اعتقد ان الحكومة الانجليزية كانت مستعدة أن تعفو عن أى جريمة ارضا.

للمحتفي بها، الحباب العالي الحديوى . ويظهر ان مهمة « اعادة النظام » التي تتلقاها الآن الحكومة الانجليزية تنحصر في تجسيم مطلع سموه واثارة رغبته في الانتقام هو ومن حوله . مضحية في سبيل امواتهم جمهور الاهلين البانس . وتمتدق انه من الممكن ابهانتا على لسان الصحف ان اعادة النظام ونشر لواء العدل كان بفضل الحديوى ونظاره والجيش الانجليزى .

ولست هناك أية حاجة لسؤال المصريين عن مبلغ الآلامهم . اذ يكفي في ذلك أن نصت الى تأوهاتهم وأحزانتهم .

## تقرير عرابى

حقيقة حوادث ١١ يونيو عام ١٨٨٢ التى وقعت بالاسكندرية

ان حزب السراى المكون من الأتراك والشراكسة عدو للانسانية فهم يعتقدون ان الله القدير لم يخلق المصريين الا ليكونوا عبيد آلهم وخدامهم الذين يتخونهم آله لنشر سلطانهم المطلق تبعا لما توحى اليهم أهواؤهم وهم في كل ذلك يعاملونهم بقسوة واحتقار . وحينما رأوا ( الاتراك والشراكسة من حزب السراى ) ان مجهودات الحزب المصرى بدأت تؤتى ثمرها وان فريقا نابها من بين هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيدهم قد خطوا خطوات شاسعة الى الامام وأصبح منهم وزراء يجلسون معهم على قدم المساواة فى مجالسهم المقدسة وان سواهم من ذوى المواهب قد ارتفعوا الى مناصب رفيعة من مناصب الدولة وأن الامة بدأت تستنثر الحرية . وتخلع عن أيدبها اغلال الاستعباد وان كل ذلك يحدث فى جو من الهدوء والسكينة — كبر ذلك جدا فى أعين خصوم المصريين وتبين لهم ان لاسبيل الى وضع الراقيل فى سبيل التقدم المصرى الا بأثارة حملة وحشية ذنينة ضد أوروبا تحملها على اتخاذ تدابير فعالة لاطفاء جذوة المصريين التعلطين واخراجهم من وطنهم — اذ اتهم يولوجهم هذه الغاية بخلوهم الجولا اعادة عهد الاستعباد فى مصر — ولذلك اتفقوا فيما بينهم ( حزب السراى ) على تنفيذ هذه الخطة مستخدمين العيان الذى كنت أعطيه

للأوروبيين عن سلامتهم وحفظ الأمن في جميع أنحاء القطر المصري (وهو الضمان الذي جعلني الحديوي أعياه في حضرة درويش باشا مندوب السلطان وجميع قناصل الدول الأوروبية) وأخذوه وسيلة لتنفيذ مؤامرتهم — حتى يتمكنوا بذلك من تشويه حركتنا في نظر الأوروبيين . وأدلة ذلك هي :-

أولاً — أرسل الحديوي الى عمر لطفي محافظ الاسكندرية أن يحضر اليه بقطار خاص في ٩ يونيو عام ١٨٨٢ . حين وصوله دارت بينهما محادثات طويلة زوده فيها بمعلومات خاصة بتنظيم الاضطراب في الاسكندرية وفي اليوم نفسه عاد عمر لطفي وبدأ في تنفيذ الخطط المتفق عليها حتى انه في ١١ يونيو (أى بعد أخذ المعلومات من الحديوي بيومين اثنين فقط) انفجر الاضطراب — ودليل ذلك هم جنود البوليس أنفسهم — الذين ارتكبوا أغلب جرائم القتل أمام باب رئيس البوليس وباب الضبطة . ولم يقم جنود البوليس بواجبهم على خلاف المعتاد ولم تحضر الجنود الى مكان الحادث الا بعد أن تلقاها الخطب وحينما حضروا كانوا كائنظارت مدون سلاح — وذلك على خلاف ما يقتضي به واجبهم — وفي أثناء كل هذه الحوادث كان المحافظ وقائد الجندمة اساميل كامل باشا الشركي يراقباتها من أولها لآخرها ومع ذلك لم يتحركا الى استدعاء الفرق (الجنود النظامية) — لاطفاء الفتنة الا بعد ان وصلت الى ذروتها ونفذت أوامر الحديوي السرية ولو انه كان في استطاعتها أن يستدعيا الفرق في الحال اذا أرادا

ثانياً — لم يعطى عمر لطفي أى معلومات عن هذا الحادث مع انه يعلم انني أخذت تحت مسئولتي وبضمانى حفظ الأمن والسلام في جميع أنحاء القطر وأن بياننا بهذا الشأن أعلن بواسطة الحديوي ونشر في جميع الجرائد العربية والانجليزية .

ثالثاً — أن عمر لطفي بعد أن صنع كل ذلك — اذ هو المحافظ المسئول عن كل ما يحدث في المدينة — عين رئيساً للجنة التحقيق في الحادث المحزن ثم طلب الأذن بالسماح له بالسفر الى الخارج لتبديل الهواء ولم يتأخر الحديوي عن اجابته الى هذا الطلب . وبعد ذلك اعتزل العمل ولكنه بقي في القطر لاعمال خاصة به الى أن قامت الحرب وعندها ذهب الى الحديوي في الاسكندرية عن طريق بور سعيد

وعين حينئذ ناطراً الحرية . وكذلك فعل زميله اسماعيل كامل باشا الذى عين فيما بعد وكيلاً لمظارة الحرية — كل هذه أدلة بيّنة على أن الهياج دبر أو نفذ بواسطة الخديوى بالاشتراك مع عمر لطفي باشا واسماعيل كامل باشا وبقيّة خصوم المصريين وذلك رغبة منهم في إثارة الاوروبيين ضدهم .

## تقرير أحمد بك رفعت

المقدم لمسنر بلنت من تونس في عام ١٨٨٣

لا يزال يوجد أُناس عندم الحرّة الكافية أن يقولوا ويكتبوا أن الحزب الوطني المصري ورئيسه مسئولون عن حوادث ١١ يونيو المشنومة بل أنّ بعض الكتاب لا يتردد في ذكر أسماء ممينة وزعم أن أصحابها هم المحرضون على ما حدث في اليوم المشنوم وذلك رغم ما أظهرته التحقيقات الأخيرة . وذذهب بعضهم وهو يحاول أن يشرح الحوادث ويحراها أن يعين الفرض الحقّقي من الهياج فكان في شرحه متناقضاً حيث يقول « رغبة في القاء اللوم في بحيلة الباشا التركي ( درويش باشا ) من ناحية ومن ناحية أخرى في التعظيم من مركز عرابي الممتاز الذي اعتبره القاصل مسئولاً عن الأمن العام عند الثوار الى تدبير اضطراب بدون تحديد لطبيعته أو شكله يتخذه عرابي بعد ذلك بمجرد دفع يده » .

ونصفني سكرتيراً عاماً للحكومة المصرية في عهد عرابي ولائماً بأحوال بلادى وأحوال رجالاتها أراى مضطراً لخدمة للحقيقة والوطن أن أبسط هنا المعلومات والشواهد التي تدحض هذه الاباطيل دحضاً نهائياً . واني أعطيك هذه المعلومات التفصيلية بسرور عظيم لعلمي بأهليامك الدائم بمصير هؤلاء المصريين الذين كلن ذنبهم أنهم أحبوا بلادهم ودافعوا عنها . كما أنّي لم أخف أن أقدم هذه المعلومات إليكم كنت سعيداً مع عرابي ورأيت بعيني رأسى رجالاً يسدون لها مفخرة أن يسبوا هذا الرجل الذي كان دمرراً لمستقبل بلاده والذي لا يزال في صدقه وحرية ضميره كذلك الى الآن .

في يوم الاحد ١١ يونيو كان القومسير النماني درويش باشا ممنطياً عربته في الشارع المؤدى من سراي الجزيرة الى كوبرى قصر النيل . وكان حينئذ قد عقد اجتماعاً طويلاً في قصره الخاص مع عرابي باشا وجميع الظار السابقين ومتوحداً بعده الى سراي الاسماعيلية حيث يقم الحديوى لكي يعرض على مسامحة تفاصيل ائتلاف اتفق عليه والذي الى حد قولهم كان يوفق بين الحديو الصغير الجالح وبين نظاره . وحينما وصل درويش باشا الى الكبرى قابله طلعت باشا سكرتير الحديوى الخاص الذى كان مرسل اليه من قبل سيده ليخبره عن حدوث هياج في الاسكندرية وانه لا يزال مستراً منذ ثلاث ساعات وان الادويين والمسيحين يذبحون في كل مكان . وكانت تلقى هذه الاخبار لدرويش باشا في هيئة الانتصار اذ ان وجعلت باشا كان مشرفاً يأتى . وكأنما أراد أن يقول بذلك ان عرابي الذي عمل من أجله كل ما عمل هو سبب هذا الهياج . والحقيقة ان عرابي كان قد تعهد في محضر من جميع القناصل أن يحافظ على الامن العام وان يسيده اذا ما اضطرب أقل اضطراب . والآن هاجم الحوادث تكذبه وللدجاج دائرة منذ ثلاث ساعات وهو عاجز عن ان يضل شيئاً لاعادة النظام . ولم يكن هناك شئ . أسعد ولا أسر لانصار الحديوى من ذلك . وكلت جل أملهم أن يسحق عرابي باشا ولو سحق في سبيله السلم المسمى نفسه . وما كان من درويش باشا حينئذ الا ان ارسل رئيس أركان حربه الذى كان معه في العربة الى عرابي . واذا كنت حاضراً في هذه المظلة فقد أفسحت مكاناً لرسول درويش باشا في عربتي وأخذته الى منزل محمود باشا سامى حيث كان يوجد عرابي حينئذ .

ولم نلبث الاخبار ان انتشرت في المدينة ففرع الناس وأسقط في يد عرابي وأصحابه . بينما كانت سراي الحديوى في افراح . وكان محافظ الاسكندرية يهيب رسل عرابي بأن الجيش قبض على ناصية الموقف وأعاد الامن الى نصابه وفي الوقت نفسه كانت الاشاعات المدهشة تنتشر بين الناس في الطرقات . . . فالبعض يقول وكأنما هو يصل في ذلك بناء على تعليمات خاصة ان عرابي أصدر أوامره باقامة المذبحة دون ان يعطي ايضاحات أخرى . ويقول آخرون بلهجة الرجل الاكثر اطلاعا ان



الحركة دبرت بواسطة رئيس النظار السابق محمود باشا حامى الذي يتولى قيادتها ولكن المتدبرين رأوا فى المسألة مؤامرة خطيرة ولو انهم لم يبدوا رأيا حاميا فى الموضوع، اذ انهم لم يعتقدوا ولم يتصوروا ان عرابي له علاقة بهذا الحادث لا مباشرة ولا بالواسطة .

ففى ٢٨ مايو اى قبل الحادث بأربعة عشر يوما أعلن عرابي الدول انه يتعمل تحت مسئولية الشخصية استتباب الامن والنظام . وكذلك أدرك عرابي واعلن ذلك مراراً فى صراحة تامة ان سلامة مصر تتوقف على استتباب النظام فيها . وكان يمارض دائماً فى انزال الخديوي من على العرش بحجة انه حامى الخديوي من مثل هذه الطوارئ . . وقد أراد بهاتين الظاهرتين أن يطمئن القناصل على حياتهم وأنفسهم وأن يهدى . خواطر الجماهير . فكيف يتأني لهذا الرجل نفسه فى لحظة هو أدرى الناس بخطورتها أن يسفه مبادئه ويعمل على قض ما وعد به ويظهر عجزه يديه ؟ ولو أن عرابي حقيقة كان يملك أن يوقف الهياج باشارة من يده كما يقول الكاتب سالف الذكر لكان لنا أن نقول كما يقول هذا الكاتب ان عرابي أراد ان يتظاهر بقوته ولكن ما الحكم اذا كان الخديوي لم يكلف نفسه حتى ابلاغ ناظر حرية بما حدث ولم يعلم عرابي باشا عن الحادث الا من طريق درويش باشا وكان ذلك بعد ابتداء الهياج بثلاث ساعات . فمن الطبيعي اذاً أنه لم يوقف ولم يتمكن أن يوقف الهياج باشارة من يده .

ولكن هناك حقيقة لاشك فيها وهي أن الحادث كانت له مقدمات تفي عنه وكان يدبر وينظم بمهارة تفوق الوصف . قد ثبت أن بعض المتدبرين السريين قاموا بتوزيع نايبت على الرعاع قبل حادث ١١ يونيو بيضة أيام قط . وان هذه « النايبت » ظهرت في أنحاء المدينة المختلفة دفعة واحدة وفى القنطرة التى قتل فيها المكلاى بواسطة المايطي لسبب تافه . وثبت أيضاً أن طائفة المكلايين — وكانت معروفة بالهدوء والسكينة ومحبتها « للقشيش » — لعبت دوراً خطيراً فى هذا اليوم المشنوم تحت تأثير هذه الرشوة الصغيرة وأن بعض الأروام والبدو كانوا مسلحين بالمدسات أثناء الهياج ومحتبين فى مخابى . يمازل معينة وغرضهم الوحيد

اشغال المذبحة باطلاق النيران خلسة على جماهير الاوروبيين والمصريين وثبت أن بعض المشايخ المتعصبين انطلقوا من مكان لا يعرفه أحد وأخذوا يحرضون الاهالى على ذبح جميع المسيحيين . وأن قوة البوليس التى أرسلها المحافظ فى الظاهر لتخمد الفتنة كانت تحجز الناس بجرابها بدل أن تحميهم وأن بعض المهاجرين البؤساء كانوا يقتلون علناً بواسطة رجال الضبط أمام أعين رئاسة البوليس ومعهم . وثبت أن البدو الذين حضروا الى الاسكندرية من البقاع المجاورة لها كانوا على وشك أن يقوموا بدورهم فى النهب لولا أن ظهرت قوى الجيش النظامية وأجبرتهم على التراجع ولو أن ظهورها كان بعد أربع ساعات من قيام الفتنة

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن أهم رسل هذه الفطائح والجرائم كانوا من الاروام والمالطين الذين لا يمكن اتهامهم بحال من الاحوال بالتعصب للاسلام ضد الاوروبيين وكذلك المكاريين الذين يتكلمون قليلا من اللغة الانجليزية والفرنسية ولا يظن أنهم يحملون بغضا او كراهية للاوروبيين وكذلك البدو الاعراب من اهالى البحيرة الذين قتلت عنهم شركة ووتر التلغرافية قبل المذبحة بقليل أنهم قدموا اقارهم بالولاء والطاعة لاعتاب الجناب الحديوى فى مظاهر فضحة خلافة

ومن جهة أخرى كان محافظ الاسكندرية يضر توايه فى ارسال الجيش الطامى لاختاد الفتنة بخوفه من انضمام الجند الى الثوار . ولكن معادته لم يضر لنا ولم يسأل بتاتا كيف أن خوفه هذا الذى استشره عند بدء الهياج قد تلاشى حينما اشتدت المذبحة ووصلت الى ذروتها .

ولكن الحقيقة فى كل ذلك والتى كان عمال التلغراف المتصلون بالسراى على استعداد الى بسطها هو أن مراسلات عدة كانت تتبادل بين محافظ الاسكندرية والحديوى عقب اندلاع الفتنة مباشرة وكانت كلها تدور حول ارسال فرق من الاسطول الانجليزى أو الفرنسى للتدخل فى الامر . ولقد كان الحديوى الصغير لمدة من الزمن ينتظر بفارغ الصبر نزول القوى الاحبية الى أرضه التى كانت مرسلة لتثبيت سلالته وأن يراها فى القاهرة نفسها وتقبض على عرابي وجميع الوطنيين ثم تعود ثانية الى بوارحها وهي تشدد شديد المجد لجنابه العالى . ولقد كان حدد

باشا ابن عم الخديوي في الاسكندرية في يوم الهياج وساعد كما قيل على ذبح المسيحيين البؤساء. وقد كان قبل ذلك يعقد اجتماعات طويلة لمدة أيام متتاليات مع الخديوي في « الحرم الملك » وكانت دائماً تقعد في المساء . ولم يلجأ المحافظ الى الجيش المصري ليضع حدا للمذبحة وذلك باتفاقه مع الخديوي الا بعد فشل مفاوضاته مع قواد البحر الاوروبيين لارسال قوى من قبلهم . وهذه معلومات لها قيمتها عند جميع هؤلاء الذين يسمح لهم مركزهم أو تسمح لهم معلوماتهم عن السياسيين المصريين أن يكونوا رأياً صائباً عن حوادث ١٩ يونيو .

وهناك مسألة باقية ليست حقيقتها معلومة للجميع . وهي أن محافظ الاسكندرية في وقت الهياج هو عمر لطفي وعمر لطفي هذا هو الروح الثانية لبراهيم المفتش صاحب الموارد والايرادات الصخمة والمفتش السابق لوجه القبلي الذي اشتهر بأعمال « كرواجه » في الاهالي . وكان تعيين عمر لطفي في عهد وزارة محمود سامي بناء على إلحاح وتوصيات الخديوي الخارة . اما عرابي باشا فقد كان شعوره الشخصي وما هو مولع به من الاستقامة ضد هذا التعيين وكان يشعر دائماً بقلق من جرائه . ولكن رئيس النظار حينئذ كان يثق في كفاءة عمر باشا لطفي الشخصية ويعتقد انه لا يجرؤ مطلقاً على خيانة الحزب الوطني ولو انه لا ينتمي اليه وفي الوقت نفسه كان يرى في هذا التعيين ارضاء للخديوي ( وذلك قبل وصول القوى الاجنبية ) الذي كان دائم التضجر مستمر الإلحاح في هذا التعيين ويقول أن الاسكندرية في حاجة قصوى الى محافظ نشط قادر على حفظ الامن بها — وقد تنجح في الحصول على موافقة مجلس النظار على هذا التعيين . وفي اليوم الثاني للمذبحة حصل عمر لطفي على اجازة غير محدودة المدى من الخديوي وأعد معداته للإبحار على أول باخرة تقوم من الميناء . وقد كونت ثلاث لجان بالتتابع للبحث في أسباب الحادث واكتشاف المجرمين الحقيقيين ولكن لم تنجح واحدة منها في مهمتها ولم يصلوا الى نتيجة ما بل ان لجنة التحقيق بالاسكندرية حينما عاقبت أخيراً فريقاً من هؤلاء الذين قد صفت أيديهم بدماء الحوادث كان ذلك لانهم آلات لم تؤت من الذكاء القدر الكافي الذي ينبغي من الانهام . مع ان الاشخاص الذين دبروا كل شيء وساروا في تنفيذه لم يرد لهم

ذكر مطلقاً في التحقيقات - لماذا ؟ هذا هو بيت القصيد .

هذه يا سيدى هي الحقائق والعلومات التى يمكننى ان أبسطها لكم ومهما كانت الاستنتاجات التى يمكن الحصول عليها مما ذكرته فأنى أظن انى قد أنفث كدب الاتهامات التى تكلم عن قصد أو عن جهالة ضد الحزب الوطنى المصرى وضد رئيسه . واننى مستعد ان أقسم على صدق هذه البيانات امام أى محكمة بل ومستعد ان أذهب الى لندن نفسها لأتأمرها واعطا . جميع الايضاحات اللازمة .

ملحوظة - كل هذه البيانات التى أعطيت عن الحادث قدمت للورد راندلف تشرشل فى عام ١٨٨٣ وقدمت بواسطته على ما أظن الى ادارة الشؤون الخارجية . وكذلك قدمت اثباتات اضافية أخرى كنت جمعها بنفسى الى المستر جلادستون ليحتمها ولكنه أبى ان يقوم بهذه المهمة .

## مذكرة مرفوعة للورد راندلف تشرشل

فى عام ١٨٨٣ عن رأى المستر بيان فى الحادث

لشهادة المستر بيان عن منشأ مذبحه ١١ يونيو أهمية كبرى نظراً لظروف التى أحاطت بمركزه فى مصر ولما هو عليه من الخلق العالى فى الوقت نفسه . فن المعلوم أنه كان مترجماً فى دار المندوب البريطانى حين نشوب الفتنة وكان بهذه الصفة فى احتكاك مستمر بالسراى والوطنيين من قبل السير ماليت . وأنه فى شهر يوليو فزمن انطلق العام الذى سبق الحادث تركه السير ماليت وفى عهده السجلات الرسمية وقد استمر فى القاهرة الى ما قبل اطلاق اليران على الاسكندرية يومين اثنين فقط وكذلك كان المستر بيان من أول من نزل الى أرض الاسكندرية بعد الحادث واشتغل شهراً مع اللورد شارلز بيرزفورد فى البعثة البوليسية وهو صاحب الفكرة فى معاقبة الذين ارتكبوا أعمال النهب والقتل والحريق . ثم التحق بعد ذلك بأركان حرب السير جادنت ولزلى وحضر جميع وقائع الحرب وأنه بعد عودة السير ماليت عين هو والسير شارلز ولسن لمراقبة الاجراءات المتخذة فى محاكمة عرابي من قبل

حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا. وأنه استخدم في ترجمة الاوراق العربية المتعلقة بهذه القضية ومن بينها أوراق عرابي الخصوصية . وأنه وضع بالاشتراك مع الميجر شرميد تقريراً نشر في الكتاب الاخضر عن حالة السجون المصرية وهو تقرير استحق عليه الشكر من اللورد جرانفيل وأنه حين اعتزاله خدمة حكومة صاحب الجلالة الملك في ديسمبر عام ١٨٨٢ قدم له الشكر على خدماته من كل من اللورد جرنفل واللورد دفرين . وأنه من ذلك الوقت عاش في مصر حيث تولى بعد ذلك الدفاع عن قنديل وسجناء آخرين منهمين بالاشتراك في المذبحة . ولذلك كانت شهادته ذات قيمة خاصة بل هي أفضل ما يقدم في هذا السيل . ويمكن استخلاصها من التبذ الآتية المنتقاة من خطباته المختلفة .

ففي خطاب لمستر بلنت من لندن في ٦ نوفمبر عام ١٨٨٢ يقول « ان رجال السراى هاتى اوتياك عظيم أمام وصول اللورد دفرين الى هنا باكر . ولقد كان وصول برودى صدمة قوية لمهم ولكن وصول اللورد دفرين هو الضربة الاخيرة . واني اعتقد في اللورد دوفرين أنه رجل فطن سيتمكن من فهم صاحبنا توفيق سرعة وعلى ما علمت أنه سيفتح أذنيه لكل انسان وأن البعثة المؤقتة ستدعم بمعلومات أدق بكثير مما كانت عليه الحال مع دار العميد في جميع الأوقات . ولقد حادثت كثيرين من الوطنيين قبل ضرب الاسطول لميناء الاسكندرية وهم من جميع الطبقات والاحزاب ووقفت على حقيقة الدور من أبطاله الأربعة — انجلترا وتركيا وعرابي وتوفيق . وكان لون كل منهم واضحاً تمام الوضوح » .

« . . . واني أظن أن مسألة ابراهيم أغا وحدها تكفي أن تدل على حقيقة انهجاء الحديوى . فقد سمعت القصة كلها من السراى مباشرة — وكيف أن توتنجي قبل يد الحديوى وطلب أن يسمح له بأن ييصق في وجه السجناء الخ . وهذه هي المسألة التي حقق فيها السير شارلز ولسن ووجد أنها صحيحة من أولها لآخرها ولكن بما أن الحديوى كان لا بد أن تظهر له عورات في هذه المسألة فقد تركت جانباً ولقد اقترحت حينها رأيت أن جميع الشهود حائثون في ايمانهم ان البمين التي تطلب منهم هي بين الطلاق ( على الطلاق بالثلاثة ) وكان السير شارلز ولسن لمن رأبي

يضاً ولكن المسألة وقفت عند هذا الحد . وعائلة الخديوي نفسها لا تخفى حقيقتها لأن فيما بين أنفسهم ولا تحاول إخفاءها ومع ذلك فهذا هو الرجل الذي ذهبنا تعاربه من أجله في مصر .

وفي السابع عشر من الشهر نفسه كتب يقول « المسألة تتوقف الآن على ما لو سمح للمسجونين وأعطيت لهم الفرصة في أن يسمع دفاعهم عن أنفسهم باخلاص . لاني مقتنع الآن أن الحكومة هنا تعمل كل ما في وسعها لعرقة اجراءات المحاكمة . وذلك لان الحقائق التي تسفر عنها مناقشة المتهمين عن جميع الرجال الذين في الحكم الآن وتظهر حقائق غير سارة عن الخديوي نفسه . ولهذا السبب الأخير اعتقد أنه من الممكن ان تتفام الحكومة الانجليزية مع عرابي على شروط معينة لانه من المؤلم جداً أن تظهر المحاكمة أن الرجل الذي أرسلنا جيشاً الى مصر للانتصار له هو أكبر رجل دجال فيها . وانا شخصياً لا يكاد يخافني شك في أن الخديوي وعمر لطفي دبرا مذهبة الاسكندرية لكي يطعنا عرابي بها بعد ان جعل نفسه مسئولاً عن الأمن العام وأن عندي أدلة تكفي أن تجعل ظني أقرب للاعتقاد منه لأي شيء . آخر ولكن لم يحن الوقت لظهارها » .

وفي اجابة له على خطاب سئل فيه أن يعطي معلومات أوفى وابطاحات عن حادث ١١ يونيو قال :

١٧ فبراير سنة ١٨٨٣

« اني مسرور أن أسمع عن الحلة التي تمدها ولكني أرى أنه من الصعب جداً أن تظهر مسئولية الحكومة التي تخلصت من شبائك الحادث بكل مهارة وخفة . أنت تسألني أن أعطيك براهيناً تؤيد نظريتك وأنا شخصياً ليس عندي شهادة معينة . حينما حضر القورد دوفرين أخبرته ان المذبحة نشأت في الحزب الفرعوني ( الحزب الخديوي ) ولم تكن سياسة خاسرة فيما يتعلق بأنفسهم لأن غرضهم الواضح منها أن يشوهوا سمعة عرابي بعد أن أعلن ضمانته ومسئوليته عن الأمن العام ولكي يدفعوا الأوروبيين الى العمل على استقالته . وكان الرأي القائل بالصاق الحادث به مضحكاً حقيقة لانه كان انتحاراً له وقد أدركوا جميعاً ذلك حينئذ . وحينما طلب الى اللورد دوفرين

أن آى له باثباتت تؤكد اعتقادى ان كان عندى شيء منها ذهبت اليه في النهاية وأخبرته أنه لو أعطي ضياعاً كتائياً لشهود أن لا يحسم أذى لأحضرهم اليه — بما أنى لا يمكن أن أحضرهم قبل ذلك — والشيخ عبده ورفعت يعرفان الحكاية من أولها لآخرها تماماً — وهؤلاء الشهود يشنون أن عمر لطفي أمر سليمان سامي أن يرسل اليه الفرقة بغير سلاح ولكن سليمان سامي أبى أن يستقبل هنا الاستقبال ويرسلها بهذا الشكل لادراكه ما يترتب على ذلك من النتائج وفي الوقت نفسه كان يدرك ما يصح ان يقال لو بقي بمجنوده بعيداً بينا المذبحة قائمة على قدم وساق ولذلك توجه بفرقة بعد تردد ساعة من الزمن وكانت مسلحة على قبض أوامر عمر لطفي وأخذ الفتنة . وفي مكنتي أن أحضر الرجل الذي تلقى الأمر من عمر لطفي وأوصله الى سليمان سامي . وعيكتي أن أحضر شخصاً آخر سمع عمر لطفي يحرض أوباش المذبحة في الطرقات على أن يجزوا مازل المسيحيين على من فيها وأن لا يتركوا منهم أحداً . وهنا صاح اللورد دوغرين وقال أنه ليس من شأنه أن يحاكم عمر لطفي وكان ذلك قبل ظهور برودلى في الميدان وبعد ذلك مضيت في مجهوداتي معتدداً على نفسي فيها ثم التجأت الى برودلى وتمكنت في النهاية من الحصول على شهادة الذين أرسلوا الرسالة الشفوية من الحديوى الى عمر لطفي في الليلة السابقة للمذبحة وفيها يأمره بأقامة الاضطراب — وذلك يقصر الانسراح الجنوني الذي قبلت به أنخبار الفتنة في السراى — بقولهم « الآن قد فتلناها لهم » وكان جميع رجال التشريفات والخدم يرتصون من الفرح وغير ذلك من مظاهر الفطة والسرور . ومما زاد هذه الادلة وضوحاً تعيين عمر لطفي ناظراً للحرية ( أعترافاً بخدماته في ذلك اليوم ) بدون أى سبب خاص يدعو الى ذلك التمين أو كفارة شخصية له . واذا لم يكن مدانا حقيقة فلا يمكن أن يهرب من تهمة الاهمال الثانى والعجز وعدم الكفاءة كحفاظت بحتم عليه اخذ الفتنة التى تح كل مسؤوليتها عليه دون سواء . ولكنه رغم كل ذلك عين ناظراً للحرية . وهذه هي اعترافى التى تغلب بها برودلى على الخصوم في جميع مساعيهم . ولا بد انك لاحظت — كما لاحظ كل انسان هنا — كيف أن مسألة المذبحة التى كانت في قلب

الامر قصب السبق المحرز ضد عرابي أخذت فجأة ثم توارت من الميدان بهذا الحكم المصحك »

وفي ٤ مارس كتب المستر ييمان ليخبر المستر بلثت أن قنديل وسليمان سامي وآخرين طلبوا اليه أن يدافع عنهم امام محكمة الاسكندرية العسكرية التي كانت تتجه بواباها الى اعدامهم ثم أضاف الى ذلك بقوله .

« ولقد كانت الورقة الرابعة في يدي في هذه اللمعة هي الشهود بطبيعة الحال الذين كنت اهدد باحضارهم لآلهم عمر لطفي ماثرة والرأس الكبيرة بطريق غير مباشر . وأظن ان الحكومة تفضل أن تطلق سراح المتهمين عن أن تعرض نفسها لمثل هذا التعريض الخارج . وفي يوم ١٨ من الشهر قال « أتى واثق من الادراج عن المتهمين وربما استبدل بهم في قضص الآلهم ناظر الحرية » . ولكن هذه الخطة انسدت بالأجراءات المحنمية التي اتخذت حينئذ ومع أى استشارة أو تواصل مع المتهمين الى أن انتهت المحاكمة وأما فيما يتعلق بقضية سليمان سامي ضد حرم من وسائل الدفاع دفعة واحدة

وفي هذه الالاء عاد المستر نايبير الى انجلترا وهو الذى انضم الى مستر بيان في مساعه الى الدفاع عن المتهمين وبناء على نصيحة المستر بلثت قال المستر راندلف نشرشل والسبر وفردلوسن . وكان تقرير المستر نايبير حينئذ هو السبب في تصريح المستر راندلف العلني الذى عمل في شهر مايو - وهو أول تصريح علني له عن علاقة الحديوى بالنذبة والذي أدى بالمستر جلادستون الى الوعد بمحاكمة المتهمين محاكمة عادلة .

ومع كل ذلك فإن المستر نايبير لم يجد ما يشجعه على العودة الى القطر المصرى ولذلك استمر المستر ييمان - ولو أنه لم يكن محاميا - في الدفاع عن قنديل بطريقة عامة وكان المستر بلثت يمدد بالمعونة المالية اللازمة للمصاريف الضرورية لانه لم يأخذ أحرا على دفاعه ولم يتمكن قنديل من رؤية مستشاره المستر ييمان الا بعد أن حوكم زميله سليمان سامي وكانت مهزلة أكثر منها محاكمة وبعد أن أجريت معه تحقيقات بمجموعة متضاربة من خصومه . وقد مضى تسعة أشهر في السجن وكان



يقع في دماغه طريقاً يمنع عنه غوائل المحوم . اذ أنه كان يطالب بالرحمة لابلل الذي لم يكن له موضع حينئذ .

وكتب المستر بيان في الثاني والعشرين من الشهر فقال : « وكان يحلب انه لا يعرف أى شيء . يربط عمر لطفي بالمذبة اللهم الا بعض شواهد عارضة يشترك في معرفتها كل الناس . وان عمر لطفي لم يعرض عليه أى اقتراح وأنه لا يظن ان المذبة دبرت من قبل ( هكذا ) وكل ما هنالك ان عمر لطفي كان واقفاً وقوفاً تاماً على شعور الاهالي ويعرف انه لا بد ان يتفجر في يوم من الايام . وحينما حصل الانفجار قال قديلاً انه كان طريح الفراش وأردف ذلك بقوله ان عمر لطفي أو أى انسان آخر كان يمكنه ان يحمده الفتنة عند منشئها . بل ان تلفرافاً واحداً لعراقي كان يكنى الوصول الى هذه النتيجة . ونداءاً واحداً ليجد كل يأتى على الفتنة في الحال ولكن عمر لطفي اكتفى بالطواف في المدينة وتبادل التلفرافات الشفوية مع الحديوي ومن الحال الوقوف على ما دار بين الاثنين حينئذ من المراسلات . اذ ان الكتاب كانوا يتقنون الارقام دون ان يفهموا لها معنى وقد صدرت الاوامر باعدام جميع التلفرافات الشفوية ( والظاهر ان مثل هذه التلفرافات تعمد دائماً ) . ويقول رفضت ان التلفرافات كانت خاصة باستدعاء الجند الى مياه الاسكندرية من البوارج . واذا كان الحديوي قد اعلم بهذه المذبة عند الساعة الثانية او الثالثة فلماذا اذا لم يستدع السير مالت ( الفصل الانجليزى ) مباشرة ؟ فان السير مالت لم يعلم بها الا بواسطة تلفراف من كبير وهو في حجرة بليارد زيمبادا حولى الساعة السادسة مساءً . وهنا هو الدليل الوحيد القائم ضد الحديوي . أما الادلة ضد عمر لطفي فهي أقوى من ذلك ولكن للاسف لم تمكن من الحصول على الشهود الذين عرضت ان احضرم اللورد دوفرين . لاني لم أعرف اسماءهم بنفسى ولكني كنت أحبرت بواسطة شخصين معينين انه اذا وقف اللورد دوفرين وقعة مليئة في هذه المسألة فلها يعطيانى الاسماء . ويسلمانى الاشخاص أنفسهم . ولكن اللورد دوفرين لم يقل اعطاء الامان المطلوب ولا يمكننى ان أعطي تفاصيل أكثر من ذلك لاسباب أحب ان تصدقنى أنها أسباب قاسية لا يمكن التغلب عليها . ومع ذلك فان الشهود كان يمكن الحصول عليهم

وسائل أخرى ولكن ما كان يمكن الحصول عليهم بالطريقة التي سمحت لي أولاً .  
 روفى دليل على حسن نيتي أنني وعدت باحضار هؤلاء الشهود أيام كنت موظفاً  
 بحكومة ولكن عجزت عن القيام بما اخذته على عاتقي في هذا الشأن يكفي لسحق  
 سحقاً تاماً . ولكن العهد قد تناول على هذه المسألة الآن ولا يمكنني ان أحضر  
 شهود بعد . او على الأقل ليس لدى الوسائل في الوقت الحاضر التي تمكنني من  
 القيام بذلك ولو أنني فيما بعد قد أتمكن من احضارهم . »

ثم قال أيضاً في الخطاب نفسه « وأنى اعتقد ان فكرة مجابهة المستر جلادستون  
 مدكرة تاريخية فكرة حسنة جداً . ولكن حذار ان تذهب في تأييد معتقداتك الى  
 حد غير ملائم اذ تقرر اكثر مما يمكن ان تثبت . ومحمد عبده ورفضت شهادته  
 صروريان لنا وسوف لا أمتنع عن الافصاء لك بما أعرف ولكني سوف لا أخبرك  
 عن مصادري » .

وقد أشار أيضاً الى هجوم اللورد رودلف نشرشل الثاني الذي قام به بمناسبة  
 تنفيذ حكم الاعدام في سليمان سامي مما أدى بالمستر بلنت الى اعتزام تسليم جميع  
 الأوراق التي في حوزته ومن بينها البذ القديمة التي ذكرت الآن للورد راندلف  
 « اعتبارها » الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء وان لا يعاد هدرها بعد ذلك مرة ثانية » .  
 وأشار كذلك الى خطاب المستر ايف القدي ظهر في الوقت نفسه بمجرىة التيسر ثم  
 قال « اني آسف ان ايف نشر هذه التبذ من خطابي ... اذ اني لم اكتبها بالصيغة  
 التي نجعل ما فيها من حقائق معدة للنشر . فاولا ان عرضي الشهود لم يكن على اللورد  
 دوفرين شخصياً بل على سكرتير ( سكرتير دوفرين الخصوصي ) الذي أعطاني على  
 كل حال جواب اللورد دوفرين . وأظن اني أشرت مرة الى المسألة امام اللورد  
 دوفرين الذي أجاب بشكل يدل على انه مطلع عليها ولكنني كنت في ذلك  
 الوقت منهمكاً في قضية عراقية الى حد انني لا اذكر جيداً ما مر في هذه  
 اللحظة ... واني لا أعياً بما تنشره عني ضد عمر لطفي ولكني أفضل أن لا توقعني  
 في مشاكل مع الخديوي . وقد عدلت أفكاري فيما يتعلق بمسئوليته عن الحادث ولا  
 يعني بعد أن اهاجبه . واذا ما حامت حوله الشبه فيما بعد عن طريق عمر لطفي كان

ذلك حسنا وخيرا لكم ولكني لا أريد أن يهاجم باسمي أنا شخصيا . وأنا الآن في حالة من التعاطف الحسن مع أغلب رجال الحكم وأنى أستعين بهذا الشعور الحسن لتحقيق مصالح المتهمين عملائي واذا ما قطع بيني وبين الحديوى على حين فجأة فانهم هم الذين يضارون ولست أنا » .

## ملخص الشهادات والادلة

مجموعة من الكتب الحضراء في عام ١٨٨٣

يثبت تاريخ مذبح الاسكندرية كما هو موجود في الكتب الحضراء ( الكتب الازرق رقم ١٦-١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ١٧-١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ٤-١٨٨٣ ) ادانة السلطات المدنية والبوليس بشكل لا يحتاج الى الجدل وبراعة السلطات الحربية و فرق الجيش براءة تامة مع الاقرار بملكها الامين المشرق . وتلك حقائق تؤكدها مجموعة من الشهادات عن هذه المذابح . والبوليس والجندوة كانتا تحت اشراف المحافظ عمر لطفي المطلق وكان عمر لطفي بدوره ليس مسئولا أمام وزير الحربية ( عرابي ) بل امام الحديوى مباشرة وذلك ما يجب أن يبقى عالقا أبدا بالاذهان بينما كانت فرق الجيش تحت اشراف عرابي باشا ووزير الحربية وحده . وقد قرر المستر جروجان ( الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٩ ) — الذي كان قد عين واسطة السير أدوارد ماليت بناء على تعليمات اللورد جرنفل ليجمع من مدينة لاسكندرية أدلة يتمكنون بها من اثبات أن عرابي هو مدبر الحركة — أن البوليس بل الحادث بأيام قلائل انتاع كمية كبيرة من النبايت والدفوف ووزعها على الطيقت لدنيا من الاعراب والبدو وأن هذه النبايت كانت توزع من منزل قريب جدا من الضبعة الرئيسية . ( راجع كذلك اقرار المستر أدوارد باربر « الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٧ » ) . وقد أضاف المستر جروجان انه لم تتخذ أي اجراءات ضد الاشخاص الذين وزعوا النبايت كما أن التقارير الطبية التي كتبها عشرة من الأطباء الاوروبيين الذين بحثوا جثث القتلى في المستشفيات تثبت جميعها أن القتل حدث به

على طعنات من المدي وحراب البادق . ولا يخفى أن المدي وحراب البادق هي أسلحة البوليس الرئيسية والثابت أن البوليس في يوم المذابح كان يغير أسلحته الباربة وكان مسلحاً بالحراب فقط ( الكتاب الأزرق رقم ٤ صفحة ٧٥ المشؤلة الثالثة تحت رقم ٩٢ من مستر بروفنش الى المستر جروجان ) وتقرير هذا الرجل له أهمية عظيمة اذ هو يثبت ان الطرقات كانت خالية من الفرق النظامية في يوم الحادث خلواً تماماً ومما يجدر ملاحظته أثناء قراءة الشهادات الخاصة بالمذابح في الكتب الزرقاء المشار اليها آفاً أن كلمة « جنود » تشير فقط الى الجنود وقلماء مذل في أى موقع منها على جنود الجيش النظامية .

ولتكلم الآن على مسلح البوليس . يقول المستر بوبس المهندس في الاطول الانجليزى ( راجع الكتاب الأزرق رقم ١٦ صفحة ٢ : المشؤلة الثالثة تحت رقم ٢ ) أن الجنود التى كانت تحت اشراف رئيس البوليس مباشرة لعبت دوراً كبيراً فى الحادثة . قتلوا المسيحيين حينما كان الرعاع يكفون عن ذلك . واذا انكسرت الحال وأخذ الرعاع فى قتل المسيحيين كانوا يتركونهم وشأنهم ولا يدون حراكاً . ويقول المستر هيوات وهو كاتب حسابات انجليزى كان يعيش فى الاسكندرية منذ سبعة عشر عاماً ( راجع الكتاب الأزرق . رقم ١٦ المشؤلة الرابعة تحت رقم ٢ ) أنه « اذا أردنا أن نعرف موقف السلطات المصرية والجيش أثناء الاضطرابات فيجب أن نقسها الى قسمين هما (١) البوليس (٢) الجيش . فأما عن الاول فليس عندي أقل تردد في القول بأنهم بدل ان يخدموا الفتنة قد بذلوا كل ما في قوامهم ليزيدوها استمراءاً وكلن مسلحهم في هذه الاثناء وحشياً قاسياً مبنياً على التعصب . وسوف يظهر على ما أعتمد من الكشف الطبي أن الجروح التى أصيب بها كثير من الاوروبيين كانت بيد رجال الجنود . ومما لا جدال فيه أيضاً أن كثيراً من النبايت وزعت على الاهالي بيد هذا البوليس نفسه بدون مقابل بينا نزعوا من الاوروبيين جميع أسلحة الدفاع التى كانت في حوزتهم حتى العمى التي يتوكأرون عليها . ولقد علمت من أوثق المصادر أن الاجانب الذين كانوا يعيشون في الاحياء الوطنية والذين التجأوا بطبيعة الحال أثناء الاضطرابات الى الضبطية أو أحد معاقل البوليس الاخرى

ذبحوا شر ذبحة بمجرد دخولهم هذه الاماكن . ومن جهة أخرى فاني مقتنع ولست في حاجة الى شرح أسباب هذا الاقتناع أنه لولا استدعاء الجيش في النهاية واتخاذ القشة لما كانت تنتهي الا عذبة مخيفة . وإذا كان الاوروبيون مدينون لاحد بأرواحهم فهو الجيش » . ويقول المستر جورج يلافانثي ( راجع المشولة الخامسة في القسم الثاني ص ٩ الكتاب الازرق رقم ١٦ ) « أن ابوليس انتصر علنا للاعراب وكثير من الضحايا الذين كارب يقودهم البوليس الى الاقسام انزلوا من العربات وقتلوا بسان الحراب » . وألستر ستين راني يقول ( راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٧ ورقم ٣ ) « لكي تتحقق من حياة "سلطات ماعليا الا أن يعرف ما يلح -- بدأت القشة في الطريق عند الساعة الثالثة واستمرت الى الساعة السابعة وكلم معظم القتل بيد البوليس واستمر الحال علي ذلك اى أت أرسلت فرقة من الحند لاختاد القشة وكان من الممكن احماها بهذه الطريقة في ربع ساعة لو أنهم أرادوا ذلك » .

ملحوظة : بمناسبة هذه المسألة نشر الى اب سليمان سامي ميرالاي الفرق ' نظامية لم يستدع الا في ساعة متأخرة بعد بدء الهياج .

ويقول المستر جرومان ( راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠ ) « وأشهر جميع الحرحى في المستشفيات ما ن رجال الجندرية كان لم ضلع مع العواء في اللذبة وكذلك كان بكثير مهم جروح من رماح النادق » . ويقول هتيل سكجنيليو الاسكنداني ( راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦ ) « أن الثلاثة رجال الذين قتلوا وهم الدكتور ريتس والنيور ليجري وفي رب والارمين قتيلا الأخرى من الاوروبيين كانوا قد التجأوا الى الصيطة ليكونوا تحت حراسة البوليس . وق القيلة نفسها ذهبت الى المستشفى الاوروي لايبحث عن صديق النيور فارديب . وهناك سألتني الحراس الذين كانوا في الخدمة حينئذ عما اذا كنت أملاك حفيقة كل هذه الحيرة التي تدفعني الى عمل كهذا . ولكنني اطلقت الى الداخل وكانت ساعة متأخرة من الليل وسرعان ما رأيت اناي اكواماً من الجثث وعندها تريت وعدت في اليوم الثاني ووجدت ما يرو على السنين قتيلا كلهم عرايا وأجاسهم شدة

حروح من التبايت ورماح البنادق . وكثيراً ما جرح البوليس الاجانب من  
 لاوريين كما كان ينظر بعين الارتياح الى الاعراب وهم يفعلون ذلك أيضاً  
 . (سج الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) وقد أخبر كل من المستر روبرت جيلبو  
 من الرعايا الانجليز والمستر جوزيف لينى من مصنع المسيو بيرو لينى بمنشستر والمستر  
 نحاسى من مصنع فيفاتى وولده بمنشستر القنصل البريطانى فى مدينة ليجهورن « ان  
 سلطات المحلية اشتركت فى المذبحة » وفى الصفحة نفسها توجد كلمة الكولونيل . . .  
 وهو أحد الضباط الاورويين ذوى الاعتبار كتبها فى ترستا فى ٢٨ يونية وهى الآتية  
 « ار. أحد الوطنيين الافاضل واسمه وزير بك وقطن الدور الاول من المنزل المواجه  
 رئاسة البوليس وقال امامى وامام محافظ المدينة وغيره من كبار موظفى الحكومة انه  
 نى التبايت توزع على الجماهير من الشبايك التى امامه. هذا فى الحى الاوروي بينا  
 كلن قريفاً من القوعاء يقتحم شارع دى سير وميدان دى لاني فى حين آخرون  
 مختلفين . وبعد ذلك عدة رأى هو وزوجته وخدعه ثلاثة عشر أوربياً كانوا قد التجأوا  
 الى رئاسة البوليس للحماية يسحبون خارجها عرايا الاجساد مشوهي الخلق الى البحر  
 لكي يموتوا فيه وغول المستر ادون بلربر فى صفحة رقم ١٧ » وفى أثناء هذه الحادثة  
 قصير فحصر جمع كبير من الاعراب من جميع الجهات وجهزوا بتبايت القيت اليهم  
 من منزل وطني عال قريب من الضبطية « ثم يقول بعد ذلك » وبعد اغلاق الباب  
 صعدت الى الدور الاعلى ومن هناك رأيت عدداً كبيراً من الاوريين مقتولا فى  
 الطريق وكان البوليس يساعد القتل . ولما لم يكن البوليس جيوب فقد كان ينجي  
 مفاعه ورا. انبراميل وأحياناً تحت أغطية البالوعات » . ويقول للمسترجون ولس فى  
 صفحة ١٧ « وفى هذه اللحظة وصل رجال البوليس وعددهم ثلاثون أو أربعون  
 وبدأوا يطلقون اعبرتهم بدون أى مبرر ظاهر لذلك . وكانوا يرون الاوريين  
 مدرجين بدمائهم تحت أقدامهم ولكنهم لم يفعلوا شيئاً ليدافعوا عنهم » . وقال  
 أيضاً « رأيت أيضاً رجالاً من الجندمة يحملون بعض الامتعة المسروقة . ولكن  
 حينما وصلت الفرق الطامية عاد الامن الى نصابه وكأنما لم يحدث شئ » . وفى اقرار  
 السنيور فرتوتى ما يأتى ( راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٩ )

« وسد قليل من الوقت رأيت عربات كثيرة مملوءة برجال الجندمة ( ومجنود في ملابس زرقاء ) آتية من ناحية مركز البوليس الرئيسي وكل من فيها ينظر الى النوافذ حيث كانت تتجه بادقهم أيضا ويصبحون للاعراب « تشجوا . اضربوهم » . ( راجع الكتاب الازرق رقم ٤ صفحة ١٠ المشولة الرابعة من القسم الرابع ) . ويقول المستر ستوتون صراف الباخرة ( انفسنبل ) « كان البوليس والموظفون المحليون أثناء المحوم المثار اليه ينطرون للموعاء نظرة عطف ولم يتخذوا أى اجراء لحماية المسيحيين وكبح جماح الفوضى . ولم يكن فى الطريق أى أمر للمجنود النظاميين فى هذه الاثناء »

وقد كتب الاميرال السير بوشامب سيمون الى الاميرالية عن مسلك الفرق النظامية فقال ( راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ١٠٨ ) استمرت الاضطرابات مدة ساعتين او ثلاثة قبل ان تدعى الحماية الى تقلد السلاح . ولكنها حينما حضرت ظهرت الطرقات بسرعة محدودة وساد النظام فى الشطر الباقي من الليل « ويقول المستر كلغرت نائب القنصل الذى أسندت اليه أعمال القنصلية بعد ان جرح المستر كوكسون ( راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ٣٩ ورقم ٩٧ ) فى ١٢ يونيو « لم يتدخل البوليس ليحصى الاورويين . الى ان حصرت الفرق النظامية وأعادت النظام » وكتب فى اليوم نفسه ( راجع الكتاب الازرق رقم ١٧ صفحة ٢٤ المشولة الثالثة تحت رقم ٢ ) « وقد كان مسلك الجنود النظامية حسناً جداً ولم تتجيز الفوضى » وفى الرسالة نفسها ما يأتى : « نهب البوليس المنازل والدكاكين على حد سواء . وبعد رسائلي للتغرافية اليك تحددت معركة فى حي من أحياء المدينة الدنيا ولكن فريقاً من الفرسان فرق الثوار فى الحال . والمدينة الآن فى سكون تام » ويوجد فى البيان الذى أذيع على الاورويين مهوراً بامضاء جميع القناصل بعد اجتماعهم فى منزل المحافظ فى ١٢ يونيو الفقرة الآتية « حدثت اضطرابات خطيرة فى يوم الثلاثاء ، مالا سكندرية ولكن الجيش المصرى أعاد النظام ونعهد رئيسه بالمحافظة عليه . ونحن نثق فى الجيش المصرى »

الطواهر السابقة على المذبحة—( راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٢ المشولة

(الناية) بيان المستر حويس المهندس الانجليزي « لاحدال أن الحادث كان منظماً من قبل بدليل بعض الظواهر الصئيلة التي ما كان بمأها الانسان في ذلك الوقت كالدى حدث لى في صبيحة يوم السبت اذ كنت خارجاً من منزلى فقابلنى مائع خضر في الطريق وطلب الى أن اشترى وآ كل لان النصاري سيزبحون باصكر . وقيلت هذه الكلمات بعد ذلك لكثيرين غيرى ولم يبروها ماتستحقه من الانتباه أو أى انتباه علي وحده الاطلاق . ( المشولة الرابعة تحت رقم ٢ ) ويقول المستر هيوات « بناء على معلومات جمعت من مصادر مختلفة كثيرة أصبح عدى اعتقاد راسح انب حادث ١١ يونيو كان نتيجة خطة مدبرة . » ( المشولة الخامسة تحت رقم ٢ ) . ويقرر المستر الكسندر فيس « بناء على تعليمات تمحصلت عليها فيما بعد أصبح عدى عقيدة أن هذه المسائل كانت مدبرة . وبدأت في وقت واحد تقريباً في جميع أنحاء المدينة » ( المشولة الخامسة رقم ٢ صفحة ٦ الكتاب الازرق رقم ١٦ ) ويقرر المستر حورج بلافانثي ٢ كانت مشاجرة يوم الاحد مع المالطي مدبرة تديراً محكماً بواسطة البوليس حتى انه نشأ عنها هذه الحوادث الوحشية التي اشتملت علي التهب والقتل وقد كا رقياءه كما كنا في الوقت نفسه ضحايا . وظهور الفتنة في ثلاث جهات في وقت واحد يدل على أن الامر كان مدبراً . » . ويقرر فليبوليس « كنت في السوق في يوم ٢٨ يونيو حوالى الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر . وهناك رأيت كثيراً من البدو محملون بنادق ويتركونها في بعض المحازن هناك بحجة حفظها لهم . وفي اليوم التالى بينما كنت جالساً في احدى القهاوى اقترب منى أحد أصدقائى من المصريين ونهينى محذراً الى ان الاعراب سيقتلون المسيحيين في يومهم أو في اليوم الذى يليه » ويقول المورد جرنفل ( راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٢ ورقم ٣ ) « أخبرني المستر سيادينو وهو أحد مدبرى بنك مالى يونانى بالاسكندرية أن عنده الادلة الكافية في أن حادث الاسكندرية كان مدبراً . وكذلك أشار المورد جرنفل في الرسالة نفسها الى مبشر امريكي قال « أخبرنا كثير من الناس ان الاضطرابات بدأت في أحياء مختلفة متباعدة من المدينة في وقت واحد وقلبك فنحن نعتقد انها كانت مدبرة . » ويقرر الدكتور جنويس ( راجع



الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ المشمولة الثالثة تحت رقم ٤ ) « أنى لا أعتمد أن المذبح كانت مدبرة فقط بل هي أكثر من ذلك قد عذبت بمهارة وبظهور ان المشتركين فيها كانت عابثهم السلب والتهب وعلى كل قد جمعوا بين هذه وبين الثورة » . ويقول المستر ستونين ( راجع المشمولة الرابعة في الكتاب الرابع ) « حينما نزلت الى الاسكندرية وطلعت في شوارعها وجدت الناس في الشوارع والطرق المؤدية الى المدينة العامة صائرين في هدوء تام وسكينة . وحينما وصلنا أخبار الفتنة بعد ذلك ثلاث ساعات فقط رأينا مئات من الاهالى مسلحين بنجاة بالعصي والسكاكين ولذلك فاني أعتمد ان الفتنة كانت مدبرة من قبل » . ولا يتمكن المستر حروكان من إيجاد راسلة بين عرابي وبين التدابير الساعية على الفتنة ولو انه كان مروداً بمعلومات صريحة من القورد جرنفل أن يجمع أدلة ضد عرابي فتبد اشتركا في تديرها ( راجع الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٣ وصفحة ٨٨ ) . وعامة قوله « ولقد تبين أن سفر حسين موسى العقاد من القاهرة الى الاسكندرية كان في الساعة السادسة بعد ظهر يوم ١١ يونيو : وسافر في عربة من عربات الدرجة الاولى ومعه جون نينه الخنوى ووصلا اليها في المساء » أقول انه يمكن اثبات عدم صحة هذا الخبر على الاطلاق بواسطة جون نينه نفسه وهذا أمر مهم جداً لان المستر جروكان يضيف الى ذلك ( راجع المشمولة الاولى تحت رقم ٩٢ الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٤ ) « وفي اعتقادي ان حلقة الاتصال بين سيد بك قنديل وعرابي هو حسين موسى العقاد » . ( راجع الكتاب الأزرق رقم ١٦ الرسالة رقم ٣ صفحة ٩ ) وقد أخبر الكونت دلالا رئيس لوكس لوكس حرب الخديوى المفوضية البريطانية في برلين أن الكونت هازنفلت أخبره أن ضرب الاسكندرية كان خطة مدبرة اشترك فيها رجال الخندمة

## مسلك عمر لطفى المحافظ

في يوم الاضطراب

ان ما قيل عن مسلك هذا الرجل في يوم الاضطراب في الكتب الرقاه قليل جداً لا يشي غليلاً ويصل ذلك بمساعي الحكومة البريطانية بعد الموادث وانجاسها في انهام عرابي وحينا لم نطفر بذلك لم تبدل أى مجهود في اكتشاف المدبرين حقيقيين لها . ولكن في اقراريس كتابين ( راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠ ) قدمها اللورد جرنفل الى السير ادوارد مايت ( الرسالة رقم ٢ ) وهما لكل من لويجي اوفريو واولو اوفريو من قائتا بحزيرة مالطا وكانا سابقا بالاسكندرية ما ياتي « في يوم الاحد الحادى عشر من شهر يونيو الماضى حينما كنت في منزلى بالاسكندرية حوالى الساعة الثانية ونصف بعد الظهر سمعت صياحا عاليا في الطرقات قاطلت من البافنة وعندها رأيت المستر كوكسون القنصل الانجليزى وغيره من القاصل الذين كانوا معه يهاجون بواسطة الرعاع . ورجال البوليس يعاونونهم في هذا الهجوم وبضربون حصرات القناصل بمؤخر بنادقهم وكان عمر لطفى المحافظ حاضراً حينئذ ولكنه لم يندل اى مجهود ليحمى هؤلاء الاوروبيين او لتشتيت القوعاء . ورأيت أيضاً بعض الاعراب والجنود مصريون السنيور كلاري والسنيور مكفالى القنصل الايطالى والقنصل النمساوى . وقد جرحوا جميعاً جروحاً خطيرة وخصوصاً السنيور كلاري » . والاقراران متشابهان في عبارتهما . وكتب المستر جروجان ( راجع صفحة ٩ من الكتاب الازرق رقم ١٦ ) عن تكليفه من قبل اللورد جرنفل لجمع الادلة الكافية لانهام عرابي باشا قتل « اظن أن لدى محبلا للتدليل ولكنى لم أمل اليها حينما كان الاتصال متعجلاً . من الامور التى تثير كثيراً من الشكوك هو ما اذا كانت دعوة القناصل للذهاب الى قسم القبان بعد ظهر يوم ١١ يونيو قد صدرت من المحافظ عمر لطفى أم لا . لان عقيدتي الحالية أن الدعوة التى وجهت اليهم شعوريا كانت تقصد استدراهم الى أيدي الجماهير » .

وقال بعد ذلك : « وكان بين الاصلاح كل رسالة وأخري فترة من الزمن لا تسوجبها المسافة نفسها التي تفصل القناصل بعضهم عن بعض وكان ذلك مديراً من قبل ، بقصد أن يصل القناصل متفرقين الى المكان الذي كانت تتجمع فيه القواعد . وبلغت الرسالة اولا للقنصل الفرنسي ثم الايطالي ثم غالبا اليوناني والالمانى واخبر القنصل الانجليزى ، وكتب المستر كوكسون في رسالته لـ «سير ادوارد ماليت ( المشغولة الاولى تحت رقم ٢٢ الكتاب الازرق رقم ١٧ لعام ١٨٨٣ ) فقال : « بعد نصف ساعة استدعيت بواسطة البوليس المحلى للتوجه الى مركز بوليس قسم البيان حيث كان قد وقع شغب بين بعض الاعراب من الالهالى والمالطيين فى الساحة المجاورة . . . . . وعدت قنصلية حوالى الساعة الثالثة ونصف وخرجت مباشرة بناء على دعوة رسول كلن فى انتظارى لحضور اجتماع مع بقية القناصل فى قسم الباب . ومن هنا يتبين أنه كانت هناك مؤامرة لاستدراج القناصل الى الجماهير . ويعد وجود عمر لطفى وهيته ساعة هجوم الجماهير عليهم أنه كان مشتركاً فى هذه المؤامرة ومن الممكن اثبات ان عمر لطفى لم يستدع الجيش مطلقا الا بعد أن استمرت المذبحة زمنا طويلا وعندها أرسل الى سليمان سامى رسالة شفوية وليست كتابية يخبره فيها أن يحضر هو وفرقة الى المدينة بدون سلاح . وسوف تجد رأى سليمان سامى عن مصلك عمر لطفى فى بيان المستر جون نينه المطبوع . وكل من سليمان سامى وأخيه — وكلاهما أمير ألاى فى الجيش — يعلم أن عرابى باشا بصفته وزيرا للحرية ورئيسا للجيش المصرى قد أخذ على نفسه ضمانا بحفظ الامن والسلام وأن هذا الضمان يتبين الآن أن لاقية له كما أن التفة فى الجيش المصرى قد تلاشت بظهور هذه المناجى . والعلم بهذا الضمان ثابت من رسالة المستر كوكسون الى السير ادورد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١١ لعام ١٨٨٢ المشغولة الرابعة تحت رقم ١٢٦ ) والمؤرخة ٦ يونيو حيث يقول : « الحاقا برسالتى فى ٢ الجارى أتشرف بأن ابلغكم أن المدينة فى هدوء تام . وقد أفاد نصريح عرابى باشا الذى أبلغ الى فى ٢ الجارى والذى تعهد فيه بالحفاظة على السلم وأرواح الاوربيين كثيرا فى تطمين نفوسهم وتبديد مخاوفهم . » . ويبدو غضب كل من الامير الاين سليمان سامى وأخيه من مصلك عمر لطفى فى ملحق

١ يونيو من رسالة للستر كوكسون الى السير ادوارد ماليت ( راجع رقم ١٧ عام ١٨٨٠ المشمولة الاولى تحت رقم ٢٣ صفحة ٢٣ ) حيث يقول « علمت انه حدث نحرار عنيف بين المحافظ والاميرالين وأن المحافظ أصبح حاقداً عليهما. بينما هما جسامته في عبارات قاسية شديدة بخيانة دينه وأيا أن يطعنا أوامرهم . » اذ أنت صانطين بعد أن فقد ضمان عراني قيمته تبين لها أن الاوروبيين سوف يتدخلون لاحالة وحينئذ تظعن القضية الوطنية طعمة نجلاء .

ويتبين اهتمام عراني بأنقاد الجيش المصرى من أى شبهة أو اتهام بالاشتراك في مداخل من تعليماته التي أعطاهها لعقوب سامي وعلى الخصوص تعيينه ليكون في لجنة تحقيق التي كونتها الحكومة المصرية عقب الحوادث مباشرة وقول عراني في هذه تعليمات « انك لانجمل اهمية الموقف الذي تقفه في الحالة الراهنة من لجنة التحقيق ذلايجنى عليك أن اعضاء هذه اللجنة ليسوا من هؤلاء الاشخاص الذين يهيمهم شرف الجيش أو شرف الوطن . وهذا يتطلب منك أن تأخذ جميع الاحتياطات في مجرى التحقيق وأن تكشف لنا عن الدافع الاصلى لهذه الفتنة . » وكذلك يتبين اهتمام عراني باشا بمنع أى أمر يندش هية الجيش بعد ذلك أو بمس ضمانه من رسالة المستر هورى المترجم في القنصلية الانجليزية بالاسكندرية المؤرخة ١٢ يونيو ( راجع المشمولة الرابعة رقم ٢٢ الكتاب الازرق رقم ١٧ ) حيث يقول فيها « تعهدالقناصل أن يذلوا اقصى ما يمكنهم من الجهد لتحقيق هذا الغرض ووعدوا بأن يمتنعوا عاياهم من اطلاق النار على الاهالى أو الجنود كما أن ضباط الجيش أخذوا على أنفسهم ايضا أن يحافظوا على الامن والسلم العمومى وأعلنوا انهم مسئولون عن ارواح الاوروبيين وقد وجه صاحب السعادة بعقوب باشا وكيل نظارة الحربية الى الاميراليات العبارة الآتية « حافظوا على القناصل وعلى سلامة رعاياهم ما دام فيكم عرق يفيض . » وقد اجابته الضباط بالسع والطاعة ... وكان أهم شىء عند القناصل هو مقدرة الجند على منع تجمهر الوطنيين في الاحياء الاوروبية ولذلك تعهد ضباط الجيش العظيم بتفريق أى اجتماع للوطنيين يحدث في تلك الاحياء . » ولا ينبغي عن القعن انه من تاريخ هذا

الاجتماع وبعد ان وضعت الاسكندرية رسمياً تحت اشراف الجيش الى ان ضربها الاسطول لم يحدث اضطرابات تذكر وكذلك لم يحدث أى مذبةجة .

وبالنسبة لسلك عمر لطفي باشا يجب أن لا ننسى لاي اعتبار من الاعتبارات انه كما تم مدني للمدينة وتحت تصرفه المطلق بوليس ورجال المندومة في المدينة يعتبر أول شخص مسئول عن الامن والنظام فيها . وانه في ذلك الوقت كان مسؤولاً أمام الخديوى دون سواء و كان الخديوي يقوم نفسه بأعمال ناظر الداخلية بناء على عدم تعيينه ناظراً جديداً لها واصداره تعليمات لمديري الوجه القبلي والشرقي بأن يرحعوا لمكتبه الخاص في كل مسألة ذات بال مما يعرض عادة على ناظر الداخلية ( راجع الكتاب الازرق رقم ٨ صفحة ٤٠ الرسالة رقم ٩٠ من السير مالميت الى الارل جرافل ) . وقد لا يكون من الضروري الآن ان نضيف ان عرابي باشا بصفته ناظراً للبحرية والبحرية لم تكن له أى سلطة على عمر لطفي حاكم مدينة الاسكندرية المدي كما انه من الثابت من بيان المستر جون نيه المرفق بهذا ان عرابي باشا لم يحط على بالحوادث الا في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١١ يونيو وان مكاتب التلغراف بمصر والاسكندرية حجرت في ذلك اليوم خصيصاً للرسائل بين الخديوى وعمر لطفي ومع ذلك لم يحدث تحقيق علني عن مقتل هذا الرجل « عمر لطفي » من يوم المذبحة الى الآن لا بواسطة الحكومة الانجليزية او المصرية ولم يحدث اكثر من ان الخديوى عينه ناظراً للبحرية محل عرابي باشا في السادس والعشرين من شهر يوليو التالي ( انظر الكتاب الازرق رقم ١٧ صفحة ٢٢٣ الرسالة رقم ٦٤٤ ) .

وقد لازم سيد بك قنديل رئيس البوليس الذي يحاكم الآن منزله في يوم الاضطرابات والايام التي تلت لمرضه بينما حسن بك صادق وكيله الذي حل محله في ذلك اليوم والذي قال عنه المستر كليريت ( الكتاب الازرق رقم ١٧ الرسالة رقم ٣٥ صفحة ٣٥ ) انه ينتمى الى حزب الجيش وانتقد انه لم يوقف عن العمل لسلكه يوم الحادث وعلاقته به قد عين بعد ذلك في وظيفة مهمة بالجيش بالسودان حراً . على سلكه في يوم ١١ يونيو وتخلص بهذا التعيين من كل مناعب التحقيق ويجب ان لا يغيب عن الالهم حين قراءة هذه المذكرة السابقة المتنبئة من

كتب الزرقاء ان جميع الرسائل التي كتبت والشهادات التي جمعت فيها كانت مكتوبة وبمجموعة تحت عقيدة ان للذبايح من صنع عرابي والحزب الوطني ويقصد صاق النهمة بهم

ولتوضيح ذلك يجب ان ننقل فقط كلمات القورد جرنفل الموجودة في رسالته في السير ادوارد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١٥ ورقم ٣ صفحة ٧) وهي «أرى ان أكلفكم بعسل ما يلزم لاتعام هذه الشهادة وخصوصاً القسم الذي يتعلق بصله من عرابي» وهذه خطه شاذة بذل بشكل لا يقبل الجدل ان فكرة اكتشاف مدبرين الحقيقتين لحادث الاسكندرية كانت أقل رسوخاً في نفس القورد جرنفل من اتهام عرابي باشا نفسه بأي شكل من الاشكال

وبماح هذا المسمى يمكن استنتاجه مما قاله السير شارلز ولسن (راجع الكتاب الازرق رقم ٣٠١ الرسالة رقم ٤٥ مشمولة صفحة ٢٨) - عن النهمة الرابعة في ورقة الاتهام التي وُحيت الى عرابي ومحمود سامي وطلبة ومحمود فهمي وعمر رححي وسيد قنديل بأنهم «حرضوا الناس على حرب أهلية وبأنهم ارتكبوا أعمال التخريب والقتل والنهب على الأراضي المصرية» - فقد قال السير ولسن «لا بد لي من تصريح اني اعتقد انه بناء على الشهادة الموجودة بين أيدينا لا يمكن لأي محكمة عسكرية ان تلحق بالمتهمين نعمة أكثر من الاشتراك في ثورة عسكرية ناجحة ضد الخديوي اللهم الا طلحة والسيد قنديل مع شيء من الشك بالنسبة لهما أيضاً»

وكتب السير شارلز ولسن أيضاً فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ٥ عام ١٨٨٣ الرسالة رقم ٤١ مشمولة صفحة ٦٩) «بنيت المحاكمة على ما يظهر على فكرة ان هناك حوادث معينة مثل مذبحه ١١ يونيو لا يمكن حصولها الا بناء على أوامر عرابي. وذلك دليل كاف في نفسه على ان عرابي أصدر أوامره بعمل المذبحة.... ومن جهة أخرى فقد كان من الممكن تكوين دفاع حسن عن المتهمين وذلك بمناسبة سماع شهود بلائيات دون شهود النفي ومن غير توجيه أسئلة اليهم من الدفاع»

واقدر نرث الحكومة الانجليزية فكرة ان المذبحة كانت مدبرة ومنظمة من قبل حتماً استحال لها ان تثبت صلة عرابي بالحوادث. وفي الحكم الاخير معان جمة أحب

ان ألفت اليها الانظار . وفي نهاية الرسالة كتب السير شالز ولسن « لم يكن هناك دليل على صلة عرابي بالمذبحه التي وقعت بالاسكندرية في ١١ يونيو ومن المشكوك فيه ان المذبحه كانت أمرأ مدبراً »

وعدم ظهور أى أثر للتفراغات والرسائل التي تبودلت بين المحافظ عمر لطفي والحديو وبين الحديو والسير مالت والقنصل الانجليزي والتي لاشك انها كانت مستمرة طول مدة الاضطرابات من المسائل التي تثير الشكوك وتحتاج الى الايضاح . وكل اسان غير متحيز يمكنه أن يحكم من الشفرات السابقة المكتسبة من الكتب الزرقاء ، والتي لاجدال في انه قد أبعد منها كل ما يشتم منه رائحة اتهام للحديوى او عمر لطفي او السلطات المدنية ( بقدر ما تسمح به الحال طبعاً ) ان هناك مسائل خطيرة ضد هؤلاء الناس قد سككت عنها وانها في أشد الحاجة الى تحقيق نشط وبحث دقيق

## بيان المسترجون نينه

عن حوادث يونيه سنة ١٨٨٢ التي وقعت بالاسكندرية

وقد أصدره بأمره في ٣٠ يناير سنة ١٨٨٣

كنت بالاسكندرية حين وصول درويش اليها في يوم الاربعاء ٧ يونيه سنة ١٨٨٢ ورأيت على الرصيف وهو في طريقه الى سراى راس الستين وسمعت ذو الفقار باشا ( مبعوث الحديوى وهو رومى مسلم وأحد مخلوقات سعيد باشا ) يعقوب باشا ( مبعوث عرابى وهو شركسى الا انه عرف بالامانة ) وكذلك الشيخ سيد وعمر لطفي ( محافظ الاسكندرية )

وبعد الطهر تروحه العلماء وبعض الاعيان والضباط لزيارة درويش ولكنه لم يتخبرهم بالحفاوة الكافية وكذلك زاره القاصد وكان للمسترجون كوكسون والمسيو كليموسكي في ملاسهما العادية — وزاره كذلك كل من الاميرال الفرنسى والاميرال الانجليزى

ب. ملابسها الرسمية . وكنت موجوداً حين استقبال المتر كوكون الذي ذكر  
رويش ان الاميرال سيمون هو نفس قائد القوات البحرية في دلسنيو ولكن درويش  
بحسب على ذلك بأكثر من الابتسام . وبعد ان خرج القاصل قدم الاعيان عريضة  
يشون فيها شكوى الشعب المصري وبظهور استياءهم من وجود الاسطول ورغبة  
لأمة في الاستقلال وحادثهم درويش كثيراً عن هذه الموضوعات ووعدهم ان  
الاسطول سيغادر المياه المصرية بعد زمن قصير . ولم أكن حاضراً هذه الواقعة ولكنني  
سمعت عنها من صديقين لي وهما الثرياني ونديم كانا حاضرين حينئذ . وكانت  
ديم في هذه الاثناء دائم التردد بين مصر والاسكندرية . ولم يكن المقاد في الاسكندرية  
على ما أعلم الى ما بعد الحوادث

وفي صبيحة اليوم التالي وهو الثامن من الشهر توجه درويش الى القاهرة وتبعه  
دهو في طريقه الى المحطة بجمهورية كبير وكان يصبح صيحات مختلفة حول السلطان  
والاسطول وكان ذو القطار بقية ضباط الحديوي يتجادلون حول سفر يعقوب باشا  
في عربة درويش ولكن درويش أمسك يعقوب من كتفه وجعله يدخل العربة  
وبذلك أصبح فيها هؤلاء الاربعة : درويش وأسد وذو القطار ويعقوب . وعمل  
ديم على أن يسافر في نفس القطار فضلاً اندس بين السكرتيرين والخدم . وحضرت  
رفود في دمنهور وطحا وكفر الزيت لاعلان ولأنهم لعظمة السلطان وربما كانت  
هذه الوفود خطة مدبرة .

والنقط الآتية مصحها من عرابي ومن رساله وأنى أعتمد في صحتها : قوبل  
درويش في المحطة بالجند والموظفين ولكن لم يقابله أحد من أعضاء الوزارة الوطنية  
ولم يكن عند الجماهير حماس ظاهر وأن درويش سار مباشرة الى سراى عابدين  
ولم يستقبل أحداً في ذلك اليوم ولم ير غير الحديوي وعائلته في قصر عابدين وقضي  
ليته في قصر النوسة الذي كان معناله وسمعت ان الحديوي أرسل في تلك الليلة  
أو صباح اليوم التالي أحد الاغوات الى درويش واتفق معه بواسطة سكرتيره انه  
لا بد ان يصله ٥٠٠٠٠ ر. جنها بمجرد الحصول على القود . وبذلك اكتسبه في صفه



مع ان التعليمات التي كانت صادرة لدرويش هي ان يعزل توفيق ويولي حليما بدله . ولم ير درويش يعقوب باشا بعد ذلك .

ومضى يوم الجمعة في زيارة للمساجد والصلاة وفي احدى هذه الزيارات قدم له عالم من العلماء عريضة اغتاض لها درويش وحينما حضر اليه العلماء بعد الظهر ليقدموا له احتراماتهم ويشوه شكواهم قابليهم بخشونة وقال لهم لقد حضرت لانتكلم أنا لا لاستمع لكلامكم . فسبب هذا الحادث حركة غير اعتيادية في المدينة وفي المساء توجهت الرسل الى جميع جهات القطر وأنبأت الناس ان درويش لا يمكن الوثوق به . وفي يوم السبت أرسل درويش باشا في طلب عرابي ومحمود سامي . وحينما حصرا قابليهما بكل ما يملك من مطاهر الاحترام . وأجلسهما بالقرب منه وتكلم معهما عن الحالة . وقد شرح عرابي لي هذا الحادث وقيل لي عبارة درويش وهي « نحن هاجما اخوة وأبناء السلطان وان لحيتي البيضاء هذه تسمح لي ان اكون أباك أنت أيضا وغرضنا واحد وهو ان نصل الى تحويل الاسطول عن مياه الاسكندرية الامر الذي يعتبر مسببا للسلطان وتهديداً للمصر . — وطلب اليهما ان يتقوا جميعاً على ان يعملوا لهذه الغاية وعلى المحصور عرابي ومجلس نظاره لكي يظهر اولاً ثم ليدعم السلطان . ويكون ذلك بتخليهم عن سيادتهم الحرية ولو في الظاهر فقط . ولكي يدخل عرابي السرور على السلطان أيضا فليبه أن يتوجه الى القسطنطينية ولو لمدة وجيزة فقط . وأحباب عرابي على كل ذلك بأنه كان يوده ان يتنحى ولكن الموقف كل من الدقة يمكن وانه أخذ على عاتقه مسؤولية حفظ الامن وانه لا يمكن ان يقف في منتصف الطريق أزا . هذه المسؤولية . فاذا ما تنحي فيجب ان يكون تنحيه تاما واستقالته نهائية في الباطن والظاهر . وعلى كل فانه لا يمكنه أن يتبع أى خطة من هاتين الخطين الا اذا أعطيت له تخلية كناية من الضمان لانه لا يمكنه ان يتحمل تبعات أمور لا يكون له دخل فيها . وقد أنهم في حكمه بالبحث والاستبداد وأمور أخرى وانه لا يمكنه ان يترك كرسبه الا اذا أخلى طرفه اخلاء تاما من هذه الاتهامات . وقال عرابي أيضا انه مستعد ان يتوجه الى القسطنطينية بعد ان نستتب الامر كغرد عادى ليقدم ولاءه الى حلاله السلطان » ولكن درويش لم يكن مستعدا لتلقى هذا الرد وحينما صممه :

يسر منه وامتنع لونه . ثم قال : « ظلمتكم الآن الامور قد استقرت . وما عليك حينئذ الا أن ترسل تفرغاً الى محافظ الاسكندرية وقائد الحامية تخبرهما فيه انك تسحب عن مركزك لى وانك ستعمل كوكلى وسيبقى يوم الاثنين اجتماع في عابدين من الخديوى والقناصل وفي هذا الاجتماع نخليك من ضياتك للامن . ولكن عرابي رفض ان يفعل ذلك وقال انني سأبقى في مركزى منحملاً مسؤولية ضيائي الى أن أنسلم وثيقة مكتوبة تخليني من الضمان وعند هذا الحد وقفت للسألة . ولم يقدم لمهادرويش في هذه الاجتماع لافهوة ولا سجنائو وبعد ذلك بعدة اخبيري محمود سامى أيضا بتفاصيل الحادث باجمها وبعد الاجتماع مباشرة حمل تديم اخبياه الى الاسكندرية وعاد الى مصر في صبيحة يوم الاحد .

وكننت في الاسكندرية في يوم الاحد أى في اليوم الثاني وكانت المدينة في سكون تام وعند الساعة الثانية بعد الظهر أرسلت خادمي السوداني ليحضر لى عربية أتوجه بها الى مركز قيادة الحامية وكان القائد شركسيا اسمه خورشيد باشا ولكنه رجل طيب وكان من اتباع اسماعيل باشا ولذلك كان معاديا للخديوى توفيق . وبعد أن تأخر خادمي في هذه المهمة نصف ساعة عاد وطلب الى أن لا أذهب الى حيث اعزمت لان هناك مشجرة عند قهوة الجزاز في شارع الاخوات - وهي بقعة يتجمع فيها عادة في أيام الآحاد جميع أوباش الادرين والحالون الاعراب . وقال لى أيضا انه قتل اثنان من المسلمين . وبعد ذلك توجهت الى المكان على قدمي ولكنى لم اخترق الميدان بل سلكت شوارعاً خلفيا . فوجدت شارع الاخوات مملوءاً بالتحلوقات من افرنج ومسلمين ولكنى لم أر اقتتالا بالقرب منى . ولكن على بعد مائتي ياردة شاهدت الجماهير توج كالبحر ورأيت طلقات نارية تطلق من التوافد ولم تلبث المعركة أن تقدمت الى ناحيتنا وتراجعت الى ان وصلنا الى مدرسة الرهيان حيث رأيت أمام قهوة من التهوات حوالى اثني عشر روميا مدججين بالبندق وحينما نركنا الطريق بدأوا في اطلاق النيران على الجماهير بدون حساب . وفي هذه اللحظة رأيت عربية بداخلها جندي من جنود البوليس مجروحاً أو قتيلاً . ويظهر أن هذه كانت اشارة الخطر اذ بعدها مباشرة حضر مندوباً الى مكان الحادث جمهور من المسلمين من كل

ناحية وأغلبهم من الرابرة والاعراب من أهل الصيد مدججين بالعصي وعندها أصبحت الطافات النارية عامة في كل مكان ولذلك عدت الى منزلى . ولايت في طريق عربة بها المستر كوكون وأخبرني احد المارة انه كان بمنزل رجل مالطى قبل ذلك بقليل وان هذا المنزل نفسه هو الذى أطلق منه الرصاص وحيثما كان المستر كوكون خارجا منه ضربه الاهالى لانهم اعتبروه مسئولاً عن اطلاق الرصاص . والمعروف انه كان نصيح للمالطيين قبل ذلك بان يحموا أنفسهم في حالة حدوث هياج ثم قابلت عقب ذلك عند الساعة الثالثة عمر لطنى بتشي في ملابس عادية مع نفر من البوليس وسأله عن السبب الذى منعه من إيقاف الاضطراب . فقال « اتدكنت مع القنصل الانجليزى الذى ضربه الاهالى » فقلت « ولكن لماذا لم تذهب لباسك الرسمى ومعك خمسون رجلا من البوليس السوارى وتوقف الاضطراب » . فقال انه لم يعثر على قنديل رئيس البوليس . « ولكن الحد . لماذا لا يقومون بالعمل مع أنفسهم » . فاجاب انهم يعتقدون احتياجا الآن « فأثته ولماذا لم يرسل تلغرافا لمدوب السلطان ؟ فاجاب في غلظة « وما شأنك وهذا . » وكانت القنصلية الفرنسية مملوكة باللاجئين الاوربيين .

وبعد ذلك توجهت الى منزلى وارتديت اردأ ملابسى وحملت عصاة يدي ثم خرجت ثانية ورأيت بضعة أطفال يحرقون بأمتعة سرقتها من المحلات التجارية وكان رجال البوليس موجودين حينئذ ولكنهم لم يفعلوا اى شئ . لمنع الاقتال وفي هذه الاثناء قابلت احد حراس القنصلية الروسية واخبرني ان القتال دائر ايضا بالقرب من الميناء وان المسافرين الذين كانوا على ظهور المراكب في ذلك اليوم قد ضربوا والقنصل اوسلوا تفرغات الى مندوب السلطان . وكان ذلك عند الساعة الثالثة ونصف او الرابعة وكان الكل ينتظر ان يتدخل الجيش في الامر وعند الساعة الخامسة ظهرت الفرق وانتهت الفتة . وأني اعتقد من مساء عمر لطنى ومن ظروف اخرى ان عمر لطنى مسئول عن استمرار الهياج . فقد كان الجيش يتدخل قبل ذلك لو انه طلب من الجيش التدخل ولم يتكأ .

ومن المرجح لهذا الاعتقاد الظرف الآتى . بعد الهياج بارعة أيام توجه عمر

لطفى الى المركب الاول بالاسطول الماربط وأخبر الاميرال سيمور انه غير مسئول عن النظام وان عرابي عاجز أبصاً عن المحافظة عليه . ورجاه ان يرسل مرافقاً عنده وطلب ذلك في وقت كانت المدينة في هدوء تام . وكان عمر لطفى خصباً لمرابي وصديقاً للغديوي . وقد نجي عن مركزه كما سمحت بناء على طلب القناصل ترضية لراى العام وذلك حينما اعتزل راعب باشا الحكم وجاءت نظارة ذو الفقار . واوقفت لجنة التحقيق عن متابعة أعمالها حينما طلب عرابي أن يكون التحقيق شاملاً يناول الاورويين والمصريين على السواء .

وقد علمت تفاصيل مقابلة عمر لطفى للاميرال سيمور على ظهر باخرة المستر ماربوت الذى كان يتخذ سيمور سكرتيراً له وعلمت بعض المسائل الاخرى من المسيو دى لكس القنصل الرومى .

اما من حيث منشأ المشاعات فهو كما يأتى : أحدث وصول الاسطول الى مياه الاسكندرية شعوراً عدياً شديداً بين المصريين وبين الحاية الاوروبية . فالاورويون رأوا في حضور الاسطول مقدمات أولى للحرب وأصبحت معاملاتهم للاهالى على شئ كبير من العنف وكانوا يقولون « الآن سترون ماذا نفعل » وبالقبة للمصريين أصبح الحداث موضع حديثهم اليومي وأثيرت بينهم احتمالات كثيرة . وانتشرت فكرة جديدة وهى ان الجنود ستنزل من الاسطول الى البر وان البلاد ستحتل بالانجليز . وكبيراً ما سئلت في هذه الاثناء عما اذا لم تكن هذه هى نية الاسطول الحقيقية وازداد هذا الظن رسوخاً حينما عرف انه كتب عقد بين الاميرال سيمور والمسيو كتراد لثوبن الاسطول لمدة ثلاثة أشهر وأصبح الناس ولا حديث لهم الا ذلك وازداد المياج ولكن الشهور ضد الفرنسيين لم يكن بهذه الصفة العدائية لان لما رغب الذى وقفه الاميرال كتراد حينئذ لم يكن عدائياً بل على العكس من ذلك كان يصل دائماً على التوفيق بين الوطنيين . وقد سبب هياج الاممكر بين الاهالى فزع الاورويين وخصوصاً الانجليز والمبايطيين منهم الذين كانوا دائمي الاستشارة لقاصلهم عن الطريقة التى ينبغونها لحاية أنفسهم في حالة حدوث اضطراب وقد أخبرهم المستر كوكسون ان يستعدوا لحاية أنفسهم في أواخر مايو او اوائل يونيو

وعرف في الوقت نفسه انه أرسلت آلات نارية من اليونان لتسليح الادوام  
بالاسكندرية . واشترى الانجليز كل ما عثروا عليه منها في المدينة وعلمت من موطنى  
مصلحة الجمارك ان بنادق ومسدسات من ماركة منبدر أرسلت اليهم من الاسطول  
وبناء على ذلك أصبح حدوث معركة من المسائل المؤكدة تقريبا واذ كان يوم  
الاحد هو اليوم الذي يتجمع فيه الاوروبيون في القاهرة وفي الطرقات لتعاطى  
المشروبات ، فقد كان ينظر الى كل أحد نظرة خاصة وكان توقع الخطر بهذه القوة  
التى ألبأت كثيرا من مسالى المصريين والاوروبيين على السواء الى ترك القطر .  
وبدأ المسلمون كذلك يلحون أنفسهم بالمعصي وعلى الخصوص النوبيين الذين  
كان يوجد منهم بالاسكندرية ٣٠٠٠٠ . ومن المعلوم ان البرابرة قوم مشاغبون  
ومحبون للاقتال . وكان كثير منهم متعلقا لشراكة في هذا الحادث .

والقصة التى ألفت الى عن منشأ الحادث في هذه الاثناء هى كما يأتى : فى صبيحة  
يوم الاحد الحادى عشر من الشهر حضر أحد المالطين لزيارة أخيه الذى كان في  
خدمة المستر كوكون . وأخذ حنيها بفتيشا من القنصل وخرج ليستمع به في المدينة  
وركب عربة وأخذ يدور بها على جميع الحارات في الحى الاوربى وأخيرا وصل  
الى قهوة الجراز . وكان سكرانا في هذه اللحظة وأراد أن يصرف السائق ويعطيه  
قرشا واحدا فقط . فتناجر اوما كان من المالطى الا أن قبض على سكين من سكاكين  
القهوة التى تستعمل لقطع الجبن وكانت مربوطة في خيط كبير متصل بالخوان «الترابيزة»  
وطعن بها السائق . وكانت طعنة نجلاء أصابت احشاء الرجل وحينما أتى آخر ليعاون  
الجريح قتل أيضا يد يوناني آخر . وفي المشاجرة التى تلت هذا الحادث قتل خباز يوناني  
كان يعيش في البناء الملاصق وبذلك أصبحت المشاجرة عامة . وكان معاون قسم  
القبان وهو الرئيس المباشر لبوليس هناك ابطاليا لا يعرف اللغة العربية ولم يتمكن  
من إيقاف المشاجرة . وجرح أحد رجال البوليس من اتباع المعاونة المذكور أما  
البقية فقد انضمت للمشاجرة وناصرت الاهالى . وهذه المعلومات تلقيناها عن رجل  
من رجال البوليس المسيحيين وكان حاضرا وقت الواقعة .

أما بالنسبة لتعديل رئيس البوليس فقد كنت رأيته في يوم الخميس السابق يحمل

سوماريقا وعلت انه مريض لاني جسست نبضه وكان مصابا بالحمى . ولو ان عمر لطفي أراد أن يوقف الهياج لامكنه ذلك بكل سهولة .

والسبب الحقيقي في انتشار الهياج بهذه السرعة هو عرض الموتى من المسلمين لانظار الجمهور . وقد رأيت ٧٨ أوروبيا قتل وعلت من السكرتير المسلم في لجنة التحقيق وكذلك من الدكتور المسلم وهو مصطفى بك نجدى أن عدد القتلى من المسلمين كان مائة وأربعين منهم ٢٥ بربريا .

وكذلك كن للاعراب من قبيلة أولاد على ضلع في المشاغبات فقد رأيت ٢٠ أو ٢٥ منهم بالقرب من بيت جبارا وشاهدتهم يفتحون مخزنا للأسلحة النارية وكان أولاد على في هذا الوقت متحيزين للخدوي بعد أن أخذوا ٢٠ ألفا من الحسبات رشوة من مدير البحيرة ابراهيم توفيق في دمهور . وسمعت فيما بعد من أحد موظفي مكتب التلغراف المحلى أن عمر لطفي أرسل في هذا اليوم كثيرا من التلغرافات الشفوية الى نائب السلطان .

وأقرر أيضا اني لم أترك الاسكندرية مطلقا قبل يوم ١١ يونيو بيضة أيام وبقيت بها الى ما بعد اطلاق القنابل عليها من الاسطول .

---

## الملحق الثالث

خطابات من عرابي ناشأ لم تدمح في أصل الكتاب

مترجمة عن العربية

إلى المستر بلنت من القاهرة .

٢٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

الى صديقي وروح جاني المستر ولفر بلنت . أدامه الله

بعد تقديم أوفر تحيائي وشك أحر أشواقي لرؤية وجهكم المنير . أخبركم آني  
تشرفت باستلام خطابكم المؤرخ ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٢ وحدث الله على تمتعكم بالصحة التي  
أنتمى دوامها . ألبسكم الله حال العافية والرخاء . والحق أن خطابكم ملا في سروراً  
بلوحة أعجز عن التعبير عنها . كما آني أوجو أيضاً أن تبلغ وافر تحيائي لحرمكم للصون  
اللاذي ملنت

والآن أخبر حصرتكم آني لا أعبا بالآمي ولا بالسجن ولا بالسباب ولا بأي  
شيء . يوجه الى بعد ذلك مادمت قد وقفت نفسى على حرية بلادى ولا شيء . بهمني  
الآن الا أن أتقد أهل بلادى من هذه الهوة الملوثة بالآماعي السامة وأن أنتشلهم  
من مخالب هذا التنين الفظيع — ويكون ذلك بمعونة الفضلاء . من الانجليز الذين  
يفارون على صحة بلادهم وشرفها .

وأريد فوق ذلك ان كان في العمر بقية أن أعيش طليقاً في دمشق مع أولادى  
بعيداً عن السياسة مادمت بعيداً عن مصر واذا لم يسمح سلطان المسلمين بأن أعيش  
بين المسلمين قانى أفضل أن أفطن لتسدين مجاوراً لآخواننا من محبي الانسانية  
ومساعدتها وأعيش هناك كرجل حر في أرض الحرية — ولكن على ألا أكون  
محترقاة او اشراف . وكذلك أصدقانى وأعوانى الذين قدموا لأرواحهم في سبيل  
الوطنية يجب أن يعيشوا أحراراً . ومقابل ذلك قانى أعطي كلمة شرف أأكيدة

أن لا أمدخل في الامور السياسية في الوقت الذي أعيشه بعيداً عن بلادى » الى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

اما من حيث الطريقة التي ألقى بها الخصوم على النهم فيما يتعلق بمحوادث ١١ يونيو و ١٢ يوليو — فهذه مجرد اقترابات لا يمكن اثباتها بأدنى دليل او برهان منذ كانت هذه الاعمال تتنافى مع أعمالنا الشريفة . وقد اجتهد خصومنا أن يشيروا أوروبا ضدنا بهذه الاتهامات لكي يمزقوا الحريات التي حصلنا عليها لبلادنا أروبا وينزوها في الفضاء . ومن يدري فربما أفاد ذلك بلادنا ويأتي وقت تستكمل فيه حريتها وحلاصها باتجاه الرأي العام الانجليزي الحر اليها رعباً عن مساعي خصومها المكشوفة

واني لا أعيا هذه الاقارب العارضة التي لم أكن أرغب فيها في اى وقت من الاوقات . واني مكتف بشرق الشخصي الذي سوف يلازمى ماحيث ويبقى بعدى ادامت . وسوف يرضيني دائماً أن أنادى « باحد عرابي المصري » فقط وبغير اقارب .

وفي الحتام أرجو أن تبلغ اوفر نحياتي لحضرة صديقنا العزيز المستر ساينونجى والمسيو جون نيه واخوانك الذين انفضوا اليك في الدفاع عن الانسانية ومن عندنا محمود باشا سامي وعلى باشا فهمى وعبد العال باشا حلى والشيخ محمد عبده واحمد بك رفعت يلفونك نحياتهم . أدام الله عرك يا صديق المحبوب صديقك احمد عرابي

من القاهرة

الى المستر بلنت

الى مهجة أرواحنا ومنفذنا المستر ولفرد بلنت . أدامه الله وأبقاه

بعد تقديم اوفر نحياتي والتنويه بشرفكم الذي يعجز عن استيعابه الوصف أخبركم أنه بناء على تعليماتكم ومشورة حضرة المحترم المستر برودلى والمستر نايبير قد اعترفنا بالثورة ضد الخديوى وصدر الحكم علينا بالثبوت المؤبد . ولكن موافقتنا على ذلك لم تكن الا لتخفيف المصاعب التي تحيط بالسياسة الانجليزية وان تقفنا في عدالة



الشعب الانجليزى يحبطا نعتد انا سنحصل في المستقبل بطريقة تزيد من مجد اسم  
انجلترا في التاريخ . وقد عاملتنا الحكومة المصرية من ناحيتها معاملة مخالفة للقانون  
والعوائد المدنية في الاسلام فاصدوت رسوما تصادر به أملاكنا وأراضينا ومواشينا  
مع ان المحكمة العسكرية نفسها لم تضمن حكمها قراراً كذا كما أن هذا المرسوم مخالف  
لشريعة الاسلام ولم يكن له مثال الا في حادثتنا . لان قضية درويش باشا التي  
حكم عليه فيها بالنفي وبالحرمان من الوظائف والاقاب ومن كل شيء . الا أملاكه  
فقد تركته ومقدارها ثلاثون الفا من الجنيهات — أو تزيد والاعجب من ذلك اننا  
حرمانا من التوارث بنا . على الشريعة الاسلامية في المستقبل وهالك أمر آخر لا يعدله  
شيء في الظلم والاستبداد وهو اننا حرمانا من حق آخر ثابت لنا بمقتضى الشريعة  
الغراء — حرمانا من ان يرث أبناؤنا أملاك آبائهم وأجدادهم بعد موتهم . وقد  
احتجنا على ذلك بواسطة محامينا في المحكمة .

والآن نحن متجهون الى حديقة آدم : سيلان . ولكنى قبل ذلك قد أبنت  
وجهة نظرى فيما يتعلق بسعادة مصر وروحاء أهلها لسير شارلز ولنس ليكي يعرضها  
على القورد دوفرين . وسأصطحب معى الى سيلان ابني محمد وزوجته وخادمت وخادمى  
الخاص فقط وسأترك في القاهرة أولادى الآخرين وأهمهم وأمي الى ما بعد الوضع  
وبعد أربعة أشهر من الآن أى بعد الوضع باربعين يوما سأرسل ابني الى مصر  
ليأتى بهم الى سيلان . أما اخوتي فيقيمون مع أقاربهم في القرية وبما ان الحكومة  
المصرية لم تحدد مرتباتنا الشهرية الى الآن وتركزت تقرير ذلك لسعادة محافظ جزيرة  
سيلان حسب ما يراه من تكاليف المعيشة هالك فاني واخواني نأمل من عواطفك  
واحساسك الشريف ان تكتب لسعادة محافظ سيلان وكذلك نأمل ان يكتب  
اليه صديقنا السير وليام جرمجورى لكي تعامل وتقدر مرتباتنا تقديراً حسناً . كما  
اننا نرجو ان نسى في تخليص ممتلكاتنا من المصادرة وان تجعلنا تعامل بشأنها  
حسب الشريعة الاسلامية والعرف الاسلامي وان تحصل من الحكومة المصرية على  
نصريح بإرسال عائلتنا الى سيلان على نفقتها الخاصة لأنه يستحيل علينا ان نفق  
أي شيء في هذا السبل وحالتنا المالية المصرة معروفة للجميع .

وانا نرجو بجرارة أن يكون أصدقاؤنا وأقاربنا في مصر تحت حماية ممثلي الحكومة  
الانجليزية فيها حتى لانسي. الحكومة المصرية معاملتهم وتذمم منهم باتخاذ اجراءات  
غير شرعية ضدكم ولذلك فنحن نضع أنفسنا وأصدقاؤنا وأقاربنا في ظل حي الدولة  
البريطانية ونحن مطمئنون تمام الاطمئنان والآآن يا صديق الحبيب سنتبع نصيحتك  
الصادقة التي أسديتها في خطابك المكرم المرسل لنا بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٢  
وسنمضي أيماننا في سيلان في تعلم اللغة الانجليزية وفي عبادة الله تعالى دون أن  
تتدخل في أي أمر من أمور السياسة على وجه الاطلاق — الى أن يأتي وقت بمشيئة  
الله أو يهي. الله لنا ظروفا تقنع انجلترا اننا لم نكون نافرين — بل على العكس من  
ذلك كنا ندافع عن بلادنا دفاعا شرعيا

ونرجوك أن لا تهرمنا من اخبارك الشيقة التي نحن دائما في تشوق اليها .  
وأرجوك ايضا أن تبلغ نحياتي ونحييت عائلي الى السيدة المصونة اللادي آن بلس  
والى اللادي جرمجوري وشكرنا العظيم على كل ما فعلوه لنا وخدموا به الانسانية  
وكل لخواني هنا — يعقوب سامي ومحمود سامي ومحمود فهمي وعلى فهمي  
وعبد المال حلبي وطلبة عصمت واحمد بك عبد الغفار يرجون أن تذكرهم ويلقونك  
اسمى نحياتهم ونحن جميعا نرجو أن تبلغ نحياتنا لصديقنا السيروليم جرمجوري والمستر  
لويس صابوهمي والمنسيو جون نينه وجميع أصدقاؤنا من ذوي المروءة الذين ساعدوك  
في الدفاع عن العدالة .

ادام الله لنا حياتك يا صديق في سلام دائم

صديقك الخاضع لامر الله  
احمد عرابي المصري

٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٢

## خطاب من عرابي

كتب في كولومبو في ٧ يوليو سنة ١٨٨٣

ووصل الى لندن في ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديق العزيز الخ صابونجي

بعد التiche أخبرك أني تسلمت بسرور خطايك المؤرخين في ٩ و ١٥ يونيو  
واطمأنت لما جاء، فبهما من حسن صحتك الخ .

واني أشكرك وأشكر اخوانك أنصار الاسانية لاستمراركم على محاربة جيش  
الظالمين وعلى تديده شباتكم واني وإن كان واجبي الآن أن لا أَدْخُل في الامور  
السياسية إلا أن العدل يقضي على أن أبرئ درويش باشا من تهمة الاشتراك في  
مذبحه الاسكندرية وأقول هذا دون اي شك او تردد . ولكني لا أبرئه من انه  
أحد رشوة من الحديو فان هذه عادة الأتراك ولكن المبالغ الذي أحده لم يكن  
المتحصل من رهن اراضي ميت خالد التابعة لحرم الحديو ، فان الناج من رهن هذه  
الاراضي دفع رشوة للبعثة النمانية السابقة التي كانت برئاسة علي نظامي باشا وكان  
مبلغها ٦٠,٠٠٠ جنيه أرسلها ثابت باشا الشركسي الى الاستانة بحواله من البنك  
الانجليزي . وكذلك لم يطلب درويش إلى شينا سوى أن أسافر مع بعض رفاقي الى  
الاستانة وكان وهو يعرض ذلك يقول للضباط انه رئيسهم ووالدهم لكي يغريهم  
بالتة به حتي ينجح في حضنا على السفر ولكنه فشل في ذلك .

وقد سبق أن أدليت بتصريح خاص الى المستر برودلي بشأن مذبحه الاسكندرية  
وبآخر في الامر نفسه الى صديقنا النبيل المستر بلس ، وهذان التصريحان بوضوحان  
ظروف تلك الحادثة . وقد علمت ان احدهما لم يصل الى المستر بلس ولكنه لا يختلف  
عن التصريح الآخر وفيه الكفاية . غير آتي لكي أقفك على الحقائق ولكي أحول

وبين الالتفات للاشاعات الكاذبة اكسب لك ها تفصيلا ما أدكره من الظروف التي سقت حادثة ١١ يونيو والتي حصلت في اليوم نفسه أو بعده حتى تعرفها جميعها وهي كما يأتي :

اما الظروف السابقة للعادة فهي :

أولا - لما رأى الحديو قدم الحزب الوطني استكثره بالنسبة لنفسه واستشاره وحرره - وكانوا خيرى باشا الشركي وطلعت باشا الرومي وأنالهما - وشرعوا يصمون خطة للهدم . وبنا على ذلك استدعى الحديو رعايا البدو بواسطة ابو سلطان باشا وحمد سلطان من عمران الشرقية واستخدمهم لمحاربة الحزب الوطنى بعد ان مسح بعضهم سيوفهم زينة بالفضة وشجعهم وأثار أطماعهم ، حتى بدا الناس بوجه عام ان الاسماعيليه صارت معسكر البدو

وكلن الاوربيون والقاصل في القاهرة يعرفون ذلك حق المعرفة وقد زاد عدد البدو الوافدين لدرجة انه سبب الخوف من وقوع اضطراب وشرع الاوربيون يشتركون جميع الاسلحة التي يجدونها في حوايت القاهرة والاسكندرية . وقد أثبت ذلك السير ادوارد ماليت في برقيته التي أرسلها الى الوزارة الخارجية بتاريخ ١١ يونيو ثانيا - لم تنقطع المراسلات السرية قط بين الحديو وعمر لطفي حتى أنتجت مذمجة الاسكندرية وبعض هذه المراسلات كان شفويا والبعض في برقيات رقية وكان يدير حركتها خيرى باشا الشركي وطلعت باشا الرومي ولما تم التدبير نفذه عمر باشا لطفي بالتعاون مع اسماعيل كليل باشا الشركي . ولكن السيد قنديل الذي كان من الحزب الوطني لم يشترك معهم في ذلك ولم يدعوه يعرف شيئا مما دبروه اذ خشوا ان يقابل سوء أعمالهم بعمل الحزب الوطنى فلا يجنون فائدة وهو بعيد عن كل شبهة .

ثالثا - قال باشجاويز ابطالى - ولا أذكر اسمه - لصديق له قبل الحادثة يوم « انه خير له ان يفادر الاسكندرية معه لانه علم ان شيئا من الاضطراب سيحدث » وقد فر ضلا ويعرف اسمه حسن بك صديق وكيل الضيقية وكذلك

ضباط البوايس ولا بد أن يعرفوا أيضاً اسم الشرطي الذي قبض على الماطلي .  
ولكن القول بأن البدو أودعوا أسلحتهم في العنينة قبل الشغب محض اختلاق .

أما الظروف التي كانت يوم المذبحة فهي كما يأتي :

أولاً — لم يرسل إلى محافظ الاسكندرية بأ بالمدبحة كما كان واجبه وإنما  
أخبرني الخديو في صباح ١٢ يونيو أن المحافظ عمر لطفي أرسل إليه تلغرافاً يقول فيه  
أن مالطياً ملعن وطنيا بمعية ثم لجأ إلى دار يسكنها أوريون وأن الناس تجسروا  
مرتقبن القبض على المعتدي وأن البندقيات والمسدسات أطلقت عليهم من منازل  
الأوريين وأن ذلك أحدث مذبة كبيرة

ثانياً — لما علم الخديو بذلك لم يخبرني به في الحال على الرغم من أنه يعلم أن  
السلطة التنفيذية ليست في يده وأنه قل إلى ضمان الأمن العام بعد أن استخدمه  
لبذر أسباب الاضطراب . بل أنه على العكس استدعى وكيل الحربية ليلاً وأرسله  
إلى الاسكندرية في قطار خاص مع بطرس باشا والياور الأول لدرويش باشا لينضموا  
إلى عمر لطفي في قمع الهياج .

ثالثاً — نشأت الجمع كله عند مجرد ظهور سليمان بك سامي وحنوده في منطقة  
الاضطراب ثم وزع الجود في الشوارع وحمل يطوف بنفسه في أحياء المدينة وكذلك  
وقف الاضطراب في الحال ولكن المحافظ لم يستدعهم ولم يخبره بالامر الا بعد أن اتسع  
مجال الشغب ونفدت تدابير الخديو وشركانه لكي يسوئوا أعمالنا وينقضوا ضباتي  
للأمن العام .

أما ما حدث بعد يوم الحادثة فكلن كما يأتي :

أولاً — لما أخبرني الخديو بالحادثة كما قلت آنفاً علمت في الحال أنها مكيده  
فأصدرت أمامه على إجراء تحقيق في أسباب الشغب وتعيين مندوبين عن الدول  
العظمى وآخرين وطنيين لكشف الحقيقة . وثنا على ذلك أصدر ديكريته بتعيين  
لحة تحت رئاسة عمر لطفي نفسه الذي كان المسؤول عن الحادثة . وكذلك عين  
وكيل الحربية وطرس باشا عضوين بها ولكنني لا أذكر اسماء المندوبين الذين اختارهم  
الدول العظمى التي لحق برعاياها ضرر

ثانياً — لما وصل وكيل الحرية الى الاسكندرية ووقف على الحالة رجاني أن  
رسل قوة عسكرية لتأييد الأمن فارسلت في اليوم التالي للاضطراب فرقتين من  
المشاة وبلوكين من السوارى وطارئين من المدفعية وكان ذلك في اللحظة التي طلبت  
فيها هذه القوة . وكتبت خطاباً الى وكيل الحرية راجياً أن يدل كل جهده لارالة  
الاضطراب وتوطيد الامن والهدوء في المدينة وحارجها وأن يكون متبهما حين  
يبدأ التحقيق وأن يحدد الوقوع في فتاح الخادعين — أعنى عمر لطفي وجماعة الخديو —  
وأن يدافع عن شرف الجيش والحكومة وأن يعقد بفته على معرفة الحقيقة وكشف  
لجرم الحقيق

ثالثاً — أمر الحافظ بدفن القتلى دون كشف طبي كما يقضي القانون وبدون  
حضور ممثلين للدول

رابعاً — لم تبحث لجنة التحقيق قط عن سبب المذبحة ولا عن القتلى وانما  
حصرت بحثها في الاملاك التي نهبت متذرعاً بأن ممثلي الدول لم يحول لهم التحقيق  
في شيء يخرج عن الاملاك المسروقة

خامساً — طلب عمر لطفي من الخديو السماح له بتغيير الهواء في سوريا لكي  
يهرب من التحقيق ويبعد عن المسؤولية ولكن يعرف أن الحرب داية وقد حصل  
على اجارة ثم ذهب الى القاهرة ومكث فيها الى ما بعد ابتداء الحرب وبعد ذلك  
لحق بالخديو عن طريق بود سعيد وقد كافأه الخديو على نجاحه في اشغال نار الفتنة  
باعطائه وزارة الحرية . ولما استقال من منصب محافظ الاسكندرية ومن رئاسة لجنة  
التحقيق عين ذو المقام باشا سر تشريفاً في الخديو خلفاً له ولم يبق عمل .

سادساً — كانت أوراق التحقيق مع الحافظ عمر لطفي ولم تؤسس على شيء من  
الصدق وقد حفظت بمحاولة الاسكندرية ولا بد أن تكون هنالك الآن ان لم  
يتلفها الخديو

والآن انضج تماماً ان اعمال الخديو وجماعته كانت سرية ولم يكره استطاعتنا  
أن نقف عليها لأنها كانت مصادرة لاعمالنا وقد استحوذت الحكومة على جميع

اوراقا ووثائقا مع أملا كما ولا يمكننا أن نذكر تواريخ الحوادث بالاصط ولكن في هذا وفيها ارسل سابقا الكهانة .

وجميع أصدقائنا هنا يرسلون اليك تحياتهم ويرحونك أن تسعى حتى لا يعين مصر حاكم غير مسلم لانك تعلم ان أي حاكم غير مسلم يضر بحقوق المصريين .  
وقد كتبت آرائي الى صديق العزيز المستر بلنت وحين نطلع عليها سننظم لمساعدتنا . حفظك الله .... الخ .  
صديقك

في ٧ يوليو سنة ١٨٨٣ احمد عرابي المصري

خطاب من عرابي الى صابونجي استلمه يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديق العزيز صابونجي

تحيات ... الخ .

سررت كثيرا بخطابك المؤرخ في ٢٢ يونيو وأسأل الله أن يعبك ويوفقك في أعمالك وقد بلغت سلامك الى جميع رفاقنا وهم يرسلون اليك تحياتهم .

هنا ويرجوك أن تبلغ صديقنا المستر بلنت اضافة الى ما كتبنا اليه بتاريخ ١٥ الجاري ، ان التفقات التي تكلمها ١٠٠٠٠٠ جندي مصري أثناء الحرب ، قدوقتها كلها هبات اكتبنت بها الامة المصرية على اختلاف طبقاتها وعند ابتداء الحرب لم يكن ثمة أكثر من ١٠٠٠٠٠ جندي تحت السلاح ولا أكثر من ١٢٠٠٠ بذلة في المحارن ولم تكن جاهرة ، ولم يكن هناك أيضا غير ١٥٠٠ « بشل » من القمع . ولكن عند انتهاء الحرب كان في خزائن الجيش والمدريات وفي المخازن ما يزيد قيمته على مليون جنيه من القود والحاصلات والماشية والعنم والاقشة وكانت الامة قد تبرعت بها للجيش الذي يدافع عن بلادها . وبشهد بذلك اولئك الذين رأوا امتلا . المخازن التي تركت في التل الكبير وكفر الدواو وكفر الزيات وغيرها من المراكز الحربية . وفي ذلك الوقت لم ينمق على الجيش درهم واحد من أموال الحكومة بل بالعكس تركت خزانة المالية وصندوق الدين وخزائن المدريات مملوءة بالاموال . ويشهد بذلك ايضا ما نشرته الجرائد المحلية وغيرها في ذلك الوقت وهو أن المبالغ التي وجدت في صندوق الدين زادت على المطلوب لدفع كوبونات شهري أكتوبر

ووفير بمبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنيه ولم يقل أحد أن املاك الحكومة صودرت أو نهبت . ولو كما ممن يبعون شرفهم أو ممن يقدمون رجاؤهم ومصالحهم الشخصية على المصلحة العامة لاوطن لاخذنا الاموال التي كانت تلك الخرائن المملوءة ولكنا تحت تأثير الرغبة في الغنى نقوم بأعمال تختلف تماما عما عملناه ولما سرنا في طريق الاستقامة نقود الامة في دفاعها عن بلادها محترمين حقوق الامة التي نماربنا وحقوق الامم الاوربية الاخرى في أثناء الحرب ، ثم لما سلمنا الودائع التي كانت بأيدينا بذمة وشرف ، وان الرجل الذي يدل على مثل هذه القصة وهذا الشرف لا يليق به أن يصير آلة بأيدي المستبدن ذوى النيات السيئة أو يؤجر به باموال من السلطات أو من الشيطان بل انه في حرصه على شرفه ومسلكه يخشى أن تشوبها أية شائبة .

وقد أرسلت وقته هذا خطابا الى صديقا البير ولهم جري مجورى وأرجوك أن ترجمه وترسله مع الترجمة الى عوامه بعد أن تزيه لصديقنا العزيز المستر بلنت . نسأل الله أن يعينك على الخير

صديقك المخلص

احمد عرابي المصري

حاشية — يا صديق العزيز أرجوك لهذه المناسبة ان تذكر صديقا المكرم بما قلته في ختام نصريحي للمجلس الذي حاكمي ، وهو كما يأتي :

يا أنصلو الانسانية : اذا لم تكن نمة حركة وطنية ولا رأى عام في مصر بل كانت هناك حركة عسكرية كما يقول المفرضون ، فلماذا سجن عشرون الفا من الوطنيين بعد الحرب ومن بينهم حسن باشا الشريبي أكبر سرة الوجهة القبلية أبا عن جد وسيد ابو سلطان الذي ساعده حين كان ( ابو سلطان ) بمجرد موظف في الحكومة . وأيضا عبد الله باشا فكرى العلامة المشهور صديق حسن الشريف باشا . ومن بينهم أيضا صديقاى محمود باشا سامى ومحمود باشا فهمي الاذان تقوفا في الجيش أثناء الحرب . ومن بينهم كذلك كثير من كبار الباشوات ورؤساء المصالح المدنية مثل حسين باشا الدردملى ومصطفى باشا نايل وآخرين ، وكثيرون من العلماء الكبار وأعضاء مجلس النواب والمدرسين والمتمين والموظفين المدنيين من جميع الدرجات وأعيان التجار والصد ومشايخ البدو ومشايخ الطرق الصوفية ، حتى ان سجون القاهرة



والاسكندرية والمديريات والمحافظات كانت نحتق بهم أثناء سجننا . وأخيرا نرى  
كثيرون من أدكياتهم من الاراضى المصرية . فاذا اعتبر الجيش وحده فى حالة  
ثورة فلماذا عوملت الامة هذه للعاملة ؟

ولكن من جهة أخرى اذا كلن الجيش وزعماء الامة — او الامة المصرية كلها  
فى الحقيقة — قد اتحدوا رغم اختلاف العقائد واتفقوا جميعهم على واحد هو الحق ،  
فلماذا تأتى أمة أخرى معروفة بأنها تقيم عهد الحق والعدل فتسحق هذه الامة المنكودة  
الحظ لكي ترضى فردا واحدا لا يسمح له قانون بلاده بان يكون حاكما باى حال  
وذلك رغم احترام الحكومة الانجليزية للقانون والدين ، وكيف يبدو مثل هذا  
المسلك أمام العالم المتمدين فى التاريخ ؟

احمد عرابى المصري

## خطاب من عرابى الى المستر بلنت

كولومبو فى نوفمبر سنة ١٨٨٣

الى صديقى العزيز المكرم . . . الخ المسنر بلنت حفظه الله

اذكرك الآن بظروف العهد الخفيف الذى حل ببلادنا مصر ودفعني الى ان  
أكلف مسيو لويس صابونجى بان يكتب اليك خطابا باسمي بشأن النتائج التى  
تنجم عن محاربة انجلترا لمصر والاحوال التى تصير اليها البلاد راجيا اياك ان تبين  
ذلك لرئيس الوزارة المستر غلادستون . وكنت أؤمل قبول هذا التصريح وبنى  
بعض الخير من ورائه . وكان ذلك قبل ابتداء الحرب بضعة أيام . وقد كتبوننى  
رغبتي وبأمرى وان كلن الخطاب لم يكتب بخط يدي ولم يختم بختمى . وقد كتبت  
اليك هذا الخطاب لأننيك بحقيقة تلك المسألة يا صديقى الكريم .

صديك

احمد عرابى المصري

١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٣

## قائمة بأسماء المكتتبين

نلدفاع عن عراقي

جيه	شطن	بنس	
١٠٠	٠٠		اللورد وتورث
٦١	١٧	٦	مبلغ جمعه فريدريك هاريسون
٥٠	٠٠		ج . باسكور ادواردز عضو البرلمان
٥٠	٠٠		رينشارد آيف
٢٥	٠٠		السير وليم جرمجوري
٢٠	٠٠		وليم جون ايڤلين عضو البرلمان
٢٠	٠٠		روبرت هاريسون
٢٠	٠٠		السير ولفريد لوسن . عضو البرلمان
٢٠	٠٠		ايرل أوف ويميس
١٠	١٠		الانونور ايل ا. يورك
١٠	١٠		سبنسر تشارنجن
١٠	١٠		فردريك هاريسون
١٠	١٠		الجنرال اللورد مارك كز
١٠	١٠		صمويل ستوري عضو البرلمان
١٠			الرايت انور ايل روبرت يورك عضو البرلمان
١٠			ر . فودمي
١٠			ت . س . كلوجوم
١٠			اللاى جرمجوري

بنس شن جنیه

١٠

السیر آرثر هوبهوس

•

ف. بکستون عضو البرلمان

•

اللورد راندولف تشرشل عضو البرلمان

•

ادوار کلارک عضو البرلمان

•

ر. س. فیشر

•

الجنرال س. ا. غوردن ( مع الوعد بمجیه كل سنة )

•

الاونورابل اوبرون لفربرت

•

وتتورث س. هولده زورقی

•

الفريد النجورث عضو البرلمان

•

ا. کنجلیک

•

فرنون واشنجتن

•

السیر هنرى درموند وولف عضو البرلمان

•

٣ ٣

ادجار درموند

ملحوظه — جورج مردیث وولفرید مینل وآخرون اکتفوا بمبالغ أقل .  
واللورد دلاوار اکتتب على ما اعتقد بمبلغ ١٠٠ جنیه ولكن ليس عندى مذكرتها .

## خطابات صابونجي

التي وردت إلي من مصر

القاهرة في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٢

في ليلة أمس ( الاحد ) زرت منزل محمود سامي الذي يجتمع به زعماء الحزب  
الوطني كل ليلة للمناقشة في خطتهم . وفي الوقت نفسه لفت فوزي بك مدير البوليس  
الانظار الى اعلان من الحديو منشور في الجريدة الرسمية بشأن الاضطراب الاخير  
الذي حصل في الاسكندرية . وقد أحضرت الجريدة في الحال وأعطيت لديم فقرأ  
الاعلان في صبح فحدث في الحاضرين أثر سيئاً شديداً . أما أنا فاني لم أجد  
اى خطأ في الاعلان لانه وصف حالة البلاد بمجمل وأبدى الاسف لما حدث وقله  
الثقة من جانب الاوروبيين ثم دعا الى السلم والهدوء واللوك الودي اراء المسيحيين  
على اختلاف جنسياتهم الخ . . . وقد انتقد نديم وغيره هذا الاعلان وأثاروا مناقشة  
حاددة استمرت حتى الساعة الثانية صباحا وحاولت عبثا ان أنصح لهم وأهدئ  
نفوسهم ولكنهم أصروا على القول بان الحديو ليس من شأنه أن يذيع مثل هذا  
الاعلان وان ماليت هو الذي نصح له به . وقد حاولت عبثاً أن أبين لهم أن ماليت  
غادر الاسكندرية منذ يوم الاربعاء . ولكنهم حتموا أن يخلع توفيق وأن يولى ابنه  
عباس بك بدلاً منه تحت الرصانة . والواقع أن نديما رغم خلقه الثورى الطيب وميله  
الى الإصلاح متسرع مندفع سهل التأثر وأسوأ ما شهدته منه أنه كلما وجد نفسه مغلوبا  
في مناقشة ففز في عطف الى موارد التعصب الديني وشر ما في الامر انه بعيد عن  
التدين ولكنه يتظاهر بحماسة للدين تفوق حماسة شيخ الاسلام . وعرابي باشا  
يعرف كل ذلك وقد نصح له فعلا بالاعتدال ومنعه من السفر للاسكندرية خشية  
أن يحدث شيئا آخر لان له هناك نفوذاً أكثر من أى مكان آخر . وأنا أبذل ما في  
استطاعتي لقيادتهم ولا أضن بأى جهد في هذا السيل ولكنى أخشى خلق نديم  
المتعصب فانه يستطيع في أى أية لحظة أن يشعل نار حرب دينية

وقد كان الحزب الوطنى حتى الاسبوع الماضى راضياً عن الوزارة الجديدة ولكنه اليوم انقلب خصماً لها وكان نديم وسامي قد اقترحا ان يشمل برنامج الوزارة أن جميع المكاتب الاجنبية الرسمية يجب ان يكون طريقها الوزارة وحدها وأن الحديو لا يحق له أن يقبل تلك المكاتب الا بموافقة مجلس الوزراء . ولكن الحديو رفض هذا الحد من سلطته فأراد الوزراء أن يحولوا دون قيام صعوبات جديدة وانفقوا على تخفيف صيغة الفقرة . ولكن هذا العمل الذى اتخذته عرابي ووزراء آخرون في اعتدال وتبصر حرك شعور نديم فثار ضد الوزراء والحديو معاً وشرع يدعو الى خلع هذا الأخير . وقد جاء في إحدى البرقيات أن مألئت سافر الى فينيسيا وأن المستر كارترت عين بدلا منه وقول برقية أخرى أن السلطان أرسل الى عرابي بشا وسام المجيدى والى الحديو وسام « سوفير » مرصفاً بالمالس .

القاهرة في ٢٩ يونيو

ذهبت بالاسبوع لارى حديقتك وكان نديم معي وكان الحر شديداً وقد مكثت هناك طول النهار وكان الوكيل الاوربي ولا أعرف اسمه ( هو المستر روسل من لجنة الدومين ) قد فر مع بقية الاوربيين الذين غادروا مصر أخيراً . وقد شكوا الجنائي العربي البينا عدم معرفته من يلجأ اليه في حالة الضرورة . وزارني يوم السبت ومعه حسابات راجيا أن أرسلها اليك ووعدته بان أحضر له وكيلاً مصرياً أهلاً للثقة ورجوت نديما أن يدلني على أحد معارفه . والحديقة في هذه السنة أكثر انتاجاً من المعتاد والمياه وافرة .

نسيت أن أخبرك في خطابي السابق ان انصار الحديو حاولوا أن يسموا نديم بسيجارة مسمومة وقد دخن نديم جزءاً منها وهو مطمئن فكان هذا الجزء كلب لأن يفتقه وعيه وبصره مدة خمس وثلاثين ساعة . والحق ان نديم حركه دأعة .

وقد كان عرابي في الاسكندرية يوم ٢٧ الجاري وعاد منها الى القاهرة قبيل إرسال البرقية اليك وقضيت طول الليل معه . وكان محمود سامي والباشوات الآخرون وندى وعبدو حاضرين وحوالي منتصف الساعة الثانية عشرة ذهب الجميع ولكني بقيت

مع عرابي وسامي ونديم وحدثني عرابي عن الاستعدادات الحربية القائمة في ققط مختلفة من مصر. وقد اتخذت الاجراءات لردم قناة السويس في حش ساعات عندما تبدو من جانب اوربا أول دلالة على العداء . والمطاهرة البحرية الحفاء التي قامت بها انجلترا وفرنسا قوت الحزب الوطني مائة مرة حتى صار عبارة عن الامة نفسها. وأنت تعرف تمام المعرفة ان الدوافع الدينية تلعب دوراً كبيراً في مثل هذه الظروف وأن البعض ممن لا تؤثر فيهم العواطف الوطنية والسياسية تقوم الحاسة الدينية ، وكذلك الحالة في مصر وأخشي مما أراه وأسمعه ان تملن الحرب الدينية عند أول بادرة للعداء . من جانب أية دولة اوروبية . والحالة الحاضرة سيئة جداً وقد علت من قسطل ايطاليا ان ١٠٠.٠٠٠ شخص عادروا مصر منذ قدم الاسطول ودعت انقضية البريطانية الزعابا البريطانيين الباقين الى المهارة من مصر حالا ، والذين يختارون البقاء يحجب عليهم أن يوقعوا اقراراً بأنهم يقولون هنا تحت مسئوليتهم الشخصية والرعب القاتل يشمل الآن جميع الاوربيين على اختلاف طبقاتهم ولا يوجد اكثر من اثني عشر محلا اوروبيا مفتوحة وتغلق الفنادق ابوابها وليس هنا محلات مؤنثة لتؤجر ومنظر الاحياء الاوروبية بالفاهرة نادى الكآبة ولكن الاحياء العربية مثل ما كانت عليه من قبل تستمتع بالحياة بطريقها الخاصة والملاحون وحدم في قلق لانهم لا يلفون من بشئ حاصلاتهم وقد مضت الآن ست سنوات والحاصلات بهذا الوفرة والقمع الذي كان يباع بخمسة وعشرين فرنكا على الاقل لا يجد الآن شاربا بخمسة عشر فرنكا بينما قيمته في انجلترا خمسة وثلاثون فرنكا للربع . ونعمة ربح قدره خمسون في المائة على الدوام وقد فر الاوربيون الذين كانوا يجوبون داخلية البلاد وبشئرون من الفلاحين حاصلاتهم وأخذوا معهم أموالهم .

### الاسكندرية في أول يوليو

رأيت أن اذهب الى الاسكندرية لان عرابي اضطر الى المكث بها مع راغب باشا والحديدو ، وعلى ذلك أتيت الى الاسكندرية اليوم وأجرت غرفة في فندق (البات) وهو مزدحم باللاجئين من الاوربيين وفي المساء ذهبت الى سراي رأس التين لأقابل

عراي باشا ولكنه كان مشغولا في مجلس حربي فكتبت اليه مذكرة قلت فيها :  
 «أولا — مادامت انجلترا تحدث هذه الضجة حول قبة السويس فمن المستحسن أن  
 ينخر ممثلو الاول الاوربية بأن القصة بصورتها طريقا دوليا لكل الامم يجب أن تبقى  
 محايدة في حالة الحرب مع مصر ولا تمر بها بارجة أو أية سمية بها أسلحة ودخائر  
 من تاريخ كيت الى تاريخ كيت . فاذا خالفت ذلك أية دولة فإن الحكومة  
 المصرية تدمر القصة في الحال وتقع المسؤولية على عاتق الدولة التي تحمل عليها السيف  
 الداخلة في القصة . ثانيا — ينبغي للحكومة أن تنحيز الدول التي أرسلت أساطيلها الى  
 الاسكندرية لتوطيد السلم والهدوء في أنحاء البلاد بأن يتساءل الاسطول في مياه  
 الاسكندرية يدع نمية المصريين في هياج وهذا خط على الامن العام ومانع للتس  
 من الرجوع الى الاسكندرية ماداموا يعرفون أن الاسطول لا يزال هناك . وبناء  
 على ذلك يجب أن يرسل انذار الى الدول صاحبة الشأن وفيه انه اذا لم ينسحب  
 الاسطول من تلقاء نفسه في مدة اربع وعشرين ساعة تصوب الحصىون مدافعها اليه  
 وترغمه على الانسحاب . واضفت الى ذلك انه مما يرفع شأن عراي باشا ان يكون الياذي  
 في هذه الحالة ليرى اولئك الذين هددوه قبل شهر مضي انه بلغ الآن من القوة  
 ما يجعله يهددهم ويتعداهم . ثالثا — عرضت على عراي باشا ان يتبع الجنود الجيوش  
 التركية ولا يسمح لها ان تنزل الى الارض فان الكراهية السابقة بين الاتراك والعرب  
 لم تمت ولن يتفق الجنود الاتراك والعرب معا ووجود الجيوش التركية في مصر سيخلق  
 الفوضى ويحدث الاقسام في الجيش والامة ويشل جهود الحكومة بواسطة الدساس  
 المعتادة فخير له ان ينصح للسلطان بان يحجم عن ارسال جيوش الى مصر فاذا اصر  
 على ارسال جيوش يعتبر كدولة مهاجمة ويقاوم على هذا الاعتبار .

في ٣ يوليو

في ليلة امس اثناء العشاء ارسل الى عراي باشا صابلا وترجمانه الخاص راجيا ان  
 اذهب لزيارته وحالما دخلت غرفة الاستقبال وقف في ادب وقال مبتسما : « كنت على  
 وشك ارسال رقية اليك بالقاهرة ولكي علمت انك في الاسكندرية والملك جنت

لربارني بعد ظهر اليوم بينما كنت في المجلس مع راعب . وبعد شرب القهوة سألتني  
عك وعن السيدة حرمك وعما اذا كنت علمت شيئا من اخبارك وعن كيفية سير  
الاحوال في البرلمان البريطاني . وقد اخبرته بكل ما عرفه فأباني بان مراسلا جديدا  
الجريدة ستاندارد وصل احبرا وزاره ليسأله عن وجهة نظره في الحالة الحاضرة وقال  
عراي : « وقد قلت له اني آسف لانه اتعب نفسه في المجي الى بينما كان يستطيع  
ان يحصل على كل المعلومات اللازمة من المستر بلنت في انجلترا وهو يعرفني كما عرف  
نفسى » فقال المراسل ان الامة الانجليزية تدرك الآن تماما ان المستر بلنت من  
اكر اصدقائه المصحين به ولهذا السبب نحسبه مفرضا يغال في الحقائق . وعلى اثر  
ذلك حرت محاوره بين عراي والمراسل وربما قرأها في الاستاندارد . واخبر المراسل  
عراي ايضا بان في انجلترا الآن جمعية لحماية الرعايا البريطانيين في الخارج وان هذه  
الجمعية تطالب الآن بدماء الرعايا البريطانيين الذين قتلوا في الاسكندرية يوم ١١ يونيو  
فأجاب عراي قائلا انه يسره كثيرا ان يسمع ذلك وانه هو نفسه سينضم الى الجمعية  
لا يطالب بدماء الرعايا البريطانيين وحدهم ولكن بدماء جميع الضحايا من كل  
حسبة الذين ضحى بهم على أرض مصر ، سيطلب بدمائهم من أصحاب تلك  
الكلثة . وان من واجبه ايضا ان يطالب بدماء اخوانه المصريين الذين ذبحهم  
الاوريون وان الحكومة البريطانية نفسها كانت سبب الأذى بواسطة ممثلها في  
مصر . وقد رجاني خمس مرات امام الجميع ان أرسل أصدق تحياته القلبية اليك  
وأبكر احترامه الى السيدة فرينتك وكلم الحاضرين عنك وعن شديد اهتمامك  
بالقضية الوطنية وقال انه لو كان كل الانجليز مثلك لأصبحت انجلترا جنة  
والانجليز ملائكة

وقد ابدت في خطابك الاخير رغبتك في ان تسمع منى بياننا عن الشعب الذى  
حصل في الاسكندرية يوم ١١ يونيو . وبما انى لم اكن في الاسكندرية في وقت  
الحادثة أكتب اليك وصفها كما سمعته من الصباط والمصريين والاوريين ثم كما سمعته  
من الشا نفسه ثلاث مرات ثم مرة أخرى في ليلة أمس



في يوم الاحد ١١ يونيو من مالطي مكلرا غر في الحال قبلا فلم يصبر  
الوطنيون المشاهدون للحالة حتى يحضر الشرطة بل هجموا على المالطي وقتلوه فوق  
الحار واد ذلك شرعت الجالية المالطية في اطلاق الرصاص من النواخذ وكانت قد  
تسلحت من قبل . فحدث هذا اضطرابا عاما بين الجماهير التي تجمعت في الميدان  
ومن ثم امتد العراك الى أجزاء عديدة من المدينة واستمر الى الساعة السادسة ( أى  
نحو خمس ساعات ) حتى حضر الشرطة والجند ليعرقوا المتشاجرين

وقد جرح القنصل البريطاني جرحا خفيفا في ظهره بواسطة عصا وهو الضرب  
أصل الحادثة ومديرها ولكنه لم يخرج من بيته وكان الدافع له الى البقاء فيه خوفا  
من القتل لا خطورة جرحه . ولكن على الرغم من ذلك بعث السير ماليت في  
منتصف الليل الى المراسل لخدود الجديدة « الدليل تاغراف » يخبره بان القنصل  
البريطاني جرح جرحا مميتا وأنه قد يلم الروح قبل شروق الشمس ويرجو ان يرسل  
هذا الخبر في الحال الى لندن . غير اني نصحت للمراسل بان لا يتسرع ولن  
يرتقب حتى آتية بالنبا اليقين من عراي نفسه وذهبت في الليلة نفسها الى عراي باشا  
وسأله عن حقيقة المسألة فلجاني بانه أبرق أربع مرات ولكن لم يأت اليه جواب .  
وبينا كنت لديه أنت برقية وبعد خمس دقائق جاء الحاج رازي وكان قد  
أرسل من الاسكندرية خصيصا ليخبر عراي بالسبب الحقيقي لاشتباق تفاصيل  
حدوثه فعدت في الحال الى المراسل وأخبرته بان مسألة القنصل لا أساس لها بل  
على العكس لما فرق الشرطة الجماهير وحدوا عند باب القنصلية عربية فيها أربع وعشرون  
بنديقة وسدسان وصندوقان مملوءان بالبارود وكان القنصل نفسه قد أعدها جميعا  
ليستخدمها المالطيون . وقد أخبرني عراي باشا في ليلة أمس بان لجنة التحقيق أثبتت  
ان المشاجرة كانت مدبرة وذلك انه في صباح يوم الاحد الذي وقعت فيه الحادثة أخبر  
ايطالي يشغل وظيفة كونستابل في البوليس المصري كونستابل آخر من رفاقه انه  
ستحدث مشجاعة خطيرة في اليوم نفسه وانه خير لهما ان يهربا وقد اختفيا بالفعل وهم  
الآن في ايطاليا . والحرائد لا تكتم سر المسألة وتصرح بان القنصل ابريطاني و

الاسكندرية هو الذى دبر المشاجرة وأعد لها غراض سياسية . ولم يعرف عدد الضحايا واتقت السلطات الاوربية والمصرية على عدم التحقيق في هذا العدد. والواقع ان الشعب كان أحطر مما وصفته الصحف فقد قتل فيه أكثر من ١٤٠٠ شخص معظمهم من الاوريين . وكان الاوريون كلهم مسلحين بالبنادق والمسدسات بينما الوطنيون لم يسلحوا بعير العصي ومع ذلك كان موقف هؤلاء خيراً من الاولين. وهذه التجربة المبذولة هي التي ثببت من شجاعة الاوريين وجعلتهم يفرون من مصر كالحجائين والحجباء .

وقد وصل كتابك «مستقبل الاسلام» الى نديم وذكرت لمخلصته وترجم خطاباتك الذي أرسلته الى المستر غلاستون ونشرته «التييس» الى اللغة العربية لينشر في «الطائف» وقد سر عرابي باشا به كثيراً وهو يقول ان الجو السياسى مضم وريعاً أنتد بصواصف أشد وان الحرب أقرب من السلم ولا مثل للنشاط البادى في الاستعداد للحرب في مصر في الوقت الحاضر ويستعد للحرب الجنود والفلاحون والبدو جميعاً . وسأغادر مصر في اليوم الذى تعلن فيه الحرب وعلى الرغم من ان الباشوات والضباط يطلبون ان أبقى في مصر أثناء الحرب لا أحسب ان بقائى يكون من الحكمة وأؤمل ان تدرك احوال نشوب الحرب وتبتي قبل نشوبها بالتفرغ على أن تكون الدلالة على وجوب مغادرتي مصر هي كلمة «اكسودس» . واذا قامت الحرب فستغرب مصر تماماً وستغرق الاسكندرية ومديرتان معها وستندمر القنات الى الابد ببناء البحر التي تندفق من سد أبي قير وستكون حرب اليأس ولن يسلم المصريون حتى يصحوا بكل نفيس. ويدلنى ما اسمعه وما أراه على أنهم أعدوا العدد الكافي ليجعلوا من الحرب في مصر ثورة عامة يقوم بها المسلمون في آسيا وأفريقيا .

الاسكندرية في ٣ يوليو

رجائي عرابي باشا أن أدون المكتبة الآتية التي أملاها على باللغة العربية بحضور عبد المال باشا ومحمود باشا مهني مفتش التحصينات وكثير من الباشوات والصايط وطلب الى أن أترجمها الى اللغة الانجليزية وأرسلها اليك لكي تتمصل

بتقديمها باسمه الى الرايت اونورا بل المستر غلادستون (وذكرها خطاب عرابي الى المستر غلادستون وقد سبق ذكره في أصل الكتاب)

حاشية — خولي عرابي باشا أن أخبرك بأنك بعد أن تقدم هذا الخطاب الى المستر غلادستون يمكنك ان تستخدمه كما تشاء سواء بنشره أو بغير ذلك .

الاسكندرية في ٤ يوليو سنة ١٨٨٢

نسبت شاكرًا مكتوبك الرقيق مع قصاصات الخرائد . ينظرونها الى السياسة التركية بعين الشك وسوء الظن وقد عزم عرابي والباشوات والضباط والامة علي منع الجيوش التركية من النزول الى البر ويقولون أنهم غير محتاحين الى مساعدتهم على الارض ، واذا كانوا يرغبون حقًا في مساعدتنا فاجارباو عدونا المشترك في البحر .

الاسكندرية في ٥ يوليو سنة ١٨٨٢

كنت ليلة أمس مع عرابي باشا حتى منتصف الليل ولما دخلت غرفة الاستقبال وجدتها مزدحمة بالباشوات والضباط وغيرهم وكانوا قد اجتمعوا هناك ليهنئوه لمناصبه الانعام عليه بالوسام الحميدى الاكبر . وعند الساعة الحادية عشرة اصرفوا وبقينا أربعة وحدنا بالفرقة وأخذنا نتكلم بحرية في مسائل كثيرة . وقد قرأت له برقيتك المؤرخة في اول يوليو فسر كثيرًا ولما ذكرت له اسم درويش هز رأسه وكأنه يقول : « نحن نعرف هذا الشخص حق المعرفة » . ثم قال لى : « أما عن ذهابي الى الاستانة فليقل الناس ما يشاؤون فاني ولدت في بلاد الزراعة وستظل الاحرام الخالدة قبرى وان يحاول الباب العالي أن يخرب احدى الملكات العثمانية ومن الامثال العربية : لا يجمع احد أمه بيده . وسيفكر السلطان مليا قبل أن ينوي دعوتى الى الاستانة او ارسال جيوش الى مصر » .

ويوجد الآن في مصر شعور قوى ضد الانراك والامة الانجليزية على السواء . وقد أيقنت أخيراً ان اميرال الاسطول البريطانى هو ماليت او كلنن آخر او شر منهما . وبالناس ارسل انذارا ( والاذنارات هي الطراز السائد الآن ) ارسل اليك صورة منه مع هذا الخطاب وقد وجه الى طلبه باشا .

وقد أحدث دعياً شديداً بين الوطنيين وأيضاً بين الاوربيين القليلين الذين لا يزالون في مصر . وقد كنت في غرفتي أكتب بعض الرسائل فاذا باحد خدم الفندق يأتي الى مرتجفاً ويخبرني بشي . لا أنهمم بداية لانه كان من شدة الخوف لا يطق الا بصف الالفاظ وقد حاولت ان أهدي روعه وسأله ما ذا في الامر . فقال : « ألا تعلم ان الاسطول البريطاني سيضرب المدينة اليوم ؟ » فابتسمت لأبش في نفسي شيئاً من الشجاعة وبصحت له بان لا يخاف وأنه لا يوجد خطر ولكنه قال وهو لا يزال يرتجف ان القاصل أمروا جميع الاوربيين بان يتوجهوا الى الحمال الى ظهور البواحر . فسأله أجا . هذا الامر رسمياً الى الفندق ؟ فأجاب : « كلا ياسيدي . ولكن كل من بالفندق يغادرونه » . فقلت له لانهم بهم وأعطينه ثيابي ليسلمها الى القنالة فرقص وتولى . وفي الحال قتت وذهبت الى عرابي باشا لأرى ما هو جار فلم أجد شيئاً جديداً سوى ان راغب باشا أخبر الاميرال انه لا توجد أعمال جارية في الحصون وقد سكن ذلك ثائرة الاميرال ولكنه لم يطمئن الشعب الخائف . ولذلك ذهبت ثانيا الى طلبه باشا ورجوته ان يرسل الى جنديين ليحرسا مدخل فندق المساجيري الذي أسكه الآن فتنبعث الثقة في نفوس البازلين به . وقد كنت لدى طلبه باشا حين وصل اليه الانذار فاعطانيه لكي أعريه فخرته في الحال بحضور عرابي باشا والضباط الآخرين . فلما قرأوه قال الكولونيل عايد بك : « هل في الامكان ان أنجلترا لا ترسل اليها سوى موظفين مجانين ؟ ان هذا الاميرال يدل ان يظهر نفسه في مظهر الرجل العاقل الجري . يدي الخوف عند أدنى حركة في الحصون ولا يقنا بضايقتنا بانذاراته وبزعج الناس ويشير شعور العرب وهو يضر أكثر مما ينفع » . والواقع ان مدينة الاسكندرية أصبحت خاوية

وقد طفت أمس بالمدينة راكباً فلم أكد أرى عشرين او ثلاثين أورديار الحوانيت والقنادي مغلفة والمهاجرة من الداخل مسنمة وقد أمر مستخدمو الدومين ووكلاء المراقبة وأصحاب المصارف الخ بان يغادروا مصر . بل وصلت الحالة الى درجة ان أدوات شركة التلغراف الشرقية قلت الى بارجة الاميرال وقد أصبحت الخبرات بالتلغراف صعبة جداً وغير مأمونة ووضحت طريقة ارسال أحد التلغرافات متعبة

فعلى المرسل ان يكتب نص التلغراف ويعطيه لكتاب حجز نفسه في غرفة صغيرة جداً بها نافذة ذات قضبان حديدية وليس فيها سوى ثغرة سقفاً خمس بوصات. وكذلك الانجليز الشجعان الذين أتوا الى هنا باسطولهم لكي يهزموا العرب الذين لا يزالون يعيشون في هدوئهم المعتاد

اما عن نفسي فلا أدري أمن التبر ان أبقى في مصر في حالة الحرب أم لا؟ ويريدني أصدقائي على ان أبقى ولكن لا أعلم ان كان ذلك مأموناً. ورجائي اليك ان تراقب اتجاهات وزارة الخارجية وفي اللحظة التي تعلم فيها ان الحرب قررت ترسل الى تلغرافا به كلمة « موسى »

في ٨ يوليو — توجعت صباح اليوم لأرى عرابي باشا فاخبرني انه استقبل سيدة امريكية فنية من فيلادلفيا رحته ان يوقع باسمه على دفتر الامضاءات « أوتوجراف » وقال انه كتب لها باللغة العربية ورجاني ان أترجم ما كتبه الى الانجليزية وأخبرني أيضا انه كان منذ يومين آتيا من القاهرة الى الاسكندرية فوجد في اللحظة حسماته ايطالي يستعدون لمغادرة مصر فشرع بمحادثتهم ويشجعهم على البقاء في ديارهم لانه لن يوجد خطر مطلقا وضمن لهم أرواحهم واملاكهم وقال انه يضمن سلامة كل انسان . وقد شجعت كلماته أولئك الاشخاص الذين غلبهم الرعب فاندفعوا اليه رجالا ونساءً وبناتا واطفالا ليقبلوا يده ويشكروه. ولكن بينهم رجل مسن في طول عرابي نفسه شق لفه طريقا بين هذا الجمع ولما وصل اليه وضع كلنا يديه على كتفه وقال له بالايطالية ما معناه « الله يباركك » . وفي النهاية عاد ثلثهم الى بيوتهم في القاهرة .

وبينا كنت مع عرابي نسلم خطانا من رجل ايطالي برحوه أن يقله بصفة متطوع في الجيش المصري ويقول انه كان فيما سبق جنديا في الجيش الايطالي تحت قيادة غاريبالدي وأنه الآن يريد أن يحارب لاجل حرية مصر .

لا يشق السلطان كثيراً بدرويش باشا وقد أرسل معه الشيخ احمد أسعد وكيل السلطان في المدينة بصفة حاسوس عليه رقب حركاته وأعطى السلطان بدرويش باشا شرفاً خاصاً ليرسل به تلغرافاته وفي الوقت نفسه أعطى أحمد أسعد شرفاً خاصاً

آخر وهكذا بمثل هذين الملبوسين أحدهما ضد الآخر وكل منهما يرسل لتلغرافاته مستقلا . وهذا الشيخ أحمد أسعد صديق جميع لعراقي وقد ساعده كثيرا في أزمته الأخيرة مع الخديو .

ومنذ يومين كنت مع عراقي فأناؤه وجل عراقي بخطاب ففتحته وتلاه علي وعلى الضباط الآخرين وقد كتبه حافظ الكعبة الملحق بشريف مكة وكان الخطاب مكتوبا بأسلوب راق وفيه مدح كثير وقال كاتبه ان جميع الناس في مكة يدعون الله ان ينصر عراقي وان الصلوات تقام من أجله ومن أجل نجاحه في الكعبة وعند قبر اسماعيل وزمزم وعرفات ومنى وفي كل مكان مقدس في مكة . ولم يتردد الكاتب في منح عراقي لقب حامي حرم الاسلام والدولة الاسلامية . وقد أتى بالخطاب رسول خاص . والمجاز كله مع عراقي ولم يرد شريف مكة أن يكدر علاقته مع السلطان فكلف أحد رجال حاشيته بكتابة هذا الخطاب وهو عباس أعا زمزم . ولما تلى الخطاب اتفق على كتابة خطاب شكر اجابة عليه .

ويظهر أن الاميرال الفرنسي هارناب كثير في حركات الاميرال البريطاني وكما رأى الاول الثاني يغير موقفه بارجته ببقعه في الحال واذا خرجت بارجة انجليزية من الميناء سارت في أثرها بارجة فرنسية واذا وصلت الى الاسكندرية بارجة بريطانية جديدة يترك الاميرال الفرنسي في الحال طالبا ارسال بارجة فرنسية . والواقع ان هاتين الدولتين تتبع احدهما الاخرى كالقط والفأر .

في الاسكندرية الآن شيخ مشهور من الجزائر يدعي الشيخ محمد البزولي ويمجله جميع المسلمين والسلطان نفسه . وقد سبب للفرنسيين متاعب كثيرة في الجزائر ثم في تونس ولما جاء الى مصر منذ أربعة أشهر بدأ ينشر الدعوة ضد عراقي وأعلن الخديو أن عراقي ناثر على السلطان واذا كان رجلا عالما فصيحاً ذا نفوذ أضرب بعراقي كثيراً وساعد في الخلاف القتال الذي قام بين سلطان باشا والنواب وعراقي . وفي ذات مرة كان بخطب ضد عراقي في اجتماع فسأله أحد الحاضرين هل يعرف عراقي شخصياً فاجاب الشيخ مشتمراً بأنه لم ير عراقي قط وانه لا يعرف في رؤيته ( ثم ذكر الخطاب كيف ان الشيخ قابل عراقي بعد ذلك في إحدى الولائم دون أن يعرفه وبحث معه

في مسألة الإصلاح وأثرت فيه مناقشاته وحججه حتى صار أحد أنصاره المخلصين). ومنذ ثلاث ليال رأيت في دار عرابي وقد أتى ليلتأذنه في أن يذهب الى السلطان ويسأله باسم جميع المسلمين ان يعطل عن ارسال جيوش تركية الى مصر فلما سمعت ذلك منه سأله كيف كان ، حين سررت برؤيته لأول مرة ، بدعو الى تدخل الأتراك بمحجة ان مصر ولاية عثمانية فاذا أنت الى مصر جيوش تركية كانت في بلادها ؟ فاجابني : « صحيح ان ذلك كان اعتقادي في ذلك الوقت ولكن لما سمعتك تقول ان الجيوش التركية اذا أنت الى مصر فلن يخرج منها وان وجودها في مصر سيجدد الضغن القديم بين الحنود العرب والجنود الأتراك — وجدت انك مصيب في رأيك والآن أتيت ليلتأذن من صاحب السعادة أن أذهب مع بعض اصدقائي الى الاستانة لامنح السلطان من ارسال جيوش الى هناك » . وأظن أن عرابي أخبره بأنه تأكد من السلطان أنه لن يرسل جيوش الى مصر -

في ٩ يوليو

علمت من مصدر ثقة أن خير الدين باشا وسعيد باشا — والاول رئيس وزارة سابقة بالاستانة — بمرضان في فكرة ارسال جيوش الى مصر ويقال بأنه بينما كان الوزراء يبحثون المسألة في مجلسهم قام خير الدين وأراهم من آيات القرآن والحديث ما يدل على أن ارسال جيوش مسلمين لمحاربة أمة مسلمة هادئة أمر يخالف الدين وختم كلامه بحديث مؤداه أنه اذا تحارب شخصان مسلمان عذب القاتل والمقتول كلاهما عذاباً أبدياً في نار جهنم .

فهمت من الصحف التي تفضلت بإرسالها ان ماليت وكلفن هاجلاك ولعلك تذكر اني كنت مصيباً في رأيي الذي كوته لفسى شأن هذين الشخصين منذ اول يوم دخلنا فيه القاهرة . وقد اعتمدت أكثر من اللازم على صداقة ماليت وعلى اخلاص كلفن المزعوم والآن اصدقائنا هنا في أشد السخط عليهما قرأت خطاب السير ولیم حوججورى المشهور في « التيس » ورجعته الى اللغة العربية لعرابي باشا فسر به كثيراً .

في ١٠ يوليو

هذا يوم الاضطراب البالغ ، يوم الرعب والشقاء والمرار العام . ففي صباح اليوم كنت في سريري فجاء إلى خادم وطلى من خدام الصديق وقال « قم واستعد للذهاب » . فأتيت لماذا ؟ فأجابني : « لأن سيدي سيفلق الصديق ولن يبقى به أحد وقد ذهب الجميع إلى البواخر » . فقامت وأمرت الخادم بأن يحضر لي وجبت شاي . فقال « لا يوجد شاي » فلبست ثيابي ونزلت إلى قاعة الطعام ووجدت فيها صاحب الفندق في اضطراب وبأس . فسألته عن الحالة فأحاطني « أمر جميع القناصل وعابايم أن يبادروا الاسكندرية قبل الظهر » . فقلت : « هل تتركني أسكن الصديق وحدي وأعني به ؟ » فرفض ذلك قائلاً انه لا يمكنه . فرحوته أن ينتظر على الأقل ساعة حتي أذهب إلى نطلة البحرية وأعود . وفي الحال ركبت عربة وذهبت لأرى عرابي ولكني لم أستطع رؤية أحد من الطائر فقد كانوا جميعاً في المجلس . ووجدت سكرتير عرابي الخاص فأخبرني بأن الاميرال البريطاني أرسل كلمة شفوية فقط يقول انه سيضرب الحصون بعد أربع وعشرين ساعة وأن قناصل الدول الاخرى ذهبوا إلى الاميرال البريطاني ليسألوه عن المسألة . ولما عدت إلى الصديق وجدت صاحبه قد حرم امتعه ووضعها فوق عربات وأنه على استعداد للرحيل ولم أجد وقتاً كافياً لأحضر حقائبي الصغيرة وأركب عربة وأذهب . ولم أدر إلى أين أذهب . وقد خرجت الاساطيل فعلا من المياه وذهبت إلى البحر استعداداً لاطلاق المدافع . وكان الناس - وأعني القليلين الذين بقوا حتى اللحظة الاخيرة - ينجون في سرعة كبيرة إلى البواخر المختلفة التي مكثت في الميناء لتستقبل اللاجئين . ولست أظن أن ملاحرة الاسرائيليين من مصر تداني ما رأيت ، فان الرجال والنساء والاطفال والرضع الباكية بين أذرع أمهاتهم ، والشيوخ الذين لا يقدر على السير ، والمرضى الذين لا يستطيعون حمل أنفسهم ، هؤلاء جميعاً كانوا يندفعون إلى ناحية البحر في رعب يذكر الانسان يوم القيامة . ولكن هؤلاء الناس البائسون لا يجدون ما يفرحهم في ذعرهم وبأسهم سوى لمن القناصل والحكومة البريطانية التي أنت لمصر بهذه النكبة .

وسعد أن شهدت هذا المطر الممزع بدأت أفكر في مآلي ولكن كلما



ذهبت الى من أمرهم وحدثهم قد ذهبوا . ولم أحد مكاناً إلّا اليه سوى الترسانة  
ولكنني لم أحسبها مكاناً آمناً لقرها من الحصون في حالة ضرب المدينة . وكان الوقت  
بعضى أثناء ذلك وقد قرب انتهاء مهلة الأربع والعشرين ساعة . فجال فكري أن  
أذهب الى إحدى البواخر ولكن سمعت أنها مزدحمة وكان أحيد بخارجة القوارب  
مشغولاً بحمل حقائبه الى قاربه فعرض على أن يأخذني الى القارب البريطاني المسمى  
« تانجور » ولكنني رفضت ذلك لأن جميع الرعايا البريطانيين والقاصل ومراسلي  
الصحف — وأكثرهم يعرفوني — كانوا في البواخر ولذلك لم أجد من الحكمة أن أرح  
بنفسي بينهم وعزمت على أن أبقى على الشاطئ . وأن أكون آخر من يغادر الاسكندرية  
ولكن دنت آخر ساعة وكانت القوارب الأخيرة تروح . وفي هذه اللحظة قابلت  
فرساً كان على وشك الانبحار مع زوجته فدعاني لأن أذهب معه الى الباخرة « سعيد »  
أحدى بواخر المساجيرى ماريتيم فتوجهت اليها وهأنا أكتب فيها هذا الخطاب .  
ولا أظن اني أفتر على ارسال هذا الخطاب اليك غداً لانه لا يوجد بريد بريطاني .  
وقد اعقلت جميع مكاتب البريد بما فيها المكاتب المصرية .  
وقد تركت شركة التلغرافات الشرقية مدينة الاسكندرية ونقلت أدواتها الى  
دارحة الاميرال البريطاني .

ولما رأيت صدقاني منذ ساعتين وحدثهم ثاتين ومتأهين لقتال والمقاومة الى  
الى آخر نقطة من دماهم معها كلهم ذلك  
في ١١ يوليو

في صباح اليوم ( الثلاثاء ) عند الساعة السابعة تماماً أطلق الاسطول البريطاني  
أول طلقة اشارة الى ضرب الحصون . وكنت على ظهر الباخرة « سعيد » على بعد مسافة  
قصيرة من الاسطول وقد أتت ساءة عرابي الخطيرة . وأما درويش ضاغر الاسكندرية  
عقب ابتداء انصره وأنجر الى حيث لا يدري أحد . ومن بين ١١٧٠ شحفا كانوا  
معي هذا الصباح يشهدون ضرب المدينة كست الوحيد الذي يمتنى حسن احظ  
والاحاح لمراني ورفاقه ولما أطلقت أول طلقة لوح في الهواء بالقبعات والمناذيل  
والايدي مع الحفاف والنداءات اللدالة على الرضا وكان الرجال والنساء والاساقفة

والقنوس والراهبون والراهبات في سرور وجفل يتنبأون بتسلم الحصون بعد ساعتين ولكن استيادهم بدأ بالفعل والساعة الآن الواحدة والنصف ولما ينقطع إطلاق المدافع من الجانبين وقد كانت المقاومة حتى الآن باهرة وبعض طلقات المدافع المصرية يتخطى الاسطول والبعض الآخر لا يصل اليه والمسافة بين الطرفين بعيدة بشكل ظاهر ولكن لا يستطيع أحد الآن أن يتنبأ بالنتيجة . وأجلس في هذه الآونة فوق ظهر الباخرة أرقب الضرب وأكتب كل ما أستطيع رؤيته ولكن ماذا يمكن الانسان أن يراه على البعد ووسط سحابة من الدخان المغمى سوى ابراق المدافع وارعادها ؟

مكثت بلا أخبار منك مدة أسبوع قريبا وكنت أنتظر أن يصلني نبأ منك حالما قررت الحكومة البريطانية الحرب ولكك تركتني في ظلام حتى اللحظة الاخيرة ولم يكن أصدقاءنا ولا بعض القاصِل أنفسهم ولا انا متأكدين من أن إنجلترا كانت ترغب في الحرب بغية جديدة

وقد عزمت على السفر الى نابولي أو فينسيا حتى تستقر الاحوال في مصر وأظن ان هذا يتطلب أشهرا ويمكنك من خطاب عرابي الى المستر غلادستون — ولعلك تسلمت أمس كما ينبغي وقدمته اليه ونشرته — أن نحكم على نيات المصريين وتقدر الاضطراب الذي سيحدث في مصر مدة من الزمن . وقد مرقت الطلقة الاولى جميع المعاهدات قطعة قطعة وأرسلت ملايين رويشتل الى جهنم وأبعدت الرجل التي اتفقت إنجلترا وفرنسا على توليد سلطته وسنملى . قناة السويس في بضعة أيام به ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ من الفلاحين والبدو دجرا على كيفية اداء مهنتهم من قبل — هذا اذا لم تكن القناة قد دمرت الآن فعلا .

( وقد وصل صابونجي الى فينسيا يوم ١٩ يوليو ثم وصل الى لندن بعد بضعة الاسابيع )

## برنامج الحزب الوطنى المصرى

الذى قدمه المستر بملت الى المستر غلادستون في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١

مع رد المستر غلادستون

---

١ — يرى الحزب الوطنى محافظة على العلاقات الودادية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ ذلك الباب ركنا يستند عليه فى أعماله — ويعتقد أن ( جلالة ) السلطان عبد الحميد مولاى وخليفة الله فى أرضه وإمام المسلمين ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات مادامت الدولة العلية فى الوجود ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج وما يلزمه من المساعدة العسكرية إذا طرأت عليه حرب اجنبية وهذا بمقتضى القوانين والفرمانات الشاهانية كما يعتقد هذا الحزب أنه يحافظ على امتيازاته الوطنية بكل ما فى وسعه ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية ( أى من يريد سلب امتيازاتها وسخ الفرمانات التى منحها استقلالها الاداري ) وله ثقة بدول اوربا لاسيما انجلترا المدافعة عنه ويود أن تدوم هذه المحبة حتى يحصل على حرية مصر واحترامها .

٢ — هذا الحزب يخضع للجناب الخديو الحالى وهو مصمم على تأييد سلطته مادامت أحكامه جارية على قانون العدل والشريعة حسب ما وعد به المصريين فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ وقد قرئت هذا الخضوع بالمرم الاكيد على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة التى أورثت مصر النذل والالحاق على الحضرة الخديوية بتنفيذ ما وعدت به من الحكم الشورى وإطلاق عنان الحرية للمصريين وبطلبون منها الاستقامة وحسن السلوك فى جميع الامور وهم يساعدونه قلبا وقالبا كما أنهم يمحذرونه من الاصفاء الى الذين يحسنون اليه الاستبداد والاجحاف بمحقوق الامة ونكث المواعيد التى وعد بانجازها

٣ — رجال هذا الحزب يصرون بفضل فرنسا وانجلترا اللتين خدمتا مصر

خدمة صادقة ويطعون ان استمرار المراقبة الاوربية هو الكفالة العظمى لنجاح أعمالهم مع قبولهم تلك الديون الاجنبية حرصا على شرف الامة وان كانت تلك الاموال لم تصرف في مصلحة مصر بل صرفت في مصلحة حاكم ظالم لا يسأل عما يعمل . ومعلوم لهم أن ما حصلوا عليه من الحرية والمعدل كان بمساعدة هاتين الدولتين فهم يشكرونهما ويشنون عليهما .

ثم اتهم برون أن النظام الحالي لم يكن الا وقتيا والافانهم يؤمنون أن يستخلصوا مالاينهم من أبدي أرباب الديون شيئا فشيئا حتى يأتي يوم تكون مصر فيه بيد المصريين . وهم لا يخفى عليهم شئ . من الخلل الحاصل في المراقبة ومستعدون لاداعته فانهم يطمعون أن كثيرا من المستخدمين في قلم المراقبة لا يقدرعون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة وبعضهم يأخذ الرواتب الجسيمة بلا استعناق مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن اسلوب براتب لا يرازي خمس راتب الاجنبي وهذا يحكون بوجود الظلم وخلل الادارة مادام هذا الاسراف الخارج عن الحد باقيا

وهم يمتعجون من اعضاء الاجانب من الضرائب وعدم خضوعهم لقانون البلاد مع تمتهم بخبرها واقاسمتهم فيها ولكنهم لا يريدون مدركة هذا الاصلاح بقوة أو جفوة بل يقتصرون على اقامة الحجة ويطالبون من فرنسا وانجلترا التصرف في هذا الامر فانها أخذت على نفسها مراقبة المالية فيما مطالبان بنجاحها وباستخدام أهل الامانة والاستقامة فيها لأنها مسؤولتان عن رقابة مصر بعد ان زعما ادارة مالياها من أهلها وتكفلتا بنجاحها .

٤ — رجال الحزب الوطني يبتعدون عن الاخلال الذين شأنهم أحداث القلاقل في البلاد إما لمصلحة شخصية أو خدمة للاجانب الذين يسيروهم استقلال مصر . وهؤلاء الاخلال كثيرون في البلاد ( بل هم معلومون المصريين ولهذا اشتدت التفرقة منهم ) والمصريون يملكون ان الصمت على حقوقهم لا يخلوهم الحرية في بلاد الف حكامها الاستبداد وكرها الحرية فان اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد الاسكوت المصريين وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية في هذه

السنين الاخيرة فقدوا خصاصهم على توسيع نطاق النهديب وم يرجون ان يكون ذلك بواسطة مجلس شورى النواب ( الذى انعقد الآن ) وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة ويتعميم التعليم ونحو المعارف بين افراد الامة وهذا كله لا يحصل الا بثبات هذا الحزب وحزم رجاله .

وبرى هذا الحزب ان مجلس النواب ربما اكره على الصمت كما حصل لمجلس الاستانة واستعين عليه بجمل المطابع آلة تفوق نحوه السهام فيتكدر صفو الراحة ومحرم الابناء من التعليم ولهذا فوض الاهالي امرهم الى امراء الجهادية وطلبوا منهم ان يصمموا على طلبهم للمهم ان رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد وم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو وليس فى عزيمهم ابقاء الحال على ماى عليه بل متى تحصلت الامة على حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة فان امراء الجهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة بعد ان فتح المجلس فهم الآن بصفة حراس على الامة التى لاصلاح لها ولهذا يطلبون زيادة الجند الى ١٨٠٠٠ عكرى ويرجون التفات قلم المراقبة لهذه الزيادة عند تقرير الميزانية .

٥- الحزب الوطنى حزب سياسى لا دين فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث ارض مصر ويتكلم بلغتها منظم اليه لانه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ويعلم ان الجميع اخوان وان حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية وهذا مسلم به عند اخص مشايخ الازهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون ان الشريعة المحمدية الملقمة تنهى عن البغضاء وتعشير الناس فى المعاملة سواء . والمصريون لا يكرهون الاوربيين المقيمين بمصر من حيث كونهم اجانئب او نصارى واذا عاشروهم على أنهم مثلهم يخضعون لقوانين البلاد ويدفعون الضرائب كانوا من أحب الناس اليهم

٦ - آمل هذا الحزب معقودة على اصلاح البلاد ماديا وأديا ولا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة . وللمصريين اعتقاد فى دول أوروبا التى تمتعت ببركة الحرية والاستقلال ان تتمتعهم بهذه البركة . وم يعلمون انه لم تنل أمة من الأمم حريتها

الا بالمد والكدهم ثابتون على عزهم آملون في قدومهم واتقون بجانب الله تعالى  
إذا تخلى عنهم من يساعدهم

١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

## رد المستر غلادستون

فصر هلواردن بنشر في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٢ — الى ولفريد. من. بلنت المحترم  
سبدي العزيز

انك كما أوئل ستقدر الاسباب التي نجعلني لا أستطيع أن أعرض أي شيء.  
يصح أن يكون جواباً مناسباً على خطابك الشائق بشأن المسائل المصرية التي تشغل  
جزءاً من التفاني كل يوم

ولكني أدرك فائدة الحصول على مثل هذا الخطاب ممن كان مثلك مرجعاً في  
هذه الشؤون وأشعر بالثقة التامة باننا سنستطيع ان نصل بهذه المسألة الى نهاية  
مرضية ، الا ان كان ثمة نقص محزن في الادراك لدى أحد الجانبين او كليهما.  
وقد أبديت آرائي الخاصة بشأن مصر في مجلة « القرن التاسع عشر » قل أن  
أتولى منصبى بوقت وجيز ولا أرى الآن انى وجدت ما يوجب تغييرها .

المخلص

و. ا. غلادستون

دونج ستريت نمرة ١٠ هوايت هول في ٢١ يناير سنة ١٨٨٢  
عزيزى ولفريد

أشعر باني مدين لك باعتذار كبير لاني لم أرسل اليك قبل اليوم نبأ يتسلى  
مكتوبك الشائق الدال على المقدرة بشأن الحركة المصرية . وعذرى هو الاستراحة  
ولكن غيابي عن دونج ستريت لم يمنعني من تقديم خطابك في سرعة الى المستر  
غلادستون وأرفق بهذا مذكرة منه . وهو بأسف لانه تأخر شيئاً ما في ارسالها.  
ومن الصعب — ان لم يكن من المستحيل — ان اكتب في الحالة المرحجة  
الحاضرة بينا الموقف يتغير من يوم الى آخر .

وقد نحسب أن الصفة الوطنية التي تنسب إلى الحركة لا بد أن نبدي ميزتها  
للمستر غلادستون المعروف بعطفه على القوميات الصغيرة التي تتجاهد في سبيل  
الاستقلال . وأما يظهر أن الصورة الكبرى ( وأنا بالطبع أتحدث عن شخصي مع  
شعوري التام بالجهل ) هي كيف نستطيع تأييد مثل هذه الحركة مع رعاية المسؤوليات  
التي حلناها على عاتقنا ومع المصالح التي نحميها ؟ إن كل حل يراد اختياره يبدو  
محاطا بعقبات وصعاب لا يمكن تخيلها . ويمكنني فقط أن أقول أنك إذا استطعت أن  
تعمل شيئا في سبيل الوصول إلى حل تلك الصعاب فأنك تؤدي خدمة جليلة لمصر  
ولهذه البلاد ولحكومتها الماضرة وأنا أعلم أنك كنت بالفعل ذا نفع كبير وأنك بحق  
لك الكلام في هذا الموضوع عن يقين ومعروفة قبل أي شخص آخر  
مع احترامي الخاصة للسيدة آن واعتذاراتي عن هذا الرد الموجز على خطابك

المخلص

١ . و . هاملتون

## رد المستر غلادستون

على الخطاب الثاني من المستر بلنت المؤرخ بالقاهرة

في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

دونتج شربت نمرة ١٠ هوايت هول في ٢ مارس سنة ١٨٨٢

عزيزي ولقريد

قرأ المستر غلادستون خطابك الثاني باهتمام كبير وهو يشكرك عليه ويؤمل  
أنك شربت ، أو ستشعر ، من لغة خطاب العرش — وارتق بهذا نسخة منه بناء  
على رغبته — أن الحكومة البريطانية في الوقت الذي تنوي فيه نية ثابتة على احترام  
الاتفاقات الدولية تحفظ على رغبة المصريين في انقراض ووسائل الحكومة الطيبة

المخلص

١ . و . هاملتون

فقرة مقتطفة من خطاب الملكة أرسلها المستر هاملتون

« بالاتفاق مع رئيس الجمهورية المصرية منحت التفاتنا كبيرا المسائل مصر حيث  
الانظمة السائدة قد فرضت على واجبات خاصة. وسأستخدم نفوذى لاحتفظ بالحقوق  
التي تأمسست من قبل سواء بفرمانات السلاطين أو بالاتفاقات الدولية المختلفة ،  
وذلك بروح التعضيد للحكومة الصالحة في البلاد وتقدم انظمتها في تبصر »

## الملحق السادس

نص الدستور المصري الصادر في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

خطاب من محمود سامى باشا الى الخديو

عند توليه الوزارة في ٢ فبراير سنة ١٨٨٢

مولاي

صدر أمركم الكريم بأن أشكل وزارة جديدة فصار من أوجب الفروض قضاءاً  
على أن أعرض لمعالكم عن المبادئ، التي سأخذها دستوراً لأعمالى ومرشداً لسياسة  
الوزارة الجديدة

ان الحوادث التي نالت على مصر من بضع سنين وشغلت الافكار العمومية في  
داخلية البلاد وفي البلاد الخارجية على أنواع شتى تنحصر في أمرين الاول تهديداتنا  
المالية والثاني اصلاحاتنا الداخلية

ولقد نظم الدين العمومي تنظيمًا نهائياً وصدر في شأنه عدة أوامر سامية ختمت  
بقانون التصفية الصادر في ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠ وقد عدت هذه الادوار وهذا  
القانون كأنها معاهدات دولية ما فتئت حكومة عطمتكم عن اعتبارها ودمراتها  
وستعنى الوزارة بافاد أحكامها بالدقة والامانة



وصارت تصفية الدين السائر أمراً واقعياً فددت حسابات الأكثرية ممن اعترفوا بالحكومة الى الآن بمحبة وهم يستصرف العناية الى الاستمرار على اتمام تصفية هذا الدين

كذلك الديون المقررة ( قروض وليد ) المختص بها قلم الدائرة الفنية ومصلة الاملاك المبرية للموضوعات رهننا لقرض سنة ١٨٧٨ سائرة أمورها من تأدية فائدة واستهلاك في طريق الانتظام .

والادارات التي اشنت لتأكيد انتظام سير الديون المذكورة ( وهي قلم المراقبة العمومي وادارة حزنة الدين وقلم المراقبة في الدائرة ومصلة الاملاك الاميرية ) يجب على الحكومة ان تحاط عليها وتراعيتها وذلك دأب الحكومة مع هذه الادارات من حين انشائها الى الآن .

فلا يغير شيء مما ذكر عن وضعه وسنشهد الوزارة في تأييد تلك الادارات والمصالح لتهون عليها السير في سبيلها لانها تعد حسن سير هذه الادارات العمومية أمراً لازماً لانتظام الاحوال في اشغال الحكومة وعدنا ان الادارة العمومية في البلاد تستفيد من ذلك فوائد جمة لا شك ولا ريب فيها

وقد كان أبداً في خلد عطسكم ان لا بد من مساعدة مجلس شورى الأناء بالاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحاضر والوزارة أيضاً من هذا الرأي وهي متوجهة منها وعائيتها الى اصلاح الحاكم والمحالين وانتظام الادارة واجراء التحسين اللازم في أمر المعارف العمومية مساعدة لبلاد على السير في سبيل المدنية والنجاح .

وسننظر في اتخاذ الوسائل الآيلة الى اتساع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الاصلاحية التي كانت موضوع أمانتي عظمتي ولكننا قبل كل شيء نرى من الواجب أن تعين اختصاصات مجلس النواب ليشعر له أن يأتي الحكومة بما تنتظر منه من المساعدة وأن يحقق آمال البلاد المحصورة ولذلك فأول شيء نشرع فيه الوزارة هو وضع نظام أساسي للمجلس الموحد . ويكون من أحكام هذا النظام احترام جميع الحقوق المتأثرة والعهود الدولية .

التعهدات المتعلقة بالدين العمومي وما توجب هذه التعهدات ادراجه في برنامج الحكومة وتحديد التبعة التي تلتحق الوزارة امام المجلس وكيفية الحجابة والباحثة في أمر القوانين ووضعها وتطبيقها وسيكون هذا النظام الاساسي محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم بعيداً من أن يكون سداً لقلق البال .

هذه يا مولاي لائحة الوزارة الجديدة وفقاً لآمال الوطن .

وعسدي الرجاء الاكيدة ان الدول العظيمة — ولا سيما البلب العالي الذي وازرنا أبداً بصايتيه ومساعدته فيما يتعلق بالحقوق والامتيازات التي منحها لنا — سنستمر على مساعدة حكومة عظمكم مساعدة كانت أبداً وتكون أبداً مفيدة للقطر المصري

كذلك أرجو أن تكون عناية حكومتكم مصروفة في سبل المحافظة على الحقوق العمومية وحفظ النظام ومساعدة الامة في طريق التقدم والعمارة .

وقد وعد جبابكم العالي يوم توليتكم السعيدة ان يفتح لمصر باباً جديداً للنجاح والسعد ونحن الآن تقدم بين يدي عظمكم عزمنا على الاجتهاد في تحقيق ذلك الوعد فاننا نجد في نحصيل الغاية التي يروم جنابكم العالي الوصول اليها وآمالنا كبيرة في المستقبل اذ ان ثقتنا في عظمكم كبيرة أيضاً .

فادا راقت لمالكم هذه اللائحة وهذه المبادئ التي قدمناها فارجو التوقيع على الاوامر التي ارفعها لمقامكم الكريم متضمنة تشكيل الوزارة الجديدة .

وتفضل يا مولاي الخ

خطاب من صاحب السمو الخديو

الى سعادة محمود سامي باشا ١٥ ربيع أول سنة ١٢٩٩ (٤ فبراير سنة ١٨٨٣)

عزيزي محمود باشا سامي

ان أخذكم على عهدكم أمر تشكيل الوزارة الجديدة مع علمكم بأهمية هذا الامر الخطير يعد برهاناً جديداً على اخلاصكم وصحة وطنيتكم

وقد عهدنا اليكم بذلك لما مهد فيكم من الاخلاص وصحة الوطنية فقد تحققت

ذلك فيكم وأبدتموه بالأدلة العديدة في الخدم الصحيحة التي أبدتموها في المصالح التي عهدت إليكم .

وأنا نصادق على لائحتكم والمبادئ التي فصلتموها فان هذه المبادئ هي أساس العدالة ومن شأنها حفظ الراحة وتوطيدها في البلاد وتقديم جميع سكانها ونجاحهم ونوافق على رأيكم المنضمّن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل اللازمة لأنعام الإصلاحات القضائية والإدارية ونشر قانون أسلمى لمجلس النواب ينطبق على الآراء التي أبدتموها في لائحتكم .

كذلك يجب على حكومتنا الاهتمام بتوسيع دائرة المعارف العمومية والزراعة والتجارة والصناعة وسندل جهدنا في مساعدتكم على ذلك .  
ورجو من الله عز وجل أن يكمل اجتهادنا بالنجاح حبا في خير البلاد وتقديم  
الامة ( محمد توفيق )

## ذكر يتو

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على الذكر يتو الصادر في ٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ ( ١١ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ )

وبعد الاطلاع على قرار مجلس النواب

ووفقا لصح مجلس وراثنا قررنا ما يأتي :

المادة ١ — تعيين أعضاء مجلس النواب يكون بالانتخاب والشروط اللازمة لمن له حق الانتخاب ولمن يجوز انتخابه تبين فيما بعد في لأئحة مخصوصة تشمل أيضاً على كيفية الانتخاب .

المادة ٢ — يكون انتخاب أعضاء المجلس لمدة خمس سنوات ويمطى لكل منهم مائة جنيه مصري في السنة متبايلة مصلوغة .

المادة ٣ — النواب مطلوقو الحرية في اجراء وطائهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ولا يوعد او وعيد يحصل اليهم

المادة ٤ - لا يجوز التمرض للنواب بوجه ما وإذا وقعت من أحدهم جناية أو حنحة مدة اجتماع المجلس فلا يجوز التضرع عليه إلا بمقتضى إذن من المجلس .

المادة ٥ - للمجلس حال انعقاده أن يطلب الإفراج أو توقيف الدعوى مؤقتاً لمدة انعقاد مدة اجتماع المجلس ممن يدعى عليه جنائياً من أعضائه أو يكون مسجوناً في غير مدة انعقاد المجلس للدعوى لم يصدر فيها حكم

المادة ٦ - كل نائب يعتبر وكيلاً عن عموم أهالي القطر المصري لا عن الجهة التي انتخبته فقط .

المادة ٧ - مجلس النواب يكون مركزه بمحروسة مصر ويقعد بأمر يصدر من الحضرة الخديوية بموافقة رأى مجلس النظار ويكون اجتماعه سنوياً .

المادة ٨ - تعقد الجلسات الاعتيادية السنوية بمجلس النواب مدة ثلاثة أشهر من أول شهر نوفمبر لثانية يناير وإذا لم تكف هذه المدة لانتهاء الاشغال الموجودة وطلب المجلس أن تزداد مدته من ١٥ يوماً إلى ٣٠ يوماً فيجب إلى ذلك بأمر يصدر من الحضرة الخديوية .

المادة ٩ - إذا مست الحاجة إلى تكرار اجتماع المجلس في غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية بتقرر فيه مدة ذلك الاجتماع .

المادة ١٠ - تفتتح الحضرة الخديوية أو رئيس المجلس الطار بالنيابة عنها مجلس النواب بحضور باقي النظار .

المادة ١١ - تفتح أول جلسة في كل سنة تلاوة مقالة يقرأها الخديو أو رئيس الطار بالنيابة عنه وتشتمل على بيان المسائل المهمة التي تعرض على المجلس في أثناء انعقاد جلساته وتنفذ الجلسة بعد تلاوة المقالة المذكورة .

المادة ١٢ - ينتخب المجلس في أثناء الثلاثة الأيام التالية لتلاوة المقالة لجنة لتحضير جوابها وبعد التصديق عليه من المجلس يصير تقديمه للحضرة الخديوية بمعرفة من يتقدم لهذا الغرض من أعضائه .

المادة ١٣ - لا يشتمل الجواب المذكور على التكلم في أي مسألة بوجه قطعي ولا على أي رأي حصلت المداولة فيه .

المادة ١٤ - ينتخب المجلس ثلاثة من أعضائه تعرض أسماؤهم على الجانب الخديوي فيعين أحدهم ليتولى رئاسة المجلس مدة الانتخاب أى خمسة أعوام بمقتضى أمر يصدر من حضرته .

المادة ١٥ - ينتخب المجلس وكيلين لرئيسه ويعين بقلم كتاب بشرط أن يكون الوكيلان من أعضائه

المادة ١٦ - تحرر محاضر الجلسات بملاحظة قلم كتابة المجلس الذي يؤلف من الرئيس ومن الوكيلين ومن الكتاب .

المادة ١٧ - اللغة الرسمية التى تستعمل في المجلس هى اللغة العربية وتحرر المحاضر والمختصات يكون بتلك اللغة

المادة ١٨ - ينظر حق الحضور في المجلس وابداء ما يرومون ابداء فيه ولهم أيضا ان يستنيوا عنهم وكلاء من كبار الموظفين .

المادة ١٩ - اذا قرّر التواب على ان يستدعي للحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة معينة فعلى الناظر ان يذهب الى المجلس بنفسه او يستنيب عنه أحد كبار الموظفين بحسب ما يبال عنه .

المادة ٢٠ - لنواب حق الملاحظة على متوظفي الحكومة جميعاً ولهم في أثناء اجتماع المجلس ان يشعروا بواسطة رئيسه كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تمد او خلل او قصور يقع في أثناء تأدية الوظيفة من أحد متوظفي الحكومة التابعين لنظارته .

المادة ٢١ - النظار متكفلون في المسؤولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يقرره بمجلس النظار ويترتب عليه اخلال بالقوانين والوائح المريعة الاجراء .

المادة ٢٢ - كل من النظار مسئول على الوجه المذكور بالبند السابق عن اجرائاته المتعلقة بوظيفته .

المادة ٢٣ - اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأمر كل على رايه بعد تكرار الحمازة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة ولاحضره الخديوية ان تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة

أشهر من تاريخ يوم الانقضاء الي يوم الاحتاج ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السابقين أو بعضهم .

المادة ٢٤ - اذا صدق المجلس الثاني علي رأي المجلس الأول الذي ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأي المذكور قطعيا .

المادة ٢٥ - مشروعات القوانين والقوانين تعمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونا معتبرا دستوراً للعمل مالم يتل في مجلس النواب بدا فبنداً ويقدر حكماً حكماً ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية وكل قانون يتلى ثلاث مرات بين كل مرة وأخرى خمسة عشر يوما واذا كان القانون مستعجلا فيكون ثلثه مرة واحدة ويستثنى عن المراتين الاخرين بمقتضى قرار مخصوص يصدر من المجلس واذا تراءى لمجلس النواب من قانون يطلب ذلك بواسطة رئيسه من مجلس النظار ومنى واقعت عليه الحكومة فتعمل مشروعاً وتقدم لمجلس النواب على الوجه المبين بهذا

المادة ٢٦ - - مشروع كل لائحة أو قانون يعرض على المجلس ينظر فيه بمعرفة لجنة من أعضائه تنتخب لذلك ويجوز للجنة المذكورة أن تطلب من الحكومة احرار بعض تغييرات في المشروع الذي تكلفت نظره وفي هذه الحالة يرسل رئيس مجلس النواب الى رئيس مجلس النظار المشروع والتغييرات المطلوب احرارها فيه قبل المذاكرة العمومية بمجلس النواب .

المادة ٢٧ - ان لم تطلب اللجنة احرار تغييرات في المشروع المحال عليها أو طلبت ولم توافقها الحكومة على ذلك فيقدم النص الاصلى من مشروع القانون لمجلس النواب للمداولة فيه اما اذا صدقت الحكومة على تلك التغييرات فيقدم للمجلس النص الاصلى مع التغييرات التي حصلت فيه . للمناقشة فيها وفي حالة ما اذا كانت التغييرات قد صار قبولها من الحكومة فلائحه أن تبين رأيها للمجلس وتقدم له ملحوظاتها

المادة ٢٨ - عند تقديم المشروع للمجلس من طرف اللجنة يجوز للمجلس قوله أو دعه ويوغ له أيضا احواله ثابته علي اللجنة للطرف فيه

المادة ٢٩ — على رئيس مجلس النواب أن يرسل الى رئيس مجلس الطار  
القوانين والقرارات التي يصدق المجلس عليها .

المادة ٣٠ — لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو  
عقارات أو مراكب في الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس  
النواب وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة  
وكل جهة من جهات الحكومة أمرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم حرر  
كشوفات أو تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من  
مجلس النواب يحاكم كمتلس ونرد الحقوق لأربابها .

المادة ٣١ — ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس  
نواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالاكتر .

المادة ٣٢ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الإيرادات مع كشوفات عن كل  
نوع من أنواعها

المادة ٣٣ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم  
منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الإدارة العمومية  
بتلك النظارة .

المادة ٣٤ — لا يجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات البركو المقرر للاستانة أو  
الدين العمومي أو فيما ألزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو  
المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية .

المادة ٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ( بمراعاة  
البند السابق ) ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس  
النظار ورئيسه ليطرحا جميعا في الميزانية ويقرروا بالاتفاق أو بالاكثرية .

المادة ٣٦ — اذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد  
فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان  
أنبت رأى لحته فيكون العمل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة وأما ما حصل  
فيه الخلاف من الميزانية فاذا كان مقررا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصصا

لأعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفد موقتا الى أن يعقد المجلس الثاني  
عقته المادة ٢٣ .

المادة ٣٧ — اذا أبد المجلس الثاني رأي المجلس الاول في أمر الميزانية وجب  
تنفيذ الرأي المذكور قطعيا كما في المادة ٢٣

المادة ٣٨ — كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها  
لا يكون نهائيا الا بعد الاقرار عليه من مجلس النواب مالم يكن على أمر ملغى وارد  
في ميزانية عامة مقرر هذا المجلس وأية مقالة عن أشغال عمومية خارجة عن الميزانية  
أو مبيع شيء من أملاك الحكومة أو اعطاء أرض بدون مقابل أو امتياز لا حد لا تكون  
نهائية الا بعد الاقرار عليها من مجلس النواب أيضا .

المادة ٣٩ — يجوز لكل مصري أن يقدم للمجلس عريضة وبحال النظر في  
هذه العريضة على لحة ينتخبها المجلس وبناء على ما يحكم منها يحكم المجلس بقول  
أو رفض العريضة وما يحكم بقوله بحال على الناظر المختص به ذلك .

المادة ٤٠ — كل عرض يختص بحقوق أو صوالمح شخصية يرفض متى كان من  
خصائص المحاكم المدنية والإدارية وكان لم يسبق تقديمه لجهة الإدارة المختصة به .

المادة ٤١ — اذا طرأت ضرورة مهمة تستلزم المبادرة الى الاخذ بأسباب  
الاحتياط لوقاية الحكومة من خطر أو المحافظة على الأمن العمومي وكان مجلس  
النواب غير معقد وكانت الاحتياطات المرغوب اتخاذها داخلية بخصائصه ولم يسع  
الوقت اجتماعه جاز لمجلس النظار اجراء ما يلزم اجراؤه على مسؤوليته مع التصديق  
على ذلك من الحضرة الحديوية ولدى انعقاد مجلس النواب يقدم الأمر اليه ليرى  
رأيه فيه

المادة ٤٢ — لا يجوز لاي شخص أن يعرض لمجلس النواب مسألة ما أو يناقش  
فيها أو يشترك في المناقشة الا ان كان من اعضائه أو من النظار أو من كان حاضرا  
معه أو نائبا عنهم .

المادة ٤٣ — يكون اعطاء الآراء في المجلس بواسطة رفع اليد أو النداء بالاسم  
أوضح الآراء في صندوق



المادة ٤٤ — لا يجوز اعطاء الآراء بالتدافع بالاسم الا اذا طلب ذلك عشرة من أعضاء المجلس بالاقل وعلى كل حال فالرأي فيما نص عليه المادة السابعة والاربعين يكون دائماً بالتدافع بالاسم .

المادة ٤٥ — انتخاب الثلاثة الاعضاء الذين يعين منهم رئيس المجلس وكذا انتخاب الوكيلين والكتّاب الاول والثاني يكون دائماً بوضع الآراء في صندوق .

المادة ٤٦ — لا تكون المداولات بالمجلس صحيحة الا اذا كان حاضراً فيه ثلثا أعضائه بالاقل والا كانت المداولات لاغية ويكون صدور القرارات بالاغلبية المطلقة .

المادة ٤٧ — كل قرار يترتب عليه مسئولية الطلار لا يجوز صدوره الا بالاغلبية المتوفرة فيها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالحصة .

المادة ٤٨ — لا يسوغ لاحد من النواب أن يستيب عنه غيره لانداء رأيه

المادة ٤٩ — على مجلس النواب أن يحرر لائحة اجراءاته الداخلية وتكون تلك اللائحة نافذة الحكم بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الحديوية

المادة ٥٠ — للمجلس الحق أن يعدل هذه اللائحة الاساسية بالاتفاق مع مجلس الطلار

المادة ٥١ — اذا أغضض معنى بند أو عبارة من هذه اللائحة فيكون تفسيره بانحداد مجلس النواب مع مجلس النظار .

المادة ٥٢ — كل احكام القوانين والاورام والقوانين والقرارات المخالفة لهذه اللائحة لا يعمل بها بل تكون لاغية .

المادة ٥٣ — على نظارنا تنفيذ هذه اللائحة كل فيما يخصه .

صدر سراى الاسمعية في ١٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ و ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

## الملحق السابع

مكاتبات عرابي مع الكونت فرديناند دي لسبس

في أثناء الحرب

لاسيناد ( الهند ) في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٢

— الى المسيو بلنت

سيدي العزيز

أسارع الى الرد على خطابك المؤرخ في ١٧ . لما تقابلنا معا في بداية هذه السنة في مصر حيث كان عرابي وزيرا للحرية ذهبت لازوره مرة في ديوانه وفي أثناء زيارتي اياه كان يحيطه كبراء القاهرة بالاحترام وكان في حوش قصر النيل الواسع جمع كبير من الفلاحين وكانت الفرقة السابقة لفرقة مملوءة بالناس ومن ذلك ظهر لي انه محل تقدير الرأي العام وفي المساء نفسه رأيته بالمرشح بجوق الحديو الى جانب سمحه

وقد قال لي في المحادثة التي حررت بيني وبينه هذه الكلمات بنصها :

« اني أعرف بامسيو دي لسبس انك كنت طول حياتك رجل تقدم وحرية ولست أرغب غير ذلك لبلادي » .

ورأيته بعد ذلك مع الوزراء الآخرين في وثيقة أقيمت « في نيواوتيل » لخاصة الذكرى السنوية لاستقلال امريكا وقد اشترك في شرب نخبة الحديو . وبعد ذلك عدت الى فرنسا ولم أعد الى مصر الا بعد ضرب الاسكندرية ولم تكن بيني وبين عرابي باشا منذ ذلك الى نزول الحيوش الانجليزية في الاسماعيلية سوى العلاقات الموضحة في مكاتباته دون ان تتقابل ولا مرة واحدة .

وهذه المكاتبات العربية التي أرسلت أصولها الى رئيس المجلس الحربي المعقد

ماتقاهرة ، لم يكن لها عرض سوى وقاية القضاة البحرية التي كان عرابي دائما محلها  
في وقايتها وسوى حاية ارواح وأملاك الرعايا الاوروبيين المقيمين في مصر .  
وأرسل اليك الترجمة الفرنسية لتلك الوثائق وهي تشرف موكلك الذي توليت  
الدفاع عنه في كرم نفس .

ويدولى من الصعب ان قائدأ لاحد الجيوش يمكن ان يعرض لعقوبة الاعدام  
بعد ان سلم سيفه لقائد انجليزى منتصر .  
وتقل يا سيدى تأكيد احترامى الفائق الكونت فرديناند دى لسبس

## المرفقات

بورسعيد في ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٢ ( وصل من المعسكر )

الى السيد دى لسبس يبورسعيد

أشكر سعادتك على الجهود النبيلة التي تفصلت بيذلها لاجل مع الجيوش التابعة لسفن  
الدول من الغزول في بورسعيد وكذلك على التشجيع الذي منحتة لسكان هذه  
المدينة والى الاوروبيين لحضهم على البقاء . وهذا متهمى ما يمكن أن أؤمله .  
وتقبلوا أصدق الاحترام لشخصكم الكريم .

وزير الحرية والبحرية

الاسماعيلية في الصباح وصل الساعة ١٢ر٤٥ يوم اول أغسطس سنة ١٨٨٢ آب  
من كفر الدوار

صاحب السعادة صديق المكرم السيد دى لسبس الاسماعيلية

استلقت رسالتك المحررة بالفرنسية وناء على ما جاء فيها كتبنا الى مدير  
بوليس القاهرة لكي يتخذ الاجراءات اللازمة لضمان طمأنينة الاوروبيين الموجودين  
في المستش الاوربي بالعباسية بالقاهرة ولكي تترك لهم الحرية الكاملة في القاء  
او الرحيل . وكتبنا أيضا الى مدير الشرقية ليضاعف عانيته بالاوروبيين الذين في  
الرقابية ويضمن لهم الوقاية الكاملة وانا سعيد بتوطيد علاقات المودة بيننا  
وزير الحرية والبحرية والمعسكر

الاسماعيلية في ٤ (٢) اغسطس سنة ١٨٨٢

الى المسيو فرديناند دى ليس بالاسماعيلية

أتشرف بان أخبر سعادتك بان قومندان السفن الانجليزية بالاسماعيلية أرسل الى قائد قوات هذه المدينة منشورات في النية الصاقها على المحيطان وقد علم بهذا الامر اعضاء المجلس العام الموكل اليه أعمال الحكومة فاتخذ هذا القرار الآتي وأرسلت صورة منه الى قائد قوات الاسماعيلية:

قرر المجلس المجتمع اليوم قصر الليل بان المنشورات التي أرسلت اليك من حاسب قومندان السفن الانجليزية لالصاقها على المحيطان في المدينة ، والتي تنص على ان الاهالي يجب عليهم ان يمشوا في بيوتهم ويغطوا أسماءهم ليست لها أية صلة الرامية لان اصدار المنشورات التي من هذا القبيل من حقوق السلطات المحلية وحدها ولا قيمة لها اذا أتت من سلطة أخرى.

ونحن نقول الى سعادتك هذا الخبر ماء على أمر المجلس واداني احترم جيدة العناية بغاية الدقة خصوصاً وانها أظهر عمل بسجل اسم سعادتك في التاريخ أتشرف بانبلغ سعادتك ان الحكومة المصرية لن تحرق حيدة القناة الا عند الضرورة القصوى وفي حالة قيام الانجليز بعمل عدائي ضد الاسماعيلية او يورسعيد او نقطة أخرى واقعة على القناة وستضطر السلطات المحلية الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع كل عمل عدائي ولكنها لن تكون مسؤولة عن النتائج التي تنجم فيما بعد كما تدركه سعادتك . وانا واثق ان سعادتك ستتخذ أحسن الوسائل لهذه الغاية من قبل ان يلجأ القوم الى شيء من ذلك.

وتفضل بقبول وافر الاحترام

وزير الحرية والبحرية بكفر القوار

الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ ( بدون تاريخ )

الى السيد دى لسبس بالاسماعيلية

علمت من تلغراف وارد الى من قائد الجيوش شعبة بمحسورك مع حرمك وزوج  
ابنتك الى المكان الذى عسكرت به الجيوش وأشركك لحضورك الى هذا المكان  
للثقة والامان الذين يعيشهما ذلك بالنسبة للاسماعيلية والقناة كلها ولعل سعادتك تعلم  
حق العلم ان كل ما نشده ونريده هو الامان والاعمال الطيبة . وسنساعد على ذلك  
من جانبك بعون الله تعالى وتفضل بقبول وافر الاحترام

قائد الجناح الشرقي بالتل

الاسماعيلية الساعة ٤ والدقيقة ١٥ ما. ( بدون تاريخ )

الى السيد فرديناند دى لسبس بالاسماعيلية

أرسل اليك صورة من التلغراف الذى استلمناه من رئيس أركان الحرب للجناح  
الشرقي بالتل الكبير والذى يبرهن لسعادتك على ان الانجليز لا ينجحون  
حيدة القناة

من يعقوب باشا ياور وزير الحربية بقصر النيل

من رئيس أركان الحرب للجناح الشرقي الى سعادة ياور وزير الحربية بالقاهرة:  
نخبر سادتكم انه في يوم الاربعاء الموافق اول شوال سنة ١٢٩٩ غادرنا التل لمعشر  
على جميع القبط التى توجد بها أعمال عدائية ولما وصلنا الى جناح الشلوة على  
أخبار آجاء بها المستكشفون وقد تأكدنا من صدق هذه الاخبار اذ وجدنا ان  
فرقة استطلاع كانت تمر على الشاطئ الشرقي لقناة المياه الحوية فابصرت بالقرب  
من حمة القشرة بعضاً من جنود الاعداء ولما اقترت جنودنا أطلق العدو النار  
ولكنهم قابلوه بشجاعة ففرت فرقة الاعداء الى بركة القنار وقد أسرها رحا -  
وقادوها الى جناح الشلوة ووجدوا بها ١٣٣ من دواب الخيل .

وقد حصل ذلك في اليوم المذكور ومنذ ذلك لم يظهر العدو وأخبار المسكر الشرقي حسنة ولم يعرف عدد الجرحى من الاعداء، وأما من جهتنا فلم يحس أحد .  
ووجدنا من اللازم ان نخبر بهذه الواقعة التي استمرت نحو عشر دقائق  
( بدون امضاء )

في ٢٠ اغسطس سنة ١٨٨٢ بعد الظهر  
من وزير الحرية والبحرية بكفر الدوار الى صاحب السعادة المسيو دي لسبس  
بالاسماعيلية

علمنا من تلتراف أرسله قائد الجناح الشرقي ان الانجليز أطلقوا المنافع من  
برادهم على جيوشنا التي بحجة الاسماعيلية وهذا العمل العدائي من جانب الانجليز  
انتهاك لحومة القناة ونقض لحيدتها . ومصر مستعدة لان تزيل القناة من الوجود لكي  
تدفع الاعمال الحرية التي يقوم بها الانجليز هناك فما هو رأى سعادتك ؟ نؤمل  
ان يصل إلينا جوابك في مدة ٢٤ ساعة . لقد بذلت أكبر الجهود ونحن من جانبنا  
قد احترمنا حيدة القناة حتى اللحظة التي ارتكب فيها الانجليز هذا العدوان مخالفين  
جهودك واحترامنا لحيدة .

الاسماعيلية في ١٥ اغسطس - سنة ١٨٨٢ مساء وارداً من المسكر الى المسيو  
فرديناند دي لسبس

علمنا ان الانجليز يعملون الآن لاقامة حصون بجانب السويس والقناة وان  
آلات الحرب والمدافع الخ تم بالقناة باذن من الشركة . وتشييد هذه الحصون  
ينقض مبدأ الاحترام الواجب للقناة ووجود سعادتك لا بد منه لتتخذ الاجراءات  
اللازمة لمنع هذه الاعمال واحترام حيدة القناة التي لم أسها من جهتي قط حتى اليوم .  
وزير الحرية والبحرية بكفر الدوار

الاسماعيلية في ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢

الى الميودى لبس بالاسماعيلية

علنا الآن من تلغراف ان القناة مهددة مع استعمال القوة ضد شخصك وان  
التلغراف الفرنسى الخاص بالقناة قطع عند السويس وانه منع مرور سفن الدول عند  
بورسعيد والسويس

واذا كانت الامور هكذا فما هى الاحتياطات التى ستخذها؟

وزير الحرية والبحرية بكفر النوار

الى الميودى لبس بالاسماعيلية

( ملحق بالتلغراف نمرة ٧١٧ )

اذا كانت الامور هكذا فما هى الاحتياطات التى ستخذها للدفاع عن حيدة القناة؟

وزير الحرية والبحرية

يوم الاربعاء اول شوال سنة ١٢٩٩ قابلت جنود الاستطلاع التابعة لنا الجنود

الانجليز عند قناة المياه الحلوة وحدثت بين الفريقين موقعة وهذا ما يضطرنا الى رد

هذه القناة مع احترام القناة الكبرى فأعلنت بذلك الوزير

---

## أقرار نينيه الذى أقسم عليه

بشأن الحوادث التى وقعت أثناء الحرب

جون نينيه الذى كان فى الاسكندرية والذى يقيم الآن فى لندن يقول ما يأتى مقسماً على صحته :

لى من العمر خمس وستون سنة وأنا سويسرى الاصل وقد عشت فى مصر مدة اثنتين وأربعين سنة قبل شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢ وقد ذهبت الى مصر لأول مرة بصفة مدير زراعة القطن الخاصة بمحمد على وصرت بعد ذلك تاجراً . ولكنى اعتزلت التجارة منذ عشرين سنة . وفى أثناء إقامتى بمصر وقفت على أحوال الامة وعادتها وصار لى كثير من الاصدقاء المحبوبين ومنهم عرابى بك الذى صار فيما بعد عرابى باشا .

وكنت مقياً فى الاسكندرية قبل أن يضربها الاسطول البريطانى وفى اليوم الذى ضربها فيه وفى صباح هذا اليوم رأيت عدداً من القنابل تمر فوق بيتى وقد دميت بعض القنابل الكبرى وعليها اسم « الاسكندرية » فى المنزل المجاور لمترلى . وثلاثة القنابل التى مرت فوق بيتى قتلت احد عشر شخصاً وجوادين بالقرب من باب محرم بك وقد أحرقت قنابل السفن بيوتا ومبانى ودمرتها فى جميع الجهات . وفى صباح اليوم التالى استأنفت البوارج الضرب فاجابها حصن أو حصنان فى ضعف . ورفع علم أبيض فوق الترسانة وأرسل طلبه باشا الى القومندان البريطانى ليسانه لماذا أعيد الضرب مع أن الحصون سكنت .

وكان جواب الاميرال لطلبه باشا كما قرره هذا لاآخرين بحضورى بأنه لوحظ أن بعض الحصون أصلحت فى أثناء الليل وأنه بسبب اطالة الدفاع فى اليوم السابق قرر الاميرال اطلاق النيران على جميع الحصون بما فيها حصن كوم الذكة ( دمشق ) وحصن كوم الناصورة ( نابلون ) الا اذا سلت له جميع الحصون والعشلاقات . فأوضح له طلبه باشا انه لم يخول له تسليم أى حصن أو عشلاق له دون موافقة وزارة



الحديد وأنه من القسوة أن يضرب حصنا كوم المدكة وكوم الناضورة بعد أن قرر عرابي باشا عدم استعمالها وعدم الدفاع عنها لوقوعها داخل المدينة ولأن الطلقات منها قد تسبب دمار المدينة . فكان الجواب أن البريطانيين لا يمكنهم أن يراعوا ذلك وأنه إذا لم تسلح جميع الحصون والقشلاقات لغاية الساعة الثالثة فيعاود الانجليز الضرب ويدمروها فيبين طله باشا أنه لا يمكنه أن يتخار مع الحديدو ومجمله بالرمل ويأتيه الجواب في الوقت المناسب وذهب طله باشا ولكنه عاد ليسأل عما يفعله البريطانيون إذا لم تسلح الحصون والقشلاقات ولم يبق فيها جنود ليدافعوا عنها فكان الجواب : « سنضربها جميعا وندمرها الا اذا سلت لغاية الساعة الثالثة » . فذهب طله الي الرمل وبقي العلم الايض نفسه يخفق فوق الترساة حين عودته ولم يكن يرى أى علم ابيض آخر وقد ساد الخوف والذعر الاهالي حين علموا أن ضرب المدينة سيعود عند الساعة الثالثة وحدثت مهاجرة عامة من جانب الاهالي والمحيش وفي الساعة الثامنة كت في ميدان القاصل وكان مكتظا بالجنود وبكثير من الضباط المتنازين وكانوا سائرين في انجاء باب رشيد وكان سليمان بك سامي — وهو ضابط أعرفه — يقود الجنود الى باب رشيد بقصد اخلاء مدينة الاسكندرية لآء أمر بتدمير جميع الحصون وضرب القشلاقات بالقنايل في الساعة الثالثة .

وكان آلاف من الاهالي البائسين يغادرون المدينة حاملين أمتعتهم التي أمكنهم قتلها وكانت جثث الجنود القتلى تنقل بعيدا وقد صاح الجمهور حين رأي قاتلا : « اقتلوا هذا الكلب الانجليزى . اقتلوا النصراني » ولحسن الحظ أنت في ذلك الوقت فرقة من الجنود المشاة فانضمت اليها وحنى ونفك نحيوت وفي الساعة الثالثة تقريبا رأيت عرابي باشا وكان يغادر المدينة مع الاورطنين الاوليين متجهين الى القاعة وأرشدني الى الانضمام للاطباء والصليب الاحمر واتابعهم . وقبل ان استطيع الانضمام الى الاطباء سمعت ذئير المدافع من السفن واستمر الضرب نصف ساعة تقريبا ولكنه انقطع لان الحصون لم تعجب

وكان البدو من قبيلة أولاد على قد دخلوا المدينة من القنارى او باب عمود الصوارى فشرعوا ينهايون الحوايت وقد رأيت كثيرين منهم قبض عليهم وجلدوا

بامر سليمان بك سامى اذ حاولوا ان يغادروا المدينة حاملين أسلحتهم . وكان عرابي باشا قد أمر قبل تحريره باغلاق باب المدينة لمنع البدو من دخولها او من مغادرتها باسلاهم وأمرت فرقان من الرديف بالبقاء في المدينة لتحرسا الشوارع الرئيسية وتحفظا الأمن والنظام ولكن الامر باغلاق باب المدينة كان سدى لان جميع الجيود بذلوا كل ما في استطاعتهم ليخرجوا من المكان وكان طلبه باشا بعد الظهر في الرمل يتباحث مع الحديو وكنت طول هذا الوقت في قاعة الطعام الخاصة بالضباط بالقرب من باب رشيد وكان هناك كثير من الباشوات ومن بينهم محمود سامي البارودي ومحمود فهمي وقد غادرت المدينة معهم ومع عدد من الاطباء والضباط عن طريق باب رشيد لكي تلحق بالجيش . وتمت الليلة في بعض القصور بالصواحي وبعد ان تركت المدينة قذفت الريح في أثناء الليل بدخان أزرق من المدينة وانضح من ذلك ان البيران شبت في أمكة مختلفة مسا . ولم يكن في المدينة حريق حين عادرناها ولم يشمل الجيود البار فيها بل بذلوا أكر جهدهم لمنع امتداد الحرائق التي سببتها مدافع الاسطول ولحق العرب وغيرهم من السلب ومن المحتمل ان بعض جيود الفرقين اللتين تركتا لحفظ الأمن والنظام انضوا الى البدو في نهب المكان ولكن هذا كان محالفا عاما لاوامر عرابي باشا والضباط الآخرين .

ويمكن ان أقول مؤكداً ان عرابي باشا أو أي ضابط من الضباط الآخرين ما كان يفكر في ان مدينة الاسكندرية قد تشمل فيها النيران بأيدي العرب او غيرهم وأنا أعرف ان عرابي باشا وجميع الضباط الآخرين حزنوا ودهشوا اذ رأوا المدينة تحترق بعد ان تركوها وأبدوا جميعاً أملهم في ان ذو الفقار باشا يحافظ الاسكندرية وصديق الحديو الحليم سيؤدي كل جهدهم مع رجال المطافي لاختفاء تلك النيران وحفظ الأمن . وأنا أقول في وضوح ان العلم الابيض الوحيد الذي رفع هو العلم الذي كان فوق الثرسانة حين ذهب طلبه باشا الى الاميرال ولم ينزله طلبه باشا اذ ذهب الى الرمل مؤملاً ان يعود بجواب وزارة الحديو ولكن طلبه حمزه الحديو ووزاته بالرمل مع درويش باشا حتى الساعة الخامسة تقريباً ولما عاد الى المدينة كان الجيش قد أحلها فكل من الحال حينئذ انزال العلم . وفي فجر اليوم التالي مشينا

مدة ثلاث ساعات على شاطئ قناة الحمودية ثم ركبنا « لنشاً » بخارياً مع عرابي باشا متجهين نحو كفر الدوار . ووقف بنا عند مكان يسمى عزبة خورشيد باشا حيث عسكر قسم من الجيش وبينما كنا هناك مر قطار به عربات حديدية في طريقه الى الاسكندرية وقال عرابي باشا ان هذا القطار طلب وأمر بإرساله ليقبل الحديو وأسرته الى القاهرة وبعد ان ارتقينا عودة القطار مدة ساعتين جاء تلغراف يقول ان الحديو أدل رأيه ولن يفادر الاسكندرية وقد مكث عرابي باشا تلك الليلة في النش البخارى وبينما كان هالك أنت الانباء عن مذابح وقتى دمنهور وطسطا فأرسل عرابي في الحال ثلاث فرق من الخنود مع أوامر دقيقة لمديرى تلك الامكنة بأن يرسلوا جميع الاوربين دون أجر الى الاسماعيلية وبورسعيد وبان يحومم والا حكم عليهم بالاعدام . وبينما كنت مع عرابي باشا جاء نياً يقول ان احمد بك المذساوى أحد سعاة طسطا خاطر بحياته وأفسد خسمائة من الاوربين المسيحيين واليهود فأرسل عرابي خطاباً خاصاً الى احمد المذساوى شكره فيه لحماية الاوربيين . وأصدر عرابي أمرأ ضمن الاوامر اليومية بأن جميع الاجانب أياً كانوا يجب ان يعاملوا بالاسانية في كل مكان وان تحميهم السلطات المدنية والعسكرية ومن يقصر في ذلك يحكم عليه بالاعدام . وقضى عرابي بنقل هذا الامر الى جميع انحاء القطر ونشره بين أفراد الجيش وأرسل أبصاً الى القاهرة مع تعليمات حازمة خاصة الى « الضابط » او مدير بوليس العاصمة ليعنى بتنفيذه . وان نجاة الاوربين في القاهرة وغيرها ليرجع فضله كله الى عرابي وأنا أعرف ان عرابي أمر برمي ستة وثلاثين من البدو بالرصاص لانهم قتلوا اوريين ونهبوا أملاكهم وكذلك أمر بشق عدد من الاهالي في دمنهور وطسطا لانهم كانوا السبب في مذابح الاوربين وأرسل الاشياء المنهوبة التي أحدها من الناهبين الى القاهرة واذكر ان دى شير أخذ أسيراً فعنى به وعومل بالشفقة وقد اعتنيت بشأنه بإرشاد عرابي

وكنت مع عرابي حين تسلم خطاب الحديو الذى رغب فيه اليه ان يذهب الى الاسكندرية فأجاب عرابي على هذا الخطاب باخبار الحديو انه ، أى عرابي ، في كفر الدوار ليرؤى العمل الذى أمر به مجلس الطار الذى اعتقد بالاسكندرية والذى

حضره الخديو ودرويش باشا وأنه عازم على العمل وفق هذا الامر وعلى تنفيذها بامانة . وكنت أيضاً مع عرابي حين وصل الخطاب الثاني من الخديو وفيه يفصل عرابي من منصب وزير الحرية اعتباراً من يوم ٥ رمضان ويعلن أنه معتبر عاصياً . وقد اجتمع المجلس على أثر ذلك في القاهرة ولم يحضره عرابي ولكن حضره أكثر من ستمائة من الاعيان أوأخصيصاً لهذا الغرض من أنحاء القطر ، وقرر هذا المجلس ان عرابي لا يمكن اعتباره عاصياً إلا بأمر السلطان وان الخديو ليست له هذه السلطة . وقرر أيضاً مواصلة الدفاع الوطني وفقاً لقرار مجلس النظار الذي اجتمع بالاسكندرية بحضور الخديو ودرويش باشا والقدي عهد الى عرابي باشا بالدفاع عن الوطن .

وبعد عشرة أيام أي حوالي العشرين من رمضان والخامس من أغسطس عقد مجلس آخر حين تقرر ان تقطع قناة السويس في أربعة أمكنة هي رأس العش والفتنة وسنبل وشالوف وكان عرابي ومحمود فهمي باشا هما المعارضان لاقتراح قطع القناة وحثا على ان لايفعل ذلك الا اذا أتى الجيش البريطاني عملاً عدائياً من ذلك الجانب وقد أعد كل شيء من الرجال والاجهزة لتدمير القناة في ليلة واحدة بأمر المجلس ولكن اذا التفراف يأتي من دى لسبس في مساء الثاني والعشرين من أغسطس وعلى ذلك سحب التبناميت بناء على أوامر عرابي وصار على العالم ان يحمده لعرابي اقاده قناة السويس .

وكلمنا طلب أحد من عرابي ان يحمي الاوربيين منحهم كل مساعدة لحمايتهم وتأمينهم . وأما أعرف انه منح الاوربيين حمايته بناء على طلب دى لسبس والقتصل الفرنسي وفتصل اليونان بالزقاق وغيرهم وقد صرح هؤلاء القناصل علماً بانهم لا ينادرون هذه البلاد التي عاشوا فيها طويلاً ما داموا لا يخافون شيئاً بفضل رجل متور كعرابي باشا . وكان تحت رياسته ضباط لعلمهم كانوا يعاملون الاوربيين معاملة سيئة لولا أن عرابي عارضهم وضمن قدر استطاعته الحرية والوقاية للجميع . وأتذكر جيداً انه قبل ان يرقيات كلبية أرسلت بشركة التلغرافات الشرقية الى أوروبا وانها أحدثت صروراً بالنا ولذلك كلن في العزم ان يرسل ضابط الى مكتب التلغراف لينع

ارسل البرقيات الجفرية ولكن عرابي رفض ان يؤيد أي تدخل قاتلا ان طائفة التجار تهمه في هذه الحالة بأنه يضر بمصالح التجارة .

وكانت الخطوات التي اتخذها عرابي للدفاع عن بلاده عند الاسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير وغيرها بناء على أمر مجلس النظار الذي عقد في الاسكندرية تحت رئاسة الخديو نفسه وحضره درويش باشا وغيره من رسل السلطان وهذا الامر لم ينته قط . ولما اتخذ عرابي موقفه وانشأ خط الدفاع عند كفر الدوار كان يصل وفق أمر مجلس النواب وكان الشعب المصري يؤيده ويمطف عليه . وكان الاعيان والتجار ورجال السلطات المدنية والدينية يأتون من أنحاء البلاد الى كفر الدوار يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع ليهنئوا عرابي ويشكروه على وطنيته ويقوضوا اليه أمر الدفاع عن الوطن وكانوا كلهم يأخذون حضا من التراب في أيديهم ثم يرمون بها فوق الخنادق دلالة على اشتراكهم في العمل .

وقد رأيت بين هؤلاء الاعيان الذين زاروا المعسكر وشكروا عرابي في كفر الدوار: فخري باشا واحد نشأت باشا مدير الدائرة وجميع اعضاء المحكمة الاهلية والقضاة الوطنيين ووكيل النائب العمومي بالحاكم المختلطة وعثمان فوزي باشا ورؤوف باشا وعرفي باشا ومشارك والعلماء ومفتي الاسكندرية وكثيراً من القريين المتأثرين وكثيراً من الرؤساء وأساقفة الازهر وعددا من افراد أسرة رياض باشا والقدملي باشا وحسن العقاد وكثيراً من العمدة وأصحاب الاملاك وعلى الخصوص احد بك المتشاور الذي أشرت اليه آفا . وقد اكتب الجميع بمبالغ لتغطية نفقات حرب الدفاع ودفع البعض مبالغ هائلة وأعرف منهم قليلين دفع كل منهم عشرة آلاف حقه . وكانت الاموال كلها ترسل الى القاهرة ولا يأتي مباحثي الى المعسكر وانما كلن يرد اليه مقادير من الغذاء والقمح والفاكهة وكان كبار الزائرين يقبلون عرابي ويساقوه . وقد قال له مفتي القاهرة الحرم : « نحن ممثلي أكثر من خمسين ألف من الاعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الاملاك الخ نشكرك جميعا لانك توليت يدك أمر الاسلام والامة وأنت في الحقيقة أكبر وطني في وادي النيل » فقال له عرابي ضمن رده : « اننا لا نريد شيئا سوى العدل الشامل وضمان حياتنا وأشخاصنا واملاكنا وحقوقنا .

يريد برلمان مستقلا ينتخب على أساس الحرية ووزارة مسؤولة وتوحيديا يملك ولا يحكم.  
يريد الاقتصاد الدقيق في الادارة دون مراعاة سياسة ودون مواطنين أجاناب على  
رأس الوزارة يبالغون مرتبات ضخمة . تريد مصر المصريين مع الحرية والامانة  
لكل الاجانب اذا خضعوا مثالا للضرائب والرسوم »

وأقول دون تردد ان عرابي لم ينقل قط السلب والمذايح الى أرض مصر وان  
الامة المصرية وأعابها هم الذين عهدوا اليه بالدفاع عن البلاد، ولم يكن عرابي السبب  
في أن ينهب أو يذبح أي مصري أو أجنبي بل انه على العكس عمل كل ما في وسعه  
ليحوي حياة وأملألك المصريين والاجانب على السواء . ولعاقب جميع الذين ارتكبوا  
جرائم التهب والمذايح .

وقد كنت مع عرابي من اليوم الذي عادر فيه الاسكندرية الى الرابع والعشرين  
من أغسطس اذ سافر ليحلق بالجيش المراتب بالقرب من الاسماعيلية . وقد لحقت  
عرابي بالقاهرة في صباح اليوم التالي للوقعة وعقد اجتماع في بيت عرابي بالقاهرة  
يوم الخميس للبحث في مسألة تسليم القاهرة ففارت فكرة عرابي التي ترمي الى تسليم  
القاهرة دون دفاع وجاء نواب الجنود الانجليزية وصلوا الى العباسية فسألني عرابي  
وطلبه رأيي فيما يجب ان يفعلوا فصصحت لها بان يذهبوا الى القائد البريطاني وسلموا  
له سيفيهما باعتبارهما أسيري حرب فيحبهما شرف انجلترا . وقد تركاني بمنزل  
أولهما وركبوا معاً الى العباسية .

جون نيينه

أقسم على ذلك أمامنا في قاعة بلدية وستمنستر بمقاطعة مدلسكس بانجلترا في  
هذا اليوم العاشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

الامضاءات

وبلى ذلك قصيدة طويطة نظمها المستر دلت في السياسة وشرفها وفي مصر  
وانجلترا . وبلغ عدد أبياتها أرمائه تقريبا وقد نشرت في المجلات سنة ١٨٨٣

## مقتل اسماعيل صديق باشا

قضت ظروف على قلم الترجمة في « اللامع » ، حينما كانت الترجمة تنشر متوالية أن يترك تعريب ما كتبه مستر بلنت في كتابه هذا عن مقتل اسماعيل صديق باشا الملقب بالمفتش ، فاكنتي أن يقول في صفحة ٣٤ : وهنا روى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن . ولذلك نعود هنا فننشر تعريب ما كتبه في هذا الموضوع وهو :

اذكر جيداً ما قاله لي السير رفرز ولسن بشأن أكبر مأساة بين الجرائم الكثيرة التي ارتكها الخديو اسماعيل - وهي قتله اسماعيل صديق المفتش وكان هذا خيانة أثرت أكثر من غيرها في ولاء جماعة الأرقاء والخدم الذين كانوا يحيطون بالخديو ، ولا أقول في ولاء دعايله المصريين لانه قد قد منذ زمن .

ولد اسماعيل صديق في الحزائر وآتي في طفولته إلى مصر وارتفع بكفايته في خدمة الخديو وكانت بداية صلته بالبلاط في عهد عباس وكان يشغل وظيفة رئيس اسطبلاته على ما أطلق . ثم شغل مراكز مختلفة في عهدي سعيد واسماعيل حتى صار أداة اسماعيل في انتزاع آخر قرش لدى الفلاحين . ولكنه رغم قسوته الشديدة على الفلاحين وتفوقه في اشكار الوسائل لنهبهم كانت له في القاهرة شهرة حسنة إلى حد ما لانه كان يعتبر عربياً يحفظ فضيلة الكرم وكان سخياً اليد في تبديد الثروة التي يجمعها . وشغل في السنوات القليلة الأخيرة من حياته مركز وزير المالية وقد برهن دائماً لاسماعيل على أنه خادم مخلص أمين . ولكن بالرغم من هذا خان اسماعيل إلى حد القتل قبل أن يكتب هذا بيضمة أشهر ، وكان ذلك في ظروف تدعو إلى الاشتباه حتى أنها أزعمت الأمة المصرية رغم اعتيادها وقوع الجرائم في الدوائر العليا . وكان الدافع للخديو على ذلك دافعاً أمانياً وهو متر نفسه بمثل التهمة في بعض حوادث المنش التي ارتكها إلى وزيره الذي زاد اخلاصه عن الحد ، ثم ضيان سكونه بقتله والتفصيلات التي ذكرها ولسن كما يلي :

كان اسماعيل في علاقته مع المندوبين الاوربيين الذين كان يدعوهم بين وقت وآخر لفحص شئون المالية ، معتاداً أن يخفي عنهم ما استطاع في الحقيقة في تبذره غير المعقول فقدم أخيراً بمساعدة وزيره اسماعيل صديق يائناً كاذباً عن دهبونه . غير أن الضغط كان شديداً عليه لان بعضهم أوماً الى الاجنة — وأذكر جيداً أنه — رياض باشا — بأن الخديو يخدعها ، فخشي هذا أن تظهر الحقيقة كلها وأن يفضح وزيره بالوقائع اذا ما حققت الاجنة . فعزم على أن يضحي بوزيره ليخلص منه . وتولى هذه المهمة بنفسه . وكانت بينه وبين وزيره صداقة شخصية متينة فكان معتاداً أن يمر عليه أحياناً بعد الظاهر في وزارة المالية ليأخذه معه في عربته الى شبرا أو الى قصر من قصوره . فمر عليه ولم يكن الوزير يرتاب في شيء فركب معه العربا الى قصر الجزيرة وزلا هناك ودخلا . ثم اتحل اسماعيل بعض الاعذار وركب وحده في إحدى القاعات وأرسل اليه ابنه الاصغر حيناً وحسناً وياوره مصطفى بك فهمي واذا بالاميرين يضربان الوزير الاعزل ويدفعان به الى إحدى البواخر الخديوية الراسية بجانب الرصيف . وهناك قتل هذا الرجل المحرم بعد ان قاوم مقاومة عنيفة »

ومن رأيي ولئن أن الفاعل المباشر لهذه الجريمة هو مصطفى بك مؤتمراً بامر الخديو وقد أخبرني بان الحقيقة بانت حينما مرض الباور الشاب بالحمل عتب تلك الفعلة واعترف بها في حديثه . ولكن عندي ما يدعوني الى الاعتقاد بان روايته فيما يتعلق باشتراك مصطفى بك غير صحيحة وان كانت بقية الوقائع قد ثبتت لي . والذي عرفته هو ان مصطفى بك سلم اسماعيل صديق الى اسحاق بك فأت في يده . ولست متأكداً من انه مات في الحال أو بعد حين . ويقول بعضهم ان اسماعيل صديق رمي مثل كثيرين غيره في النيل بعد ان ربط حجر في قدمه . ويقول آخرون انه قتل حياً الى ما بين وادي حلفا ودقه وخفق هناك . ولكن الذي لا شك فيه هو انه لم ير حياً بعد أن رمي به الى ظهر الباخرة . وبعد أسابيع من سير الباخرة في النيل وأعلن رسمياً ان المقتش ذهب الى الصمد لتشيير الهواء وانه اعتاد الحرق هناك فأت .



ومن المؤكد أيضا ان مصطفى بك — وهو شاب معتدل لم يعتد مناظر العنف — ومن أصل جزائري كالفتش — أخافه الدور الذي أمر بلبه فرض على أثره مرضا خطيرا طال به . وهذه التجربة هي التي دعت الى أن يكون ضد سيده بعد سنة من ذلك ، ثم الى أن ينضم لمرابي في باكورة ثورة سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ . وهو مصطفى فهمي الذي شغل منصب رئيس نظام مصر سنين عديدة .

## فهرس الكتاب

- تمهيد بقلم عبد القادر حمزة ..... ١١٠-٣
- نص كتاب التاريخ المصري ..... ٣٤٣-١
- ذيل الكتاب ..... ٤٧٠-٣٤٤
- ١- تاريخ عرابي بقلمه ..... ٣٥٣-٣٤٤
- ٢- تقرير عن بعض حوادث سنة ١٨٨٢ بقلم الشيخ محمد عبده ..... ٤٠٤-٣٥٤
- ٣- تقارير من جون نينيه رفيق عرابي ..... ٤١١-٤٠٤
- ٤- خطابات من عرابي باشا لم تدمج في أصل الكتاب ..... ٤٣٩-٤١٢
- ٥- برنامج الحزب الوطني ..... ٤٤٣-٤٤١
- ٦- خطابات من معتر غلامتون ..... ٤٤٥-٤٤٣
- ٧- الدستور المصري لسنة ١٨٨٢ م ..... ٤٥٤-٤٤٥
- ٨- مكاتبات عرابي مع الكونت فردناند دي لسيهس ..... ٤٦٠-٤٥٥
- ٩- قرار نينيه بشأن حوادث الحرب ..... ٤٦٧-٤٦١
- ١٠- مقتل إسماعيل صديق باشا ..... ٤٧٠-٤٦٨

تنويه - وجدنا في الطبعة الأصلية للكتاب ( طبعة مطبعة البلاغ ) خطأ في ترقيم الصفحات التالية لصفحة ٢٧٢ حيث بدأ الترقيم بـ ٢٦٥ وتبقى الترقيم صحيحا إلى آخر الكتاب؛ فأثرنا تركه كما كان في الأصل وذلك تمهيدا على الباحثين الذين يعتمدون على الطبعة الأولى للكتاب.

# من إصدارات مكتبة الأكراب

